مارسيل بروست مكتبة 4

بحثاً عن الزمن المفقود

سادوم وعامورة

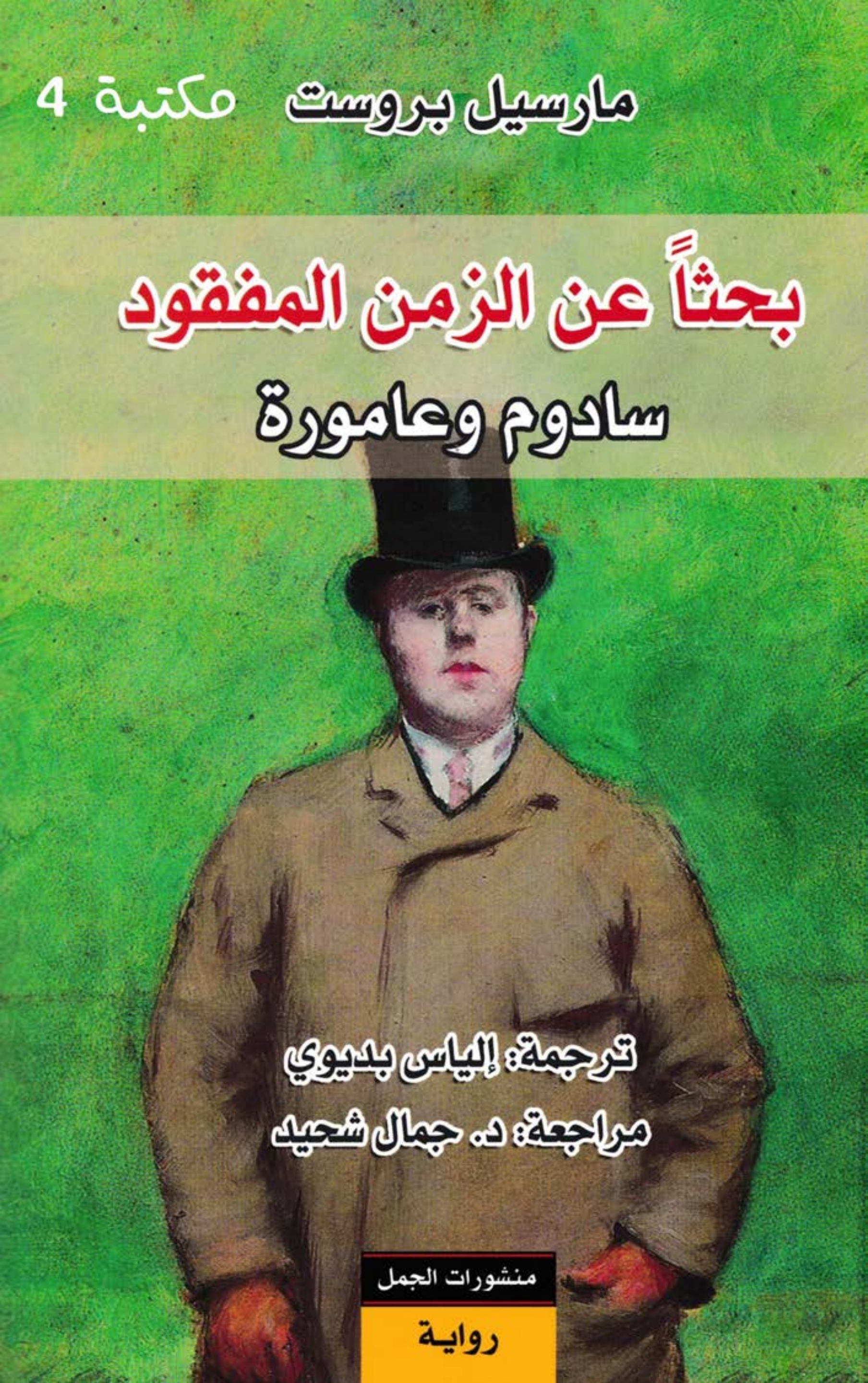

ترجمة: إلياس بديوي

مراجعة: د. جمال شحيد

منشورات الجمل

رواية

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

telegram @soramnqraa

مارسيل بروست

بحثاً عن الزمن المفقود

– 4 –

سادوم وعامورة

الياس بديوي (١٩٣٠-١٩٩٧)، من مواليد قرية المسمية في حوران. حاصل على إجازة في اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة السوربون ١٩٥٦. عُيِّنَ موجّهاً للغة الفرنسية في وزارة التربية السورية (١٩٦٦-١٩٨٣) وأستاذاً للترجمة الفورية في جامعة دمشق. كان عضواً في هيئة تحرير مجلة **الآداب الأجنبية** التي يصدرها اتحاد الكتّاب العرب. له العديد من الترجمات المنشورة، منها: ميشيل كاروج: **أندريه بروتون والمعطيات الأساسية للحركة السريالية** (دمشق، ١٩٧٣)؛ اولفن فنك: **فلسفة نيتشه** (دمشق، ١٩٧٤)؛ آلن تورين: **إنتاج المجتمع** (دمشق، ١٩٧٧)؛ الأجزاء الخمسة الأولى من سباعية مارسيل بروست: **بحثاً عن الزمن المفقود** (دمشق، ١٩٧٧-١٩٩٧).

جمال شحيّد (مواليد عام ١٩٤٢). دكتوراه في الأدب المقارن (السوربون الجديدة، ١٩٧٤). من أعماله النقدية: **في البنيوية التكوينية** (بيروت، ١٩٨٢؛ **الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة** (بيروت، ٢٠١١)؛ **خطاب الحداثة في الأدب. الأصول المرجعية** (دمشق، ٢٠٠٥). بعض مترجماته: **رحلة لامارتين إلى الشرق** (الكويت، ٢٠٠٦)؛ الجزآن الأخيران من سباعية **بحثاً عن الزمن المفقود** لمارسيل بروست (القاهرة، ٢٠٠٣-٢٠٠٥)؛ كلاريس هيرينشميدت: **الأبجديات الثلاث، اللغة والعدد والرمز** (البحرين، ٢٠٠٧)؛ دومينيك أورفوا: **المفكرون الأحرار في الإسلام** (بيروت، ٢٠٠٨)؛ جاك لوغوف: **التاريخ والذاكرة** (بيروت، ٢٠١٧)؛ مارسيل بروست: **المسرات والأيّام** (أبو ظبي، ٢٠١٤). جورج فيغاريلّو: **تاريخ الجمال** (بيروت، ٢٠١١). ادغار موران: **المنهج** (الجزآن الثالث والرابع) (بيروت، ٢٠١٢). جيل دولوز: **سينما (الصورة الحركة، الصورة الزمن)** (بيروت، ٢٠١٤-٢٠١٥).

مارسيل بروست

مكتبة
t.me/soramnqraa

بحثاً عن الزمن المفقود

- 4 -

سادوم وعامورة

رواية

ترجمة: إلياس بديوي

مراجعة: د. جمال شحيد

منشورات الجمل

مكتبة
t.me/soramnqraa
27 7 2024

مارسيل بروست
بحثاً عن الزمن المفقود – 4: سادوم وعامورة، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: إلياس بديوي، مراجعة: د. جمال شحيد
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٩
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨/١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

Marcel Proust: *A La recherche du temps perdu IV: Sodome et Gomorrhe*, 1922-1923

© *Al-Kamel Verlag* 2019
Postfach 1127 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

القسم الأول

أول ظهور للرجال - النساء. هم من نسل الذين وفّرتهم نار السماء من سكّان سادوم.

«فللمرأة عامورة وللرجال سادوم»
(ألفريد دو فينيي)

معلوم أني قبلما مضيت في ذلك اليوم (اليوم الذي أقيمت فيه أمسية الأميرة «دو غيرمانت») لأقوم بزيارة الدوق والدوقة التي جئت على روايتها، كنت ترصّدت عودتهما واتّفق لي، في أثناء فترة ترصّدي، اكتشاف يتّصل على وجه الخصوص بالسيد «دو شارلوس»، ولكنّه هامّ في حدّ ذاته إلى حدّ أني أرجأت روايته إلى الآن وحتى الفترة التي يسعني فيها أن أخصّه بالمكان والمساحة المتوخّيين. وكنت، كما قلت، قد تخلّيت عن الإطلالة الرائعة المعدّة إعداداً مريحاً إلى حدّ بعيد في أعلى المنزل، ومنها تحيط العين بالسفوح المتموجة التي تصعد عبرها حتى فندق «بريكينيي» والتي يزيّنها زينة تبهج العين على النحو الإيطالي البرج الوردي الذي يعلو المستودع العائد للمركيز «دو فريكور». وكنت رأيت أقرب إلى الواقع، حينما ظننت الدوق والدوقة على وشك العودة، أن أتخذ موقعاً على الدرج. وقد داخلني بعض الأسف على مقامي في الأعالي. ولكنما كان لديّ في تلك الساعة، وهي ساعة ما بعد الغداء، القليل مما آسف له، فلعلّني ما كنت رأيت، شأني في الصباح، أشخاص اللوحات الصغيرين

جداً الذين ينقلب إليهم عن بعد خدّام فندق «بريكيني» و«تريم»، يتسلقون الهوينى السفح الوعر وبيدهم منفضة، بين أوراق البلق العريضة الشفافة التي تبرز بروزاً حلواً على أكتاف الجبال الحمراء. ولئن فاتني تأمّل الجيولوجي فقد حزت على الأقل تأمّل عالم النبات وكنت أنظر عبر منافذ الدرج شجيرة الدوقة والنبتة الثمينة المعروضتين في الباحة بمثل الإلحاح الذي نبديه في إرسال الشبان الذين حان زواجهم في نزهات، وكنت أتساءل إن كانت الحشرة غير المحتملة سوف تجيء بفعل مصادفة من صنع العناية الإلهية لزيارة المدقّة التي تُقدَّم ذاتها وتُهْمَل في آن. وإذ بعث فيّ الفضول جرأة تتنامى شيئاً فشيئاً انحدرتُ حتى نافذة الطابق الأرضي المفتوحة بدورها وكانت مصاريعها نصف مغلقة. كنت أسمع بوضوح «جوبيان» وهو يستعدّ للرحيل، وما كان يستطيع اكتشافي خلف ستارتي حيث مكثت لا حراك بي إلى حين ارتميت جانباً على نحو مفاجئ مخافة أن يراني السيد «دو شارلوس» الذي كان يجتاز الباحة وهو يمضي الهوينى في طريقه إلى منزل السيدة «دو فيلباريسيس» بطيناً متشيباً يزيده وضح النهار شيخوخة. لقد انبغى أن تُلِمَّ وعكة بالسيدة «دو فيلباريسيس» (نتيجة لمرض المركيز « دو فييربوا» الذي كان شخصياً على خلاف قاتل وإياه) كيما يقوم السيد «دو شارلوس»، ربما لأول مرة في حياته، بزيارة في تلك الساعة. ذلك لأن البارون بهذا التفرد الذي يطبع آل «غيرمانت» إذ يعدّلون في الحياة المجتمعية، بدلاً من التقيد بها، وفق عاداتهم الشخصية (وهي غير مجتمعية فيما يعتقدون. وإنها أهل بالتالي لأن يُذلّ أمامها هذا الشيء الذي لا قيمة له، يعني حياة المجتمعات - من ذلك أن السيدة «دو مارسانت» ما كان لها يوم محدد، ولكنها تستقبل صديقاتها كل صباح من العاشرة إلى الظهر)، كان يحتفظ بهذا الوقت للقراءة والبحث عن التحف العتيقة، إلخ.، ولا يقوم البتة بزيارة إلا ما بين الرابعة والسادسة مساءً. وفي السادسة كان يمضي إلى مركز الفروسية أو للتنزه في «الغابة». وقمت بعد لحظة بحركة ارتدادية كي لا يبصرني «جوبيان»، فعمّا قليل ساعة انطلاقه

إلى المكتب الذي لا يعود منه إلا للعشاء، وهو حتى لا يفعل دائماً منذ أسبوع انقضى على ذهاب ابنة أخيه بصحبة المتدربات عندها إلى الريف بغية إنجاز فستان في منزل واحدة من زبائنها. ثم عزمت، وقد تبيّنتُ أن ليس من يستطيع مشاهدتي، أن لا أكلّف نفسي عناءً من بعد مخافة أن أفوّت عليّ، إنْ وقعت المعجزة، الوصول الذي يكاد يكون الأمل فيه مستحيلاً (عبر الكثير من العقبات والبعد والمخاطر المعاكسة والأخطار)، وصول الحشرة المرسلة من البعيد البعيد إلى العذراء التي تطاول انتظارها منذ فترة طالت. كنت أعلم أن ذاك الانتظار لم يكن أكثر سلبية منه عند الزهرة الفحل التي استدارت أسديتها تلقائياً كي تستطيع الحشرة استقبالها بيسر أكبر. كذلك هو شأن الزهرة الأنثى التي كانت هنا، فلعلها كانت تقوّس «حاملات سماتها»، إن جاءت الحشرة، وتقطع بحركة تخفى على الملاحظة، بغية أن تدع لها أن تغلّ فيها بصورة أفضل، مثلها مثل شابة ماكرة ولكنها متقدة العاطفة، نصف الطريق إليها. إن قوانين عالم النبات إنما تحكمها بدورها قوانين أكثر فأكثر سموّاً. ولئن كانت زيارة الحشرة، ونعني جلب بذرة زهرة أخرى، ضرورية بعامة لتلقيح الزهرة فلأن التلقيح الذاتي، تلقيح الزهرة نفسها بنفسها، قد يحمل معه، كما هي الزيجات التي تتكرر في الأسرة ذاتها، انحطاط النوع والعقم في حين يَهَبُ التهجين الذي تقوم به الحشرات، يَهَبُ الأجيال اللاحقة من النوع نفسه زخماً تجهله الأجيال السابقة. ولكنّ هذه الانطلاقة ربما تجاوزت الحدّ فتنامى بها النوع تنامياً مفرطاً. وإذ ذاك مثلما مضاد السُّمية يدفع المرض، ومثلما الغدّة الدرقية تنظم كرشنا وتشكل الهزيمة عقاباً للكبرياء والتعب للمتعة، ومثلما يريح النوم بدوره من التعب هكذا يجيء فعل تلقيح ذاتي استثنائي في الوقت المناسب ليشد البراغي والمكابح فيعيد إلى القاعدة السوية الزهرةَ التي سبق أن حادت عنها بما يجاوز الحدّ. كانت أفكاري قد اتبعت منحى سوف أصفه فيما بعد وكنت استخلصت مذ ذاك من تحايل الأزهار الظاهر نتيجة تنسحب على قسم لاواعٍ من الأعمال الأدبية حينما أبصرت

السيد «دو شارلوس» خارجاً من منزل المركيزة. ولم يكن انقضى منذ دخوله إلا بضع دقائق. فربما علم من قريبته العجوز نفسها أو من أحد الخدّام فحسب التحسّن الكبير أو بالأحرى الشفاء التام مما لم يكن لدى السيدة «دو فيلباريسيس» سوى مجرد وعكة. كان السيد «دو شارلوس» في هذه اللحظة التي لا يَحْسَبُ أحداً يراه فيها وقد أسدل جفنيه صوب الشمس، كان قد راخى على وجهه هذا التوتر وأطفأ هذه الحيوية المصطنعة اللذين تستبقيهما عنده حرارة الحديث وقوة الإرادة. كان شاحباً كقطعة مرمر، كبير حجم الأنف، وقسماته الرقيقة لا تزوّدها من بعد نظرة حازمة بدلالة مختلفة يمكن أن تشوّه جمال خطوطها. كان يبدو، ولا شيء فيه من بعد إلا لآل «غيرمانت»، وقد نُقش مذ ذاك، هو «بالاميد» الخامس عشر، في كنيسة «كومبريه». ولكنّما كانت تلك القسمات العامة لكامل الأسرة تتخذ في وجه السيد «دو شارلوس» رهافة أكثر روحانية وأكثر عذوبة على وجه الخصوص. وكنت آسف له أن يزيّف عادة بهذا القدر من صنوف العنف والغرابات المزعجة وأشكال القيل والقال والقسوة وسرعة التأثر والصلف، أن يخفي خلف فظاظة مستعارة الوداعة والطيبة اللتين أراهما تنداحان على وجهه بهذا القدر من البساطة ساعة يغادر منزل السيدة «دو فيلباريسيس». كان يبدو، إذ ترفّ عيناه صوب الشمس، وكأنه يكاد يبتسم وألفيت في وجهه، وقد برز لي مرتاحاً وكأنما على طبيعته، شيئاً من المودة والسكينة بلغ حداً لم أستطع معه الحؤول دون أن أفكر كم لعل السيد «دو شارلوس» كان سيغضب لو أمكن أن يعلم أنه مراقب. ذلك لأن ما كان يذكّرني به هذا الرجل الذي كان مولهاً إلى حد بعيد، الذي كان يباهي إلى أبعد حدّ بالفحولة والذي يبدو له الجميع مخنثاً على نحو بغيض، ما كان يدفعني إلى التفكير به فجأة لشدة ما يحمل منه بصورة عابرة القسمات والتعبير والابتسامة، إنما كان امرأة.

كنت أهم بتكليف نفسي عناء جديداً كي لا يستطيع مشاهدتي، فلم يتسع لي الوقت ولا ظلت بي حاجة. فما الذي رأيته! وجهاً لوجه، في

هذه الباحة التي لم يلتقيا بالتأكيد يوماً فيها (إذ لا يجيء السيد «دو شارلوس» إلى فندق آل «غيرمانت»، إلا بعد الظهر ساعة يكون «جوبيان» في مكتبه، كان البارون بعدما فتح عينيه وسعهما، وكانتا نصف مغلقتين، ينظر بانتباه شديد على صانع الصداري القديم على عتبة دكانه فيما تسمّر هذا الأخير فجأة في مكانه أمام السيد «دو شارلوس» وهو ينغرس مثلما النبتة ويتأمل باندهاش كرش البارون المتشيخ. ولكن الأمر الأكثر غرابة أن وقفة «جوبيان» بعدما تغيّرت وقفة السيد «دو شارلوس»، شرعت في الحال تنسجم معها وكأنما وفق قوانين فن خفي فالبارون الذي يحاول الآن إخفاء الانطباع الذي أحس به ولكنه يبدو، على الرغم من لامبالاته المتكلفة، وكأنه يبتعد آسفاً، كان يذهب ويجيء وينظر في الفراغ بالطريقة التي يظن أنها تبرز أفضل ما تبرز جمال حدقتي عينيه، ويتخذ هيئة مزهوة مهملة مضحكة. فكان أن فقد «جوبيان» في الحال الهيئة المتواضعة الطيبة التي عهدتها دائماً فيه ووقف منتصب الهامة - يناظر بذلك البارون تماماً - وهو يولي قامته هيئة مستكبرة ويضع قبضته على خصره بوقاحة بشعة ويبرز قفاه ويتخذ أوضاعاً بالغنج الذي لعل زهرة الأوركيدا كانت تبديه إزاء الدبور الذي طلع فجأة غير متوقع. وما كنت أعلم إمكان أن يبدو منفراً إلى هذا الحد. ولكني كنت أجهل كذلك أنه قادر أن يقوم على نحو مفاجئ بدوره في هذا النوع من مشهد الأبكمين الذي يبدو (مع أنه يقف للمرة الأولى في حضرة السيد «دو شارلوس») أنه جرى تكراره فترة طويلة. - وليس يبلغ المرء تلقائياً هذا الكمال إلا حينما يلتقي في بلاد الغربة مواطناً له يجري التفاهم إذ ذاك معه من تلقاء ذاته إذ الوساطة متماثلة، ودون أن يكون أحدهما رأى الآخر في يوم.

لم يكن هذا المشهد على أي حال مضحكاً على نحو إيجابي فلقد كانت تطبعه غرابة، أو إن شئت فطرة، كان جمالها آخذاً في التنامي. فعبثاً كان السيد «دو شارلوس» يتخذ هيئة المتجرد، ويخفض جفنيه ساهياً، لقد كان يرتفع بهما بين الحين والحين ويلقي إذ ذاك على «جوبيان» نظرة

فاحصة. لكنّما (ولأنه كان يظن دونما شك أنه لا يمكن لمشهد كهذا أن يتطاول إلى ما لا حدود في هذا المكان، إما لأسباب سوف ندركها فيما بعد، وإما من منطلق هذا الإحساس بقصر الأشياء جميعها والذي يجعلنا نبتغي سداد كل ضربة نضربها ويجعل مشهد أي حبّ مؤثراً إلى هذا الحدّ) كان السيد «دو شارلوس» يتدبر أمره في كل مرة ينظر فيها إلى «جوبيان» كي تترافق تلك النظرة وكلمة ما، وهو ما كان يجعلها مختلفة إلى ما لا حدود عن النظرات التي نلقيها عادة على شخص نعرفه أو لا نعرفه. كان ينظر إلى «جوبيان» محدّقاً تحديق من يزمع أن يقول لك: «أستميحك عذراً لتطفلي، ولكني أرى خيطاً أبيض طويلاً عالقاً على ظهرك» أو «لا بدّ أني غير مخطئ فإنك حتماً من «زوريخ» أنت أيضاً ويبدو أني بالتأكيد التقيتك كثيراً لدى بائع الآثار». على هذا النحو كان يبدو السؤال نفسه، كل دقيقتين، موجهاً بتركيز شديد إلى «جوبيان» في غمزة عين السيد «دو شارلوس»، كمثل جمل «بيتهوفن» الاستفهامية تلك التي تتردد تردداً غير محدود على فترات متساوية والتي تُعِدُّ - بفيض مفرط من التحضيرات - لبروز فكرة جديدة، وتبدل في النغمة، و«عودة لحن». إلا أن جمال نظرات السيد «دو شارلوس» و«جوبيان» كان ناجماً بالعكس من أن هذه النظرات ما كان يبدو، على الأقل مؤقتاً، أنها تهدف إلى الإيصال إلى شيء. وإنما كنت أرى البارون و«جوبيان» للمرة الأولى يكشفان عن ذاك الجمال. ففي عينَي كل منهما طلعت منذ قليل لا سماء زوريخ، بل سماء مدينة شرقية لم أحزر بعد اسمها. وأياً تكن النقطة التي كان يمكن أن تستوقف السيد «دو شارلوس» وصانع الصداري فقد كان يبدو أن الاتفاق بينهما قد أبرم وأن ليست تلك النظرات اللامجدية سوى توطئات طقسية شبيهة بالحفلات التي تقام قبل زواج مقرر. لكأنهما، إن اقتربنا أكثر من الطبيعة - وإن كثرة وجوه التشبيه إنما يزيد من كونها طبيعية أن ذات الرجل إن تفحصته على مدى بضع دقائق بدا لك على التوالي رجلاً أو رجلاً طائراً، أو رجلاً حشرة، إلخ. - لكأنهما طائران، ذكر وأنثى يحاول الذكر

التقدم فيما لا تستجيب الأنثى - «جوبيان» - من بعد بأية إشارة لهذه المناورة ولكنها تنظر إلى صديقها الجديد دونما استغراب، نظرة ثابتة ساهية تحكم دونما شك أنها أكثر إثارة ومجدية وحدها، بما أن الذكر قام بالخطوات الأولى، فتكتفي بصقْل ريشها. وبدا أخيراً أن لااكتراث «جوبيان» لم يعد كافياً له، ولم يظل بين يقينه أنه استمال أحدهم وحمله على ملاحقته واشتهائه سوى خطوة يخطوها، وخرج «جوبيان»، وقد قرر الذهاب إلى عمله، من البوابة الرئيسية. على أنه لم ينطلق إلا بعدما أدار رأسه مرتين أو ثلاثاً إلى الشارع حيث اندفع البارون بقوة، وهو يرتعد مخافة أن يفقد أثره (ويصفّر بعنترية دون أن يغفل أن يقول للبواب صائحاً «إلى اللقاء»، ولكن هذا الأخير لم يسمع حتى ما قال، وهو نصف ثمل يقدم طعاماً لمدعوين في الركن القصي من مطبخه). وفي اللحظة نفسها التي اجتاز فيها السيد «دو شارلوس» البوابة الرئيسية وهو يصفر مثل دبور كبير دخل آخر، وكان حقيقياً، إلى الباحة. ومن ذا يعلم إن لم يكن ذاك الذي انتظرته زهرة الأوركيدا منذ زمن طويل وهو يقبل الآن حاملاً إليها الطلع النادر جداً الذي ربما مكثت عذراء بدونه؟ ولكنني سهوت عن متابعة لهو الحشرة، ذلك لأن «جوبيان» استرعى انتباهي أكثر فقد عاد (ربما ليأخذ رزمة حملها فيما بعد وكان نسيها من جراء الانفعال الذي سببه له ظهور السيد «دو شارلوس»، وربما لمحض سبب أقر أن يكون طبيعياً) يتبعه البارون. وقد سأل هذا الأخير، بعدما صمم على تسريع الأمور، سأل صانع الصداري ناراً ولكنه لاحظ في الحال: «إني أسألك ناراً ولكني أرى أني نسيت علبة «السيكار»». وتغلبت قوانين الضيافة على قواعد الدلال؛ وقال صانع الصداري الذي حل الفرح على محياه محل الازدراء: «ادخل وسوف تعطى كل ما تشاء». وانغلق باب الدكان عليهما ولم يسعني سماع شيء من بعد. وكنت قد ضيعت الدبور وما كنت أعلم إن كان الحشرة المناسبة لزهرة الأوركيدا ولكني ما عدت أشك، في ما يخص حشرة شديدة الندرة وزهرة سجينة، بإمكان اقترانهما بأعجوبة، في حين أن السيد

«دو شارلوس»، (والأمر محض تشبيه للمصادفات التي من فعل العناية الإلهية، أية كانت، ودون أقل ادعاء علمي بتقريب بعض قوانين علم النبات مما يسمونه أحياناً وبئست التسمية، اللواطة)، وما كان يرتاد منذ سنوات هذا المنزل إلا في ساعات لا يكون فيها «جوبيان» هناك. كان قد التقى، بمصادفة وعكة ألمّت بالسيدة «دو فيلباريسيس»، صانع الصداري ومعه الحظ السعيد الذي يدّخره لأناس من صنف البارون أحد هؤلاء الأفراد الذين يمكن أن يكونوا أوفر شباباً إلى ما لا حدود من «جوبيان» وأكثر جمالاً، الرجل المقدر سلفاً كيما يحصل هؤلاء على حصتهم من الملذات على هذه الأرض، الرجل الذي لا يحب سوى المسنين.

ما جئت على ذكره هنا على أية حال هو ما كنت لن أدركه إلا بعد بضع دقائق لشدة ما تلتصق بالواقع هذه الخصائص في أن يكون لامرئياً، إلى أن تجرّده منها مناسبةٌ ما. لقد كنت في تلك اللحظة على أية حال في أشد الإنزعاج لعدم سماعي من بعد حديث صانع الصداري السابق والبارون. ولمحت حينذاك الدكان المعروضة للإيجار والتي يفصلها عن دكان «جوبيان» محض قاطع رقيق جداً. وما كان عليّ لبلوغ المكان سوى معاودة الصعود إلى شقتنا والذهاب إلى المطبخ والانحدار إلى درج الخدمة إلى الأقبية والمرور فيها من الداخل على كامل عرض الباحة ثم بعدما أصل في القبو إلى المكان الذي كان نجار الموبيليا يحشر فيه أخشابه منذ بضعة شهور مضت وحيث كان يعتزم «جوبيان» خزن فحمه، وصعود الدرجات القليلة التي تفضي إلى داخل الدكان. وهكذا أُتِمّ قطع كامل طريقي غير مكشوف ولا يراني أحد. كانت تلك الوسيلة الأوفر حذراً ولم تكن تلك التي تبنّيتها بل سرتُ بمحاذاة الجدران ودرتُ في الهواء الطلق حول الباحة أجهد ألا يراني أحد. وإن لم يقع ذلك فظنّي أني أدين بالأمر للمصادفة أكثر منه لتعقّلي. وإني أرى ثلاثة أسباب ممكنة، على افتراض أن ثمة سبباً، لاتخاذي قراراً متهوراً إلى هذا الحدّ حين كان السير في القبو بمثل ذاك الأمان. نفاد صبري أولاً، وربما بعد ذلك تذكّر

غائم للمشهد في «مونجوفان». وأنا أختبئ أمام نافذة الآنسة «فانتوي». والواقع أن الأمور التي شهدتها من هذا القبيل حملت دائماً في إخراجها الطابع الأكثر تهوراً والأقل حقيقة، كما لو انبغى أن لا تكافئ مثلُ هذه الإفشاءات سوى فعلة مليئة بالمخاطر مع أنها تجري في جزء منها في الخفاء. وأخيراً أكاد لا أجرؤ على الإقرار بالسبب الثالث الذي كان في اعتقادي التام حاسماً على نحو لاشعوري، وذلك من جرّاء طابعه الصبياني. فمنذ أن تابعت بكثير من التفصيل حرب «البوير»، كيما أقتفي آثار مبادئ «سان لو» العسكرية - وأشهد كذبها - رأيتني مرغماً على إعادة قراءة قصص قديمة عن الاكتشافات والرحلات. وقد شُغفت بتلك القصص فكنت أطبّقها في الحياة العادية كي أبعث في نفسي مقداراً أكبر من الشجاعة. فحينما أرغمتني بعض النوبات على المكوث عدة أيام وعدة ليال وقد حُرِمتُ لا النوم فحسب بل الاستلقاء والشراب والطعام وحين يبلغ الإنهاك والعذاب مبلغاً أتصور معه أني لن أتخطاهما في يوم، حينذاك كنت أفكر بذاك المسافر الملقى على رمل الشاطئ وقد سمّمته الأعشابُ الضارة، وأرجفته الحمى في ثيابه التي بلّلها ماء البحر، والذي كان يحس مع ذلك أنه تحسن بعد انقضاء يومين فيعاود المسير على غير هدى باحثاً عن سكان أي سكان وربما كانوا من آكلي لحوم البشر. كان مثالهم يشدّ من عزائمي ويردّ لي الأمل فأخجل أن ألمّت بي ساعةُ تخاذل. وإذ أفكر بالبوير الذين ما كانوا يخشون، والجيوش الإنكليزية في مواجهتهم، أن يعرّضوا أنفسهم حينما ينبغي لهم أن يجتازوا أجزاء من الأرض المكشوفة قبل بلوغ دغل من الشجر، كنت أفكر قائلاً: «ما أحلى أن أكون رعديداً أكثر منهم حينما مسرح العمليات مجرّد باحتنا وحينما السيف الوحيد الذي يفترض أن أخشاه، أنا الذي اتّفق لي منذ فترة قريبة عدّة مبارزات دون أن ينتابني خوف بسبب قضية «دريفوس»، هو عيون الجيران الذين ليس لديهم اهتمامات غير النظر في الباحة».

ولكن حين أصبحتُ في الدكان، وأنا أتفادى إحداث أية قرقعة في

الأرضية الخشبية إذ تبيّنت أنّ أضعف ضجة في دكان «جوبيان» كانت تُسمع في دكاني، فكرت كم كان «جوبيان» والسيد «دو شارلوس» قليلي الحذر، وكم كان الحظ إلى جانبهما.

وما كنت أجرؤ على الحركة. لقد سبق بالتأكيد أن نقل سائس آل «غيرمانت»، مستغلاً دونما شك غيابهم، إلى الدكان التي أقف فيها سلّماً رُكِنَ حتى ذاك في المرآب. ولو ارتقيته لأمكنني أن أفتح الكوة وأسمع كما لو كنت عند «جوبيان» بعينه. ولكنّي كنت أخشى أن تصدر عني ضجة. وكان ذلك غير مُجدٍ بأي حال، فلم يقع عليّ حتى أن آسف لوصولي بعد بضع دقائق إلى دكاني. فإني أفترض، حسبما سمعت بادئ الوقت في دكان «جوبيان» وكان مجرّد أصوات مغمغمة، أن القليل من الكلمات جرى النطق بها. صحيح أن هذه الأصوات بلغت من العنف مبلغاً ربما أمكنني الظنّ معه، لو لم تكن استعيدت على الدوام في خانة الجواب بأنّةٍ موازية، أن شخصاً كان يذبح آخر في جانبي وأن القاتل والضحية التي بُعِثَتْ حية كانا يستحمان بعد ذلك ليمحوا آثار الجريمة. وخلصتُ فيما بعد إلى أن ثمة أمراً بمثل صخب العذاب هو اللذة ولا سيما إن انضافت إليها - في غياب الخوف من مجيء الأطفال، والأمر غير وارد هنا على الرغم من مثال «**الأسطورة الذهبية**» - اهتمامات مباشرة بالنظافة. وأخيراً، وبعد انقضاء نصف ساعة تقريباً (كنت في أثنائها قد ارتقيت سلّمي أختلس الخطى كي أنظر عبر الكوة التي لم أفتحها)، بوشر بالحديث. كان «جوبيان» يرفض بقوة المال الذي يبتغي السيد «دو شارلوس» أن يعطيه إياه.

ثم خطا السيد «دو شارلوس» خطوة خارج الدكان. «لِمَ ذقنك محلوق على هذه الشاكلة، يقول للبارون بلهجة مغناجة، فما أجملها اللحية الجميلة!» فأجاب البارون: «تُفاً له! يا للقرف». وكان لا يزال يتباطأ على عتبة الباب ويسأل «جوبيان» معلومات حول الحي. «تراك لا تعلم شيئاً عن بائع الكستناء في الحي، لا إلى اليسار، فما أشنعه، بل في الجانب

الزوجي، عتريس ضخم أسود تماماً؟ والصيدلاني في الجهة المقابلة لديه درّاج لطيف جداً يحمل أدويته». وليس من شك أن «جوبيان» استاء من تلك الأسئلة، فقد أجاب وهو ينتصب بامتعاض امرأة مغناج مخدوعة: «يخيّل إليّ أنك تحمل فؤاداً متقلباً». ولا بد أن هذا العتاب الذي أُلقي بلهجة وجعى باردة متكلفة أثّر في السيد «دو شارلوس» الذي وجّه إلى «جوبيان» كيما يغطي على الانطباع السيّئ الذي خلّفه فضوله، ولكنّما فعل بصوت أخفض من أن أميّز تماماً الكلمات، رجاءً ربما استلزم دون شك أن يطيلا إقامتهما في الدكان وأثّر إلى حد في صانع الصداري كيما يزيل ألمه، إذ تأمّل وجه البارون السمين المحتقن تحت شعره المتشيّب تأمل غارق في السعادة أقدم منذ قليل على دغدغة اعتزازه بنفسه، وقال «جوبيان»، وقد عزم على منح السيد «دو شارلوس» ما سبق أن سأله إياه منذ قليل، قال للبارون، بعد ملاحظات خلو من الكياسة من مثل: «ما أضخمها أداة تحملها!» بهيئة بائسة بادية التأثر متفوّقة ممتنّة: «أجل، هيّا، أيها الصبي الكبير!».

وعاد السيد «دو شارلوس» يقول بإصرار: «إن كنت أعود إلى مسألة سائق الحافلة الكهربائية فلأن ذلك، بصرف النظر عن كل شيء، يمكن أن يأتي ببعض الفائدة بشأن العودة. فإنه يتفق لي، شأن الخليفة الذي كان يطوف في بغداد ويظنّونه مجرّد تاجر، أن أتنازل للحاق بشخصية غريبة فتيّة أشاع قدّها السرور في نفسي». وقمت هنا بالملاحظة عينها التي سبق أن وجّهتها حول «بيرغوت». فلو وقع عليه في يوم أن يقدم إجابة أمام المحكمة لما استخدم جملاً من شأنها إقناع القضاة، بل ينتقي من تلك الجمل «البيرغوتية» التي يوحي بها إليه مزاجه الأدبي الخاص بصورة طبيعية وتجعله يصادف متعة في استخدامها. كان السيد «دو شارلوس» على نحو مماثل يستخدم مع صانع الصداري اللغة عينها التي لعله لجأ إليها مع أرباب مجتمع مع عصبته، بل يبالغ في المستغرَبِ من عاداتها، إما لأن الوجل الذي يجهد في مكافحته كان يدفعه إلى عجرفة مفرطة، وإما لأنه

يرغمه، إذ يحول دون أن يتمالك نفسه (لأنك أكثر اضطراباً في حضرة من ليس من وسطك)، على الكشف عن طبيعته وتعريتها، وكانت بالحقيقة مستكبرة وعلى شيء من الجنون، حسبما تقول السيدة «دو غيرمانت». وأردف يقول: «وكي لا أفقد أثرها أقفز على غرار أستاذ صغير، على غرار طبيب فتيّ وسيم، في ذات الحافلة التي تستقلّها الشخصية اللطيفة التي لا نتحدث عنها بصيغة التأنيث إلا اتّباعاً للقاعدة (مثلما نقول في حديثنا إلى أحد الملوك[1]: هل تشعر جلالتكم أنها بصحة جيدة؟). فإن بدّلتُ الحافلة أخذتُ، ربما مع جراثيم الطاعون، هذا الشيء الذي لا يصدّق والمدعو «تبديلاً»، أي رقماً ليس على الدوام الرقم ١ مع أنه يُسلّمُ لي أنا! وهكذا أبدّل «العربة» ثلاث أو حتى أربع مرات. وأراني أحياناً أرسو في الحادية عشرة مساء في محطة «أورليان»، ولا بد من العودة! ولو اقتصر الأمر على محطة «أورليان» فحسب! ولكنّي مضيت مرة، على سبيل المثال، إذ لم أفلح في مباشرة الحديث قبل ذلك، حتى «أوريان» نفسها في واحدة من تلك العربات الشنيعة حيث المنظر المتوافر، بين مثلثات من القطع المشغولة تسمى «الشبك»، قوامه صور الروائع المعمارية الرئيسية العائدة لشبكة الخطوط. ولم يكن ثمة سوى مكان واحد خال، وكان قبالتي بمثابة أثر تاريخي «منظر» لكاتدرائية «أورليان»، وهي الأقبح في فرنسا، وتورثني في النظر إليها على هذا النحو رغماً عني ما يماثل إرهاقي لو أرغمت على تثبيت أبراجها داخل الكرة الزجاجية التي لمسكات الرّيَش البصرية تلك التي تورثك رمداً. ونزلت في محلّة «أوبريه» في الوقت الذي نزلت صغيرتي اللطيفة التي كانت أسرتها، من أسف، تنتظرها على الرصيف (في حين كنت أفترض فيها جميع العيوب باستثناء أن يكون لها أسرة)! وكان عزائي الوحيد، بانتظار القطار الذي سيعيدني إلى باريس، منزل «ديانا» في

---

(١) استبدلنا بالأمراء الواردة في النص الملوك ليمكننا إحلال «الجلالة» محل «السموّ» (مذكّر).

«بواتييه». وعبثاً فَتَن فيما مضى لبّ أحد أسلافي الملكيين فإنني كنت فضلت جمالاً أوفر حياة. ولذلك وبغية تفادي ضجر تلك الرجعات وحيداً تراني راغباً في معرفة نادل في عربات النوم، وسائق حافلة». وختم البارون حديثه قائلاً: «لا يصدمك كلامي على أي حال، فكل ذلك مسألة طريقة. فإني في ما يخصّ شبان العالم الراقي مثلاً لا أرغب في أيّ امتلاك جسدي ولكنّي لا أطمئن نفساً إلا بعدما أكون لمستهم، ولست أعني مادياً بل أعني لمس الوتر الحساس لديهم. فحالما لا يكفّ شاب عن الكتابة إليّ، عوضاً عن ترك رسائلي دون جواب، ويصبح بتصرّفي أدبياً حتى تهدأ نفسي أو ربما هدأتْ على الأقل لو لم يداخلني بعد قليل همّ آخَر غيره». في الأمر شيء من الغرابة، أليس كذلك؟ وإذ نحن بصدد شبان المجتمع الراقي، ألست تعرف أحداً من بين الذين يجيئون إلى هنا؟» - «لا يا صغيري. آه بلى، أسمر فارع الطول، بنظارة أحادية، دائم الضحك والتلفّت». - «لست أرى من تعني». وأكمل «جوبيان» الصورة، وما كان السيد «دو شارلوس» يستطيع أن يفلح في العثور على من كان يقصد إذ كان يجهل أن صانع الصداري السابق من نفرٍ هم أكثر مما نظنّ لا يتذكرون لون شعر الناس الذين يعرفونهم معرفة هيّنة. أما أنا الذي كان يعرف عاهة «جوبيان» تلك واستبدل بالأسمر الأشقر فقد بدا لي الرسم ينطبق تماماً على الدوق «دو شاتيلّرو». وعاد البارون يقول: «كما أعود إلى الشباب الذين ليسوا من الشعب، فإني في هذه الفترة يدوّخني صبيّ غريب، بورجوازي صغير ذكي يبدي إزائي قلّة تهذيب باهظة. وليس يملك أي تصوّر عن الشخصية الهائلة التي أمثلها والجرثومة المجهرية التي يمثلها. وما همّ على أية حال، فبوسع هذا الحمار الصغير أن ينهق ما وسعه النهيق أمام سموّ ثوب المطران الذي يلفّني». وصاح «جوبيان»: «مطران!» وما كان فهم شيئاً في الجمل الأخيرة التي نطق بها السيد «دو شارلوس». ولكن كلمة «مطران» أذهلته فقال: «ولكنّ ذلك لا يتماشى والدين». وأجاب السيد «دو شارلوس»: «في أسرتي ثلاثة باباوات ولي الحق أن

ألف نفسي بالأحمر بسبب لقب كردينالي[1]، إذ إن ابنة أخ الكردينال جدّي لعمّي قد حملت لجدّي لقب الدوقية الذي استبدل. وأرى أن الصور المجازية تخلّيك أصم وتاريخ فرنسا لامبالياً. وأضاف قوله ربما بمثابة تحذير أكثر منه بمثابة ختام: «هذا الجاذب الذي يمارسه عليّ الشبان الذين يتهربون مني بداعي الخشية بالطبع، فالاحترام وحده هو الذي يطبق أفواههم عن أن يصيحوا بي أنهم يحبّونني، إنما يقتضيهم مرتبة اجتماعية عالية. ثم إن لامبالاتهم المتكلّفة يمكن أن ينجم عنها على الرغم من ذلك النتيجة العكسية تماماً. فإن تطاولتْ على غباء أثارت اشمئزازي. وكيما أضرب مثالاً على ذلك في طبقة تكون أقرب إلى المألوف لديك: حينما جرى إصلاح فندقي مضيت، تفادياً لإيجاد غيارى بين سائر الدوقات اللواتي كنّ يتنازعن شرف أن يسعهنّ القول إنهن استضفنني، لقضاء عدة أيام في «الفندق» على حدّ ما يقولون. وكان أحد مستخدمي الطابق معروفاً عندي فَدَلَلْتُه على صبيّ فندق غريب كان يغلق أبواب العربات وظلّ يقاوم عروضي. وفي النهاية عيل صبري فقدّمت له، كيما أبرهن أني طاهر المقاصد، مبلغاً كبيراً إلى حدّ يثير السخرية لمجرّد أن يصعد ويكلّمني خمس دقائق في غرفتي. وانتظرته دون جدوى. حينئذ بلغ بي الاشمئزاز منه مبلغاً صرت أخرج معه من باب الخدم كي لا ألمح وجه هذا الصغير اللعين الغريب الأطوار. وعلمت مذ ذاك أنه لم يستلم في يوم أياً من رسائلي التي احتُجِزَتْ أُولاها على يد المستخدم في الطابق وكان حسوداً، والثانية على يد البواب النهاري وكان فاضلاً، والثالثة على يد البواب الليلي الذي كان يحبّ الخادم الفتيّ ويضاجعه ساعة يطلع القمر. ولكنّ ذلك لم يقلّل من دوام اشمئزازي، وحتى لو جاؤوني بالخادم كمجرّد طريدة صيد لدفعته عني بإقياء. ولكنّما المصيبة أننا تكلّمنا عن أمور جدّية والآن انتهى ما بيننا بخصوص ما كنت أؤمّل. على أنك تستطيع أن تؤدي

---

(١) كردينال: من المراتب الكنسية الكاثوليكية العليا.

لي خدمات جلّى وتتوسط لي. ولكن لا، تلك الفكرة وحدها تردّ لي بعض المرح وأحسّ أنْ لم ينته شيء».

لقد وقع منذ بداية هذا المشهد انقلاب داخل السيد «دو شارلوس» بالنسبة إلى عينيّ اللتين سقطت الغشاوة عنهما، انقلاب تام ومباشر كما لو ضربته عصا سحرية. ولم أكن أبصرت حتى ذاك لأنني لم أدرك من قبل، أن الرذيلة (هكذا يقولون لتيسير الكلام)، رذيلة كلّ منا إنما ترافقه على غرار ذلك الجنيّ الذي كان خفيّاً على الناس ما داموا يجهلون وجوده. إن الطيبة والمكر والاسم والعلاقات المجتمعية لا تكشف عن ذاتها والمرء يحملها مخبّأة. و«أوليس» نفسه ما كان يتعرّف الإلهة «أثينا» بادئ الأمر. ولكنّ الآلهة تدركهم مباشرة، والشبه بمثل السرعة شبهه وكذلك كان حال السيد «دو شارلوس» و«جوبيان». لقد وجدتني حتى الآن قبالة السيد «دو شارلوس» على غرار رجل شارد الفكر يصرّ أمام امرأة حامل لم يلاحظ قدّها المتثاقل، فيما تردّد أمامه مبتسمة: «أجل إني متعبة بعض الشيء في هذه الفترة»، يصرّ على سؤالها بصورة مفضوحة: «وما الذي أصابك؟» وليقل له أحدهم: «إنها حبلى»، وفي الحال يلمح البطن ولن يبصر من بعد سواه. وإنما العقل الذي يفتح العينين، ويمنحنا الخطأ الذي زال معنى إضافيّا.

ليس على الأشخاص الذين لا يحبّون الرجوع، بمثابة أمثلة على هذا القانون، إلى معارفهم من أمثال السادة «دو شارلوس» الذين ظلّوا فترة طويلة لا يرتابون بأمرهم إلى اليوم الذي جاءت تبرز فيه على الصفحة المستوية للفرد الشبيه بالآخرين، وقد خطت بحبر سريّ حتى ذاك، الحروف التي تؤلف المفردة العزيزة على قلوب قدماء اليونانيّين، ليس عليهم، كي يوقنوا أن العالم المحيط بهم إنما يتجلّى لهم بادئ الأمر عارياً وخلواً من ألف زينة يبرزها لأكثرهم اطلاعاً، إلا أن يتذكروا كم مرة اتفق لهم في بحر الحياة أن يكونوا على شفا ارتكاب هفوة. فليس شيء على الوجه الخلو من الميّزات لهذا الرجل أو ذاك يمكن أن يحملهم على

افتراض أنه بالضبط أخ أو خطيب أو عشيق امرأة يزعمون أن يقولوا عنها: «أية بقرة هذه!» ولكن ثمة، لحسن الحظ، كلمة يهمس بها جار لهم توقف اللفظة القائلة على شفاههم. وفي الحال تبرز، وكأنها «مَنَا، تَقِلْ، فَرِس»[١]، هذه الكلمات: إنه خطيب أو شقيق أو عشيق المرأة التي لا يليق أن تدعى أمامه: «بقرة». هذا المفهوم الجديد وحده سوف يؤدي إلى إعادة تجميع كامل، إلى سَحْب أو تقديم قسم الأفكار التي كنا نحملها عن باقي الأسرة، وقد اكتملت مذ ذاك. وعبثاً كان يقترن كائن آخر بالسيد «دو شارلوس» يميّزه عن الرجال الآخرين، مثلما الحصان في القنطور[٢]، وعبثاً يتّحد هذا الكائن بالبارون فإني لم ألمحه في يوم. أما الآن فقد اتخذ المجرّد شكلاً مادياً، وفُقدَ الكائن في الحال بعد ما أُدْرِكت قدرته على البقاء خفيّاً، وأضحت استحالة السيد «دو شارلوس» شخصياً جديداً تامةً إلى حدّ أصبحت معه لا وجوه للتعارض في وجهه وصوته، بل تقلّبات علاقاته بي إذ استرجعها في صعودها وهبوطها، وكل ما بدا حتى ذاك مفكّكاً في خاطري، أصبحت قريبة الإدراك وبدت بديهية مثل جملة لا تحمل أي معنى ما دامت مفكّكة وانتظمت حروفها كيفما اتفق، ولكنها تعبّر إن عادت حروفها فوضعت ضمن الترتيب اللازم عن فكرة لن نستطيع نسيانها من بعد.

ثم إني أخذت أدرك الآن لماذا أمكنني أن أجد أن السيد «دو شارلوس» كان يبدو امرأة حينما شاهدته خارجاً من منزل السيدة «دو فيلباريسيس»: فلقد كان كذلك! لقد كان من صنف هذه الكائنات الأقل تناقضاً مما تبدو عليه والتي اتخذت مثلاً أعلى رجولياً لأن طبعها بالضبط

---

(١) كلمات ثلاث وردت في العهد القديم، سفر دانيال (٥/ ٢٥)، مَنَا = قَاسَ، تَقِلْ = وَزَن، و«فَرِس» تعني في الوقت نفسه «قَسَمَ» كما تذكّر باسم الفرس وتفسير الكلام: منا = أحصى الله أيام ملكك وأنهارها، وتَقِلْ = وزنت في الميزان فوجدت ناقصاً، وفَرِس = قسمت مملكتك وأسلمت إلى ميديا الفرس.

(٢) كائن خرافي نصفه العلوي رجل والسفلي حصان.

أنثوي وهي في الحياة شبيهة بالرجال الآخرين في الظاهر فقط؛ فحيثما يحمل كل واحد طيفاً محفوراً على صفحة الأحداق، وقد خطّ في تلك العينين اللتين يبصر من خلالهما كل شيء في الكون، فالطيف في ما يخصّهم ليس لحورية بل لفتى جميل. ذلك الصنف الذي تثقله اللعنة وينبغي له أن يعيش في الكذب والأيامين الكاذبة إذ هو يعلم أن ما يشتهي وما يؤلّف في نظر أي مخلوق أفضل مطارح عذوبة العيش إنما يقع تحت طائلة القانون وهو مخزٍ لا يمكن الجهر به، والذي ينبغي له أن ينكر إلهه لأنه يقع عليهم، وإن كانوا مسيحيين، حينما يمثلون أمام المحكمة بصفة متّهمين أن ينكروا أمام المسيح وباسمه بمثابة افتراء عليهم ما يؤلّف حياتهم ذاتها؛ هم الأبناء ولا والدة لهم، الذين يضطرون أن يكذبوا عليها حتى ساعة يطبقون عينيها، الأصدقاء ولا صداقات على الرغم من جميع تلك التي توحي بها فتنتهم، وكثيراً ما يُقَرُّ بها، والتي قد يحس بها فؤادهم وهو في الغالب على طيبة. ولكن أيمكن أن ندعو بالصداقات تلك العلاقات التي لا تنمو إلا بفضل كذبة والتي ربما عملت أول اندفاعة ثقة وصدق قد يخطر لهم أن يبدوها إلى استبعادهم باشمئزاز ما لم تكن صلتهم بأحد العقول النزيهة، بل المتعاطفة، ولكنّها حينذاك تستخلص، وقد ضلّلتها بشأنهم سيكولوجيا اصطُلِحَ عليها، من الرذيلة المُقَرِّ بها الوداد الأكثر بعداً عنها مثلما يفترض بعض القضاة ويعذرون بسهولة أكبر القتل لدى الشاذّين والخيانة لدى اليهود لأسباب مستخلصة من الخطيئة الأصلية والقدرية العرقية؟ وأخيراً - على الأقل طبقاً للنظرية الأولى التي اختططتها عنه حينذاك، وسنراها تتبدل فيما بعد، ولعلّ هذا الأمر كان أغضبهم فيها فوق كل شيء لو لم يُحْجَبْ ذلك التناقض عن عيونهم من جرّاء الوهم نفسه الذي كان يجعلهم يبصرون ويعيشون - العشاق الذين سُدَّ في وجههم تقريباً احتمالُ هذا الحب الذي يوليهم الأملُ فيه قوةً لتحمّل هذا القدر من المخاطر وأسباب العزلة بما أنهم بالضبط مغرمون برجل ليس فيه من المرأة شيء، رجل غير شاذ ولا يستطيع بالتالي أن يحبّهم، مما يجعل

رغبتهم غير ممكنة الإشباع في يوم لو لم يُسلم إليهم المال رجال حقيقيون ولو لم يجعلهم الخيال في نهاية المطاف يضعون موضع رجال حقيقيين الشاذّين الذين تعهّروا. ودونما شرف إلا العابر منه، ودون حريّة إلا المؤقّت منها إلى حين اكتشاف الجريمة، ودون مركز إلا ما كان منه غير ثابت، مثلما هو أمر الشاعر، وكان البارحة موضع حفاوة في جميع منتديات لندن وتهليل في جميع مسارحها، وفي الغد يُطرد من جميع النُّزل المفروشة دون أن يسعه إيجاد وسادة يسند إليها رأسه، ويدير حجر الرحى مثل شمشون، ومثله يقول:

«سوف يموت الجنسان كلٌّ على حدة».

بل يُسْتَبْعَدُون، فيما عدا أيام التعاسة الكبرى التي يتألّب فيها العدد الأكبر حول الضحية، مثلما اليهود حول «دريفوس»، من عطفِ - وأحياناً من مجتمع - أشباههم الذين يبعثون فيهم القرف لرؤيتهم ما هم عليه وقد رُسِمَ في مرآة تُبرز، إذ هي لا تحسّن صورتهم عن بعد، جميع العاهات التي لم يشاؤوا من قبل ملاحظتها في ذواتهم، وتجعلهم يدركون أن ما كانوا يدعونه حبّهم (والذي ألحقوا به، بالتلاعب بالكلمة، يدفعهم إلى ذلك الحس الاجتماعي، كل ما أمكن أن يضيفه إلى الحبّ الشعرُ والرسمُ والموسيقى والفروسية والنسك) إنما ينتج لا عن مثل أعلى للجمال اتخذوه بل عن مرض لا شفاء له؛ مثلهم مثل اليهود أيضاً (باستثناء بعض منهم لا يودّون الاختلاط إلا ببني جنسهم ولا ينفكّون يرددون الكلمات الشعائرية والمزحات الشائعة) يتهرّب بعضهم من بعض ويسعون إلى من كانوا الأكثر مناهضة لهم ولا يريدونهم، يصفحون عن صدودهم وينتشون بمجاملاتهم، بل هم يجمعهم إلى أمثالهم النّبذُ الذي يطالهم والخزي الذي سقطوا فيه، وقد بلغ بهم في النهاية، من جرّاء اضطهاد شبيه بالذي أصاب إسرائيل، أن يتخذوا المزايا الجسمية والأخلاقية التي تطبع أحد الأجناس، فأحياناً على جمال والأغلب على بشاعة، ويلقون (على الرغم من جميع صنوف

السخرية التي يصبها ذاك الذي يبدو في الظاهر نسبياً، وهو أكثر اختلاطاً بالجنس المعادي وأوفر اندماجاً به، الأقل شذوذاً على الذي لبث أكثر شذوذاً) مُفْتَرَجاً في مخالطة أشباههم، بل سنداً في حياتهم إلى حد أنهم، فيما ينكرون أنهم يؤلفون جنساً (يشكّل اسمه أعظم شتيمة)، يفضحون بطيبة خاطر أولئك الذين يفلحون في إخفاء انتمائهم إليه كي يجدوا عذراً لأنفسهم أكثر منهم لإيذائهم، وهم لا يكرهون ذلك، ويمضون يبحثون، مثلما الطبيب عن الزائدة الدودية، عن الشذوذ حتى في بطون التاريخ، ويغبطهم أن يذكّروا بأن سقراط كان واحداً منهم كما يقول الإسرائيليون[1] إن يسوع كان يهودياً دون أن يفكّروا أنْ لم يكن شاذّون حين كان الشذوذ هو القاعدة ولا معادون للمسيحيين قبل المسيح وأن العار وحده صانع الجريمة لأنه لم يُبْقِ إلا على الذين تمرّدوا على أي كرازة وأي مثال وأي قصاص بموجب استعداد فطري خاص إلى حد أنه يثير اشمئزاز الرجال الآخرين (مع أنه قد يترافق وصفات أخلاقية سامية) أكثر مما تفعل بعض المعايب الأخرى التي تناقضه كالسرقة والقسوة وسوء النيّة التي إذ تدركها عامة الناس بصورة أفضل فإنما تعذرها بالتالي أكثر؛ ويشكّلون جمعية ماسونية أكثر اتساعاً وأوفر نجاعة وأقل مدعاة للشبهة من ماسونية المحافل لأنها قائمة على تماهٍ في الأذواق والحاجات والعادات والأخطار والتدرّب والمعرفة والاتجار والمصطلحات، ونتبيّن فيها أن الأعضاء أنفسهم الذين يتمنّون أن لا يعرف أحدهم الآخر يتعرّف بعضهم بعضاً في الحال بفضل علامات طبيعية أو اصطلاحية، لا إرادية أو مقصودة، تكشف للمتسوّل أحد أشباهه في السيد الكبير الذي يغلق له باب عربته، وللوالد في خطيب ابنته، ولمن كان ابتغى الشفاء والاعتراف وكان عليه أن يدافع عن نفسه في الطبيب والكاهن والمحامي الذي مضى للقائه؛ وكلهم مضطرّون أن يصونوا سرّهم ولكنهم يحوزون نصيبهم من سر لدى الآخرين لا يرتاب

(١) بالمعنى الديني القديم.

بوجوده باقي البشر وبه تبدو روايات المغامرات الأكثر بعداً عن الواقع حقيقية في نظرهم؛ ذلك لأن السفير، في هذه الحياة الخيالية المناقضة لزمانها، صديق الشقي الكادح؛ والأمير، ببعض الحرية في المسلك التي توليه التربية الأرستقراطية والتي لعلها لا تتوافر لبورجوازي صغير راعش، يمضي عند مغادرته منزل الدوقة للتداول مع قاطع الطريق؛ هذا الجزء الذي تشجبه الجماعة الإنسانية، ولكنه جزء هام يُرتاب بأمره حيث لا نجده وينتشر وقحاً بمنجى عن العقاب حيث لا يستشف؛ لديهم منتسبون أنّى كان، في صفوف الشعب والجيش، في المعبد والسجن وفوق العرش، ويعيشون في النهاية، العدد الكبير منهم على الأقل، في إطار الألفة المُهَدْهِدة الخطرة بين رجال العرق الآخر يستفزهم ويلهو معهم في التحدث عن عيبه كما لو لم يكن منه، واللعبة يسهّلها غباوة الآخرين أو زيفهم، لعبة يمكن أن تطول سنوات إلى يوم الفضيحة الذي يُفْتَرَس فيه هؤلاء المروّضون؛ وقد أُرغِموا حتى ذاك على إخفاء حياتهم وعلى الإشاحة بأبصارهم عما يودّون التحديق إليه وعلى التحديق إلى ما يودّون صرف الأنظار عنه، وعلى تغيير جنس الكثير من الصفات في جملة مفرداتهم، وذلك التزام اجتماعي طفيف إذا ما قوبل بالالتزام الداخلي الذي يفرضه عليهم عيبهم، أو ما يسمّى كذلك مجازاً، لا تجاه الآخرين من بعد بل تجاه أنفسهم وعلى نحو لا يبدو لهم معه عيباً. ولكن بعضهم، وهم عمليّون أكثر وأكثر استعجالاً ولا يملكون الوقت للتسوّق والتخلّي عن تبسيط الحياة وكسب الوقت الذي يمكن أن ينجم عن التعاون، جعلوا لأنفسهم مُجْتَمَعَين يتألّف الثاني حصراً من أشباه لهم.

ذلك مدهش لدى من كانوا فقراء وجاؤوا من الأرياف ولا معارف لديهم ولا شيء سوى الطموح في أن يكون أحدهم طبيباً أو محامياً مشهوراً، يملكون فكراً لا يزال خلواً من الآراء وجسماً عديم العادات ينوون تزويقه بسرعة كما ربما يشترون أثاثاً لغرفتهم الصغيرة في الحي اللاتيني حسبما يلاحظون ويقلّدون ما كان لدى الذين «وصلوا» في المهنة

المفيدة والجدية التي يتمنّون الالتحاق بها وبلوغ الشهرة فيها. وربما بدا لدى هؤلاء أن ميلهم الخاص الذي ورثوه دون علم منهم كمثل الاستعداد الفطري للرسم والموسيقى والعمى، هو التفرّد الوحيد الراسخ المستبدّ - والذي يضطرّهم في بعض العشيّات إلى تفويت اجتماع أو آخر مفيد لحياتهم المهنية بأناس يتبنّون في كل ما تبقّى طريقتَهم في التحدث والتفكير وفي ما يلبسون ويعتمرون. وسرعان ما تراهم يكتشفون في حيّهم، حيث لا يخالطون، لولا ذاك، سوى زملاء أو معلّمين أو مواطناً لهم «أدرك النجاح» وشملهم بعطفه، شباناً آخرين يقربهم منهم الميل نفسه مثلما هي الحال في مدينة صغيرة يرتبط فيها بعرى الصداقة أستاذ الأول الثانوي والكاتب العدل وكلاهما يحبّان موسيقى الحجرة وعاجيّات العصر الوسيط؛ وهم إذ يطبّقون على موضوع تسليتهم الغريزة النفعية نفسها والروح المهنية نفسها التي تقود خطاهم في حياتهم المهنية يعودون فيلتقونهم في جلسات لا يقبل فيها أي غريب غير مطلع أكثر منه في الجلسات التي تجمع هواة المساعط القديمة واللوحات اليابانية المطبوعة والأزهار النادرة، وحيث يسود، من جرّاء متعة التعلّم وجدوى المبادلات وخشية المنافسات، كما هي الحال في بورصة للطوابع البريدية، التفاهمُ الوثيق بين الاختصاصيين والمنافسات الشرسة بين أصحاب المجموعات في الآن نفسه. وليس يدري أحد على أيّ حال في المقهى الذي يجلسون فيه ما عسى يكون هذا الاجتماع، وإن كان اجتماع جمعية صيد أسماك أو أمناء تحرير أو أبناء مقاطعة «الآندر»، لشدّة ما كان ملبسهم لائقاً وهيئتهم متحفّظة جافية ولشدّة ما لا يجرؤون النظر إلا اختلاساً إلى الشبان الذين يماشون عصرهم، الفتيان «الأسود» الذين يثيرون على بعد بضعة أمتار أعظم الصخب حول عشيقاتهم، وسوف يعلم الذين يتأملونهم بإعجاب دون أن يجرؤوا على رفع عيونهم، ولكن عشرين عاماً بعد ذلك، وحينما يكون بعضهم على وشك دخول أحد المجامع العلمية والآخرون رجال منتديات مسنّين، سوف يعلمون أن الأكثر فتنة من بينهم، وهو الآن

«شارلوس» بدين متشيّب، كان بالحقيقية شبيهاً بهم ولكن في غير مكان، في عالم آخر، تحيط بهم رموز خارجية أخرى وتحكمهم علامات غريبة ضلّلهم الفارق فيها. ولكنّ التجمعات هي أكثر أو أقل تقدماً؛ ومثلما يختلف «اتحاد أحزاب اليسار» عن «الاتحاد الاشتراكي» وجمعية موسيقى «مندلسون» عن «مدرسة المغنّين»، ثمة في بعض العشيّات متطرفون على طاولة أخرى يدعون لإسوارة أن تبرز تحت سوار القميص وأحيانا لُعقد في فتحة ياقتهم ويرغمون بنظراتهم الملحاحة وقهقهاتهم وضحكاتهم ومداعباتهم فيما بينهم زمرة من طلبة الثانويات على الهرب أسرع ما يكون الهرب، ويقوم على خدمتهم بتأدّب يغتلي الغيظ تحته نادل ربما كان يغبطه، شأنه في العشيّات التي يقوم فيها على خدمة مناصري «دريفوس»، أن يمضي لاستدعاء الشرطة لو لم تكن له مصلحة في قبض الإكراميّات.

وإنما يقيم الفكر التعارضَ بين هذه التنظيمات الاحترافية وميل الانعزاليين، ودون أن يحتال للأمر كثيراً بما أنه لا يعدو في ذلك تقليد الانعزاليين أنفسهم الذي يظنون أن ليس ما يختلف عن الرذيلة المنظمة أكثر من هذا الذي يبدو لهم حباً لا يفهمه الآخرون، ولكن بشيء من الحيلة مع ذلك لأن هذه الأصناف المختلفة إنما تقابل على السواء نماذج فيزيولوجية متنوّعة وفترات متعاقبة من تطور مرضي أو اجتماعي فحسب. ذلك لأنه يندر جداً أن لا يُقْبِلَ الانعزاليون في يوم أو في آخر إلى الانصهار حصراً في مثل هذه التنظيمات لمجرّد السأم أحياناً ولبلوغ الراحة (مثلما ينتهي الأمر بتركيب الهاتف في منزلهم أو باستقبال آل «إيينا» أو بالشراء من مخزن «بوتان» بمن كانوا الأكثر عداء لهذه الأمور). ولا يُحْسَنُ استقبالهم فيها بعامة لأن نقص التجربة في حياتهم الطاهرة نسبياً والإشباع عن طريق الأحلام التي يقتصرون عليها قد أبرزوا إبرازاً أشد في ذواتهم سمات التخنّث الخاصة تلك التي حاول المحترفون طمسها. ولا بدّ من الإقرار بأن المرأة لدى بعض هؤلاء الوافدين الجدد ليست تتّحد بالرجل داخلياً فحسب، ولكنّها ظاهرة بصورة بشعة إذ هم تهزّهم بتشنّج

هستيري ضحكة حادة تُقَبِّضُ ركبهم وأيديهم، وليسوا أكثر شبهاً بعامة الناس من هؤلاء القردة بعيونهم الحزينة المتعبة وأيديهم اللاقطة هم الذين يرتدون السموكن وربطة عنق سوداء؛ حتى إن هؤلاء المنتسبين الجدد إنما يحكم من أهم أقل طهارة منهم أن معاشرتهم مجلبة للخطر وقبولهم صعب. ويجري مع ذلك قبولهم ويفيدون إذ ذاك من تلك التسهيلات التي بدّلت بها التجارةُ والمنشآت الكبرى حياةَ الأفراد وجعلت في متناول أيديهم سلعاً كانت حتى ذاك باهظة على مقتنيها بل عسيرة الإيجاد، فيما تغرقهم الآن بالفيض الذي لم يفلحوا وحدهم في اكتشافه عبر الجماهير العريضة. ولكن القيود الاجتماعية، على الرغم من هذه المخارج التي لا تحصى، تبقى ثقيلة على بعض منهم من الذين نجدهم على وجه الخصوص في صفوف الذين لم تطلهم بعد القيود العقلية والذين لا يزالون يعتبرون نوع حبّهم أكثر ندرة مما هي حاله. فلندع الآن جانباً أولئك الذين يحتقرون النساء ممن يجعلهم الطابع الاستثنائي في ميلهم يعتقدون بأنهم يسمون عليهن والذين يجعلون من الشذوذ الجنسي ميزة النوابغ العظام والعصور المجيدة، وحينما يحاولون حمل الناس على مشاطرتهم ميلهم فإنهم يفعلون أقل بالنسبة إلى ما يبدو أنهم يحملون استعدادات مسبقة، لذلك مثلما يفعل مدمن المورفين بالنسبة إلى المورفين منهم تجاه من يبدون أهلاً له، عن اندفاع للتبشير، مثلما يكرز آخرون بالصهيونية ورفض الخدمة العسكرية والسان سيمونية والنباتية والفوضى. ويبدي بعضهم، إن فاجأْتهم في الصباح وهم بعدُ نيام، سحنةٌ أنثوية رائعة بمقدارٍ ما تبدو العبارة عامة وترمز إلى الجنس بكامله؛ فإن الشَّعر بعينه يؤكد ذلك، وانثناءته أنثوية إلى حدّ كبير، فإن نُشِرَ تدلى ضفائر على الخدّ على نحو طبيعي حتى ليُدْهِشُكَ أن عرفت المرأة الشابة، الفتاة «غالاتيا»[1] التي تستفيق لماماً في لاوعي هذا الجسم الرجولي الذي سجنت فيه، بهذا القدر من البراعة من تلقاء

---

(١) هي حوريّة البحر التي أحبّها «بوليفيموس» ذو العين الواحدة.

ذاتها دون أن تكون علمته من أحد، كيف تفيد من أقل منافذ سجنها وتجد ما كان ضرورياً لحياتها. وليس من شك أن الشاب الذي يملك هذا الرأس الرائع لا يقول: «إني امرأة» بل هو إن عاش مع امرأة - لأسباب ممكنة كثيرة - استطاع أن ينكر أمامها أن يكون امرأة وأن يقسم لها أنه لم يُقم قط علاقات مع الرجال. فإن نظرتْ إليه على نحو ما عرضناه منذ قليل وهو يستلقي في سرير بالبيجاما حاسر الذراعين عاري العنق تحت شعور سوداء، انقلبت البيجاما قميص امرأة والرأس رأس إسبانية حلوة. وتراع العشيقة من هذه المُسَارّات الموجّهة لناظريها، وهي أكثر حقيقة مما يمكن أن تكون عليه الأقوال وحتى الأفعال ذاتها، والتي لن يفوت الأفعال على كلّ حال، إن لم تكن فعلت، أن تؤكدها، لأن كلّ كائن يسلك درب لذّته، وإن لم يكن هذا الكائن يتجاوز الحد في فسقه فإنه يبحث عنها في الجنس الذي يضاد جنسه. وإنما تبدأ الرذيلة في ما يخص الشاذ لا حينما يقيم علاقات (لأن الكثير الكثير من الأسباب يمكن أن يفرضها)، بل حينما يجد متعة مع النساء. لقد كان الشاب الذي حاولنا وصفه منذ قليل امرأة على نحو بادي الجلاء إلى حدّ أن النساء اللواتي كنّ ينظرن إليه ويشتهينه كنّ محكومات (ما لم يكن ثمة ميل خاص) بذات خيبة اللواتي تخيّب ظنَّهن في مسرحيات شكسبير الهازلة فتاةٌ متنكّرة تتظاهر بأنها فتى. والتضليل متساو، والشاذ نفسه يعلمه ويحزر الخيبة التي ستصيب المرأة بعدما يُنْزَعُ اللباس التنكري ويحس إلى أيّ حدّ يمثل الخطأ حول الجنس ينبوعاً من الشِعر الطريف. وعبثاً على أيّ حال لا يعترف لعشيقته المتطلّبة (إن لم تكن «عاموريّة») قائلاً: «إني امرأة»، فبأية حيل وأية خفة وبأي عناد نبتةٍ متسلقة تبحث المرأة اللاواعية الظاهرة للعيان في داخله، عن العضو الذكوري! ما عليك إلا أن تنظر إلى هذا الشَّعر الجعد على الوسادة البيضاء كيما تدرك أن هذا الشاب، إن أفلت في المساء من يدي أبويه على الرغم منهما، على الرغم منه، فلن يكون الأمر ليمضي للقاء النساء. بإمكان عشيقته أن تعاقبه وتسجنه إلا أن الرجل المرأة يكون قد وجد في الغد

وسيلة للتعلّق برجل مثلما تلقي الدودية الأرجوانية بمبارمها حيث توجد فأس ويوجد مشط. فلماذا نُعْجَبُ بلطائف تؤثر فينا في وجه هذا الرجل وبظرف وغياب تكلف في اللطف لا يتفق للرجال مثلهما، ويغمنا أن نعلم أن هذا الشاب يبحث عن الملاكمين؟ إنها وجوه مختلفة لحقيقة واحدة. بل إن الجانب الذي يثير اشمئزازنا هو الأكثر تأثيراً فينا لأنه يمثّل جهداً رائعاً لاواعياً تبذله الطبيعة: فإن تعرّف الجنس لذاته على الرغم من خِدَع الجنس لبدا على أنه المحاولة غير المعترف بها للهروب إلى ما وضعته غلطة بدئية للمجتمع بعيداً عنه. إنهم، بالنسبة إلى بعض منهم، أولئك الذين اتّسمت طفولتهم دون شك بأكبر قدر من الاستحياء، يكادون لا يهتمّون بالنوع المادي للمتعة التي ينالونها بشرط أن يمكنهم ردّ ذلك إلى وجه ذكوري، فيما يحدّد آخرون، ممن يملكون حواس أكثر عنفاً دون شك، مواضع حتمية قاهرة لمتعتهم المادية. ربما صدم أولئك باعترافاتهم وسطيّ الناس، فهم يعيشون ربما على نحو أقل حصراً تحت تأثير تابع لكوكب زحل لأن النساء، في نظرهم، لسن مستبعدات كلياً كما هي الحال بالنسبة إلى الأولين الذين لا وجود لهن إزاءهم بدون المحادثة والغنج وأهواء العقل. ولكن الآخرين يبحثون عن اللواتي يحببن النساء، فبمقدورهن أن يهيّئن لهم فتى ويزدن المتعة التي يصيبونها من وجودهم معه. هذا، وإنهم يستطيعون بالطريقة نفسها أن يصيبوا معهن ما يصيبون من متعة مع رجل. من ذاك ينجم أن الغيرة لا تستثيرها بالنسبة إلى الذين يحبون الأولين إلا المتعة التي يمكن أن يصيبوها مع رجل والتي تبدو لهم وحدها خيانة، بما أنهم لا يشاركون في حب النساء ولم يمارسوه إلا بحكم العادة وكيما يضمنوا لأنفسهم إمكان الزواج ويتصورون أقل القليل ما يمكن أن يولي من متعة إلى حدّ لا يطيقون معه أن يتذوّقه من يحبّونه، فيما يغلب أن يثير الآخرون الغيرة من جرّاء صنوف غرامهم مع النساء. فإنهم يؤدّون، في علاقاتهم بهن، بالنسبة إلى المرأة التي تحب النساء دور امرأة أخرى، فيما تقدم لهم المرأة في الوقت نفسه ما يجدونه لدى الرجل

على وجه التقريب إلى حدّ أن الصديق الغيور يعاني من الإحساس بأن من يحبّه يلتصق التصاقاً وثيقاً بالتي تقارب أن تكون في نظره رجلاً، فيما يحسّ أنه يكاد يفلت منه، لأنه في نظر أولئك النساء شيء لا يعرفه ونوع من المرأة. ولا تتحدثن كذلك عن هؤلاء الشباب المجانين الذين يبدون، بنوع من النزعة الصبيانية، وكيما يزعجوا أصدقاءهم ويصدموا أهليهم، ضرباً من الإصرار على اختيار ملابس تشبه الفساتين وعلى تحمير شفاههم وتسويد عيونهم؛ فلندعهم جانباً، فهم من سنعود فنلقاهم، بعدما يكونون حملوا بفيض من المرارة جزاء تصنّعهم، يقضون كامل حياتهم يحاولون عبثاً أن يصلحوا بلباس متزمّت بروتستانتي الضرر الذي ألحقوه بأنفسهم حينما كان يدفعهم إلى ذلك ذات الشيطان الذي يدفع نساء شابات من ضاحية «سان جيرمان» إلى العيش عيشاً فاضحاً والتحرر من جميع الأعراف والهزء من أسَرهن إلى اليوم الذي يشرعن فيه بدأب ودونما فلاح بارتقاء السفح الذي سبق أن وجدن تسلية كبرى في حدوره، أو هُنّ بالأحرى لم يستطعن الامتناع عن ذلك. ولندع أخيراً إلى ما بعد الذين عقدوا حلفاً مع «عامورة»، وسوف نحكي عنهم حينما يعرضهم السيد «دو شارلوس». ولندع جميع الذين سيظهرون بدورهم، من هذا النوع أو ذاك، ولا نقولن كلمة، لختام هذا العرض الأول، إلا عن أولئك الذين باشرنا الحديث عنهم منذ قليل، عنينا المتوحّدين. فقد مضوا، إذ هم يعتبرون نقيصتهم استثنائية أكثر مما هي عليه، يعيشون وحيدين من اليوم الذي اكتشفوها فيه بعدما حملوها طويلاً دون أن يعرفوها، فترة أطول من غيرهم فحسب. ذلك أنه ما من أحد يعرف لأول وهلة أنه شاذ أو شاعر أو متحذلق أو شرير. فهذا الطالب الذي كان يحفظ أبياتاً في الحب أو يتطلع إلى صور خليعة كان يخيّل إليه، إن هو التصق حينذاك برفيق له، أنه يشاركه فحسب ذات الرغبة في المرأة. فكيف يظن أنه لا يشبه الجميع حينما يتعرّف جوهر ما يعانيه وهو يقرأ «مدام دو لافاييت» و«راسين» و«بودلير» و«والتر سكوت»، في حين لا يزال قليل القدرة إلى حدّ بعيد

على ملاحظة نفسه كي يتبيّن ما يضيفه من عنده وأنه إن كان الشعور واحداً فموضوعه يختلف وأن ما يشتهي هو «روب روي» وليس «ديانا فيرنون»؟[1] فلدى الكثيرين، ومن جرّاء احتراس دفاعي للغريزة يسبق رؤية العقل الأكثر وضوحاً، تختفي المرآة والجدران في غرفتهم تحت صور بالألوان لممثلات؛ وهم يؤلّفون أبياتاً كهذه:

لست أحبّ في العالم سوى «كلوبيه»
إنها رائعة، إنها شقراء
وقلبي يغرق في الحبّ.

أفينبغي لذلك أن تضع في بداية هذه الحيوات ميلاً لن يتفق لنا أن نعود فنلقاه لديهم فيما بعد، كخصلات الأطفال الشقراء التي ستصبح بعدها من أكثرها سواداً؟ فمَنْ ذا يعلم إن لم تكن صور النساء بداية نفاق، وبداية كراهية كذلك للشاذين الآخرين؟ ولكن المتوحّدين هم بالضبط أولئك الذين يؤلمهم النفاق. ربما لم يكن مثال اليهود، مثال الجالية المختلفة، بالقوة الكافية ليوضح كم التربية قليلة التأثير عليهم وبأي فن يفلحون في العودة، لا إلى أمر في مثل فظاعة الانتحار ربما (وإليه يعود المجانين أية كانت الاحتياطات المتخذة، فإن أُنقذوا من النهر الذي ارتموا فيه، تناولوا السم، تزوّدوا بمسدس، إلخ.)، بل إلى حياة لا يدرك رجال الجنس الآخر متعها الضرورية ولا يتصوّرونها ويمقتونها، وليس ذلك فحسب، بل تلك الحياة التي يرعبهم خطرها المتكرر وخزيها الدائم. وربما انبغى، في سبيل وصفهم، أن نفكر في الحيوانات التي لا تدجّن، في الأشبال المدجنة المزعومة ولكنها لبثت أُسوداً، وإلا فعلى الأقل بالسود الذين تورثهم حياة البيض المريحة يأساً فيفضلون عليها مخاطر حياة

(١) «روب روي» و«ديانا فيرنون» شخصيّتان من رواية لِ «والترسكوت» عنوانها «روب روي».

التوحّش ومسرّاتها التي تمتنع على الإدراك. فحينما حل اليوم الذي ألفوا أنفسهم فيه عاجزين عن الكذب على الآخرين والكذب على الذات في آن، مضوا إلى العيش في الريف يتجنّبون أشباههم (ويظنونهم قليلي العدد) من هول البشاعة أو مخافة الإغراء، ويتلافون باقي البشرية من خجل. وإذ هم لم يبلغوا في يوم النضج الحقيقي وأضحوا نهب الكآبة، فإنهم يمضون بين حين وآخر ذات يوم أحد غير مقمر في نزهة على طريق يفضي إلى مفرق حيث جاء ينتظرهم، دون أن يكون أحدهم قال كلمة للآخر، أحد أصدقاء الطفولة الذي يقطن قصراً مجاوراً. ويعودان إلى ألعاب الأمس فوق العشب في الظلام، دونما كلمة يتبادلانها. ويلتقي أحدهما الآخر في بحر الأسبوع فيتحدثان عن أي شيء دون تلميح إلى ما جرى كما لو بالضبط لم يفعلا شيئاً ولن يعودا إلى فعل شيء، فيما عدا قليلاً من الفتور والسخرية والنزق والضغينة والكره أحياناً في علاقاتهما. ثم يذهب الجار في رحلة قاسية على ظهر حصان ويرتقي القمم على ظهر بغل وينام في الثلج؛ ويدرك صديقه الذي يماثل بين عيبه الخاص ووهن في الطبع والحياة البيتوتية الوجلة أن العيب لن يستطيع الاستمرار من بعد داخل صديقه الذي تحرّر وعلى ارتفاع هذا القدر من آلاف الأمتار فوق سطح البحر. ويتزوج الآخر بالفعل. بيد أن المهجور لا يشفى (على الرغم من الحالات التي سنتبيّن فيها أن الشذوذ قابل للشفاء). فهو يطالب بأن يتسلم بنفسه في الصباح وفي مطبخه القشدة الطازجة من يدي أجير الحلاب وفي الأمسيات التي تضطرب رغباته في صدره فتجاوز الحدّ، يبلغ به الضياع أن يعيد سكيراً إلى دربه وأن يرتب صدرية الأعمى. وليس من شك أن حياة بعض الشاذين تبدو وكأنما تتبدل وعيبهم (كما يقال) لا يظهر من بعد في عاداتهم. ولكن لا شيء يضيع والجوهرة المخبّأة نعود فنلقاها؛ وحينما تتناقص كمية بول المريض فلأنه بالتأكيد يتعرّق أكثر، ولكن لا بدّ أن يتم الاطراح على الدوام. فذات يوم يفقد هذا الشاذ ابن عم شاب فتدرك لحزنه الذي لا يقبل العزاء أن الرغبات إنما انتقلت بالمناقلة إلى هذا

الحب، الذي ربما كان عفيفاً وأكثر حرصاً على الاحتفاظ بالتقدير منه على بلوغ الامتلاك، مثلما يجري نقل بعض المصروفات داخل الموازنة إلى باب آخر دون تغيير في المجموع. ومثلما هي حال بعض المرضى الذين تذهب نوبة الحكة لديهم إلى حين باعتلالاتهم الطفيفة المعتادة، يبدو أن الحبّ الظاهر الموجّه لقريب شاب قد حلّ مؤقتاً لدى الشاذ، بطريق الانتقال، محلّ عادات سوف تستعيد ذات يوم مكان الداء الذي قام مقام غيره وشفي.

وفي هذه الأثناء يكون جار المتوحّد الذي تزوّج قد عاد. وإزاء جمال الزوجة الشابة والحنان الذي يبديه زوجها لها يوم يضطر الصديق أن يدعوهما إلى العشاء يخجل من الماضي. ولكنها ينبغي، وهي مذ ذاك في وضع يدعو للاهتمام، أن تعود في ساعة مبكرة تاركة زوجها؛ ويطلب هذا الأخير حين تحلّ ساعة العودة أن يرافقه لمسافة قصيرة صديقه الذي لا تداخله بادئ الأمر أية ريبة ولكنه يُلقي نفسه في تقاطع الطرق وقد ألقى به على العشب متسلّق الجبال الذي يزمع أن يصبح أباً، دون أن ينبس بكلمة. وتعود اللقاءات ثانية إلى اليوم الذي يجيء فيه ليقيم في مكان غير بعيد من هناك أحد أبناء عم المرأة الشابة والذي يذهب الزوج الآن دوماً للتنزه معه. فإن جاء المهجور لزيارته وحاول الاقتراب منه أبعده الزوج وقد تملّكه أشدّ الغضب وبه الحنق الذي يوليه ألا يكون الآخر على لباقة يستشف معها الاشمئزاز الذي يوحي به منذ الآن. وذات مرة يجيء مجهول بعثه الجار غير الوفي، ولكنّ المهجور لا يستطيع لكثرة مشاغله أن يستقبله، ولا يدرك إلا فيما بعد الهدف الذي جاء الغريب من أجله.

حينئذ يضنى الانعزالي وحده، وليس يملك غير متعة الذهاب إلى محطة الحمامات البحرية المجاورة يستعلم واحداً من مستخدمي السكك الحديدية. ولكنّ هذا الأخير حصل على ترقية وعُيِّن في الطرف الآخر من فرنسا، ولن يستطيع الانعزالي من بعد أن يمضي ليسأله مواعيد القطارات وثمن مقاعد الدرجة الأولى، وقبل أن يعود ليحلم في برجه، كما تفعل

«غريزيليديس»[١]، يتريث على الشاطئ، مثل أندروميدا»[٢]، غريبة لن يُقْبِلَ أي مغامر لتخليصها، وكـ«ميدوسة» عقيمة سوف تهلك على الرمال، أو هو يظل متكاسلاً على الرصيف قبل انطلاق القطار، يُلقي على المسافرين نظرة تبدو لامبالية أو مزدرية أو ساهية بالنسبة إلى من كانوا من جنس آخر ولكنّها، شأن الألق الوضاء الذي تزدان به بعض الحشرات لاجتذاب من كانوا من النوع نفسه، أو الرحيق الذي تقدّمه بعض الزهور لاجتذاب الحشرات التي ستلقّحها، لن تخدع الهاوي، ويكاد يتعذر وجوده، هاوي متعة تقدم له، مفرطة الخصوصية بالغة الصعوبة في إيجاد موضع لها، والزميل الذي يستطيع اختصاصيُّنا أن يتكلّم وإياه اللغة غير المألوفة؛ أكثر ما هنالك أن يتظاهر لابس ثياب رثّة على الرصيف بالاهتمام بها، ولكنّما لقاء مكسب مادي فحسب، شأن أولئك الذين يمضون، في «الكوليج دو فرانس» وفي القاعة التي يحاضر فيها أستاذ «السانسكريتية» دون مستمعين، لمتابعة الدرس، ولكنّما ليستدفئوا فحسب. المدوسة! وزهرة الأوركيدا! حينما كنت لا أنساق إلا وراء غريزتي كانت المدوسة تثير اشمئزازي في «بالبيك»، فإن عرفت كيف أنظر إليها، مثل «ميشليه»، من وجهة نظر التاريخ الطبيعي وعلم الجمال، كنت أبصر فيها حزمة رائعة من ضياء لازوردي. أفليست تبدو بمخمل تويجياتها الشفاف وكأنها أزهار أوركيدا البحر الخبازية، وكمثل الكثير من مخلوقات عالم الحيوان وعالم النبات، كمثل النبتة التي تنتج الفانيليا، فيما يقولون، والتي تبقى عقيمة لأن العضو الذكري عندها يفصله عن العضو الأنثوي حاجز، إن لم تنقل الطيور الطنانة أو بعض النحلات الصغيرة غبار الطلع من هذه إلى تلك، أو إن لم يلقّحها

---

(١) Grisélidis بطلة أسطورية وهي رمز الإخلاص الزوجي.

(٢) Andromède ابنة ملك أثيوبيا و«كاسيوبيه»، عاقب إله البحر «بوسيئدون» الملكة والدتها لكبريائها فأرسل وحشاً بحرياً روّع البلاد ولا نجاة منه إلا بموت الابنة ولكنّ بيرسيه Persée وصل وقتل الوحش بالسيف الذي سبق أن ضرب به «المدوسة» لقاء وعد بالزواج منها.

الإنسان صناعياً، كان السيد «دو شارلوس» (وينبغي أن تؤخذ كلمة التلقيح هنا بالمدلول المعنوي، بما أن اقتران الذكر بالذكر بالمعنى المادي عقيم، بيد أنه ليس غير ذي بال أن يستطيع شخص إدراك المتعة الوحيدة التي يستطيع تذوّقها وأن تستطيع «كل نفس في هذه الدنيا» أن تعطي أحدهم «موسيقاها أو نارها أو عطرها»)، كان من هؤلاء الرجال الذين يمكن دعوتهم بالاستثنائيين لأنهم مهما كبر عددهم فإن تلبية حاجاتهم الجنسية، وما أسهلها لدى آخرين غيرهم، رهن بتوافق الكثير من الشروط التي يصعب جداً توافرها. مكتبة سُر مَن قرأ

وبالنسبة إلى رجال من طينة السيد «دو شارلوس» (ومع مراعاة التسويات التي ستبرز شيئاً فشيئاً والتي أمكن منذ الآن توقّعها وقد اقتضتها حاجة إلى المتعة تسلم بأنصاف موافقات)، فإن الحبّ المتبادل يضيف، إلى جانب المصاعب الكبيرة جداً التي يصادفها عند عامة الناس، ويستحيل تجاوزها أحياناً، مصاعب خاصة إلى حدّ أن ما كان على الدوام شديد الندرة بالنسبة إلى كل الناس قارب أن يكون مستحيلاً في ما يخصهم، وأن سعادتهم، إن وقع لهم لقاء يطبعه حُسن الطالع بالحقيقة أو تُظهره لهم الطبيعة على تلك الحال، تتسم، بما يجاوز كثيراً سعادة العاشق العادي، طابعاً غريباً مختاراً عميق الضرورة. إن بغض آل «كابوليه» وآل «مونتيغو» ما كان يساوي شيئاً مقارنة بالعوائق المختلفة التي جرى تذليلها والإلغاءات الخاصة التي اضطرت الطبيعة أن توقعها بالمصادفات غير الشائعة كثيراً التي تحمل معها الحبّ قبل أن يترنّح صانع صدار سابق، كان يتأهب للذهاب إلى مكتبه «بخوف الله، مفتوناً أمام خمسيني مكرش. ويستطيع «روميو» هذا و«جولييت» هذه أن يعتقدا بحق أن حبّهما ليس نزوة لحظة عابرة بل قدر حقيقي أعدّته تناغمات مزاجهما، لا مزاجهما الخاص فحسب بل مزاج من سلف منهما والوراثة الأكثر إغراقاً في الماضي، إلى حدّ أن الشخص الذي يقترن بهما يخصهما قبل الولادة وقد اجتذبهما بقوة شبيهة بتلك التي توجّه العوالم التي قضينا فيها حيواتنا السابقة. لقد ألهاني

السيد «دو شارلوس» عن أن أنظر إن كان الدبور يحمل إلى زهرة الأوركيدا غبار الطلع الذي كانت تنتظره منذ زمن طويل والذي لا حظَّ لها في وصوله إليها إلا بفضل مصادفة قليلة الاحتمال إلى حدّ أنه يمكن تسميتها نوعاً من الأعجوبة، بيد أن ما شهدته منذ قليل إنما كان كذلك أعجوبة من النوع ذاته تقريباً ولا يقلّ عنها روعة. وما إن نظرت إلى ذلك اللقاء من الزاوية تلك حتى بدا لي كل شيء موسوماً بالجمال. فالحيل الأكثر اتساماً بالغرابة التي استنبطتْها الطبيعة لتُجبر الحشرات على توفير تلقيح الأزهار التي من دونها ما كانت لتستطيع ذلك لأن الزهرة المذكرة بعيدة جداً عن الزهرة الأنثى، أو الحيلة التي، إن كانت الريح هي التي ستؤمّن نقل غبار الطلع، تجعله أوفر سهولة في انتزاعه من الزهرة المذكرة وذلك بإزالة إفراز الرحيق الذي لم يعد مُجدياً إذ ليس من حشرات تجتذب، وحتى ألق التويجات التي تجتذبها، والحيلة التي تحمل الزهرة، كيما تُكرّس للطلع اللازم الذي لا يمكن أن يثمر إلا داخلها، على إفراز سائل يحصّنها ضد أنواع الطلع الأخرى، ما كانت كلّها لتبدو لي أكثر روعة من وجود نوع فرعي من الشاذين معدّ لتوفير متع الحبّ للشاذ المتشيخ: نوع الرجال الذين يجتذبهم لا سائر الرجال، ولكن - من جرّاء ظاهرة توافق وتناغم شبيهة بتلك التي تنظم تلقيح الزهور المختلفة الحوامل والثلاثية الشكل كزهرة *Lythrum salicaria* - الرجال الذين يتجاوزونهم سناً إلى حدّ كبير فحسب. لقد قدَّم لي «جوبيان» منذ قليل مثالاً على هذا النوع الفرعي مع أنه أقل إثارة من أمثلة أخرى يستطيع كلّ جامع أعشاب بشري وكل عالم نبات أخلاقي ملاحظتها على الرغم من ندرتها ويقدّم لهم شاباً ناحل الجسم كان ينتظر مفاتحات خمسيني مكرش صلب العود ويلبث لامبالياً بمفاتحات الفتيان الآخرين بمثل ما تبقى عليه من عقم أزهار الـ *Primula veris* ذات الحامل القصير ما دامت لا تلقّحها سوى أزهار الـ *Primula veris* ذات الحامل القصير أيضاً، فيما ترحّب فرِحة بطلع الـ *Primula veris* ذات الحامل الطويل. فأما ما كان من أمر السيد «دو شارلوس»، فقد تبيّنتُ بعد ذلك

على أي حال أن ثمة عدّة أنواع من الاتصالات في ما يخصه كان بعضها يذكّر، بتعدّده وآنيّته التي تكاد لا تراها العين وبانعدام الاتصال على وجه الخصوص بين الفاعلين، يذكّر أكثر من أي شيء آخر بتلك الأزهار التي يجري تلقيحها داخل حديقة بطلع زهرة مجاورة لن تلمسها في يوم. فقد كان ثمة بعض أشخاص يكفيه أن يحملهم على المجيء إلى منزله وأن يُخضعهم على مدى بضع ساعات لسلطان كلامه كيما تهدأ رغبته التي ألهبها لقاء، أي لقاء. كان الالتقاء يتم بمحض أقوال تقال بمثل البساطة التي يتم بها في عالم النقاعيات. وأحياناً يجري الإشباع، مثلما وقع له ذلك دون شك معي في العشية التي دعاني فيها بعد عشاء آل «غيرمانت»، بوساطة تأنيب عنيف كان البارون يقذف به في وجه الزائر مثلما بعض الأزهار ترش عن بعد بفضل نابض الحشرة التي تشارك لاشعورياً بالجرم وترتبك. كان السيد «دو شارلوس» وقد انقلب من مُسَيْطَرٍ عليه إلى مُسَيْطِر، يحسّ أنه تطهّر من قلقه وهدأ، ويطرد الزائر الذي توقف في الحال عن الظهور مظهر المشتهى عنده. وإن الشذوذ نفسه أخيراً، إذ ينجم عن أن الشاذ قريب من المرأة إلى حدّ أكبر من أن يستطيع معه إقامة صلات مفيدة معها، إنما يرتبط من هنا بقانون أشمل يبقى من جرّائه مقدار كبير من الأزهار الخنثى عقيماً، أي بعقم التلقيح الذاتي. صحيح أن الشاذين غالباً ما يكتفون في بحثهم عن ذكر شاذ بمثل تخنّثهم، ولكنّما يكفي ألا ينتموا إلى جنس النساء الذي يحملون في داخلهم شيئاً منه لا يستطيعون استخدامه، وهذا ما يتفق للكثير من الزهور الخنثى وحتى لبعض الحيوانات المخنثة كالحلزون التي لا تستطيع أن تلقّح نفسها بنفسها ولكنّما يمكن تلقيحها من جانب خناث غيرها. وبذلك ربما رجع الشاذون الذين يحبّذون الانتماء إلى الشرق القديم أو إلى عصر اليونان الذهبي إلى ما كان أبعد، إلى عصور التجربة تلك التي لم يكن فيها لا الأزهار الثنائية المساكن ولا الحيوانات الوحيدة الجنس، إلى ذلك التخنّث البدئي الذي يبدو أن بعض أوليات الأعضاء الذكرية في تشريح المرأة والأعضاء الأنثوية في تشريح

الرجل تحفظ أثرها. كنت أجد إيمائية «جوبيان» والسيد «دو شارلوس»، وهي بادئ الأمر غير مفهومة لديّ، بمثل غرابة تلك الحركات الإغرائية التي توجّهها للحشرات، فيما يرى «داروين»، الأزهار المسماة بالمركّبة إذ ترفع أنصاف أزاهير رُوَيْساتها كيما تشاهد من مسافة أبعد، كمثل واحدة من مختلفة حوامل السمات تقلب أسديتها وتلويها لتفتح طريقاً للحشرات أو تقدّم لها غسولاً هو بكلّ بساطة مماثل لعطور الرحيق والتماع التويجات التي كانت في هذه اللحظة تجتذب الحشرات في الباحة. منذ ذلك اليوم كان لا بدّ أن يغيّر السيد «دو شارلوس» ساعة زيارته للسيدة «دو فيلباريسيس» لا لأنه ما كان يمكنه التقاء «جوبيان» في مكان آخر وبصورة مريحة أكثر، بل لأن شمس ما بعد الظهر وأزهار الشجيرات كانت ترتبط ولا شك بذكراه، مثلما كانت بالنسبة إليّ تماماً. ولم يكتفِ على أية حال بأن يعهد بأسرة «جوبيان» إلى السيدة «دو فيلباريسيس» والدوقة «دو غيرمانت» وإلى جماعة كاملة من الزبائن اللامعين الذين تزايدت مواظبتهم لدى الطرازة الشابة بقدر ما كانت بعض السيدات اللواتي قاومن أو تأخرن فحسب موضع عمليات انتقامية مروّعة من جانب البارون إما ليكن عبرة لمن يعتبر وإما لأنهن أيقظن حنقه ووقفن في وجه محاولات تسلّطه. وجعل موقع «جوبيان» متزايدَ المرابح إلى أن اتخذه سكرتيراً له بصورة نهائية وأقامه ضمن الشروط التي سنشهدها فيما بعد. «آه ما أسعده رجلاً «جوبيان» هذا، تقول «فرانسواز»، وبها ميل إلى إنقاص أو تضخيم صنوف الطيبة حسبما تكون موجّهة إليها أو إلى سواها. وما كان بها حاجة هنا إلى الغلو على أي حال ولا يداخلها شعور بالغيرة من جانب آخر إذ هي تحبّ «جوبيان» حباً صادقاً. وتضيف قولها: «آه البارون ما أطيبه رجلاً، وما أحسنه وأتقاه وما أكثر ما هو لائق! لو كان عندي ابنة أزوّجها وكنت من عالم الأغنياء لأعطيتها للبارون مغمضة العينين». فتقول أمي بهدوء: «ولكن يا «فرانسواز» سيكون لها الكثير من الأزواج تلك الابنة. تذكري أنك وعدت بها «جوبيان». وتجيب «فرانسواز» قائلة: «أجل، فهو بدوره

أحد مَن يُسعِدون امرأة أشدّ السعادة. وعبثاً نرى ثمة أغنياء وفقراء بؤساء فإن ذلك لا يؤثر في الطبيعة؛ البارون و«جوبيان»، إنهما من طينة الأشخاص ذاتها».

وقد بالغتُ حينذاك كثيراً، على كلّ حال، إزاء هذا الكشف الأول، في الطابع الاصطفائي لظرف منتقى إلى هذا الحدّ. صحيح أن كلاً من الرجال أشباه السيد «دو شارلوس» مخلوق خارق، فإنه إن كان لا يقوم بتنازلات لإمكانات الحياة، إنما يسعى أساساً إلى حبّ رجل من الجنس الآخر، يعني رجلاً يحبّ النساء (ولا يستطيع بالتالي أن يحبّه)، فخلافاً لما كنت أظنه في الباحة حيث رأيت «جوبيان» منذ قليل يحوم حول السيد «دو شارلوس» مثلما زهرة الأوركيدا توجّه دعوات للدبور، فإن هؤلاء الأشخاص الاستثنائيين الذين نرثي لحالهم يشكّلون جمهوراً، كما سنرى ذلك على صفحات هذا الكتاب، لسبب لن يُكشَف عنه إلا في النهاية، وهم يشكون من أنهم بالأحرى مفرطو العدد لا قليلو العدد. ذلك لأن الملاكين اللذين أقيما على أبواب سادوم ليعلما، فيما يقول سِفْر التكوين، إن كان سكانها قد فعلوا بالكامل كلّ هذه الأشياء التي تعالت صرختها حتى الأبدي السرمدي قد جرى اختبارهما، ولا يسعنا إلا أن نبتهج لذلك، أسوأ اختيار على يد الربّ الذي لعلّه ما كان انبغى أن يكل هذه المهمة إلا للوطيّ. فما كانت أعذار من قبيل «والد لستة أطفال، لديّ عشيقتان، إلخ.»، لتحمل هذا الأخير على أن ينزل طوعاً السيف الملتهب ويخفّف العقوبات. ولعلّه كان أجاب: «أجل، وإن زوجتك تكابد عذاب الغيرة، ولكنك حتى حينما لم تقدم على اختيار هاتيك النساء بنفسك في عامورة تقضي لياليك مع حارس قطعان من حبرون»[1]. ولكان ردّه في الحال على أعقابه في المدينة التي ستدّمرها أمطار النار والكبريت. ولكنّهم فسحوا على العكس في مجال الهرب لجميع اللوطيين الذليلين، وإن أداروا الرأس

(١) هي مدينة الخليل.

إذ يلمحون صبياً شاباً كامرأة لوط، دون أن ينقلبوا لذلك تماثيل ملح مثلها. وعلى هذا النحو كانت لهم ذرّية كثيرة لبثت تلك الحركة عادية عندها تشبه تلك التي تبدر عن النسوة الخليعات اللواتي يدرن الرأس باتجاه طالب فيما يتظاهرن بالنظر إلى معرض أحذية موضوع خلف واجهة. وذرّية اللواطيين هذه، وهي كثيرة حتى يمكن أن نطبق عليها الآية الأخرى من سِفْر التكوين: «إن استطاع أحد أن يحصي تراب الأرض استطاع أيضاً أن يحصي هذه الذرّية»، استقرّت في الأرض كلّها وامتهنت سائر المهن ودخلت إلى النوادي الأكثر انغلاقاً وأفلحت إلى حدّ تكون فيه الكرات السوداء، حينما لا يقبل لوطي فيها، كرات تعود غالبيتها للوطيين ولكنّهم يحرصون على الطعن باللواطية إذ ورثوا الكذب الذي مكّن جدودهم من مغادرة المدينة الملعونة. ومن الممكن أن يعودوا إليها ذات يوم. إنهم يؤلّفون بالتأكيد في جميع البلدان جالية شرقية مثقفة موسيقية نمامة تتسم بمزايا رائعة وعيوب لا تطاق. وسوف نشاهدهم على نحو أكثر عمقاً في الصفحات التالية. ولكنّما ابتغى مؤقتاً اتقاء الخطأ المشؤوم الذي قوامه، على النحو الذي جرى فيه تشجيع حركة صهيونية، إنشاء حركة لواطية وإعادة بناء سادوم. ولكنّ اللوطيين يهجرون المدينة ما إن يصلوا ويتّخذون زوجات لهم ويُنفقون على عشيقات في مدن أخرى يجدون فيها من جانب آخر جميع التسليات الملائمة. ولا يمضون إلى سادوم إلا في أيام الضرورة الفائقة حينما تفرغ مدينتهم وفي تلك الأوقات التي يدفع فيها الجوع الذئب خارج الغابة، أي أن كلّ شيء يجري بإجمال القول، شأنه في لندن أو برلين أو روما أو بيتروغراد أو باريس. لم تمضِ بي أفكاري بأية حال في ذلك اليوم، وقبل زيارتي للدوقة، بعيداً إلى هذا الحدّ وكنت شديد الأسف أن يكون ربما فاتني، لانشغالي بالتقاء «جوبيان وشارلوس»، أن أشهد تلقيح الزهرة من جانب الدبور.

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم الثاني

الفصل الأول

[السيد «دو شارلوس» في المجتمع - طبيب - وجه السيدة «دو فوغوبير» المميز - السيدة «دارباجون»، نافورة «هوبير روبير» ومرح الدوق الأكبر «فلاديمير» - السيدة «دامونكور»، السيدة «دو سيتري»، السيدة «دو سانت أوفيرت»، إلخ. - محادثة غريبة بين «سوان» والأمير «دو غيرمانت» - «ألبيرتين» على الهاتف - زيارات بانتظار ثاني وآخر إقامة لي في «بالبيك» - الوصول إلى «بالبيك» - مشاعر الغيرة تجاه «ألبيرتين» - تقلّبات القلب].

لمّا كنتُ غير مستعجل في الوصول إلى أمسية آل «غيرمانت» تلك التي لم أكن أكيداً من أني مدعو إليها، فقد بقيتُ عاطلاً في الخارج؛ ولكنّ النهار الصيفي لم يكن أكثر مني استعجالاً في التحرك. ومع أن الساعة جاوزت التاسعة فهو الذي كان لا يزال في ساحة «كونكورد» يضفي على مسلّة الأقصر هيئة «نوغا» وردية. ثم هو غيّر لونها وقلبه مادة معدنية، فإذا المسلّة بذلك تضحي لا أكثر نفاسة فحسب بل تبدو مرققة وتكاد تكون ليّنة. كان يخيّل إليك أنه بمقدورك، لو شئت، لَيَّ هذه الجوهرة وأنه ربما جرى تزييفها تزييفاً طفيفاً. كان القمر الآن على صفحة السماء كشطر برتقالة قُشِرَ بلطف مع أنه بوشر بقضمه قليلاً. ولكنّه لا بدّ سيُصنع فيما بعد من الذهب الأكثر صلابة. وحدها كانت تختفي وراءه

نجمة صغيرة تعيسة سوف تكون بمثابة الرفيقة الوحيدة للقمر المتوحّد فيما سينتضي هذا الأخير، وهو يحمي صديقته ولكنّه أوفر جرأة ويمضي قُدماً، ينتضي بمثابة سلاح لا يقاوم، بمثابة رمز شرقي، هلاله الذهبي الواسع الرائع.

التقيت الدوق «دو شاتيلرو» أمام فندق الأميرة «دو غيرمانت»، وما عدت أتذكر أن الخشية كانت لا تزال تعذبني قبل نصف ساعة - وسوف تعود لتمسك بي بعد قليل على أية حال - خشية المجيء دون أن أكون دعيت. والمرء يجزع، وإنما يتذكر جزعه فترة طويلة أحياناً بعد انقضاء ساعة الخطر، وقد نسيه بفضل التلهي. وحيّيت الدوق الشاب ودخلت إلى القصر. ولكن لا بد لي هنا من الإشارة بادئ الأمر إلى ظرف زهيد سوف يمكّن من إدراك واقعة تتبع بعد قليل.

كان ثمة في ذلك المساء كما في سابقاته، واحد يفكر تفكيراً جماً بالدوق «دو شاتيلرو» دون أن يرتاب على أية حال بمن يكون: إنه حاجب السيدة «دو غيرمانت» (وكان يدعى في ذلك الحين «النبّاح»). كان السيد «دو شاتيلرو»، وما أبعد أن يكون أحد أُلّاف الأميرة - مثلما كان أحد أبناء عمومتها - يرحب به للمرة الأولى في منتداها. كان والداه قد اختصما معها منذ عشر سنوات وتصالحا وإياها منذ خمسة عشر يوماً وإذ اضطرا إلى التغيب في ذلك المساء عن باريس فقد عهدا لابنهما بتمثيلهما. وقبل ذلك ببضعة أيام كان حاجب الأميرة قد التقى في «الشانزيليزيه» شاباً ألفاه فاتناً ولكنّه لم يفلح في إثبات هويته. لا لأن الشاب لم يُبدِ لطفاً بمثل نبله. فجميع صنوف المعروف التي تصور الحاجب من واجبه أن يقدمها لسيد حديث السن إلى هذا الحدّ كان على العكس قد نالها هو. بيد أن السيد «دو شاتيلرو» كان خوّافاً بقدر ما كان قليل التبصر. وكان تصميمه على أن لا يكشف عن تنكّره يزداد بمقدار ما يجهل مع من يتعامل. ولعله كان أحسّ بخشية أكبر - مع أنها في غير محلها - لو عرف ذلك. كان الدوق قد اكتفى بأن يوهم أنه إنكليزي واقتصر إزاء جميع الأسئلة

المتحمسة التي يوجّهها الحاجب الراغب في الوصول إلى شخص يدين له بهذا القدر من السرور والعطايا، اقتصر على أن يجيب على امتداد شارع «غابرييل»: *I do not speak French* (لست أتكلم الفرنسية)[١].

ومع أن الدوق «دو غيرمانت» - بسبب نسب ابن عمه لأمه - كان يتظاهر على الرغم من كل شيء بأنه واجد شيئاً من آل «كورفوازييه» في صالة الأميرة «دو غيرمانت - بافيير»، فقد كانوا يحكمون بعامة على روح المبادرة والتفوق الفكري لدى هذه السيدة انطلاقاً من تجديد ما كنت تصادفه في أي مكان آخر في هذا الوسط. فقد كانت المقاعد بعد العشاء، وأية كانت أهمية الحفلة التي ستعقبه، مرتبة في منزل الأميرة «دو غيرمانت» على نحو يشكّلون معه جماعات صغيرة تتظاهر إن قضت الحاجة أن يديروا ظهورهم لبعضهم. كانت الأميرة تُبرز حينذاك حسّها الاجتماعي إذ تمضي للجلوس مع إحداها وكأنما تفضلها. وما كانت تخشى بأية حال أن تختار وتجتذب أحد أعضاء جماعة أخرى. فإن حملت الأميرة السيد «دوتاي» مثلاً، وهو وافق بالطبع، على أن يلاحظ أي عنق جميل كانت تملكه السيدة «دو فيلمور»، وكان مكانها في جماعة أخرى يكشفها من جهة ظهرها، فما كانت تتردّد في رفع صوتها قائلة: «يا سيدة «دو فيلمور»، السيد «دوتاي» بوصفه رساماً عظيماً ينظر بإعجاب إلى عنقك». وتحسّ السيدة «دو فيلمور» في ذلك دعوة مباشرة إلى الحديث، وبالمهارة التي يوليها تعوّدُ الحصان تدير كرسيها على مهل وفق قوس يساوي ثلاثة أرباع الدائرة وتجلس، دون أن تزعج جيرانها في شيء، في مواجهة الأميرة تقريباً. وتسأل ربة البيت التي لم تكفِها الاستدارة الماهرة المحتشمة التي قامت بها مدعوتها: «ألا تعرفين السيد «دوتاي»؟» - «لست أعرفه ولكني أعرف أعماله»، تجيب السيدة «دو فيلمور» بهيئة كلها احترام وجاذبية وبحضور بديهة كان كثيرون يحسدونها عليه، فيما توجّه للرسام المشهور

---

(١) وردت بالإنكليزية في متن النص.

الذي لم تكن المناداة عليه كافية لتقديمه لها بصورة رسمية تحية تكاد لا تلحظ، وتقول الأميرة: «تعال يا سيد «دوتاي» فسأقدمك للسيدة «دو فيلمور»». فكانت هذه تبدي براعة في إيجاد مكان لوضع لوحة «**الحلم**» بمقدار ما فعلت منذ قليل لتستدير صوبه. أما الأميرة فكانت تدفع لنفسها بكرسي، فهي ما نادت على السيدة «دو فيلمور» إلا لتجد حجة لترك الجماعة الأولى، حيث أمضت الدقائق العشر النظامية، وخص الثانية بمدة مساوية. وعلى مدى ثلاثة أرباع الساعة كانت الجماعات كافة قد حظيت بزيارتها التي تبدو كأنما يوجّهها في كل مرة الارتجال وضيوف الإيثار. ولكنّما مرادها على وجه الخصوص أن تبرز بأية تلقائية «تعرف سيدة كبيرة كيف تستقبل». بيد أن المدعوين إلى الأمسية أخذوا بالتوافد الآن وجلست ربة البيت في مكان غير بعيد من المدخل - منتصبة مهيبة في جلالها الذي يقرب أن يكون ملوكياً، فيما تلتمع عيناها من جرّاء توجّههما الذاتي - بين صاحبتي سمو يعوزهما الجمال وزوجة سفير إسبانيا.

كنت أنتظر دوري خلف بعض المدعوين الذين سبقوني، وكان قبالتي الأميرة التي لم يكن جمالها وحده دون شك، من بين الكثير سواه، ما يذكّرني بذلك الاحتفال. ولكن وجه ربة البيت كان شديد الكمال، كان محفوراً كميدالية جميلة إلى حدّ أنه احتفظ بالنسبة إليّ بخاصية تذكرية. وكان من عادة الأميرة أن تقول لمدعويها حينما تلتقيهم بضعة أيام قبل إحدى أمسياتها: «سوف تأتون، أليس كذلك؟» كما لو داخلتها رغبة كبيرة في التحدث إليهم. ولمّا لم يكن عليها على عكس ذلك أن تحدثهم في شيء فقد كانت تكتفي حالما يصلون أمامها، ودون أن تنهض، بقطع حديثها المقيم مع صاحبتي السمو وزوجة السفير وبإسداء الشكر وهي تقول: «لطيف أنكم جئتم»، لا لأنها ترى أن المدعو أبدى لطفاً بمجيئه بل لتزيد أيضاً من لطفها، ثم تضيف قولها وهي تدفع به في الحال إلى النهر «ستجد السيد «دو غيرمانت» على مدخل الحدائق»، وعلى هذا النحو كانوا يمضون في الزيارة ويدعونها وشأنها. وما كانت حتى تقول شيئاً لنفر منهم

وتكتفي بأن تُريهم عينيها الرائعتين اللتين من عقيق اليمان كما لو أنهم أقبلوا إلى معرض للحجارة الكريمة فحسب.

كان أول شخص يمر قبلي الدوق «دو شاتيلرو».

ولمّا كان عليه أن يرد على سائر الابتسامات والتحيات باليد التي ترده من الصالة فإنه لم يلحظ الحاجب. ولكنّ الحاجب تعرّفه منذ اللحظة الأولى. وهذه الهوية التي طالما رغب في الاطلاع عليها سوف يعرفها بعد فترة وجيزة. وما كان الحاجب متأثراً فحسب وهو يسأل «إنكليزياً» قبل البارحة عن الاسم الذي ينبغي أن يعلن عنه بل كان يحكم أنه متطفل وغير لبق. كان يبدو له أنه يزمع أن يكشف لكل الناس (مع أنهم لن يرتابوا بشيء) سراً كان من الإثم اكتشافه بهذه الطريقة وإعلانه على الملأ. وإذ سمع جواب المدعو: «الدوق «دو شاتيلرو» أحس باضطراب ناجم عن اعتزاز ظل معه حيناً أبكم صامتاً. ونظر إليه الدوق فعرفه وظن أنه هالك فيما كان الخادم، وقد استعاد رباطة جأشه وإذ يحيط بقدر كاف من تصنيف الشعارات كيما يكمل بنفسه تسمية مفرطة في تواضعها، كان يصرخ بالعزم الاحترافي الذي يطريه حنان خفي: «سمو الدوق «دو شاتيلرو»! ولكن جاء دوري الآن ليعلنوا عن اسمي.

وإذ كنت غارقاً في تأمّل ربة البيت التي لم تكن رأتني بعد فإني لم أفكر في الوظيفة الرهيبة بالنسبة إليّ - وإن كان على غير ما كانت عليه بالنسبة إلى السيد «دو شاتيلرو» - التي يشغلها هذا الحاجب الملتحف بالسواد كمثل جلاد يحيط به فريق من الخدم يرتدون الحلل الأكثر إشراقاً من أشخاص أقوياء شديدي البنية على استعداد للقبض على أي دخيل وبالإلقاء به خارجاً. وسألني الحاجب عن اسمي فقلته له بمثل الآلية التي يسمح بها محكوم بالإعدام بأن يوثق إلى الخشبة. ورفع رأسه في الحال بجلال، وقبلما يمكنني أن أرجوه تقديمي بصوت خافت لمراعاة اعتزازي بنفسي إن لم أكن مدعواً واعتزاز الأميرة «دو غيرمانت» إن كنت مدعواً، زعق بالمقاطع المخيفة بقوة يمكن أن تزعزع قبة القصر.

يروي «هكسلي» الذائع الصيت (الذي يشغل ابن أخيه حالياً مركزاً متقدماً في دنيا الأدب الإنكليزي) أن إحدى مريضاته لم تعد تجرؤ على ارتياد المجتمع الراقي إذ غالباً ما كانت ترى في المقعد نفسه الذي يدلّونها عليه بحركة متأدبة سيداً عجوزاً يجلس فيه. وكانت على يقين تام من أن الإشارة التي يدعونها بها أو وجود السيد العجوز كانا من باب الهلوسة، فما كانوا ليدلوها هكذا على مقعد مشغول، وحينما أرغمها «هكسلي» بغية شفائها على العودة إلى حفلة الأمسية مرّت بلحظة من التردّد المؤلم وهي تسائل النفس إن كانت الإشارة اللطيفة الموجهة إليها هي الشيء الحقيقي أم أنها امتثال لرؤية لا وجود لها، تزمع الجلوس علناً على ركبتي سيد بلحمه وعظمه. وكانت حيرتها الوجيزة قاسية عليها. وربما كانت أقل من حيرتي. فقد اضطررت منذ اللحظة التي وافاني فيها اسمي كقصف الرعد وكالهزيم الذي يسبق كارثة محتملة، اضطررت، كي أدافع عن حسن نيّتي وكأنما لا يقلقني أي شك أن أتقدم من الأميرة واثق النفس.

وأبصرتني وأنا على بضع خطوت منها وعوضاً عن أن تلبث جالسة شأنها مع المدعوين الآخرين نهضت وأقبلت إليّ، الأمر الذي لم يدع لي أن أشك بأنني كنت ضحية مكيدة. واستطعت بعد ثانية أن أطلق تنهيدة ارتياح مريضة «هكسلي» حينما عزمت على الجلوس على المقعد فوجدته خالياً وأدركت أن السيد العجوز إنما كان ثمرة الهلوسة. كانت الأميرة قد مدّت لي يدها وهي تبتسم، ولبثت واقفة على مدى لحظات بنوع اللطافة الخاص بمقطع شعري بـ «ماليرب» هذا ختامه:

«ويقف الملائكة لتكريمهم»[1].

واعتذرت عن أن الدوقة لم تكن بعد وصلت كما لو انبغى أن يصيبني

---

(١) Malherbe: شاعر من القرن السابع عشر هيّأ للكتابة الكلاسيكية بسعيه إلى الوضوح والصياغة المحكمة. والقصيدة عن الأطفال الأبرياء الذين أمر هيرودس ملك اليهودية بقتلهم علّه يقضي بذلك على الطفل يسوع.

الملل بدونها. وقد قامت من حولي لتبلغني تلك التحية، وهي تمسك بيدي، بتحويمة تفيض ظرفاً كنت أحسني مأخوذاً في دوامتها. وكدت أتوقع أن تسلمني حينئذ، مثل مشرفة على حفلة مسافر، عصا بعقفة عاج أو ساعة يد. ولكنّها لم تعطني بصريح العبارة شيئاً من ذلك، وكما لو أنها استمعت بالأحرى، بدلاً من أن ترقص «البوستون»، إلى رباعية قدسية لـ«بيتهوفن» خشيت أن تعكر ما سما من أصواتها، أوقفت الحديث عند هذا الحدّ أو هي بالأحرى لم تباشره بل أطلعتني فحسب، ولا يزال وجهها يشرق من أنها أبصرتني داخلاً، على مكان وجود الأمير.

وابتعدتُ عنها وخانتني الجرأة بعدها على الاقتراب منها، إذ أحسست أن ليس عندها على الإطلاق ما تقوله لي وأن هذه المرأة الرائعة قامةً وجمالاً والنبيلة نبل الكثيرات من السيدات الكبيرات اللواتي اعتلين منصة الإعدام بهذا القدر من الاعتزاز، ما كانت تستطيع، بإرادتها الطيبة التي لا تحد، وإذ تنقصها الجرأة على أن تقدم لي ماء الترنجان، إلا أن تكرر ما سبق أن قالته لي مرتين: «تلقى الأمير في الحديقة». ولكنّ الذهاب إلى الأمير إنما كان يعني الإحساس بشكوكي التي عادت تخامرني.

كان ينبغي في جميع الأحوال العثور على من يقدمني. وكنتَ تسمع جعجعة السيد «دو شارلوس» التي لا تنضب تطغى على سائر الأحاديث الأخرى، وكان يتحدث إلى معالي الدوق «دو سيدونيا» الذي تعرّف إليه منذ قليل. والناس يستشف بعضهم بعضاً بين مهنة وأخرى، وكذلك بين عيب وآخر. وقد استشم في الحال كل من السيد «دو شارلوس» والسيد «دو سيدونيا» عيب الآخر، وعيب كليهما في دنيا المجتمع أن يكونا من محترفي «المفاجأة الذاتية» إلى حدّ لا يطيقان معه أية مقاطعة. ولمّا حكما في الحال أن الداء لا دواء له، كما تقول قصيدة مشهورة، فقد صمّما لا على التزام الصمت بل أن يتحدث كل منهما دون أن يهتم لما قد يقوله الآخر. وقد تحققت بذلك تلك الضجة المبهمة الناجمة في مسرحيات

«موليير» الهزلية عما يقوله عدّة أشخاص في الآن نفسه من أشياء مختلفة. كان البارون متيقناً على أية حال أن تكون له الغلبة بصوته الداوي وأن يغطي صوت السيد «دو سيدونيا» الضعيف دون أن تفتر مع ذلك همة هذا الأخير، ذلك لأن الفترة الفاصلة، حينما يستعيد السيد «دو شارلوس» أنفاسه، كانت تملؤها وشوشة كبير القوم في إسبانيا الذي كان يوالي حديثه رابط الجأش. ولعلّني كنت سألت السيد «دو شارلوس» أن يقدمني للأمير «دو غيرمانت» ولكنّي كنت أخشى (وكنت أكثر من محقّ) أن يكون غاضباً مني. فلقد نهجت معه النهج الأكثر عقوقاً إذ أهملت للمرة الثانية عروضه ودون أن يصدر عني ما يشير إلى أني حيّ أُرزق منذ العشية التي صحبني فيها إلى البيت بذلك القدر من الود. وما كنت أملك مع ذلك بمثابة حجة مسبقة المشهدَ الذي رأيته منذ قليل، وفي هذه العشية ذاتها، يجري بين «جوبيان» وبينه. فما كنت أرتاب بشيء من هذا القبيل. صحيح أني قبل ذلك بقليل، وفيما كان والداي ينعيان عليَّ كسلي وأني لم أتكلف بعد عناء كتابة كلمة إلى السيد «دو شارلوس»، لُمتهما لوماً عنيفاً لما يريدان حملي على قبول عروض غير شريفة. ولكنّ الغضب وحده والرغبة في العثور على الجملة التي يمكن أن تكون من أكثرها إزعاجاً لهما أمليا عليَّ ذلك الجواب الكاذب. فما كنت بالحقيقة تخيلت أي أمر شهواني ولا حتى عاطفي في عروض البارون، وقد قلت ذلك لوالدي من باب الحماقة المحضة. ولكن المستقبل يسكن أحياناً في صدورنا دون أن ندري وكلماتنا التي نخالها كاذبة وإنما ترسم واقعاً آتَأكثرها إزعاجاً لهما أمليا عليوكان قبالتي الأميرة التي لم يكن جمالها ياً.

لعل السيد «دو شارلوس» كان غفر لي قلة امتناني، إلا أن ما كان يثير حنقه أن حضوري في هذا المساء إلى منزل الأميرة «دو غيرمانت»، وإلى منزل ابنة عمها كذلك منذ بعض الوقت، كان يبدو وكأنه يسخر من التصريح العلني التالي: «ليس يدخل أحد إلى هذه الصالات إلا بأمر مني»، كان خطأً جسيماً وجرماً يكاد لا يُغتفر أني لم أسلك السبيل

الترابي. والسيد «دو شارلوس» يعلم تمام العلم أن الصواعق التي يلوّح بها ضد الذين لا يمتثلون لأوامره أو الذين أخذ يكرههم شرعت تبدو، حسب رأي الكثيرين وأياً كان الحنق الذي يشحنها به، صواعق من ورق ولم يعد بمقدورها أن تقضي على أي كان، كائناً من كان. لكنّه ربما ظنّ أن سلطته المنتقصة، ولا تزال كبيرة، لبثت كاملة غير منقوصة في نظر المبتدئين أمثالي. ولذلك لم أحكم أني أُحسن الاختيار إن سألته خدمة لي في حفلة كان يبدو محض وجودي فيها تكذيباً يسخر من ادعاءاته.

في تلك اللحظة استوقفني رجل سوقي إلى حدٍّ ما هو الأستاذ أ... لقد أدهشه أن رآني في منزل آل «غيرمانت»، ولم تكن دهشتي بأقل أن أجده هناك إذ لم يبصر أحد فيما مضى ولن يبصر فيما تلا شخصاً من طرازه في منزل الأميرة. فقد كان شفى الأمير منذ فترة من مرض ذات الرئة الانتاني، بعدما مُسِحَ المسحة الأخيرة[1]. وكان من شأن الامتنان الخاص الذي حملته له السيدة «دو غيرمانت» إزاء ذلك الأمر أن جرى تجاوز العُرف والعادة وتمّت دعوته. ولمّا كان لا يعرف أحداً البتّة في تلك الصالات ولا يستطيع التجوال وحيداً إلى ما لا نهاية شأن رسول الموت فقد أحسّ بعدما عرفني، وللمرة الأولى في حياته، بطائفة من الأشياء يودّ أن يقولها لي، الأمر الذي كان يوليه تماسكاً، وكان ذلك أحد الأسباب التي من أجلها أقبل إليّ. كان ثمة سبب آخر. لقد كان يولي اهتماماً كبيراً أن لا يقع يوماً في خطأ تشخيصي. ولكن بريده كان زاخراً إلى حدّ أنه ما كان يتذكر تماماً وعلى الدوام، إن لم يرَ المريض سوى مرة واحدة، إن كان المرض قد سار تماماً سيره الذي حدّده له. فلعلّنا لم ننسَ أنني بادرت ساعة النوبة التي ألمّت بجدّتي إلى مرافقتها إلى منزله في المساء الذي كان يطلب أن يخيطوا له ذاك المقدار من الأوسمة. وما عاد يذكر منذ الزمن الذي انقضى بطاقة النعية التي أرسلت إليه في ذلك الحين. «إن السيدة

(١) في طقوس المسيحيين وتمنح عادة قبيل الوفاة، فهي تشير إذاً إلى دنوّ الأجل.

جدّتك قد ماتت، أليس كذلك؟» يقول لي بصوت يلطّف فيه شبه اليقين تخوفاً طفيفاً. «آه! أجل، فمنذ أول دقيقة شاهدتها فيها جاء تقديري قاتماً جداً، أذكر ذلك تماماً».

هكذا عرف الأستاذ أ. . . أو عاد فعرف بموت جدّتي دون أن يبدي، ولا بدّ من أن أقول هذا مدحاً له، وهو مديح يطال الهيئة الطبية بأسرها، أو ربما دون أن يداخله شعور بالرضى. إن أخطاء الأطباء لا تحصى. فهم عادة يفرطون في تفاؤلهم في ما يخص الحمية وفي تشاؤمهم في ما يخص الخاتمة. «بعض النبيذ؟ بكميات معتدلة لا يمكن أن يصيبك أذى من ذلك، فهو بإجمال القول منشط. . . المتعة الجسدية؟ إنها في النهاية وظيفة. أسمح بذلك دون إفراط، تفهمني تماماً؛ فالشطط في كل أمر معابة». وأي إغراء من ذاك يدفع المريض للتخلي عن هذين المرممين للصحة: الماء والعفة! وفي المقابل إن كان ثمة شيء في القلب أو كان زُلال، إلخ. فلن يطول بك المشوار. وما أسرع ما تُعزى اضطرابات خطيرة ولكنّها وظيفية لسرطان متخيَّل. ولا فائدة من موالاة زيارات لا يمكن أن توقف داء وبيلاً. فإن فرض المريض إذ ذاك على نفسه، وقد ترك وشأنه، حمية قاسية وشفي بعدها أو لبث على الأقل على قيد الحياة، فإن الطبيب، حينما يسلم عليه في شارع الأوبرا فيما كان يظنه منذ فترة طويلة في المقبرة، سوف يبصر في القبعة هذه لفتة وقحة مستهزئة. وإن نزهة بريئة تجري تحت سمع وبصر رئيس محكمة الجنايات ما كانت لتثير في صدره غضباً أعظم، رئيس محكمة الجنايات الذي أصدر قبل سنتين حكماً بالإعدام على المتسكع الذي يبدو عديم الخوف. والأطباء (والأمر لا يتعلق بجميعهم بالطبع ولسنا نغفل، في ذهننا، استثناءات رائعة) أكثر استياء بعامة وأكثر اغتياظاً لبطلان حكمهم منهم ابتهاجاً بتنفيذه. ذلك ما يفسر أن عرف الأستاذ أ. . . كيف لا يكلمني إلا بلهجة حزينة عن المصيبة التي ألمّت بنا، أياً كان السرور الفكري الذي أحسّ به دونما شك إذ رأى أنه لم يخطئ. لم يكن حريصاً على تقصير المحادثة التي كانت تزوّده بالتماسك وبسبب للبقاء. وحدّثني عن الحر

الشديد الذي يسود في هذه الأيام ولكنّه قال لي، مع أنه مثقف وكان يمكن أن يتكلم بفرنسية صحيحة: «ألا تعاني من زيادة «الحرارة» هذه؟» ذلك لأن الطب حقق بعض وجوه التقدم الطفيفة في معلوماته منذ «موليير»، ولكنه لم يحظ بشيء منه في مفرداته. وأضاف محدثي يقول: «ما ينبغي هو تجنّب «التعريق» الذي يسبّبه طقس كهذا ولا سيما في الصالات التي بولغ في تدفئتها. ويمكنك تلافي ذلك، حينما تعود وتوافيك الرغبة في الشرب، بالحرارة (التي تعني بالبداهة الأشربة الساخنة).

كان الموضوع يثير اهتمامي نظراً للطريقة التي توفيت بها جدّتي، وكنت قرأت مؤخراً في كتاب لعالِم كبير أن التعرّق يُلحق الضرر بالكليتين إذ يدفع عن طريق الجلد ما كان مخرجه من مكان آخر. كنت آسف لفترات الحر هذه التي ماتت جدّتي في أثنائها وكنت على شفا اتهامها. لم أحدّث الدكتور أ. . . بالأمر ولكنّه قال لي من تلقاء نفسه: «من مزايا فترات الحر الشديد هذه التي تشهد غزارة في التعرق أن الكلية تصيب من ذلك انفراجاً بالمقدار نفسه». وليس الطب علماً دقيقاً.

كان هَمّ الأستاذ أ. . . الوحيد، وقد تشبث بي، أن لا يتركني. غير أني كنت لمحت منذ قليل المركيز «دو فوغوبير» وهو يوجه للأميرة «دو غيرمانت» تحيات وانحناءات واسعة ذات اليمين وذات الشمال بعدما تراجع خطوة إلى الوراء. وكان السيد «دو نوربوا» قد يسّر لي مؤخراً التعرف به وكنت آمل أنني واجد فيه من يستطيع تقديمي لسيد البيت. إن حجم هذا المؤلَّف لا يسمح لي بأن أوضح هنا على أثر أية أحداث في صباه أصبح السيد «دو فوغوبير» أحد الأشخاص الوحيدين في دنيا المجتمع (وربما الوحيد) ممن اتفق لهم أن يَلِجوا ما كانوا يدعونه في سادوم «عالم أسرار» السيد «دو شارلوس». ولئن كان لوزيرنا لدى الملك «تيودوز» بعض معايب البارون نفسها فما كان ذلك إلا على صورة ظلال لها باهتة جداً. فما كان يظهر إلا بصيغة ملطفة إلى ما لا حدود عاطفية بلهاء هذه التناوبات في الود والبغضاء التي تدفع البارون إليها رغبته في الإبهار ثم خشيته -

وهي أيضاً من نسج الخيال - من أن يُحتقر أو يُكتشف على الأقل. ومع أن تلك التناوبات أضحت مدعاة للسخرية من جرّاء تعفف و«أفلاطونية» لديه (ضحى في سبيلهما، فعل الطامح الكبير، بكل متعة وذلك منذ أن بلغ سن المسابقة)، ومن جرّاء عجزه الفكري خصوصاً، فقد كان السيد «دو فوغوبير» يعاني منها مع ذلك، تلك التناوبات. وفيما كانت صنوف المديح المفرطة لدى السيد «دو شارلوس» تُكال بأعلى الصوت بألقٍ بلاغي حقيقي وتُتبَّل بأكثر صنوف السخرية رهافة وأشدّها إيلاماً من تلك التي تطبع المرء مدى الحياة، فإن الود لدى السيد «دو فوغوبير» كان يُلقي تعبيره على العكس في ابتذال إنسان من أرذل طراز ورجل من المجتمع الراقي وموظف، والمآخذ (وهي بعامة مختلفة تماماً كحالها عند البارون) تعبّر عنها نزعة للإساءة لا تكل ولكنّها خلو من النباهة ويزيد من طابعها المنكَر أنها كانت تناقض عادة الأقوال التي سبق أن أدلى بها الوزير قبل ستة أشهر وربما يدلي بها ثانية بعد انقضاء بعض الوقت: وهي انتظام في التغيير كان يولي مختلف مراحل حياة السيد «دو فوغوبير» شاعرية تكاد تكون فلكية وإن لم يكن أحد لولا ذاك يُذكّر أقل منه بالأفلاك.

لم يكن في تحية المساء التي ردّ بها على شيء مما ربما كانت عليه تحية السيد «دو شارلوس». فقد كان السيد «دو فوغوبير» يضفي على تلك التحية المسائية، بالإضافة إلى الأنماط الألف التي يظنها أنماط المجتمع الراقي والديبلوماسية، مظهراً بعيداً عن اللياقة رشيقاً بشوشاً ليبدو مفتوناً بالحياة من جهة - فيما يجتر في داخله الخيبات حياة وظيفية لا ترقية فيها يلاحقها تهديد الإحالة على التقاعد - وفتيّاً قوي الشكيمة فاتناً، في حين كان يرى، ولا يجرؤ من بعد حتى أن يمضي ويشاهد في المرآة، التجاعيد تنحفر في حوافي وجهٍ وَدَّ أن يحتفظ به مليئاً بصنوف الفتنة. وليس يعني ذلك أنه كان تمنّى «غزوات» فعلية كان يخشى محض فكرتها بسبب القيل والقال والفضائح والابتزاز. كان يبدو، وقد انتقل من تهتك يكاد يكون طفولياً على تعفف مطلق بدأ من اليوم الذي فكر فيه

بـ«الكيه دورسيه»[1]؟ وعزم على بناء مستقبل زاهٍ، كان يبدو مثل وحش في قفص يُنقّل في كل اتجاه نظرات يعمرها الخوف والشهوة والغباء. كان غباؤه عظيماً إلى حدّ لا يفكر معه أن «زُعران» فترة مراهقته ليسوا بعد صبية ويرتعش، حينما يصيح بائع صحف في وجهه قائلاً: «**جريدة الصحافة!**»، يرتعش هلعاً أكثر منه شهوة إذ يظن أنه عُرِف واكتُشف.

بيد أن السيد «دو فوغوبير»، وفي غياب المتع المضحى بها على مذبح عقوق «الكيه دورسيه»، كان يحس اندفاعات مفاجئة في فؤاده - ولذلك كان يودّ أن يلبث موضع إعجاب. والله يعلم عدد الرسائل التي كان يرهق بها الوزارة وأية حيل شخصية يلجأ إليها وعدد الاقتطاعات التي يجريها استناداً إلى سمعة السيدة «دو فوغوبير» (التي يظنونها، بسبب ضخامتها وطيب محتدها ومظهرها الرجولي وبسبب ضعف زوجها على وجه الخصوص، صاحبة قدرات بارزة وتقوم بمهام وزارية حقة) كي يُدخل في ملاك البعثة الوظيفي دون أي سبب مقبول شاباً يفتقر إلى أي مؤهل. صحيح أنه بعد انقضاء عدة أشهر أو عدة سنوات، ولأقل ما يبدو أن الملحق الباهت أبدى، دون أن يكون ثمة ذرة من سوء النية، ما ينم عن فتور إزاء رئيسه، فإن هذا الأخير كان يبدي في معاقبته، إذ يظن أنه موضع ازدراء أو خيانة، ما كان يُبدي بالأمس من اندفاع هستيري في غمره بالخيرات. كان يحرك السماوات والأرض كي يجري استدعاؤه ويتسلم مدير الشؤون السياسية في كل يوم رسالة: «ما عساكم تنتظرون لتخليصي من هذا الماكر؟ روّضوه قليلاً لمصلحته. وإنما حاجته أن يُرغَم قليلاً على شظف العيش». كانت وظيفة الملحق لدى الملك «ثيوودوز» غير مستحبة بعض الشيء بسبب ذلك. بيد أن السيد «دو فوغوبير» كان في كل ما تبقّى، وبفضل حس رجل المجتمع السليم لديه، أفضل ممثلي للحكومة الفرنسية في الخارج. فحينما حلّ مكانه فيما بعد رجل مزعوم التفوق وديمقراطي

---

(١) مقرّ وزارة الخارجية الفرنسية.

متزمّت كان عالِماً في كل الأمور، لم تلبث الحرب أن اندلعت بين فرنسا والبلاد التي كان يحكمها الملك.

والسيد «دو فوغوبير» ما كان يحب، على غرار السيد «دو شارلوس» أن يكون البادئ بالتحية. فكلاهما كانا يفضلان «رد التحية» إذ يخشيان على الدوام الأقاويل التي ربما سمعها عنهما منذ أن لم يرياه ذاك الذي كانا مدّا له اليد لتحيته لولا ذاك. أما بالنسبة إليّ فلم يقع على السيد «دو فوغوبير» أن يطرح السؤال على نفسه فقد كنت الأول في الذهاب لتحيته، إن لم يكن لأمر فلفارق السن على الأقل. وردّ عليّ ذاهلاً مفتوناً، فيما توالي عيناه اضطرابهما كما لو كان في كل جانبٍ برسيمٌ حُظِرَ رَعيُه. وظننت من اللياقة أن ألتمس منه تعريفي بالسيدة «دو فوغوبير» قبل تعريفي بالأمير الذي اعتزمت أن لا أكلمه إلا فيما بعد. وبدا أن فكرة القيام باتصالات مع زوجته تملؤه بهجة بالنسبة إليه وإليها على السواء ومضى بي بخطى ثابتة إلى المركيزة. بيد أنه لبث، بعدما وقف أمامها وأشار إليّ باليد والعينين وبكل مظاهر التقدير الممكنة، لبث معقود اللسان وانسحب بعد بضع ثوان يهزه الفرح ليدعني وحيداً مع زوجته التي بادرت في الحال تمدّ لي يدها ولكن دون أن تعلم إلى من توجّه أمارات التلطف تلك، فقد أدركتُ أن السيد «دو فوغوبير» نسيَ كيف يدعونني، بل لعلّه لم يتعرّفني ولم يشأ بداعي التأدب أن يقرّ لي بذلك فجعل التقديم مجرد عملية إيمائية. ورأيتني لذلك لم أكسب الكثير. فكيف أحمل امرأة لا تعرف اسمي على تقديمي لسيد البيت؟ كما رأيتني ملزماً بالتحدث لحظات إلى السيدة «دو فوغوبير». وكان الأمر يزعجني من وجهتَي نظر اثنتين. فما كنت أحرص على المكوث دهراً في هذه الحفلة إذ سبق لي أن اتفقت و«ألبيرتين» (وكنت قدمت لها مقصورة لمسرحية «فيدر»[1]) لتأتي لملاقاتي قبل منتصف

---

(١) *Phèdre* من المسرح الكلاسيكي في القرن السابع عشر وهي لكبير المسرحيين آنذاك «راسين».

الليل بقليل. ما كنت بالتأكيد مغرماً بها، وإنما انسقت في طلب مجيئها في هذا المساء لرغبة شهوانية بحتة على الرغم من أننا في تلك الفترة اللاهبة من العام حيث تُفضل النزعة الشهوانية المحررة التوجه إلى مطارح ذوق والبحث على وجه الخصوص عن الابتراد. فهي أكثر تعطشاً إلى شراب برتقال، إلى استحمام، بل إلى تأمّل هذا المقر المقشور الريان الذي يطفئ ظمأ السماء منها إلى قبلة فتاة. لكن كنت أنوي مع ذلك التخلص إلى جانب «ألبيرتين» - وهي تذكرني على أية حال بنداوة الموج - من صنوف الأسف التي لا بدّ أن يخلفها في نفسي الكثير من الوجوه الفاتنة (إذ كانت الأمسية التي تقيمها الأميرة أمسية للفتيات والسيدات في الآن نفسه). ثم إن وجه السيدة «دو فوغوبير» من ناحية أخرى، وهو «بوربوني»[1] كئيب، ما كان به أي جاذب.

كانوا يقولون في الوزارة، دون أن يضمِّنوا الأمر ذرة خبث، إن الزوج من كان في الأسرة يلبس التنانير والمرأة البناطيل. وكان ثمه قسط من الحقيقة أكبر ما يظنون. فالسيدة «دو فوغوبير» كانت رجلاً. فهل كانت تلك حالها على الدوام أم أنها أصبحت ما كنت أراها فيه، لا أهمية للأمر فإننا واجدون في كلا الحالين إحدى أكثر معجزات الطبيعة تأثيراً في النفس من التي تقرّب، ولا سيما الثانية منها، مملكة الإنسان من مملكة الأزهار. فالطبيعة في الافتراض الأول - إن سبق أن كانت السيدة «دو فوغوبير» العتيدة على الدوام بالمظهر الرجولي المتثاقل هذا - تولي الفتاة، بحيلة شيطانية مفيدة، هيئة رجل مضلِّلة. ويسعد المراهق الذي لا يحب النساء ويبتغي الشفاء، في العثور على مخرج قوامه اكتشاف خطيبة تمثّل له عتريساً من سوق الهال. وفي الحالة المقابلة إن لم تملك المرأة منذ البداية المزايا الرجولية فإنها تتخذها شيئاً فشيئاً لتروق زوجها حتى بصورة لاواعية بهذا النوع من التقليد الذي تتخذ به بعض الأزهار مظهر الحشرات التي «تبغي

(١) من طراز آل «بوربون» ومنهم ملوك فرنسا.

اجتذابها. فأسفها أن لا تكون محبوبة وأن لا تكون رجلاً يجعلها «تسترجل». فمن ذا لم يلاحظ، حتى خارج نطاق الحالة التي تشغلنا، إلى أي حدّ يُخلِص الأزواج العاديون كأكثر ما يكون إلى التشابه فيما بينهم، بل إلى تبادل صفاتهم أحياناً؟ كان أحد مستشاري ألمانيا السابقين، وهو الأمير «دو بولوف»، قد تزوج إيطالية. وقد لوحظ على مر الأيام فوق «البينشيو» كم اكتسب الزوج الجيرماني من رهافة إيطالية، والأميرة الإيطالية من خشونة ألمانية. وكل منا يعرف، كما نخرج إلى نقطة خارج مركز القوانين التي نرسمها، دبلوماسياً فرنسياً بارزاً لا يوحي بأصله إلا اسمه وهو من أكثرها شهرة في الشرق. وإذ نضج وشاخ تكشف داخله الشرقي الذي لم يُشكّ قط بوجوده، وإنك لتأسف إذ تراه لغياب الطربوش الذي يستكمله.

وكما نعود إلى ألوان من السلوك مجهولة تماماً لدى السفير الذي جئنا منذ قليل على التذكير بخطوط صورته المتكاثفة منذ الجدود، فإن السيدة «دو فوغوبير» كانت تحقق النموذج المكتسب أو المقدر الذي تمثل صورته الخالدة أميرة منطقة «البالاتينا» وهي دوماً بلباس الفرسان والتي بعدما أخذت من زوجها ما كان أكثر من الرجولة، وتمثلت عيوب الرجال الذين لا يحبّون النساء نددت في رسائلها، رسائل المرأة الثرثارة، بالعلاقات التي يعقدها فيما بينهم كبار الأسياد في بلاط لويس الرابع عشر. وإن أحد الأسباب التي تزيد من المظهر الرجولي لنساء من طينة السيدة «دو فوغوبير» هو الإهمال الذي يدعهن الزوج فيه، والخزي الذي ينتابهن من جرّائه، فيُصِمنَ بالعار كل ما كان من المرأة لديهن. ويخلصن في نهاية المطاف إلى اتخاذ المزايا والعيوب التي لا يملكها الزوج. فكلما ازداد طيشاً وتخنثاً وسلوكاً فاضحاً أصبحن وكأنهن الصورة التي فقدت سحرها للفضائل التي ينبغي للزوج أن يمارسها.

كان ثمة آثار من الخزي والملل والحنق تكدِّر وجه السيدة «دو فوغوبير» المنتظم الخطوط. وكنت أحس للأسف أنها تتأملني باهتمام

وفضول كواحد من هؤلاء الشبان الذين كانوا يروقون السيد «دو فوغوبير» والتي كم لعلها كانت تريد أن تشبههم الآن وقد أصبح زوجها المتشيخ يفضّل الشباب. كانت تنظر إليّ باهتمام جماعة من الريف ينسخون من دليل مخزن للأزياء الحديثة الحلة النسائية التي ما أكثر ما تليق بالمرأة الحلوة المرسومة فيه (وهي واحدة في الحقيقة على سائر الصفحات، ولكنّها تعددت بالوهم نساء مختلفات بفضل اختلاف الوقفات وتنوع التسريحات). لقد بلغ الجاذب النباتي الذي يدفع بالسيدة «دو فوغوبير» صوبي حداً جعلها تُمسِكُ بعنف بذراعي كي أمضي بها لاستقاء كوب من شراب البرتقال. ولكنني تملّصت بحجة أني لم أكن بعد تعرّفت سيد البيت وأنا أزمع الرحيل بعد قليل.

لم تكن المسافة التي تفصلني عن مدخل الحدائق حيث كان يتحدث إليّ بعض الناس كبيرة جداً، ولكنّها تبعث فيَّ قسطاً من الخوف أكبر مما لو اضطررت لاجتيازها أن أتعرض لإطلاق نار مستمر.

كان في الحديقة كثير من النساء اللواتي بدا لي من الممكن حملهن على تقديمي، وكن هناك لا يعلمن ما يفعلن فيما يتظاهرن بالإعجاب الشديد. والحفلات التي من هذا القبيل تجري بعامة قبل أوانها، إذ تكاد لا تُضْحي واقعاً إلا في الغد حيث تشغل اهتمام الجماعة التي لم تُدْعَ. إن الكاتب الحقيقي المجرد من اعتزاز غبي بالنفس يبديه الكثير من رجال الأدب، إن قرأ مقالة ناقد أظهر له على الدوام أعظم الإعجاب فرأى فيها أسماء مؤلفين ضحلين مذكورة فيها من دون اسمه، لا متسع لديه من الوقت للتوقف إزاء ما قد يكون في نظره موضع استغراب، فإن كتبه تستدعيه. ولكنّما لا شيء لدى امرأة المجتمعات تفعله وإذ ترى في صحيفة «**الفيغارو**»: «بالأمس أقام أمير وأميرة «غيرمانت» أمسية كبيرة، إلخ.»، فإنها تصيح متعجبة: «كيف ذلك؛ منذ ثلاثة أيام تحدثت على مدى ساعة إلى «ماري جيلبير» دون أن تقول لي شيئاً عن ذلك». وينفلق رأسها لتعلم ما الذي أمكن أن تفعله لآل «غيرمانت». ولا بدّ أن نقول بخصوص

حفلات الأمير إن الاستغراب كان أحياناً لدى المدعوين بمثل حجمه لدى من لم يُدْعَوْا. فقد كانت تنطلق حينما تتوقعها أقل ما تتوقع ويستدعون فيها أناساً نسيتهم السيدة «دو غيرمانت» على مدى سنوات. إن سائر ناس المجتمعات تقريباً تافهون إلى حدّ أن كلاً من أمثالهم لا يتخذ مقياساً للحكم عليهم سوى لطفهم فيُعزِّهم مدعواً ويمقتهم مستبعداً. ولئن كانت الأميرة في ما يخص هؤلاء لا تدعوهم، وإن كانوا في عداد أصدقائها، فإنما مردّ ذلك في الغالب خشيتها إغضاب «بالاميد» الذي ألقى عليهم الحِرْمَ. كان يسعني لذلك التأكد من أنها لم تكلم السيد «دو شارلوس» عني وإلا لما وجدتني هناك. لقد أسند مرفقه الآن، بمواجهة الحديقة وإلى جانب سفير ألمانيا، إلى درابزون الدرج الكبير الذي يعيدك إلى القصر حتى إن المدعوين، على الرغم من ثلاث أو أربع معجبات تجمّعن حول البارون وكن يحجبنه تقريباً، كانوا مرغمين على المجيء لتحيته تحية المساء. كان يردّ التحية وهو يدعو الناس بأسمائهم. وكنت تسمع على التوالي: «مساء الخير سيد «هازيه»، مساء الخير سيدة «دولاتور دو بانفيركلوز»، مساء الخير سيدة «دولاتور دو بانغوفيرنيه»، مساء الخير أيتها السفيرة العزيزة، إلخ.». كان ذلك يحدث زعقات مستمرة تقطعها توصيات مجانية وأسئلة (ما كان ينتظر الجواب عنها)، وكان السيد «دو شارلوس» يوجهها بلهجة ملطَّفة متكلفة، كي يُظهر اللامبالاة، ورقيقة: «إحرص ألا تصاب الصغيرة بالبرد فالحدائق دوماً على شيء من الرطوبة. مساء الخير مدام «دوبرانت»، مساء الخير مدام «دو ميكلمبور». هل جاءت الفتاة؟ وهل ارتدت فستانها الزهري الرائع؟ مساء الخير «سان جيران». كان في ذلك التصرف شيء من الكبرياء. فقد كان السيد «دو شارلوس» يعلم أنه «غيرمانتي» يشغل مركزاً راجحاً في هذا الاحتفال. ولكن لم يكن ثمة كبرياء فحسب، وكانت كلمة احتفال ذاتها تذكّر، بالنسبة للرجل ذي المواهب الجمالية، بالمعنى الفخم الغريب الذي يمكن أن تحمله لو أقيم هذا الاحتفال لا في منزل جماعة من دنيا المجتمعات بل في لوحة لـ«كارباتشيو» أو «فيرونيز». بل الأرجح أن

الأمير الألماني الذي يمثله السيد «دو شارلوس» كان لا بدّ يتصور بالأحرى الاحتفال الذي يجري في «**تانهاوزر**»، وهو نفسه على أنه «المارغراف» يقدّم على مدخل «فاربورغ» كلمة طيبة دانية الجانب إلى كل من المدعوين فيما تحيي تدفقهم في القصر أو الحديقة الجملة الطويلة التي تستعاد مئة مرة والواردة في «المارش» المشهورة.

كان لا بدّ لي مع ذلك أن أحزم أمري. كنت فعلاً أتعرّف نساء تحت الشجر كنت على علاقة صداقة متفاوتة معهن ولكنّما يبدو أنهن تحوّلن لأنهن في منزل الأميرة لا في منزل ابنة عمّها، وأني أشاهدهن جالسات لا أمام طبق من خزف «ساكسوني» بل في ظل أغصان شجرة كستناء. وما كانت أناقة الوسط لتغير في ذلك شيئاً، ولعل الاضطراب نفسه كان سكن صدري حتى لو أن الأناقة جاءت أقل إلى ما لا حدود مما هي في منزل «أوريان». فأما إن انطفأت الكهرباء ووقع علينا أن نستبدل بها مصابيح زيتية فإن كل شيء يبدو لنا وقد تغير. وانتزعتني السيدة «دو سوفريه» من دائرة شكوكي، وقالت لي وهي تُقبل إليّ: «مساء الخير. هل مضى زمن طويل دون أن تشاهد الدوقة «دو غيرمانت»؟» كانت تجيد في إكساب هذا النوع من الجمل نبرة تبرهن أنها ما كانت تقولها بمحض غباء، شأن أناس لا يعلمون ما يتحدثون به فيوافونك ألف مرة بذكر خبر شائع يغلب أن يتسم بالإبهام الشديد، ولكنّها قدمت على العكس بالعين خيطاً موجهاً دقيقاً يعني: «لا تظنن أني لم أتعرّفك، فإنك الشاب الذي رأيته في منزل الدوقة «دو غيرمانت». أتذكر تماماً». ومن أسف أن هذه الحماية التي تبسطها فوقي هذه الجملة الغبية في ظاهرها اللطيفة في مقصدها كانت هشة أشد الهشاشة وتلاشت حالما أردت استعمالها. فقد كانت السيدة «دو سوفريه» تملك، إن انبغى لها دعم التماس لدى واحد من ذوي النفوذ، الفن الذي تبدو به في نظر طالب الالتماس وكأنها توصي به وفي نظر الشخصية الرفيعة المستوى وكأنها لا توصي بالطالب بطريقة تولي بها هذه اللفتة المزدوجة المعنى قسطاً من العرفان بالجميل إزاء هذا الأخير دون أن

تحمّله أي دين إزاء الآخر. وقد أفادت هذه السيدة، بعدما شجعتني لطافتها على أن أسألها تقديمي للسيدة «دو غيرمانت»، من لحظة لم تكن فيها أنظار سيد البيت موجهة صوبنا فأخذت بي من كتفي مأخذ الأم ودفعت بي، وهي تبتسم للأمير الذي أشاح بوجهه فلا يستطيع أن يراها، دفعت بي بحركة حانية مزعومة ومقصودة في لاجدواها ألفيتني معها معطلاً وفي ما يقارب نقطة البداية. ذلكم جبن أهل المجتمع الراقي.

أما عن جبن سيدة أقبلت لتحيّيني وهي تدعوني باسمي فقد كان بعد أعظم. كنت أحاول العثور على اسمها فيما أتحدث إليها، وأتذكر بالتمام إني تناولت عشائي وإياها كما أتذكر الكلمات التي قالتها. ولكن انتباهي المنصبّ على المنطقة الداخلية التي تقبع فيها ذكرياتي عنها ما كانت تستطيع اكتشاف هذا الاسم، مع أنه كان هناك. وباشر فكري كأنما نوعاً من اللعب معه لإدراك تقاطعه والحرف الذي يبدأ به ولوضعه بكليته في الضوء في نهاية المطاف. ولا يُجديني ذلك فتيلاً؛ كنت أحس تقريباً كتلته ووزنه، أما بشأن أشكاله فكنت أقول في نفسي، وأنا أقارنها بالسجين الغامض القابع في الظلمة الداخلية: «ما هو هذا». ربما كان فكري بالتأكيد قادراً على إبداع الأسماء الأكثر صعوبة. والمصيبة أنه لم يكن عليه أن يبدع بل أن يقلد. فكلّ حركة للفكر على يسر إن لم تخضع للواقع. وهنا كان لا بدّ لي من الخضوع له. وأخيراً جاءني الاسم كله دفعة واحدة: «السيدة دارباجون». لكن من الخطأ القول إنه جاء، فإنه لم يظهر لي، فيما أعتقد، باندفاعة ذاتية. ولست أظن كذلك أن الذكريات البسيطة الجمة التي تتعلق بتلك السيدة والتي لم أفتأ أسألها العون لي (بصنوف من التحريض من هذا القبيل: «ويحك، إنها تلك السيدة صديقة السيدة «دو سوفريه» والتي تكنّ لفيكتور هوغو إعجاباً شديد السذاجة يخالطه الكثير من الذعر والفظاعة»). لست أعتقد أن هذه الذكريات جميعاً، وهي تنتقل مرفرفة بيني وبين اسمها، قد جاءت بأية فائدة في إعادته إلى السطح. ليس في هذه «التخباية» الكبرى التي تجري في الذاكرة

حينما نبتغي العثور ثانية على أحد الأسماء، ليس ثمة سلسلة من المقاربات المتدرجة. فإنك لا تبصر شيئاً ثم يظهر فجأة الاسم الصحيح والمختلف كثيراً عما يخيّل إلينا أننا حزرنا. فما هو الذي جاء إلينا. لا، وإني أظن بالأحرى أننا كلما امتد بنا العيش أمضينا الوقت في الابتعاد عن المنطقة التي يكون فيها الاسم مميزاً واضحاً وأني بتدريب لإرادتي وانتباهي كان يزيد من حدّة نظرتي الداخلية اخترقت فجأة منطقة نصف العتمة وأبصرت بوضوح. وإن يكن في جميع الأحوال أطوار انتقالية بين النسيان والتذكر، فإن هذه الأطوار إذ ذاك لاشعورية. ذلك لأن الأسماء المرحلية التي تعبر منها قبل أن نجد الاسم الحقيقي خاطئة ولا تقربنا في شيء منه، وهي ليست حتى أسماء بالمعنى الحقيقي ويغلب أن تكون مجرد صوامت لا نعود فنلقاها في الاسم الذي عثرنا عليه. ومهما يكن من أمر فإن عمل الفكر هذا الذي ينتقل من العدم إلى الحقيقة خفي إلى حدّ يمكن معه أن تكون تلك الصوامت الخاطئة خشبات إنقاذ أُعدّت سلفاً ومُدّت بغير ما مهارة لمساعدتنا في إدراك الاسم الصحيح. سوف يقول القارئ: «كل ذلك لا ينبئنا بشيء عن قلة كياسة تلك السيدة، ولكن بما أنك توقفت طويلاً إلى هذا الحدّ، دعني، سيادة المؤلف، أضيع عليك دقيقة إضافية لأقول لك إنه من المؤسف، وأنت بمثل شبابك آنذاك (أو هو بطلك إن لم يكن أنت)، أن تكون قليل الذاكرة إلى حدّ لا تستطيع معه تذكّر اسم سيدة كنت تعرفها أحسن المعرفة». الأمر مؤسف حقاً، سيادة القارئ، وأكثر مدعاة للحزن مما تظن حينما تحس فيه ما ينبئ بالزمن الذي ستختفي فيه الأسماء والكلمات من منطقة الفكر الواضحة والذي ينبغي فيه التخلي إلى الأبد عن أن نذكر لذاتنا أسماء من عرفناهم أفضل المعرفة. إنه لمن المؤسف حقاً أن نضطر إلى هذا العناء منذ شبابنا لنلقى أسماء نعرفها تماماً. ولو لم تقع هذه العاهة إلا بخصوص أسماء لا نكاد نعرفها ويطويها النسيان بصورة طبيعية جداً وكنا لا نريد أن نكلّف النفس عناء تذكّرها، لما كانت العاهة تلك لتخلو من المزايا. «وأية مزايا،

رجوتك؟» هيه! يا سيد، ذلك أن الداء وحده هو الذي يحملك على الملاحظة والتعلم ويسمح بتفكيك الآليات التي ما كنا لنعرفها بدونه. إن رجلاً يهوي كل مساء كما الكتلة في سريره ولا حياة فيه من بعد حتى لحظة الاستيقاظ والنهوض من النوم، هل يفكر مثل هذا الرجل في يوم بأن يقدم على الأقل ملاحظات صغيرة حول النوم إن لم يفلح في تقديم اكتشافات كبيرة؟ إنه يكاد لا يعرف إن كان نائماً. قليل من الأرق ليس عديم الجدوى لتقدير النوم وإسقاط بعض من نور على ذلك الليل. والذاكرة التي لا تخونك ليست محرضاً قوياً لدراسة ظاهرات الذاكرة. «وهل قدّمتك السيدة «دارباجون» في النهاية للأمير؟ «لا، ولكن اصمت ودعني أعاود روايتي.

كانت السيدة «دارباجون» أكثر جبناً بعدُ من السيدة «دو سوفريه»، ولكنّما لجبنها أعذار أكثر. فقد كانت تعلم أنها لا تزال تملك شيئاً من النفوذ في المجتمع، وقد ضعف ذلك النفوذ من جرّاء العلاقة التي سبقت لها مع الدوق «دو غيرمانت»؛ وكانت الضربة القاضية في تخلي هذا الأخير عنها. وقد نجم عن تعكير المزاج الذي أثاره طلبي إليها أن تقدّمني للأمير صمت بلغت السذاجة لديها أن تظنه تظاهراً بأنها لم تسمع ما قلت، بل هي حتى لم تلاحظ أن الغيظ يقطب حاجبيها. وربما لاحظت ذلك على العكس ولم تأبه للتناقض واستخدمته في درس للتكتم يمكنها أن تلقنني إياه دون إفراط في الفظاظة، وأقصد درساً صامتاً لم يكن لذلك أقل بلاغة. كانت السيدة «دارباجون» بأية حال على ضيق كبير إذ إن الكثير من العيون ارتفعت صوب شرفة من طراز «النهضة» كانت تطل في زاويتها، بدلاً من التماثيل الضخمة التي غالباً ما أقيمت فيها تلك الحقبة، الدوقة «دو سورجيس لودوك» الرائعة، ولا تقل عنها جمال شكل، وهي التي خلفت منذ قليل السيدة «دارباجون» في فؤاد «بازان دو غيرمانت». كنتَ تبصر، تحت قماش التول الأبيض الخفيف الذي يحميها من برودة الليل، جسمها ينطلق مرناً انطلاقة تمثال «النصر». ولم يعد لي ملجأ إلا لدى السيد «دو

شارلوس» الذي عاد إلى قاعة في الأسفل تفضي إلى الحديقة. واتسع لي كامل الوقت (فيما كان يتظاهر بالاستغراق في لعبة «ويست» يتصنّعها وتسمح له أن لا يبدو وكأنه يرى الناس) لأتأمل بإعجاب البساطةَ المتعمدة والفنية في سترته الرسمية التي تبدو، من جرّاء أشياء لا تذكر لا يتيسر تمييزها إلا لخياط، وكأنها «تآلف» من أسود وابيض من أعمال «ويستلر»؛ بل من أسود وأبيض وأحمر لأن السيد «دو شارلوس» كان يتقلد صليب وسام مالطا الديني من رتبة فارس وهو من المينا البيضاء والسوداء والحمراء علق بشريط عريض في فتحة الرداء. وفي هذه اللحظة قطعت السيدة «دو غالاردون» لعبة البارون وهي تقود ابن أخيها الفيكونت «دو كورفوازييه»، وهو شاب جميل المحيا وقح المظهر. وقالت السيدة «دو غالاردون»: «اسمح لي يا ابن العم أن أقدّم لك ابن أخي «أدالبير». «أدالبير»، أنت تعلم، أنه العم المشهور «بالاميد» الذي تسمع دوماً من يتحدث عنه». وأجاب السيد «دو شارلوس» قائلاً: «مساء الخير، سيدة «دو غالاردون»، وأضاف يقول حتى دون أن ينظر إلى الشاب: «مساء الخير يا سيد»، بهيئة فظة وصوت شديد القحة إلى حدّ أذهل الجميع. وربما حرص السيد «دو شارلوس»، إذ يعلم أن السيدة «دو غالاردون» تساورها الشكوك حول أخلاقه ولم تستطع أن تقاوم مرة متعة التلميح إليها، أن يقطع دابر كل ما كان يمكن أن تضيف من منمقات حول استقبال لطيف يخص به ابن أخيها، وأن يجاهر في الوقت نفسه مجلجلاً بلامبالاته حيال الشبان، وربما لم يتضح له أنه كان «أدالبير» المذكور قد استجاب لأقوال عمّته بمظهر يتسم بقسط وافر من الإجلال. وربما كان راغباً في أن يمضي أبعد من ذلك في معرفة ابن عم لطيف المعشر إلى هذا الحدّ فشاء أن يوفر لنفسه مكاسب عدوان مسبق، على غرار الملوك الذين يدعمون التحرك الدبلوماسي قبل مباشرته بتحرك عسكري.

لم تكن استجابة السيد «دو شارلوس» لطلبي أن يقدّمني بمثل الصعوبة التي ظننت. فإن هذا الـ«دون كيشوت» قد قاتل، على مدى السنوات

العشرين الأخيرة، الكثير من طواحين الهواء (وهي في الغالب أقارب يزعم أنهم أساءوا التصرف تجاهه)، ومُنع، وما أكثر ما كُرِّر المنع، «على أنه شخص يستحيل استقباله»، دعوة إلى منزل هؤلاء أو هاتيك من آل «غيرمانت» إلى حدّ أن هؤلاء أخذوا يخشون الاختصام مع كل الناس الذين يحبّونهم وأن يحترموا حتى الممات تردد بعض الوافدين الجدد عليهم وهم في شوق إلى معرفتهم، من أجل تبنّي الأحقاد الصاخبة، ولكنّما لا تفسير لها، لصهر أو ابن عم ربما أراد أن تهجر في سبيله الزوجة والشقيق والأبناء. لقد أخذ السيد «دو شارلوس» يتبيّن، وهو أوفر ذكاء من باقي «الغيرمانتيين» أنهم لا يتقيدون من بعد بما يأمر من استبعاد إلا مرة من اثنتين؛ وشرع، استباقاً للمستقبل وخشية أن يأتي يوم يكون هو من يستغنى عنه، شرع يسلم ببعض التراجع ويخفض أسعاره كما يقال. أضف أنه إن كان باستطاعته أن يوفر لشهور وسنين حياة مماثلة لشخص بغيض - وما كان ليسمح بتوجيه دعوة لمثله ولكان قاتل بالأحرى قتال عتالٍ مع ملكة، إذ إن صفة ما يقف حائلاً دونه لا حساب لها عنده من بعد - فقد كانت تنتابه في المقابل نوبات غضب أكثر تواتراً من ألا تصبح مجزأة مبعثرة إلى حدّ ما. «يا للأبله والنذل الشرير! سوف نعيد ذلك إلى مكانه ونكنسه في المجارير حيث لن تسلم المدينة لسوء الحظ من أذاه»، هكذا كان يصرخ، وإن يكن وحيداً في بيته، لدى قراءة كتاب يحكم أنه خالٍ من الاحترام أو حينما يتذكر قولاً رُدد على مسامعه. ولكنّ غضباً جديداً يصبه على معتوه ثان كان يلاشي الآخر فإن بدا الأول على شيء من الاحترام تمّ نسيان الأزمة التي سببها فهي لم تدم بما يكفي لتشكّل أساساً من الحقد يشاء عليه، ولعلّي لذلك - على الرغم من سخطه عليّ - لعلّي كنت نجحت لديه حينما سألته أن يقدّمني للأمير لو لم تخطر لي الفكرة المشؤومة في أن أضيف توخياً للدوقة وكي لا يمكنه أن يفترض لدي فظاظة في أن أكون دخلت وقد احتطت لأمري بأني سأعتمد عليه ليستبقيني: «تعلم أني أعرفهم تمام المعرفة، وكانت الأميرة شديدة اللطف

معي». «حسن؛ وإن كنت تعرفهم فما حاجتك بي لأقدمك؟» يجيبني قائلاً بلهجة قاطعة فيما يدير لي ظهره ويعود إلى ما يتظاهر به من لعب مع القاصد الرسولي وسفير ألمانيا وشخص ما كنت أعرفه.

حينئذ تنامى إليّ، من أقاصي تلك الحدائق التي كان الدوق «ديغيون» يهتم فيها بتربية الحيوانات النادرة، وعبر الأبواب المشرعة، صوت اشتمام كان يستنشق هذه الأناقات الكثيرة ولا يريد أن يضيع شيئاً منها، واقترب الصوت فتوجهت تحسباً لكل طارئ في اتجاهه إلى حدّ جاءت فيه كلمة «مساء الخير» همساً في أذني على لسان السيد «دو بريوتيه»، لا كالصوت المقعقع المثلم لسكين يجلخ بغية شحذه، ولا حتى كصوت الخَنّوص البري مخرب الأراضي المزروعة، بل كصوت منقذ محتمل. كان أقل اقتداراً من السيدة «دو سوفريه» ولكنّه أقل منها إصابة في الصميم بالإعراض عن خدمة الآخرين وأكثر ارتياحاً مع الأمير من السيدة «دارباجون»، وربما ساورته أوهام حول وضعي في وسط آل «غيرمانت» أو ربما عرفها أفضل مني، ولكني صادفت في الثواني الأولى بعض المشقة في الاستحواذ على انتباهه لأنه، إذ ترفّ فتحات أنفه ويتوسع منخراه، كان يجابه في كل جانب وهو يحملق بصورة غريبة عبر نظارته الوحيدة كما لو ألقى نفسه أمام خمس مئة رائعة فنية. ولكنّه بعدما سمع سؤالي تقبّله بارتياح وصحبني إلى الأمير وقدّمني له بهيئة نهمة متكلّفة عامية كما لو أنه أَمرّ إليه طبق حلويات محمصة وهو ينصحه بها. وبقدر ما كان استقبال الدوق «دو غيرمانت»، حينما يشاء ذلك، لطيفاً يتسم بالرفاقية ودوداً أليفاً بقدر ما ألفيت استقبال الأمير متكلفاً رسمياً متعالياً. كاد لا يبتسم لي ودعاني بلهجة رزينة: «يا سيد». وغالباً ما سمعت الدوق يهزأ من غطرسة ابن عمه. بيد أني أدركت في الحال في أول كلمات قالها لي، وكانت تتناقض بفتورها وجدّيتها أشدّ التناقض مع حديث «بازان»، أدركت أن الرجل المستخف في أعماقه كان الدوق الذي كان يحدثك منذ الزيارة الأولى حديث «الند للند»، وأن من كان يملك البساطة الحقة من ابنَي العم

الاثنين إنما كان الأمير. فقد لقيت في تحفّظه إحساساً أعظم، لا أقول بالمساواة، فلعل الأمر ما كان ممكن التصور بالنسبة إليه، بل على الأقل بالتقدير الذي يمكن أن نخص به مرؤوساً، كما هي الحال في سائر الأوساط الوثيقة التراتب، في القصر العدلي على سبيل المثال وفي كلية جامعية حيث ربما أخفى مدّع عام أو «عميد» وعيا وظيفتهما السامية قسطاً أوفر من البساطة الحقيقية، وحينما تتعرفهما أكثر من ذي قبل فمقداراً أعظم من الطيبة والبساطة الحقة والوداد في تعاليهما التقليدي مما يُبدي من كانوا أكثر عصرية منهم في تصنّع الرفاقية الممزاحة وقال لي بلهجة متحفظة إلا أنها تنم عن الاهتمام: «هل تنوي السير على خطى السيد والدك؟» فأجبت عن سؤاله إجابة موجزة وقد أدركت أنه لم يطرحه إلا بداعي التلطف وابتعدت لأدع له أن يستقبل الوافدين الجدد.

وأبصرتُ «سوان» وأردت التحدث إليه ولكنّي رأيت أن الأمير «دو غيرمانت» قام في الحال، بدلاً من تقبّل تحية زوج «أوديت» المسائية في مكان جلوسه، بسحبه معه إلى أقصى الحديقة، ولكن بعض الناس قالوا لي «كيما يطرده من المنزل».

وإذ كنت شديد الشرود في دنيا المجتمع إلى حدّ أني لم أعلم إلا ما بعد الغد من الصحف أن أوركسترا تشيكية قد عزفت طوال الأمسية وأن الأسهم النارية الملونة توالت بين دقيقة وأخرى، استعدتُ بعض القدرة على الانتباه إذ وافتني فكرة المضي لمشاهدة نافورة الماء الشهيرة من أعمال «هوبير روبير».

في فرجة من الغابة تحتجزها أشجار جميلة، كان بضعة منها بمثل قدمها، كنت تراها من البعيد، وقد غرست جانباً، ممشوقة لا حراك بها متصلبة لا تدع للأنسام أن تهز سوى الجزء المتساقط الأكثر خفة من عمامتها الشاحبة الراعشة. كان القرن الثامن عشر قد صفى أناقة خطوطها ولكنّه بدا، وقد ثبّتَ طراز النافورة، كأنه أوقف نبض الحياة فيها، فقد كنتَ من تلك المسافة تحس الفن فيها أكثر من إحساسك الماء. كانت

السحابة الندية نفسها التي تتراكم دون انقطاع في أعلى قمتها تحتفظ بطابع العصر كتلك التي تتجمع في السماء حول قصور «فيرساي» ولكنك كنت تتبيّن عن قرب أنها، فيما تراعي، شأن الحجارة في قصر قديم، الرسم الذي سبق اختطاطه، كان ثمة على الدوام مياه جديدة تندفع فكانت إذ تبغي الانصياع لأوامر المهندس القديمة لا تنفذها بالدقة إلا حين تبدو وكأنها تنتهكها إذ تستطيع الآلاف من قفزاتها المبعثرة وحدها أن توليك من البعيد انطباعاً باندفاعة واحدة، وكانت هذه في الواقع متقطعة بمثل تواتر تبعثر سقتها في حين كانت بدت لي في البعيد لا تقبل اللّيّ كثيفة لا فجوة في تواليها. وكنت ترى من مسافة قريبة أن هذا اللاانقطاع، وهو في الظاهر خطيّ تماماً، إنما كانت توفره على جميع نقاط تصاعد نافورة موازية تفد إليها بانطلاقة جانبية وتصعد إلى نقطة أعلى من الأولى وبعدما تمضي بدورها إلى ارتفاع أعلى ولكنّه مرهق لها كانت ثالثة تحلّ محلها. وعن قرب كانت بعض نقاط فقدت القوة تنثني ساقطة عن عمود الماء فتلتقي على دربها شقيقاتها الصاعدات فترفرف أحياناً ممزقة وقد علقت في دوامة هواء حركة هذا التفجر الذي لا يعرف الكلل، ترفرف قبل أن تهوي في الحوض. وقد كانت تعاكس، بصنوف تردّدها ومسارها في الاتجاه العكسي وتحجب بضبابها اللين استقامة وتوتر هذا الجذع الذي يحمل من فوقه سحابة متطاولة تؤلفها آلاف من القطيرات ولكنّها في الظاهر خُطت بلون رمادي مذهب لا يتحول، وكانت ترتفع لا تَقَوُّضَ فيها ثابتة مديدة سريعة لتنضم إلى سحب السماء. ولكنّ هبة ريح كانت كافية لسوء الحظ لتهوي بها في خط مائل إلى الأرض؛ بل إن محض نافورة متمردة كانت تغير أحياناً اتجاهها، ولعلها كانت بلّلت حتى العظام الجمهور المتهور المتأمل لو لم يقف على مسافة كافية منها.

وقد وقع أحد تلك الحوادث التي ما كانت تقع إلا لحظة يهبّ النسيم فكانت مزعجة إلى حدّ ما. لقد أُوهِمت السيدة «دارباجون» بأن الدوق «دو غيرمانت» - ولم يكن وصل في الحقيقة - كان بصحبة السيدة «دو

سورجيس» في الأروقة التي من رخام وردي والتي يبلغون إليها بطريق صف الأعمدة المزدوج المحفور في الداخل والذي ينطلق صعوداً من حافة الحوض. بيد أن هبّة قوية من أنسام حارة لوت، في اللحظة التي كانت السيدة «دارباجون» تزمع فيها سلوك طريق أحد صفَّي الأعمدة، نافورة الماء وغمرت السيدة الجميلة غمراً تاماً إلى حدّ أنها تبلّلت، والماء يتقطر من تدويرة الصدر داخل فستانها، كما لو أنها غطست في حوض استحمام. حينئذ دوّت على مسافة غير بعيدة منها غمغمة موزونة قوية حتى ليستطيع سماعها جيش بأكمله وكانت تمتد بين الفينة والفينة كما لو أنها وجهت لا إلى مجمل القوات بل إلى كل قسم منها على التوالي؛ وكان الدوق الأكبر «فلاديمير» الذي كان يضحك بملء الفؤاد وهو يشهد تغطيس السيدة «دارباجون»، الأمر الذي كان أطرف ما شهده في حياته كلها، كما كان يحلو له أن يقول فيما بعد. وإذ كان بعض الأشخاص من محبي الخير يلفتون الرجل المسكوبيّ إلى أن كلمة عزاء منه ربما كانت مستحقة وبعثت السرور في فؤاد هذه المرأة التي كانت، على الرغم من تمام سنيها الأربعين وفيما هي تتنشف بمنديلها دون أن تطلب معونة أحد تحاول التخلص على الرغم من الماء الذي يبلّل بخبث حافة الحوض، ظن الدوق الأكبر، وكان على طيبة قلب، ظن من واجبه الامتثال، فتناهى إلى الأسماع ما إن كادت تهدأ آخر جلجلات ضحكته العسكرية هزيم آخر أشد عنفاً من الأول. كان يصرخ قائلاً وهو يصفق كأنما داخل المسرح: «مرحى أيتها العجوز»! ولم يرق للسيدة «دارباجون» أن تمتدح مهارتها على حساب شبابها. ولمّا قال لها أحدهم وقد أصمّه ضجيج الماء، مع أنه كان يغلب عليه صوت سيادته الراعد: «أعتقد أن سموّه الإمبراطوري قال لك شيئاً»، أجابت قائلة: «لا، كان ذلك موجهاً للسيدة «دو سوفريه»».

اجتزتُ الحدائق وصعدت الدرج حيث كان غياب الأمير الذي اختفى جانباً بصحبة «سوان» يزيد حول السيد «دو شارلوس» من جمهور المدعوين مثلما كان يتجمع عدد أكبر من الناس، لدى غياب لويس الرابع عشر عن

«فيرساي»، في منزل «السيد» شقيقه. واستوقفني البارون وأنا أمرّ به فيما كان خلفي سيدتان وشاب يقتربون لتحيته.

وقال وهو يمدّ إليّ يده: «لطيف منك أن أراك هنا». «مساء الخير سيدة «دولاتريمواي»، مساء الخير يا عزيزتي «هيرميني». ولا شك أن تذكر ما سبق أن قاله لي حول دوره كرئيس في فندق آل «غيرمانت» كان يبعث فيه الرغبة في أن يبدو وكأنه يحس، تجاه ما كان يغضبه ولكنّه لم يستطع أن يحول دونه، ارتياحاً أكسبه ما به من وقاحة السيد الكبير وتشتت هستيري، أكسبه في الحال شكلاً من السخرية المفرطة فأردف يقول: «لطيف منك ولكنّما طريف جداً على وجه الخصوص». وأخذ يطلق قهقهات بدت وكأنها تبرز في الآن نفسه سروره وعجز الكلام البشري عن التعبير عنه، فيما أخذ بعض الأشخاص، وهم يعلمون كم كان عسير الملتقى ومهيأ «للفورات» الوقحة، يقتربون وبهم فضول ثم يطلقون سيقانهم للريح باستعجال يكاد يخلو من اللياقة. وقال لي وهو يلمس كتفي بلطف: «لا يسوؤك ذلك، فإنك تعلم أني أودك. مساء الخير يا «أنتيوش»، مساء الخير «لوي رونيه». ثم سألني بنبرة توكيدية أكثر منها مساءلة: «هل ذهبت لرؤية النافورة؟ شيء جميل جداً، أليس كذلك؟ شيء رائع. بل ربما أمكن بالطبع أن يكون بعد أفضل بحذف بعض الأشياء، وليس إذ ذاك شيء يماثلها في فرنسا. ولكنّها في وضعها الراهن في عداد أفضل الأشياء. سيقول لك «بريوتيه» إنهم أخطؤوا في وضع فوانيس ملونة في محاولة يُنسى بها أنه هو صاحب الفكرة. ولكنّه في النهاية لم يفلح إلا أقل القليل في «تقبيحها»، فإنه لأصعب بكثير أن تُشوّه رائعة من أن تُبدعها. وكنا ارتبنا مذاك قليلاً بأن «بريوتيه» أقل اقتداراً من «هوبير روبير».

وعدت إلى صف الزائرين الذين كانوا يدخلون إلى الفندق. وسألتني الأميرة التي هجرت منذ قليل مقعدها في المدخل وكنت أصحبها في عودتها إلى الصالات: «هل مضى زمن طويل على لقائك ابنة عمّي اللذيذة «أوريان»؟» وأضافت ربّة البيت تقول: «لا بدّ أن تجيء هذا المساء، فقد

رأيتها بعد الظهر ووعدتني بذلك. أعتقد على أي حال أنك تتعشى مع كلينا لدى ملكة إيطاليا، يوم الخميس في السفارة. سوف تكون هناك جمهرة من أصحاب السمو، وسيُشيع ذلك الكثير من الرهبة». وما كان يمكن أن يرهبوا الأميرة «دو غيرمانت» التي كانت صالاتها تغص بهم والتي كانت تقول: «أعزائي من آل «كوبور» كما لعلها تقول «كلابي العزيزة». ولذلك قالت السيدة «دو غيرمانت»: «سيشيع ذلك الكثير من الرهبة» عن محض غباء وهو بين قوم المجتمعات راجح حتى على الغرور. فقد كانت في ما يخص أنسابها أقل علماً بها من حامل شهادة «الأستاذية» في التاريخ. أما في ما يتعلق بمعارفها فقد كانت تحرص أن تبدي أنها تعرف الألقاب التي أطلقت عليهم. ولما سألتني الأميرة إن كنت سأتناول العشاء في الأسبوع التالي في منزل المركيزة «دو لابنَبة متطاولة تؤلفها آلاف من الفلى شيء من الاحترام تمّ نسيان الأزمة التي سببها فهي لم تدم بما يكفيومليير» التي كثيراً ما كانوا يدعونها «لابوم» صمتتْ على مدى لحظات بعد أن حصلت مني على جواب بالنفي. ثم أضافت قولها، دونما سبب آخر غير عرض مقصود لغزارة علمية غير مقصودة وتفاهة ومجاراة للروح السائدة: «إنها لامرأة على شيء من الإمتاع «لابوم»!».

وفيما كانت الأميرة تتحدث إليّ، كان الدوق والدوقة «دو غيرمانت» يهمّان بالضبط بالدخول. لكنّي لم أستطع بادئ الأمر أن أبادر للقائهما فقد تلقفتني زوجة سفير تركيا لدى مروري بها وصاحت وهي تدلّني على ربة البيت التي تركتها منذ قليل، صاحت وقد أمسكت بذراعي: «ما أطيب الأميرة امرأةً؛ وأي كائن يفوق الجميع؛ يبدو لي أني لو كنت رجلاً»، تضيف قولها بشيء من السفالة والشهوانية الشرقيتين، «لوقفت حياتي لهذا المخلوق السماوي». وأجبت أنها تبدو لي فاتنة ولكنني كنت أكثر معرفة بالدوقة ابنة عمها. وقالت لي زوجة السفير: «ولكن ليس ثمة مقارنة البتّة. إن «أوريان» امرأة مجتمع فاتنة تستمد نباهتها من «ميميه» و«بابال»، فيما «ماري جيلبير» شخصية مهمة».

لستُ شغوفاً البتّة بأن يقال لي هكذا دون اعتراض الرأي الذي ينبغي أن أتخذه في أناس أعرفهم. ولم يكن ثمة سبب أي سبب كي يتيسر لزوجة سفير تركيا إبداء حكم على مقام الدوقة «دو غيرمانت» أكثر صواباً من رأيي. ثم إن ما يفسر كذلك انزعاجي من زوجة السفير أن عيوب مجرّد واحد من المعارف، بل حتى الصديق، إنما تؤلف بالنسبة إلينا سموماً حقيقية نحن لحسن الحظ محصّنون ضدها بالتعوّد. ولنقل مع ذلك، دون أن نأتي بأدنى وسيلة لمقارنة علمية ودون التحدث عن العوار، إن ثمة في صميم علاقات الصداقة أو العلاقات المجتمعية البحتة عداء شفي مؤقتاً ولكنه يعاود على شكل نوبات. والمرء يعاني عادة القليل من هذه السموم ما دام الناس «طبيعيين». لكن زوجة سفير تركيا، آن تقول «بابال» و«ميميه» لتشير إلى أناس لا تعرفهم، كانت توقف مفاعيل «تعوُّد السموم» التي تجعلها عادة محتملة. فكانت تزعجني، والأمر يتزايد طابع الظلم فيه بقدر ما كانت تتحدث على هذا النحو لتفلح في حملك على الاعتقاد بأنها وثيقة الصلة بـ«ميميه» ولكن من جرّاء معرفة بالأمور عجولة تدفعها إلى تسمية هؤلاء السادة النبلاء وفق ما تعتقد أنه العُرف في البلاد. فقد أنجزت دراستها في بضعة شهور ولم تتبع التسلسل الدراسي. ولكنني كنت أجد لانزعاجي في المكوث إلى جانب زوجة السفير، وأنا أُعمِل الفكر فيه، سبباً آخر. فلم يكن مضى زمن طويل منذ قالت لي هذه الشخصية الدبلوماسية في منزل «أوريان» بمظهر محفز جاد إن الأميرة «دو غيرمانت» كانت صراحة ثقيلة الظل. ورأيت حسناً أن لا أتوقف عند هذا الانقلاب. فإنما جاءت به الدعوة إلى حفلة هذا المساء. لقد كانت زوجة السفير صادقة تمام الصدق ساعة تقول لي إن الأميرة «دو غيرمانت» مخلوق رائع، وقد اعتقدتْ ذلك على الدوام. ولما لم تُدعَ البتّة إلى الآن إلى منزل الأميرة فقد ظنت من واجبها أن تعطي هذا النوع من غياب الدعوة شكل امتناع طوعي قائم على مبادئ. أما الآن وقد دُعيت وستظل منذ الآن مدعوّة على الأرجح فقد أضحى بمقدورها التعبير بحرية عن ودادها. فليس

ثمة حاجة، كما نفسر ثلاثة أرباع الآراء التي نُبديها في الناس، أن نذهب إلى حدّ خيبات الحب، إلى حدّ الاستبعاد من السلطة السياسية. فالحكم يظل معلقاً وإنما تحدّده دعوة رُفضت أو قُبلت. وزوجة سفير تركيا على أية حال، «كانت تقع موقعاً حسناً» كما كانت تقول الدوقة «دو غيرمانت» التي تولّت معي تفتيش الصالات. لقد كانت على وجه الخصوص مفيدة جداً. إن نجمات المجتمع الحقيقيات يمللن الظهور فيه. ومن كان راغباً في رؤيتهن عليه في الغالب الهجرة إلى نصف كرة آخر حيث يكنّ وحيدات تقريباً. ولكنّ مثيلات زوجة السفير العثماني، وهنّ كلهن حديثات العهد في دنيا المجتمعات، فلا يكففن عن التألق فيها وفي كل مكان في الآن نفسه إن جاز القول. وهنّ مفيدات في أنواع التمثيليات تلك المدعوة أمسية أو حفلة راقصة وحيث يفضلن أن يجرجرن محتضرات على أن تفوتهن الحفلة. إنهن الممثلات الصامتات اللواتي يمكن دوماً الاعتماد عليهن، المندفعات كي لا يفوتهن احتفال. لذلك يبصر الشبان الأغبياء فيهن، إذ يجهلون أنهن نجمات مزيفات، ملكات للأناقة في حين لا بدّ من درس كي يوضح لهم بموجب أية أسباب تبدو السيدة «ستانديش» التي يجهلونها والتي ترسم مساند بعيداً عن العالم، تبدو على الأقل سيدة بمثل مرتبة الدوقة «دو دودوفيل».

كانت عينا الدوقة «دو غيرمانت» في نطاق الحياة العادة ساهيتين وبهما شيء من الحزن. كانت تجعل فيهما فحسب التماع ألق روحي في كل مرة يقع عليها أن تحيّي صديقاً كما لو كان بالضبط إحدى لطائف الكلام أو نكتة ممتعة أو أطايب لجماعة مرهفة خلف تذوقها على وجه الذواقة مسحة من رقة وابتهاج، ولكنّها كانت ترى، بخصوص الأمسيات الكبيرة وإذ يقع عليها إلقاء فرط من التحيات أنه ربما أرهقها أن تطفئ في كل مرة النور بعد كل واحدة منها. ومثلما ذواقة الأدب، حين يمضي إلى المسرح ليشهد جديد أحد اربابه، مثلما يبدي من يقين من أنه لن يقضي أمسية تعيسة إذ يكون قد هيأ شفته، وهو يسلم حاجاته للعاملة، لابتسامة

بادية الذكاء وأذكى نظرته من أجل موافقة ساخرة، هكذا كانت الدوقة توقد، حال وصولها، على امتداد كامل الأمسية. وفيما كانت تسلم معطفها المسائي، وهو أحمر رائع من حمرة «تييبولو» وقد أفسح المجال لرؤية غل حقيقي من الياقوت الأحمر يحتبس عنقها، وبعدما ألقت على فستانها تلك النظرة الأخيرة السريعة، نظرة الخياطة الدقيقة المكتملة وهي نفسها نظرة امرأة المجتمعات، تأكدت «أوريان» من بريق عينيها بما لا يقل عن مجوهراتها الأخرى. وعبثاً سارعت بعض «الألسنة الخيرة» من أمثال السيد «دو جوفيل» إلى الارتماء على الدوق لمنعه من الدخول: «أفتجهل إذاً أن «ماما» المسكين يشرف على الموت؟ لقد منح الأسرار المقدسة منذ قليل». وأجاب السيد «دو غيرمانت» وهو يُبعد الرجل المزعج عن دربه ليدخل: «أعرف، أعرف. إن القربان الأخير قد جاء بأعظم الأثر»، يضيق قوله وهو يبتسم ابتهاجاً بفكرة الحفلة التي قرر أن لا تفوته في أعقاب أمسية الأمير. وقالت لي الدوقة: «ما كنا نريد أن يعلم الناس أننا عدنا. وما كانت ترتاب بأن الأميرة سبق أن أبطلت صحة هذا القول حينما روت لي أنها شاهدت لفترة وجيزة ابنة عمها التي وعدتها بالمجيء. وقال الدوق بعد نظرة طويلة حط بها، على مدى خمس دقائق، ثقيلة على امرأته: «لقد حكيت لـ«أوريان» عما ساورك من شكوك». وصرحتْ أنها غير معقولة، وقد تبيّنت الآن أنها لا أساس لها وأنه لا يقع عليها أي مسمى تقوم به لمحاولة تبديدها فمازحتني طويلاً: «أية فكرة هذه أن تظن أنك غير مدعو؛ الدعوة قائمة على الدوام. ثم إني أنا هناك. أفتظن أني ما كنت قادرة على أن تدعى إلى منزل ابنة عمي؟» ولا بدّ أن أقول إنها كثيراً ما فعلت فيما بعد من أجلي أموراً تتجاوزها كثيراً في الصعوبة. بيد أني احترست من أخذ كلامها بما يعني أني كنت قد بالغت في التحفظ. فقد شرعت أعرف القيمة الصحيحة للغة المنطوقة أو الصامتة الصادرة عن اللطافة الأرستقراطية، هذه اللطافة التي يسعدها سكب البلسم على الشعور بالدونية الذي يحسّه أولئك الذين توجّه إليهم دون أن يبلغ بهم أن يبدّدوه إذ لعلّها تكون فقدت

إذ ذاك سبب وجودها. فقد كان يبدو أن آل «غيرمانت» يقولون عبر أفعالهم جميعاً: «ولكنك ندّ لنا إن لم تكن أكثر»، ويقولونه بأكثر ما يمكن تصوره من لطف من أجل أن يحبّهم الناس ويُعجبوا بهم، لا من أجل أن يصدّقوهم. فإن يكشف الناس الطابع الوهمي لذاك اللطف، ذلك ما كانوا يدعونه حسن التهذيب؛ وأما الاعتقاد بحقيقة اللطف فذلك هو سوء التهذيب. وقد تلقيت على أي حال بعد قليل من ذلك درساً أطلعني في النهاية بأتم الدقة على امتداد وحدود بعض أشكال اللطف الأرستقراطي. وكان ذلك في أثناء حفلة بعد الظهر أقامتها الدوقة «دو مونمورانسي» على شرف ملكة إنكلترة؛ وتَشكَّلَ ضرب من الموكب الصغير للتوجه إلى المائدة المفتوحة وكانت الملكة تسير في المقدمة وقد أخذ بذراعها الدوق «دو غيرمانت». ووصلت في تلك اللحظة. ولوّح الدوق بيده الطليقة من مسافة أربعين متراً على الأقل، لوّح لي بألف إشارة دعوة ووداد كان يبدو أنها تقول بالإمكانية المتاحة لي للتقدم دونما تهيُّب وأنني لن أُلتهَم نيئاً بدلاً من السندويتشات. ولكنني، وقد بدأت أبلغ الكمال في لغة البلاط، قمت بدلاً من الاقتراب حتى خطوة واحدة بانحناءة كبيرة من مسافة الأربعين متراً التي أقف فيها، ولكن دون أن أبتسم، كما لعلني فعلت في حضرة من أكاد لا أعرفه، ثم تابعت المسير في الاتجاه المعاكس. ولو أني كتبت رائعة أدبية لكرّمني آل «غيرمانت» لذلك أقل مما يفعلون لهذه التحية. فلم تمرّ دون أن يلحظها الدوق مع أنه انبغى له أن يجيب أكثر من خمس مئة شخص، وليس ذلك فحسب بل دون أن تلحظها الدوقة التي التقت والدتي فَرَوَت لها عن ذلك وتحاشت تماماً أن تقول لها إني كنت على خطأ وإنه كان عليّ أن أقترب فقالت لها إن زوجها قد فتنته تحيّتي وإنه يستحيل تضمينها أموراً أكثر. ولم يكفّوا عن إيجاد كل المزايا لهذه التحية دون أن يذكروا مع ذلك الميزة التي بدت من أكثرها ثمناً، عنينا أنها كانت متكتمة، ولم يكفّوا كذلك عن توجيه المديح لي وقد فهمت منه أنه كان مكافأة على الماضي أقل منه توجيهاً للمستقبل على نحو ذاك الذي يزوِّد به مدير معهد تربوي

طلابه بصورة رقيقة: «لا تنسوا، أيها الأبناء الأعزاء، أن هذه الجوائز لأهليكم أكثر مما هي لكم وذلك من أجل أن يعيدوكم في العام القادم». ومن ذلك أن السيدة «دو مارسانت» كانت، حينما يدخل وسطَها فردٌ من عالم مختلف، تمتدح في حضرته الناس المتكتمين «الذين تلقاهم حينما تذهب بحثاً عنهم ويعملون على أن تنساهم باقي الوقت»، مثلما يُبلِّغ على نحو غير مباشر خادم كريه الرائحة أن عادة الاستحمام ممتازة للصحة.

وفيما كنت أتحدث إلى السيدة «دو غيرمانت» حتى قبل أن تكون غادرت الردهة سمعت صوتاً من نوع كان لا بدّ أن أميزه في المستقبل دون إمكان الوقوع في الخطأ. وكان في هذه الحالة الخاصة صوت السيد «دو فوغوبير» يتحدث إلى السيد «دو شارلوس». فليس يحتاج الطبيب السرير حتى أن يرفع المريض الموضوع تحت الملاحظة قميصه أو أن يستمع للتنفس، فالصوت يكفي. وكم مرة أدهشتني في إحدى الصالات نبرة هذا الرجل أو ضحكته مع أنه ينقل نقلاً دقيقاً لغة مهنته أو تصرفات الوسط الذي ينتمي إليه فيتصنّع تأنّقاً صارماً أو بذاءة أليفة، ولكن صوته الزائف كان كافياً لينقل: «إنه من أمثال شارلوس» إلى أذني المتمرسة كما هو مِرنان ضابط الأنغام! وفي تلك اللحظة مرّ موظفو إحدى السفارات جميعهم وحيّوا السيد «دو شارلوس». ومع أن اكتشافي لنوع المرض المعني إنما يعود فقط لليوم نفسه (الذي أبصرت فيه السيد «دو شارلوس» و«جوبيان») فلعلّي ما كنت بحاجة، كيما أقدم تشخيصاً، إلى طرح الأسئلة والاستماع بالأذن. ولكنّ السيد «دو فوغوبير» في حديثه إلى السيد «دو شارلوس»، بدا محيَّراً، مع أنه كان ينبغي أن يعلم حقيقة الأمر بعد تريُّبات المراهقة. يظن الشاذ أنه من نوع وحيد في العالم، وفيما بعد فقط يتخيل - وهو غلو آخر - أن الاستثناء الوحيد هو الرجل الطبيعي. ولكن السيد «دو فوغوبير» الطموح الخواف لم يكن قد انصرف منذ فترة طويلة إلى ما لعله كان المتعة في نظره. فقد كان للسلك الدبلوماسي في حياته أثر الدخول في سلك الرهبنة. وإذ امتزج بالمثابرة على الدوام في مدرسة

العلوم السياسية، فقد وقفه منذ سنيه العشرين على عفة المسيحيين. ومثلما تفقد كل حاسة من قوّتها وحيويتها وتضمر حتى لا تستخدم من بعد، كان السيد «دو فوغوبير»، مثله مثل الرجل المتحضر الذي لا يقوى من بعد على تمارين القوى ولا على السمع المرهف الذي يميز رجل الكهوف، وقد فقد نفاذ البصيرة الخاص الذي قلّ أن يخطئ لدى السيد «دو شارلوس». ولم يعد الوزير المطلق الصلاحيات قادراً، على الموائد الرسمية، إن كان في باريس أو في البلاد الأجنبية، حتى على تعرّف من كانوا تحت قناع البزة الرسمية، أشباهه أصلاً. وقد أثارت بعض أسماء نَطق بها السيد «دو شارلوس»، وبه حنق إن ذكر في ما يخص ميوله ولكنّه دائم الغبطة في فضح ميول الآخرين، أثارت في نفس السيد «دو فوغوبير» استغراباً لذيذاً لا لأنه فكّر بعد هذه السنين الكثيرة في الإفادة من أية فرصة سانحة. ولكن هذه الكشوفات السريعة، الشبيهة بتلك التي تنبئ «آتالى» و«أبنير» في مسرحيات «راسين» أن «جواس» من نسل داوود وأن لـ«استير» الجالسة فوق الأرجوان أبوين يهوديين، وإذ تغير مظهر مفوضية س. . . . أو هذه الدائرة في وزارة الخارجية، كانت تجعل تلك القصور باسترجاع الماضي بمثل غموض معبد القدس أو قاعة العرش في «سوزا». وإزاء هذه السفارة التي أقبل موظفوها الشباب برمّتهم ليشدّوا على يد السيد «دو شارلوس» اتخذ السيد «دو فوغوبير» الهيئة المفتونة التي تتخذها «ايليز» وهي تصرف قائلة في مسرحية «استير»:

يا الله! أي سرب كبير من الحسناوات البريئات
يبرز حاشداً لنظري ويتوارد من كل جانب!
وأي خفر محبب يرتسم على محياهن!

وإذ كان راغباً في «اطلاع» أوفر ألقى على السيد «دو شارلوس» وهو يبتسم نظرة بلهاء في تساؤلها شهوانية، فقال السيد «دو شارلوس» بهيئة العالم المتبحر الذي يحدّث جاهلاً: «ويحك!، بالطبع». وفي الحال لم

يعد السيد «دو فوغوبير» يحوّل ناظريه بعيداً عن هؤلاء الأمناء الشباب (وهو ما أزعج السيد «دو شارلوس» كثيراً)، ولم يكن سفير س. في فرنسا اختارهم كيفما اتفق. كان السيد «دو فوغوبير» صامتاً ولا أرى سوى نظراته. ولمّا تعودت منذ الطفولة أن ألبس حتى ما كان صامتاً لغة الكلاسيكيين فقد كنت أحمل عيني السيد «دو فوغوبير» ما تقوله الأبيات التي توضح بها «استير» لـ«إيليز» أن «مردخاي» حرص، غيرة منه على دينه، أن لا يضع لدى الملكة سوى فتيات ينتمين إليه،

ولكن حبّه لأمتنا
عمر هذا القصر ببنات صهيون
هذه الزهرات الفتية الغضة التي يحركها القدر
والتي نُقلت وزُرعت مثلي تحت سماء غريبة.
وفي مكان بعيد عن أعين الشهود
يصرف (أي السفير الممتاز) في تربيتهن بحثه واهتماماته.

وأخيراً تكلم السيد «دو فوغوبير» بغير نظراته، وقال بلهجة حزينة: «من ذا يعلم إن لم يكن الشيء ذاته موجوداً في البلد الذي أقيم فيه؟» وأجاب السيد «دو شارلوس» قائلاً: «ذلك محتمل، بدءاً بالملك «تيودوز»، مع أني لا أعرف أي شيء إيجابي حوله». - «أوه، لا شيء من هذا على الإطلاق»؛ - «ليس مسموحاً إذاً أن يبدو ذلك عليه إلى هذا الحدّ. وهو يتصنّع بعض الحركات. إنه من نوع «يا عزيزتي»، النوع الذي أمقته أكثر ما أمقت. ولعلني ما أجرؤ على الظهور معه في الشارع. ولا بدّ على أية حال أنك تعرف تمام المعرفة ما هو أمره، فإنه معروف كما هي حال الذئب الأبيض». - «إنك مخطئ تماماً حوله، وهو بأي حال ظريف. ففي اليوم الذي وقع فيه الاتفاق مع فرنسا بادر الملك إلى تقبيلي، في يوم بمثل تأثري». - «كانت اللحظة مناسبة لتقول له ما كنت راغباً فيه». - «آه، يا إلهي، يا لهول الأمر لو ساوره محض شك! ولكنّما لا يداخلني

خوف بهذا الشأن». وقد سمعت هذه الكلمات لأنني كنت غير بعيد وقد حملتني على أن أقرأ على نفسي داخل فكري:

إن الملك يجهل حتى هذا اليوم من أكون،
وإن هذا السر يكبّل على الدوام لساني.

لم يدم هذا الحوار، ونصفه صامت والنصف منطوق، إلا لحظات قليلة ولم أكن بعد قمت إلا ببضع خطوات في الصالات بصحبة الدوقة «دو غيرمانت» حينما استوقفتها سيدة سمراء قصيرة بالغة الجمال: «أود كثيراً أن أراك. لقد أبصرك «دانونزيو» من إحدى المقصورات وسطر للأميرة «ت. . .» كتاباً يقول فيه إنه لم ير في يوم ما كان يمثل هذا الجمال. وإنه ليبذل حياته كلها في مقابل عشر دقائق من حديث يجريه معك. والكتاب في جميع الأحوال في حوزتي، حتى إن لم تستطيعي أو تشائي ذلك. لا بدّ أن تحددي لي موعداً فثمة بعض أمور سرية لا أستطيع قولها هنا».
وأضافت توجّه الحديث إليّ: «أرى أنك لا تتعرّفني؛ لقد عرفتك في منزل الأميرة «دو بارما» (ولم أكن ذهبت إلى منزلها في يوم). يود إمبراطور روسيا أن يجري إرسال والدك إلى «بيترزبورغ». لو أمكنك المجيء يوم الثلاثاء، فـ«إيفولفسكي» سيكون بالضبط هناك، وسوف يتحدث وإياك في الأمر». وأضافت تقول وقد استدارت صوب الدوقة: «عندي هدية سأقدّمها لك أيتها العزيزة وما كنت أقدّمها لسواك. إنها مخطوطات لثلاث مسرحيات لـ«إيبسن» اوصى ممرضَه العجوز بان يوصلها إليّ. سأحتفظ بواحدة وأعطيك الاثنتين الأخريين».

ولم يهلّل الدوق «دو غيرمانت» لهذه العروض، فقد أخذ يرى، وهو غير متأكد إن كان «إيبسن» أو «دانونريو» قد قضيا أم هما حيّان يُرزقان، وأقبل كتّاب ومسرحيون على زيارة امرأته وإدخالها في مؤلفاتهم. ورجال المجتمعات يحلو لهم تصور الكتب بمثابة ضرب من المكعب نُزِع أحد وجوهه إلى حدّ أن المؤلف يسارع إلى «إدخال» الأشخاص الذين يلتقيهم

إلى داخله. ذلك بالطبع مُنافٍ للنزاهة وما كان هؤلاء إلا من قليلي الذمة. صحيح أنه قد لا يكون من المزعج أن تراهم «في معرض الحديث» لأننا نعرف بفضلهم، إن قرأنا كتاباً أو مقالة، «الجانب الآخر من ورق اللعب» ويمكننا «نزع الأقنعة». ولكنّما الأوفر حكمة، على الرغم من كل شيء، أن نكتفي بالمؤلفين الأموات. كان السيد «دو غيرمانت» يرى أن السيد الذي ينشر زاوية الموتى في صحيفة «**الغولوا**» (*Le Gaulois*) كان وحده «لائقاً تماماً». فقد كان هذا يكتفي على الأقل بذكر اسم السيد «دو غيرمانت» في رأس قائمة الأشخاص الذين برزوا «بصورة خاصة» في الجنازات التي تَسَجّل فيها الدوق وحينما كان يفضل أن لا يظهر اسمه كان يبعث بكتاب تعزية إلى أسرة المتوفى يؤكد لهم فيه مشاعره الحزينة جداً. فإن طلبت تلك الأسرة أن يوضع في الصحيفة: «نذكر من بين الرسائل الواردة رسالة الدوق «دو غيرمانت»، إلخ.»، فما كان ذلك خطأ المخبر الصحفي، بل خطأ ابن المتوفاة أو شقيقها أو والدها الذين يصفهم الدوق بالوصوليين ويقرر مذ ذاك أن لا تكون له علاقات بهم (وما كان يدعوه، وهو لا يعلم بالدقّة معنى التراكيب، «قشة يقاسمهم إياها»)[1]. ومهما يكن من أمر فإن اسمَي «إيبسن» و«دانونزيو» والشك في كونهما على قيد الحياة جعلت الدوق يقطب حاجبيه، ولم يكن بعد على بُعد كافٍ منا كي لا يكون سمع صنوف اللطف المختلفة التي جادت بها السيدة «تيموليون دامنكور». لقد كانت امرأة فاتنة ذات ظرف، على غرار جمالها، رائع حتى لكان أحد الاثنين أفلح وحده في الإمتاع. ولكنّها، إذ وُلدت خارج الوسط الذي كانت تعيش فيه الآن، ولمّا لم تطمح بادئ الأمر إلا إلى منتدى أدبي وكانت على التوالي وعلى نحو حصري صديقة - لا عشيقة، فقد كانت طاهرة الذيل - كل كاتب كبير كان يعطيها مخطوطاته كافة ويؤلف لها

---

(١) avoir maille à partir دخل في نزاع، تنازع من أجل أمر طفيف، والتلاعب بالألفاظ واضح في الفرنسية، ويصعب ردّه في العربية.

كتباً، وإذ أدخلتها المصادفة ضاحية «سان جيرمان»، فقد ساعدتها تلك الامتيازات الأدبية هناك. لقد كانت الآن في وضع لا يقع عليها فيه أن توزع من النعم سوى تلك التي يدفقها حضورها من حولها. ولكنّها إذ تعوّدت فيما مضى لباقة التعامل والمناورات والخدمات الواجب إسداؤها فقد واظبت على تلك الأمور مع أنها لم تعد لازمة. كان لديها على الدوام سرّ من أسرار الدولة تكشفه لك وعاهل تعرّفك به ومائية لأحد أرباب الفن تقدّمها لك. كان ثمة بالتأكيد في سائر تلك المغريات اللامجدية شيء من الكذب ولكنّها كانت تجعل من حياتها مسرحية هازلة متلألئة التعقيد وصحيح أنها كانت تسهم في تعيين المحافظين والألوية.

كانت الدوقة «دو غيرمانت»، فيما تمشي إلى جانبي، تدع لضياء عينيها اللازوردي أن يسبح أمامها، إنما في الفراغ، كي تتجنب أناساً تحرص ألا تقيم علاقات معهم وكانت تكشف من بعيد أحياناً ما يتهددها من خطر. كنا نتقدم عبر سياج مزدوج من المدعوين كانوا يودّون على الأقل، وهم يعلمون أنهم لن يعرفوا «أوريان» في يوم، أن يدلّوا امرأتهم عليها وكأنما على أمر غريب: «هيا يا «أورسول»، هيا أسرعي لتري السيدة «دو غيرمانت» تتحدث إلى هذا الشاب». وكنت تحس أنه لا يفصلهم الكثير عن اعتلاء الكراسي ليشاهدوا بشكل أفضل، على نحو ما يجري في استعراض ١٤ تموز (يوليو) أو في سباق الجائزة الكبرى. وليس يعني ذلك أن الدوقة «دو غيرمانت» تملك صالة أكثر أرستقراطية من ابنة عمها. فقد كان يتردد إلى منزل الأولى أناس ما كانت الثانية لترضى بدعوتهم في يوم، بسبب زوجها على وجه الخصوص. فما كانت لتستقبل في يوم السيدة «ألفونس دو روتشيلد»، وهي صديقة حميمة للسيدة «دو لاتريمواي» والسيدة «دو ساغان»، كما هي حال «أوريان» نفسها، وتتردد كثيراً على منزل هذه الأخيرة. والأمر واحد أيضاً في ما يخص البارون «هيرش» الذي صحبه الأمير «دوغال» إلى منزلها وليس إلى منزل الأميرة التي كان ساء في عينها؛ وهو كذلك أمر بعض كبار المشاهير «البونابرتيين» أو حتى

الجمهوريين الذين كانوا يثيرون اهتمام الدوقة ولكنّ الأمير، وهو ملكيّ ثابت القناعة، ما كان ليرضى باستقبالهم. ولمّا كان عداؤه للسامية مبدئياً فلم يكن يلين إزاء أية أناقة مهما لاقت قبولاً، ولئن كان يستقبل «سوان» الذي كان صديقاً له على الدوام، وهو بأية حال «الغيرمانتي» الوحيد الذي يدعوه «سوان» وليس «شارل»، فلأنه كان يعلم أن جدّة «سوان»، وهي بروتستانتية زُوِّجت يهودياً، كانت عشيقة الدوق «دو بيري» فيحاول بين الحين والحين أن يؤمن بالأسطورة التي تجعل من والد «سوان» الابن غير الشرعي للأمير. وما كان «سوان»، ضمن هذه الفرضية، وهو ابن كاثوليكي هو نفسه ابن أحد آل «بوربون» وأم كاثوليكية، ما كان به شيء إلا مسيحياً.

قالت لي الدوقة وهي تحدّثني عن القصر الذي كنا فيه: «كيف ذلك؟ ألست تعرف هذه الروائع؟» ولكنّها بعدما امتدحت «قصر» ابنة عمها سارعت تضيف أنها تفضل ألف مرة «جحرها المتواضع». «ههنا شيء رائع «للزيارة»، ولكني كنت أموت غماً لو انبغى أن أبقى لقضاء الليلة في حجرات كانت مسرحاً لكثير من الأحداث التاريخية. فربما خيل إليّ أنني بقيت بعد ساعة الإغلاق ونسيت في قصر «بلوا» أو «فونتينيلو» أو حتى «اللوفر» ولا حيلة لي من بعد ضد الحزن إلا أن أقول في نفسي إنني في الحجرة التي اغتيل فيها «مونالديشي»، وذلك غير كاف لهضم مثل هذه المصيبة، عجباً، هي ذي السيدة «دو سانت اوفيرت». لقد تناولنا تواً طعام العشاء في منزلها. وظننت، بما أنها تقيم في غد آلتها السنوية الكبرى، أنها ربما بادرت إلى النوم. ولكنّها لا تستطيع تفويت حفلة. ولو أن هذه أقيمت في خارج المدينة لفضلت أن تكون استقلت عربة نقل أثاث على أن لا تكون حَضَرتها.

والواقع أن السيدة «دو سانتوفيرت» جاءت هذا المساء كيما تضمن نجاح حفلتها وتجنّد آخر المنتسبين وتستعرض في آخر لحظة نوعاً من القوات التي ستأخذ في الغد بالتحرك بصورة رائعة في حفلتها الراقصة في

الحديقة أكثر منها من أجل متعة أن لا تفوتها حفلة لدى الآخرين. ذلك أنه منذ عدد لا يستهان به من السنين لم يعد المدعوون إلى حفلات «سانت اوفيرت» ذات من كانوا فيما مضى يفدون إليها. فالوجيهات من وسط آل «غيرمانت»، وما أندرهنّ آنذاك، أخذن يجئن شيئاً فشيئاً بصديقاتهن - بعد أن غمرتهن ربة البيت بالمجاملات -. أما السيدة «دو سانت اوفيرت» فقد عملت، بحركة موازية في تدرّجها ولكن في الاتجاه المعاكس، على أن تقلص سنة فسنة عدد الأشخاص المجهولين في مجتمع الأناقة. فقد كفّوا عن رؤية هذا، ثم ذاك. فقد عمل نظام «الخبزات» وقتاً ما، وكان يسمح، بفضل حفلات تكتم أخبارها، بدعوة المنبوذين إلى المجيء للّهو فيما بينهم، ويعفيك ذلك من دعوتهم مع القوم المحترمين. وممَّ يمكن أن يشتكوا؟ أفليس لديهم (*panem et circenses*)[١] حلى محمصة وبرنامج موسيقي حافل؟ لذلك ما عدت ترى، وعلى نحو متناظر نوعاً ما مع الدوقتين المنفيتين اللتين شوهدتا فيما مضى، حينما بوشر بصالة «سانت اوفيرت»، تحملان شأن تمثالي «كرياتيد»[٢] قمتها المتداعية، ما عدت ترى في هذه السنوات الأخيرة سوى شخصين يخالفان الجنس الغالب هما السيدة «دو كامبرمير» العجوز وامرأة مهندس ذات صوت جميل يضطرون في الغالب إلى مطالبتها بالغناء. ولكنّهما تبدوان، إذ لا تعرفان أحداً من بعد في منزل السيدة «دو سانت اوفيرت» وتبكيان من فقدتا من رفيقاتهما وتحسّان أنهما سبب ضيق للآخرين، وكأنما أوشكتا على الموت برداً شأن سنونوتين لم تهاجرا في الوقت المناسب. لذلك لم تُدعيا في السنة التالية. وحاولت السيدة «دو فرانكتو» القيام بمسعى في صالح ابنة عمها التي تحبّ الموسيقى حباً جماً. ولما لم تستطع أن تحصل لها على جواب أكثر وضوحاً من هذه الكلمات: «بوسع المرء على الدوام أن يدخل لسماع

---

(١) وردت باللاتينية في متن النص وتعني: الخبز والعروض المسلية.

(٢) هي أعمدة على هيئة نساء منحوتة في معبد صغير على هضبة الأكروبوليس في أثينا.

الموسيقى إن طاب ذلك لكم فليس في الأمر جريمة!»، فلم تر السيدة «دو كامبرمير» أن في الدعوة ما يكفي من إلحاح وامتنعت.

كان بوسعك أن تعجب، ومثل هذا التحول الذي أجرته السيدة «دو سانت اوفيرت» على صالة بُرْصٍ قلبتها صالة سيدات راقيات (هي الصيغة الأخيرة الشديدة الأناقة في ظاهرها التي اتخذتها)، من أن الشخص الذي كان يقيم في الغد الحفل الأكثر تألقاً في الموسم كان بحاجة إلى المجيء في العشية ليوجه نداء أخيراً لقواته. ذلك أن أفضلية صالة «سانت اوفيرت» لم تكن قائمة إلا بالنسبة إلى من قوام حياتهم المجتمعية مجرّد قراءة خلاصة حفلات العصر والمساء في صحيفتي «**لو غولوا**» أو «**الفيغارو**» دون أن يكونوا ذهبوا في يوم إلى أي منها. فقد كان يكفي هؤلاء المجتمعيين الذين لا يشاهدون المجتمع إلا عبر الصحيفة تعداد زوجات سفراء إنكلترا والنمسا، إلخ. ودوقات «أوزيس» و«لاتريمواي» إلخ. إلخ. كي يتخيلوا تلقائياً صالة «سانتوفرت» بمثابة الأولى في باريس بينما هي في عداد الأخيرات. وليس يعني ذلك أن البيانات كانت كاذبة، فمعظم الأشخاص المذكورين كانوا حاضرين فعلاً، ولكن كلاً منهم جاء على إثر توسلات ومجاملات وخدمات وبه شعور من يولي السيدة «دو سانت اوفيرت» أعظم الشرف. إن مثل هذه المنتديات، والناس أقل سعياً إليها مما يتهربون منها وإليها يمضون، إن جاز القول، كأنما في مأمورية، لا توهم إلا قارئات «أخبار المجتمع». فهنّ يمررن مرور الكرام على حفلة هي بالحقيقة أنيقة وفيها لا تطلب ربة البيت، وإنها لتستطيع إحضار الدوقات جميعاً وهنّ يتحرقن إلى أن يكنّ «في عداد المختارين»، إلا حضور اثنتين أو ثلاث ولا تشير بوضع أسماء مدعويها في الصحيفة. ولذلك فإن هؤلاء النساء اللواتي يتجاهلن أو يزدرين السلطان الذي يتمتع به الإعلان في يومنا أنيقات في نظر ملكة إسبانيا ومجهولات من جانب الجمهور لأن الأولى تعلم والثاني يجهل من هن.

لم تكن السيدة «دو سانتوفيرت» في عداد هاتيك النساء، بل كانت

تُقبل، جانية مجدة، تجمع للغد كل ما كان مدعواً. ولم يكن السيد «دو شارلوس» مدعواً فقد رفض على الدوام الذهاب إلى منزلها. ولكنه كان على خلاف مع عدد كبير من الناس إلى حدّ أن السيدة «دو سانتوفيرت» كانت تستطيع رد ذلك إلى طباعه.

ولو لم يكن ثمة سوى «أوريان» لوسع السيدة «دو سانتوفيرت» بالتأكيد أن لا تزعج نفسها بما أن الدعوة وُجِّهتْ مشافهة وقُبِلَتْ بأية حال بطيبة الخاطر الرائعة المضلّلة التي يبرز فيها أعضاء المجامع أولئك الذين يغادرهم المرشح متأثراً غير مرتاب بأنه يسعه الاعتماد على صوتهم. لكنها لم تكن الوحيدة هناك. فهل يجيء الأمير «داغريجانت»؟ وهل تفعل السيدة «دو دورفور»؟ لذلك ظنت السيدة «دو سانت اوفيرت»، بداعي الاحتراس، أن الأيسر لها أن تنتقل بذاتها. كانت لمّاحة مع بعضهم وآمرة مع الآخرين تعلن للجميع بكلمات مبطنة عن تسليات لا تخطر ببال ولن تتوفر رؤيتها مرة ثانية، وتعد كلاً منهم أنه واحد عندها الشخص الذي يرغب في لقائه أو الشخصية التي يحتاج لقاءها. كانت تلك الوظيفة التي تولاها مرة في العام - على نحوٍ ما بعض وظائف القضاء في العالم القديم - وظيفة الشخص الذي سيقيم في الغد أضخم احتفال موسمي في الهواء الطلق توليها سلطة وقتية. كانت لوائحها قد وضعت وأقفلت، الأمر الذي يكسبها، فيما تطوف في صالات الأميرة على مهل كي تسكب في كل أذن: «لا تنسني في الغد»، مجداً عابراً قوامه أن تشيح بعينيها وهي توالي ابتسامتها إن هي لمحت امرأة قبيحة لا بد من تجنبها أو نبيلاً ريفياً حكمت رفقة الدراسة بقبوله في منزل «جيلبير» ولن يضيف حضوره احتفالها شيئاً إليه. كانت تفضل ألا تتحدث إليه كي يمكنها أن تقول فيما بعد: «لقد وجهت دعواتي شفاهاً ولم ألتق بك لسوء الحظ». وهكذا كانت تقوم، وهي «سانت اوفيرت» لا أكثر، بعينيها المتفحصتين بعملية انتقائية في تركيبة أمسية الأميرة، وتظن بفعلتها هذه أنها دوقة حقيقية من آل «غيرمانت».

ولا بدّ أن نقول إن هذه لم تكن تملك بدورها، وبقدر ما تظن، حرية توجيه تحياتها وابتساماتها. وليس من شك أنها كانت، حينما ترفض توجيهها، إنما تفعل في قسم منها بملء إرادتها، فتقول: «ولكنها تزعجني، فهل يقع عليّ أن أكلمها عن أمسيتها على مدى ساعة؟».

وأبصرنا دوقة شديدة السواد تمر وكان قبحها وبلاهتها وبعض انحرافات سلوكية قد أقصتها لا عن المجتمع، بل عن بعض الدوائر الحميمة الأنيقة. وهمست السيدة «دو غيرمانت» بنظرة الخبير الصائبة غير المتوهمة إذ تُعْرَضُ عليها حلية مزيفة: «عجباً؛ يستقبلون صنفاً كهذا هنا!» كانت السيدة «دو غيرمانت» تقيس القيمة الضحلة لهذه الأمسية منطلقة من مجرد رؤية السيدة نصف العايبة والتي يزدحم وجهها بفيض من تحببات شعور سوداء. لقد سبق أن نالت قسطها من التهذيب ولكنها قطعت كل علاقاتها بهذه السيدة ولم تردّ لها تحيتها إلا بإشارة من رأسها من أكثرها جفاء. وقالت لي كأنما لتعتذر: «لست أفهم أن تدعونا «ماري جيلبير» مع كل هذه الحثالة. بوسعنا أن نقول إنه تجمّع ههنا من سائر الرعايا. لقد كان الأمر أفضل ترتيباً لدى «ميلاني بورتاليس». كان بمقدورها أن تستقبل في بيتها المجمع المقدس[١] وجماعة معبد المصلى[٢]، إن حلا لها ذلك ولكنهم كانوا على الأقل لا يستقدموننا في تلك الأيام». لكنّما كان ذلك، في نظر الكثيرين، بداعي الوجل ومخافة شجار مع زوجها الذي ما كان يريد أن تستقبل فنانين، إلخ. (كانت «ماري - جيلبير» تحمي الكثير منهم ولا بدّ لها أن تحترس من أن تقترب منها مغنية ألمانية مشهورة)، ومن جرّاء بعض الخشية إزاء النزعة القومية، وكانت، إذ هي تجسد على غرار السيد «دو شارلوس» روح آل «غيرمانت»، تحتقرها من وجهة النظر المجتمعية (فهم كانوا يقدمون الآن جنرالاً من عامة الشعب على بعض الدوقة وذلك

(١) أو السينودس: مجمع كنسي يدير شؤون الكنيسة الروسية.
(٢) دير لجمعية كهنة من غير الرهبان.

من أجل تعظيم ضباط الأركان) ولكنّها، إذ تعلم أنها موضوعة في مصاف سيئي الاتجاه الفكري، تقدم لها تنازلات واسعة إلى حدّ تتهيب معه أن تمدّ يدها لمصافحة «سوان» في هذا الوسط المعادي للسامية. وسرعان ما اطمأنت بالاً بهذا الشأن بعدما علمت أن الأمير لم يدع لـ«سوان» أن يدخل وأن «نوعاً من المشادة» جرى بينهما. فلم يكن ثمة احتمال للتحدث علانية مع «المسكين شارل» الذي تفضل أن تعزه في السر.

وصاحت السيدة «دو غيرمانت» وهي تبصر سيدة صغيرة غريبة المظهر بفستان أسود بسيط حتى لتخالها بائسة توجه إليها، وكذلك فعل زوجها، تحية واسعة: «ومن عساها تكون هذه أيضاً؟». ولم تتعرّفها واعتدلت كما لو أهينت ونظرت دون أن تجيب، وبها مثل هذه الوقاحات، وسألت مستعجبة: «ومن تكون هذه المرأة يا «بازان؟»، فيما كان السيد «دو غيرمانت» يحيّي السيدة ويشدّ على يد الزوج سعياً لتدارك سوء تهذيب «أوريان». «ولكنّها السيدة «دو شوسبيير»، لقد كنت سيئة التهذيب إلى أبعد حد». - «لست أعلم شيئاً من أمر «شوسبيير» - «ابن أخ «العمة» العجوز «شانليفو» - «لست أعرف شيئاً من كل هذا. من هي المرأة ولماذا تحيّيني؟» - «ولكنّك لا تعرفين غيرها، إنها ابنة السيدة «دو شارلفال»، «هنرييت مونمورانسي» - «آه! ولكنّي عرفت والدتها تمام المعرفة، وكانت رائعة شديدة الظرف. فلماذا تزوجت كل هؤلاء القوم الذين لا أعرفهم؟ تقول إنها تدعى السيدة «دو شوسبيير»؟ تضيف قولها وهي تتهجى هذه الكلمة الأخيرة بمظهر المتسائل وكما لو خشيت أن تقع في الخطأ. وحدجها الدوق بنظرة قاسية - «ليس مثار سخرية بقدر ما يبدو لك أن يدعى المرء «شوسبيير»؛ فإن «شوسبيير» العجوز كان شقيق «شارلوفال» التي سبق ذكرها والسيدة «دو سينكور» والفيكونتيسة «دو ميرلورو»، وإنهم لنعم القوم». وصاحت الدوقة التي ما كانت تريد البتّة، كما هي حال المروّضة، أن يبدو أنها تتهيب نظرات الوحش المفترسة: «كفى؛ إنك تولينني فرحاً وابتهاجاً يا «بازان». لست أعلم من أين تنبش هذه الأسماء

ولكني أهنئك كل التهنئة. ولئن كنت أجهل «شوسبيير» فقد قرأت «بلزاك» ولست وحدك من فعل، وكذلك قرأت «لابيش». إني أقدّر «شانليفو» ولا أكره «شارلوفال»، ولكني أقر أن «دو ميرلورو» هو رائعة الروائع. هيا نعترف على أية حال أن «شوسبيير» ليس سيئاً بدوره. لقد قمت بتجميع كل هذا، ذلك ليس ممكناً. ثم قال لي: «أنت يا من يود وضع كتاب يجدر أن تحفظ «شارلوفال» و«دو ميرلورو» فلن نلقى أفضل من ذلك» - سوف يجني فقط دعوى تقام عليه ويمضي إلى السجن. أنت تُسدين له أسوأ النصح يا «أوريان» - «آمل له أن من حوله أشخاصاً أوفر شباباً إن رغب في سؤال نصائح السوء، ولا سيما إن حلا له اتباعها. فأما إن لم يشأ أن يفعل ما كان أسوأ من كتاب!» وعلى بُعد كافٍ منا كانت تبرز بلطف بفستان أبيض كله ماسات و«تول» امرأة شابة رائعة مهيبة. ونظرت إليها السيدة «دو غيرمانت» وهي تتكلم أمام مجموعة كاملة يشدّها مغناطيس حسنها وقالت وهي تمدّ كرسياً للأمير «دو شيميه» الذي كان ماراً من هناك: «شقيقتك هي الأجمل في كل مكان؛ إنها فاتنة هذا المساء». وجاء اللواء «دو فروبيرفيل» (وكان عمه الجنرال الذي يحمل الاسم نفسه) وجلس بجانبنا، وفعل السيد «دو بريوتيه» مثله فيما كان السيد «دو فوغوبير» يعود وهو يتمايل (من جرّاء غلو في التأدب يحافظ عليه حتى حينما يلعب كرة المضرب حيث كان يلحق الهزيمة حكماً بفريقه لكثرة ما يطلب أذون الشخصيات البارزة قبل أن يلتقط الطابة) قرب السيد «دو شارلوس» (وهو تغطيه تقريباً حتى ذاك تنورة الكونتيسة «موليه» الواسعة وكان يجاهر بإعجابه بها من بين النساء جميعاً)، وبطريق المصادفة في اللحظة التي كان يقبل فيها عدة أعضاء من بعثة دبلوماسية جديدة في باريس إلى تحية البارون. ولدى رؤية سكرتير شاب بادي الذكاء بصورة خاصة ثبت السيد «دو فوغوبير» على السيد «دو شارلوس» ابتسامة يتفتح فيها بوضوح سؤال واحد. ولعل السيد «دو شارلوس» كان ورط أحدهم راضياً ولكنّما أثار حنقه أنه هو مورط بهذه الابتسامة التي تجيء من غيره ولا يمكن أن يكون لها إلا مدلول واحد.

«لست أعرف شيئاً على الإطلاق وأرجوك أن تحتفظ لنفسك بطرائفك، فهي لا تخلّف فيَّ إلا فتوراً. وإنك ترتكب على أية حال خطأ من الطراز الأول في هذه الحالة الخاصة، فإني أرى هذا الشاب على عكس ذلك تماماً». وما كان السيد «دو شارلوس»، وقد أغضبه أن يكون أحمق قد كشف سره، يقول الحقيقة هنا، فلعل السكرتير كان استثناء في تلك السفارة لو صدق البارون في ما قال. فقد كان يؤلفها شخصيات شديدو الاختلاف فيما بينهم، وبعضهم شديدو الضحالة، حتى إنك إن بحثت عما أمكن أن يكون سبب الخيار الذي وقع عليهم فلا يمكن أن تكتشف سوى الشذوذ. كان يبدو، وهم يجعلون على رأس «سادوم» الدبلوماسية الصغيرة هذه سفيراً يعشق على عكسهم النساء بالمبالغة المضحكة التي يُبديها مسؤول عرض يحرك أصولاً كتيبة المتنكرين من ممثليه. فعلى الرغم مما كان يراه لم يكن يعتقد بالشذوذ، وقد أقام في الحال البرهان على ذلك فزوّج شقيقته قائماً بالأعمال كان يظنه زوراً زير نساء. وقد أضحى مذ ذاك مزعجاً إلى حدّ ما فأحلّوا محله «سعادة» جديدة ضمنت تجانس المجموعة. وحاولت سفارات أخرى منافستها ولكنّها لم تفلح في مغالبتها على الجائزة (كما هي الحال في المسابقة العامة حيث تحوزها على الدوام ثانوية معينة) وكان لا بدّ أن ينقضي أكثر من عشرة أعوام قبل أن تفلح سفارة أخرى، بعدما تسللت عناصر غير متجانسة داخل هذا الكل المتناهي كمالاً، في انتزاع قصب السبق المشؤوم والسير في المقدمة.

وبعدما اطمأنت السيدة «دو غيرمانت» حول خشيتها من أن يقع عليها التحدث إلى «سوان» لم تعد تحس إلا بالفضول بخصوص الحديث الذي أجراه مع سيد البيت. وسأل الدوق السيد «دو بريوتيه» قائلاً: «أتعلم بأي شأن كان؟» فأجاب: «سمعت من يقول إنه كان بشأن فصل تمثيلي صغير كان الكاتب «بيرغوت» قد نظّم تمثيله في منزلهم. وكان ذلك رائعاً على أي حال. ولكنّما يبدو أن الممثل كان قد قلد هيئة «جيلبير»، ولعل السيد «بيرغوت» كان يودّ على أية حال رسم صورته». وقالت الدوقة وهي تبتسم

ابتسامة حالمة: «لقد كان أعجبني ذلك، ويحك، أن أشاهد من يقلد «جيلبير» وأردف السيد «دو بريوتيه» يقول وهو يمدّ فك القوارض الذي يحمله: «إنما طلب «جيلبير» تفسيرات من «سوان» حول هذه التمثيلية الصغيرة وقد اكتفى هذا بالجواب التالي الذي عدّه الجميع في غاية النباهة: «لا، على الإطلاق، ذلك لا يشبهك في شيء، فإنك أشد سخفاً من ذلك!» وعاد السيد «دو بريوتيه» يقول: «فضلاً عن ذلك يبدو أن هذه المسرحية القصيرة كانت تخلب الألباب. كانت السيدة «دوموليه» حاضرة وكان مرحها عظيماً، فقالت الدوقة مستعجبة: «كيف ذلك؟ أو تغشى السيدة «دوموليه» المكان؟ لا بدّ أن «ميميه» دبّر الأمر. هذا ما تنتهي إليه الأمور على الدوام في تلك الأماكن. فالكل يشرع ذات يوم في الذهاب هناك، وأنا التي استبعدت نفسها بمحض إرادتها أجدني وحيدة أتضجر في زاويتي». وكانت الدوقة «دو غيرمانت» قد تبنّت، منذ القصة التي أقدم السيد «دو بريوتيه» على روايتها، تبنّت (إن لم يكن حول صالون «سوان» فعلى الأقل حول افتراض لقائها «سوان» بعد لحظة) وجهة نظر جديدة. وقال اللواء «دو فروبيرفيل» للسيد «دو بريوتيه»: «إن الشرح الذي تقدّمه لنا مختلق في كل أجزائه ولديّ أدلة أعرف بها ذلك. لقد وقعت مشادة فحسب بين الأمير و«سوان» وقد «علّمه»، كما كان يقول آباؤنا، أنه لم يعد له ما يخوله الظهور في منزله بسبب ما يبدي من آراء. وعمي «جيلبير» على حق وألف حق، لا أن يَطّلع بهذه المشادة فحسب، بل ربما انبغى أن يتخلص منذ نيف وستة أشهر من مناصر مكشوف لـ«دريفوس».

أما السيد «دو فوغوبير» المسكين فقد ألفى نفسه، وقد انقلب هذه المرة من لاعب مضرب خامل إلى لاعب طابة مضرب جامدة تُقذف دون مداراة، يلقى به صوب الدوقة «دو غيرمانت» التي أعرب لها عن مشاعر احترامه. وقد جرى استقباله استقبالاً سيئاً إلى حدّ ما، إذ يعيش في صدر «أوريان» اليقين من أن سائر الدبلوماسيين - أو رجال السياسة - في عالمها مغفّلون.

لا بد أن السيد «دو فروبيرفيل» أفاد من الوضع المتميز الذي خص به العسكريون في المجتمع منذ فترة وجيزة، ومن أسف أن المرأة التي سبق أن تزوجها، إن كانت على قربى حقيقية من آل «غيرمانت»، فقد كانت كذلك شديدة الفقر وقد فقدت ثروتها شأنه هو، ويكاد لا يتيسر لهما معارف فكانا في عداد من يتركون جانباً فيما عدا المناسبات الكبرى حينما يسعفهم الحظ بفقد أو زواج قريب. حينذاك كانا يصبحان جزءاً حقيقياً من علية القوم، كمثل أولئك الكاثوليك بالاسم الذين لا يقربون المائدة المقدسة إلا مرة في العام. ولعل وضعهما المادي كان تعيساً لو لم تقم السيدة «دو سانت اوفيرت»، في إخلاصها للمودة التي خصت بها المرحوم الجنرال «دو فروبيرفيل»، بمساعدة الزوجين بكل الطرق مقدمةً الملابس وأدوات التسلية للابنتين الصغيرتين. ولكن اللواء الذي كان يعتبر فتى طيباً لم يكن عامر النفس بالامتنان. فقد كان حاسداً لمظاهر الأبهة التي تحيط بفاعلة خير كانت تبرزها بدورها دون توقف ولا هوادة. والحفلة السنوية في الهواء الطلق تبدو له ولزوجته وأولاده متعة رائعة لعلهم ما كانوا اعتزموا تفويتها في مقابل كل ذهب الدنيا، ولكنها متعة تسممها فكرة مسرات الاستكبار التي تصيبها منها السيدة «دو سانت اوفيرت». والإعلان عن هذه الحفلة في الهواء الطلق على صفحات الصحف التي تضيف على الأثر، عقب رواية مفصلة، تضيف بلهجة مكيافيلية: «سوف نعود إلى هذه الحفلة الجميلة»، والتفصيلات الإضافية حول ملابس النساء التي قدمت على مدى عدة أيام متعاقبة، كل ذلك كان يجلب لأسرة «فروبيرفيل» عذاباً يبلغ بهم، هم المحرومون من المسرات والذين يعرفون أنهم يستطيعون الاعتماد على ما يصيبون منها في حفلة بعد الظهر هذه، أن يتمنوا في كل عام أن تعرقل رداءة الطقس نجاحها وأن يستطلعوا مقياس الضغط الجوي وأن يتلذذوا باستباق نُذُر عاصفة يمكن أن تُفشل الاحتفال.

وقال السيد «دو غيرمانت»: «لن أجادلك في أمور السياسة يا «فروبيرفيل»، ولكني أستطيع أن أقول بصراحة، في ما يخص «سوان»، إن

تصرفه إزاءنا كان شائناً. لقد قيل لي عنه، هو الذي رعيناه في دنيا المجتمع ورعاه دوق «شارتر»، إنه يناصر «دريفوس» علناً. وما كنت لأتوقع ذلك منه في يوم، هو الذواقة المرهف والعقل العملي، هاوي المجموعات والكتب القديمة عضو نادي الفرسان والرجل الذي يحوطه التقدير العام، الخبير بأفضل العناوين الذي كان يبعث إلينا بأفضل خمور «البورتو» للشراب، هذا المولع بالفنون ورب أسرة مثله. آه؛ لقد ضُلِّلْتُ أيما تضليل. ولست أحكي عن نفسي فمن المسلّم به أني مغفل عجوز لا يُعتدّ برأيه ومن صنف المتشردين، ولكنّما كان ينبغي أن لا يفعل ذلك كرمى لـ«أوريان» لا لأمر آخر، وكان يجدر به أن يشجب علناً اليهود ومحازبي المحكوم عليه».

وأردف الدوق قائلاً: «أجل، بعدما أبدت له زوجي على الدوام من مودة»، وكان يحسب بداهة أن الحكم على «دريفوس» بالخيانة العظمى، أياً كان الرأي الذي تحمله في قرارة نفسك عن مدى ذنبه، إنما يؤلف نوعاً من الامتنان للطريقة التي جرى بها استقبالك في ضاحية «سان جيرمان»، «كان يجدر به أن يعدل عن تضامنه. فاسألوا «أوريان»، كانت تكنّ له صداقة حقة». وإذ ظنت الدوقة أن اللهجة الساذجة الهادئة ربما أولت كلامها قيمة أكثر مأساوية وصدقاً فقد قالت بصوت تلميذة مدرسة وكأنما تدع للحقيقة أن تنطلق ببساطة من فمها وفيما تحمّل عينيها فحسب دلائل شيء من الحزن: «ذلك صحيح، فليس من سبب لأخفي أني كنت أكنّ صادق المودة لـ«شارل»!» - «هيه، ترون بأنفسكم، ولست أُقَوّلها ما تقول. وبعد ذلك يبلغ بنكران الجميل أن يكون من أنصار «دريفوس»!».

وقلت: «يبدو، إذ نحن بصدد مناصري «دريفوس»، أن الأمير «فون» منهم». وصاح السيد «دو غيرمانت» قائلاً: «حسناً فعلت أن حدثتني عنه، فكنت أوشك أن أنسى أنه سألني المجيء إلى الغداء يوم الاثنين. فإما أن يكون من مناصري «دريفوس» أو لا يكون فالأمر عندي سواء إذ هو أجنبي ولست أهتم مطلقاً لذلك. أما بالنسبة إلى فرنسي فالأمر مختلف. صحيح أن «سوان» يهودي، ولكنّي حتى هذا اليوم - عذرك يا «فروبيرفيل» -

تلطّفتُ واعتقدت بأن اليهودي يمكن أن يكون فرنسياً، أقصد اليهودي المحترم المنتمي إلى دنيا المجتمعات، و«سوان» كان ذلك بكامل معنى الكلمة. وأنت ترى! إنه يرغمني على الإقرار بأني كنت على خطأ إذ هو ينحاز إلى جانب «دريفوس» هذا (الذي لا ينتمي إلى وسطه، إن كان مذنباً أو لا، ولعله ما كان ليلتقيه في يوم) ضد مجتمع سبق أن تبناه وعامله كأحد خاصته. وغني عن القول أننا ضمنّا جميعنا «سوان» ولعلني كنت ضمنت وطنيته كما أفعل في ما يخصني. إنه يكافئنا شر مكافأة؛ وإني أعترف أني ما كنت أتوقع منه مثل هذا في يوم. كنت أعدّه أفضل من ذلك. كان صاحب نكتة (على طريقته بالطبع). أعرف تماماً أنه سبق أن ارتكب حماقة في زواجه المخجل. خذوا مثلاً، هل تعرفون واحداً أصابه غم كبير من زواج «سوان»؟ تلكم زوجتي. فغالباً ما يصيب «أوريان» ما أدعوه بتصنّع غياب الإحساس، ولكنّها في الحقيقة تحسّ بقوة غير عادية». كانت السيدة «دو غيرمانت» تصغي بادية التواضع مأخوذة بهذا التحليل لطابعها ولكنّها لا تنبس ببنت شفة مخافة أن توافق على المديح وعلى الأخص خشية أن تقاطعه. ولعل السيد «دو غيرمانت» كان استطاع التحدث على مدى ساعة حول هذا الموضوع، وما تحركت هي أكثر مما تفعل لو أقدموا على عزف بعض الموسيقى أمامها. «حسن! أذكر أنها حينما علمت بزواج «سوان» أحست بالإساءة ورأت أن الأمر غير لائق من جانب من سبق أن أبدينا له هذا القدر من الود؛ كان حبّها لـ«سوان» كبيراً وقد حل بها غم عظيم. أليس كذلك يا «أوريان»؟ وظنت السيدة «دو غيرمانت» من واجبها الإجابة إزاء مثل هذا النداء المباشر حول واقعة تسمح لها، دون أن تبدي من ذلك شيئاً، أن تؤكد ألواناً من المديح تحس أنها انتهت. فقالت بلهجة خجولة ساذجة وهيئة يزداد تصنّعها بمقدار ما تبغي أن تظهر مظهر «ما كان وليد الإحساس»، قالت بعذوبة متحفظة: «صحيح، إن «بازان» لا يخطئ» - «ومع ذلك لم يكن الأمر بعد نفسه. ما عساك تريد، الحب هو الحب، مع أنه ينبغي أن يلبث ضمن حدود معينة.

فربما بلغ بي أن أعذر فتى شاباً ومغروراً صغيراً ينساق لأوهامه. ولكن «سوان»، هذا الرجل الذكي ذو الرهافة المجربة وخبير اللوحات المرهف وأليف دوق «شارتر» و«جيلبير» نفسه!» كانت اللهجة التي يقول بها السيد «دو غيرمانت» ذلك، كانت ودّية تماماً لا تشوبها شائبة مما كان يبدي في الغالب من سوقية. كان يتكلم بحزن يلونه شيء من الغيظ، ولكن كل شيء فيه يوحي بهذا الوقار الحلو الذي هو أساس السحر العذب الرحب المنبعث من بعض أشخاص «رامبرانت» كالعمدة «سيكس» على سبيل المثال. كنت تحس أن مسألة اللاأخلاقية في سلوك «سوان» إزاء «القضية» لم تكن حتى واردة بالنسبة إلى الدوق لقلة ما في الأمر من شك. كان يحس منها بأسى والد يرى أحد أبنائه الذي قدّم أعظم التضحيات في سبيل تربيته يقوّض عامداً المركز العظيم الذي أعدّه له ويلحق العار باسم محترم من جرّاء صنوف طيش لا يمكن لمبادئ الأسرة أو آرائها المسبقة أن تقبل بها. والصحيح أن السيد «دو غيرمانت» لم يُبدِ فيما مضى استغراباً بمثل هذا العمق وهذا الألم حينما بلغه أن «سان لو» كان من مناصري «دريفوس». إلا أنه بادئ الأمر كان يعد ابن أخته شاباً سلك طريق الشر ولا يمكن أن يستغرب أمراً منه إلى أن يكون اصطلح، فيما كان «سوان» ما كان يدعوه السيد «دو غيرمانت» «بالرجل الرزين، رجل يشغل موقعاً من الطراز الأول». ثم إن زمناً طويلاً على وجه الخصوص انقضى إن بدا في أثنائه أن الأحداث، من وجهة النظر التاريخية، تبرز في جزء منها طرح تيار «دريفوس»، فإن المعارضة المناهضة لـ«دريفوس» ضاعفت من عنفها وانقلبت من سياسة محضة بادئ الأمر اجتماعية. لقد أضحى الأمر الآن مسألة نزعة عسكرية، نزعة وطنية، وإن أمواج الغضب التي تعصف بالمجتمع قد اتسع لها الوقت لتكتسب هذه القوة التي لا تملكها البتّة في بداية العاصفة. وعاد السيد «دو غيرمانت» يقول: «ترى، لقد ارتكب «سوان» حتى على صعيد يهوده الأعزاء، بما أنه يحرص على مساندتهم حرصاً مطلقاً، غلطة لا يمكن تقدير أثرها. فإنه يقيم البرهان على أنهم

كلهم متحدون في السر وأنهم ملزمون نوعاً ما بمساندة أحد بني جنسهم وإن لم يعرفوه. إنهم خطر عام، وقد بالغنا على نحو جلي بالتساهل والغلطة التي يرتكبها «سوان» سوف يكون لها صدى يتعاظم بمقدار ما كان مقدراً وحتى مرحباً به وأنه كان تقريباً اليهودي الوحيد الذي كان معروفاً. وقد يقول قائل: *ab uno disce omnes* (من واحد تعرف الجميع) - ونوّرَ الارتياح الناجم عن أنه عثر في ذاكرته في اللحظة المحددة على استشهاد مناسب إلى هذا الحدّ، نوَّرَ وحده بابتسامة مستكبرة حزن هذا السيد الكبير المخيب الآمال -.

كانت بي رغبة شديدة في أن أعلم ما جرى بالضبط بين الأمير و«سوان» وأن ألتقي هذا الأخير إن لم يكن غادر بعد الأمسية. وأجابتني الدوقة التي كنت أحدّثها عن رغبتي تلك: «سأقول لك إني لا أحرص حرصاً كبيراً على لقائه فإنه يبدو، حسبما قيل لي في الحال في منزل السيدة «دو سانت اوفيرت»، أنه يودّ قبل موته أن أتعرّف بزوجته وابنته. يا إلهي، يغمّني أعظم الغم أن يكون مريضاً، ولكني آمل أولاً أن لا يكون الأمر خطيراً إلى هذا الحد، ثم إن ذلك ليس في النهاية سبباً لأن الأمر سيكون بالغ السهولة، وما على كاتب تعوزه الموهبة إلا أن يقول: «أعطني صوتك في المجمع العلمي لأن زوجتي تشرف على الموت وأريد أن أوفر لها هذه الفرحة الأخيرة». لن يبقى ثمة منتديات إن اضطررنا إلى التعرف بالمحتضرين جميعاً. وبمقدور حوذيّ أني صرح لي: «ابنتي في أسوأ حال لها، فاعملي على أن تستقبلني الأميرة «دو بارما». إني أحب «شارل» حباً جماً وقد يغمّني كثيراً أن أرفض، ولذلك أفضل تجنب أن يسألني ذلك. آمل من كل قلبي أنه غير مشرف على الموت مثلما يقول، ولكن إن كان لا بدّ أن يقع ذلك فليس هنا في ما يخصني أوان التعرف بهاتين المخلوقتين اللتين حرمتاني أحب صديق إليّ على مدى خمسة عشر عاماً والذي سوف يهملني ساعة لا أستطيع حتى الإفادة من ذلك في رؤيته هو بما أنه سيكون في عداد الأموات».

على أن السيد «دو بريوتيه» لم يكفّ عن اجترار التكذيب الذي وجّهه إليه اللواء «دو فروبيرفيل» وقال: «لست أشك في صحة روايتك أيها الصديق العزيز، ولكني أنقل روايتي عن مصدر ثقة، فإن الأمير «دولاتور دوفيرنيي» هو الذي قصها عليّ». وقاطعه الدوق «دو غيرمانت» قائلاً: «أعجب أن يوالي عالم مثلك القول بالأمير «دولاتور دوفيرنيي»، فأنت تعلم أنه ليس على أدنى شيء من ذلك، ولم يعد ثمة سوى عضو واحد من هذه الأسرة. إنه عم «أوريان»، الدوق «دو بويون». وسألت: «أهو شقيق السيدة «دوفيلباريسيس»؟»، وقد تذكرت أن السيدة كانت آنسة من عائلة «دو بويون» - «بالضبط. «أوريان»، السيدة «دو لامبرساك» تقرئك السلام».

كنتَ ترى بالفعل بين الحين والحين ابتسامة واهنة توجهها الدوقة «دو لامبرساك» إلى شخص تعرّفته، ابتسامة تتشكل وتمرّ مرّ الشهاب. ولكن هذه الابتسامة بدلاً من أن تتوضح في توكيد فاعل، في لغة صامتة ولكنّها واضحة، كانت تغرق في الحال تقريباً في نوع من الانخطاف المثالي الذي لا يميّز شيئاً فيما ينحني الرأس بحركة مباركة مطمئنة تذكّر بالحركة التي ينحني بها صوب جمهور المتناولات أسقف به بعض ارتخاء. ولم تكن السيدة «دو لامبرساك» تشكو من ذلك على الإطلاق. ولكنّي كنت قد عرفت هذا النوع الخاص من اللياقة البالية. فقد تعودت سائر صديقات جدّتي في «كومبريه» وباريس أن يحيّين في اجتماع لعلية القوم بهيئة ملائكية تشبه حالهن لو يبصرن أحد معارفهن في الكنيسة لحظة رفع القربان أو في أثناء جنازة فيلقين إليه بتحية متهالكة تنتهي صلاة. وإن جملة للسيد «دو غيرمانت» كانت ستكمل المقاربة التي كنت أعقدها. فقد قال لي السيد «دو غيرمانت»: «ولكنك رأيت الدوق «دو بويون»، فقد كان خارجاً للتو من مكتبتي وأنت تدخل إليها: رجل قصير القامة كله بياض». وكان من سبق أن حسبته بورجوازياً صغيراً من «كومبريه» والذي كنت أستخلص الآن بالتفكير مشابهته بالسيدة «دو فيلباريسيس». وأخذ تماثل التحيات المتلاشية

الصادرة عن الدوقة «دو لامبرساك» وتحيات صديقات جدتي يثير اهتمامي إذ أبرز لي أن العادات القديمة في الأوساط الضيقة المغلقة، إن كانت من البورجوازية الصغيرة أو طبقة الأشراف العليا، إنما تستمر وتسمح لنا وكأنما لعالم آثار أن نعود فنلقى ما كانت عليه التربية والجزء الذي تعكسه من النفس في زمن الفيكونت «دارلنكور» و«لوييزا بوجيه». بل أفضل من ذلك أن التطابق التام في المظهر بين الدوق «دو بويون» وبورجوازي صغير من «كومبريه» بمثل سنه كان يذكّرني الآن (وهو ما سبق أن أدهشني أيما إدهاش حينما أبصرت جد «سان لو» لأمه، الدوق «دو لاروشفوكو»، على صورة يشبه فيها شقيق جدي تماماً ثياباً وهيئة وحركات) بأن الفوارق الاجتماعية، وحتى الفردية، إنما تنصهر على بعد المسافة في تماثل يفرضه العصر. والحقيقة أن تشابه الملابس وكذلك عكس الوجه لروح العصر إنما يشغلان حيزاً لدى الشخص أوفر أهمية بما لا يقاس من طبقته التي لا تشغل مكانة عظيمة إلا داخل اعتزاز المعنى بذاته وفي مخيلة الآخرين، وأن لا ضرورة للطواف في أروقة «اللوفر» كي تتبين أن سيداً عظيماً من عصر «لوي فيليب» أقل اختلافاً عن بورجوازي من عصر «لوي فيليب» منه عن سيد عظيم من عصر لويس الخامس عشر.

في ذلك الحين حيّا «أوريان» موسيقي «بافاري» طويل الشعر ممن ترعاهم الأميرة «دو غيرمانت». وردّت هذه بانحناءة من الرأس، ولكن الدوق استدار، وقد ثارت ثائرته إذ رأى امرأته تلقي تحية المساء على شخص لا يعرفه غريب الشكل وهو، على قدر ما يعلم السيد «دو غيرمانت»، سيّئ السمعة إلى حدّ بعيد، استدار صوب امرأته بهيئة متسائلة مخيفة كما لو يقول: «أي شيء هو هذا العديم التهذيب؟» كان موقف السيدة «دو غيرمانت» المسكينة مذ ذاك على شيء من التعقيد، ولو أبدى الموسيقي قليلاً من الإشفاق على هذه الزوجة الشهيدة لابتعد كأسرع ما يكون، لكن الموسيقي، إما رغبة منه في أن لا يلبث على الإذلال الذي سِيمَهُ منذ قليل على رؤوس الأشهاد وسط أقدم أصدقاء ندوة الدوق،

وربما كان وجودهم إلى حدّ ما سبباً لانحناءته الصامتة وليظهر أنه حيا السيدة «دو غيرمانت» بحق لا عن غير معرفة، وإما انصياعاً للإلهام المبهم الذي لا يقاوم للهفوة التي دفعته - في لحظة كان انبغى له فيها أن يعول بالأحرى على الروح - على تطبيق حرفية البروتوكول بذاتها، تقدم أكثر من السيدة «دو غيرمانت» وقال لها: «سيدتي الدوقة، أودّ التماس شرف تعريفي بالدوق». كانت السيدة «دو غيرمانت» تعيسة بالتأكيد. ولكن عبثاً تراها زوجة مخدوعة فقد كانت مع ذلك دوقة «غيرمانت» ولا يمكن أن تبدو وكأنها مجردة من حقها في أن تقدّم لزوجها الأشخاص الذين كانت تعرفهم فقالت: «اسمح لي يا «بازان» أن أقدّم لك السيد «ديرفيك»». وقال اللواء «دو فروبيرفيل» للسيدة «دو غيرمانت» كي يبدد الانطباع الثقيل الذي خلّفه طلب السيد «ديرفيك» الذي في غير محله: «لست أسألك إن كنت ستذهبين في الغد إلى منزل السيدة «دو سانت اوفيرت»، فباريس كلها ستكون هناك». وفي أثناء ذلك استدار الدوق «دو غيرمانت»، دفعة واحدة وكأني به قطعة واحدة، استدار صوب الموسيقي المتطفل يواجهه ضخماً صامتاً في غيظه كأنه «جوبيتر» الراعد وبقي كذلك لا حراك به بضع ثوان تلتمع عيناه غضباً ودهشة فيما يبدو شعره الأجعد وكأنه يندفع من فوهة بركان. ثم بدا كأنما تحمله اندفاعة كانت وحدها تمكنه من إنجاز التأدب الذي طلب منه وبعدما ظهر بوقفة التحدي التي يقفها، وكأنما يشهد الحضور كلهم أنه لا يعرف الموسيقي البافاري وصالبَ خلف ظهره يديه بقفازيهما الأبيضين وانقلب إلى الأمام ووجّه إلى الموسيقي تحية شديدة العمق يطبعها فيض من الدهشة والسخط تحية فجائية عنيفة إلى حدّ أن الموسيقي ارتد إلى الوراء مرتجفاً وهو ينحني كي لا تطاله نطحة هائلة في بطنه، «ولكنّي بالضبط لن أكون في باريس، تجيب الدوقة العقيد «دو فروبيرفيل»؛ سأقول لك (وهو ما لا ينبغي أن أقرّ به) إنني بلغت سني هذا دون أن أعرف زجاجيات «مونفور لاموري». الأمر مخز ولكنها تلك حالي. وقد اعتزمت، بغية التكفير عن هذا الجهل الفاضح، أن أذهب في

الغد لزيارتها». وابتسم السيد «دو بريوتيه» ابتسامة رهيفة؛ فقد أدرك أن الدوقة إن استطاعت أن تلبث حتى سنها هذا دون أن تعرف زجاجيات «مونفور لاموري» فإن هذه الزيارة الفنية ما كانت تتخذ فجأة طابع التدخل الملحّ «على الحامي» وربما أمكن دون خطر تأخيرها أربعاً وعشرين ساعة بعدما أرجئت على مدى أكثر من خمسة وعشرين عاماً. والمشروع الذي قررته الدوقة كان ببساطة القرار الصادر على طريقة آل «غيرمانت» والقاضي بأن صالة «سانت اوفيرت» ليست بالتأكيد بيتاً صالحاً تماماً، بل بيت يدعونك إليه ليتزينوا بك في الخلاصة التي تنشر على صفحات «**لو غولوا**» بيت ربما أضفى طابعاً من الأناقة الرفيعة على اللواتي، أو إن لم تكن سوى واحدة، على التي لن يشاهدوها فيه. إن اللهو الناعم الذي يصيبه السيد «دو بريوتيه» والذي تبطنه تلك المتعة الشاعرية لدى أرباب المجتمع الراقي إذ يشهدون السيدة «دو غيرمانت» تقدم على أمور لا يسمح لهم موقعهم الأدنى بتقليدها، ولكن مجرّد رؤيتها يبعث على شفاههم ابتسامة الفلاح المرتبط بأرضه إذ يبصر أشخاصاً أكثر تحرراً وأوفر مالاً يمرون من فوق رأسه، تلك المتعة الرقيقة ما كانت تمتّ بصلة إلى الافتتان المكتوم والعنيف مع ذلك الذي داخَلَ في الحال السيد «دو فروبيرفيل».

كانت الجهود التي يقوم بها السيد «دو فروبيرفيل» كي لا تتناهى ضحكته إلى الأسماع قد جعلته أحمر كعرف الديك، ومع ذلك فقد صاح بصوت شفوق وهو يقطع كلماته بتعتعات الفرح: «أوه؛ مسكينة الخالة «سانت اوفيرت»، أي مرض سينتابها من جرّاء ذلك؛ لا، لن تحصل المرأة التعيسة على دوقتها، يا لها ضربة تلك؛ إن في ذلك ما يكفي للقضاء عليها!» يضيف قوله وهو يتلوى من الضحك. ولا يستطيع في نشوته أن يحول دون أن يقوم بإشارات بقدمه وأن يفرك يديه. وخلصت السيدة «دو غيرمانت»، وهي تبسم بعين وبزاوية واحدة من فمها للسيد «دو فروبيرفيل» الذي كانت تقدر مقصده اللطيف دون أن يتناقص شعورها بالملل القاتل، إلى العزم على فراقه.

وقالت له، وهي تنهض، بهيئة التسليم الحزين وكما لو كان الأمر مصيبة تحل بها: «اسمع، سوف أضطر لأن أتمنى لك ليلة سعيدة». وكان صوتها الموسيقي الناعم بتأثير سحر عينيها الزرقاوين يذكّر بشكوى جنية شعرية. «يريدني «بازان» أن أذهب في زيارة قصيرة لـ«ماري»». وكانت في الواقع قد ضاقت ذرعاً بالاستماع لـ«فروبيرفيل» الذي لم يعد يكفّ عن إبداء حسده لها لذهابها إلى «مونفور لاموري» حين تعلم تمام العلم أنه يسمع الحديث عن تلك الزجاجيات للمرة الأولى وأنه من ناحية أخرى ما كان ليتخلى مقابل أي شيء في الدنيا عن حفلة «سانت اوفيرت» في العصر. «إلى اللقاء؛ كدت لا أكلمك، الأمر على هذه الشاكلة في المجتمع الراقي، الناس لا يلتقون ولا يقولون الأشياء التي يودّون أن يقولها أحدهم للآخر، والأمر واحد على أية حال في الحياة في كل مكان. نأمل أن الأمور ستكون أفضل ترتيباً بعد الممات. على الأقل لن نكون دوماً بحاجة إلى الكشف عن الكتفين، ثم من ذا يعلم؟ فربما عرض المرء عظامه وديدانه في الحفلات الكبرى، ولم لا؟ خذ مثلاً، انظر إلى الخالة «رامبيون»، فهل ترى فارقاً كبيراً بين هذا وبين هيكل عظمي بفستان مفتوح؟ وصحيح أنها تملك كافة الحقوق لأنها بلغت المئة على الأقل. فقد كانت واحداً من أولئك الممثلين العظام الذين كنت أرفض الانحناء أمامهم حينما باشرتُ بداياتي في المجتمع الراقي. كنت أظنها ماتت منذ زمن طويل، ولعل هذا الأمر يؤلف التفسير الوحيد للمشهد الذي تقدمه لنا. إنه مؤثر وطقسي، ومن فن المقابر!» وكانت الدوقة قد فارقت «فروبيرفيل»، فاقترب منها: «أود أن أقول لك كلمة أخيرة». فقالت باستعلاء وبها شيء من الضيق: «ما وراءك أيضاً؟» أما هو فقال وبه خشية أن تعدل عن رأيها في اللحظة الأخيرة بالنسبة إلى «مونفور لاموري»: «لقد خانتني الجرأة في أن أحدثك عن الأمر بسبب السيدة «دو سانت اوفيرت» وكي لا أبعث الغم في نفسها، ولكن بما أنك لا تعتزمين الذهاب فبوسعي أن أقول إني سعيد من أجلك، فداء الحصبة في بيتها!» وقالت «أوريان»

التي كانت تخشى الأمراض: «آه! يا إلهي! ولكن الأمر لا أهمية له في ما يخصني، فقد سبق أن أُصبت بها ولا يمكن الإصابة بها مرتين» - «إنما الأطباء من يقولون ذلك، فإني أعرف أناساً أصيبوا بها حتى أربع مرات. لقد حذرتك على أية حال». أما في ما يخصه، فلعله كان انبغى أن يصاب حقاً بتلك الحصبة الوهمية وأن تسمّره على فراشه كي يسلم بتفويت حفلة «سانتوفيرت» التي ينتظرها منذ عدّة أشهر. فسوف يصيب مسرة بمشاهدة الكثير من أرباب الأناقة؛ بل يتعاظم سروره بملاحظة بعض الأمور الفاشلة، وسيسره على وجه الخصوص أن يستطيع الفخار زمناً طويلاً بأنه كسب صداقة الأولين، وأن يأسف للأخرى بعدما يبالغ فيها أو يختلقها.

وانتهزتُ فرصة كانت الدوقة تغيّر فيها مكانها كي أنهض بدوري للذهاب باتجاه قاعة المدخنين للاستعلام عن «سوان»، فقالت لي: «لا تصدق كلمة مما رواه «بابال»، فما كانت الصغيرة «موليه» لتذهب في يوم وتحشر نفسها. هناك يقولون لنا ذلك لاجتذابنا. إنهم لا يستقبلون أحداً ولا يُدعون إلى أي مكان؛ وهو نفسه يقرّ بالأمر: «نظل نحن الاثنين وحدنا قرب نار الموقد». وإذ يقول على الدوام «نحن»، لا بلغة الملك بل من أجل امرأته، تراني لا ألحّ. ولكني مطلعة أتم الاطلاع»، تضيف الدوقة قولها. والتقينا، هي وأنا، شابّين يستمدّان جمالهما العظيم والمختلف من المرأة نفسها، وكانا ولدَي السيدة «دو سورجيس» عشيقة الدوق «دو غيرمانت» الجديدة، كانا يتألقان بمواطن الكمال في والدتهما، ولكنّما كل بآخر غير الذي لذاك. فقد انتقل إلى الأول هيبة السيدة «دو سورجيس» الملكية متماوجة في جسم رجولي، فيما يتدفق الشحوب اللاهب الأصهب المقدس نفسه في مرمر وجنتي الوالدة وهذا الابن. أمّا شقيقه فقد اكتسب الجبين اليونانيّ وكمال الأنف وعنق التماثيل وعينين تتسعان إلى ما لا نهاية. كان ازدواج جمالهما الذي تشكّل على هذا النحو من تَقَادِم متنوّعة قامت الإلهة بتقسيمها يوليك متعة الظن المجرّدة بأن علّة ذاك الجمال قائمة في خارجهما؛ لكأنما تجسّدت خصائص أمّهما الرئيسية في جسدين

مختلفين، وكان لأحد الشابّين قوام أمّه ولونها والآخر نظرتها كمثل الكائنين الإلهيين وإن هما إلا قوة وجمال «جوبيتير» أو «مينيرفا» كانا يفيضان احتراماً للسيد «دو غيرمانت» الذي يقولان عنه: «إنه صديق كبير لوالدينا»، بيد أن البكر ظن من الفطنة أن لا يُقْبِلَ لتحيّة الدوقة التي يعرف كراهيتها لوالدته، ربما دون أن يدرك السبب، فأشاح قليلاً برأسه لدى رؤيتنا. أمّا الابن الأصغر، الذي كان يقلّد أخاه على الدوام، إذ هو غبيّ وقصير النظر إلى ذلك، فلا يجرؤ على اتخاذ رأي شخصيّ، فقد مال برأسه وفق الزاوية نفسها وانسلّ الاثنان صوب قاعة اللعب يتبع أحدهما الآخر وهما أشبه بشخصيّتين رمزيّتين.

لحظة وصولي إلى تلك القاعة استوقفتني المركيزة «دو سيتري»، ولا تزال جميلة ولكنّما يكاد الزبد يتطاير من أسنانها. كانت على شيء من نبل المحتد فبحثت وعقدت زواجاً لامعاً باتخاذ السيد «دو سيتري» زوجاً لها، وكانت جدّة جدّته من أسرة «أومال لورين». وما إن أصابت من ذلك مسرّة حتى جعلها طبعها النكّار تكره جماعة المجتمع الراقي كرهاً لا يستبعد بصورة مطلقة الحياة المخملية. فلم تكن تكتفي في أمسية ما بالهزء بالجميع ولكنّما كان في ذلك الاستهزاء شيء من العنف شديد إلى حدّ أن الضحك نفسه لم يكن فيه ما يكفي من قسوة لينقلب صغيراً ينطلق من الحلق. وقالت لي وهي تُريني الدوقة «دو غيرمانت» التي فارقتني منذ قليل وأضحت على مسافة مني: «آه! ما يذهلني أنها تستطيع أن تحيا مثل هذه الحياة». أفكانت هذه الكلمة لقدّيسة يتأكّلها الغيظ وتعجب أن لا يُقْبِلَ الوثنيون من تلقاء انفسهم إلى الحقيقة، أم لفوضوية تحرّكها شهوة المذابح؟ وفي جميع الأحوال لم يكن لتلك الالتفاتة ما يبرّرها إلا أقل القليل. وأوّل الأمر أن «الحياة التي كانت تحياها» السيدة «دو غيرمانت» قليلة الاختلاف (باستثناء ما تبدي من حنق من حياة السيدة «دو سيتري». كانت السيدة «دو سيتري» مذهولة أن تلفي الدوقة قادرة على هذه التضحية القاتلة، عنينا حضور أمسية لـ«ماري جيلبير». وينبغي أن نقول في هذه الحالة الخاصة إن السيدة «دو

سيتري» كانت تحبّ الأميرة حباً جماً وكانت هذه بالفعل طيبة جداً، وإنها تعلم أنها توليها بحضورها أمسيتها سروراً عظيماً ولذلك ألغت، بغية المجيء إلى هذه الحفلة، دعوة راقصة كان تظن لها نبوغاً وسوف تدخلها في أسرار تصاميم الرقص الروسي. وثمّة سبب آخر كان ينزع بعض القيمة عن الحنق المركّز الذي ينتاب السيدة «دو سيتري» حين ترى «أوريان» تلقي التحية على هذا المدعو أو تلك المدعوة وقوامه أن السيدة «دو غيرمانت» تعاني من أعراض الداء الذي يفتك بالسيدة «دو سيتري» وإن يكن حالة أقل تطوراً. وقد لوحظ بأية حال أنها كانت تحمل بذوره منذ مولدها. ولعله كان للسيدة «دو غيرمانت» أخيراً، وهي أكثر ذكاء من السيدة «دو سيتري»، حقوق أكثر منها بتلك العدمية (التي لم تكن خاصة بالمجتمع الراقي فحسب)، ولكنّما الصحيح أن بعض المزايا تساعد على تحمّل عيوب الآخرين أكثر مما تسهم في التألم منها، وإن شخصاً عظيم الموهبة إنما يولي بالعادة اهتماماً أقل بغباء الآخرين مما يفعل رجل أحمق. لقد وصفنا بتطويل كاف نوعية فكر الدوقة كيما يجري الإقناع بأنها، إن كانت لا تشبه في شيء الذكاء الرفيع، إنما هي فكر على الأقل، فكر ماهر في استخدام أشكال مختلفة من النحو (على غرار المترجم). وما كان يبدو أن شيئاً من ذلك يؤهل السيدة «دو سيتري» لازدراء مزايا ما أشبهها بمزاياها. كانت ترى جميع الناس بلهاء، ولكنّما يغلب أن تظهر في حديثها وفي رسائلها أدنى من الناس الذين تعاملهم بهذا القدر من الازدراء. كان بها على أية حال حاجة إلى الهدم عظيمة حتى أن المتع التي بحثْث عنها حينذاك، حينما تخلّت عن الدنيا تقريباً، عانت الواحدة بعد الأخرى من قدرتها الرهيبة على الإفساد. لقد شرعت تقول بعدما هجرت الحفلات المسائية إلى جلسات موسيقية: «أفتحبّ سماع مثل هذا، هذه الموسيقى؟ آه! يا إلهي، الأمر رهن بالأوقات. ولكن كم يمكن أن يكون ذلك مملاً! «بيتهوفن»، يا للسأم» بل تكتفي بتمرير يدها على وجهها كما يفعل الحلاق. وغدا كلّ شيء باعثاً على السأم» «الأشياء الحلوة، ما أكثر ما تبعث على

السأم! واللوحات شيء يورث الجنون. كم أنت على حق، فأي ملل في كتابة الرسائل!» وكانت الحياة نفسها في نهاية المطاف ما أعلنت تقول عنها إنها أمر مملّ دون أن ندري تماماً أين كانت تأخذ وجه المقارنة.

لست أعلم إن كان ذلك بسبب ما قالت السيدة «دو غيرمانت»، في أول مساء تناولتُ فيه طعام العشاء في منزلها، حول هذه الحجرة، ولكنّ قاعة اللعب أو التدخين بتصاوير بلاطها ومناصبها الثلاثية وصور الآلهة والحيوانات فيها وهي تنظر إليك وأشكال أبي الهول الممدّدة على أذرع المقاعد ولا سيما الطاولة الهائلة المصنوعة من الرخام أو الفسيفساء المرصّعة المغطاة بعلامات رمزية تقلد في كثير أو قليل الفن «الايتروسكي» والمصري، قاعة اللعب تلك بدت لي غرفة مسحورة حقيقية. فعلى مقعد جرى تقريبه من الطاولة المتلألئة العرافيّة كان السيد «دو شارلوس»، هو الذي لا يلمس ورقة لعب واحدة، وغير الآبه بما يجري من حوله والعاجز عن ملاحظة أني دخلت منذ قليل، كان يبدو بالضبط ساحراً يوجّه كامل قوة إرادته وعقله لاستخلاص طالع ما. كانت عيناه تخرجان من رأسه كمثل متنبّئة على كرسيّها الثلاثي الأرجل، وليس ذلك فحسب، بل هو وضع إلى جانبه، بغية أن لا يصرفه أمر عن الأعمال التي تقتضي إيقاف أبسط الحركات، (وكمثل حاسب لا يريد القيام بأي أمر آخر ما دام لم يجد حلاً لمسألته)، السيكار الذي كان في فمه قبل وقت قليل والذي لم يعد يملك حرية الفكر اللازمة لتدخينه. وربما تبادر إلى الذهن، إذ تبصر الإلهين المقعيين على ساعدي الكنبة الموضوعة قبالته، أن البارون يحاول كشف لغز أبي الهول لو لم يكن الأمر بالأحرى لغز «أوديب» شاب وحيّ يرزق يجلس بالضبط على هذه الكنبة حيث اتخذ مكانه ليلعب. وإنما كان الوجه الذي يصبّ عليه السيد «دو شارلوس» كامل قدراته الروحية وبهذا المقدار من التركيز والذي لم يكن والحقّ يقال من تلك التي تُدْرَسُ عادة «بطريقة هندسية»، كان ذاك الذي تقدّمه له خطوط وجه المركيز الشاب «دو سورجيس». كان يبدو، لشدّة ما كان السيد «دو شارلوس» مستغرقاً أشد

الاستغراق أمامه، وكأنه كلمة ما في مَعين، أحجية ما، مسألة جبر حاول أن يكشف لغزها أو يستخلص صيغتها. كانت العلامات المبهمة المعاني والصور المنقوشة على لوح الشريعة هذا تبدو وكأنها كتاب الطلاسم الذي سيمكّن الساحر العجوز من معرفة المنحى الذي تنحوه مصائر الشاب. وتبيّن فجأة أني أنظر إليه ورفع رأسه كأنما يطلع من حلم وابتسم لي وقد اكتسى وجهه حمرة. وفي تلك اللحظة جاء ابن السيدة «دو سورجيس» الآخر بالقرب من ذاك الذي كان يلعب، جاء يستطلع أوراقه. وحينما علم السيد «دو شارلوس» مني أنهما شقيقان لم يفلح وجهه في إخفاء الإعجاب الذي تبعثه فيه أسرة تُبدع روائع بهذا الألق وهذا الاختلاف. ولعل ما كان زاد من حماسة البارون أن يعلم أن ولدَي السيدة «دو سورجيس لو دوك» لم يولدا لأم واحدة، بل لأب واحد أيضاً. إن أبناء «جوبيتير» مختلفون، ولكن مردّ ذلك أنه تزوّج بادئ الأمر «ميتيس» التي قُدِّرَ عليها أن تهب الحياة لأبناء عقلاء، ثمّ «تيميس» وبعدها «أوريمون» و«منيموزين» و«ليتو» وفي آخر المطاف فقط «جونون». إلا أن السيدة «دو سورجيس» ولدت من أب واحد ولدين ورثا الجمال عنها، ولكنّما جمال مختلف لكلّ منهما.

وسرّني أخيراً أنْ دخل «سوان» إلى هذه الغرفة التي كانت كبيرة جداً إلى حدّ أنه لم يبصرني بادئ الأمر؛ والسرور يداخله الحزن، حزن ربما لم يعانِ منه المدعوّون الآخرون، ولكنّما قوامه لديهم هذا النوع من الانجذاب الذي تخلّفه الأشكال اللامتوقعة والفريدة لموت قريب، موت تحمله على وجهك، كما تقول العامة. وبذهول يقرب أن يكون مجافياً ويداخله فضول مفضوح وقساوة وعطفة على الذات هائلة مهتمة في آن معاً (هي خليط من «كم يلذّ للمرء، فوق البحر الفسيح» و«تذكّرْ، بما أنك تراب» كما لعل «روبير» كان قال)[1]، تعلّقت جميع الألحاظ بذلك الوجه

(١) مزيج من الشعر اللاتيني لهوراس: «كم يلذّ للمرء حينما تثير الرياح الأمواج فوق البحر الفسيح، أن يشاهد من اليابسة المخاطر الرهيبة التي تحيق بالآخرين». ومن

الذي تأكّل المرضُ وجنتيه، على غرار قمر متناقص، إلى حدّ أن دائرتهما كانت، فيما عدا زاوية محددة هي دونما شكّ تلك التي ينظر منها «سوان» إلى نفسه، تتوقف فجأة كزينة مسرحية لا قوام لها يضيف إليها الخداع البصري وحده مظهر العمق. كان أنف «سوان» الكراكوزي، وقد ظل فترة طويلة مقلّصاً في إطار وجه لطيف، كان يبدو الآن ضخماً متورّماً قرمزياً، أقرب أن يكون لعبريّ عتيق منه لـ«فالوازيّ»[1] مُسْتَهْجَن، إما بسبب غياب هاتين الوجنتين، وليستا هنا من بعد لتقليصه، وإما لأن تصلّب الشرايين، وهو تسمّم بدوره، يحمّره كما لعل إدمان الكحول يفعل أو يشوّهه، كما لعلّ «المورفين» تفعل فعلها. وربما عاد العِرق من جانب آخر في هذه الأيام الأخيرة لديه، ربما عاد يُبرز بصورة أوضح النموذج الجسدي الذي يميّزه والإحساس في الوقت نفسه بتضامن ماديّ مع اليهود الآخرين، تضامن بدا أن «سوان» أغفله طوال حياته فأيقظه المرض القاتل ومسألة «دريفوس» والدعاوى المناهضة للسامية، وقد انضاف بعضها إلى بعض. فثمة بعض اليهود ممن يكمن لديهم، مع أنهم مرهفون إلى حدّ كبير وأرباب مجتمع رقيقون، يكمن احتياطاً وبعيداً عن الأنظار كيما يدخلا في ساعة معينة في حياتهم، كما هو الأمر في مسرحية، إنسان فظّ ونبيّ. صحيح أنه تبدّل تبدّلاً كبيراً بوجهه الذي اختفى منه بسبب المرض أقسام بكاملها، كما هي الحال في كتلة ثلج تذوب وقد تهاوت منها جوانب كاملة. ولكنّي ما كنت أقوى على الحؤول دون أن أدهش إلى أي حدّ تغيّر أكثر من ذلك بالنسبة إليّ. فهذا الرجل الممتاز المثقف الذي ما أبعد ما كنتُ عن التضجّر بلقائه ما كنت أفلح في إدراك الكيفية التي استطعت بها أن أزرع فيه سراً عظيماً إلى حدّ أن ظهوره في «الشانزيليزيه» كان يخفق به قلبي إلى حدّ أن أخجل من الاقتراب من معطفه المبطّن بالحرير وأني على

صلاة الميت لدى الطوائف المسيحية: «تذكّر أيها الإنسان، لأنك تراب وإلى التراب تعود».

(١) الأسرة التي حكمت فرنسا في أوائل القرن الرابع عشر وإلى أواخر السادس عشر.

باب الشقّة التي كان يعيش فيها مثل هذا الإنسان ما كنت أستطيع قرع الجرس دون أن يتملكني اضطراب وذعر لا حدّ لهما؛ وقد زال كلّ ذلك لا من مسكنه فحسب، بل من شخصه، وإن فكرة التحدث إليه كان يمكن أن تروقني أو لا تروقني ولكنّها ما كانت تخلّف أي أثر في جملتي العصبية.

ثمّ كم هو تغيّر منذ عصر هذا اليوم نفسه الذي التقيته فيه - أي قبل بضع ساعات - في مكتب الدوق «دو غيرمانت»! فهل وقعت بالحقيقة مشادّة بينه وبين الأمير بلبلته؟ لم يكن الافتراض ضرورياً، فإن أقلّ جهود تُطلب من شخص مريض جداً سرعان ما تضحي بالنسبة إليه إرهاقاً مفرطاً. فإن تعرّض أقلّ ما يتعرّض، وهو متعب، لحرّ إحدى الأمسيات تفكّكت قسمات وجهه وعلتها الزرقة، كما يحلّ في أقلّ من يوم بإجاصة تناهى نضجها أو بحليب يوشك أن يحمض. ثم إن شعر «سوان»، وقد تناقص في بعض المواضع وأصبح بحاجة، كما تقول السيدة «دو غيرمانت»، لفرّاء، كان يبدو كأنما دهن بزيت الكافور وأسيئ الدهان. كنت أزمع اجتياز صالة المدخنين والتحدث إلى «سوان» حينما حطّت لسوء الحظّ يد على كتفي: «مرحباً يا صغيري. أنا في باريس لثمان وأربعين ساعة. لقد مررت إلى بيتك وقيل لي إنك هنا، فأنت إذاً من يولي عمّتي شرف حضوري إلى حفلتها». وكان «سان لو» فقلت له كم أجد البيت جميلاً. - «أجل، يبدو عليه شكل البناء التاريخي إلى حدّ ما. أما أنا فأجد ذلك قاتلاً، ولكن لا نقفنّ قريباً من عمي «بالاميد» وإلا اخْتُطِفْنا. وبما أن السيدة «موليه» (وهي التي بيدها الحبْلُ في هذه الفترة) غادرت منذ قليل تراه في أشدّ الحيرة. ويظهر أن الأمر كان مسرحية حقيقية، فلم يفارقها قيد أنملة ولم يتركها إلا بعدما وضعها في العربة. لست حاقداً على عمّي ولكنّما أستغرب أن يكون مجلسي العائلي الذي بدا دوماً بالغ القسوة عليّ مؤلفاً بالضبط من أقارب هم أكثر مَنْ عزف وقصف ابتداءً بأكثرهم إعراساً، عمّي «شارلوس»، وهو المشرف على الوصيّ عليّ، الذي كان له من النساء

مثل ما كان لـ«دون جوان»، والذي لا يحطّ برحاله وهو في مثل سنّه. وقد بحثوا ذات مرة أن يجري تعيين مجلس قضائي لي. وأظن أن هؤلاء المشّائين العتاق حينما كانوا يجتمعون للنظر في الأمر ويرسلون في طلبي يعظونني ويقولون لي إني كنت أغمّ والدتي فلا بدّ أنهم ما كانوا يستطيعون أن ينظر واحدهم إلى الآخر دون أن يضحكوا. فانظر في تشكيلة المجلس فإنما يبدو أنهم اختاروا عامدين أكثر ما لاحقوا النساء». وباستثناء السيد «دو شارلوس» الذي ما كان يبدو لي أن لاستغراب صديقي في ما يخصه مبررات أكثر، ولكن لأسباب أخرى كانت على أي حال ستتبدل فيما بعد في خاطري، فقد كان «روبير» على ضلال مبين حينما يرى من غير المألوف أن تُعطى دروس في التعقّل لشابّ على لسان أقارب سلكوا سلوك المجانين أو هم لا يزالون يسلكون.

فإن كانت السابقة الوراثية والتشابهات العائلية هي المتهمة وحدها، فلا بدّ للعمّ الذي يُوَبّخ من حمل العيوب نفسها التي يحملها ابن الأخ الذي كُلّف تأنيبه. وليس بيدي العم في ذلك أي رياء إذ تخدعه مَلَكَة في الناس تحملهم على الاعتقاد لدى كلّ ظرف جديد بأن الأمر «غير الأمر»، ملكة تخولهم تبنّي أخطاء فنية وسياسية، إلخ.، دون أن يتبيّنوا أنها بعينها تلك التي عدّوها لعشر سنين خلت حقائق بشأن مدرسة رسم أخرى كانوا يدينونها، ومسألة سياسية أخرى يظنونها تستحق كراهيتهم، فعادوا عن المواقف وتبنّوها دون أن يتعرّفوها خلف قناعها الجديد. وحتى إن جاءت أخطاء العم مختلفة عن أخطاء ابن الأخ فيمكن ألا يقلّل ذلك من أن الوراثة هي إلى حدّ ما القانون المسبّب لها، لأن المعلول لا يشبه العلّة دوماً مثلما النسخة الأصل، وحتى إن جاءت أخطاء العم أكثر سوءاً فإن بمقدوره تماماً أن يظنها أقل خطورة.

حينما كان السيد «دو شارلوس» يوجّه تأنيباً يخالطه السخط الشديد لـ«روبير» الذي لم يكن يعرف على أية حال ميول عمه الحقيقية، فلعلّه كان يمكن في تلك الفترة، حتى لو كانت تلك التي كان البارون يستقبح فيها

ميوله الخاصة، أن يكون صادقاً إذ يجد من وجهة نظر رجل المجتمعات أن «روبير» أقبح ذنباً منه بما لا يقاس. أفلم يوشك «روبير» يوم كُلّفَ عمّه بأن يثنيه عن غيّه، أن يُقصى خارج عالمه؟ أفما كان إلا القليل كيما يستبعد من نادي الخيول؟ ألم يكن موضع استهزاء من جرّاء الإنفاقات الجنونية التي يُقدِم عليها في سبيل امرأة من أدنى فئة، ومن جرّاء علاقات المودّة التي تربطه بأناس، من كتّاب وممثلين ويهود، ليس منهم واحد من المجتمع الراقي، ومن جرّاء آرائه التي لا تختلف عن آراء الخونة، والعذاب الذي يسبّبه لذويه جميعاً؟ فأي وجه ممكن للشبه بين هذه السيرة الفاضحة وسيرة السيد «دو شارلوس» الذي أفلح حتى الآن لا في الحفاظ على وضعه كواحد من آل «غيرمانت» فحسب بل في تنمية ذاك الوضع، إذ هو في المجتمع شخص مميّز تماماً يسعى إليه ويدلّله المجتمع الأكثر اصطفاء وقد عرف بعد زواجه من أميرة من آل «بوربون»، وهي امرأة لامعة، كيف يسعدها وقد خصّ ذكراها بتكريم أكثر حرارة ودقّة مما هو مألوف في دنيا المجتمع فكان بذلك زوجاً صالحاً كما كان ابناً صالحاً؟

وسألت قائلاً: «ولكن هل أنت متأكد من أن السيد «دو شارلوس» قد اتخذ هذا العدد من العشيقات؟» دون أن تداخلني بالتأكيد نيّة شيطانية أكشف بها لـ«روبير» السرّ الذي سبق أن فاجأته، ولكنّما يضايقني أن أسمعه يؤكد خطأً بهذا القدر من اليقين والعجب. واكتفى بالارتفاع بمنكبيه جواباً عما ظنّه سذاجة من جانبي. «ولكنّي بأية حال لا ألومه وأرى أنه على حق تماماً». وشرع يخط لي نظرية لعلّه كان استهالها في «بالبيك» (وما كان يكتفي فيها بالتنديد بالمغوين إذ يبدو له الموت العقاب الوحيد الذي يتناسب والجريمة). ذلك لأنه كان لا يزال حينذاك عاشقاً غيران، وقد بلغ به أن يمتدح لي بيوت الدعارة. «هناك فقط تجد ما تبحث عنه وما نسمّيه المقاس في الكتيبة». فلم يعد به إزاء هذا النوع من الأماكن القرف الذي داخله في «بالبيك» حينما لمّحت إليها، وقلت له وأنا أسمعه الآن أنّ «بلوك» عرّفني على بعض منها، ولكنّ «روبير» أجابني أن البيت الذي كان

يتردّد إليه «بلوك» «لا بدّ بائس تماماً وجنّة الفقير». «ولكن ربما على أي حال، فأين يقع؟» ولبثت في المبهم الغامض إذ ذكرت بالفعل أن «راشيل» تلك التي أحبّها «روبير» حباً جماً كانت تهب ذاتها هناك في مقابل ليرة ذهبية. «سوف أعرّفك في جميع الأحوال على ما هو خير منه تماماً وحيث تتردد نسوة مدهشات». وإذ سمعني أُبدي رغبة في أن يقودني في أقرب فرصة ممكنة إلى البيوت التي كان يعرفها ولا بدّ أنها تفوق كثيراً البيت الذي سبق أن دلّني عليه «بلوك»، أبدى هو أسفاً صادقاً لما لا يستطيع ذلك هذه المرّة إذ إنه يعود في الغد، وقال: «سيكون ذلك في عودتي القادمة»؛ وأضاف يقول بهيئة يلفّها الغموض: «سوف ترى. هنالك حتى فتيات، آنسة صغيرة من... أظن من «أورجفيل»، وأقول لك بالضبط، إنها ابنة أناس من خيرة القوم؛ ولعلّ الأم مولودة لآل «لاكروا ليفيك»؛ إنهم جماعة من الصفوة وعلى بعض قربى، إن لم تكذب الذاكرة، بعمّتي «أوريان». تكفي في جميع الأحوال رؤية الصغيرة حتى تشعر أنها ابنة أناس ذوي مستوى (وأحسست مقدار لحظة بظلّ عبقرية آل «غيرمانت» يمتدّ فوق صوت «روبير»، يمتدّ كسحابة ولكن على ارتفاع عال دون أن يتوقف). ذلك يبدو لي تماماً مسألة رائعة. فالوالدان مريضان على الدوام ولا يستطيعان الاهتمام بها. يا الله! إن الصغيرة تدفع عن نفسها الملل وإني أعتمد عليك لتوفير تسليات لهذه الطفلة!» - «آه! ومتى تعود؟» - «لست أدري؛ وإن كنت لا تتمسّك تماماً بالدوقات (إذ لقب الدوقة في نظر الأرستقراطيين هو الوحيد الدالّ على مرتبة لها ألقها الخاص، كما يُقال في جمهور الأميرات)، فلديك في طراز آخر الوصيفة الأولى للسيدة «بوتبوس».

وفي تلك اللحظة دخلت السيدة «دو سورجيس» إلى صالة اللعب تبحث عن ولديها. ولمّا رآها السيد «دو شارلوس» أقبل عليها بلطف فوجئت به المركيزة مفاجأة تزايد إبهاجها بمقدار الفتور الكبير الذي كانت تتوقعه من البارون الذي وقف دوماً وقفة المحامي عن «أوريان» وظلّ

وحده في العائلة (وهي في الكثير الغالب تراعي تطلّبات الدوق بسبب ميراثه وبداعي الغيرة من الدوقة) يستبعد عشيقات أخيه. ولعلّ السيدة «دو سورجيس» كانت أدركت لذلك تمام الإدراك دواعي الموقف الذي تخشاه من جانب البارون، ولكنّما لم يخطر ببالها إطلاقاً دواعي الاستقبال المناقض كلياً الذي خصّها به وحدّثها بإعجاب عن الرسم الذي أنجزه لها «جاكيه» فيما مضى. واهتاج هذا الإعجاب فبلغ حدود الحماسة التي إن كانت نفعية في جزء منها كي تحول دون ابتعاد المركيزة عنه، كي «تستدرجها» على حدّ ما يقول «روبير» عن جيوش عدوّة نريد إجبار قوّاتها على البقاء مشتبكة في نقطة معينة، فربما كانت صادقة أيضاً. فإنه إن حلا للجميع أن يُعجَبوا في الابنين بما أورثتهما السيدة «دو سورجيس» من هيئة لها ملكيّة وعينين، فقد كان بوسع البارون أن يحسّ بمتعة معكوسة ولكنّها بمثل حدتها في العثور على هذه المفاتن وقد تجمّعت حزمة واحدة لدى والدتهما وكأنما في رسم لا يبعث في حدّ ذاته بأية رغبات ولكنّه يغذّي تلك التي يوقظها بالإعجاب الجماليّ الذي يثيره. وكانت هذه الرغبات تزوّد رسم «جاكيه» ذاته على نحو استذكاريّ بسحر شهواني ولعلّ البارون كان ابتاعه راضياً في تلك اللحظة كي يدرس فيه النَّسَبَ الفيزيولوجي للشابّين «سورجيس».

وقال لي «روبير»: «ترى أني ما كنت مبالغاً. فانظر قليلاً إلى تهالك عمّي على السيدة «دو سورجيس». وإنما يثير ذلك عجبي حتى ههنا، فلو علمت «أوريان» بذلك لاستشاطت غيظاً. هنالك، صراحة، ما يكفي من النساء كي لا يبلغ بك بالضبط أن ترتمي على هذه»، يضيف قوله. كان يتصوّر، شأن جميع من ليسوا عاشقين أن المرء يختار الشخص الذي يحبّ إثر ألفٍ من المشاورات وطبقاً لمزايا وتوافقات مختلفة. وفيما كان «روبير» من جانب آخر يخطئ بخصوص عمّه الذي يظنه منصرفاً إلى النساء، كان في حقده يتحدث عن السيد «دو شارلوس» بطيش مفرط. فلست ابن أخ أحدهم ولا ينَالُك دوماً شيء من ذلك، فإنه يغلب كثيراً أن تنتقل إحدى

العادات الوراثية عاجلاً أو آجلاً عن طريقه. وربما استطعنا على هذا النحو إقامة مجموعة من الرسوم الشخصية تحمل عنوان الملهاة الألمانية «**العم وابن أخيه**» نرى فيها العم يحرص حرصاً شديداً، وإن يكن دونما قصد، أن يشبهه ابن أخيه في نهاية المطاف. بل أضيف أن هذه المجموعة ربما كانت غير كاملة إن لم ندرج فيها الأعمام الذين ليسوا على قربى حقيقية وإن هم إلا أعمام زوجة ابن الأخ. والسادة من أمثال «دو شارلوس» متيقنون أنهم الأزواج الوحيدون الصالحون بالإضافة إلى أنهم الوحيدون الذين لا يثيرون غيرة النساء إلى حدّ أنهم بعامة يحملون ابنة أخيهم حباً بها على الزواج من أمثال «شارلوس»، الأمر الذي يعقّد خريطة التشابهات. ويقترن حبّ ابنة الأخ أحياناً بشيء من الحبّ لخطيبها. أمثال تلك الزيجات ليست نادرة وهي في الغالب ما يدعونه بالزيجات السعيدة.

«عمَّ كنا نتحدّث؟ أجل، عن هذه الشقراء الطويلة وصيفة السيدة «بوتبوس». إنها تعشق النساء أيضاً ولكنّي أظن الأمر عندك سواء؛ يمكنني أن أقول لك بصراحة إني لم أبصر يوماً امرأة بمثل جمالها». - «أتخيلها إلى حدّ ما من شخصيات «جورجونه»! «جورجونه» إلى أبعد الحدود! آه لو توافر لي وقت أقضيه في باريس، فكم من أمر رائع يمكن إتيانه! ثم تنتقل إلى أخرى غيرها. أما ما كان من أمر الحبّ، ترى، فإنه مزحة طيّبة، وقد عدلت عن رأيي فيه». ولاحظت بعد قليل أنه لم يكن أقلّ عودة عن رأيه في الأدب في حين بدا لي في آخر لقاء لنا أنه مخيّب الرجاء بالأدباء فحسب («إنهم جميعاً من بني وغد وشركاهم»، كما سبق أن قال لي)، وهو ما كان يمكن تفسيره بحقده المبرّر على بعض أصدقاء «راحيل». فقد كانوا أقنعوه أنها لن يتوافر لها موهبة في يوم إن هي سمحت لـ«روبير»، «وهو رجل من طينة أخرى»، أن يبسط نفوذه عليها، وكانوا وإياها يسخرون منه في حضرته وفي أثناء حفلات العشاء التي يقيمها لهم. والواقع أن حبّ «روبير» للأدب لم يكن على شيء من العمق ولا يصدر عن طبيعته الحقّة وهو مستمدّ حصراً من حبّه لـ«راحيل» وقد امّحى مع هذا

الحبّ، في الوقت نفسه الذي امّحى فيه كرهه لجماعة المتع واحترامه الخاشع لفضيلة النساء.

قال السيد «دو شارلوس» وهو يدلّ السيدة «دو سورجيس» على ولديها وكأنه يجهل تماماً من يكونان: «كم يبدو مظهر هذين الشابّين غريباً! انظري إلى هذا الولع الغريب باللعب أيتها المركيزة. لا بدّ أنهما شرقيان فلديهما بعض القسمات المميّزة، وربما كانا تركيّين»، يضيف قوله ليؤكد براءته المتكلّفة ويظهر شيئاً من النفور الغامض والذي سيقيم البرهان حينما يخلي مكانه للوداد على أن هذا الأخير إنما يُوَجّه فحسب لمن يتمتّع ببنوّة السيد «دو سورجيس» إذ لم يبدأ إلا بعدما علم البارون من يكونان. وربما كان يفيد السيد «دو شارلوس»، والوقاحة لديه هبة من الطبيعة تلذّه ممارستها، ربما كان يفيد من الدقيقة التي يفترض في أثنائها أنه يجهل من يكون ذانك الشابّان كيما يتلهى على حساب السيدة «دو سورجيس» وينصرف إلى صنوف تهكّمه المعتادة مثلما يستغلّ «سكابّان»[١] تنكّر سيّده لينهال عليه بعصاه.

وقالت السيدة «دو سورجيس»: «إنهما ولداي»، وقد كست وجهها حمرة ما كانت لتغشاه لو أنها كانت أكثر رهافة دون أن تكون أوفر فضيلة، فلعلّها كانت أدركت إذ ذاك أن مظهر اللامبالاة المطلقة أو الاستهزاء الذي يبديه السيد «دو شارلوس» إزاء أحد الشباب لم يكن يرتدي صدقاً أكثر مما يعبّر الإعجاب السطحيّ تماماً الذي يبديه لإحدى النساء عن مكنون طبيعته. فلعلّ التي كان يمكن أن يسمعها دون انقطاع الأقوال الأكثر امتداحاً، لعلّها استطاعت أن تكون غيرَى من النظرة التي يرمي بها، فيما يحدّثها، رجلاً يتظاهر فيما بعد بأنه لم يلاحظه. ذلك لأن تلك النظرة كانت غير تلك التي يخصّ بها السيد «دو شارلوس» النساء، كانت نظرة خاصة تصاعدت من الأعماق ولا تستطيع حتى في أثناء أمسية أن تمتنع

---

(١) هو الخادم في مسرحيات «موليير» الهزلية.

عن التوجّه ببساطة إلى الفتيان مثلما نظرات الخيّاط تفضح مهنته جرّاء الطريقة التي يعلّق بها فوراً على الثياب.

وأجاب السيد «دو شارلوس» بلهجة لا تخلو من الوقاحة: «آه! ما أغرب ذلك»، وهو يبدو وكأنه يحمل فكره على قطع مشوار طويل ليردّه إلى حقيقة تختلف اختلافاً تاماً عن تلك التي كان يتظاهر بافتراضها. وأضاف قوله: «ولكنّي لا أعرفهما»، وهو يخشى أن يكون مضى بعيداً بعض الشيء في التعبير عن النفور وشَلّ لدى المركيزة نيّتها في تعريفهما به. وسألت السيدة «دو سورجيس» بلهجة خجولة: «أتراك تسمح لي بأن أقدّمهما لك؟» ورتّل السيد «دو شارلوس» باللهجة المتردّدة الفاترة التي لشخص تُنتَزع منه مجاملة: «ولكن، يا إلهي! أنا، حسبما أراك تعتقدين، موافق تماماً، وربما لم أكن شخصاً مسلياً جداً بالنسبة إلى فتيين بمثل شبابهما». وقالت السيدة «دو سورجيس»: «آرنولف، فيكتورنيان، هيا بسرعة». ونهض «فيكتورنيان» بتصميم، وتبعه «آرنولف» طائعاً دون أن ينظر إلى أبعد من شقيقه.

وقال لي «روبير»: «جاء دور الأبناء الآن. شيء يقطع الأنفاس من الضحك. إنه يجهد حتى في إرضاء كلب المنزل. والأمر يزداد غرابة بقدر ما يكره عمّي «المُزَوْبَنِين». ثمّ انظر كيف يصغي إليهما بجدّية. ولو شئت أنا أن أقدّمهما له كم لعلّه أبدى من خشونة في طردي. اسمع، ينبغي أن أمضي لتحية «أوريان». فإن ما لدي من وقت أقضيه في باريس قليل حتى لتراني مصمّماً على محاولة أن ألتقي هنا سائر الناس الذين كنت مضيت لولا ذاك فوضعت لهم بطاقات في منازلهم. كان السيد «دو شارلوس» في أثناء ذلك يقول «كم يبدوان على حسن تهذيب، وما أجمل تصرّفاتهما» فتجيب السيدة «دو سورجيس» مبتهجة: «أهذا ما ترى؟»».

وإذ شاهدني «سوان» أقترب من «سان لو» ومنّي، إقترب. كان المرح اليهوديّ لدى «سوان» أقلّ رهافة من مزحات رجل المجتمع الراقي. وقال لنا: «مساء الخير. يا إلهي! ثلاثتنا جميعاً، سوف يظنون أن ثمة اجتماعاً

للنقابة. وإن هو إلا القليل حتى يبحثوا أين يوجد الصندوق!» ولم يكن قد لاحظ أن السيد «دو بوسيرفوي» كان خلفه وكان يسمعه. وقطّب الجنرال حاجبيه دونما قصد. كنّا نسمع صوت السيد «دو شارلوس» قريباً جداً منا: «عجباً! تُدعى باسم «فيكتورنيان» كما هو الأمر في **مكتب القدماء**[1]»، يقول البارون كي يطيل الحديث مع الشابّين. وأجاب بكر عائلة «سورجيس»: «لبلزاك، أجل»، وما كان قرأ قط سطراً واحداً لهذا الروائي ولكنّ أستاذه كان أشار قبل بضعة أيام إلى التماثل بين اسمه واسم «ديسغرينيون». كانت السيدة «دو سورجيس» مفتونة إذ ترى ابنها يتألق والسيد «دو شارلوس» مأخوذاً إزاء هذا القدر من العلم.

قال «سوان» لـ«سان لو»، ولكن بصوت أخفض هذه المرّة كي لا يسمعه الجنرال، «سوان» الذي أضحت علاقات زوجته الجمهورية أهمّ في نظره منذ أن أصبحت قضية «دريفوس» في مركز اهتماماته: «يبدو أن «لوبيه» إلى جانبنا كلياً، والأمر من مصدر موثوق تماماً. وإنما أقول لك ذلك لأني أعلم أنك ماضٍ معنا إلى أبعد حدّ».

وأجاب «روبير» قائلاً: «ولكن ليس إلى هذا الحدّ، إنك مخطئ كلياً. تلك مسألة بدأت بداية سيئة وآسف أني حشرت نفسي فيها ولم تكن لي أية مصلحة فيها. ولو وقع عليّ أن أعيد الكرّة لوقفت منها على الحياد، إنني جندي وولائي للجيش أولاً. وإن بقيت فترة مع السيد «سوان» فسأعود إليك في الحال؛ إني ذاهب بالقرب من عمّتي». ولكنّي رأيت أنه إنما مضى للتحدث مع الآنسة «دامبرساك» وداخلني الغم إذ خطر لي أنه كذب عليّ حول خطوبتهما المحتملة. وهدأ روعي حينما علمت أن السيدة «دو مارسانت» أقدمت قبل نصف ساعة على تقديمه لها، وكانت راغبة في هذا الزواج إذ إن أسرة «دامبرساك» غنية جداً.

وقال السيد «دو شارلوس» للسيدة «دو سورجيس»: «وأخيراً أجد شاباً

---

(١) رواية لـ«بلزاك» من مجموعته «**مشاهد من الحياة في الريف**».

مثقفاً قارئاً يعرف أي شيء هو «بلزاك»، وأضاف يقول وهو يلحّ على هذه الكلمات: «وإنما يزيد من سروري أن ألقاه حيث أصبح الأمر من أشدّها ندرة، في منزل أحد أندادي، في منزل واحد منا». وعبثاً يتظاهر آل «غيرمانت» باعتبار كلّ الناس سواسية، فما كانوا في المناسبات الكبرى التي يلتقون فيها بأناس «كريمي المحتد»، بل على وجه الخصوص «أقلّ كرم محتد»، يشتهونهم ويمكن أن يدغدغوا عواطفهم، ما كانوا يتردّدون في استحضار الذكريات العائلية العتيقة. وأردف البارون يقول: «كانت كلمة أرستقراطيين تعني فيما مضى الأفضلين عقلاً وقلباً. وها إني أرى أول واحد منا يعرف من هو «فيكتورنيان ديسغرينبيون». ولكنّي مخطئ إذ أقول الأول، فثمة واحد أيضاً من آل «بولينياك» وواحد من آل «مونتسكيو»، يضيف السيد «دو شارلوس» وهو يعلم أن هذه المماثلة المزدوجة لا يمكن إلا أن تنتشي بها المركيزة. «لدى ولديك على أي حال من يأخذان عنه، فجدّهما لأمّهما كان يملك مجموعة مشهورة من القرن الثامن عشر». وقال لـ«فيكتورنيان» الشاب: «سوف أريك مجموعتي إن تفضّلت وأوليتني مسرّة في المجيء للغداء ذات يوم. وسأريك طبعة غريبة من «**مكتب القدماء**» تحمل تصحيحات بيد «بلزاك» وسوف يروقني أن أقارن بين شخصيّتي «فيكتورنيان».

ما كنت أستطيع حمل النفس على فراق «سوان»، فقد كان بلغ هذا الحدّ من التعب الذي ليس جسم المريض فيه سوى معوجّة يجري فيها متابعة تفاعلات كيميائية. وكان يبرز على وجهه نقاط صغيرة من زرقة داكنة تبدو وكأنها لا صلة لها بعالم الأحياء وتصدر هذا النوع من الرائحة الذي يجعل المكوث في صفّ «العلوم» في المدرسة الثانوية غير مستحبّ إلى حدّ بعيد في أعقاب «التجارب». وسألته إن لم يكن تحّدث طويلاً إلى الأمير «دو غيرمانت» وإن كان لا يودّ أن يقول لي أي حديث كان. فقال: «أجل، ولكن امضِ أولاً بعض الوقت مع السيد «دو شارلوس» والسيدة «دو سورجيس»، وسأنتظرك هنا».

لم يكن السيد «دو شارلوس» بالفعل، بعدما اقترح على السيدة «دو سورجيس» مغادرة هذه الغرفة لفرط الحرّ فيها والذهاب ليجلس فترة وإياها في غرفة أخرى، لم يكن قد سأل الولدين المجيء مع أمهما بل سألني أنا. كان يتخذ بهذه الطريقة مظهر من لا يتمسّك بالشابّين بعدما رمى بالطُّعم إليهما. ثم إنه كان يخصني بمجاملة سهلة، إذ السيدة «دو سورجيس لو دوك» سيئة السمعة إلى حدّ ما.

وما كدنا لسوء الحظ نجلس في شرفة لا فسحة لها حتى مرّت بنا السيدة «دو سانت اوفيرت»، وكانت هدفاً لصنوف هزء البارون. أما هي، وربما شاءت أن تخفي أو أن تزدري صراحة ما تَوَلّد عن مشاعر قبيحة في صدر السيد «دو شارلوس» وأن تُبدي على وجه الخصوص أنها على صلة حميمة بسيدة تتحدث بهذه الألفة إليه فقد ألقت بتحية ودّ يلوّنه الازدراء إلى ذات الجمال المشهورة التي ردّت وهي تختلس النظر إلى السيد «دو شارلوس» بابتسامة ساخرة. ولكن الشرفة كانت ضيّقة إلى حدّ أن السيدة «دو سانت اوفيرت»، حينما شاءت من خلفنا الاستمرار في البحث عن مدعويها في الغد، ألفت نفسها في الفخّ ولم تفلح في التخلص بسهولة، وكانت لحظة ثمينة حرص السيد «دو شارلوس» أتمّ الحرص، وهو راغب في إظهار ألق قريحته الوقحة أمام والدة الشابّين، على الإفادة منها. ووفّر له سؤال أبله طرحته عليه دون خبث فرصة إنشاد مقطع ظافر لم يَسَعْ «سانت اوفيرت» المسكينة، وقد جُمّدت خلفنا تقريباً، أن تضيّع منها كلمة واحدة. فقال وهو يدلّ السيدة «دو سورجيس» عليّ: «هل تصدقين أن هذا الشاب الوقح قد سألني منذ قليل، دون أدنى اهتمام بوجوب إخفاء مثل هذه الحاجات، إن كنت أذهب إلى منزل السيدة «دو سانت اوفيرت»، يعني، في ظني، إن كنت أعاني من المغص. ولعلني أحاول في جميع الأحوال أن أفرّج عن نفسي في مكان تتجمع فيه أسباب الراحة أكثر مما هي الحال في منزل امرأة كانت تحتفل بعيد ميلادها المئوي، إن لم تخنّي الذاكرة، يوم بدأت أرتاد عالم المجتمعات، أي في غير منزلها. ومع ذلك

من ذا يكون أكثر إمتاعاً منها لسماعها؟ فكم من ذكريات تاريخية شاهدتها وعاشتها في زمن الإمبراطورية الأولى وفترة إعادة الملكية، وكم من قصص حميمة كذلك ما كانت بالتأكيد تتّسم بشيء من «القداسة» وكان لا بدّ أن تكون شديدة المجون، إن صدّقنا الساق التي ظلّت خفيفة لدى «النّطاطة» المحترمة! وما قد يمنعني عن مساءلتها حول هذه الأوقات المشوّقة إنما حساسية جهاز الشمّ عندي. يكفي القرب من السيدة، وأقول في نفسي فجأة: «يا إلهي! لقد أحدثوا ثغرة في الجورة الفنية عندي»، فإذا هي المركيزة فقط فتحت فاها منذ قليل بهدف دعوة ما. وتدركين أني لو فُجِعْتُ بالذهاب إلى منزلها لتكاثرت جورتي الفنية فانقلبت برميلاً هائلاً من الأقذار. مع أنها تحمل اسماً روحانياً يذكّرني دوماً، وفي النفس ابتهاج، مع أنها تجاوزت منذ زمن طويل زمن ابتهاجها بيوبيلها، يذكّرني ببيت الشعر الغبيّ هذا الذي يدعونه «مائعاً»: **«آه! للنفس الخضراء! كم كانت نفسي خضراء في ذلك اليوم...»** ولكنّما يلزمني خضرة أكثر نظافة. يقولون لي إن المشّاءة التي لا تكلّ تقيم حفلات راقصة في الهواء الطلق، أما أنا فأدعو ذلك «دعوات للنزهة في المجارير». «هل ستمضين للتمرّغ هناك؟» يقول للسيدة «دو سورجيس» التي أحسّت هذه المرّة بالضيق. ذلك أنها إذ تبغي التظاهر بالامتناع عن الذهاب إزاء البارون، وتعلم أنها تفضّل أن تدفع أياماً من عمرها على أن تفوّت حفلة العشية لدى «سانت اوفيرت»، فقد تخلصت بحلّ وسط، أي باللاتأكيد. وقد اتخذ اللاتأكيد لديها شكل بلاهة الهاوي ودناءة الخيّاطة إلى درجة لم يعد السيد «دو شارلوس» يخشى معها إهانة السيدة «دو سورجيس» مع أنه راغب في أن يروقها فشرع يضحك ليُبدي لها أن «الضربة لم تكن صائبة».

وقالت: «إني معجبة على الدوام بالذين يصمّمون على أمر؛ فغالباً ما أعدل عن مقصدي في اللحظة الأخيرة، ثمة مسألة فستان صيفي يمكن أن تغيّر الأمور، وسوف أتصرّف بوحي اللحظة».

لقد ثارت ثائرتي، في ما يخصني، للخطاب الصغير المنكر الذي

ألقاه منذ قليل السيد «دو شارلوس». فلعلي وددت أن أغمر بالخيرات مُنَظِّمة الحفلات الراقصة في الهواء الطلق. ولكن الضحايا في دنيا المجتمعات، ودنيا السياسة على حدّ سواء، جبناء لسوء الحظ إلى حدّ لا يسعك معه أن تحقد فترة طويلة على الجلّادين. ذلك أن السيدة «دو سانت اوفيرت» بعدما أفلحت في التخلص من الشرفة التي كنا نسدّ مدخلها لمست البارون لدى مرورها لمساً خفيفاً ودونما قصد فصاحت، كأنما تركع أمام سيدها، بردّة فعل متحذلقة قضت على أي غضب في النفس، بل ربما بأمل تمهيد من نوع لا بدّ أنها لم تكن أول محاولة فيه: «عفوك! سيد «دو شارلوس» آمل أني لم ألحق بك أذى». ولم يتواضع فيجيب بغير ضحكة عريضة ساخرة وتفضّل فحسب بكلمة «مساء الخير» التي، إذ بدا وكأنه لم يتنبه لوجود المركيزة إلا لحظة كانت البادئة بالسلام عليه، كانت إهانة إضافية. ثم إن السيدة «دو سانت اوفيرت» اقتربت مني، وإذ تنحّت بي جانباً قالت لي بإسفاف بالغ تألّمت منه لأجلها: «ولكن، ما تراني فعلت للسيد «دو شارلوس؟» وأردفت وهي تضحك بملء فيها: «يزعمون أنه لا يراني على أناقة كافية». ولبثْتُ جدياً، فقد كنت أرى من الغباء أن يبدو أنها تعتقد أو تدفع إلى الاعتقاد بأن ليس أحد بالتأكيد بمثل أناقتها؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الناس الذين يضحكون بمثل هذه الشدة مما يقولون إنما يعفوننا، إذ يأخذون جوّ المرح لحسابهم، من المشاركة فيه.

«ويؤكد آخرون أنه مستاء من أني لا أدعوه. ولكنه لا يشجعني كثيراً. لكأنه يجافيني (وبدت لي العبارة ضعيفة). حاولْ أن تعرف وتعال في الغد لتقول لي ذلك. فإن بكّتَهُ ضميره وشاء مرافقتك فأْتِ به، فلكلّ ذنب مغفرة. بل ربما أبهجني ذلك إلى حدّ بسبب السيدة «دو سورجيس» التي سيسوؤها الأمر. أدَعُ لك حرية التصرف، فإن حسّك بهذه الأمور كلها هو الأكثر رهافة، وليس مرادي أن أبدو كمن يستجدي مدعوين. ومهما يكن من أمر، فإني أعتمد عليك أنت كل الاعتماد».

وفكّرت أن «سوان» لا بدّ كان يتعب في انتظاري، وما كنت بأي حال أبغي العودة متأخراً جداً بسبب «ألبيرتين»، فاستأذنت السيدة «دو سورجيس» والسيد «دو شارلوس» بالانصراف ومضيت للقاء مريضي في قاعة اللعب. وسألتُه إن كان ما قاله للأمير في حديثهما في الحديقة هو بالضبط ما نقله لنا السيد «دو بريوتيه» (الذي لم أذكر له اسمه) وله علاقة بفصل قصير من مسرحية لـ«بيرغوت»، فانفجر ضاحكاً: «ليس ثمة كلمة صحيحة، ليس ثمة كلمة واحدة، ذلك مختلق تماماً ولعله كان غبياً غباء مطلقاً. ذلك بالحقيقة أمر لا يصدّق، هذا التوالد التلقائي للخطأ. لا أسألك من قال لك ذلك، ولكن ربما كان بالحقيقة طريفاً في إطار محدّد كهذا أن نرتقي من الأقرب فالأقرب لنعرف كيف تشكل ذلك وكيف يمكن على أية حال أن يثير ما قاله لي الأمير اهتمام الناس؟ الناس فضوليّون جداً، أما أنا فما كنت فضولياً في يوم إلا عندما صرت عاشقاً وعندما صرت غيوراً. وفي مقابل ما عرفته من ذلك، هل أنت غيور؟» وقلت لـ«سوان» إنني لم أعانِ من الغيرة في يوم وإنني لا أعرف حتى ما عساها تكون. «حسن! إني أهنئك على ذلك. وإن يكن المرء على قليل منها فما ذلك بمزعج تماماً من ناحيتين. فمن جهة لأن ذلك يمكّن الناس غير الفضوليين من الاهتمام بحياة الآخرين أو بحياة اخرى على الأقل. ثم لأن ذلك يجعلك تشعر إلى حدّ ما بحلاوة الامتلاك والصعود إلى عربة بصحبة امرأة وأن لا تدعها تمضي وحيدة. وإنما يكون ذلك في فترات الداء الأولى أو حينما يكون الشفاء ناجزاً تقريباً. وفي الفترة الفاصلة تكون من أفظع أنواع العذاب. ولا بدّ أن أقول لك على أية حال إني كنت على اطلاع قليل حتى على صنفَي الحلاوة اللذين أحدّثك عنهما: الأول من جرّاء طبيعتي التي تعجز عن التأمّلات المتطاولة، والثاني من جرّاء الظروف، بسبب المرأة، بل النساء اللواتي أثرن غيرتي. ولكن، لا عليك، فحتى حينما لا تهتم من بعد بالأشياء فليس غير ذي بال أن تكون اهتممت، إذ كان ذلك دوماً لأسباب تخفى على الآخرين. إن ذكرى تلك المشاعر

إنما نحسّ أنها حصراً في داخلنا ولا بدّ أن نعود إلى داخلنا لنشاهدها. لا تسخر كثيراً من هذه اللغة المثالية، ولكنّ ما أبغي قوله أنني أحببت الحياة حباً جماً وأحببت الفنون حباً جماً. أما الآن وقد أصبحت تعباً بما يجاوز قليلاً قدرتي على العيش مع الآخرين فإن ما أحسست به من عواطف خاصةٍ بي إنما تبدو لي، كما هو هوس سائر هواة المجموعات، ثمينة جداً. إني أفتح قلبي لذاتي وكأنما تلك إحدى الواجهات، وأنظر إلى مواضع العشق الكثيرة واحداً فواحداً، تلك التي لم يعرفها الآخرون. وأقول لنفسي عن تلك المجموعة التي أتمسك بها الآن أكثر من الأخريات، أقول إلى حدّ ما مثل «مازارين» عن كتبه، ولكن دون أي ضيق، إن فراق كل ذلك سوف يكون مزعجاً جداً. ولكن هيا ننتقل الآن إلى حديثي مع الأمير، فلن أروي عنه إلا لشخص واحد، وستكون أنت ذلك الشخص». كان يربكني في سماعه الحديث الذي كان السيد «دو شارلوس» يطيل فيه إلى ما لا حدود على قرب شديد منا، بعدما عاد إلى قاعة اللعب. وسأل الكونت «آرنولف» الذي ما كان يعرف حتى اسم «بلزاك»: «وأنت أيضاً تقرأ؟ وما الذي تفعله؟» كان قصر نظر «آرنولف»، إذ يرى كل شيء صغيراً جداً، يُظهره بمظهر من يبصر من البعيد البعيد إلى حدّ أن نجوماً غامضة كانت ترتسم في حدقة عينيه، وهي لمسة شاعرية نادرة في إله يوناني بجمال التماثيل المنحوتة.

وقلت لـ«سوان»: «هلّا قمنا ببضع خطوات في الحديقة يا سيدي»، فيما كان الكونت «آرنولف»، بصوت مزأزئ كأنما يشير إلى أن نموّه العقلي على الأقل لم يكن كاملاً، يجيب السيد «دو شارلوس» بدقة فيها لطف وسذاجة: «أما أنا فاتجاهي بالأحرى «الغولف» وكرة المضرب والقدم والجري وعلى وجه الخصوص «البولو». كذلك «مينيرفا» كانت، بعدما تجزأت، قد كفّت في مدينة معينة عن كونها إلهة الحكمة وجسّدت جزءاً من ذاتها في إلهة رياضية محضة، رياضة الخيل، في «أثينا الفروسية». وهو يقصد «سان مورتز» كذلك للتزلج، لأن «بالاس ابنة

تريتون»[1] ترتاد القمم العالية وتلحق بالفرسان. وأجاب السيد «دو شارلوس»: «آه!» بابتسامة المثقف المتعالية، المثقف الذي لا يجهد حتى في كتم سخريته ويظن على أي حال أنه يفوق الآخرين كثيراً وهو يحتقر ذكاء من كانوا الأقل غباء إلى حدّ يكاد لا يميّزهم فيه عمّن كانوا الأكثر غباء ما داموا يستطيعون أن يحسنوا في عينيه بطريقة أخرى. كان السيد «دو شارلوس» يرى أنه يمنح «آرنولف» بمجرّد التحدث إليه سموّاً ينبغي أن يحسده الجميع عليه ويقرّوا به. وأجابني «سوان» قائلاً: «لا، إني متعب جداً ولا أستطيع المسير، فلنجلس بالأحرى في زاوية فما عدت أستطيع الوقوف». كان ذلك صحيحاً مع أن الشروع في التحدث ردّ إليه بعض الحيوية. ذلك لأن ثمة في التعب الأكثر حقيقة، ولا سيما لدى العصبيّين، جزءاً يرتبط بالانتباه ولا يُحتفظ به إلا في الذاكرة. فإنك تُنْهَكُ فجأة ما إن تخشى ذلك ويكفي أن تنسى لاسترداد قواك. والأكيد أن «سوان» لم يكن تماماً من هؤلاء المنهكين ممّن لا يعرفون الكلل والذين يصلون مفكّكي القسمات ذاوين لا يقوون من بعد على الوقوف فيستعيدون قواهم في الحديث مثلما الزهرة في الماء وبوسعهم أن يستمدّوا على مدى ساعات قوة من أقوالهم ذاتها، والقوة لا ينقلونها لسوء الحظ إلى من يصغون إليهم ويبدون أكثر فأكثر خائري القوى كلما أحسّ المتحدث ازدياد يقظته. ولكنّ «سوان» كان ينتمي إلى هذا العرق اليهودي القوي الشكيمة الذي يبدو أن أفراده أنفسهم يشاركون في طاقته الحيوية ومقاومته الموت. فإنهم يتلجلجون إلى ما لا نهاية، وكل منهم يعاني من أمراض خاصة، مثلما يعاني هو من الاضطهاد، في احتضارات رهيبة يمكن أن تتطاول فتجاوز كل حدّ معقول حينما لا ترى من بعد سوى لحية نبيّ يعلوها أنف هائل يتوسع ليستنشق النسمات الأخيرة قبل ساعة الصلوات الطقسية وقبل أن

(١) أحد ألقاب الإلهة «أثينا»، ولكن ثمة أسطورة تقول إنها رفيقة ملاعب أثينا وهي ابنة «تريتون» مرافق إله البحر «بوزيئيدون» ويمثلونه بعامةٍ رجلاً ينتهي بذيل وينفخ في بوق صدفيّ.

يبدأ موكب الأقارب الأباعد الدقيق في موعده يتقدم بحركات آلية كأنما فوق إفريز آشوري.

ومضينا للجلوس ولكنّ «سوان» لم يملك، قبل أن يبتعد عن المجموعة التي كان يؤلفها السيد «دو شارلوس» مع الشابّين «سورجيس» ووالدتهما، إلا أن يسمّر على صدرية السيدة نظرات خبيرة طويلة واسعة شهوانية، ووضع نظارته كي يبصر بصورة أفضل وكان يلقي بين الحين والحين، فيما يحدّثني، نظرة باتجاه تلك السيدة. ثم قال لي بعدما جلسنا: «إليك حديثي مع الأمير كلمة فكلمة، وإن تذكّرت ما قلته لك منذ قليل فسترى لماذا أختارك مسارّاً لي. ثمّ لسبب آخر سوف تعرفه ذات يوم. «قال لي الأمير «دو غيرمانت»: اعذرني يا عزيزي «سوان» إن بدا أني أتجنبك منذ بعض الوقت. (ولم أكن لاحظت ذلك البتّة إذ أنا مريض وأتجنّب الجميع بنفسي). لقد سمعت بادئ الأمر من يقول، وكنت أتوقع تماماً، إنك تحمل في هذه القضية التي تقسم البلد آراء تناقض آرائي تناقضاً تاماً. ولعلّه كان شقّ عليّ كثيراً أن تجهر بها في حضرتي. لقد كان توتّري العصبي كبيراً إلى حدّ أن الأميرة حينما سمعت لسنتين خلتا سلفها كبير دوقيي «هيسّه» يقول إن «دريفوس» كان بريئاً لم تكتفِ بأن تلحظ مقالته بعصبية ولكنّها لم تردّدها أمامي كي لا تغيظني. وفي الفترة نفسها تقريباً جاء صاحب السموّ الملكي أمير السويد إلى باريس، وإذ يحتمل أنه سمع من يقول إن الإمبراطورة «أوجينيا» كانت من أنصار «دريفوس» فقد خلط بينها وبين الأميرة (والخلط مستغرب، كما ستقرّ بذلك، بين امرأة من مرتبة زوجتي وإسبانية أقلّ كرم محتد مما يقولون وقد زوّجت بونابرتياً بسيطاً) وقال لها: «أيتها الأميرة، سعادتي بلقائك مزدوجة لأنني أعلم أنك تحملين ذات أفكاري حول قضية «دريفوس»، الأمر الذي لا أستغربه بما أن سموّك بافاريّة». وقد جرّ ذلك على الأمير الجواب التالي: «لست من بعد، يا سيدي، سوى أميرة فرنسية وإني أعتقد ما يعتقد مواطنيّ». والحقيقة يا عزيزي «سوان» أن حديثاً جرى بيني وبين الجنرال «دو بوسيرفوي» منذ عام

ونصف على وجه التقريب جعلني أشك بأن مخالفات قانونية خطيرة ارتكبت في سير الدعوى وليس خطأً واحداً فحسب».

وقطع علينا حديثنا (إذ كان «سوان» حريصاً على أن لا تُسمع قصّته) صوت السيد «دو شارلوس» الذي كان يمرّ (دون أن يأبه لنا على أي حال) برفقة السيدة «دو سورجيس» لوداعها فتوقّف محاولاً الاحتفاظ بها إما بسبب ولديها أو بسبب الرغبة التي تداخل آل «غيرمانت» في أن لا تنتهي الدقيقة الراهنة، تلك الرغبة التي كانت تزجّهم في نوع من العطالة المقلقة. وبعد ذلك بقليل أطلعني «سوان» بهذا الصدد على أمر نزع في نظري عن اسم «دو سورجيس لو دوك» كل الشاعرية التي كنت ألفيتها فيه. فقد كانت المركيزة «دو سورجيس لو دوك» تشغل مكانة اجتماعية وتملك مصاهرات رفيعة أكثر من ابن عمها الكونت «دو سورجيس» الذي كان فقيراً ويعيش في أرضه. ولكنّ كلمة «لو دوك» التي ينتهي بها اللقب ما كان لها البتّة الأصول التي زعمتها لها وجعلتني أقرّب في تصوري بينها وبين «بور لابيه» و«بوا لوروا»، إلخ. كان أحد «كونتات»[١] «دو سورجيس»، بكل بساطة، قد تزوّج في فترة عودة الملكية ابنة صناعيّ طائل الثراء اسمه السيد «لو دوك»، وهو نفسه ابن مصنّع مواد كيماوية وكان الأوفر ثراء في عصره ومن أعيان فرنسا أيضاً. وقد أنشأ الملك «شارل» العاشر من أجل الصبي المولود من هذا القرن «مركيزيّة» «سورجيس لو دوك»، إذ إن «مركيزيّة» «سورجيس» كانت موجودة في الأسرة. ولم تحل إضافة الاسم البورجوازي دون تصاهر هذا الفرع من جرّاء ثروته الطائلة وأُسَر المقدِّمة في المملكة. ولعله كان بإمكان مركيزة «دو سورجيس لو دوك» الحالية، وهي من سلالة عظيمة، أن تحوز مركزاً من الطراز الأول. ولكن شيطان الشر دفعها، في ازدرائها لهذا المركز الجاهز، إلى هجر بيت الزوجية والعيش عيشة فاضحة كأكثر ما تكون. ثم إن المجتمع الذي ازدرته في

(١) جمع «كونت» من ألقاب النبلاء في فرنسا.

العشرين وهو على قدميها تخلّى عنها بقسوة في الثلاثين «حين لم يعد يسلّم أحد عليها منذ عشر سنوات باستثناء ندرة من الصديقات المخلصات، فاعتزمت أن تعود فتسترجع قطعة قطعة ما كانت تملكه بمولدها (وليست هذه الجيئة والرواح بنادرة الوقوع).

أما بالنسبة للسادة الكبار من أهليها، وقد أنكرتهم بالأمس فأنكروها بدورهم، فقد كانت تعتذر عن المسرّة التي ستصيبها من إعادتهم إليها بذكريات طفولية يمكن أن تستذكرها وإياهم. وإذ تقول ما تقول لإخفاء تحذلقها فربما كانت تكذب أقل مما تظن. «إن «بازان» يمثّل كامل صباي»، تقول يوم عاد إليها. وبالفعل كان في ما تقول شيء من الصحة، ولكنها أخطأت في حسابها حينما اختارته عشيقاً لها، لأن سائر صديقات الدوقة «دو غيرمانت» سوف يقفن إلى جانبها، وهكذا سوف تنزلق السيدة «دو سورجيس» للمرة الثانية على ذاك السفح الذي صادفت مشقّة عظيمة في تسلّقه. كان السيد «دو شارلوس» يقول لها في تلك الأثناء وهو حريص على إطالة الحديث: «حسن! اجعلي احتراماتي على أقدام الرسم الجميل. فكيف حاله؟ وماذا حلّ به؟» فأجابت السيدة «دو سورجيس»: «ولكنّكَ تعلم أنه لم يعد لدي، فإن زوجي لم يسرّ به» - «لم يسرّ به! بإحدى روائع عصرنا!» وهي مساوية للدوقة «دو شاتورو دو ناتييه»، وما كانت تبغي بأي حال تثبيت إلهة أقلّ جلالاً وأقلّ فتكاً! آه يا للياقة الصغيرة الزرقاء! أردت أن أقول إن «فيرمير» لم يرسم في يوم قماشاً وهو أكثر ملكة لفنّه، ولا نقولنّ ذلك بصوت مرتفع كي لا يهاجمنا «سوان» بقصد الثأر لرسّامه المفضل سيد «دلفت». واستدارت المركيزة وهي توجّه ابتسامة وتمدّ يدها لـ«سوان» الذي كان نهض قليلاً لتحيّتها. وما إن شاهد «سوان» صدر المركيزة عن قرب ومن علٍ وهو يشدّ على يدها حتى أرسل، دونما كتمان ربما نزع التقدم في السن من صدره الرغبة الأدبية في إبدائه من جرّاء اللامبالاة بالرأي العام، أو القدرة الجسمية عليه من جرّاء جنون الرغبة وضعف الدوافع التي تعين على إخفائه حتى أرسل نظرة فاحصة جادّة مستغرقة يقرب أن تكون قلقة من

خبايا صدريّتها وخفقت فتحتا أنفه، وقد انتشت بعطر المرأة، شأن فراشة تزمع أن تحطّ على الزهرة التي لمحتها. وانتفض فجأة من الدوار الذي أصابه، وكتمت السيدة «دو سورجيس»، وإن على ضيق، نفساً عميقاً لشدّة ما تكون الرغبة معدية أحياناً. وقالت للسيد «دو شارلوس»: «لقد استاء الرسّام واستعاده. وقيل إنه الآن في منزل «ديانا دو سانت اوفيرت». فردّ البارون قائلاً: «لن أصدّق قط أن يكون لرائعة ذوق رديء إلى هذا الحدّ». وقال لي «سوان» وهو يتكلّف لهجة متباطئة سوقية ويلاحق بنظراته الثنائي وهما يبتعدان: «إنه يحدّثها عن رسمها، وربما حدّثتُها عن هذا الرسم بمثل جودة حديث «دو شارلوس»، ثم أضاف قوله: «ولعلي أصيب بالتأكيد متعة أكثر من «شارلوس»». وسألته إن كان ما يقال عن السيد «دو شارلوس» صحيحاً وكنت أكذب في ذلك كذبة مزدوجة، فإني إن كنت لا أعلم أنهم قالوا أي شيء في يوم فقد كنت أعلم في المقابل تمام العلم منذ قليل أن ما أبغي قوله كان صحيحاً. وارتفع «سوان» بمنكبيه كما لو تفوّهت بأمر مستحيل. «أعني أنه صديق رائع، ولكن هل بي حاجة إلى أن أقول إن الأمر أفلاطوني تماماً. كلّ ما في الأمر أنه عاطفي أكثر من غيره. ولمّا كان من جانب آخر لا يذهب قط بعيداً جداً مع النساء فقد أكسب ذلك الشائعات اللامعقولة التي تنوي التحدث عنها نوعاً من المصداقية. ربما أحبّ «شارلوس» أصدقاءه حباً جماً، ولكن ليكن مؤكداً لديك أن الأمر ما جرى في يوم في غير ما رأسه وقلبه. وأخيراً ربما نعمنا بثانيتين من الهدوء. لقد تابع الأمير «دو غيرمانت» إذاً يقول «سأقرّ لك بأن فكرة وجود لاقانونية ممكنة في سير الدعوى كانت شاقة جداً عليّ بسبب التقديس الذي تعلم أني أحمله للجيش. لقد عدت فكلّمت الجنرال عن ذلك، ولم يعد لدي، من أسف، أي شكّ بهذا الشأن. سأقول لك بصراحة إنه لم تخامرني في كلّ ذلك فكرة إمكان فرض العقوبة الشائنة كأكثر ما تكون بحقّ بريء. ولكنّما عذّبتني فكرة اللاقانونيّة تلك فشرعت أدرس ما سبق أن رفضت قراءته فإذا بالشكوك جاءت هذه المرّة تقضّ مضجعي لا حول اللاقانونيّة فحسب، بل

حول البراءة. ولم يخطر لي أنه ينبغي لي أن أفاتح الأميرة بذلك، والله يعلم أنها أضحت فرنسية بقدر ما كنت، وعلى الرغم من ذلك فقد أبديت لها منذ اليوم الذي تزوّجتها فيه صنوفاً من التأنق كثيرة في إبراز فرنسا لها في كامل جمالها، وأروع ما تملك في نظري، عنيت جيشها، حتى يبدو لي من القسوة بمكان أن أطلعها على شكوكي التي لم تكن تطال بالحقيقة سوى بعض الضبّاط. ولكنّي من أسرة عسكرية وما كان في نيّتي أن أصدّق أنْ يستطيع بعض الضبّاط الوقوع في الخطأ. فعدت وكلّمت «بوسيرفوي» مرة أخرى في الأمر فأقرّ بأن ثمة دسائس إجرامية دُبّرت وأنّ الجدول ربما لم يكن من عمل «دريفوس»، ولكنّ البرهان الساطع على الجرم كان موجوداً. وكان البرهان وثيقة «هنري». وقد عُلِم بعد بضعة أيام أنها مزوّرة. ومنذ ذلك الحين، شرعت أقرأ كل يوم في الخفية عن الأميرة صحيفتَي «**القرن**» و«**الفجر**». وسرعان ما لم يعد لدي أي شكّ ولم أستطع النوم من بعد. وفاتحت صديقنا الأب «بواريه» بآلامي النفسية فلقيت عنده، وعجبت للأمر، القناعة نفسها، وسألته إقامة قداديس على نيّة «دريفوس» وزوجته البائسة وأطفاله. وفي هذه الأثناء، رأيت، ذات صباح كنت أمضي فيه للقاء الأميرة، وصيفتها تخفي شيئاً كان في يدها. وسألتها ضاحكاً ما عسى أن يكون، فكست الحمرة وجهها ولم تشأ أن تقول لي عن ذلك. كنت أثق أعظم الثقة بزوجتي ولكنّ هذه الحادثة بعثت فيَّ اضطراباً شديداً (وكذلك فعلت بالأميرة التي لا بدّ أن وصيفتها روت لها عنها) فقد كادت عزيزتي «ماري» لا تكلّمني» في أثناء الغداء الذي أعقب ذلك. وسألت الكاهن «بواريه» في ذلك اليوم إن كان بوسعه إقامة قدّاسي انا في الغد على نيّة «دريفوس». وصرخ «سوان» بصوت خافت وهو يقطع حديثه: «هيا بنا، حسن!» ورفعت رأسي فأبصرت الدوق «دو غيرمانت» يُقبل إلينا. «عذراً عن الإزعاج يا أولادي». وقال موجّهاً الحديث إليّ: «يا صغيري، لقد انتدبتني إليك «أوريان». فإنّ «ماري» و«جيلبير» سألاها البقاء إلى مائدتهما للعشاء بمصاحبة خمسة أو ستة أشخاص فقط: الأميرة «دو هيسّه» والسيدة

«دولينيي» والسيدة «دو تارانت» والسيدة «دو شفروز» والدوقة «دارنبرغ». ولسنا نستطيع البقاء لسوء الحظ لأننا ذاهبان إلى نوع من الحفلة الراقصة». كنت أصغي، ولكنّنا في كل مرة يقع علينا أن نفعل أمراً في وقت محدّد نكلف في داخلنا شخصاً ما تعوّد هذا النوع من العمل مراقبة الساعة وإخطارنا في الوقت المناسب. وذكّرني هذا الخادم الجوّاني، مثلما سبق أن رجوته منذ ساعات، أن «ألبيرتين»، وهي في هذه اللحظة بعيدة جداً عن خاطري، سوف تجيء إلى منزلي حال انتهاء المسرح. ولذلك رفضت العشاء. وليس يعني ذلك أنني لم أكن أجد متعة في منزل الأميرة «دو غيرمانت». وهكذا يمكن أن يصيب الرجال عدّة أنواع من المتع، والمتعة الحقيقية هي تلك التي يهجرون الأخرى في سبيلها. ولكن هذه المتعة إن كانت ظاهرة، أو كانت حتى وحدها ظاهرة، يمكن أن تخدعك حول تلك وتُطمئن الحسّاد أو تضلّلهم وتغرّر ببصائر الناس. على أنه قد يكون قليل من السعادة أو العذاب كافياً كي نضحّي بهذه في سبيل تلك. وثمة أحياناً طراز ثالث من المتع أكثر رزانة وأكثر جوهرية ليس بعد موجوداً بالنسبة إلينا نحن الذين لا يتمثل احتمال وقوعها بالنسبة إلينا إلا بإثارة صنوف الندم وتثبيط العزائم. ومع ذلك ترانا ننصرف فيما بعد إلى هذه المتع بالذات. فإن عسكرياً في زمن السلم، كيما نقدم مثالاً ثانوياً تماماً، سوف يضحّي بحياة المجتمعات الراقية في سبيل الحب، فإن اندلعت الحرب فبالحبّ في سبيل هوى القتال، وهو أقوى من الحب، (حتى دونما حاجة لإدخال فكرة الواجب الوطني). وعبثاً كان «سوان» يقول إنه سعيد برواية قصّته لي فقد كنت أحسّ أن حديثه إليّ، بسبب الساعة المتأخّرة ولأن آلامه مبرحة، كان من نمط صنوف العناء تلك التي تخلّف لدى الذين يعلمون أنهم يقتلون أنفسهم بالسهر وصنوف الإفراط، تخلّف عند عودتهم ندماً ساخطاً شبيهاً بذاك الذي يثيره في صدور المبذّرين ما أقدموا عليه من إنفاق جنوني والذي لن يحول دون أن يُلقوا في الغد مالهم من النوافذ. فكلّ متعة يصيبها المرء على حساب نومه وخارج نطاق عاداته، وكلّ إفراط إنما ينقلب إزعاجاً

ابتداءً من درجة معيّنة من الوهن، أكان من جرّاء السنّ أو المرض. وإن المتحدّث ليوالي حديثه بداعي التأدب والاهتياج، ولكنّه يعلم أن الساعة التي كان بعدُ قادراً فيها على الإغفاء قد انقضت، كما يعلم ما سيوجّه لنفسه من لوم في غضون الأرق والتعب التاليين. من جانب آخر، حتى المتعة المؤقتة انتهت مذ ذاك والجسم والفكر أفرغا من قواهما حتى لا يستطيعان أن يصيبا متعة في ما يبدو تسلية لمحدّثك. لكأنهما شقة في يوم سفر أو إخلاء تبدو فيه الزيارات التي نستقبل زائرينا فيها جلوساً على الحقائب، والعيون مسمّرة على الساعة الجدارية محض أعمال سخرة. وقال لي: «وحدنا أخيراً، ولست أعلم أين أنا من حديثي. أليس أني قلت لك إن الأمير كان سأل الكاهن «بواريه» إن كان يمكنه إقامة قدّاسه على نيّة «دريفوس»؟ ورد عليّ الكاهن قائلاً: «لا»، (وأقول «عليّ»، يضيف «سوان»، لأن الأمير هو الذي يكلّمني، تدرك ذلك؟) «فإن لديّ قداساً آخر كلّفت إقامته في هذا الصباح على نيّته». فقلت له: «كيف ذلك؟ أهناك كاثوليكي آخر غيري مقتنع ببراءته؟» - «لا بدّ أن الأمر كذلك». - «ولكنّ قناعة هذا النصير الآخر لا بدّ هي أقلّ قِدماً من قناعتي». - «بيد أن هذا النصير كان يسألني إقامة قداديس يوم كنتَ لا تزال تظن «دريفوس» مذنباً». - «آه! أرى تماماً أنه ليس واحداً من وسطنا» - «بل العكس» - «وهل بيننا حقاً مناصرون لـ«دريفوس»؟ إنك تثير فضولي. وددت لو أتكاشف وإياه، لو عرفته، هذا الطائر النادر» - «وإنك تعرفه» - «فما اسمه؟» - «الأميرة «دو غيرمانت». » وفيما كنت أخشى أن أجرح آراء زوجتي العزيزة القومية ومعتقدها الفرنسي خشيتْ هي زعزعة آرائي الدينية ومشاعري الوطنية. ولكنّها من جانبها كانت تفكّر تفكيري ذاته. مع أنها فعلت قبلي بكثير. وما كانت خادمتها تخفيه وهي تدخل إلى غرفتها وما كانت تمضي لشرائه كل يوم إنما كان صحيفة «**الفجر**». منذ تلك اللحظة يا عزيزي «سوان» فكّرت بما أوليك من سرور حينما أنقل إليك إلى أي حدّ كانت أفكاري حول هذه النقطة قريبة من أفكارك، واغفر لي إن لم أفعل ذلك من قبل. وإن عدتَ

إلى الصمت الذي التزمتُه في مواجهة الأميرة فلن يدهشك أن التفكير بطريقة مطابقة لفكرك ربما أبعدني عنك أكثر من التفكير بطريقة مغايرة. فقد كانت تشقّ عليّ مباشرةُ ذاك الموضوع أيّما مشقة. وكلما اعتقدت أن خطأ، بل جرائم ارتكبت كلما نزفتُ دماً في حبّي للجيش. ولعلّي كنت ظننت أنه ما كان لآراء شبيهة بآرائي أن تبعث في نفسك الألم ذاته، حينما نُقِلَ إليّ ذاك اليوم أنك تندّد تنديداً شديداً بالشتائم الموجّهة للجيش وبأن يقبل مناصرو «دريفوس» بالتحالف مع شتّاميه. لقد دفعني ذلك إلى اتخاذ قراري، واعترف بأنه شقّ عليّ أن أقرّ لك بما أراه حول بعض الضبّاط، وهم قلّة لحسن الحظ، وإنه لمفترج بالنسبة إليّ أن لا يقع عليّ من بعد المكوث بعيداً عنك وأن تحسّ على وجه الخصوص أنه إن أمكن أن أحمل مشاعر أخرى فلأني ما شككت قطّ بصحة الحكم الصادر وما إن داخلني شكّ حتى ما عدت أبتغي سوى أمر واحد: إصلاح الخطأ». وإني أقرّ بأن أقوال الأمير «دو غيرمانت» أثّرت فيَّ تأثيراً عميقاً. ولو كنت تعرفه مثلي أنا وعلمت من أين وقع عليه أن يعود ليصل إلى حيث وصل لامتلأت إعجاباً به وإنه لأهل بذلك. ثم إن رأيه لا يدهشني فهو على استقامة عظيمة!» وقد نسي «سوان» أنه سبق أن قال لي بعد الظهر إن الآراء حول قضية «دريفوس» هذه تحكمها الوراثة، وهو استثنى على الأكثر الذكاء لأنه أفلح لدى «سان لو» في التغلب على الوراثة وجعل منه مناصراً لـ«دريفوس». ولكنّه تبيّن منذ قليل أن ذاك الانتصار كان قصير الأمد وأن «سان لو» قد عبر إلى الفريق الآخر. كان الآن إذاً يخص استقامة القلب بالدور الذي كان يخص به الذكاء منذ قليل. وإننا في الواقع نكتشف دوماً بعد الأوان أنْ كان لخصومنا داع لأن ينخرطوا في الحزب الذي هم فيه وأنه لا علاقة له بما يمكن أن يكون صحيحاً في هذا الحزب، وأنّ الذين يفكّرون طبقاً لما نفعل فإنما الذكاء، إن كانت طبيعتهم الخلقية، أكثر سفالة من أن يُتَذَرَّع بها، أو الاستقامة إن كان نفاذ بصيرتهم ضعيفاً، ما دفعهم إلى ذلك دفعاً.

كان «سوان» يرى الآن الذين يوافقونه الرأي على ذكاء دونما تمييز

بينهم من صديقه القديم الأمير «دو غيرمانت» إلى رفيقي «بلوك» الذي كان استبعده حتى ذاك ثم عاه إلى الغداء. وقد أثار «سوان» اهتمام «بلوك» إذ قال له إن الأمير «دو غيرمانت» من أنصار «دريفوس». «ينبغي أن تطلب إليه التوقيع على لوائحنا من أجل «بيكار»، فإنّ اسماً مثل اسمه ربما كان عظيم الأثر». أما «سوان» الذي كان يجمع إلى يقين اليهودي المتّقد الاعتدال الدبلوماسي الذي يميز رجل المجتمعات، وكان قد اكتسب من عاداته ما يحول دون إمكان التراجع عنها في هذا الوقت المتأخر، فقد رفض السماح لـ«بلوك» بأن يبعث إلى الأمير بمنشور لغرض توقيعه، حتى إن بدا الأمر تلقائياً. وكان «سوان» يردّد قوله: «لا يمكنه أن يفعل ذلك وينبغي أن لا نطلب المستحيل. ذلكم رجل رائع قطع آلاف الفراسخ للمجيء إلينا، ويمكن أن يكون عظيم الفائدة لنا. فإن وقّع لائحتك جازف بسمعته فحسب لدى جماعته، وقد يُعاقَب بسببنا وربما ندم على ما أسرّ به إلينا ولم يفعل ذلك من بعد». أضف أن «سوان» رفض اسمه ذاته، فقد كان يراه مفرطاً في عبرانيته حتى لا يخلّف أثراً سيئاً. ولئن كان يقرّ كل ما يمتّ بصلة إلى إعادة الدعوى، فإنه كان لا يريد البتّة أن يُزَجّ به في الحملة المناهضة للعسكرة. وكان يعلّق الوسام الذي كسبه في عام السبعين كغيره من المجنّدين الشباب، ولم يكن حتى ذاك فعل من قبل، وقد أضاف إلى وصيّته ملحقاً يطلب فيه، خلافاً لترتيباته السابقة، أن يُصار إلى تقديم المراسم العسكرية لرتبة الفارس التي يحملها في جوقة الشرف. وقد جمع ذلك حول كنيسة «كومبريه» كوكبة كاملة من هؤلاء الفرسان الذين كانت «فرانسواز» فيما مضى تبكي مستقبلهم حينما كان يلوح لها احتمال الحرب. وقصارى القول إن «سوان» رفض توقيع منشور «بلوك» إلى حدّ أنه إن بدا للكثيرين نصيراً مهووساً لـ«دريفوس» فقد ألفاه صاحبي فاتراً مصاباً بعدوى القومية ووطنياً متزمّتاً.

فارقني «سوان» دون أن يشدّ على يدي كي لا يضطر أن يقوم بعمليات الوداع في هذه القاعة التي تعجّ بأصدقاء له ولكنّه قال لي: «يجدر بك أن

تأتي لزيارة صديقتك «جيلبيرت». لقد كبرتْ حقاً وتغيرتْ وقد لا تتعرّفها. لعلّها تسعد أعظم السعادة بذلك!» ما عدت أحبّ «جيلبيرت». لقد كانت في نظري أشبه بمتوفّاة بكيناها طويلاً، ثمّ حلّ النسيان، ولو بعثت حية لما استطاعت من بعد الانخراط في حياة لم تعد معدّة لأجلها. لم تعد بي رغبة في لقائها ولا حتى تلك الرغبة في أن أظهر لها أني لا أحرص على لقائها، وهو ما كنت أمنّي النفس، حينما كنت أحبّها، بإظهاره لها يوم لن أحبّها من بعد.

وإذ لم أعد أبحث إلا عن أن أبدي إزاء «جيلبيرت» أني رغبت من كل فؤادي في لقائها ثانية ومنعتني عن ذلك ظروف يقولون «هي خارجة عن إرادتي» وهي لا تقع بالفعل، على الأقلّ بنوع من الترابط، إلا حينما لا تعارضها الإرادة، فإني، عوضاً عن أن أواجه دعوة «سوان» بتحفّظ، لم أفارقه حتى وعدني بأن يوضح لابنته بالتفصيل الظروف الطارئة التي حرمتني وسوف توالي حرماني من الذهاب للقائها. وأضفت قولي: «على أية حال سوف أكتب إليها على الفور لدى عودتي. ولكن قل لها إنه كتاب تهديد لأنني سوف أكون حراً طليقاً بعد شهرين، ولترتجف آنذاك لأنني سوف أكون في منزلكم حتى بمقدار ما كنت أفعل بالأمس».

وقبل فراق «سوان» قلت له كلمة حول صحته، فأجابني قائلاً: «لا، الأمور ليست سيئة إلى هذا الحدّ، وكما كنت أقول لك على أي حال فإني متعب بعض الشيء وأقبل سلفاً بكامل التسليم ما يمكن أن يحدث. على أني أقرّ فقط أن موتي قبل نهاية قضية «دريفوس» سوف يزعجني كثيراً، فلدى هؤلاء الرعاع جميعاً أكثر من سهم في جعبتهم لست أشكّ أنهم مغلوبون في النهاية، ولكنّهم أقوياء جداً ويملكون أعواناً في كلّ مكان. وحينما تكون الأمور على أفضل حال يتداعى كلّ شيء. وددت لو أعيش كفايتي لأرى «دريفوس» وقد رُدّ إليه اعتباره ورُقّي«بيكار» الى رتبة لواء».

عدت، بعدما ذهب «سوان»، إلى الصالة الكبرى حيث الأميرة «دو غيرمانت» التي ما كنت أعلم آنذاك أني سأكون ذات يوم وثيق الصلة بها.

أما الغرام الذي أحسّت به تجاه السيد «دو شارلوس» فلم يتكشّف بادئ الأمر لناظريّ. لقد لاحظت فحسب أن البارون أخذ، بدءاً من فترة معيّنة ودون أن يأخذه ضد الأميرة «دو غيرمانت» أي من مظاهر العداء التي ما كانت تُسْتَغرب لديه، وفيما استمرّ يبدي لها المقدار نفسه من الودّ، بل ربما أكثر أيضاً، أخذ يُبدي استياء وانزعاجاً في كل مرة يحدّثونه عنها. وما عاد البتّة يذكر اسمها ضمن لائحة الأشخاص الذين يرغب في تناول العشاء معهم.

صحيح أنه سبق لي قبل ذلك أن سمعت رجلاً سيئاً جداً من دنيا المجتمعات يقول إن الأميرة تغيّرت تماماً وإنها مغرمة بالسيد «دو شارلوس»، ولكنّما بدت تلك النميمة ضرباً من المحال وأثارت ثائرتي. وقد كنت لاحظت باستغراب، حينما كنت أروي عن شيء يخصني، أن انتباه الأميرة، إن ورد في مجرى الحديث اسم السيد «دو شارلوس» كان يبلغ في الحال هذه الدرجة القوية التي لمريض يسمعنا نتحدّث عن أنفسنا ويفعل بالتالي بطريقة ساهية كسولة ثمّ يتعرّف فجأة اسماً هو اسم المرض الذي يعاني منه فيثيره الأمر ويبهجه. كذلك كانت الأميرة، إن قلت لها: «كان السيد «دو شارلوس» يروي لي بالضبط..»، تستعيد زمام انتباهها المرخيّ. وفي مرّة قلت أمامها إن السيد «دو شارلوس» كانت تحرّكه في هذه الفترة عاطفة قوية إزاء إحدى النساء أدهشني أن رأيت في عينَي الأميرة انغراس هذا الخط المختلف والمؤقّت الذي يرسم في الحدقتين كأنما أخدود شقّ والذي ينجم عن فكرة حرّكتها أقوالنا دون علم منها في الكائن الذي نتحدّث إليه، فكرة خفية لن تتجسّد في كلمات بل تصعد من الأعماق التي حرّكناها على صفحة النظرة التي تغيّرت مقدار لحظة. ولئن أثّرت كلماتي في نفس الأميرة فإني لم أرْتَبْ بالطريقة التي تمّ بها ذلك.

ولقد شرعتْ على أي حال تحدّثني بعد انقضاء وقت قليل عن السيد «دو شارلوس» ودون مواربة تقريباً. ولئن كانت تلمح إلى الشائعات التي يطلقها قلّة من الناس من حول البارون فكأنما تشير فحسب إلى اختلافات

شائنة غير معقولة. ولكنّها كانت تقول من جانب آخر: «في اعتقادي أنه يجدر بامرأة تقع في غرام رجل يملك الشأن العظيم الذي لـ«بالاميد» أن تتمتّع بما يكفي من سموّ النظرة وما يكفي من التفاني كي تقبل به وتفهمه جملة واحدة وكما هو، كيما تحترم حريته ونزواته، كيما تسعى فحسب لتذليل مصاعبه ومواساته في أحزانه». وإنما كانت الأميرة «دو غيرمانت» تكشف بهذه الأقوال، مع أنها شديدة الغموض، عما كانت تحاول أن ترفع من شأنه على نحو ما كان يفعل أحياناً السيد «دو شارلوس» نفسه. أتراني لم أسمعه مراراً وتكراراً يقول لأناس كانوا حتى ذاك غير متيقنين إن كان يُفْتَرَى عليه أم لا: «أنا الذي خبر الكثير من الحلو والكثير من المرّ في حياته ومن عرف كلّ صنف من البشر، اللصوص والملوك على حدّ سواء، بل يجدر بي أن أقول بتفضيل طفيف للصوص، ومن لاحقَ الجمال بكل أشكاله، إلخ». وكان بتلك الأقوال التي يظنّها بارعة، وإذ يكذّب شائعات ما كان أحد يرتاب بسريانها (أو ليفرد للحقيقة، عن ميل واحتياطاً ومن منطلق المعقولية، حصّة يحكم وحده أنها ضئيلة)، كان ينزع آخر شكوك بعض الناس حوله ويوحي بأولها لمن لم يكن لديهم شكوك بعد. فإن أخطر جرائم الإخفاء جميعها جريمة إخفاء الذنب نفسه في فكر المذنب. وإن المعرفة الدائمة التي يملكها عنه إنما تحول دون أن يفترض إلى أي حدّ هو مجهول بعامة وكم لعلّ الكذبة الكاملة يسهل تصديقها، وأن يتبيّن في المقابل بدءاً من أي درجة حقيقة تطبع الأقوال التي يظنّها بريئة يبدأ الإقرار في نظر الآخرين. ولعلّه كان في جميع الأحوال أخطأ خطأً جسيماً في محاولة كتمانه لأنه ليس من عيوب إلا وتَلقى في عالم الأغنياء إسناداً وتغاضياً، ولقد شهد الناس قلباً شاملاً لتنظيم أحد القصور بغية أن تنام شقيقة بالقرب من شقيقتها حالما علموا أنها لا تحبّها محض حبّ الشقيقة. على أنّ ما كشف لي فجأة حبّ الأميرة كان واقعة خاصة لن ألحّ عليها هنا لأنها تؤلف جزءاً من القصة المختلفة تماماً التي فضّل فيها السيد «دو شارلوس» أن يسمح بموت ملكة على أن يخطئ حلاقه الذي كان سيجعّد

شعره بالمكواة الصغيرة من أجل مراقب سيارات نقل عام ألفى نفسه فزعاً أشدّ الفزع أمامه. ولكن هيّا نقلْ كيما ننتهي من حبّ الأميرة، أي شيء زهيد فتح عينيّ. كنت في ذلك اليوم وحيداً معها في عربتها. وقد أمرتْ بالتوقف لحظة كنا نمرّ أمام مركز بريد؛ ولم تكن اصطحبت خادماً خاصاً؛ فأخرجت رسالة إلى النصف من فراء يديها وباشرت حركة النزول لتودعها في علبة البريد. وأردت إيقافها فتلجلجت قليلاً وأخذنا نتبيّن كلانا مذ ذاك أن حركتنا الأولى كانت في ما يخصّها مثيرة للشبهة إذ تبدو وكأنها تصون سرّاً، وفي ما يخصني متطفلة إذ كنت أقاوم تلك المحافظة. وكانت هي من عادت فتماسكت وكانت الأسرع بيننا. وكست وجهها فجأة حمرة شديدة فأعطتني الرسالة ولم أجرؤ من بعد على رفض أخذها، إلا أني رأيت، دونما قصد وأنا أضعها في علبة البريد، أنها موجّهة إلى السيد «دو شارلوس».

والآن عودة إلى الوراء وإلى تلك الأمسية الأولى في منزل الأميرة «دو غيرمانت»، فقد مضيت لأودّعها لأن ابن عمها وابنة عمها كانا يعودان بي وهما على عجلة كبيرة من أمرهما. ولكنّ السيد «دو غيرمانت» كان يودّ أن يستودع أخاه. ولمّا اتّسع الوقت للسيدة «دو سورجيس»، وهي على عتبة أحد الأبواب، لتقول للدوق إن السيد «دو شارلوس» كان لطيفاً معها ومع ولديها فإن هذا اللطف العظيم من جانب شقيقه، وهو الأول الذي أبداه بهذا الشأن، كان عميق الأثر في نفس «بازان» وأيقظ لديه عواطف عائلية ما كانت البتّة طويلة الغفوة. وقد حرص فيما كنا نودّع الأميرة، دون أن يفضي جهاراً بشكره للسيد «دو شارلوس»، أن يفصح له عن رقيق مشاعره، إمّا لأنه صادف عنتاً في كبتها وإما ليتذكّر البارون أن نوع الفعلة التي بادر إليها هذا المساء «لا تمرّ مرور الكرام» في نظر شقيق له، مثلما تعطي قطعة سكّر لأحد الكلاب لغرض أن تبعث للمستقبل بتداعيات ذكريات ملائمة. وقال الدوق وهو يستوقف السيد «دو شارلوس» ويأخذ برفق بذارعه: «عجباً، أيها الشقيق العزيز! هكذا يمرّ الناس بالشقيق الأكبر دون تحية

بسيطة. ما عدت أراك يا «ميميه» ولا تعلم كم أفتقد ذلك. لقد لقيت في بحثي عن رسائل قديمة، لقيت بالضبط رسائل من الوالدة المسكينة وكأنها رقيقة جداً في ما يخصك». وأجاب السيد «دو شارلوس» بصوت متهدّج، فما كان يستطيع البتّة التحدّث عن والدتهما دون تأثّر «شكراً لك يا «بازان»، وأردف الدوق قائلاً: «يجدر بك أن تحزم أمرك وتسمح بإقامة جناح لك في «غيرمانت». وقالت الأميرة لـ«أوريان»: «لطيف أن تشهد الشقيقين بمثل ما يُبديان من رقّة، أحدهما للآخر» - «آه! أجل، لست أظن أن ثمة إمكاناً في وجود كثير من الأشقاء هذه حالهم». ووعدتني بقولها: «سوف أدعوك معه؛ ألست وإياه على ما يرام؟» وأضافت تقول بلهجة يداخلها القلق إذ هي لا تسمع بالتمام أقوالهما: «ولكن ما الذي يمكن أن يقوله أحدهما للآخر؟» فقد داخلتها على الدوام غيرة من المتعة التي يصيبها السيد «دو غيرمانت» من التحدث إلى أخيه عن ماض يمسك بزوجته بعيداً عنه. كانت تحسّ أن وصولها لا يسرّهما حينما كانا سعيدين أن يكون الواحد قرب الآخر وتُقبل هي للانضمام إليهما إذ لم تعد قادرة على لجم فضولها المتحفّز. بيد أن غيرة أخرى جاءت تنضاف في هذا المساء إلى غيرتها المعتادة. فلئن كانت السيدة «دو سورجيس» قد روت للسيد «دو غيرمانت» عن أفضال شقيقه عليها كيما يشكره على ذلك، فإن صديقات مخلصات للزوجين «غيرمانت» ظننّ من واجبهن إخطار الدوقة بأن عشيقة زوجها شوهدت وحيدة مع شقيقه. وداخل السيدة «دو غيرمانت» من جرّاء ذلك اضطراب شديد. وعاد الدوق يقول موجّهاً حديثه للسيد «دو شارلوس»: «تذكّر كم كنّا سعيدين بالأمس في «غيرمانت». فلو عدت أحياناً إليها في الصيف لاستعدنا حياتنا الطيّبة. هل تتذكّر العم العجوز «كورفو»: لماذا يُبَلْبِل «باسكال» الفكر؟ لأنه مُبَلْ. . مُبَلْ. . » - بَل، يقول السيد «دو شارلوس» وكأنه بعدُ يجيب أستاذه. «ولماذا هو مُبَلْ بَل؟ لأنه مُبَلْ. . مُبَلْ. . - «بل» جيّد جداً، إنك من الناجحين وستنال بالتأكيد درجة وتعطيك السيدة الدوقة معجماً صينياً». - «فإنك تذكر يا

«بازان» في ذلك الوقت يا «بازان» افْتُتِنْتُ باللغة الصينية». «إن كنت أذكر، بلى يا عزيزي «ميميه»! والإناء الصيني العتيق الذي جاءك به «هيرفيه» من «سان دوني»؛ لا زلت أراه. وكنت تهدد بالذهاب نهائياً لقضاء حياتك في الصين لشدّة ما كنت مغرماً بذلك البلد؛ كنت تحبّ مذ ذاك القيام بنزهات طويلة. آه! لقد كنت فريداً من نوعك إذ يمكن القول إنه لم يتفق لك قط أن ماشيت ميول سائر الناس في شيء. . . » وما كاد الدوق يقول هذه الكلمات حتى كست الحمرة وجهه إذ كان عالماً بسمعة شقيقه على الأقل إن لم يكُ عالماً بأخلاقه. ولمّا كان لا يحدّثه بالأمر على الإطلاق فقد زاد ذلك من ضيقه لأنه قال شيئاً ربما بدا أنه يتعلّق به وزاد في الطين بلّة أن بدا ضيقه ذاك، فقال، بعد أن صمت ثانية، كيما يمسح أثر كلماته الأخيرة: «من ذا يعلم، ربما كنتَ عاشقاً لصينية قبل أن تحبّ الكثير من البيضاوات وتروقهنّ إن حكمتُ على ذلك من خلال سيدة أشعتَ في صدرها الكثير من السرور هذا المساء في حديثك إليها. لقد سعدتْ بك». كان الدوق قد اعتزم أن لا يأتي على ذكر السيدة «دو سورجيس» ولكنّه في خضمّ الضياع الذي بعثته داخل أفكاره الزلّة التي ارتكبها ارتمى على الفكرة الأقرب، وهي بالضبط الفكرة التي ما كان يجدر أن تظهر في الحديث مع أنها الباعث عليه. إلا أن السيد «دو شارلوس» كان لاحظ احمرار وجه أخيه، فأجاب قائلاً، على نحو ما يفعل جناة لا يريدون أن يبدو الارتباك عليهم من أن يجري الحديث أمامهم عن الجريمة التي يفترض أنهم لم يرتكبوها فيظنّون من واجبهم تطويل حديث ينطوي على مخاطر: «سرّني ذلك أعظم السرور، ولكنّي حريص على العودة إلى جملتك السابقة التي تبدو صحيحة إلى أبعد الحدود. كنت تقول إنه لم يتّفق لي قط أفكار سائر الناس، ما كنت تقول الأفكار بل تقول الميول. كم يبدو ذلك صحيحاً! فلم يتّفق البتّة لي أن ماشيت ميول سائر الناس في شيء، كم يبدو ذلك صحيحاً! كنت تقول إن لي ميولاً خاصة». واحتجّ السيد «دو غيرمانت»، وما كان بالفعل قال تلك الكلمات ولا كان ربما يعتقد بحقيقة ما تعنيه لدى شقيقه: «لا،

لا!». وعلى أي حال، هل كان يظن لنفسه الحقّ في مضايقته لتصرّفات غريبة ظلّت في جميع الأحوال موضع شكّ وطيّ الكتمان بما يكفي كي لا تُلحق أي ضرر بمركز البارون الضخم؟ ثمّ إن الدوق، إذ يحسّ بوضع شقيقه وهو يجعل نفسه بتصرّف عشيقاته، كان يقول في نفسه إن الأمر يساوي بعض التغاضيات في المقابل. ولو أن السيد «دو غيرمانت» كشف في هذا الحين علاقة ما «خاصة» لشقيقه لمرّ بها، أملاً بالدعم الذي سيوفّره له هذا الأخير، والأمل مقرون بذكرى الزمن الغابر الطيّبة، مرور الكرام ولأغضى عنها ومدّ يد العون إن دعت الحاجة. وقالت الدوقة: «هيّا يا «بازان»، مساء الخير يا «بالاميد»، قالت يتأكّلها الحنق والفضول ولا تطيق من بعد اصطباراً»: «إن قررت قضاء الليلة هنا فالأفضل أن نبقى للعشاء فإنك تمسك بنا، أنا وماري، وقوفاً منذ نصف ساعة». وفارق الدوق شقيقه بعد عناق لافت ونزلنا ثلاثتنا درج فندق الأميرة الفسيح.

وعلى الجانبين فوق أعلى الدرجات كان ينتشر أزواج ينتظرون أن تُقَدَّم عربتهم. كانت الدوقة تقف منتصبة القامة على حدة، وإلى جانبيها زوجها وأنا، على يسار الدرج وقد التفّت بمعطفها وياقتها حبيسة سحاب الياقوت الأحمر تلتهمها عيون النساء والرجال في بحثها لاقتناص سرّ أناقتها وجمالها. وكانت السيدة «دو غالاردون»، بانتظار عربتها على نفس درجة السلّم التي تقف عليها السيدة «دو غيرمانت» ولكن في الطرف المقابل، كانت، وقد فقدت منذ فترة طويلة أي أمل في أن تحظى يوماً بزيارة ابنة عمّها، تدير ظهرها كي لا يبدو أنها تراها وكي لا توفّر على وجه الخصوص البرهان على أن هذه الأخيرة لا تسلّم عليها. كانت السيدة «دو غالاردون» معكّرة المزاج إلى حدّ بعيد لأن سادة كانوا معها ظنوا من واجبهم أن يحدّثوها عن «أوريان» وقد أجابتهم تقول: «لست أحرص إطلاقاً على لقائها، وقد لمحتها على أي حال منذ قليل وهي بدأت تشيخ ويبدو أنها لا تستطيع تعوّد ذلك. «بازان» نفسه يقول ذلك. وإني أدرك الأمر بالطبع فإنها تحسّ تماماً، بما أنها ليست على ذكاء وأنها خبيثة خبث

القَرَع وسيئة الشكل، أنه لن يبقى لديها شيء على الإطلاق حين لن تعود جميلة».

وكنت ارتديت معطفي فلامني على ذلك السيد «دو غيرمانت» الذي كان يخشى الابتراد، لامني وهو ينزل معي بسبب الحرّ السائد. وإنّ جيل النبلاء الذي كان على علاقة كثيرة أو قليلة بسيادة المطران «دوبانلو» يتكلم فرنسية سيئة (باستثناء آل «كاستيلان») إلى حدّ أن الدوق أعرب عن فكرته على النحو التالي: «الأفضل أن لا تكون ثقيل الملبس قبل الخروج خارجاً، على الأقلّ **«كطرح عام»**. وإني أعود فأرى هذه الهجمة إلى الخارج بكاملها، أعود فأرى، إن لم أضعه خطأ على هذا الدرج، وكأنما رسم ينفصل عن إطاره، الأمير «دو ساغان» الذي لا بدّ أن الأمسية كانت آخر أمسية مجتمعية له وهو يرفع قبعته كي يقدّم مظاهر احترامه للدوقة بحركة دائرية من قبعته العالية يرسمها واسعة جداً بيسراه ذات القفاز الأبيض التي تتجاوب وزهرة الغردينيا في عروة سترته حتى لتعجب أن ليست من نوع اللّبد المُرَيّش من نظام ما قبل الثورة الذي تتكرر عدةُ وجوه سالفة منه في وجه هذا السيد الكبير. لم يلبث سوى وقت قليل بالقرب منها، لكنّ وقفاته حتى للحظة واحدة كانت كافية لتأليف لوحة كاملة حية وما يشبه مشهداً تاريخياً. ولمّا قضى نحبه مذ ذاك وكنت لمحته فحسب في حياته فقد أصبح بالنسبة إليّ شخصية من التاريخ، من تاريخ المجتمعات الراقية على الأقلّ حتى ليتّفق لي أن أدهش حين أفكّر أن امرأة ورجلاً أعرفهما هما شقيقته وابن شقيقه.

وفيما كنا ننزل الدرج كانت تصعده بمظهر من الإعياء يلائمها، امرأةٌ تبدو في حوالي الأربعين من عمرها مع أنها أكبر سناً، هي الأميرة «دورفييه» التي كانت، فيما يقال: الابنة غير الشرعية لدوق «بارما» والتي يقطّع انسيابَ صوتها العذب نبرة نمساوية مبهمة. كانت تتقدم مديدة القامة حنيتها في فستان من حرير أبيض مزدان بالزهور فيما تدع لصدرها الشهيّ المختلج المنهك أن يخفق عبر قلائد من الماس واللازورد. وكانت فيما

تهزّ رأسها على نحو ما تفعل فرسٌ ملكية تضيق بلآلئ مقودها التي لا تقدر بثمن ولا يريحك وزنها، كانت تحطّ ههنا وهناك بنظراتها العذبة الساحرة والتي من زرقة أخذت تضحي أكثر لطافة بعد كلما وافاها الضنى وتستودع بحركة ودّية من رأسها معظم المدعوّين المغادرين. وقالت الدوقة: «تصلين في ساعة متأخّرة يا «بوليت». - «آه! ما أشدّ أسفي. ولكن لم يكن ثمة إمكان مادي»، تجيب الأميرة «دورفييه»، وكانت أخذت عن الدوقة «دو غيرمانت» هذا النوع من الجمل، ولكنّما تضيف إليه عذوبتها الطبيعية وهيئة الصدق المنبعثة من زخم نبرة جيرمانية بعيدة تغلّف صوتاً بالغ النعومة. كانت تبدو كأنما تلمّح إلى تعقيدات في الحياة أطول من أن تروى ولا تقصد أن تشير بابتذال إلى أمسيات مع أنها عائدة في هذا الحين من عدد منها، ولكنّما لم تكن هي التي تضطرّها إلى المجيء في وقت متأخر إلى هذا الحدّ. فإذا كان الأمير «دو غيرمانت» قد منع امرأته على مدى سنوات طويلة من استقبال السيدة «دورفييه»، فقد اكتفت هذه الأخيرة بعدما رُفع الحظر بأن تردّ على الدعوات كي لا يبدو أنها متعطشة إليها، بمجرّد بطاقات تودعها المنزل. وبعد انقضاء سنتين أو ثلاث على هذه الطريقة أخذت تجيء بنفسها، ولكن في ساعة متأخرة جداً كما هي الحال بعد المسرح. كانت تتظاهر بتلك الطريقة بأنها لا تحرص بتاتاً على الأمسية ولا على أن تُشاهَدَ فيها بل همّها مجرّد المجيء لزيارة الأمير والأميرة ومن أجلهما فقط وحبّاً بهما، حينما يكون ثلاثة أرباع المدعوّين قد غادروا «فتنعم بهما أكثر». وهمهمت السيدة «دو غالاردون» تقول: «حقاً لقد سقطت «أوريان» إلى أسفل درك، ولست أفهم «بازان» إذ يدعها تتحدّث إلى السيدة «دورفييه». وليس السيد «دو غالاردون» من لعله كان سمح لي بذلك». أما في ما يخصني فقد تعرّفت في السيدة «دورفييه» المرأة التي كانت ترميني، قرب فندق آل«غيرمانت» بنظرات طويلة مستهامة وتستدير وتتوقّف أمام مرايا الدكاكين. وقدّمتني السيدة «دو غيرمانت»، وكانت السيدة «دورفييه» رائعة: لا مُبالِغةً في اللطف ولا مثارة؛ ونظرتْ إليّ

نظرتها إلى كلّ الناس بعينيها الحلوتين. بيد أني لن يتّفق لي من بعد في يوم أن أحصل منها إن التقيتها على واحدة من تلك الدعوات التي بدا أنها تعرض نفسها فيها. ثمة نظرات خاصة يبدو كأنها تتعرّفك ولا يحظى بها شاب البتّة من بعض النساء - وبعض الرجال - إلا في اليوم الذي يعرفونك فيه ويعلمون أنك صديق جماعة تربطهم بهم علاقة صداقة أيضاً.

ونودي بأن العربة أُحضرت. فأمسكت السيدة «دو غيرمانت» بتنّورتها الحمراء كأنهما لتنزل وتستقلّ العربة ولكنّها ربما أخذ منها الندم أو الرغبة في إشاعة السرور وعلى وجه الخصوص في الإفادة من ميزة القصر التي تفرضها الاستحالة المادية في تطويل فعلة مملّة إلى هذا الحدّ فنظرت إلى السيدة «دو غالاردون»، ثمّ إنها عادت، كما لو أنها تشاهدها للتوّ فحسب، وقد داخلها إلهام، فاجتازت كامل طول الدرجة وإذ وصلت إلى ابنة عمها المفتونة مدّت لها يدها. وقالت لها الدوقة: «ما أطول المدة!»، قالت كي لا يقع عليها البحث مطوّلاً في كلّ ما يفترض أن تتضمّن تلك العبارة من صنوف الأسف والأعذار المشروعة، واستدارت صوب الدوق بهيئة فزعة وكان، بعدما نزل برفقتي باتجاه العربة، يصيح بأعلى صوته وهو يرى أن امرأته انطلقت باتجاه السيدة «دو غالاردون» قاطعة بذلك سير العربات الأخرى. وقالت السيدة «دو غالاردون»: «لا تزال «أوريان» مع ذلك كثيرة الجمال! يضحكني الناس حينما يقولون بفتور بيننا، فبمقدورنا لأسباب لا حاجة بنا لوضع الآخرين في سرّها أن نلبث سنوات دون أن نرى إحدانا الأخرى، فإننا نملك من الذكريات المشتركة أكثر من أن نستطيع الانفصال الواحدة عن الأخرى في يوم، وهي في الأساس تعلم حق العلم أنها تودّني فوق كثير من الناس من الذين نلقاهم كلّ يوم وليسوا من دمها». كانت السيدة «دو غالاردون» بالفعل على غرار هؤلاء العاشقين المزدرَين الذين يريدون أن يحملوك بكلّ جهد مستطاع على الاعتقاد أنهم محبوبون أكثر من أولئك الذين تعزّهم معشوقتهم. وقد أقامت (بصنوف المديح التي كالتها وهي تتحدّث عن الدوقة «دو غيرمانت» دونما اهتمام

بالتناقض وبما سبق أن قالت قبل قليل) البرهان على نحو مباشر على أن هذه الأخيرة تحيط تماماً بالقواعد المأثورة التي ينبغي أن توجّه في مسيرة الحياة سيدة كبيرة أنيقة يجدر بها أن تعرف، في الآن الذي تثير فيه أروعُ أثوابها الغيرة إلى جانب الإعجاب، كيف تجتاز كامل الدرج لنزع فتيلها. «حاذري على الأقلّ أن لا يبتلّ حذاؤك» (وكان هطل مطر رعدي خفيف)، يقول الدوق، ولا يزال شديد الحنق من الانتظار.

وفي طريق العودة ومن جرّاء ضيق العربة الشديد اتّفق اضطراراً أن يكون الحذاء الأحمر قليل البعد عن حذائي، ولمّا خشيت السيدة «دو غيرمانت» أن يكون لامسه قالت للدوق: «سوف يضطرّ هذا الشاب أن يقول لي كما هو الأمر في كاريكاتور لست أعلم من بعد ما هو: «سيدتي قولي لي في الحال إنك تحبّينني ولكن لا تدوسي هكذا على قدمي». كان فكري على أي حال يسرح بعيداً عن السيدة «دو غيرمانت». فمنذ أن كلّمني «سان لو» عن فتاة كريمة المحتد كانت ترتاد أحد بيوت الدعارة وعن وصيفة البارون «دو بوتبوس» اخْتُصِرت في هاتين الشخصيتين بعدما تجمّعت كتلة واحدة الرغبات التي كانت توحي بها إليّ الكثير من الحسناوات ممّن ينتمين إلى طبقتين، فالعاميّات البهيّات المهيبات من وصيفات الأسر الكبيرة المنتفخات كبراً ويقلن «نحن» حين يتحدثن عن الدوقات من جهة، ومن جهة أخرى هاتيك الفتيات اللواتي كان يكفيني أحياناً، حتى دون أن أكون رأيتهنّ يمررن بي في عربة أو سيراً على الأقدام، أنْ قرأت اسمهنّ في ملخّص حفلة راقصة حتى أقع في غرامهن، ثمّ بعد ما أكون بحثت بحثاً دقيقاً في «**دليل القصور**» أين يقضين الصيف (وأدع لنفسي في الغالب أن يضيّعني اسم مماثل) أن أحلم في المبادرة إلى السكنى بالتناوب في سهول الغرب وكثبان الشمال وغابات الصنوبر في الجنوب. ولكنّي عبثاً كنت أصهر كامل المادة الجسدية الأكثر روعة كي أؤلف منها طبقاً للصورة المثلى التي رسمها «سان لو» الفتاة الطائشة ووصيفة السيدة «دو بوتبوس»، فقد كانت تفتقر الحسناوان اللتان أمنّي

النفس بهما إلى ما كنت أجهل ما دمت لم أشاهدهما، عنيت الطابع الفردي. كنت سأنهك نفسي عبثاً في محاولتي أن أتصور، في أثناء الشهور تنصبّ فيها رغبتي بالأحرى على الفتيات، كيف ومن كانت تلك التي حدّثني عنها «سان لو»، وفي أثناء الشهور التي لعلني فضّلت فيها الوصيفات، وصيفة السيدة «دو بوتبوس». ولكن أية طمأنينة أصبت، بعدما كنت على الدوام مضطرب النفس من جرّاء ما يداخلني من رغبات قلقة حيال كثرة من مخلوقات متهربة ما كنت أعرف في الغالب حتى اسمها، وكانت في جميع الأحوال صعبة اللّقيا وأصعب تعرفاً وربما استحال الفوز بها، من أنني اقتطعت من كامل هذا الجمال المبدّد المتهرّب المجهول نموذجين مختارين مزوّدين ببطاقة أوصافهما، وكنت على الأقلّ متيقناً من الظفر بهما ساعة أشاء! وكنت أؤجل ساعة الشروع بهذه المتعة المزدوجة ومثلها ساعة العمل، ولكنّ اليقين الذي بي من إصابتها حينما أشاء كان يغنيني أو يكاد عن أخذها كمثل تلك المضغوطات المنومة التي يكفيك أن تكون في متناول يدك كي لا تحتاج إليها وتنام. ولم أعد أبغي في الكون إلا امرأتين ما كنت بالحقيقة أفلح في تصوّر وجهيهما، ولكنّما سبق أن أطلعني «سان لو» على اسميهما وضمن تساهلهما. ولئن كان خصّ مخيلتي بعمل شاق من جرّاء أقوال تفوّه بها للتو فقد وفّر بالمقابل لإرادتي استرخاء ثميناً وراحة مستديمة.

وقالت لي الدوقة: «هيّا نرَ! ألا يمكنني فيما عدا حفلاتك الراقصة أن أفيدك في شيء؟ وهل عثرت على ردهة تودّ أن أقدمك فيها؟» فأجبتها أنني أخشى أن تكون الوحيدة التي أتوق إليها هينة الأناقة إلى حدّ بعيد في نظرها. وسألتني بصوت متوعد أجشّ ويكاد لا ينفرج فمها: «ومن عساها تكون»؟ - «البارونة «بوتبوس»». وأبدت هذه المرّة غضباً حقيقياً. «لا! يا للعجب! أظنك تسخر منّي. ولست حتى أعلم بأية مصادفة أعرف اسم هذه الدابّة. إنها حثالة المجتمع، فكما لو أنك تسألني أن أقدمك لبائعة الخردوات عندي. وحتى هذه لا، فإن بائعتي هذه رائعة. بك بعض مسّ يا

صغيري المسكين. وفي جميع الأحوال أسألك أن تتلطّف فتكون مهذّباً مع الأشخاص الذين قدّمتك إليهم وأن تدع لهم بطاقات وأن تمضي لزيارتهم وأن لا تحدّثهم عن البارونة «بوتبوس» المجهولة لديهم.» وسألتُ إن لم تكن السيدة «دورفييه» على شيء من الخفّة. «لا على الإطلاق إنك تخلط، وربما كانت بالأحرى متزمّتة. أليس هذا صحيح يا «يازان»؟ وقال الدوق: «أجل، وفي جميع الأحوال لا أعتقد أن تكون أُخذت في يوم بأمر». وسألني قائلاً: «ألا تودّ مرافقتنا إلى الحفلة الراقصة؟ سوف أزوّدك بمعطف من البندقية وأعرف شخصاً ربما سرّه ذلك أيّما سرور، «أوريان» أولاً، ذلك غنيّ عن القول، فأميرة «بارما» خصوصاً. إنها تنشد طوال الوقت مدائحك ولا تقسم إلا باسمك، أنت محظوظ - إذ هي ناضجة نوعاً ما - أن تكون على احتشام مطلق، ولولا ذاك لاتّخذتْ منك بالتأكيد خادماً ملازماً كما كانوا يقولون في شبابي، ونوعاً من العاشق المتيّم».

ما كنت حريصاً على الحفلة الراقصة، بل على موعدي مع «ألبيرتين» ولذلك رفضت. كانت العربة قد توقفت، وطلب الخادم الخاص فتح البوّابة الرئيسية وضربت الخيل الأرض بسنابكها إلى أن فتحت على مصراعيها ودخلت العربة إلى فناء المنزل. وقال الدوق: «إلى لقاء جديد». وقالت الدوقة: «لقد أسفت أحياناً لسكناي قريبة إلى هذا الحدّ من ماري، فإن كنت أودّها كثيراً فإني أودّ أقلّ بقليل رؤيتها. ولكني لم آسف في يوم لهذا القرب بقدر ما أفعل اليوم لأن ذلك يقصّر إلى هذا الحدّ من بقائي معك». - «هيّا يا «أوريان» كفّي عن الخطاب». وودّت الدوقة لو أدخل لحظة إلى منزلهم. وضحكتْ كثيراً وكذلك فعل الدوق حينما قلت إنني لا أستطيع لأنّ فتاة ستأتي الآن بالضبط لزيارتي، وقالت لي: «تلك ساعة غريبة لك لاستقبال زائرتك». وقال الدوق مخاطباً زوجته: «هيّا يا صغيري، فالساعة الثانية عشرة ليلاً إلا ربعاً، وما هو إلا أن نرتدي ثيابنا..» واصطدم على بابه بالسيدتين حاملتي العكّاز، وكانتا تحرسانه بحزم وما خشيتا الانحدار ليلاً من «علاليهما» كيما تحولا دون وقوع

فضيحة. «لقد حرصنا على تنبيهك مخافة أن تُشاهَد في هذه الحفلة الراقصة. فقد مات «أمانيان» المسكين للتو، منذ ساعة مضت». وداخلت الدوقَ لحظةُ هلع. فقد أخذ يشهد حفلته الراقصة تنهار أمامه بما أن هاتين الجبليّتين اللعينتين أخطرتاه بموت السيد «دوسمون». ولكنّه تمالك نفسه بسرعة كبيرة ورمى في وجه ابنتَي عمومته هذه الكلمة التي أدرج فيها إلى جانب تصميمه على أن لا يتخلّى عن إحدى المتع عجزَه عن تمثّل قوالب اللغة الفرنسية تمثلاً دقيقاً «إنه مات! لا، إنهم يغالون، إنهم يغالون!» ودون أن يهتم من بعد بقريبتيه اللتين تزمعان، وقد تسلّحتا بعصوَيْهما الجبليتين، القيام بالتسلّق في عتمة الليل، ألقى بنفسه يتسقّط الأخبار مسائلاً خادمه الخاص: «هل وصلت خوذتي فعلاً؟ «أجل، سيدي الدوق». - «وهناك حتماً ثقب صغير للتنفس؟ فلست أرغب في الموت اختناقاً، يا للعنة!» - «أجل سيدي الدوق». - «آه! يا قدرة الله، هذا مساء المصائب. نسيت يا «أوريان» أن أسأل «بابال» إن كان الحذاء الحادّ الرأس لك!» - «ولكن يا عزيزي، ما دام صانع ألبسة الأوبرا الهزلية هنا فسوف ينبئنا عن ذلك. أمّا أنا فلا أظنه يتماشى ومهمازيك». وقال الدوق: «هيّا نلق صانع الملابس. إلى اللقاء يا صغيري. كنت قلت لك أن تدخل وإيّانا فيما نجرّب بغية تسليتك. ولكننا قد نمضي في حديث والليل قد أوشك أن ينتصف وينبغي أن لا نصل متأخّرين كيما يكتمل الاحتفال».

كنت بدوري على عجلة من أمري لفراق السيد والسيدة «دو غيرمانت» أسرعَ ما يكون الفراق. كانت مسرحية «فيدر» تنتهي حوالي الحادية عشرة والنصف. وما هو إلا أن أجيء حتى تكون «ألبيرتين» قد وصلت. ومضيت رأساً إلى «فرانسواز»: «هل وصلت الآنسة «ألبيرتين»؟» - «لم يجئ أحد». يا إلهي، أفكان يعني ذلك أنْ لن يجيء أحد؟ لقد أخذني القلق إذ تبدو لي زيارة «ألبيرتين» الآن أكثر اشتهاء بقدر ما يتناقص ثبوتها. و«فرانسواز» انزعجت هي الأخرى وإنما لسبب مغاير تماماً. فإنها أجلست ابنتها منذ قليل إلى الطاولة لوجبة شهية. ولمّا سمعتني «فرانسواز» مقبلاً وتبيّنتْ أنها

إنما يعوزها الوقت لرفع الأطباق وتجهيز الإبر والخيوط وكأنما الأمر أمر عمل لا أمر عشاء فقد قالت لي: «لقد أخذتُ ملعقة من الحساء وأجبرتُها على مصّ بعض العظام»، لتقلّص بذلك إلى لا شيء عشاء ابنتها وكما لو أن وفْرَتَه ضرب من الإجرام. وكانت «فرانسواز» تتظاهر حتى على الغداء أو العشاء إن اقترفتُ ذنب الدخول إلى المطبخ أنهم انتهوا، بل هي تعتذر بقولها: «كنت أردت تناول «كسرة» أو «لقمة»، ولكن سرعان ما يطمئنّ المرء إذ يرى تعدّد الأطباق التي تغطي الطاولة والتي لم يتّسع الوقت لـ«فرانسواز»، وقد باغتها دخولي المفاجئ كما هي حال شقيّ لم تكنْه، كي نزيلها، ثم أضافت قولها: «هيّا، بادري إلى النوم فإنك هكذا قد عملت كفايتك اليوم (إذ هي تبغي أن تبدو ابنتها وكأنها لا تكلّفنا شيئاً، وليس ذلك فحسب، بل هي تعيش من صنوف الحرمان وهي حتى تقتل نفسها في العمل من أجلنا). أنت تعرقلين الحركة في المطبخ فحسب وتضايقين على وجه الخصوص السيد الذي ينتظر زيارة». وعادت تقول: «هيّا اصعدي»، وكأنما تضطرّ أن تستخدم كامل سلطتها لترسل ابنتها إلى النوم، ابنتها التي لم تعد ههنا إلا من قبيل الخدعة ما دام العشاء قد فشل، ولو مكثتُ خمس دقائق إضافية لولّت الأدبار من تلقاء نفسها، ثمّ التفتت إليّ وقالت بهذه الفرنسية الحلوة الشعبية، مع أنها فردية نوعاً ما، التي تميّزها: «ليس يرى سيدي أن حاجتها إلى النوم تشوّه وجهها». وظللت في قمة السعادة أن لم يقع عليّ أن أتحدّث إلى ابنة «فرانسواز».

قلت إنها كانت من بلد صغير يجاور تماماً بلد أمّها مع أنه يختلف عنه بطبيعة الأرض والمزروعات واللهجة المحلية وعلى وجه الخصوص ببعض خصائص السكان. من ذلك أن «اللحّامة» وابنة شقيق «فرانسواز» ما كانتا تتفاهمان بصورة مقبولة ولكنهما تشتركان، حينما تمضيان للتسوّق، في هذه النقطة التي قوامها المكوث ساعات «عند الشقيقة» أو «عند ابنة العم» إذ هما عاجزتان تلقائياً عن إنهاء محادثة، محادثة كان يغيب عنهما في أثنائها السبب الذي دعاهما إلى الخروج حتى إذا قيل لهما لدى عودتهما: «هيا

نرَ، هل يمكن رؤية المركيز «دو نوربوا» في السادسة إلا ربعاً»؟ ما كانتا حتى تلطمان الجبين قائلتين: «آه! لقد نسيت»، بل: «آه! لم أفهم أن سيدي طلب ذلك، ظننت فقط أنه ينبغي إلقاء التحية عليه». ولئن كانتا «تضيّعان رأسيهما» على هذا النحو بالنسبة إلى أمر قيل قبل ساعة فقد كان يستحيل بالمقابل أن تنزع من رأسيهما ما سبق أن سمعناه مرة على لسان الشقيقة أو ابنة العم. من ذلك أن «اللحّامة» إن سمعت من يقول إن الإنكليز شنّوا علينا حرباً في عام السبعين إلى جانب البروسيّين (وعبثاً حاولت أن أوضح أن الأمر كان خاطئاً) فقد كانت اللحّامة تردّد في كلّ ثلاثة أسابيع في غضون حديث بيننا: «ذلك بسبب تلك الحرب التي شنّها علينا الإنكليز في عام السبعين إلى جانب البروسيّين» - و«لكنّي قلت لك مئة مرّة إنك على ضلال». فكانت تجيب، والأمر يتضمن أن قناعتها لم تتزعزع: «في جميع الأحوال ليس ذلك سبباً يدعو إلى كراهيتهم، فقد تغيّرت أمور كثيرة منذ حرب السبعين، إلخ.». وفي مرة أخرى كانت تحبّذ فيها حرباً على إنكلترا كنت أشجبها قالت: «بالتأكيد، الأفضل على الدوام أن لا تكون حرب، ولكن بما أنه لا بدّ من ذلك فالأفضل أن نبادر إليها في الحال. إن المعاهدات التجارية، كما أوضحت الشقيقة منذ قليل، تُفقرنا منذ تلك الحرب التي شنّها علينا الإنكليز في عام السبعين. وبعدما نكون هزمناهم لن نسمح بدخول إنكليزي من بعد إلى فرنسا دون أن يدفع ثلاث مئة فرنك رسم دخول، مثلما نفعل نحن للدخول إلى إنكلترا».

تلكم كانت طباع السكّان في هذا البلد الصغير الذي لا يبلغ عددهم فيه الخمس مئة والذي تحيط به أشجار الكستناء والصفصاف وحقول البطاطا والشوندر، دون احتساب الكثير من الاستقامة ودون العناد المبهم، حين يتحدثون، كي لا يسمحوا بمقاطعتهم ويعيدوا الكرّة عشرين مرّة من حيث وصلوا إليه حينما قوطعوا، وهو ما كان يوفّر لأقوالهم في النهاية الصلابة التي لا تتزعزع لمتوالية لـ«باخ».

أما ابنة «فرانسواز» فقد كانت تتكلم بالعكس، إذ تظن نفسها امرأة

عصرها وقد هجرت الدروبَ المغرقة في القدم، اللهجةَ المحلية الباريسية الشعبية ولا تفوّت واحدة من النكات الملتصقة بها. فإذ قالت لها «فرانسواز» إنني آتٍ من منزل إحدى الأميرات قالت: «آه! أميرة بجوز الهند[١] دون شكّ». وتظاهرت، وقد لاحظت أنني في انتظار زيارة لي، أنني أدعى «شارل»، فأجبت بسذاجة أنْ لا، وقد مكّنها ذلك من أن تضيف: «آه! خلت ذلك. وكنت أقول في نفسي «شرّ مُنْتَظَر» (شارل ينتظر) ولم تكن من ذوق جدّ رفيع. إلا أنني أبديت لامبالاة أقلّ حينما قالت لي بمثابة عزاء لتأخّر «ألبيرتين»: «أعتقد أنك تستطيع انتظارها «مؤبّداً»، فلن تجيء من بعد. آه يا لوقحات هذا الزمان!».

وهكذا كانت لغتها مختلفة عن لغة أمها؛ ولكن الأغرب أن لغة أمها كانت مختلفة عن لغة جدّتها المولودة في «بايو لو بان» وهي قريبة جداً من بلدة «فرانسواز»، ومع ذلك كانت اللهجتان المحليتان على اختلاف طفيف، شأن المَنْظَرين الطبيعيين. فقد كانت بلدة أمّ «فرانسواز» على سفح مائل ينحدر صوب واد صغير ويغطيه شجر الصفصاف. فيما كان ثمة على بعد كبير من هذا المكان، كان على العكس منطقة صغيرة يتكلمون فيها اللغة المحلية نفسها المتداولة في «ميزيغليز» تقريباً. وقد اكتشفتُ الأمر وعانيت من الإزعاج الذي يورثه في الآن نفسه. فقد لقيت «فرانسواز» ذات مرّة في حيدث طويل مع وصيفة في المنزل كانت من تلك البلدة وتتكلم تلك اللغة المحلية. كانت إحداهما تفهم الأخرى على وجه التقريب ولا أفهمها على الإطلاق وهما على علم بالأمر ولا تكفّان لذلك، وتظنّان عذراً لهما في أنهما من ذات المنطقة مع أن واحدتهما ولدت بعيداً جداً عن الأخرى، عن موالاة الحديث أمامي بهذه اللغة الأجنبية، كما هي الحال حين لا تريد أن يفهم الآخرون. وتوالت هذه الدراسات الطريفة في

---

(١) لا سبيل إلى ردّ هذا التلاعب اللفظي والعبارة تعني: لا قيمة لها، والترجمة تفقدها التكرار مع أنها قد توحي بالقيمة الهيّنة. وربما حالفني الحظ في الدعابة الأخرى Char la tan, Charles attend («شارل ينتظر» و«مهرّج»).

الجغرافية الألسنية والرفاقية الخدمية كل أسبوع في المطبخ دون أن أصيب منها أية متعة.

ولمّا كان البوّاب يضغط على زرّ كهربائي يضيء الدرج في كلّ مرة تتفتح فيها البوّابة الكبيرة وإذ لم يلبث مستأجرون لم يعودوا إلى منازلهم، فقد تركت في الحال المطبخ وعدت فجلست في غرفة الانتظار أرقب المكان الذي تسمح فيه الستارة المفرطة الضيق إلى حدّ ما فلا تغطي تماماً باب شقتنا المزجّج بدخول الخط العمودي القائم الناجم عن نصف عتمة الدرج. فإن أضحى هذا الخط فجأة أشقر مذهباً فإنما يعني أن «ألبيرتين» دخلت منذ قليل في الأسفل وسوف تكون بعد دقيقتين بالقرب مني، وليس من شخص آخر يمكن أن يجيء في هذه الساعة. ولبثت لا أستطيع صرف عينيّ عن الخط الذي يصرّ على البقاء عاتماً. كنت أميل بكامل جسمي لأتأكد من أني أرى تمام الرؤية. ولكن عبثاً كنت أنظر فيما يوليني الخط الأسود العمودي، على الرغم من رغبتي الحارّة، البهجة المسكرة التي كانت حلّت بي لو رأيته ينقلب، من جرّاء لمسة سحرية مفاجئة ذات دلالة، قضيباً ذهبياً مضيئاً. ذلك كان اضطراباً مفرطاً بشأن «ألبيرتين» هذه التي لم أفكّر فيها ثلاث دقائق في أثناء أمسية آل «غيرمانت»! ولكن الحرمان المحتمل من مجرّد متعة جسدية يوقظ مشاعر الانتظار التي عانيت منها بالأمس بشأن فتيات أخريات، ولا سيما «جيلبيرت» حين تتأخر في المجيء، فيسبّب لي عذاباً نفسياً قاسياً.

كان لا بدّ لي من العودة إلى غرفتي. وتبعتني «فرانسواز» إلى داخلها. وكانت ترى، وقد عدت من أمسيتي، أن لا فائدة من احتفاظي بالوردة التي في عروة سترتي وأقبلت لتنزعها مني. وقد سببّت لي الحركة التي قامت بها، إذ تذكّرني بأن «ألبيرتين» يمكن أن لا تجيء من بعد وإذ تضطرني كذلك إلى الإقرار بأنني كنت راغباً في الظهور بمظهر أنيق من أجلها، غضباً تضاعف من جرّاء أنني، فيما أحاول التخلص بحركة عنيفة، غضّنت الزهرة وأن «فرانسواز» قالت لي: «كان من الأفضل أن تدعني أنزعها

عوضاً عن أن تفسدها على هذا النحو». كانت أقل كلماتها على أي حال تثير حنقي، فإن المرء يعاني في الانتظار من غياب ما يشتهي إلى حدّ أنه لا يطيق احتمال حضور آخر.

وفكّرت بعدما خرجت «فرانسواز» من الغرفة، أنه من المؤسف حقاً، إن كان ذلك لمحض أن أبلغ الآن حدّ إبداء بعض التأنّق إزاء «ألبيرتين»، أن أكون طلعت إليها مرات كثيرة بأسوأ حلاقة وبلحية تعود لعدة أيام في الأمسيات التي كنت آذن لها بالمجيء فيها لنعيد الكرّة في مداعباتنا. كنت أحسّ أنها لا تهتم بي فتتركني وحيداً. وعدت فوضعت، بغية تجميل غرفتي قليلاً، إن قُدِّر أن تجيء «ألبيرتين» بعد وللمرة الأولى منذ سنوات على الطاولة التي قرب سريري، تلك المحفظة المزيّنة بأحجار الفيروز التي حملتني «جيلبيرت» على صنعها لتغليف كتيّب «بيرغوت» والتي أردت لفترة طويلة الاحتفاظ بها في أثناء نومي إلى جانب كُلّة العقيق، إذ كانت أحد أجمل ما أملك من حاجات. ثمّ إن وجود «ألبيرتين» في هذه اللحظة في «مكان آخر» أَلْفَتُهُ بالتأكيد أكثر إمتاعاً وما كنت أعرفه كان يسبّب لي، ربما بمقدار ما تفعل «ألبيرتين» نفسها، وهي بعد لم تجئ، شعوراً مؤلماً كان يمكن أن ينقلب، على الرغم مما سبق أن قلته لـ«سوان» منذ ما يقرب الساعة حول عجزي عن أن أكون غيوراً، لو التقيت صديقتي في فواصل زمنية أقل بعداً، حاجة يشوبها القلق وقوامها أن أعلم أين كانت تقضي وقتها وبصحبة من. ما كنت أجرؤ أن أرسل أحداً إلى بيت «ألبيرتين»، ولكنّي، أملاً منّي بأنها ربما تتناول طعام العشاء بصحبة صديقات في مقهى وسوف توافيها فكرة الاتصال بي هاتفياً، أدرت مفتاح النور وأعدت الخط إلى غرفتي وقطعته بين مكتب البريد ومسكن البوّاب الذي كان موصولاً به عادة في تلك الساعة. ولعل وجود جهاز استقبال في الممر الصغير الذي تطلّ عليه غرفة «فرانسواز» كان أكثر بساطة وأقل إزعاجاً ولكنّه غير ذي فائدة. إن وجوه تقدّم الحضارة تسمح لكل فرد أن يكشف عن صفات لا تخطر ببال أو عن معايب جديدة تجعلهم أعزّ على قلوب أصدقائهم أو أكثر

ثقلاً عليهم. من ذلك أن اكتشاف «أديسون» مكّن «فرانسواز» من اكتساب عيب إضافي قوامه رفض استخدام الهاتف مهما تكن فائدة الأمر وضرورته. كانت تلقى وسيلة للهرب حينما يبغون تعليمها ذلك كما يفعل آخرون ساعة يحين تعليمهم. ولذلك وضع الهاتف في غرفتي وجعلوا رنّة الجرس مجرّد طقطقة خشبية كي لا يسبّب إزعاجاً لوالدي. ومكثت دون حراك مخافة أن لا أسمعه. وقد بلغ لاحراكي مبلغاً لاحظت معه للمرة الأولى منذ شهور تكتكة ساعة الحائط. وجاءت «فرانسواز» ترتّب بعض الحاجات. كانت تكلّمني ولكنّي كنت أمقت ذاك الحديث الذي كانت مشاعري تتغير من دقيقة إلى أخرى في استمراريته المتساوية في سخفها، فتنتقل من الخشبة إلى ضيق النفس، ومن الضيق إلى الخيبة التامة. كنت أحسّ وجهي، في اختلافه عن الأقوال الغائمة الراضية التي أظنني ملزماً بتوجيهها إليها، تعيساً إلى حدّ أنني زعمت أني أعاني من التهاب المفاصل لأفسّر الاختلاف الكائن بين ما أتظاهر به من لامبالاة وهذه الملامح المعذّبة. ثمّ أخذت أخشى أن تحمل الأقوال التي تجود بها «فرانسواز»، بصوت خافت على أي حال، (لا بسبب «ألبيرتين»، إذ كانت ترى أن ساعة مجيئها المحتمل قد انقضت منذ وقت طويل) خطر الحؤول دون سماعي النداء المنقذ الذي لن يصلني من بعد. وأخيراً مضت «فرانسواز» لتنام، فصرفتها برفق حازم كي لا تغطي الضجة التي قد تصدر عنها ساعة ذهابها صوت الهاتف. وعدت إلى الإصغاء والمعاناة، فإنه يبدو، حين ننتظر، أن الرحلة المزدوجة، من الأذن التي تجمع الأصوات إلى الفكر الذي يفرزها ويحلّلها ومن الفكر إلى الفؤاد الذي ينقل إليه الفكر نتائجه، يبدو أنها سريعة إلى حدّ أننا لا نستطيع حتى تبيّن مدّتها وأنه يخيّل إلينا أننا نصغي مباشرة بفؤادنا.

كانت تعذّبني عودة لا تتوقّف لرغبة، يزداد على الدوام اضطرابها ولا تُشْبَع قط، في صوت نداء. وبعدما بلغت أعلى نقطة في صعود معذّب داخل لوالب غمّي المتوحّد وافاني فجأة، بجوار مكتبتي ومن أعماق

باريس المكتظة الليلية وقد قربت بغتة مني، وافاني ميكانيكياً رائعاً، كما هو في «تريستان» أمر المنديل الخافق في الهواء أو شبّابة الراعي، صوت خذروف الهاتف. وهُرعتُ فكانت «ألبيرتين». - «ألست أزعجك بندائي في مثل هذه الساعة؟» فقلت وأنا أكتم فرحي لأن ما كانت تقول بشأن الساعة غير المناسبة إنما كان دونما شكّ للاعتذار عن مجيئها بعد حين، في وقت متأخّر جداً، ولا يعني أنها لا تزمع المجيء: «لا، لا . . .» ثم سألتها بلهجة لامبالية: «وهل أنت آتية؟» - «بالطبع. . لا، إن لم تكن بك حاجة أكيدة إليّ».

ثمّة جزء مني يودّ الآخر اللحاق به كان داخل «ألبيرتين». فكان لا بدّ أن تجيء ولكنّي لم أفض إليها بالأمر في البداية، ولمّا كنا على اتصال قلت في نفسي إنني أستطيع دوماً اضطرارها في الثانية الأخيرة إما أن تأتي إليّ وإما أن تسمح لي بالإسراع إليها. «أجل إني قريبة من منزلي، تقول، وبعيدة قليلاً عن منزلك. لم أكن أحسنت قراءة كلمتك، وقد وجدتها منذ قليل وخفت أن تكون في انتظاري». كان يداخلني شعور بأنها تكذب وكنت أودّ الآن في سورة غضبي إرغامها على المجيء تدفعني حاجة بي إلى إزعاجها أكثر مني إلى رؤيتها. ولكني كنت حريصاً بادئ الأمر على رفض ما سأسعى إلى الحصول عليه بعد لحظات. ولكن أين عساها كانت؟ فإنّ أصواتاً أخرى تختلط بكلماتها: زمّور درّاج وصوت امرأة تغني وجوقة أبواق في البعيد كانت تدوّي بمثل وضوح الصوت الغالي كأنما لتريني أن من كان بالقرب مني في هذه اللحظة إنما «ألبيرتين» في وسطها الراهن، مثل مدرة انتزعت معها كلّ النجيليات التي تحيط بها. كانت ذات الأصوات التي أسمعها تدوّي في أذنيها وتشكّل عائقاً لانتباهها: «إنها أجزاء من الحقيقة غريبة عن الموضوع وغير مفيدة في حدّ ذاتها وإنها لتتزايد بالمقدار نفسه ضرورتها لتكشف لنا وضوح المعجزة، إنها خطوط بسيطة ورائعة تصور شارعاً باريسياً، خطوط حادة وقاسية لأمسية مجهولة منعت «ألبيرتين» بعد مسرحية «فيدر» من المجيء إلى منزلي. وقلت لها:

«أنبّهك في البداية أنْ ليست غايتي أن تجيئي لأنك في مثل هذه الساعة ستضايقينني كثيراً، فقد هدّني النعاس، ثم إنّ هناك ألفاً من التعقيدات. ويهمّني أن تعرفي أنْ لم يكن ثمة أي إمكان لسوء تفاهم في رسالتي. لقد أجبتني بأن الأمر حاز الموافقة. فإن كنت لم تفهمي فما الذي تقصدينه بذلك؟» - «قلت إن الأمر متّفق عليه ولكنّي ما عدت أذكر كثيراً موضوع الاتفاق. ولكنّي أراك مغتاظاً وذلك يزعجني. إني آسفة أنْ ذهبت إلى مسرحية «**فيدر**»، لو علمت أن ذلك سيجر الكثير من المتاعب..» تضيف قولها مثل جميع الناس الذين أذنبوا في أمر فيتظاهرون بالاعتقاد بأن ما يلامون عليه أمر آخر. «لا دخل لـ«**فيدر**» في استيائي بما أنني سألتك بنفسي الذهاب إلى هناك» - «إذاً فأنت حاقد عليّ والمزعج أن الوقت تأخّر كثيراً هذا المساء وإلا لمضيت إلى بيتك، ولكنّي سأجيء غداً أو بعد غد لأعتذر» - «لا، لا! رجوتك يا «ألبيرتين»، فبعد ما ضيّعت لي أمسيتي دعيني على الأقل وشأني في الأيام التالية، ولن أكون حراً طليقاً قبل خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أسابيع. اسمعي، إن كان يزعجك أن نبيت على شعور بالغضب، وربما كنت في الأساس على حق، فإني أفضّل إذ ذاك، والتعب واحد، وبما أني انتظرتك حتى هذه الساعة ولا تزالين خارجاً، أن تأتي في الحال، وسأتناول شيئاً من القهوة لأظل صاحياً» - «أليس يمكن تأجيل الأمر للغد؟ لأن الصعوبة...». وفيما كنت أسمع كلمات الاعتذار هذه يُنطق بها وكأنها لا تزمع المجيء شعرت أن عنصراً مختلفاً تمام الاختلاف عن رغبتي في أن أرى ثانية الوجه المخمليّ الذي سبق أن كان يوجّه في «بالبيك» كامل أيّامي صوب اللحظة التي سأكون فيها، أمام بحر أيلول البنفسجي، بجوار هذه الزهرة الوردية، شعرت أنه يقوم بمحاولة مؤلمة كي يتّحد بتلك الرغبة. هذه الحاجة المخيفة إلى شخص في «كومبريه» قُيِّضَ لي أن أعرفها بشأن أمّي وإلى حدّ اعتزام الموت إن أرسلتْ تقول لي مع «فرانسواز» إنها لن تستطيع الصعود. وهذا الجهد الذي يبذله الشعور السابق ليتّحد ويؤلّف عنصراً وحيداً مع الشعور الآخر

الأحدث الذي لم يتّخذ مادة لشهوته سوى المساحة الملوّنة، سوى البشرة الوردية لزهرة الشاطئ، إن هذا الجهد إنما لا يفضي في الغالب إلا إلى استيلاد (بالمعنى الكيميائي) جسم جديد قد لا يدوم سوى بضع لحظات. ولكنّ العنصرين لبثا منفصلين عن ذلك المساء ولفترة طويلة. بيد أني أخذت أدرك، لدى سماع آخر كلماتها على الهاتف، أن حياة «ألبيرتين» واقعة (لا بالمعنى المادي بالتأكيد) على مسافة كبيرة مني حتى ليقتضيني على الدوام القيام باستكشافات مرهقة كي أقبض عليها، وهي إلى ذلك منظمة على هيئة استحكامات ميدانية هي، إمعاناً في الأمان، من نوع تلك التي جرت العادة فيما بعد على تسميتها، بـ«المموّهة». كانت «ألبيرتين» على أي حال، وفي مرتبة أعلى من المجتمع، في عداد أناس من النوع الذي تَعِدُ البوّابة حامل رسالتك بتسليمها إياها حينما تعود - إلى اليوم الذي تتبيّن فيه أنها هي بالضبط، تلك المرأة التي التقيتها خارجاً وأجزت لنفسك أن تكتب إليها، البوّابة، وإذ هي تسكن بالتأكيد - إنما في شقة البواب - المسكن الذي دلّتك عليه (وهو إلى ذلك بيت صغير للدعارة السريعة قوادته البوابة)، أو من النوع الذي يعيّن عنوانه في بناء يعرفه فيه شركاء لن يفضحوا أمامك سرّه ومن هنا يبلغونه رسائلك ولكنّه لا يقطنه وقد ترك فيه على الأكثر بعض الحاجات. إنها صنوف من العيش رُتِّبَتْ على خمسة أو ستة خطوط انسحاب حتى إنك يوم أردت لقاء تلك المرأة أو الاطلاع على أمر جئت تقرع أكثر إلى اليمين أو أكثر إلى اليسار أو أكثر إلى الأمام أو أكثر إلى الخلف ويمكن أن تجهل كل شيء على مدى شهور وسنوات. كنت أحسّ، في ما يخص «ألبيرتين»، أنني لن أطّلع على شيء في يوم وأنني لن أفلح البتّة في تدبّر أمري عبر تعدد وتشابك التفاصيل الحقيقية والوقائع الكاذبة، وأن الأمور ستبقى دوماً على هذه الشاكلة ما لم تُودَع السجن حتى النهاية (مع أنهم يهربون منه). ولم تبعث تلك القناعة ذلك المساء فيَّ سوى شيء من القلق ولكنّي كنت أحسّ فيه رعشة ما يشبه استباقاً لعذابات طويلة.

وأجبت قائلاً: «لا، لا! سبق أن قلت إنني لن أكون حراً قبل ثلاثة أسابيع، ولن أكون في الغد أكثر من أي يوم آخر» - «حسن، إذاً.. سوف أجيء عدواً.. الأمر مزعج لأني في منزل صديقة لي هي...» كنت أحسّ أنْ لم يدخل في روعها أنني سوف أقبل اقتراحها بالمجيء، فلم يكن ذلك صادقاً إذاً وأردت إحراجها. «وماذا يهمّني من صديقتك؟ تعالي أو لا تجيئي، ذلك أمر يخصك، فما أنا من يسألك المجيء، أنت من اقترحت الأمر عليّ». «لا تغضب، سأقفز داخل عربة وأكون عندك في عشر دقائق». وهكذا، ومن باريس هذه التي انطلقت من أعماق ليلها حتى غرفتي الرسالة الخفية تقيس مدى تأثير كائن بعيد، فإن ما كان يزمع أن يطلع فجأة ويظهر بعد هذه البشارة الأولى إنما «ألبيرتين» تلك التي سبق أن عرفتها تحت سماء «بالبيك» حينما كان نور الشمس الغاربة يُبهر نُدل الفندق الكبير وهم يعدّون المائدة، وأنفاس المساء الخفية تمرّ، وقد سحب زجاج النوافذ كلياً، تمرّ دونما عائق من الشاطئ حيث يتباطأ آخر المتنزّهين، إلى قاعة الطعام الفسيحة حيث لم يجلس بعد أوائل المتعشّين إلى موائدهم، فيما يمرّ عبر المرآة التي جُعلت خلف طاولة المشرب وهج جسم السفينة الأحمر ويطيل المقام ظلّ رمادي للدخان المنبعث من آخر مركب متجه إلى «ريفبيل». لم أعد أسأل نفسي ما الذي أمكن أن يؤخر «ألبيرتين»، وحينما دخلت «فرانسواز» إلى غرفتي تقول لي: «وصلت الآنسة «ألبيرتين»، فإن كنت أجبت حتى دون أن أحرّك رأسي فقد كان ذلك لمحض التستر: «وكيف تجيء الآنسة «ألبيرتين» متأخرة إلى هذا الحد؟» ولكنّي حين رفعت ناظريّ إلى «فرانسواز» وكأنما بي فضول لأحظى بإجابتها التي ينبغي أن تعزّز الصدق الظاهر في سؤالي تبيّنت بإعجاب وحنق أن «فرانسواز»، وكانت قادرة على منافسة «لا بيرما» نفسها في فنّ إنطاق الأثواب الجامدة وقسمات الوجه، قد أفلحت في تلقين صُدرتها درساً وكذلك فعلت بشعورها التي أعيد أكثرها بياضاً إلى السطح وعُرضتْ وكأنها خلاصة شهادة ميلاد، وبعنقها الذي لواه التعب والطاعة. كانت كلها ترثي لحالها

أنْ أُوقِظَتْ من نومها وأخرجت من دفء السرير في أنصاف الليالي وفي سنّها وقد اضطرّت أن ترتدي ملابسها بأقصى سرعة مجازفة بإصابتها باحتقان رئوي. ولذلك قلت، وقد خشيت أن يكون بدا أني أعتذر عن وصول «ألبيرتين» متأخرة: «وإني في جميع الأحوال مسرور جداً من أنها جاءت، وكل شيء على ما يرام»، وأطلقت العنان لعميق ابتهاجي. ولم يلبث فترة طويلة لا تشوبه شائبة بعدما سمعت جواب «فرانسواز». فإنها أخذت، دون أن تطلق أية شكوى، بل هي تبدو وكأنها تكتم جاهدة سعالاً لا يقاوم، وتكتفي بمصالبة شالها عليها وكأنما حلّ بها البرد، أخذت تحكي لي كل ما قالته لـ«ألبيرتين»، إذ لم يفتها أن تسألها عن أخبار عمّتها. «كنت بالضبط أقول لها لا شكّ أن سيدي خشي أن لا تجيء الآنسة من بعد لأن الساعة ليست مناسبة للمجيء فقد أوشك يطلع الصباح. ولكن لا بدّ أنها كانت في أماكن تلهو فيها أحسن اللهو فهي حتى لم تقل لي إنها انزعجت من اضطرارها سيدي للانتظار وأجابت بلهجة من يسخر من الناس: «تأخير ولا قطيعة!» وأردفت «فرانسواز» تقول هذه الكلمات التي اخترقت فؤادي: «لقد كشفت سرّها إذ تقول ما تقول لعلّه كان بودّها أن تتستّر، ولكن..».

لم يكن ثمّة ما أستغربه كثيراً. فقد قلت منذ قليل إن «فرانسواز» نادراً ما كانت تنقل لك في الخدمات التي تكلّف بها، إن لم يكن ما قالته هي وما كانت تسترسل فيه بطيبة خاطر، الجواب المنتظر على الأقل. فأما إن ردّدتْ استثناءً على مسامعنا الأقوال التي صدرت عن أصدقائنا فقد كانت تدبر أمرها بعامة كي تضفي عليها طابعاً مهيناً بوساطة ما تؤكد أنه رافقها من دلائل ولهجة لدى الضرورة. كانت ترتضي، عند اللزوم، أن تكون لحقت بها إهانة، ويرجّح أن تكون خيالية على أية حال، على يد مورّد أرسلناها إليه شرطَ أن تطالنا تلك الإهانة، إذ هي موجّهة إليها هي التي كانت تمثّلنا وتتكلّم باسمنا، على نحو ارتدادي. ولعلّه ما كان بقي لنا سوى أن نجيبها بأنها أساءت الفهم وأنها مصابة بهذيان الاضطهاد وأنْ لم

يتحالف التجار جميعهم ضدّها. وكنت على أي حال قليل الاهتمام بمشاعرهم. وما كان الأمر واحداً بالنسبة إلى مشاعر «ألبيرتين». لقد ذكّرتني «فرانسواز» في الحال، وهي تعيد عليّ هذه الكلمات الساخرة: «تأخير ولا قطيعة!» بالأصدقاء الذين ختمت «ألبيرتين» أمسيتها بصحبتهم التي راقتها إذاً أكثر مما تروقها صحبتي. وأضافت «فرانسواز»، ونادراً ما تشاطرني انطباعاتي ولكنها تحسّ بحاجة إظهار انطباعاتها، أضافت تقول كأنما تسخر من «ألبيرتين»: «إنها مضحكة وتعتمر قبعة صغيرة مسطحة تضفي عليها، إلى جانب عينيها الكبيرتين، هيئة عجيبة ولا سيما بمعطفها الذي لعلّها أحسنت صنعاً لو بعثت به إلى «الرفّاءة» فهو متآكل كله. إنها تضحكني». ما كنت حتى أودّ الظهور بمظهر من يدرك أن تلك الضحكة كانت تعني الازدراء والسخرية ولكنّي بغية ردّ الضربة بضربة أجبت «فرانسواز» مع أني لا أعرف القبعة الصغيرة التي تتحدّث عنها: «ما تسمّينه «بالقبّعة الصغيرة المسطحة» شيء محض رائع».. فقالت «فرانسواز» معبّرة تعبيراً صريحاً هذه المرة عن ازدراء حقيقي: «يعني أنها لا تساوي فلساً يتيماً». حينئذ توجّهت إلى «فرانسواز» بهذه الكلمات القاسية (وبلهجة لطيفة متباطئة كي يبدو أن إجابتي الكاذبة إنما تعبّر لا عن غضبي، بل عن الحقيقة، ودونما إضاعة للوقت مع ذلك كي لا أضطر «ألبيرتين» إلى الانتظار) قلت بلهجة معسولة: «أنت رائعة، ولطيفة، وتملكين ألفاً من الصفات، ولكنّك لا تزالين من حيث كنت يوم جئت إلى باريس إن كان ذلك في ما يخصّ خبرتك بأمور المبلس أو في حسن لفظ الكلمات أو تحاشي النطق الخاطئ». وكان اللوم يتّصف بغباء فريد لأن تلك الكلمات الفرنسية التي نبدي اعتزازاً كبيراً بصحة نطقها لا تعدو أن تكون محض «نطق خاطئ» جادت به أفواه غاليّة كانت تلفظ اللاتينية أو الساكسونية لفظاً أعوج، إذ ليست لغتنا سوى النطق السيّئ لنفر غيرهم. إن عبقرية اللغة بوضعها الحيّ ومستقبل الفرنسية وماضيها، ذلك ما كان يجدر الاهتمام به في أخطاء «فرانسواز». أفليست «الرتاءة» بدلاً من «الرفّاءة»

غريبة غرابة تلك الحيوانات الباقية من عصور سحيقة، كالحوت أو الزرافة، والتي ترينا الحالات التي مرّت بها حياة الحيوان؟ وأضفت قولي: «وبما أنك لم تفلحي في التعلم منذ هذه السنوات الكثيرة فلن تتعلمي في يوم. ويمكن أن تتعزّي عن ذلك فليس يحول دون أن تكوني امرأة طيّبة جداً وتبدعين في تحضير لحم البقر بالخثيرة وألف من الأشياء الأخرى. إن القبعة التي تظنينها بسيطة منقولة عن قبعة لأميرة «غيرمانت» كلفت خمس مئة فرنك. وإني عازم على أية حال على إهداء الآنسة «ألبيرتين» واحدة تفوقها جمالاً عما قريب». كنت أعلم أن ما يمكن أن يزعج «فرانسواز» أكثر الإزعاج إنما إنفاق المال على أناس لا تحبّهم. فأجابتني ببضع كلمات جعلها فَقْدٌ مفاجئ لأنفاسها غير مفهومة كثيراً. وحينما أعلمت فيما بعد أنها تشكو من مرض في القلب يا ما أصابني من ندم أن لا أكون حجبت عن نفسي المتعة الضاربة العقيمة المتمثلة في الرد على أقوالها على هذا النحو! كانت «فرانسواز» على أي حال تكره «ألبيرتين» لأن «ألبيرتين» لا يمكنها، وهي فقيرة، أن تزيد مما تعتبر «فرانسواز» أنه مواضع تفوّقي. فكانت تبتسم برقّة في كلّ مرة تدعوني فيها السيدة «دو فيلباريسيس». لكنّها بالمقابل تثور ثائرتها من أن لا تقوم «ألبيرتين» بالمعاملة بالمثل. وقد بلغ بي أن أضطر إلى اختراع هدايا مزعومة تقدّمها هذه الأخيرة ولم تصدّق «فرانسواز» في يوم أقلّ ما يكون التصديق وجود مثلها. كان غياب المعاملة بالمثل يصدمها بوجه الخصوص في حقل الطعام. فإن نقبل بأعشية تقدّمها والدتي، إن لم نكن مدعوّين في منزل السيدة «بونتان» (مع أن هذه الأخيرة كانت تغيب عن باريس نصف الوقت إذ كان زوجها يقبل ببعض «المناصب» شأنه فيما مضى حينما كان يضيق ذرعاً بالوزارة)، فإنما يبدو لها ذلك من جانب صديقتي قلّة ذوق كانت تستنكرها على نحو غير مباشر بتلاوة هذا القول المأثور الشائع في «كومبريه»:

هيّا نأكل رغيفي.

- بكلّ طيبة خاطر.

- هات نأكل رغيفك.

- لم أعد جائعاً.

تظاهرتُ بأني أكتب، فقالت لي «ألبيرتين» وهي داخلة: «لمن كنت تكتب؟».

- لصديقة لي جميلة، لـ«جيلبيرت سوان»، ألا تعرفينها؟» - «لا!» وأقلعتُ عن طرح أسئلة على «ألبيرتين» حول أمسيتها إذ كنت أحسّ أني سوف أوجّه إليها اللوم وأنه لن يتّسع لنا الوقت من بعد، بسبب تقدّم الساعة، لمصالحة كافية بيننا كي ننتقل إلى القُبل والمداعبات. ولذلك أردت أن أبدأ بها منذ الدقيقة الأولى. ولئن كنت في جميع الأحوال هدأت بعض الشيء فما كنت أحسّني سعيداً. فإن فقدان أية بوصلة وأي اتجاه، وهو ما يميّز الانتظار، إنما يستمرّ بعد وصول الشخص المنتظر وإذ يحلّ فينا محلّ الهدوء الذي كنا بفضله نصوّر مجيئه بمثابة متعة معينة فإنه يحول دون تذوّقنا أية متعة. لقد حضرت «ألبيرتين» أمّا أعصابي المفكّكة فلا تزال، إذ توالي اضطرابها، تنتظرها. «هل أقدر أن أنال قبلة طيّبة يا «ألبيرتين»؟ فقالت لي بكامل طيبتها، وما كنت رأيتها في يوم بمثل جمالها: «أنت وما تشاء». - «أأضيف أخرى؟ فأنت تعلمين أن ذلك يوليني أعظم متعة.» فأجابت تقول: «ويوليني أنا ما يزيد ألف مرة. آه! يا للمحفظة الجميلة التي تقتنيها!» - «خذيها، إني أهبك إياها للذكرى» - «لطف زائد منك.» لعل المرء كان يشفى من عالم الخيال إلى الأبد لو شاء، بغية التفكير بمن يحبّها، محاولة أن يكون الشخص الذي سيؤول إليه حينما لن يحبّها من بعد. إن المحفظة وكرة «جيلبيرت» التي من عقيق، كل ذلك إنما استمدّ بالأمس أهميته من حالة داخلية محضة، إذ هما الآن في نظري محفظة وكرة عاديّتان.

سألت «ألبيرتين» إن كانت تريد شراباً، فقالت لي: «يبدو لي أني أبصر هنا برتقالاً وماء. فالأمر على ما يرام». وأمكنني هكذا أن أتذوّق إلى جانب قبلاتها، تلك البرودة التي كانت تبدو لي وكأنما تفوقها في منزل الأميرة «دو غيرمانت». كان يبدو أن البرتقالة المعصورة في الماء تحمل إليّ شيئاً فشيئاً، كلما مضيت في الشراب، حياة نضجها الخفيّة وتأثيرها الطيّب على بعض حالات هذا الجسم الإنساني الذي ينتمي إلى مملكة مختلفة إلى حدّ بعيد وعجزها عن إحيائه، وفي المقابل صنوف الريّ التي يمكن أن تخدمه بها، ومئة سرّ كشفتها الثمرة لإحساسي وليس لعقلي.

بعدما ذهبت «ألبيرتين» تذكّرتُ أني وعدت «سوان» بأن أكتب لـ«جيلبيرت» ورأيت قدراً أكبر من الكياسة في أن أفعل في الحال. وكان أن خططت على المظروف اسم «جيبليرت سوان»، وكنت أغطي به فيما مضى دفاتري لأوهم نفسي بتبادل الرسائل وإياها، ففعلت دونما تأثر وكأنما أخط آخر سطر في وظيفة مدرسية مملّة. ذلك لأني إن كنت أنا من يكتب بالأمس ذاك الاسم فإن المهمة الآن قد عَهِدَتْ بها العادة إلى واحد من أمناء السرّ الكثيرين الذين تتّخذهم. كان بمقدور هذا الأخير أن يخط اسم «جيلبيرت» بهدوء ويزيد منه أنه، لمّا وضعته العادة عندي منذ وقت قريب وأدخل مؤخراً في خدمتي، لم يكن عرف «جيلبيرت» وهو يعلم فحسب أنها فتاة كنت عاشقاً لها، دون أن يبطّن هذه الكلمات بأيّ واقع، لأنه سمعني أتحدّث عنها.

ما كان بوسعي أن أتّهمه بالجفاف، فالشخص الذي كنته الآن إزاءها كان أفضل «شاهد» اختير ليفهم ما سبق أن كانته هي. فقد أضحت المحفظة وكرة العقيق في نظري إزاء «ألبيرتين» ما سبق أن كانتا في نظر «جيلبيرت» وما لعلهما كانتا بالنسبة إلى أي شخص لم يرسل على صفحتهما وهج حبّ داخلي. إلا أن اضطراباً كان يداخلني الآن ويشوّه بدوره القوة الحقيقية للأشياء والكلمات. وإذ كانت «ألبيرتين» تقول لي، كيما تشكرني أيضاً: «كم أحبّ حجارة الفيروز!» أجبتها قائلاً: «لا تدعي

هذه تموت»، وأنا أستودعها هكذا كما أفعل مع حجارة، مستقبل صداقتنا التي لم تكن أكثر قدرة على الإيحاء لـ«ألبيرتين» بشعور معيّن مما سبق أن كانت للحفاظ على العاطفة التي كانت تجمعني بـ«جيلبيرت» فيما مضى.

وقد برزت في تلك الفترة ظاهرة لا تستحقّ الذكر إلا لأننا نلقاها في حقب التاريخ الهامّة كافّة. ففي اللحظة ذاتها التي كنت أكتب فيها لـ«جيلبيرت» كان السيد «دو غيرمانت» يفكّر، وهو بعد عائد من الحفلة الراقصة ولا يزال يعتمر خوذته، أنه سيضطرّ في الغد إلى لبس الحداد رسمياً، فقرّر تقديم موعد الاستشفاء بالحمّة الذي كان عازماً على القيام به ثمانية أيام. وحينما عاد منه بعد ثلاثة أسابيع (واستباقاً للأمور بما أنني أنهيت منذ قليل فقط رسالتي لـ«جيلبيرت») كان أن عقدت الدهشة ألسنة أصدقاء الدوق الذين سبق لهم أن رأوه، وهو في البداية شديد اللامبالاة، ينقلب مناهضاً شرساً لـ«دريفوس»، حينما سمعوه يجيبهم (وكأنما لم يفعل الاستشفاء فعله في المثانة فحسب): «حسن! سوف يعاد النظر في الدعوى وتعلَن براءته، فليس يمكن الحكم على رجل غير مطلوب في أمر. هل رأيتم قط خَرِفاً على شاكلة «فروبيرفيل»؟ هذا ضابط يُعِدّ الفرنسيين للمذبحة (ويقصد الحرب). وما أغربه عصر هذا! وإن الدوق «غيرمانت» كان تعرّف في منطقة المياه في تلك الأثناء إلى ثلاث سيّدات فاتنات (أميرة إيطالية وشقيقتي زوجها). فإذا سمعهنّ الدوق يقلن بضع كلمات حول الكتب التي يقرأنها ومسرحية يجري تمثيلها في الكازينو أدرك في الحال أنه يتعامل مع نساء رفيعات الثقافة وأنه لم يكن معهن، كما يقول، في موقع قوة. وقد ازداد من جرّاء ذلك سعادة أن دعته الأميرة للعب البريدج. ولكنه ما إن وصل إلى منزلها، وإذ كان يقول لها في حماسة مشاعره المعادية لـ«دريفوس» عُداء قاطعاً: «عجباً، ما عادوا يحدثوننا عن إعادة النظر في قضية «دريفوس» الذائع الصيت»، حتى تعاظمت دهشته لدى سماعه الأميرة وشقيقتي زوجها يقلن: «ما كانوا في يوم بمثل قربهم من ذلك، فلا يمكن الاحتفاظ بمن لم يفعل شيئاً في السجن». وتمتم الدوق بادئ الأمر

قائلاً: «ماذا؟ ماذا؟» كأنما لدى اكتشاف لقب غريب يستخدم في هذا المنزل للاستهزاء بشخص خَالَهُ حتى ذاك ذكياً. ولكن الدوق بعد عدّة أيام، ومثلما يصرخون من جبن وروح تقليد قائلين دون أن يعرفوا السبب: «هيه، يا «جوجوت»!» لفنّان كبير يسمعون من يطلق عليه هذه التسمية في هذا المنزل، كان يقول، ولا يزال مرتبكاً جداً جرّاء العادة الجديدة: «بالفعل، إن لم يكن اقترف ذنباً». كانت السيدات الفاتنات الثلاث يرين أنه لا يتقدم بسرعة كافية ويعنّفنه بعض الشيء: «ولكن ما من شخص ذكي في الأساس استطاع أن يظنّ ثمة شيئاً». وفي كل مرّة تجري فيها واقعة «دافعة» ضدّ «دريفوس» ويمضي الدوق لينقل إليهنّ الخبر ظناً منه أن ذلك سيردّ للطريق القويم السيدات الثلاث الفاتنات، كنّ يضحكن كثيراً ولا يجدن مشقّة في أن يبرهنّ له برهافة كبيرة في الجدل أن الحجة غير ذات بال ومضحكة تماماً. وقد عاد الدوق إلى باريس مناصراً مهووساً بـ«دريفوس». نحن لا نزعم بالتأكيد أن السيدات الفاتنات الثلاث لم يكنّ في هذه الحالة رسولات حقيقيات. ولكنّما يجب أن نلاحظ أنه يتّفق في كلّ عشر سنوات، بعدما تركنا رجلاً تعمر صدره قناعة حقيقية، أن يدخل في صحبته زوجان ذكيّان أو سيدة فاتنة وحيدة وأن يصار به بعد انقضاء بضعة شهور إلى آراء مناقضة. وثمة الكثير من البلدان تتصرّف تصرّف الرجل الصادق بصدد هذه النقطة، الكثير من البلدان التي تركناها تعمر ديارها الكراهية لشعب والتي غيّرت بعد ستة أشهر من مشاعرها وقلبت أحلافها.

ما عدت رأيت «ألبيرتين» بعض الوقت ولكني واظبت، في غياب السيدة «دو غيرمانت» التي لم تعد تحرّك خيالي، على زيارة فاتنات أخريات ومساكنهنّ وهي لا تنفصل عنهنّ مثلما لا ينفصل الصفق الذي من صدف أو مينا أو برج الصَّدفة المحزّز عن الرخوية التي صنعته وتحتمي في داخله. ولعلني ما كنت أستطيع تصنيف تلك السيدات، فصعوبة المسألة ناجمة عن أنها تافهة بقدر ما يستحيل حلّها، ناهيك عن طرحها. كان لا

بدّ قبل السيدة من الوصول إلى الفندق الساحر. وبما أن إحداهن تستقبل كل يوم بعد الغداء على مدى أشهر الصيف كان لا بدّ، حتى قبل الوصول إلى منزلها، من إنزال غطاء العربة لشدّة ما تسقع الشمس التي سوف تداخل ذكراها، دون أن أكون انتبهت للأمر، الانطباع الكلي. كنت أظن فقط أنني ذاهب إلى «كور لارين»، فيما أحسّ في الواقع قبلما أصل إلى الاجتماع الذي ربما كان سخر منه رجل عملي، أحسّ مثلما في رحلة عبر إيطاليا، بانبهار وبملاذّ لن ينفصل الفندق عنها من بعد في ذاكرتي. أضف أن السيدة، بسبب الحرّ الناجم عن الفصل والساعة، كانت قد أحكمت إغلاق المصاريع في صالات الطابق الأرضي المستطيلة الفسيحة حيث يجري استقبالها. كنت بادئ الأمر لا أتعرف تماماً ربة المنزل وزوّارها وحتى الدوقة «دو غيرمانت» التي كانت تطلب إليّ بصوتها الأجش المجيء للجلوس بجانبها في مقعد منجّد بقماش «بوفيه» يمثّل «**اختطاف أوروبا**». ثم أبصرت على الجدران السجاد السندسي الواسع الذي من القرن الثامن عشر ويمثّل سفناً بصوار تزهر عليها ورود الخطمى، ووجدتني تحتها وكأني لا في قصر «السين» بل في قصر «نبتون» على ضفة نهر أوقيانوس حيث تنقلب الدوقة «دو غيرمانت» وكأنها واحدة من آلهات المياه. ولو عددت جميع القصور المختلفة عن هذا لما انتهيت. والمثال كافٍ ليُظهر أني كنت أضمّن أحكامي المجتمعية انطباعات شعرية ما كنت أدخلها البتّة في الحسبان حينما أقوم بالجمع حتى أني حينما كنت أحسب فضائل إحدى الصالات لم يكن جمعي صحيحاً البتّة.

أجل لم تكن أسباب الخطأ تلك هي الوحيدة ولكنّما لا يتّسع الوقت من بعد، قبل سفري إلى «بالبيك» (حيث سأقضي لسوء حظي، فترة ثانية سوف تكون الأخيرة أيضاً)، كيما أبدأ برسم لوحات للناس سوف تجد مكاناً لها بعد هذا بكثير. دعنا نقول فقط إن «أوديت» كان يمكن أن تضيف إلى هذا السبب الأول الكاذب (حياتي الطائشة نسبياً والتي تقود إلى افتراض حبّ أمور الدنيا) لتسطير رسالتي لـ«جيلبيرت» وما يبدو أنه يشير

إلى عودة إلى عائلة «سوان»، سبباً ثانياً هو كالأول غير صحيح. وإني لم أتخيّل حتى الآن الوجوه المختلفة التي يتخذها العالم بالنسبة إلى الشخص نفسه إلا بافتراض أن العالم لا يتغير: فإن يتّفق للسيدة نفسها التي ما كانت تعرف أحداً ارتياد مطارح كلّ الناس فيما تُهْجَر سيدة أخرى كانت تملك موقعاً أساسياً استهوانا أن لا نرى في ذلك سوى تقلّبات محض شخصية من صعود وهبوط تفضي بين حين وآخر وفي ذات المجتمع على إثر مضاربات في البورصة إلى سقوط مدوٍّ أو إثراء يجاوز الآمال. بيد أن الأمر ليس هذا فحسب، إذ تبدو التظاهرات المجتمعية (وهي أدنى كثيراً من الحركات الفنية والأزمات السياسية والتطور الذي يحوّل الذوق العام وجهة المسرح الفكري، ثم إلى الرسم الانطباعي، ثم إلى الموسيقى الألمانية والمعقّدة ثم إلى الموسيقى الروسية والبسيطة، أو وجهة الأفكار الاجتماعية وأفكار العدالة والردّة الدينية والانتفاضة الوطنية) انعكاساً لها بعيداً مهشّماً غامضاً مضطرباً متغيراً. حتى الصالونات إذاً لا يمكن وصفها في جمود ساكن استطاع حتى الآن أن يناسب دراسة الطباع التي ينبغي لها هي الأخرى أن تنساق في حركة شبه تاريخية. إن حبّ الجديد الذي يدفع رجال المجتمع، ممّن يتعشّقون بصدق كثير أو قليل الاطلاع على التطور الفكري، إلى التردد على الأوساط التي يستطيعون أن يتابعوا فيها ذاك التطور، يجعلهم يفضّلون عادة ربة منزل مجهولة حتى ذاك وتمثل آمالاً لا تزال يانعة تماماً في ذهنية متفوّقة، آمالاً ذبلت وبهتت لدى النساء اللواتي زاولن منذ فترة طويلة السلطة المجتمعية واللواتي يعرفون نقاط القوة والضعف لديهنّ فلا يثرنَ من بعد خيالهم. وهكذا تجد كل عصر مشخّصاً في نساء جديدات، في جماعة جديدة من النساء اللواتي يبدين، بارتباطهنّ الوثيق بكلّ ما يستثير صنوف الفضول الأكثر جدّة، وكأنهن بأثوابهن يظهرن في تلك الفترة فقط بمثابة جنس مجهول نجم عن آخر طوفان، ونساء ذوات جمال لا يقاوم في كل فترة «قنصليّة» جديدة وكل فترة «مديرين» جديدة. لكنّ ربّات المنازل الجديدة ما هنّ في الغالب، شأن بعض رجال دولة في

أول وزارة لهم، وهم كانوا منذ أربعين عاماً يقرعون جميع الأبواب دون أن تُفتح لهم، سوى نساء ما كنّ معروفات في المجتمع ولكنّهن يستقبلن مع ذلك منذ زمن طويل بعض «الخلّص القليلين» لغياب الحلّ الأفضل. ليست الحال بالطبع كذلك على الدوام، فحينما ظهرت، مع الازدهار الهائل الذي شهدته فرق الباليه الروسية والذي أبرز على التوالي «باكست» و«نيجنسكي» و«بونوا» وعبقرية «سترافنسكي»، حينما ظهرت الأميرة «يوربيليتييف»، العرّابة الشابة لسائر هؤلاء الرجال العظام الجدد، تضع على رأسها ضمّة ريش واسعة خفّاقة لا تعرفها الباريسيات وحاولن كلهنّ تقليدها، أمكن الظن بأن هذه المخلوقة الرائعة قد جاء بها الراقصون الروس في أمتعتهم التي لا تحصى وكأنما هي أثمن كنز لديهم. ولكنّنا حينما سنبصر إلى جانبها، في مقدمة المسرح وفي سائر عروض «الروس»، السيدة «فيردوران» تجلس مثل جنيّة حقيقية وهي مجهولة حتى هذا اليوم من جانب الأرستقراطية فسيمكننا أن نجيب الجماعات الراقية التي ستظن بيسر أن السيدة «فيردوران» قد وصلت منذ فترة قريبة مع فرقة «دياغيليف»، نجيبها أن هذه السيدة سبق أن وجدت في أزمنة مختلفة ومرّت بتحولات مختلفة لا يمتاز عنها هذا التحول إلا بأنه الأول الذي يحمل إليها أخيراً النجاح الذي طالما انتظرته «المعلّمة» وعبثاً فعلت، وقد أصبح منذ الآن مؤكداً يسير متسارع الخطى. أما في ما يخص السيدة «سوان» فالصحيح أن الجدّة التي كانت تمثّلها لم تكن تتّسم بالطابع الجماعي نفسه. فقد تبلورت صالتها حول رجل، رجل على شفا الموت انتقل دفعة واحدة تقريباً، في اللحظات التي اسْتُنْفِدَتْ فيها موهبته، من العتمة إلى قمة المجد. لقد كان التهافت على آثار «بيرغوت» عظيماً لا حدّ له. كان يمضي كامل نهاره في الصدارة في منزل السيدة «سوان» التي كانت تهمس في أذن رجل ذي نفوذ: «سوف أكلمه وسيجهّز لك مقالة». لقد كان بأية حال قادراً على فعل ذلك وحتى على مشهد صغير للسيدة «سوان». كانت صحّته أقل سوءاً، وهو أقرب إلى الموت، منها في الفترة التي كان يجيء فيها مستطلعاً أخبار

جدّتي. ذلك لأن آلاماً جسدية كبيرة فرضت عليه الحمية؛ والمرض أكثر من يُصغى إليه من الأطباء: فالمرء إزاء الطيبة والمعرفة لا يتوقّف عن الوعود ولكنه يطبع الألم.

صحيح أن عشيرة آل «فيردوران» الصغيرة كان لها الآن اهتمام حيّ يختلف عما كانت عليه الصالة ذات النزعة القومية بعض الشيء، بل الأدبية إلى ذلك والبيرغوتية قبل كلّ شيء. فقد كانت العشيرة الصغيرة مركزاً نشطاً لأزمة سياسية طويلة بلغت أقصى شدّتها، عنينا «الدريفوسيّة». ولكنّ أهل المجتمعات كانوا في غالبيتهم معارضين لإعادة النظر في الدعوى إلى حدّ تبدو معه الصالة الدريفوسية شيئاً بمثل استحالة صالة تساند «الكومونه» في عصر آخر. صحيح أن الأميرة «دو كابرارولا» التي سبق أن تعرّفت إلى السيدة «فيردوران» بمناسبة معرض كبير نظّمته قد قامت بزيارة طويلة لهذه الأخيرة أملاً في إغواء بعض العناصر من ظرفاء العشيرة الصغيرة وفي ضمّهم لصالتها الخاصة، زيارة اتّخذت الأميرة في غضونها (مؤدّية بذلك دوراً مصغّراً لأمثال الدوقة «دو غيرمانت») عكس الآراء الشائعة، وأعلنت أن من يؤلفون عالمها أغبياء، وقد رأت السيدة «فيردوران» في ذلك شجاعة كبيرة. ولكنّما لم تبلغ بها تلك الشجاعة فيما بعد حدّ التجرؤ على تحية السيدة «فيردوران» في ميدان سباق «بالبيك» بمواجهة سهام تنطلق من ألحاظ سيدات قوميات. أما في ما يخص السيدة «سوان» فقد كان مناهضو «دريفوس» يقرّون على العكس بفضلها أن تكون «مستقيمة الرأي» وأن لها بذلك، وهي زوجة ليهودي، فضلاً مزدوجاً. ومع ذلك فالذين لم يسبق لهم أن ذهبوا مرة إلى منزلها كانوا يتخيلون أنها تستقبل فحسب بعض اليهود المغمورين وتلاميذ لـ«بيرغوت». ويصنّفون على هذا النحو نساء يتمتّعن بكفاءات أرفع من السيدة «سوان» في آخر درجة من السلّم الاجتماعي إما بسبب منبتهنّ، وإما لأنهن لم يملن إلى الأعشية في المدينة والأمسيات التي لا يُشاهَدْنَ فيها البتّة، والأمر يظنونه خطأً ناجماً عن أنهنّ ربما لم يدعين، وإما لأنهن لا يتحدّثن البتّة عن صداقاتهنّ المجتمعية بل

يقتصرن على الأدب والفن، وإما لأن الناس يطلبون الخفية لارتياد منازلهنّ أو يبتغون الخفية لاستقبالهنّ كي لا يرتكبوا وقاحة إزاء الآخرين، وأخيراً لألف من الأسباب تجعل في النهاية من هذه أو تلك من بينهنّ في نظر بعض منهم المرأة التي لا يستقبلونها. تلك كانت الحال بالنسبة إلى «أوديت». ولمّا وقع للسيدة «ديبينوا»، بمناسبة دفعة كانت ترغب في تأديتها لرابطة «الوطن الفرنسي»، أن تذهب لزيارتها، كما لو أنها تتدخل إلى دكّان عقّادتها، وهي بأي حال على يقين من أنها لن تلقى سوى وجوه هي حتى غير محترقة ولكنّها مجهولة، لبثت مُسَمّرة في مكانها حينما انفتح الباب لأعلى الصالة التي كانت تفترضها بل على قاعة سحرية تعرّفت فيها، وكأنما بفضل تبدّل يتمّ حين الطلب في مشهد سحريّ، تعرّفت عبر ممثلات صامتات فاتنات، صاحبات السموّ والدوقات نصف ممدّدات على دواوين، جالسات على كنبات، ينادين على ربة المنزل باسمها، هنّ اللواتي كانت تصادف هي نفسها، أميرة «ديبينوا»، عنتاً عظيماً في اجتذابهن إلى منزلها واللواتي كان المركيز «دي لو» والكونت «لويس دو تورين» والأمير «بورغيز» والدوق «ديستريه»، وهم يحملون شراب البرتقال ومحمّصات الحلوى، يقومون في هذه اللحظة لديهن مقام حمّالي الخبز والسقاة. ولمّا كانت الأميرة «ديبينوا» تضع، دونما انتباه للأمر، الصفة المجتمعية في داخل الأشخاص فقد اضطرّت أن تنزع عن السيدة «سوان» مظهرها الجسماني وتعيد تجسيدها في امرأة أنيقة. وهكذا يلقي الجهل بالحياة الحقيقية التي تحياها نساء لا يعرضنها في الصحف حجاباً من الأسرار فوق بعض الحالات (مسهماً بذلك في تنويع الصالات). فإنه في ما يخص «أوديت» أقبل بادئ الأمر بضعة رجال من أرقى طبقات المجتمع للعشاء في منزلها في جوّ حميم وبهم توق إلى التعرف بـ«بيرغوت». وقد أبدت من حسن الذوق الذي اكتسبته مؤخراً ما حال دون أن تنشر الأمر على الملأ. هنا كانوا يجدون المائدة ممدودة - والأمر ربما يذكّر بالنواة الصغيرة التي حافظت «أوديت» منذ الانشقاق على تقاليدها. كانت

«أوديت» تمضي بهم بصحبة «بيرغوت» إلى «العروض الأولى» المثيرة - وهو ما كان يوجّه له في النهاية الضربة القاضية. وحكوا عنها لبعض نساء من محيطهم قادرات على صرف انتباههن إلى هذا القدر من الجدّة. كنّ متيقّنات أن «أوديت»، وهي في سرّ «بيرغوت»، ساهمت في كثير أو قليل في مؤلفاته ويظننها أذكى ألف مرة من أبرز نساء «الضاحية» للسبب نفسه الذي من أجله يعلّقن كامل آمالهنّ السياسية على بعض الجمهوريّين «الثابتي اللون» من أمثال السيد «دومر» والسيد «ديشاتيل»، فيما يرين فرنسا في الدرك إن عُهِدَ بها إلى الجماعة الملكية التي يستقبلنها على العشاء من أمثال «شاريت» و«دودوفيل»، إلخ. هذا التبدّل في وضع «أوديت» كان يُنْجَزُ من جانبها بتكتّم يجعله مؤكداً أكثر وأكثر سرعة ولكنّه لا يفسح للجمهور أن يرتاب بأمره، الجمهور الميّال إلى الاتكال بشأن تقدّم صالة أو انحطاطها على أنباء صحيفة «**الغولوا**» حتى كانت ذات يوم، في عرض تمهيدي لمسرحية لـ«بيرغوت» جرى في قاعة من أكثرها أناقة لصالح أحد الأعمال الخيرية، مفاجأة حقيقية حينما شهدوا في المقصورة المواجهة، وكانت مقصورة المؤلّف، السيدة «دو مارسانت» تُقْبِلُ وتجلس بجانب السيدة «سوان» ومعها تلك التي كانت في سبيلها لتصبح اللبؤة وملكة العصر، الكونتيسة «موليه»، وذلك من جرّاء التنحّي التدريجي للدوقة «دو غيرمانت» (التي أُشبعت تكريماً وقضت على نفسها عن طريق الجهد الأقل). «حين كنا حتى لا نرتاب بأنها باشرت دربها الصاعد» يقولون فيما بينهم عن «أوديت» إذ يشاهدون الكونتيسة «موليه» في المقصورة، «لقد اجتازت آخر درجة». وكان بوسع السيدة «سوان» حتى أن تعتقد أني كنت أتقرب من ابنتها بدافع التحذلق. وعلى الرغم من صديقات أوديت» المتألقات فإنها لم تكن أقل إصغاء للمسرحية وبانتباه شديد كما لو أنها كانت هناك لمجرّد أن تسمعها، مثلما كانت تجتاز بالأمس «الغابة» لداعٍ صحّي ولإجراء التمارين - وإذا برجال، وكانوا بالأمس أقل استعجالاً من حولها، يقبلون إلى «البلكون» وهم يزعجون الجميع ليتعلّقوا بيدها بغية

الاقتراب من الوسط المهيب الذي يحيط بها. أما هي فكانت تجيب بابتسامة لا تزال أقرب بالأحرى إلى اللطف منها إلى السخرية، تجيب بطول أناة عن أسئلتهم وتتصنّع هدوءاً يفوق ما لعلّهم كانوا يظنون وربما كان صادقاً إذ لا يعدو هذا العرض المتباهي كونه عرضاً متأخراً لألفة معتادة أبقيت طيّ الكتمان. كان وراء هاتيك السيدات الثلاث اللائي يجتذبن الأنظار كلها «بيرغوت» يحيط به أمير «أغريجانت» والكونت «لويس دو تورين» والمركيز «دو بريوتيه». ومن اليسير، بالنسبة إلى رجال كانوا موضع ترحيب في كلّ مكان ولا يمكن أن يتوقعوا ازدياداً في الرفعة إلا من البحث عن المُبتكَر، أن ندرك أن هذا الإبراز لقيمتهم والذي يظنون أنهم يقومون به إذ يفسحون المجال لتجتذبهم ربة منزل اشتهرت بمستواها الفكري الرفيع ويتوقعون أن يلتقوا عندها سائر المؤلفين المسرحيين والروائيين الرائجين إنما كان أشدّ إثارة وحيوية من تلك الأمسيات في منزل الأميرة «دو غيرمانت» والتي كانت تتوالى منذ سنوات كثيرة دون أي برنامج أو جاذب جديد، وهي شبيهة في كثير أو قليل بهذه التي أقدمنا على وصفها وصفاً مفصّلاً. وفي هذا العالم الكبير، عالم آل «غيرمانت» الذي كان الفضول يُعْرِضُ عنه قليلاً، لم تكن الصيغ الفكرية الجديدة تتجسّد تسليات على صورتهم ومثالهم، كما في هذه المقطوعات الشعرية الخفيفة التي يكتبها «بيرغوت» للسيدة «سوان»، وكما في جلسات «الإنقاذ العام» الحقيقية التي يجتمع فيها في منزل السيدة «فيردوران» «بيكار» و«كليمنصو» و«زولا» و«ريناك» و«لابوري» (لو كان وسع العالم أن يهتمّ بقضية «دريفوس»).

كانت «جيلبيرت» ذات فائدة كذلك في أوضاع والدتها، فإن عمّاً لـ«سوان» خلّف منذ قليل للفتاة زهاء ثمانين مليون فرنك، الأمر الذي جعل ضاحية «سان جيرمان» يشرع في التفكير فيها. أمّا قفا الميدالية فإن «سان»، وهو مشرف على الموت بأي حال، كان يجهر بآراء مناصرة لـ«دريفوس»، ولكنّ ذلك ما كان يمسّ زوجته بل كان يخدم مصلحتها. وما كان الأمر

يمسّها إذ كانوا يقولون: «إنه خرف غبيّ ولا يهتمّ أحد به وليس ثمة سوى زوجته يحسب حسابها وهي رائعة». حتى نزعة «سوان» الدريفوسية كانت مفيدة لـ«أوديت». فلعلّها كانت سمحت لنفسها، لو تُركت كما تريد، أن تقوم بمحاولات تقرّبٍ من النساء الأنيقات تقودها إلى التهلكة. ففي العشيّات التي كانت تجرّ فيها زوجها للعشاء في ضاحية «سان جيرمان»، كان «سوان»، وهو قابع بعنف في زاويته، لا يجد حرجاً، أن رأى «أوديت»، تطلب تعريفها بسيدة قومية النزعة، في أن يقول بصوت عالٍ: «ويحك يا «أوديت»، إنك مجنونة، ورجائي أن تحافظي على هدوئك. فإنما تفاهة منك أن تطلبي تعريفك بمناهضين للسامية. إني أمنعك من ذلك». وجماعة المجتمع الراقي التي يلهث الكل خلفها لم تتعود لا هذا القدر من العزّة ولا هذا القدر من سوء التهذيب، فهي تشهد للمرة الأولى شخصاً يظن نفسه «أكثر منهم». كانوا يتناقلون غمغمات «سوان» تلك فتنهال البطاقات على منزل «أوديت». وحينما تكون هذه في زيارة إلى منزل السيدة «دارباجون» تقوم حركة نشطة محبّبة يثيرها الفضول. كانت السيدة «دارباجون» تقول: «لم يزعجك أنني عرّفتك بها. إنها لطيفة جداً. «ماري مارسانت» هي التي عرّفتني بها» - «بالطبع لا، بالعكس، ويبدو أنها من أكثرهنّ ذكاء، وهي رائعة. كنت أرغب على العكس لقاءها؛ هيّا قولي لي أين تسكن». كانت السيدة «دارباجون» تقول للسيدة «سوان» إنها وجدت أعظم التسلية لديها قبل البارحة وقد هجرت بسرور السيدة «دو سانت اوفيرت» من أجلها. وكان ذلك صحيحاً لأن تفضيل السيدة «سوان» إنما تبدي به أنك ذكي مثلما ذهابك إلى حفلة موسيقية بدلاً من الذهاب إلى حفلة شاي. ولكن حينما كانت السيدة «دو سانت اوفيرت» تجيء إلى منزل السيدة «دارباجون» ساعة مجيء «أوديت»، ولمّا كانت السيدة «دو سانت اوفيرت» على قدر من التحذلق كبير وكانت السيدة «دارباجون» حريصة على حفلات استقبالها مع أنها تعاملها ببعض الاستعلاء، لم تكن السيدة «دارباجون» تعرّف بـ«أوديت» كي لا تعلم السيدة «دو سانت اوفيرت» من

عساها تكون. كانت المركيزة تتصوّر أنها لا بدّ أميرة ما نادرة الزيارات كي لا تكون شاهدتها في يوم، فتطيل من زيارتها وتردّ ردّاً غير مباشر على ما تقوله «أوديت»، ولكن السيدة «دارباجون» ظلّت لا تلين. وحينما تمضي السيدة «دو سانت اوفيرت» وقد غُلبت على أمرها كانت سيدة المنزل تقول لـ«أوديت»: «لم أقدّمك لأنهم لا يودّون كثيراً الذهاب إلى منزلها وهي كثيرة الدعوات وما كنتِ ربما تستطيعين التخلص منها». فتقول «أوديت» بشيء من الأسف: «آه! لا أهمية لذلك». ولكنّها كانت تحتفظ بالفكرة التي مفادها أنهم لا يودّون ارتياد منزل السيدة «دو سانتوفيرت»، والأمر صحيح إلى حدّ ما، فتستخلص من ذلك أنها تتمتّع بموقع يفوق كثيراً موقع السيدة «دو سانت اوفيرت» مع أن هذه الأخيرة تملك موقعاً عظيماً جداً ولا تملك «أوديت» شيئاً منه.

ولم تكن تنتبه للأمر، ومع أن صديقات السيدة «دو غيرمانت» كافّة كنّ يرتبطن بصداقة مع السيدة «دارباجون»، فإنه حينما كانت هذه الأخيرة تدعو السيدة «سوان» كانت «أوديت» تقول بلهجة المُتَحَسّب: «إني ذاهبة إلى منزل السيدة «دارباجون»، ولكنّما ستلقونني من نمط قديم جداً، والأمر يصدمني بسبب السيدة «دو غيرمانت» (التي ما كانت تعرفها على أي حال). كان الرجال اللامعون يظنون أن معرفة السيدة «سوان» لعدد قليل من عالم المجتمع الراقي مردّها أنها لا بدّ كانت امرأة متفوّقة وربما كانت موسيقية عظيمة وأنه لضرب من الألقاب التي من خارج المجتمع الراقي أن يذهب المرء إلى منزلها، كما هو بالنسبة إلى دوق يحمل دكتوراه في العلوم. أمّا النساء العديمات الكفاءة تماماً فكان يجذبهنّ إلى «أوديت» سبب معاكس. فقد كنّ يستخلصن، وقد علمن أنها تذهب إلى حفلات «كولون» الموسيقية وتعلن أنها من أنصار «فاغنر»، أنها لا بدّ «مهرّجة» فتستثيرهنّ إلى ابعد حدّ فكرة التعرّف إليها. ولكنّهن يخشين، وهنّ قليلات الوثوق بوضعهنّ الخاص، أن يتعرّضن للشبهة علانية لمّا يبدو أنهن يرتبطن بـ«أوديت»، فإن شاهدن السيدة «سوان» في حفلة موسيقية خيرية أشحن

بأبصارهنّ إذ يرين من المستحيل إلقاء التحية تحت سمع السيدة «دو روشوشوار» وبصرها على امرأة بمقدورها تماماً أن تكون ذهبت إلى «بايروت» - وذلك يعني ارتكاب «السبعة وما بذمّتها».

كان كلّ شخص في زيارة لدى آخر يضحي مختلفاً. فقد كان السيد «دو بريوتيه»، بصرف النظر عن التحوّلات الخارقة التي تجري على هذا النحو لدى الجنيّات، وقد برز فجأة من جرّاء غياب الناس الذين يحيطون به عادة، ومن جرّاء الهيئة الراضية التي يتّخذها إذ يلفي نفسه هنا في مثل حُسْنِ حاله لو وضع نظارتيه المستديرتين ليختلي في قراءة **«مجلة العالَمين»** بدلاً من الذهاب إلى حفلة، ومن جرّاء الطقس الغامض الذي يبدو أنه يمارسه في مجيئه لزيارة «أوديت»، كان السيد «دو بريوتيه» نفسه في صالة السيدة «سوان» إنساناً جديداً. ولعلّني كنت أعطي الكثير لأرى صنوف التحول التي كانت أصابت الدوقة «دو مونمورانسي - لوكسمبور» في هذا الوسط الجديد. ولكنّها كانت من قوم لا إمكان البتّة في تعريف «أوديت» بهم. كانت السيدة «دو مونمورانسي»، وهي أكثر تسامحاً إزاء «أوريان» من هذه إزاءها، تدهشني كثيراً إذ تقول لي بشأن السيدة «دو غيرمانت»: «إنها تعرف أناساً ظرفاء والجميع يحبونها وأعتقد أنها لو اتّفق لها قدر أكبر من المثابرة لأفلحت في أن تكون لها صالة. والحقيقة أنها ما كانت حريصة على ذلك، وهي على حقّ، فهي سعيدة على هذا النحو إذ يسعى الجميع إليها». إن لم يكن لدى السيدة «دو غيرمانت» «صالة» فما عسى أن تكون «الصالة» إذاً؟ ولم تكن الدهشة التي خلّفتني فيها تلك الكلمات أكبر من تلك التي سبّبتها للسيدة «دو غيرمانت» وأنا أقول لها إني كنت أودّ كثيراً الذهاب إلى منزل السيدة «دو مونمورانسي»، فقد كانت «أوريان» ترى أنها عجوز بلهاء وتقول: «أما أنا فمرغمة على ذلك فهي عمّتي، أما أنت! إنها حتى لا تعرف كيف تستقطب الناس الظرفاء». وما كانت السيدة «دو غيرمانت» تنتبه إلى أن الناس الظرفاء ما كانوا يحرّكون فيّ ساكناً وأني حينما كانت تقول لي «صالة أرباجون» كنت أرى فراشة صفراء، أو «صالة

صوان» (وكانت السيدة «سوان» في منزلها شتاءً من السادسة إلى السابعة) ففراشة سوداء يبطّن جناحيها الثلج. مع أن هذه الصالة الأخيرة، وما هي من الصالة بشيء، إنما كانت ترى فيها، على الرغم من كونها بعيدة المنال بالنسبة إليها، عذراً لي بسبب «جماعة الظرفاء» أما السيدة «دو لوكسمبور»! فلعلّها كانت خَلصتْ، لو سبق أن «أنتجت» شيئاً لفت الأنظار، إلى أن شيئاً من التحذلق يمكن أن يقترن بالموهبة. وبلغت بخيبتها أقصى حدّ لها فأقرت أني ما كنت أمضي إلى منزل السيدة «دو مونمورانسي» (حسبما تظن) من أجل «تدوين ملاحظات» و«القيام ببحث». وما كانت السيدة «دو غيرمانت» بأي حال على خطأ أكثر من روائيّي «المجتمع الراقي الذين يحلّلون من الخارج أفعال متحذلقٍ ما أو ما يزعمون أنه كذلك تحليلاً قاسياً، ولكنّهم لا يقيمون البتّة داخله، في الوقت الذي يزهر فيه في المخيّلة ربيع اجتماعي كامل. حتى أنا أصبت بشيء من الخيبة حينما أردت أن أعلم أية متعة كبيرة إلى هذا الحدّ كنت أصيب من ذهابي إلى منزل السيدة «دو مونمورانسي». فقد كانت تقطن، في ضاحية «سان جيرمان»، مسكناً قديماً مليئاً بأجنحة تفصل بينها حدائق صغيرة. وكان تحت القبّة تمثال صغير، يقولون من أعمال «فالكونيه»، يمثّل نبعاً تتقطّر منه، على أي حال، رطوبة دائمة. وعلى مسافة قليلة منه كانت البوابة بجمر عينيها الدائم إما من غمّ أو وهن عصبي أو شقيقة أو رشح، ولا تجيبك البتّة بل تقوم بإشارة غامضة تنبئ بأن الدوقة موجودة وتدع لبضع قطرات أن تتساقط من جفنيها فوق كأس مليء بزهر «لاتنسني». كانت المتعة التي أصيبها من مشاهدة التمثال الصغير، لما يذكّرني ببستانيّ صغير من الجبس كان قائماً في إحدى حدائق «كومبريه»، هيّنة لا تذكر في مقابل ما يبعثه فيه من متعة الدرج الكبير الرطب الداوي المليء بالأصداء الشبيه بدرج بعض منشآت الحمّامات القديمة ذات المزهريات المليئة بزهر الرمادي - زرقة فوق زرقة - في الردهة، وعلى وجه الخصوص رنين الجرس الصغير الذي يشبه بالضبط رنين المنبعث من غرفة «أولالي». كان

ذلك الرنين يبلغ بي أقصى درجات الحماسة ولكنّما يبدو لي أكثر تواضعاً من أن أستطيع إيضاحه للسيدة «دو مونمورانسي»، إلى حدّ أن تلك السيدة كانت تراني دوماً في نشوة لم تكتشف في يوم سببها.

تقلبات الفؤاد

كان حلولي الثاني في «بالبيك» مختلفاً عن الأول، فقد جاء المدير شخصياً ينتظرني في «بونتا كولوفر» وهو يردّد كم كان حريصاً على زبائنه «الملقّبين»، الأمر الذي جعلني أخشى أن يضعني في طبقة الأشراف إلى أن أدركت أن «الملقّب» كان يعني في عتمة ذاكرته القواعدية «الرسمي». لقد كان على أية حال كما تعلّم لغات جديدة ازداد تحدّثه بالقديمة سوءاً. وقد بلّغني أنه أنزلني أعلى قسم في الفندق وقال: «آمل أنك لن ترى في ذلك «قلّة عدم تهذيب»، وقد أزعجني أن أعطيك غرفة «أنت غير أهل لها»، ولكنّي فعلت «للصلة بالضجيج»، فهكذا لن يكون فوقك أحد ليخزق صملاخ (يقصد صماخ) أذنك. اطمئن، سآمر بإغلاق النوافذ كي لا تصطفق، فإني بهذا الخصوص «لا أطاق» (لم تكن هذه الكلمات تعرب عن فكره إذ هو يقصد أنهم سيجدونه دوماً «لا يطيق غير ذلك»، ولكنّها ربما أعربت عن فكر خدَمه في الطوابق). كانت الغرف في جميع الأحوال غرف إقامتي الأولى نفسها، فلم تكن أدنى منها، ولكنّما ارتفعتُ أنا في نظر المدير إليّ. ويمكنني أن آمر بتشعيل الحطب إن راقني الأمر (لأنني قد رحلت منذ عيد الفصح عملاً بأمر الأطباء)، ولكنّه يخشى أن يكون ثمة «شقوق» في السقف. «وانتظر دوماً على وجه الخصوص» من أجل إشعال «حطبة» أن تكون السابقة استهلكت (أي رمّدت). فالمهم أن تتجنّب إحراق الموقد ولا سيما أني جعلت فوقه لإشاعة البهجة «آنية» صينية كبيرة وقديمة ويمكن أن تلحق بها الأذى».

وأعلمني بكثير من الأسى بموت نقيب محامي «شيربور»: «كان رجلاً

روتينياً»، يقول، (ويعني على الأرجح محنّكاً) ويفهمني أن نهايته عجّلت فيها حياة كلها خيبات، ويعني كلها مجون. «سبق منذ بعض الوقت أن لاحظت أنه كان «يخبو» قليلاً في الصالة (يريد دون شكّ أن يقول يغفو). لقد تأخّر في الفترة الأخيرة كثيراً على حدّ أنك لو لم تعلم أنه هو لكدت إذ تراه لا تعترف به (ويقصد دون شكّ لا تعرفه).

وكان رئيس «كان» الأول قد قُلّد منذ فترة قريبة «وساد» جوقة الشرف من رتبة «كومندر»، والتعويض جاء موفقاً. «من الأكيد الأكيد أنه يتمتع بقدرات ولكنّما يبدو أنه مُنحَهُ على وجه الخصوص بسبب «عجزه الكبير». كانوا يذكرون على اية حال عن هذا الوسام في عدد الأمس من «**صدى باريس**»، ولم يكن المدير قرأ بعدُ سوى «النقرة الأولى» (ويقصد الفقرة). وقد حملوا فيه على سياسة السيد «كايّو» أيما حملة، فقال: «أرى على أي حال أنهم على حقّ، فإنه يبالغ في وضعنا في موقع تُبّعيّة إزاء ألمانيا» (ويقصد «تبعيّة»). ولمّا بدا لي هذا النوع من الموضوعات مملاً إذ يعالجه صاحب فندق فقد توقّفت عن السماع. كنت أفكّر بالصور التي حملتني على العودة إلى «بالبيك»، فقد كانت شديدة الاختلاف عنها فيما مضى، فالصورة التي جئت أبحث عنها كانت جلية بقدر ما كانت الأولى غائمة، وكان لا بدّ أن تحمل لي الخيبة. إن الصور التي تصطفيها الذكرى اعتباطية ضيّقة لا تدرك مثلما هي تلك التي شكّلها الخيال وهدمها الواقع. فليس من سبب كيما يمتلك مكانٌ حقيقي، في خارج ذواتنا، لوحاتِ الذاكرة أكثر منه لوحات الحلم. ثم إن واقعاً جديداً ربما أنسانا، بل كرّهنا الرغبات التي سبق أن جئنا بسببها.

أمّا تلك التي حملتني على الذهاب إلى «بالبيك» فمردّها جزئياً أن آل «فيردوران» (الذين لم أُفِدْ في يوم من دعواتهم لي والذين سيسعدهم بالتأكيد استقبالي إن مضيت إلى الريف أعتذر عن أني لم أستطع قط زيارتهم في باريس) إذ علموا أن عدداً من الخُلّص سوف يقضون العطلة على هذا الشاطئ واستأجروا بسبب ذلك أحد قصور السيد «دو كامبرمير»

(«لا راسبليير») على مدى كامل الموسم، كانوا قد دعوا إليه السيدة «بوتبوس». وفي المساء الذي علمت فيه بالأمر (في باريس) أرسلتُ، كمثل مجنون حقيقي، خادمنا الخاص يستعلم إن كانت تلك السيدة ستصطحب إلى بالبيك وصيفتها. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً. وتأخر البواب كثيراً في فتح الباب ولم يطرد رسولي بأعجوبة ولم يطلب استدعاء الشرطة واكتفى باستقباله أسوأ استقبال فيما كان يزوّده بالخبر المطلوب. قال إن الوصيفة الأولى سوف ترافق بالفعل معلّمتها إلى حمّامات المياه في ألمانيا أولاً، ثم إلى «بياريتز» وأخيراً لدى السيدة «فيردوران». وداخلتني مذ ذاك الطمأنينة وطبت نفساً أنْ حصلت على ما يشغلني. فقد استطعت أن أعفي النفس من تلك المطاردات في الشوارع التي كنت مجرّداً فيها لدى الحسان اللواتي أصادفهنّ من رسالة التعريف التي يمثّلها لدى غانية «جورجونه» أن أكون تعشيت في المساء نفسه مع سيدتها في منزل آل «فيردوران». وربما حملت عني، من جانب آخر، فكرة أفضل ساعة تعلم أني لا أعرف مستأجري «لا راسبليير» البورجوازيين فحسب، بل مالكيه أيضاً ولا سيما «سان لو» الذي لم يستطع أن يوصي الوصيفة بي عن بعد (إذ هي تجهل اسم «روبير» فكتب بشأني رسالة تفيض حرارة إلى آل «كامبرمير». كان يظن أنه، إلى جانب الفائدة التي يمكن أن يمثّلوها لي، سوف تثير السيدة «دو كامبرمير» اهتمامي في حديثها معي، وهي كنّتهم واسمها قبل الزواج «لوغراندان». وكان أكد لي قائلاً: «إنها امرأة ذكية؛ إلى حدّ ما بالطبع، فلن تفضي إليك بأشياء نهائية» (وكانت الأشياء «النهائية» قد أحلّها «روبير» محلّ الأشياء «الفائقة» وكان يبدّل في كل خمس أو ست سنوات بعض التعابير المفضّلة لديه فيما يحتفظ بالرئيسية منها)، «إن لها طبيعة مميزة وتملك شخصية لها وحدساً في الأمور وتجود في الوقت المناسب بالكلام اللازم. وهي بين الحين والحين مثيرة للأعصاب وتلقي بالحماقات لتظهر مظهر النخبة، والأمر مثير للسخرية ويزيد منه أن ليس ما كان أقلّ أناقة من آل «كامبرمير» كما أنها ليست على

الدوام «ابنة زمانها» ولكنّها لا تزال في الإجمال في عداد من كانت عشرتهم الأكثر احتمالاً).

وما إن بلغتهم توصية «روبير» حتى شرع آل «كامبرمير»، إمّا بداعي التحذلق التي تجعلهم يرغبون في أن يُبدوا لطفاً غير مباشر تجاه «سان لو» وإما بداعي عرفان الجميل لما سبق أن أبداه تجاه أحد أبناء أشقائهم في «دونسيير»، وعلى الأرجح خصوصاً بداعي الطيبة وتقاليد الضيافة، شرعوا يكتبون رسائل طويلة تطلب مني السكنى لديهم، وهم على استعداد، إن كنت أفضّل استقلالية أكبر، لأن يبحثوا لي عن مسكن. وحينما اعترض «سان لو» بقوله إني سأقطن في فندق «بالبيك» الكبير، أجابوا أنهم ينتظرون على الأقلّ زيارة حال وصولي، فإن تأخّرت بما يجاوز الحدّ فلن يفوتهم المجيء لملاحقتي ودعوتي إلى حفلاتهم الراقصة.

ليس من شكّ أنْ لم يكن شيء يربط على نحو أساسي وصيفة السيدة «بوتبوس» بمنطقة «بالبيك»، فلعلّها لن تكون فيها بالنسبة إليّ مثل الفلاحة التي ما أكثر ما طلبتها عبثاً، وأنا وحيد على طريق «ميزيغليز» بكلّ عنف رغبتي. مكتبة سُر مَن قرأ

لكنّي كنت كففت منذ فترة طويلة عن محاولة استخراج الجذر التربيعي للمجهول لدى امرأة والذي ما كان في الغالب يقف في وجه تعريف بها بسيط. على الأقلّ سوف يتّفق لي في «بالبيك» التي لم أذهب إليها منذ فترة طويلة هذه الحسنة التي مفادها أن حسّ الواقع، في غياب الصلة الضرورية التي لم تكن موجودة بين البلد وهذه المرأة، لن تلاشيه بالنسبة إليّ العادة مثلما في باريس حيث ما كانت المتعة التي ألقاها بجانب امرأة، إما في بيتي الخاص وإما في غرفة معروفة، تستطيع أن توليني، مقدار لحظة في قلب الأمور اليومية، الوهم بأنها تفتح لي درباً إلى حياة جديدة. (فلئن كانت العادة طبيعة ثانية فإنها تحول دون أن نعرف الأولى التي لا تملك صنوف قسوتها ولا ضروب افتتانها). ولكنّ ذاك الوهم ربما اتّفق لي، أمام شعاع شمس، في بلد جديد يولد فيه الإحساس ثانية وحيث تبلغ بي

بالضبط تمام الإثارة الوصيفةُ التي كنت أشتهيها: لكنّنا سنرى أن الظروف عملت لا على أن لا تجيء تلك المرأة إلى «بالبيك» فحسب بل على أن لا أخشى شيئاً بمقدار ما أخشى أن يسعها المجيء إليها، حتى إن الهدف الرئيسي لرحلتي لم يتحقق ولا هو لوحق. صحيح أن السيدة «دو بوتبوس» ما كانت ستبكّر إلى هذا الحدّ في الموسم في مجيئها إلى منزل آل «فيردوران»؛ ولكنّ هذه المتع التي اخترناها يمكن أن تكون بعيدة إن كان مجيئها مؤكداً واستطعنا بانتظارها أن ننصرف حتى ذاك إلى الكسل في البحث عن الإمتاع وإلى العجز عن الحبّ. وما كنت أذهب إلى «بالبيك» على أية حال بعقلية تساوي المرة الأولى في ضَعْف طابعها العملي؛ وثمة على الدوام أنانية أقلّ في التخيل الصرف منها في التذكّر؛ وكنت أعلم أنني سألقى نفسي بالضبط في واحد من تلك الأماكن التي تعجّ بالحسان المجهولات، فليس يقدّم لك الشاطئ أقلّ من الحفلة الراقصة وكنت أفكّر سلفاً بالنزهات أمام الفندق وفوق السدّ بنوع المتعة نفسها التي كانت وفّرتها لي السيدة «دو غيرمانت» لو أنها، عوضاً عن أن تعمل على دعوتي إلى أعشية باهرة، أكثرت من إعطاء اسمي لربّات البيوت اللواتي تقام حفلات الرقص في منازلهنّ بغية وضعه على لوائح الفوارس لديهنّ. ولعلّ التعرّف إلى النساء في «بالبيك» سيَسْهل عليّ بمقدار ما عَسُرَ فيما مضى إذ كان يتوافر لي الآن من الصداقات وصنوف الدعم بمقدار ما افتقرتُ إليه في رحلتي الأولى.

وانتشلني من أحلام يقظتي صوت المدير الذي لم أصغ إلى محاضراته السياسية فقد روى لي بعدما غيّر موضوع الحديث عن اغتباط الرئيس الأول حينما علم بوصولي وأنه سوف يجيء لزيارتي في غرفتي في هذا المساء. وقد أصابني من جرّاء فكرة الزيارة هذه، إذ أخذت أحسّني متعباً، فزع شديد إلى حدّ أنْ رجوته الحؤول دون ذلك (وهو ما وعدني به) وأن يأمر، زيادة في الأمان في أول مساء، بأن يقوم مستخدموه بحراسة طابقي. وبدا أنه لا يودّهم كثيراً. «إني مضطر طوال الوقت أجري خلفهم إذ ينقصهم

الكثير من «الخمول». ولو لم أكن حاضراً لما تحركوا. سوف أضع عامل المصعد «خادماً» على بابك». وسألت إن كان أصبح أخيراً «رئيساً للخدم الموزّعين». فأجابني قائلاً: «لم يمضِ عليه بعد وقت طويل في الدار ولديه رفاق أكبر منه سناً وقد يثير ذلك لغطاً. لا بدّ في كل أمر من «تحرّج» (تدرّج). أنا أقرّ أنه حسن «المنظر» (يقصد المظهر) أمام مصعده، ولكنّه لا يزال صغيراً بعض الشيء على مثل هذه الحالات، وسوف يجرّ ذلك إلى تناقض إزاء آخرين هم أكثر قدماً. ينقصهم قليل من الجدية، وهي الميزة «البدائية» (ويقصد دونما شكّ الرئيسية، الميزة الأكثر أهمية). ولا بدّ أن يكون أثقل جناحاً (ويقصد محدّثي أن يقول أثقل دماغاً). عليه على أي حال أن يمنحني ثقته فإني خبير في الأمر؛ لقد خطوت خطواتي العسكرية الأولى في زمن «بايّار» قبل أن أحوز رتبتي مديراً للفندق الكبير». وقد أثّر فيّ هذا التشبيه وشكرت المدير لمجيئه شخصياً حتى «بونتا كولوفر». «آه! ليس ما يستحقّ الشكر، فلم أضيّع في ذلك سوى وقت «لا يحصى» (يقصد لا يذكر).» وكنّا قد وصلنا على أي حال.

هنا انقلاب في كامل شخصيتي. فلمّا كنت منذ الليلة الأولى أعاني من نوبة وهن قلبي وفي محاولة للسيطرة على ألمي انحنيت بتؤدة وحذر لخلع حذائي. ولكنّي ما كدت ألامس أول زرّ في حذائي العالي حتى انتفخ صدري وقد امتلأ حضوراً مجهولاً إلهياً وهزّتني زفرات الحزن وانهمرت الدموع من عينيّ. فالشخص الذي أقبل يمدّ لي يد العون وينقذني من إقفار نفسي كان ذاك الذي دخل، قبل عدّة سنوات، في لحظة من الضيق والوحدة المماثلين، في لحظة لم أعد أملك فيها شيئاً من أناي فردّني إلى ذاتي، إذ كان ذاتي وأكثر من ذاتي (المحتوي الذي هو أكثر من المحتوى وكان يحمله إليّ). لقد لمحت منذ قليل في ذاكرتي الوجه الحنون ينحني فوق تعبي، وجه جدّتي مهتماً مخيّب الآمال، على نحو ما كانت في ذلك المساء الأول لوصولنا؛ وجه جدّتي، لا تلك التي دُهِشْتُ ولُمت نفسي لقلّة ما أسفت لفقدها وما كانت تملك منها غير اسمها، بل

جدّتي الحقيقية التي عدت ألقى، للمرة الأولى منذ «الشانزيليزيه» حيث أصابتها أزمتها القلبية، عدت ألقى عبر ذكرى لاإرادية وكاملة حقيقتها الحية. وهذه الحقيقة لا وجود لها بالنسبة إلينا ما دام فكرنا لم يُعِدْ إبداعها (وإلا لكان كلّ من شاركوا في معركة جبارة ملحميّين كباراً)؛ وهكذا فإني، في اندفاعة مجنونة للارتماء بين ذراعيها، عرفت تواً فقط - بعد أكثر من عام على دفنها، من جرّاء هذا اللاتزامن الذي يحول في الكثير الغالب دون تطابق تسلسل الأحداث وتسلسل المشاعر - أنها قضت نحبها. لقد تحدّثت عنها كثيراً منذ ذلك الوقت وفكّرت بها كذلك، إلا أنه لم يكن ثمة، خلف أقوال وأفكار الشاب العاقّ الأناني القاسي الذي كنته، شيء يشبه جدّتي لأنني كنت لا أحمل في داخلي، بسبب طيشي وحبّي للملذات وتعوّدي رؤيتها مريضة، لا أحمل إلا بالقوة ذكرى ما سبق أن كانت عليه. وإن نفسنا الكلية لا تملك، في أية لحظة تأمّلناها فيها، سوى قيمة تقرب أن تكون وهمية على الرغم من الرصيد الكبير الذي لثرواتها، فإن هذه طوراً وتارة تلك غير متوافرة، سواء أكان الأمر على أي حال أمر ثروات فعلية أم ثروات الخيال، وسواء أكان الأمر في ما يخصني أمر ثروات عالقة باسم «غيرمانت» القديم أم ثروات عالقة بالذكرى الحقيقية لجدّتي، والثروات هذه هي الأكثر خطراً. ذلك لأن تقلّبات القلب مرتبطة باضطرابات الذاكرة. وإنما وجود جسدنا، وهو شبيه في ما يخصنا بإناء يحتوي روحيّتنا، هو الذي يحملنا على افتراض أن خيراتنا الباطنة جميعها وأفراحنا الماضية وآلامنا كلها هي بحوزتنا أبداً. وربما كان غير صحيح أيضاً أن نعتقد أنها تفلت منا أو تعود إلينا. وإن هي بقيت في داخلنا فإنها في جميع الأحوال في نطاقٍ مجهول لا تؤدي لنا فيه أية خدمة وحيث يُقْصَى، حتى ما كان أكثرها شيوعاً، من جانب ذكريات من نوع مختلف تستبعد أي تزامن معها في الشعور. ولكنّها، إن أعيد امتلاك إطار الأحاسيس الذي تُحفظ فيه، إنما تمتلك بدورها تلك القدرة نفسها على إقصاء كل ما لا يتماشى وإياها وأن تقيم في داخلنا الأنا التي عاشتها

وحيدة. وبما أن الأنا التي عدتُ فأضحيتها منذ قليل لم تكن موجودة منذ ذلك المساء القصيّ الذي خلعتْ فيه جدّتي ملابسي لدى وصولي إلى «بالبيك»، فإني انخرطت في الدقيقة التي انحنت فيها جدّتي صوبي، لا في أعقاب النهار الحالي التي كانت تلك الأنا تجهله، بل حالاً بعد المساء الأول بالأمس، ودون أي انقطاع - كما لو كان داخل الزمان مجموعات مختلفة ومتوازنة. لقد عادت الأنا التي كنتها حينذاك واختفت فترة طويلة جداً، قريبة مني إلى حدّ أن بدا لي أيضاً أني أسمع الأقوال التي سبقت مباشرة مع أنها لم تعد سوى حلم، مثلما يظن رجل لم يستيقظ تماماً أنه لم يسمع قريباً جداً منه أصوات حلمه الهارب. ما كنت من بعد سوى ذاك الإنسان الذي يحاول الالتجاء بين ذراعي جدّته وأن يمحو آثار غمّها بقبلاته، ذاك الإنسان الذي لعلّي كنت صادفت في تصوّره، حينما كنت هذا أو ذاك من أولئك الذين تعاقبوا في داخلي منذ بعض الوقت، قدراً من الصعوبة يساوي ما ينبغي لي من جهود، وهي عقيمة على أي حال، كي أحسّ برغبات ومسرّات أحد أولئك الذين لم أكنهم من بعد، على الأقلّ على مدى فترة معيّنة. كنت أتذكّر كيف أني، قبل ساعة من الوقت الذي انحنت فيه جدّتي على هذا النحو، بمبذلها، صوب حذائي، ظننت، وأنا هائم على وجهي في حرّ الشارع الخانق أمام الحلواني، أنني لن أستطيع البتّة، بالحاجة التي كانت بي لتقبيلها، انتظار الساعة التي لا بدّ أن أقضيها بعد بدونها. والآن حين تعود تلك الحاجة ثانية كنت أعلم أني أستطيع الانتظار ساعات تعقبها ساعات وأنها لن تكون بعد اليوم بجانبي، وقد اكتشفت الأمر تواً إذ علمت منذ قليل، وأنا أحسّها لأول مرة حيّة حقيقية ينتفخ بها قلبي حتى لينفطر، وأنا أعود أخيراً فألقاها، أنني فقدتها إلى غير رجعة. فقدتها إلى غير رجعة؛ ما كنت أستطيع أن أفهم وكنت أتدرّب على معاناة الألم الناجم عن هذا التناقض: فمن جهة وجود وحنان باقيان في داخلي مثلما سبق أن عرفتهما، يعني أنهما جُعلا لأجلي، وحبّ يجد كل شيء فيه تمامه فيّ وهدفه واتجاهه الثابت إلى حدّ أن عبقرية رجال عظام

وجميع العبقريات التي أمكن أن تكون منذ بداية العالم ما كانت لتساوي في نظر جدّتي عيباً واحداً من معايبي؛ ومن جهة أخرى أن أحسّ، حالما عدت فعشت ذلك الهناء وكأنه قائم، أنه إنما يخترقه اليقين ينطلق انطلاقة ألم جسديّ متكرّر، يقين عدم محا صورتي من ذلك الحنان وهدم ذلك الوجود وألغى في الماضي قَدَرًنا المشترك وجعل من جدّتي، لحظة عدت ألقاها كأنما في مرآة، محض غريبة جعلتها المصادفةُ تقضي بجانبي بضع سنوات كما لعلّ ذلك كان ممكناً إلى جانب شخص آخر، ولكنّي ما كنت أمثّل لها، قبلُ وبعدُ، شيئاً، ولن أمثّل شيئاً.

لعلّ المتعة الوحيدة التي كان يمكن أن أتذوّقها في هذه اللحظة، بدلاً من المتع التي سبق أن أصبتها منذ بعض الوقت، لعلها كانت، بالعودة إلى الماضي، أن أخفّف الآلام التي تكبّدتها جدّتي فيما مضى. على أني ما كنت أتذكّرها فقط في ذلك المبذل، وهو لباس مناسب، إلى حدّ يقارب أن يضحي فيه رمزياً، للمشقّات التي تحمّلتها من أجلي، مشقّات هي ضارّة دون شكّ ولكنّها عذبة أيضاً؛ فقد رأيتُني شيئاً فشيئاً أتذكر سائر المناسبات التي انتهزتها كيما أوليها، وأنا أبرز لناظريها وأضخّم لدى الضرورة آلامي، غمّاً أتصور فيما بعد أن قُبَلي تزيله كما لو كان حناني بمثل قدرة سعادتي على صنع سعادتها. بل الأنكى من ذلك أني، أنا الذي ما كان يتصوّر الآن سعادة أعظم من أن يجد شيئاً منها ينتشر داخل الذكرى على صفحات ذلك الوجه، صفحات صاغها وأحناها الحنان، حاولت فيما مضى بحنق مجنون أن أنتزع منها حتى أدنى المسرّات، كمثل ذلك اليوم الذي صوّر فيه «سان لو» جدّتي والذي لم أستطع أن أكتمها فيه الصبيانية المضحكة تقريباً في ما تبدي من غنج في وقفاتها وقبعتها ذات الحوافي العريضة وفي نوع من الظلال المناسبة، فبلغ بي المقام أن أهمس ببضع كلمات متعجّلة جارحة أحسست لانقباض في وجهها أنها بلغت غايتها وأصابتها؛ أمّا الآن وقد استحال إلى الأبد عزاؤها بألف من القبلات فقد كانت تمزّقني أنا.

لكنّما لن أستطيع بعد في يوم طمس هذا الانقباض في وجهها وهذا العذاب في فؤادها أو بالأحرى في فؤادي؛ فإنه لمّا كان الأموات لا وجود لهم من بعد إلا في داخلنا فإنما نحن من نضرب دون هوادة حينما نصرّ على تذكّر الضربات التي وجهناها لهم. وتلك الآلام، مهما تكن قاسية، فقد كنت أتمسّك بها بكلّ قواي إذ كنت أحسّ أنها ناتجة عن تذكّر جدّتي وهي البرهان على أن هذه الذكرى التي أحملها كانت حاضرة تماماً في داخلي. كنت أحسّ أنني لا أتذكّرها حقاً إلا بالألم ووددت لو تنغرز تلك المسامير التي تربط ذكراها به انغرازاً أوثق في نفسي. ما كنت أحاول جعل العذاب أرفق بين وتجميله والتظاهر بأن جدّتي غائبة فحسب وأنها متوارية عن الأنظار مؤقتاً، وذلك بالتوجّه بأقوال ورجاء إلى صورتها (تلك التي سبق أن صوّرها «سان لو» وكانت معي) وكأنما إلى شخص انفصل عنا ولكنّه إذ احتفظ بفرديته يعرفنا ولا يزال يرتبط بنا بتناغم لا تنفصم عراه. إني لم أفعل ذلك البتّة، فإني ما كنت أصرّ على العذاب فحسب، بل على احترام أصالة عذابي على نحو ما عانيت منه فجأة دونما قصد وكنت أبغي الاستمرار في معاناته وفقاً لقوانينه هو في كل مرة يعود فيها ذاك التناقض الغريب جداً للبقاء والعدم المتشابكين في داخلي. ذاك الانطباع المؤلم اللامدرك، ما كنت أعلم بالتأكيد إن كنت سأستخلص منه شيئاً من الحقيقة ذات يوم، ولكني أعلم أنه إن أمكنني في يوم استخلاص هذا النزر اليسير من الحقيقة فلن يمكن استخلاصه إلا منه، هو الخاص جداً، التلقائي جداً، ولم يرسمه عقلي ولا بدّل اتجاهه أو خفّفه فزعي ولكنّ الموت نفسه، الكشف المفاجئ عن الموت، حفره كالصاعقة في داخلي حسب خطّ بياني خارق لاإنساني على شكل أخدود مزدوج غامض. (فأمّا نسيان جدّتي الذي عشت فيه حتى الآن فما كنت حتى أفكّر في الانصراف إليه لاستخلص منه شيئاً من الحقيقة بما أنه لم يكن في حدّ ذاته سوى نفي، سوى إضعاف للفكر العاجز عن إعادة خلق لحظة حقيقية من الحياة فيُضطر أن يُحلّ محلّها صوراً مألوفة وغير ذات بالٍ). لعلّني مع ذلك، إذ أخذت

غريزة البقاء وبراعة العقل في وقايتنا من الألم تبنيان فوق خرائب لم تنطفئ بعدُ نارها وتضعان الأساسات الأولى لعملهما المفيد والمشؤوم، لعلّني تذوّقت بما يجاوز الحدّ حلاوة أن أتذكّر هذه الآراء أو تلك يبديها هذا الكائن العزيز، أن أتذكّرها كما لو استطاعت أن تبديها بعد، كما لو كانت موجودة كما لو أني لا أزال موجوداً بالنسبة إليها. ولكن ما إن أفلحت في النوم، في تلك الساعة الأوفر صدقاً التي انغلقت فيها عيناي دون أشياء الخارج حتى عكس عالم النوم (الذي لم يعد بمقدور العقل والإرادة على عتبته، وقد شُلا وقتياً، أن ينتزعاني من قساوة انطباعاتي الحقيقية) وبعثر الجميعة المؤلمة للبقاء والعدم في الأعماق العضوية التي أصبحت شاقّة، أعماق الأحشاء التي يضيئها نور خفيّ. عالم النوم الذي تسرّع فيه المعرفة الباطنة، وقد جُعِلَت في تبعية اضطرابات أعضائنا، ضربات القلب أو تواتر الأنفاس لأن ذات كمية الهلع أو الحزن أو الندم تعمل بقوة تتضاعف مئة مرة إن هي زرقت على هذا النحو في أوردتنا؛ وما إن نكون ذهبنا، كيما نطوّف فيه في طرقات مدينة الأعماق، فوق أمواج دمنا السوداء وكأنما فوق «ليثيه» Léthé[1] داخليّ سداسيّ الثنيات، حتى تظهر لنا وجوه مهيبة عظيمة تقترب منا وتفارقنا مخلّفة إيانا في دموعنا. وعبثاً بحثت عن وجه جدّتي حالما نزلت في المداخل المظلمة، مع أني كنت أعلم أنها ما تزال على قيد الحياة، ولكنّما حياة ناقصة باهتة كما الذكرى. كانت العتمة تتعاظم، وكانت الريح؛ ولا يصل والدي وكان ينبغي أن يقودني إليها. وفجأة تقّطعت أنفاسي وأحسست قلبي كأنما تقسّى، فقد تذكّرت منذ قليل أنني نسيت أن أكتب إلى جدّتي منذ أسابيع طويلة. فما عساها ستفكّر بي؟ كنت أقول في نفسي: «يا إلهي، كم ينبغي أن تكون تعيسة في هذه الغرفة الصغيرة التي استؤجرت من أجلها صغيرة مثلما هي لخادمة قديمة، وهي فيها وحيدة تماماً مع الممرضة التي أقيمت للعناية بها، وهي لا تستطيع

---

(١) نهر النسيان في ميثولوجيا الإغريق.

حراكاً لأنها لا تزال مشلولة بعض الشيء ولم تشأ أن تنهض مرة واحدة! هي لا بدّ تعتقد أني أنساها منذ أن قضت نحبها وكم ينبغي أن تحسّ أنها وحيدة ومهجورة! آه! لا بدّ أن أسرع للقائها، فلا أطيق الانتظار دقيقة واحدة ولا أستطيع أن أنتظر وصول والدي، ولكن أين هي؟ وكيف أمكن أن أنسى العنوان؟ وليتها لا تزال تعرفني! كيف أمكن أن أنساها على مدى شهور؟» الليل حالك ولن أهتدي والريح تمنعني من التقدّم. ولكن هو ذا والدي يخطر أمامي، فأصيح به: «أين جدّتي؟ قل لي العنوان، هل هي بصحّة جيدة؟ أكيد أنه لا ينقصها شيء؟ «فقال لي والدي: «بالطبع لا، بإمكانك أن تطمئن، فإن ممرّضتها امرأة منظّمة. ومن حين إلى آخر نبعث بمبلغ زهيد كي يمكنهم أن يشتروا لها القليل الضروري لها. وهي تسأل أحياناً كيف أصبحت حالك. لقد قالوا لها إنك تزمع وضع كتاب وبدت مسرورة ومسحت دمعة». حينئذ خلتني أتذكّر أن جدّتي قالت لي بعد موتها بقليل وهي تجهش بالبكاء وبلهجة متواضعة كمثل خادمة عجوز صُرفت من عملها وكامرأة غريبة: «سوف تسمح لي بالطبع بأن ألقاك أحياناً على الرغم من كلّ شيء، فلا تدعني سنوات طويلة دون أن تزورني، وفكّر أنك كنت حفيدي وأن الجدّات لا ينسين». وإذ عدت أرى أي وجه لها شديد الاستسلام، شديد التعاسة، شديد الوداعة أردت أن أجري في الحال وأقول لها ما كان انبغى لي أن أجيبها حينذاك: «ولكن سترينني يا جدّتي قدر ما تشائين فليس لي في الدنيا سواك ولن أفارقك البتّة من بعد». لكم انبغى أن يبكيها صمتي منذ هذه الشهور الكثيرة التي لم أمضِ فيها إلى حيث هي نائمة! فماذا أمكن أن تقول في نفسها؟ وقلت بدوري لوالدي وأنا أجهش بالبكاء: «العنوان، بسرعة، بسرعة، خذني إليها». أمّا هو: «ذلك... أني لا أعلم إن كنت تستطيع أن تراها. ثمّ إنها واهنة، واهنة جداً، ترى، ولم تعد ذاتها وأظن أن ذلك سوف يشقّ عليك بالأحرى. ثمّ إنني لا أذكر الرقم الصحيح للشارع» - «ولكن هيّا قل لي، أنت يا من يعلم، ليس صحيحاً أن الأموات لا يحيون من بعد. ليس الأمر صحيحاً

مع ذلك، على الرغم مما يقال، بما أن جدّتي لا تزال موجودة». وابتسم والدي ابتسامة حزينة: «آه! أقلّ القليل، ترى، أقلّ القليل. وأظن أن الأفضل لك أن لا تذهب هناك. لا شيء ينقصها، إنهم يجيئون لترتيب كل الأمور» - «ولكنّها غالباً وحدها؟» - «أجل، ولكنّ ذلك خير لها. فخير لها أن لا تفكّر إذ لا يمكن إلا أن يغمّها الأمر، فغالباً ما يجلب التفكير الغمّ. وعلى أي حال، تدري، إنها واهنة جداً. سوف أترك لك بياناً دقيقاً كي تتمكن من الذهاب إليها؛ لست أرى ما الذي يمكن أن تفعله هناك ولا أظن أن الممرّضة ستسمح لك برؤيتها». - «تعلم تماماً مع ذلك أنني سأعيش على الدوام إلى جانبها، الأيائل، الأيائل «فرنسيس جام»، شوكة». لكنّي كنت قد عدت مذ ذاك فاجتزت النهر ذا التعرّجات المظلمة وعدت فصعدت إلى الصفحة حيث ينفتح عالم الأحياء. ولئن كنت لا أزال أردّد «فرنسيس جام، الأيائل، الأيائل» فإن تتمة هذه الكلمات لم تعد توفّر المعنى الواضح والمنطق اللذين كانت تعبّر عنهما تعبيراً طبيعياً جداً بالنسبة إليّ للحظة خلت ولم أعد أستطيع تذكّرهما. وما عدت حتى أفهم لماذا عنت لي كلمة «أياس»[1] التي قالها لي والدي منذ قليل، عنت في الحال ودون احتمال أي شك: «حاذر أن يصيبك البرد». وكنت نسيت إغلاق المصاريع ولا بدّ أن شمس الضحى أيقظتني. لكنّي لم أطق احتمال أن أسرّح ناظريّ بأمواج البحر هذه التي كانت جدّتي فيما مضى تستطيع تأمّلها على مدى ساعات، فإن الصورة الجديدة لجمالها اللامبالي كانت تُسْتكْمَلُ في الحال بفكرة أنها لا تراها. ووددت سدّ أذنيّ دون صخبها لأن تمام ضياء الشاطئ كان يحدث الآن فراغاً داخل فؤادي. كان كل شيء يبدو كأنما يقول لي مثل تلك الممرّات والمروج في حديقة عامة كنت أضعتها فيها بالأمس حينما كنت طفلاً صغيراً: «لم نرها»، فأحسّ أنفاسي تضيق

(١) «أياس» أو «أجاكس» الذي يقارن «بروست» بين جنونه إذ يذبح قطعان الماشية وهو يظنها يونانيين بجنون «هنري فان بلارتييرغ» قاتل أبيه.

تحت استدارة السماء الشاحبة الرائعة وكأنما تحت ناقوس هائل مائل للزرقة يسدّ أفقاً لا وجود فيه لجدّتي. واستدرت صوب الجدار كي لا أشهد شيئاً من بعد، ولكنّ ما كان يواجهني للأسف إنما ذاك الحاجز الذي كان يقوم فيما مضى بمهمة رسول الصباح بيننا، ذاك الحاجز الذي كان يعرب، طيّعاً طواعية كمانٍ في ردّ جميع ألوان إحساس ما، وبدقّة كبيرة، لجدّتي عن خشيتي في الآن نفسه من إيقاظها، فإن تكُ مستيقظة فمن أن لا تكون سمعتني ولا تجرؤ لذلك على الحركة، وعلى إثرها في الحال كأنما جواب آلة ثانية تنبئني بمجيئها وتدعوني إلى الهدوء. ما كنت أجرؤ على الاقتراب من ذاك الحاجز أكثر مما أفعل من «بيانو» سبق أن عرفت عليه جدّتي ولا يزال يرنّ من لمستها. فقد كنت أعلم أنه يمكنني الآن أن أقرعه، حتى قرعاً متزايد الشدّة، فلن يستطيع شيء من بعد أن يوقظها، ولن أسمع جواباً ولن تجيء جدّتي من بعد. وما كنت أسأل الله، إن كان ثمة جنّة، أكثر من أن أستطيع فيها أن أضرب على هذا الحاجز الضربات الثلاث الصغيرة التي ستتعرّفها جدّتي من بين ألف منها والتي سترد عليها بتلك الضربات الأخرى التي تعني: «لا تضطرب أيها الفأر الصغير، أفهم أنك نفد صبرك، ولكنّي آتية»، وأن يدع لي أن أمكث معها الدهر كلّه الذي لن يطول علينا نحن الاثنين.

وجاء المدير يسألني إن كنت لا أبغي النزول، فإنه تحسّباً للطوارئ قد أشرف على «مكانتي» في قاعة الطعام. ولمّا لم يرني فقد خشي أن لا تكون عاودتني اختناقاتي بالأمس. كان يأمل أن لا يكون ذلك سوى «وباء صغير في الحلق» وأكّد لي أنه سمع من قال إنها تُسكنُ بما يسمّونه «الألكينا».

وسلّمني كلمة صغيرة من «ألبيرتين». ما كان عليها المجيء إلى «بالبيك» في هذا العام، ولكنها بعدما بدّلت في مقاصدها حلّت منذ ثلاثة أيام، لا في «بالبيك» نفسها بل في محطة مجاورة على مسافة عشر دقائق بالحافلة. فقد خشيتْ أنْ أتعبتني الرحلة فامتنعت عن الحضور أول مساء

ولكنّها أرسلت تسألني متى يمكن استقبالها. واستعلمتُ إن كانت جاءت بنفسها لا لأراها بل لأتدبّر نفسي كي لا أراها. وأجاب المدير قائلاً: «أجل، بالطبع، ولكنّها تودّ أن يكون ذلك في أقرب وقت ممكن، إلا «أن لا يكون لديك» أسباب «ضارّة» تماماً». وختم بقوله: «ترى أن الجميع هنا «يشتهونك» «في المنتهى». أما أنا فما كنت أريد رؤية أحد.

على أنني كنت أحسستني البارحة لدى وصولي وقد عاودني السحر في حياة حمّامات البحر. وكان عامل المصعد نفسه قد أدار المصعد بصمت بداعي الاحترام هذه المرة لا بداعي الازدراء وقد احمرّ اغتباطاً. وإذا ارتفعتُ على صفحة العمود الصاعد عدت فاجتزت ما سبق أن كان بالأمس بالنسبة إليّ سرّ الفندق المجهول حيث يلقي عليك، حينما تصل سائحاً دونما حماية ولا مهابة، كلّ زبون يعود إلى غرفته وكلّ فتاة تنزل للعشاء وكل خادمة تجتاز الممرات التي خططت بصورة غريبة والفتاة التي جاءت من أميركا مع مرافقتها والتي تنزل للعشاء، نظرة لا تقرأ فيها شيئاً مما وددت قراءته. إلا أني تذوّقت هذه المرة، على العكس، المتعة المريحة جداً التي قوامها أن أقوم بالصعود إلى فندق معروف كنت أشعر فيه أنني في بيتي وقد أنجزت فيه مرة أخرى هذه العملية التي ينبغي دوماً إعادتها وهي أطول وأصعب من قلب الجفن وقوامها أن نطرح على الأشياء النفس المألوفة لدينا بدلاً من نفس لها كانت تفزعنا. أفينبغي لي الآن، أقول في نفس غير مرتاب بالتغير النفسي المفاجئ الذي ينتظرني، أن أمضي دوماً إلى فنادق أخرى أتناول فيها غدائي للمرة الأولى ولا تكون العادة قتلت فيها في كلّ دور وأمام كلّ باب التنّين الذي كان يبدو كأنما يسهر على حياة مسحورة، وحيث يقع عليّ أن أقترب من هاتيك النساء المجهولات اللائي إنما تجمعهن كبريات الفنادق والكازينوهات ومسابح الشاطئ ليقمن فيها حياة مشتركة على غرار المجموعات المرجانية؟

لقد أحسست متعة حتى في أن يكون الرئيس الأول المزعج على عجلة من أمره للقائي. كنت أبصر لليوم الأول أمواجاً وسلاسل جبال

البحر اللازوردية وجليديّاته وشلالاته وتعاليه وجلاله اللامبالي - لمحض اشتمامي للمرة الأولى منذ فترة طويلة جداً وأنا أغسل يديّ تلك الرائحة الخاصة بصابون الفندق الكبير المبالغ في تعطيره - والتي إذ يبدو أنها تعود للفترة الراهنة وللإقامة الماضية كانت تطفو بينهما مثلما السحر الحقيقي لحياة خاصة لا يعود المرء إليها إلا ليبدّل ربطة عنقه. ولعلّ أغطية السرير التي جاوزت حدّ النعومة والخفّة والاتساع واستحال طيّ أطرافها وتثبيتها ولا تزال منفّخة حول اللحف لوالبَ رجراجة، لعلّها كانت بالأمس بعثت الأسى في نفسي. ولكنّها هدهدت فحسب فوق تكوّر حُجُبها غير المريحة المقبّبة الشمس البهيّة الملأى بالآمال في أول صباح. إلا أنه لم يتسنّ لهذا الأخير أن يطلع، ففي الليلة نفسها عاد فَبُعثَ الحضور الرهيب الرائع. فرجوت المدير أن ينصرف وأن يأمر بأن لا يدخل أحد. وقلت له إني سألازم سريري ورفضت عرضه بأن يرسل في طلب العقار الممتاز لدى الصيدلي. فسُرّ أعظم السرور لرفضي إذ كان يخشى إزعاج بعض الزبائن من جرّاء رائحة «الألكينا». وقد غنمت من ذلك المديح التالي: «أراك ضمن الحركة» (وكان يقصد: «في الخط الصحيح») والتوصية التالية: «احذر أن لا تتّسخ بالباب فإني، بشأن الأقفال، قد «داهنتها» بالزيت؛ فإن تجرّأ مستخدم وقرع باب غرفتك فسوف «يتّسع» ضرباً وليعتبروا أنهم بلغوا الأوامر فلست أحب «الترددات» (كان ذلك يعني بالبداهة: لا أحبّ تكرار الأمور مرّتين). ولكن ألست ترغب بغية تنشيط قواك قليلاً في نبيذ عتيق أحتفظ منه في القبو «بطنّ» كبير (يقصد بدون شكّ «بدنّ» كبير). لن أجيئك به على طبق من الفضة مثل رأس «جونثان»[1] والفت انتباهك إلى أنه لن يكون من نوع «شاتو لافيت» ولكنّه «مشبوه» تقريباً (ويقصد «مشابه»). ويمكن، إذ هو خفيف، أن تُقَدّمَ لك واحدة من سمك موسى مقليّة».

---

(١) هو في الحقيقة رأس يوحنا المعمدان الذي وعد به «هيرودس» «سالومي» بعدما رقصت أمامه.

ورفضت كلّ شيء ولكنّما أدهشني أن أسمع اسم السمكة (la sole) يُلفظ كاسم الشجرة (le saule - الصفصاف) على لسان رجل لا بدّ أوصى على الكثير منها في حياته.

وعلى الرغم من وعود المدير جاؤوني بعد قليل ببطاقة المركيزة «دو كامبرمير» مثنيّة الزاوية. كانت السيدة العجوز قد بعثت، إذ جاءت لزيارتي، تسأل إن كنت موجوداً وحينما علمت المركيزة بوصولي البارحة فقط وأنني أعاني أوجاعاً لم تلحّ وعادت أدراجها إلى «فيتيرن» في عربتها القديمة ذات الثمانية نوابض التي يجرّها حصانان (ولا يفوتها دون شكّ أن تتوقف أمام الصيدلي أو بائعة الكلف فيدلف خادمها الخاص إليهما بعدما يقفز من مقعده ليدفع فاتورة أو يأخذ بعض المؤن). وغالباً ما كانوا يسمعون على أي حال صلصلة عجلاتها ويتأمّلون بإعجاب أبّهتها في شوارع «بالبيك» وبعض قرى الشاطئ الصغيرة الأخرى الواقعة بين «بالبيك» و«فيتيرن». لا لأنّ هذه المواقف لدى بعض الموردين كانت غاية تلك الجولات، بل كانت الغاية على العكس «عصرونية» أو حفلة استقبال في بيت نبيل ريفي أو بورجوازي لا يليق إطلاقاً بالمركيزة. لكن هذه، على الرغم من تفوّقها الكبير جداً مولداً وثروة على طبقة صغار النبلاء في المحيط، كان يعتريها في طيبتها وبساطتها التامّتين خوف عظيم من تخيّب أمل من سبق أن دعاها إلى حدّ أنها كانت ترتاد أكثر اللقاءات المجتمعية تفاهة في الجوار. صحيح أن السيدة «دو كامبرمير» كانت فضّلت، بدلاً من قطع مسافة طويلة إلى هذا الحدّ لتُقْبل وتسمع في حرّ صالة صغيرة ذات جوّ خانق مغنّية تفتقر إلى الموهبة بعامة وينبغي لها بعد ذلك، بصفتها سيدة كبيرة في المنطقة وموسيقية مشهورة، المبالغة في تهنئتها، أن تذهب في نزهة أو تمكث في حدائق «فيتيرن» الرائعة التي يُقبل الموج الناعس لخليج صغير ليلفظ أنفاسه على حضيضها بين الزهور. ولكنّها كانت تعلم أن مجيئها المرجّح سبق أن أعلن عنه ربّ البيت، سواء أكان أحد النبلاء أو بورجوازي حقيقي من «مينفيل لا تانتوريير» أو «شاتونكور لورغويّو». فإن

خرجت السيدة «دو كامبرمير» في ذلك اليوم دون أن تثبت حضورها في الاحتفال فربما أمكن لهذا أو ذاك من المدعوّين ممّن جاؤوا من أحد الشواطئ الصغيرة التي تحاذي البحر أن يكون سمع ورأى عربة المركيزة ولعلّ ذلك كان قضى على عذرها عن أنها لم تستطع مغادرة «فيتيرن». ثم عبثاً يكون أرباب البيوت أولئك قد رأوا كثيراً السيدة «دو كامبرمير» ترتاد حفلات موسيقية تُقام لدى أناس يرون أنْ ليس ثمة مكانها، فإن التراجع البسيط الذي يلحق في نظرهم بمكانة المركيزة المفرطة الطيبة كان يزول حالما يكونون هم الذين يستقبلون، فيتساءلون تساؤلاً محموماً إن كانوا سيحظون بها أم لا في «عصرونيتهم» البسيطة. وأي تفريج لصنوف من القلق يحسّون بها منذ بضعة أيام إن أعلن أحد المدعوّين، بعد أول مقطوعة غنّتها ابنة أصحاب البيت أو هاو يصطاف هناك، أنه شاهد جوادي العربة الشهيرة متوقّفين أمام الساعاتي أو العطّار (وهي علامة لا تخيب بأن المركيزة تزمع المجيء إلى حفلة العصر)! حينئذ كانت السيدة «دو كامبرمير» (التي لن يطول بها الوقت بالفعل للدخول تتبعها كنّتها ومدعوّون يقيمون باستمرار عندها في هذه الآونة وسبق أن استأذنت باصطحابهم فاستُجيب طلبها بأيّما غبطة) تستعيد كامل بريقها في نظر أصحاب البيت الذين ربما كانت مكافأة مجيئها المرتقب السبب الحاسم اللامعلن للقرار الذي اتّخذوه قبل شهر مضى، أي تحمله إرباكات وتكاليف إقامة حفلة في فترة العصر. كانوا يذكرون، إذ يشاهدون المركيزة في حفل «عصرونيتهم»، لا تلطّفها بالذهاب إلى حفلات جيران غير مؤهلين لذلك، بل عراقة أسرتها وفخامة قصرها وفظاظة كنّتها (وشهرتها «لوغراندان» قبل زواجها) التي كانت تعدّل، بغطرستها، من السذاجة التفهة لطيبة حماتها. ويظنون مذ ذاك أنهم يقرؤون في الزاوية المجتمعية في صحيفة «**لو غولوا**» الخبر الصغير الذي سيعدّونه بأنفسهم داخل الأسرة، بعد إيصاد الأبواب جميعاً بالمفتاح، حول «الزاوية الصغيرة في «بريتانيا» التي يلهون فيها أشدّ اللهو وحفلة العصر المنتقاة تماماً التي لم يفترقوا فيها إلا بعدما حملوا أصحاب

البيت على الوعد بالعودة عما قريب». وينتظرون الصحيفة كل يوم وبهم قلق أنْ لم يشهدوا عصريّتهم بعد على صفحاتها ويخشون أن لا يكونوا فازوا بالسيدة «دو كامبرمير» لمدعوّيهم فقط وليس لجمهرة القراء. وأخيراً يحلّ اليوم المبارك: «للموسم في «بالبيك» هذا العام ألق استثنائي، والشائع هنا الحفلات الموسيقية الصغيرة بعد الظهر، إلخ.». إن اسم السيدة «دو كامبرمير» جاء صحيحاً إملائياً و«ورد ذكره مصادفة» ولكن في رأس القائمة. ولم يبق من بعد سوى أن يبدو أنهم يضيقون ذرعاً بهذا التطفّل للصحف الذي يمكن أن يقود إلى خلافات مع الأشخاص الذين لم يستطيعوا دعوتهم، وأن يسألوا بلهجة منافقة في حضرة السيدة «دو كامبرمير» من ذا بلغ به الغدر أن يبعث بهذا الخبر الذي كانت المركيزة تقول عنه بادية العطف وبنفسية السيدة الكبيرة: «أفهم أن يزعجكم الأمر، أمّا في ما يخصني فما كنت إلا سعيدة جداً بأن يعرفوا أني في منزلكم.

كانت السيدة «دو كامبرمير» قد خربشت على البطاقة التي سُلّمت إليّ أنها تُحيي حفلة عصر بعد الغد. والأكيد أنني منذ يومين فقط ومهما كنت متعباً من الحياة المجتمعية فربما أحسست في ما يخصني بمتعة حقيقية في أن أتذوّقها وقد نقلت إلى هذه الحدائق حيث كانت تنبت في ترابها، بفضل معرض «فيتيرن»، أشجار التين والبلح وأغراس الورود وتمتدّ حتى البحر وهو في الغالب بهدوء وزرقة المتوسط وفوق مياهه يذهب يخت المالكين الصغير ليجيء قبل بدء الاحتفال بأهمّ المدعوّين من مسابح شاطئ الجانب الآخر من الخليج، ويستفاد منه، بفضل شوادره الممدودة قبالة الشمس وبعدما يصل الجميع، كقاعة طعام لتناول العصرونية، ثمّ يعود في المساء ليعيد الذين سبق أن نقلهم. والبذخ بديع ولكنّه مكلف إلى حدّ أن السيدة «دو كامبرمير» إنما حاولت أن تزيد مداخيلها بطرق مختلفة.

كان ذلك جزئياً من أجل تدارك المصاريف التي يتسبّب فيها، وقد فعلت على وجه الخصوص بأن أجّرت للمرة الأولى أحد أملاكها: «لا راسبليير»، وهو مختلف تماماً عن «فيتيرن». أجل، كم لعلّ حفلة عصر

كهذه يعمرها نبلاء صغار مجهولون، كم لعلّها قبل يومين كانت غيّرت ضمن إطار جديد من حياتي الباريسية «الراقية»! أما الآن فلم يعد للمتع أي معنى في نظري. وكتبت إلى السيدة «دو كامبرمير» أعتذر إليها مثلما أمرت قبل ساعة بصرف «ألبيرتين»: فإن الغمّ كان ألغى فيَّ إمكان الرغبة تماماً، كما تقطع الحمّى الشديدة الشهية. كانت والدتي تزمع المجيء في الغد. وكان يبدو لي أنني أكثر استحقاقاً للعيش بجانبها وأنني سوف أفهمها بصورة أفضل الآن وقد أفسحت حياة بأكملها غريبة عنّي ومُهِينة في المكان لتصاعد الذكريات الأليمة التي تكلّل وتزمع قدر نفسي ونفسها بإكليل شوكها. ذلك ما كنت أظن، ولكن شتّان في الواقع ما بين الأحزان الحقة كما هو حزن أمي - التي تنزع منك حياتك بالمعنى الحرفي للكلمة لفترة طويلة وأحياناً على الدوام، ما إن فقدت الشخص الذي تحبّ - وتلك الأحزان الأخرى، وهي عابرة على الرغم من كلّ شيء، كما لا بدّ كان حزني، وتمضي سريعاً مثلما جاءت متأخرة، ولست تعرفها إلا بعد انقضاء فترة طويلة على الحادث لأنك احتجت «أن تدركه» كيما تحسّ بها. أحزان كتلك التي يعاني منها الكثيرون والتي ما كان يختلف عنها ذاك الذي يعذّبني الآن إلا من حيث طريقة التذكّر اللاإرادي تلك.

أمّا بشأن الحزن الذي يوازي في عمقه حزن أمي فسوف أَخْبَرُهُ ذات يوم، كما سنرى ذلك في تتمة هذه القصّة، ولكن ليس الآن ولا بالصورة التي كنت أتخيّلها. ومثلما يعرف راوٍ كان يجدر به أن يحفظ دوره ويكون في مكانه منذ فترة طويلة ولكنّه وصل في الثانية الأخيرة فقط ولم يسبق أنه قرأ سوى مرة واحدة ما ينبغي أن يقول، مثلما يعرف كيف يستر أمره بما يكفي من حذاقة، حينما تحين اللحظة التي ينبغي أن يجيب فيها، كي لا يستطيع أحد ملاحظة تأخّره، كذلك مكّنني حزني الجديد كلّ الجدّة أن أتحدّث إلى والدتي حينما وصلتْ وكأنما كان على الدوام مثله اليوم. واعتقدتْ فحسب أن رؤية هذه الأمكنة التي سبق أن كنت فيها مع جدّتي (وما كان الأمر كذلك على أي حال) قد أيقظته. وتبيّنت للمرة الأولى إذ

ذاك، ولأنني أعاني ألماً ما كان يساوي شيئاً قياساً على ألمها ولكنّه يفتح عينيّ، تبيّنت بهلع ما كان يمكن أن تعاني. وأدركت لأول مرة أن تلك النظرة الثابتة غير الدامعة وهي نظرتها منذ وفاة جدّتي (وما ينجم عنها من قلّة رثاء «فرانسواز» لحالها) إنما حطّت على هذا التناقض الممتنع الإدراك بين التذكّر والعدم. وكنت من جانب آخر أكثر دهشة، على الرغم من استمرارها في ارتداء براقعها السوداء وأثواب أوفر ستراً في هذا البلد الجديد، من التحوّل الذي تمّ في شخصها. ليس يكفي أن تقول إنها فقدت مرحها أياً كان، فقد كانت تبدو، وقد ذابت وتجمّدت في ما يشبه صورة ضارعة، أنها تخشى أن تسيء بحركة مفرطة النزق أو بصوت مفرط في ارتفاعه إلى الحضور الأليم الذي ما كان يفارقها. ولكنّي لاحظت على وجه الخصوص، ما إن رأيتها تدخل بمعطفها الذي من الحرير المموج - والأمر كان فاتني في باريس - أن من تقع عليها عيني لم تعد أمي بل جدّتي. ومثلما في الأسر الملكية والدوقية يتّخذ الابن لدى موت الزعيم لقبه فينقلب من دوق «أورليان» أو أمير «تارانت» أو أمير «لوم» على ملك فرنسا أو دوق «لاتريمواي» أو دوق «غيرمانت»، كذلك كان يتّفق في الغالب، من جرّاء حدوث أمر من نوع آخر ومن مصدر أكثر عمقاً، أن يمسك الميت بالحيّ الذي يصبح خليفته الذي يشبهه ومكملَ حياته التي توقّفت. وربما اقتصر دور الغمّ الكبير الذي يلي، لدى ابنة على غرار أمي، موت والدتها على تحطيم الخادرة قبل الأوان. والتعجيل في التحوّل وبروز كائن جديد تحمله في داخلنا وما كان، لولا هذه الأزمة التي نحرق بها المراحل ونجتاز الفترات الزمنية دفعة واحدة، ما كان ظهر إلا ببطء أشد. وربما كان في الأسف على التي فارقت نوع من الإيحاء يجلب في النهاية على قسماتنا تماثلات كنا على أي حال نختزنها بالقوة في داخلنا، وكان ثمة على وجه الخصوص توقّف لنشاطنا الأكثر فردية وخصوصية (ولدى والدتي توقّف حسّها السليم ومرحها الساخر الذي أخذته عن والدها) والذي ما كنا نخشى ممارسته ما دام الحبيب على قيد الحياة،

حتى لو جاءت الممارسة على حسابه، وكان يوازن الطبع الذي أخذناه حصراً عنه. فما إن تكون ماتت حتى يؤنّبنا ضميرنا إن كنا سوى ذلك ولا نُعجَبُ من بعد إلا بما كانت عليه، ما كنّاه نحن مذ ذاك ولكنّما ممزوجاً بشيء آخر، وما سنضحي عليه وحده من الآن فصاعداً. وبهذا المعنى (لا بذاك الغامض جداً الزائف جداً الذي يقصدونه بعامة) يمكن أن نقول إن الموت ليس غير ذي فائدة، وإن الميت يستمر في التأثير فينا. وإنه يؤثّر فينا حتى أكثر مما يفعل الحيّ لأننا، لمّا كان الواقع الحقيقي لا يُستخلص إلا بالفكر وكان موضوع عملية فكرية، إنما لا نعرف حقاً إلا ما اضطررنا إلى إعادة خلقه بالفكر وما تخفيه عنا حياتنا اليومية... ثم إننا في طقوس الأسف على موتانا إنما نخصّ ما أحبّوه بعبادة صنمية. فقد كانت والدتي لا تستطيع الافتراق عن حقيبة جدّتي وقد أضحت أثمن مما لو كانت من ياقوت وماس، وليس ذلك فحسب بل عن فروة يديها وجميع تلك الملابس التي كانت تزيد من تشابه المظهر بينهما، بل حتى عن مجلّدات السيدة «دو سيفينييه» التي كانت جدّتي تحملها على الدوام معها، ولعلّ والدتي ما كانت لتستبدل بتلك النسخ مخطوطة «**الرسائل**» نفسها. كانت تمازح فيما مضى جدّتي التي ما كانت تكتب لها مرة دون أن تستشهد بجملة للسيدة «دو سيفينييه» أو السيدة «دو بوسيرجان» وفي كل من الرسائل الثلاث التي وردتني من أمي قبل وصولها إلى «بالبيك» استشهدت لي بالسيدة «دو سيفينييه» كما لو أن تلك الرسائل لم تكن موجّهة إليّ من جانبها بل وجّهتها جدّتي إليها. وابتغت النزول إلى السدّ لترى هذا الشاطئ الذي كانت جدّتي تحدّثها عنه كلّ يوم في كتبها. ورأيتها من النافذة تمسك بيدها شمسية والدتها وتتقدّم كتلة سوداء بخطى خجولة ورعة، على الرمال التي داستها قبلها قدمان غاليتان، وكانت تبدو كأنما تمضي للبحث عن ميتة لا بدّ أن تعيدها للأمواج. واضطررت أن أنزل معها كي لا أدعها تتناول وحدها طعام العشاء. وتقدّم الرئيس الأول وأرملة رئيس نقابة المحامين طالبين تعريفهما بهما. كان كلّ ما يتعلّق بجدّتي شديد التأثير

عليها إلى حدّ أنها تأثرت إلى أبعد الحدود واحتفظت على الدوام بالذكرى والامتنان لما قاله لها الرئيس الأول مثلما عانت يهزّها الحنق من أن زوجة رئيس النقابة لم تنطق بكلمة تتذكّر بها الميتة. والحقيقة أن الرئيس الأول ما كان يهتمّ بها أكثر من زوجة رئيس النقابة. فلم تكن كلمات الأول العاطفية وصمت الأخرى، مع أن أمي أقامت بينهما مثل تلك المسافة، سوى طريقة مختلفة للإعراب عن تلك اللامبالاة التي يوحي لنا الأموات بها. لكنّي أظن أن والدتي أحسّت على وجه الخصوص بشيء من الرقّة في الكلمات التي أمررت فيها غصب نفسي قليلاً من العذاب، فما كان يمكن إلا أن يُسعد والدتي (على الرغم من كل الحنان الذي تكنّه لي)، كمثل كلّ ما يضمن لجدّتي بقاءً في الصدور. لقد نزلت والدتي في الأيام التالية جميعاً تجلس على الشاطئ لتفعل بالضبط ما سبق أن فعلت والدتها وكانت تقرأ كتابيها المفضّلين عندها، «**مذكّرات**» السيدة «دو بوسيرجان» و«**رسائل**» السيدة «دو سيفينييه». وهي لم تستطع، ولم يستطع أي منا، احتمال أن تدعى هذه الأخيرة «المركيزة الظريفة» ولا أن يدعى «لافونتين» «الدرويش». ولكنّها حين كانت تقرأ في الرسائل الكلمة التالية: «ابنتي» كانت تظن أنها تسمع والدتها تحدّثها.

وكان من سوء طالعها أن التقت، في واحدة من تلك الزيارات المقدّسة التي ما كانت تودّ أن يضايقها أحد فيها، التقت على الشاطئ سيدة من «كومبريه» تتبعها بناتها. وأظن اسمها كان السيدة «بوسّان». ولكنّنا لم نكن ندعوها فيما بيننا سوى «ستزوّدني بالأخبار»، فإنها كانت تحذّر بناتها بهذه الجملة التي تردّدها أبداً من الشرور التي يعددنها لأنفسهنّ، كأن تقول لواحدة منهن كانت تفرك عينيها: «يوم يصيبك رمد شديد فستزوّدينني بالأخبار». ولوّحت من البعيد لوالدتي بتحيات طويلة حزينة لا بمثابة تعزية بل كنوع من حسن التربية. وحتى لو أننا لم نفقد جدّتي ولو لم يتّفق لنا سوى أسباب تقضي بأن نكون سعداء لفعلتْ ما فعلت. فإنها إذ كانت تعيش وقد اعتزلت إلى حدّ ما في «كومبريه» في

حديقة مترامية الأطراف لم تكن تجد البتّة أي شيء على قدر كاف من النعومة وتدخل على كلمات وأسماء اللغة الفرنسية نفسها مخفّفات. فكانت تجد خشونة في تسمية قطعة الأواني الفضية التي تصبّ بها شراباتها «ملعقة» وتقول بالتالي «ملئكة»، ولعلّها كانت خشيت مخاشنة مُنْشد «تليماخوس» الرقيق إذ تدعوه باسم «فينْلون» القاسي - مثلما كنت أفعل أنا عن معرفة وقصد إذ كان أعزّ صديق عندي الشخص الأوفر ذكاء، الطيّب الشجاع الذي لا يمكن أن ينساه كلّ من عرفه، عنيت «بيرتران فينْلون» - فلا تقول قط إلا «فينيلون» لما ترى أن «الإمالة» تضيف بعض الليونة. أمّا صهر السيدة «بوسّان» الأقل رقّة والذي نسيت اسمه، وكان كاتباً عدلاً في «كومبريه» فقد استولى على الصندوق وأفقد عمّي بوجه الخصوص مبلغاً كبيراً إلى حدّ ما. ولكن غالبية أهالي «كومبريه» كانوا على أفضل علاقة بأعضاء الأسرة الآخرين إلى حدّ لم ينجم معه أي فتور واكتفوا بالرثاء لحال السيدة «بوسّان». لم تكن تقيم حفلات استقبال، لكنّ الناس كانوا يتوقفون، في كلّ مرة يمرّون فيها أمام سياجها، يتأمّلون مظلاتها الرائعة دون أن يمكنهم تمييز شيء آخر. وهي كادت لا تضايقنا في «بالبيك» حيث لم ألقها إلا مرة واحدة في لحظة كانت تقول فيها لابنتها التي توالي قضم أظافرها: «حينما تصابين بداحس شنيع تزوّدينني بالأخبار».

كنت ألبث وحيداً في غرفتي في أثناء ما تقرأ والدتي على الشاطئ. وكنت أتذكّر الفترات الأخيرة في حياة جدّتي وكلّ ما يرتبط بها، وباب الدرج الذي أبقي مفتوحاً بعدما خرجنا في آخر نزهة لها. في مقابل ذلك كله كان ما بقي من العالم يبدو وكأنه يكاد لا يكون حقيقياً وكان ألمي يفسده عليّ بكامله. وأخيراً أصرّت والدتي عليّ بالخروج. لكنّما ثمة في كل خطوة أخطوها جانب منسيّ من الكازينو، من الشارع الذي سبق أن مضيت فيه، وأنا أنتظرها أول مساء، حتى نصب «دوغاي تروان» يمنعني من المضيّ قُدماً، مثل ريح لا يسعك مقاومتها؛ وكنت أغضّ الطرف كي لا أرى. كنت أعود باتجاه الفندق بعدما أستعيد شيئاً من قواي، الفندق

الذي أعلم أنه يستحيل منذ الآن، مهما طال انتظاري، أن ألقى فيه جدّتي، جدّتي التي سبق أن لقيتها فيما مضى في المساء الأول لوصولنا. ولمّا كانت تلك أول مرة أخرج فيها فقد نظر إليّ كثيرون من الخدم الذين لم أكن بعد رأيتهم نظرات مُسْتَغرَبة. وعلى عتبة الفندق ذاتها رفع خادم موزّع شاب قبّعته ليحيّيني وأعادها بخفّة. وظننت أن «إيميه» قد نقل اليه، حسبما يقول، «تعليمات» بضرورة مراعاتي. ولكنّي رأيته في اللحظة نفسها يرفعها ثانية لشخص آخر كان عائداً. والصحيح أن هذا الشاب ما كان يعرف في الحياة غير نزع قبّعته وإعادتها. ويفعل ذلك على أكمل وجه. ولمّا أدرك أنه لا يستطيع غير ذلك وأنه يجيد عمله ذاك فقد كان ينجزه أكثر ما يمكنه من مرات في اليوم، الأمر الذي كان يكسبه من جانب الزبائن مودّة غير مفضوحة ولكنّها عامة، ومودّة كبيرة كذلك من جانب البوّاب الذي كان مكلّفاً تعيين الخدم الموزّعين والذي لم يستطع، حتى هذا الطائر النادر، أن يجد واحداً لم يُصْرَف في أقلّ من ثمانية أيام، فيدهش ذلك «إيميه» أعظم الدهشة فيقول: «مع أنهم لا يطالبونهم في هذه المهنة إلا بالتهذيب وليس ينبغي أن يكون ذلك صعباً إلى هذا الحدّ». والمدير بدوره كان يحرص أن يتمتّعوا بما كان يسمّيه «حضوراً» جميلاً، ويعني ضرورة أن يبقوا هناك، أو هو بالأحرى لم يحفظ بصورة صحيحة كلمة «هيبة». وكان مظهر المرج الذي يمتدّ خلف الفندق قد تبدّل من جرّاء إنشاء بضعة أحواض مزهرة ورفع شجيرة جيء بها من البلاد الأجنبية وكذلك موزّع كان يزيّن في السنة الأولى المدخل الخارجي بخيزران قامته ولون شعره الغريب. كان قد رافق كونتيسة بولونية جعلت منه أمين سرّها، مقلّداً بذلك أخويه اللذين يكبرانه وأخته ضاربة الآلة الكاتبة وقد انتزعتهم من الفندق شخصيات من بلدان عدّة وجنس مختلف وقعوا أسرى سحرهم. وحده الأخ الأصغر بقي وما كان أحد يبغيه لأنه يعاني من الحَوَل. وكان شديد السعادة حينما تجيء الكونتيسة البولونية وحاميا الاثنين الآخرين لقضاء بعض الوقت في فندق «بالبيك». كان يحبّ إخوته، على الرغم من أنه كان

حاسدا لَهم، ويستطيع هكذا أن ينمّي على مدى بضعة أسابيع عواطف عائلية. أفلم تتعوّد رئيسة دير «فونتفرو»، وتفارق لذلك راهباتها، المجيء لنيل نصيبها من الضيافة التي كان يوفّرها «لويس الرابع عشر» للسليلة الثانية لآل «مورتمار»، عنينا عشيقته السيدة «دو مونتسبان»[1]؟ أمّا هو فقد كانت أول سنة له في «بالبيك»، ولم يكن بعد يعرفني، إلا أنه سمع الأكثر قدماً من رفاقه يُتْبِعُون كلمة السيد اسمي حينما يكلّمونني فحذا من المرة الأولى حذوهم بهيئة الراضي إما عن إبراز علمه في ما يخصّ شخصية بحكم أنها معروفة، وإما عن التزامه عادة كان يجهلها قبل خمس دقائق ولكنّما يبدو له من الضرورة بمكان أن لا يخالفها. كنت أدرك تماماً السحر الذي يمكن أن يوفّره هذا الفندق الكبير لبعض الناس. فقد كان مقاماً على غرار مسرح وتعمره بالنشاط طائفة كثيرة من الممثّلين الصامتين تملؤه حتى السقوف. ومع أن الزبون لم يكن أكثر من متفرّج فقد كان يُشْرَكُ على الدوام في العرض، لا كما في تلك المسارح التي يمثّل فيها الممثّلون مشهداً في القاعة بل كما لو أن حياة المتفرّج تجري وسط مظاهر الأبّهة في المسرح. كان لاعب كرة المضرب يستطيع العودة بسترة من الفانيلا البيضاء فإنّ البوّاب قد ارتدى بزة زرقاء زيّنت بشرائط فضية ليسلّمه رسائله. فإن لم يشأ لاعب كرة المضرب الصعود سيراً على الأقدام فما كان ذلك يقلّل من اختلاطه بالممثّلين إذ يقف إلى جانبه لتشغيل المصعد العامل المكلّف وقد ارتدى ثياباً فاخرة. كانت ممرات الأدوار تختلس فرار خادمات وموزّعات، جميلات على صفحة البحر كإفريز ملاعب الإلهة «أثينا»، وإلى غرفهنّ الصغيرة يدلف هواة جمال النادلات بعد لفّات مدروسة علمياً. أما في الأسفل فكان العنصر الذكوري سائداً يجعل من هذا الفندق، من جرّاء حداثة سنّ الخدم الكبيرة وبطالتهم، نوعاً من المأساة اليهودية المسيحية

(١) عشيقة ملك فرنسا الذائعة الصيت وكانت شقيقة رئيسة الدير المذكور آنفاً التي وفدت مراراً على البلاط وأثارت إعجاب لويس الرابع عشر.

تجسّدت ويجري تمثيلها إلى ما لا نهاية. ولذلك لم أكن أستطيع الحؤول دون أن أُلقي على نفسي لدى رؤيتهم، لا بالتأكيد أبيات «راسين» التي خطرت على بالي في منزل الأميرة «دو غيرمانت» فيما كان السيد «دو فوغوبير» ينظر إلى سكرتيري سفارة شبان يحيّون السيد «دو شارلوس»، بل أبيات أخرى لـ«راسين» لا من مسرحية «**إستير**» هذه المرة بل «**أتالي**»: فإنه من أول البهو، أي ما كانوا يُسمّونه الأروقة في القرن السابع عشر، كانت تقف جمهرة من النُّدل الشباب تفيض عافية، ولا سيما ساعة «العصرية» على غرار الفتيان اليهود في جوقات «راسين»، ولكنّي لا أظن أنْ كان أحد يستطيع أن يقدّم حتى الإجابة الضعيفة التي يلقاها «جواس» لـ«أتالي» حينما تسأل هذه الأخيرة الطفل الأمير: «ما هو عملك إذن؟» إذ لا عمل لهم البتّة. ولو أنهم سألوا أياً منهم، كما فعلت الملكة العجوز:

«ولكن ما الذي يفعله
هذا الشعب الحبيس كلّه داخل هذا المكان؟»

فلعلّ أقصى ما كان يمكن أن يقوله:

«إني أشاهد النظام الفخم في هذه الاحتفالات
وأُسهِمُ فيه».

كان أحد الممثّلين الصامتين الشباب يمضي أحياناً إلى شخصية أكثر أهمية ثم يعود الفتى الجميل إلى الجوقة، والجميع، إن لم يكن الوقت لحظة استراحة تأمّلية، كانوا يشابكون خطوط حركاتهم اللامجدية المُجلّة التزينية اليومية. فإنهم، فيما عدا «يوم عطلتهم»، ولمّا «نُشّئوا بعيداً عن العالم» ولا يجاوزون فناء الهيكل، كانوا يعيشون ذات العيشة الرهبانية التي للاويّين[1] في مسرحية «**أتالي**»، وكان بوسعي أمام «هذه الفرقة الفتيّة

---

(١) الذين كرّسوا أنفسهم لخدمة الهيكل لدى اليهود من عشيرة «لاوي».

المخلصة» التي تلهو على حضيض الأدراج المغطاة بطنافس رائعة أن أتساءل إن كنت أدخل إلى فندق «بالبيك» الكبير أو إلى هيكل سليمان.

كنت أعود فأصعد مباشرة إلى غرفتي وقد غُلّتْ أفكاري عادة بالأيام الأخيرة من مرض جدّتي، بتلك العذابات التي أعيشها من جديد فأزيد عليها هذا العنصر الذي يصعب احتماله حتى أكثر من عذاب الآخرين نفسه والذي تضيفه إليها شفقتنا التي لا ترحم، فحين نظن أننا نستعيد فحسب آلام شخص عزيز علينا فإن إشفاقنا يضخّمها. ولكنّه هو مَنْ ربما كان على حقّ أكثر من وعي هذه الآلام من جانب الذين يعانون منها والذين يخفى عليهم ذلك الحزن في حياتهم، الحزن الذي يراه الإشفاق ويتعذّب من جرّائه. على أن إشفاقي كان جاوز في اندفاعة جديدة عذابات جدّتي لو عرفت إذ ذاك ما جهلته زمناً طويلاً من أنها عشية وفاتها، وفي هنيهة وعي وإذ تأكد لها أني لست هناك، أمسكت يد والدتي وقالت لها بعدما ألصقت بها شفتيها المحمومتين: «الوداع يا ابنتي وداعاً لا لقاء بعده». وربما تلك كانت أيضاً الذكرى التي لم تنفكّ والدتي تحدّق إليها. ثم كانت الذكريات الحلوة تعود إليّ. فقد كانت جدّتي وكنت حفيدها. وكانت تعابير وجهها تبدو كأنما سُطّرتْ في لغة خُصصْتُ بها وحدي. لقد كانت كلّ شيء في حياتي ولا وجود للآخرين إلا بالنسبة إليها وإلى الحكم الذي قد تزوّدني به عنهم. ولكن لا، لقد كانت علاقاتنا أكثر من عابرة لأنها لم تكن عرضية. إنها لا تعرفني من بعد ولن أعود فأراها في يوم. فلم نكن ولدنا فقط الواحد للآخر، لقد كانت غريبة. تلك الغريبة كنت أنظر صورة لها أخذها «سان لو». كانت والدتي قد ألحّت، بعد لقائها «ألبيرتين» كي أستقبلها بسبب الأشياء اللطيفة التي قالتها لها حول جدّتي وحولي. وكنت مذ ذاك قد حدّدت لها موعداً. وأخطرت المدير كي يطلب إليها الانتظار في الصالة. فقال لي إنه يعرفها منذ زمن طويل هي وصديقاتها وقبلما بلغن «سنّ الرشاد»، ولكنّه حاقد عليهنّ لأمر قلنه عن الفندق. «لا بدّ أنهن غير «مضطلعات» تماماً للتكلم على هذا النحو، ما لم يكن ذلك افتراء

بحقّهن». وادركت بسهولة أن «الرشاد» قيلت عن «الرشد». وبانتظار ساعة الذهاب للقاء «ألبيرتين» ظللت أحدّق وكأنما برسم يبلغ بك في النهاية ألا تراه من بعد لكثرة ما نظرت إليه، إلى الصورة التي كان أخذها «سان لو» حينما عدت أفكّر فجأة: «إنها جدّتي وأنا حفيدها» مثلما يعود فاقد الذاكرة فيلقى اسمه ومثلما يغيّر مريض شخصيته. ودخلت «فرانسواز» لتخبرني أن «ألبيرتين» حضرت، وإذ رأت الصورة الشمسية قالت: «يا للسيدة المسكينة، هذه هي تماماً، وحتى الشامة على خدّها؛ لقد كانت على مرض شديد في ذلك اليوم الذي صوّرها المركيز فيه، وقد أغمي عليها مرتين؛ وهي قالت لي: «خصوصاً يا «فرانسواز» يجب أن لا يدري حفيدي بذلك». وكانت تتستّر على الأمر تماماً، إذ كانت دائمة المرح بين الناس. وحينما تكون وحيدة مثلاً، كنت أراها تبدو أحياناً رتيبة الفكر، ولكن سرعان ما ينقضي ذلك. ثم إنها قالت لي هكذا: «إن أصابني أمر ذات يوم فلا بدّ أن يكون لديه رسم لي، وأنا لم أوص مرة أن يُنَفَّذ واحد لي». حينئذ أرسلتني لأقول للسيد المركيز، وهي توصيه بأن لا يروي لسيدي أنها هي من طلبت ذلك، إن كان لا يستطيع أن «يسحب» صورة لها. وحينما عدت لأقول لها أنْ نعم، لم تعد قابلة لأنها تجد وجهها متعباً جداً، وتقول لي: «إنه حتى أسوأ من غياب الصورة تماماً». ولكنّها لمّا لم تكن غبية تدبّرت أمرها في النهاية إلى حدّ أنها إذ وضعت قبّعة كبيرة مرخاة الأطراف لم يعد يبدو عليها شيء من ذلك حينما لا تكون في تمام الضوء. لقد سُرّت أيّما سرور بصورتها لأنها لم تكن تعتقد آنذاك أنها تعود إلى «بالبيك». وعبثاً كنت أقول لها: «سيدتي، يجب أن لا تتكلمي مثلما تفعلين، فما أحبّ أن أسمع سيدتي في مثل حديثها هذا» فقد سكنتها تلك الفكرة. والحقيقة أنها لم تكن قادرة على تناول طعامها منذ عدّة أيام. لذلك كانت تدفع سيدي إلى الذهاب لتناول العشاء بعيداً جداً بصحبة السيد المركيز. وكانت تتظاهر حينذاك، بدلاً من القيام إلى المائدة، بالقراءة، وما إن تنطلق عربة المركيز حتى تصعد للنوم. ثمة أيام كانت تريد

فيها أن تخطر سيدتي بالمجيء لتراها أيضاً، ثم تخشى أن تفاجئها إذ لم يسبق أن قالت لها شيئاً. «ترين يا «فرانسواز»، خير لها أن تبقى مع زوجها». وسألتني «فرانسواز» فجأة، وهي تنظر إليّ إن كنت «أحسّني منحرف الصحة»، فقلت لها أنْ لا: «ثم إنك تكبلني هكذا في الحديث معك. وربما وصلت زائرتك. ينبغي أن أنزل، فليست شخصاً جديراً بهذا المكان. إذ يمكن «لِمُسْتَعْجِلَةٍ» مثلها أن تكون عادت أدراجها، إذ هي لا تحبّ الانتظار، ويحك! الآنسة «ألبيرتين» الآن أصبح لها وزن». - «أنت على خطأ يا «فرانسواز»، إنها مقبولة، بل أكثر من ذلك بالنسبة إلى المكان. ولكن هيّا أعلميها أنني لن أستطيع لقاءها اليوم».

أية خطب ومراثٍ كنت أيقظت في صدر «فرانسواز» لو أنها أبصرتني أبكي! وتواريت بعناية، ولولا ذاك لحزتُ عطفها. على أني وهبتها عطفي. فإننا لا ندخل إلى حدّ الكفاية في صدور هاتيك الوصيفات اللائي لا يقوين على مشاهدتنا نبكي كما لو أن البكاء يؤلمنا؛ أو هو ربما يؤلمهنّ، إذ قالت لي «فرانسواز» حينما كنت صغيراً: «لا تبك هكذا فلا أحبّ أن أراك تبكي كما تفعل». لسنا نحبّ الجمل الفخمة وصنوف القسم، وإننا لعلى ضلال، إذ نغلق على هذا النحو قلوبنا دون العنصر المأسوي في الأرياف، دون الأسطورة التي تطلقها الخادمة المسكينة، وقد طردت، ربما ظلماً، بتهمة السرقة، تطلقها شاحبة اللون تماماً وقد أضحت فجأة أكثر اتّضاعاً كما لو كان الاتهام جريمة، وهي تستشهد بنزاهة أبيها ومبادئ أمها ونصائح الجدّة. صحيح أن هؤلاء الخدم أنفسهم الذين لا يستطيعون احتمال دموعنا يتسبّبون دون رعشة ضمير بإصابتنا بالتهاب رئوي لأن الوصيفة في الدور الذي تحتهم تحبّ التيارات الهوائية وقد لا يكون من حسن التربية إزالتها. ذلك لأنه لا بدّ لمن كانوا على حقّ، مثل «فرانسواز»، أن يخطئوا هم أيضاً كي يجعلوا من العدالة أمراً مستحيلاً. فحتى متع الخادمات المتواضعة تستثير إمّا رفض أسيادهن أو سخريتهم. والأمر على الدوام غير ذي بال ولكنّه عاطفي على غباء وغير صحي.

ولذلك يمكن أن يقلن: «كيف ذلك، أنا التي لا تطلب إلا هذا في بحر العام ولا يمنحونني إياه». مع أن الأسياد ربما أعطوا ما يجاوز ذلك كثيراً مما لا يتّسم بالسخف أو الخطورة عليهنّ - أو عليهم. أجل، لا يقدر المرء أن يقاوم اتضاع الوصيفة المسكينة المرتعشة المستعدة للإقرار بما لم تقترف يداها وتقول «سأرحل هذا المساء إن وجبَ ذلك». ولكنّما يجب كذلك أن نعرف كيف لا نبقى فاقدي الإحساس، على الرغم من تفاهة الأشياء التي تقولها ولهجتها المتوعّدة وميراثها لجهة أمها وكرامة «الحظيرة»، امام طبّاخة عجوز تدثر حياتها وشرف الأسلاف وتمسك بالمكنسة كما تمسك بصولجان، وتصل بدورها حيّز المأساة تقطّعه بالدموع وتعود لتنتصب بجلال. لقد تذكّرت في ذلك اليوم أو تخيّلت مثل تلك المشاهد ونسبتها إلى خادمتنا العجوز، ومنذ ذلك الحين، وعلى الرغم من كلّ الإساءة التي أمكن أن تلحقها بـ«ألبيرتين»، أحببتُ «فرانسواز» حباً متقطعاً بالحقيقة ولكنّه من النوع الأكثر قوة، الحبّ الذي أساسه الإشفاق.

أجل، لقد تألّمتُ طوال النهار وأنا مقيم أمام صورة جدّتي. كانت تعذّبني، أقل مع ذلك مما فعلت في المساء زيارة المدير. فقد سمعته فيما كنت أحدّثه عن جدّتي وهو يعيد عليّ تعازيه، سمعته يقول لي (إذ كان يحبّ استعمال الألفاظ التي يسيء تلفّظها): «ذلك كمثل اليوم الذي أصيبت فيها جدّتك بالغَشيَان»، وكنت أودّ إعلامك بالأمر فإنه بسبب الزبائن، ترى، كان يمكن أن يسيء ذلك للدار. كان خيراً لها أن ترحل في المساء نفسه. ولكنّها توسّلت إليّ أن لا أقول شيئاً ووعدتني أن لن تصاب «بالغشيان» من بعد أو أنها سترحل لأول ما يصيبها. غير أن المشرف على الدَوْر نقل إليّ أنها أصيبت بآخر. ولكنكم كنتم من قدامى الزبائن الذين كنا نسعى لإرضائهم، ولما لم يشتكِ أحد. . .» هكذا إذن كانت جدّتي تعاني من إصابات بالغشيان وقد أخفتها عني، ربما في الفترة التي كنت أبدي لها أقل اللطف وتضطر فيها، في غمرة الألم، أن تنتبه لأن تكون طيّبة المزاج

كي لا تغيظني ولأن تبدو في أحسن عافية كي لا تطرد من الفندق. و«الغشيان» كلمة ما كنت لأتخيّلها في يوم بلفظها هذا ولعلّها كانت بدت لي مضحكة إن انطبقت على آخرين غيرها، ولكنّها في جدّتها الصوتية الغريبة التي تشبه جدّة نشاز طريف، لبثتْ فترة طويلة دون أن توقظ فيَّ الأحاسيس الأكثر إيلاماً.

في الغد ذهبت بناء على طلب أمي للتمدّد قليلاً على الرمال، أو بالأحرى في الكثبان حيث يحتجب المرء داخل ثنياتها وحيث أعلم أن «ألبيرتين» وصاحباتها لن يمكنهنّ العثور عليّ. كانت جفوني المرخيّة لا تسمح إلا بمرور نور وحيد ورديّ تماماً كان ذاك المنبعث من الجدران الداخلية لعينيّ. ثمّ انطلقت تماماً. حينئذ ظهرت لي جدّتي جالسة على مقعد. كانت تبدو، بضعفها الشديد، وكأنما تحيا أقلّ من شخص آخر. ومع ذلك كنت أسمعها تتنفّس. وأحياناً كانت إشارة منها تبرهن أنها فهمت ما كنّا نقوله أنا ووالدي. وعبثاً كنت أوالي تقبيلها فما أفلح في بعث نظرة حنان في عينيها وبعض لون على خدّيها. كانت تبدو، وقد غابت عن ذاتها، كأنها لا تحبّني ولا تعرفني وربما لا تراني. وما كنت أستطيع كشف سرّ لامبالاتها وانحطاط قواها واستيائها الصامت. وانتحيت بأبي جانباً وقلت له: «ها أنت ترى مع ذلك أنه لا غبار على أنها أدركت كلّ شيء تمام الإدراك. إنه وهم الحياة التام. فلو استطعنا استقدام ابن عمك الذي يزعم أن الأموات لا يحيون! فإنه انقضى نيّف وعام على وفاتها ولا تزال بالإجمال حية. ولكن لمَ لا تريد تقبيلي» - «انظر، هذا رأسها المسكين يهوي». - «ولكنّها تودّ الذهاب عما قريب إلى «الشانزيليزيه». - «ذلك ضرب من الجنون» - «حقاً، أتظن ذلك يجرّ عليها الأذى وأنها ربما ازدادت موتاً؟ لا يمكن ألا تحبّني من بعد. وعبثاً سأقبّلها، أفلن تبتسم لي قط؟» -«وما عساك تريد، الأموات هم الأموات».

وبعد بضعة أيام أخذت أستعذب النظر إلى الصورة التي سبق أن صوّرها «سان لو»، فلم تعد توقظ فيَّ الذكرى التي قالت عنها «فرانسواز»

لأنها لم تفارقني من بعد وقد تعوّدتها. ولكن الصورة في مقابل الفكرة التي كنت أحملها عن وضعها الخطير جداً والأليم جداً في ذلك اليوم، إذ أفادت من الحيل التي تفتّق عنها ذهن جدّتي والتي كانت تفلح في خداعي حتى منذ أن كُشفَتْ لي، كانت تبرزها لي شديدة الأناقة، شديدة اللامبالاة تحت القبّعة التي كانت تحجب وجهها بعض الشيء إلى حدّ أن كنت أراها أقلّ تعاسة وأوفر عافية مما تصوّرتها. ولكن، لمّا كانت وجنتا جدّتي قد اتخذتا دون علم منها ملامح خاصة بهما، شيئاً ما كامداً رمادياً مضيعاً كنظرة حيوان يحسّ أنه اختير وعُيِّن، فقد كان لها هيئة من حُكمت بالإعدام، هيئة متجهّمة دونما قصد فاجعة دون وعي منها وكانت خافية عليّ ولكنّها حالت دوماً دون أن تستطيع والدتي النظر إلى تلك الصورة، تلك الصورة التي كانت أقلّ ما تبدو صورة لوالدتها منها لمرضها والإهانة التي طبعها ذلك المرض على وجه جدّتي بصفعاته القاسية.

ثمّ صمّمتُ ذات يوم أن أبعث من يقول لـ«ألبيرتين» إني سأستقبلها قريباً، ذلك أنه ذات صباح ساده حرّ شديد مبكّر كانت آلاف صيحات الأطفال الذين كانوا يلعبون والسباحين في مزحاتهم وبائعي الصحف قد وصفت لي بخطوط من نار وشرارات متشابكة الشاطئ الملتهب الذي تقبل الموجات الواحدة تلو الأخرى لتبلّله برطوبتها. حينئذ بدأ الحفل السمفوني تختلط به طبطبة الماء، وكانت الكمنجات تئزّ فيه أزيز سرب نحل ضلّ طريقه فوق البحر. وفي الحال حضرتني الرغبة في سماع ضحكة «ألبيرتين» مجدّداً وأن أعود فألقى صديقاتها، هاتيك الفتيات اللواتي يبرزن على صفحة الموج ولبثن في ذاكرتي السحر الذي لا ينفصل عن «بالبيك» ونباتها المميّز، وكنت عقدت العزم على إرسال كلمة لـ«ألبيرتين» بوساطة «فرانسواز» أدعوها في الأسبوع المقبل، فيما يتعالى البحر بهدوء ويغطي تماماً في كلّ تَكَسّر موجة بدفقات من الكريستال اللحن الذي تبدو جمله ينفصل بعضها عن بعض كأولئك الملائكة من حَمَلَة المزاهر الذين يرتفعون في أعلى الكاتدرائية الإيطالية بين قمم من السمّاقي الأزرق واليشب

المزبد. ولكن الطقس في اليوم الذي جاءت فيه «ألبيرتين» ساء مجدداً وأصبح بارداً، ولم تتح لي الفرصة على أية حال لسماع ضحكتها فقد كانت معكّرة المزاج إلى حدّ بعيد. وقالت لي: «بالبيك» مزهقة في هذا العام وسأحاول أن لا أمكث طويلاً. تعلم أني هنا منذ الفصح وقد مضى على ذلك أكثر من شهر. ليس هنا من أحد. لا أظنك اعتقدت أن الامر ممتع». وعلى الرغم من الهطل الأخير والسماء المتقلّبة في كلّ دقيقة فقد مضيت، بعدما صحبت «ألبيرتين» حتى «ايبرفيل» لأن «ألبيرتين» كانت تقوم برحلات «مكوكية»، حسب تعبيرها، بين هذا الشاطئ الصغير الذي تقوم عليه دارة السيدة «بونتان» و«انكرفيل» حيث تُسْتَضَافُ من جانب والدي «روزموند»، مضيتُ وحيداً في نزهة باتجاه ذلك الطريق الطويل الذي كانت تسلكه عربة السيدة «دو فلباريسيس» حينما كنا نذهب في نزهة برفقة جدّتي. كان ثمة برك ماء صغيرة لم تجفّفها الشمس الساطعة فتجعل من الأرض مستنقعاً حقيقياً وأخذت أفكّر بجدّتي التي ما كانت تستطيع فيما مضى أن تخطو خطوتين دون أن تتلطخ بالطين. ولكنّي ما إن وصلت إلى الطريق حتى بُهرت. فحيث لم أكن شاهدت برفقة جدّتي في شهر آب سوى الأوراق وما يشبه موضع أشجار التفاح، كانت على مدى النظر في تمام إزهارها وفي بذخ لا يصدّق، تذهب سوقها في الوحل وهي في أثواب الرقص دون أن تحتاط كي لا تفسد أروع ساتين زهري وقعت عليه عين في يوم وكان يلتمع في ضوء الشمس. كان الأفق البعيد يوفّر لأشجار التفاح كأنما خلفية لوحة يابانية مطبوعة. فإن رفعت رأسي لأنظر إلى السماء عبر الأزهار التي كانت تُظْهِرُ زُرْقَتَها المطمئنة عنيفة أو تكاد، كانت تبدو كأنما تتباعد لتبرز عمق هذا الفردوس. كان ثمة نسيم خفيف ولكنّه بارد يبعث، تحت تلك الزرقة، رعشة خفيفة في الباقات المحمرة. وتُقْبِلُ قراقب زرقاء لتحطّ على الأغصان وتتقافز بين الأزهار بأريحية كما لو أن كانت هاويا من هواة غرائبيات وألوان اصطنع هذا الجمال النابض بالحياة، على أنه كان يؤثر فيك حتى ليستدرّ دموعك لأنك تحسّ، مهما مضى بعيداً في

تأثيرات يشيعها فنّه المرهف، أنه جمال طبيعي وأن أشجار التفاح تلك قائمة هناك في قلب الريف كمثل فلاحين على طريق واسعة من طرق فرنسا. ثم خَلَفَتْ أشعّةَ الشمسِ فجاءة حبالُ المطر. فجرحت كامل الأفق ودفنت صفوف شجر التفاح في شباكها الرمادية. ولكن هذه الأخيرة ظلّت تنتصب، بجمالها المزهر الوردي، في الريح التي أصبحت قارسة البرودة تحت وابل المطر المنهمر: كان ذلك واحداً من أيام الربيع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

خبايا «ألبيرتين» - الفتيات اللواتي تشاهدهنّ في المرآة - السيدة المجهولة - عامل المصعد - السيدة «دو كامبرمير» - متع السيّد «نسيم برنار» - ترسيمة أولى في طباع «موريل» الغريبة - السيد «دو شارلوس» على العشاء في منزل آل «فيردوران.

كنت أحاول، في خشيتي أن تُضْعِفَ المتعة التي أصبتها في هذه النزهة المتوحّدة تذكّر جدّتي، أن أبعثه من جديد بالتفكير بواحد من العذابات النفسية الكبيرة التي عانت منها؛ وكان ذلك العذاب يحاول، استجابة لدعوتي، أن يتكوّن في فؤادي فيطلق فيه أعمدته الهائلة؛ لكن فؤادي كان دونما شكّ مفرط الضيق بالنسبة إليه ولم يجتمع لي من القوة ما أقوى به على حمل ألم عظيم إلى هذا الحدّ وكان انتباهي يشرد لحظة يتشكّل بكامله فتنهار أقواسه قبل التلاقي مثلما تتهاوى أمواج قبل اكتمال عقدها.

على أنه كان يسعني بمحض أحلامي حين أغطّ في نومي أن أعلم أن اغتمامي بموت جدّتي أخذ في التناقص، فقد كانت تظهر فيها وكأن الفكرة التي أتصوّرها عن عدمها أقلّ ضغطاً عليها. كنت أراها دائمة المرض ولكنّما على درب التعافي، فأجدها خيراً من ذي قبل. فإن بادرت إلى التلميح إلى ما سبق أن عانته كنت أغلق فاهها بقبلاتي وأطمئنها أنها شفيت

الآن نهائياً. كان بودّي حمل المتشكّكين على ملاحظة أن الموت في الحقيقة مرض يعود المرء منه، ولكنّي ما عدت ألقى لدى جدّتي تلقائية الأمس الخصبة. لم تكن أقوالها سوى جواب واهن طيّع ويقرب أن تكون محض صدى لأقوالي؛ ولم تعد سوى انعكاس لفكري الخاص.

لمّا كنت بعدُ عاجزاً عن الإحساس مجدّداً برغبة جسدية، فإن «ألبيرتين» أخذت من جديد مع ذلك توحي لي كأنما برغبة في السعادة. إن بعض أحلام الحنان المتبادل التي تسبح دوماً في داخلنا تمتزج بيسر من جرّاء نوع من التجانس بالذكرى التي تخلّفها فينا امرأة أصبنا لذّة معها (بشرط أن تكون الذكرى أصبحت على شيء من الإبهام). كان ذلك الشعور يذكّرني بجوانب من وجه «ألبيرتين» أكثر نعومة وأقلّ مرحاً وتختلف إلى حدّ عن تلك التي لعلّ الرغبة الجسدية كانت ذكّرتني بها. ولمّا كان بمثل قلة إلحاح هذه الرغبة فلعلّي كنت أجّلت تحقيقه طائعاً إلى الشتاء القادم دون أن أجهد في لقاء «ألبيرتين» ثانية في «بالبيك» قبل رحيلها. ولكنّ الرغبة الجسدية تطلع ثانية حتى في قلب غمّ لا يزال حياً. فقد كنت أتمنّى من سريري الذي يأمرونني بالمكوث فيه كل يوم فترة طويلة للراحة أن تأتي «ألبيرتين» لنعاود صنوف لهونا بالأمس. أفَلَسنا نرى زوجين، في الغرفة نفسها التي فقدا فيها ولداً وقد عادا سريعاً إلى العناق ليخلّفا شقيقاً للمتوفى الصغير؟ كنت أحاول أن أتلهّى عن تلك الرغبة بالمضيّ حتى النافذة لأشاهد بحر ذلك اليوم. ونادراً ما كانت البحار، شأنها في العام الأول، ذاتها من يوم إلى آخر. ولكنّها على أية حال كادت لا تشبه بحور السنة الأولى إما لأن الربيع حلّ الآن بأعاصيره، وإما، حتى لو جئت في التاريخ نفسه الذي وفدت فيه في المرة الأولى، لأن أزمنة مختلفة أكثر تقلّباً كان يمكن أن لا تشير بهذا الشاطئ على بعض البحور الكسولة الضبابية الهشّة التي سبق أن رأيتها على مدى أيام قائظة تغفو على الشاطئ فيما يرفع صدرها الضارب إلى الزرقة على نحو يكاد لا يلحظ خفقان هادئ، وإما على وجه الخصوص لأن عينيَّ اللتين درّبهما «ايلستير» على

أن تحتفظا بالضبط بالعناصر التي كنت أستبعدها بالأمس بمحض إرادتي كانتا تتأمّلان طويلاً ما لم تكونا تحسنان رؤيته في العام الأول، ولم يعد ذلك التعارض الذي كان يدهشني إلى حدّ بعيد بادئ الأمر بين النزهات الحقليّة التي أقوم بها بصحبة السيدة «دو فيلباريسيس» وهذا الجوار السائل العزيز المنال الأسطوري للمحيط الأزلي، لم يعد قائماً في نظري. وفي بعض الأيام كان البحر الآن يبدو لي على العكس ريفياً بدوره. وفي أيام كان الطقس فيها جميلاً حقاً، وهي نادرة إلى حدّ ما. كان الحرّ قد خطّ على المياه، وكأنما عبر الحقول، طريقاً مغبرة، بيضاء تطلّ من خلفها مقدمة مركب صيد رشيقة كقبة جرسية قروية. وكانت هناك قاطرة لا ترى سوى مدخنتها تنفث دخانها في البعيد شأن مصنع منعزل، فيما يذكّرك مربّع أبيض محدّب وحيد في الأفق وقد رسمته دون شكّ كفّ شراع ولكنّما يبدو كثيفاً ويقرب أن يكون كلسياً، يذكّرك بالزاوية المشمسة لبناء منعزل، أمشفى كان أم مدرسة. وكانت السحب والريح، في الأيام التي ينضاف شيء منها إلى الشمس، تُتمُّ إن لم يكن الخطأَ في التقدير، فعلى الأقل وهمَ النظرة الأولى والإيحاء الذي توقظه في الخيال، ذلك لأن تعاقب مساحات لونيّة واضحة الاختلاف كتلك الناجمة في الأرياف عن تلاصق زراعات مختلفة، والفروق الحادة الصفراء التي تقرب أن تكون موحلة على صفحة البحر والتلال الردميّة والتلاع التي كانت تحجب عن العين قارباً يبدو فيه فريق من البحّارة الرشّاق وكأنه في حصاد، كلّ ذلك كان يجعل من المحيط في الأيام العاصفة شيئاً في مثل تنوّع وتماسك وتموّج ووفرة سكان وتحضّر الأرض السالكة التي كنت أمضي عليها بالأمس ولن أتأخّر في القيام بنزهات فوقها، وذات مرة لم يسعني الوقوف في وجه رغبتي فارتديت ثيابي بدلاً من أن أعود إلى النوم وذهبت في طلب «ألبيرتين» في «أنكرفيل» سوف أسألها مرافقتي حتى «دوفيل» حيث أقوم في «فيتيرن» بزيارة للسيدة «دو كامبرمير» وفي قصر «لا راسبلبير» بزيارة للسيدة «فيردوران»، وستنتظرني «ألبيرتين» في أثناء ذلك على الشاطئ، ونعود بعد

ذلك سوية في الليل، وذهبت لأستقلّ الخط الحديدي الصغير ذا الفائدة المحلية الذي أطلعتني «ألبيرتين» وصاحباتها فيما مضى على سائر ألقابه في المنطقة، فكان يدعى فيها تارة «الملفاف» بسبب انعطافاته التي لا تحصى، و«الحنتور» لأنه لا يتقدم، و«عابر المحيطات» بسبب صفّارة مروِّعة كانت له كي يحيد المارة عن دربه، «وديكوفيل»[1] و«القطار السلكي» مع أنه لم يكن سلكياً في شيء بل لأنه يتسلّق الجرف، ولا كان «ديكوفيل» بالمعنى الصحيح للكلمة بل لأن سكّته كانت بعرض ٦٠، والـ«ب ا غ» لأنه يمضي من «بالبيك» إلى «غراتفاست» مروراً بـ«أنجرفيل» و«الترام» والـ«ح ج ن» لأنه جزء من خط «حافلات جنوب النورماندي».

وجلست في عربة كنت فيها وحيداً، كان الطقس مشرقاً رائعاً، وكان الحرّ خانقاً فأنزلت الستارة الزرقاء التي لم تفسح في مجال المرور إلا لخطّ من الشمس. ولكنّي رأيت في الحال جدّتي مثلما كانت جالسة في القطار لدى رحيلنا من باريس إلى «بالبيك» حينما فضّلت، في العذاب الذي تعانيه لدى رؤيتي أحتسي «البيرة»، أن لا تنظر إليّ وأن تغمض عينيها وتتظاهر بالنوم. وأنا الذي ما كان يطيق فيما مضى احتمال العذاب الذي ينتابها حينما يحتسي جدّي الكونياك فقد أذقتها لا عذاب أن تراني فحسب أحتسي بدعوة من آخر غيري شراباً تظنه مشؤوماً عليّ، بل أرغمتها أن تطلق حريتي في الاحتساء منه ما طاب لي. بل الأنكى أنني اضطررتها بصنوف غضبي ونوبات الاختناق التي تصيبني أن تساعدني في ذلك وتنصحني به بنوع من التسليم الأخير الذي كنت أحتفظ منه أمام الذاكرة بصورة خرساء يائسة مغمضة العينين كي لا تبصر. وقد أعادت لي مثل تلك الذكرى، وكأنما ضربة عصا سحرية، أعادت لي من جديد الروح التي كنت آخذاً في فقدها منذ فترة. فما عساي كنت أفعل بـ«روزموند» وشفتاي بكلّ أجزائهما لا تجول فيهما سوى الرغبة في تقبيل ميتة؟ وما عسى كنت

(١) اسم الصناعي الذي اقترح خطاً حديدياً ضيقاً لأغراض النقل الصناعي.

أستطيع أن أقول لآل «فيردوران» وآل «كامبرمير» حينما يخفق فؤادي خفقاً شديداً إذ يعود فيتشكل فيه في كل لحظة العذاب الذي عانت منه جدّتي؟ ولم أستطع المكوث في تلك العربة. وما إن توقّف القطار في «مينفيل لا تانتوريير» حتى نزلت وقد تخلّيت عن مشروعاتي، وكانت «مينفيل» قد اكتسبت منذ حين أهمية عظيمة وسمعة خاصة لأن مديراً لكازينوهات كثيرة، وهو من بائعي الرفاه، كان قد ابتنى في مكان غير بعيد من هناك، وببذخ قادر أن ينافس في سوء ذوقه ما نراه ماثلاً في فندق كبير، منشأة سوف نعود إليها وكانت بصريح العبارة أول بيت بغاء للطبقات الراقية خطرت فكرة بنائه على شواطئ فرنسا. وكان الوحيد. صحيح أن لكلّ مرفأ بيته، ولكنّه لا يصلح إلا للبحّارة ولهواة الطرافة الذين يلهون بأن يشاهدوا قريباً جداً من الكنيسة المغرقة في القدم، «ربّة الدار» وهي قديمة جليلة مطحلبة مثلها، تقف أمام بابها السيّئ السمعة بانتظار عودة مراكب الصيد.

وابتعدت عن بيت «المتعة» البديعة الذي يشمخ هنا بوقاحة على الرغم من احتجاجات الأسر التي وُجِّهَتْ دون جدوى للعمدة، وعدت إلى الجرف أسلك طرقه المتعرجة إلى «بالبيك»، وسمعت دون استجابة مني نداء أزهار الزعرور. كانت تجاور، على ثراء أقلّ، أزهار التفاح فتراها على ثقل كبير فيما تقرّ باللون النديّ الذي لبنات صانعي عصير التفاح الكبار ذوات البتلات المورّدة. وكانت تعلم أنها، وإن تكن أقل مهوراً، مرغوبة أكثر ويكفيها لتروق الناس شيء من بياض جعد.

حينما عدت سلّمني بواب الفندق ورقة نعوة ينعي فيها المركيز والمركيزة «دو غونّفيل» والفيكونت والفيكونتيّة «دامفرفيل» والكونت والكونتيسة «دو بيرنفيل» والمركيز والمركيزة «دو غرانكرو» والكونت «دامنونكور» والكونتيسة «دو مينفيل» والكونت والكونتيسة «دوفرانكتو» والكونتيسة «دوشا فيربي» المولودة «ديغلفيل»، أدركت منها أخيراً سبب إرسالها إليّ حينما تعرّفت أسماء المركيزة «دو كامبرمير» المولودة «دومينيل لا غيشار» والمركيز والمركيزة «دو كامبرمير» وتبيّنت أن المتوفّاة، وهي من

بنات عمومة آل «كامبرمير» وتدعى «ايليينور - أوفرازي - هومبرتين دو كامبرمير»، كونتيسة «كريكتو». لم يكن ثمة على كامل امتداد هذه الأسرة الريفية التي يغطي تعدادها سطوراً ناعمة متراصة، بورجوازي واحد، كما لم يكن ثمة أي لقب معروف على أي حال، بل كامل مجموع النبلاء وردفائهم في المنطقة الذين تصدح أسماؤهم - وأسماء سائر الأماكن الهامّة في المنطقة - ذات النهايات المرحة: «فيل»، و«كور» وأحياناً «تو» الأقلّ رنيناً. كانت تلك الأسماء تبدو، وقد ألبست قرميد قصرها أو ملاط كنيستها، والرأس متداع يكاد لا يجاوز عقد القبّة أو جسم المسكن، وإن فعل فلمحض أن يعتمر المنور النورماندي أو مفرغات السطح المخروطي، كانت تبدو وكأنها تبوّق لحشد سائر القرى الجميلة المصفوفة أو المبعثرة في دائرة قطرها خمسون فرسخاً وأنها رتّبتها ضمن تشكيلة متراصة دونما فراغ فيها ودون أي دخيل في اللوحة الكثيفة المستطيلة للرسالة الأرستقراطية المؤطّرة بالسواد.

كانت أميّ قد صعدت مجدداً إلى غرفتها وهي تمعن الفكر في جملة السيدة «دو سيفينيه» هذه: «لست أرى أحداً من أولئك الذين يودّون تسليتي، الأمر الذي يعني بكلمات مستورة أنهم يبغون صرفي عن التفكير بك، وذلك ليسوؤني»، لأن الرئيس الأول كان قال لها إنه يجدر بها أن تتسلّى. أما أنا فقد همس في أذني قائلاً: «إنها الأميرة دو بارما». وزالت خشيتي إذ تبيّنت أن المرأة التي كان يدلّني عليها القاضي لا صلة لها البتّة بسموّها الملكي، ولكنّها إذ سبق أن حجزت غرفة لقضاء الليلة لدى عودتها من منزل السيدة «دو لوكسمبور»، فقد كان من تأثير الخبر على الكثيرين أن جعلهم يعدّون كل سيدة جديدة وفدت الأميرة «دو بارما» - وعليّ أن جعلني أصعد للاحتباس داخل علّيّتي. وما كنت أبغي البقاء فيها وحيداً كانت الساعة تناهز الرابعة، فسألت «فرانسواز» أن تذهب في طلب «ألبيرتين» لتأتي لقضاء أواخر العصر معي.

أظنني أكذب لو قلت أن بدأ مذ ذاك الارتياب المؤلم والدائم الذي

سوف توحي لي به «ألبيرتين»، ومن باب أولى ما كان سيرتديه ذلك الارتياب من طابع خاص وسحاقيّ على وجه الخصوص. أجل أصبح انتظاري منذ ذلك اليوم - على أنه لم يكن الأول - يشوبه شيء من القلق. لقد مكثت «فرانسواز» بعدما ذهبتْ، فترة طويلة إلى حدّ أن أخذتُ أفقد الأمل. لم أكن أضأت مصباحاً، وضوء النهار كاد يولّي. كانت الريح تحرّك راية الكازينو فتصطفق. وكان ثمة أرغن يدوي صغير توقّف أمام الفندق يعزف رقصات فالس من فيينا وبدا أشدّ وهناً في سكون رمال الشاطئ التي يزحف فوقها البحر، وكأنه صوت ترجم وضاعف الإبهام المزعج لتلك الساعة القلقة الزائفة. وأخيراً وصلت «فرانسواز» إنما وحدها. «لقد رحت بما أمكنني من السرعة، ولكنّها ما كانت تودّ المجيء من جرّاء أنها لا تجد تسريحتها مرضية تماماً. ولئن لم تمكث ساعة دوّارة تضع المساحيق والكريمات فهي لم تمكث خمس دقائق على أي حال، وسوف يصير هنا مركز عطارة حقيقي، إنها آتية؛ لقد بقيت في الخلف لتصلح حالها أمام المرآة، ظننت أني سأجدها هنا». وطال بنا الوقت أيضاً قبل أن تصل «ألبيرتين» ولكنّ ما أبدت هذه المرة من مرح ولطف بدَّد غمّي. وأخبرتني (بعكس ما كانت قالت ذلك اليوم) أنها باقية طوال الفصل وسألتني إن لم يكن بإمكاننا الالتقاء كل يوم شأننا في السنة الأولى. فقلت لها إني في حزن شديد في هذه الفترة وإني بالأحرى سوف أرسل في طلبها بين الحين والحين في آخر لحظة كما كانت الحال في باريس. فقالت لي: «إن أحسست بالغم في يوم أو رغبت في ذلك فلا تتردد وأرسل في طلبي أُقبِل إليك بسرعة وإن لم تخش أن يثير الأمر فضيحة في الفندق بقيتُ قدر ما تشاء». كانت «فرانسواز» قد بدت سعيدة، وهي تعود بها، شأنها في كل مرة تحمّلت مشقّة في سبيلي وأفلحت في إيلائي بهجة وسروراً. لكنّ «ألبيرتين» ذاتها لم تكن في شيء من تلك المسرّة، وكانت «فرانسواز» ستقول لي منذ الغد هذه الكلمات العميقة المغزى: «يجدر بسيدي أن لا يلتقي هذه الآنسة، فإني أرى تماماً نوعية الطباع التي هي عليها وسوف

تسبّب لك صنوفاً من الغم». وقد رأيت عبر قاعة الطعام المضاءة، وأنا أرافق «ألبيرتين» مودّعاً، الأميرة «دو بارما». ونظرت إليها فحسب فيما تدبّرتُ أمري كي لا تراني ولكني أقرّ أني وجدت شيئاً من العظمة في التأدب الملكي الذي سبق أن بعث ابتسامة على شفتيّ في منزل آل «غيرمانت». فإنه لمبدأ أن يكون الملوك في بيتهم أينما حلّوا وأن المراسم تجسّد ذلك في عادات ميتة لا قيمة لها كالعادة التي تقضي بأن يمسك ربّ البيت قبّعته بيده في منزله ذاته كي يبرز أنه لم يعد في بيته بل لدى الأمير. على أن الأميرة «دو بارما» ما كانت ربما تعرب لذاتها عن هذه الفكرة، ولكنّها كانت تشرّبتها إلى حدّ أن سائر أفعالها التي تختلقها تلقائياً في المناسبات كانت تجسّدها. وحينما غادرت المائدة أعطت «إيميه» إكرامية كبيرة كما لو كان هناك من أجلها فقط وكانت تكافئ وهي تغادر أحد القصور رئيس خدم أُفرد لخدمتها. ولم تكتفِ بالإكرامية على أي حال بل وجّهت إليه بابتسامة عذبة بعض كلمات تجمع اللطف إلى الإطراء، وكانت والدتها زوّدتها بها. ولو زادت قليلاً لقالت له إنه بقدر ما كان الفندق حسن الإدارة بقدر ما كانت مقاطعة النورماندي مزدهرة وإنها تفضّل فرنسا على جميع بلدان الدنيا. وانسلّت قطعة نقود أخرى من يدي الأميرة إلى الساقي الذي أرسلت في طلبه، وحرصت أن تعرب له عن رضاها مثل جنرال أقدم على استعراض. وكان عامل المصعد قد جاء يحمل لها جواباً فكانت له كلمته وابتسامة وإكرامية والكلّ يمتزج بكلمات تشجيع متواضعة من شأنها إقامة البرهان على أنها لم تكن أفضل من واحد منهم. ولمّا ظن «إيميه» والساقي وعامل المصعد والآخرون من غير التهذيب أن لا يبتسموا حتى آذانهم لمن كان يبتسم لهم، فإنها سرعان ما أحاط بها فريق من الخدم تحدّثت إليهم بعطف. ولمّا كانت هذه التصرفات غير شائعة في الفنادق الكبيرة فقد ظن من كانوا يمرّون على الشاطئ، وهم يجهلون اسمها أنهم يشاهدون واحدة ممّن يرتادون «بالبيك»، وأنها بسبب ضالة مولدها أو لمصلحة مهنية (فربما كانت زوجة مروّج لمبيعات الشامبانيا) كانت أقلّ

اختلافاً عن الخدم من الزبائن الراقين حقاً. أما أنا ففكّرت في قصر «بارما» والنصائح التي نصفها ديني والنصف سياسي والتي أسديت لهذه الأميرة التي كانت تتصرف مع الشعب وكأنما كان لزاماً عليها أن تستميله لارتقاء العرش ذات يوم، بل أكثر من ذلك كأنما كانت جالسة على العرش.

وصعدت إلى غرفتي ولكنّي لم أكن وحيداً فيها. كنت أسمع أحدهم يعزف بعذوبة مقطوعات لـ«شومان». صحيح أنه يتّفق للناس، وحتى لأفضل من نحبّ منهم، أن يبلغوا مرحلة الإشباع جرّاء الحزن أو الإزعاج الصادر عنا. ولكنّما ثمة شيء يملك قدرة على نفاد صبرك لن يبلغ إليها امرؤ في يوم: إنه البيانو.

كانت «ألبيرتين» قد أملت عليّ التواريخ التي ستغيب فيها وتذهب لدى صديقات لقضاء بضعة أيام وطلبت إليّ تسجيل عناوينهنّ إن كنت بحاجة إليها في واحدة من تلك الأمسيات إذ لم تكن أية منهن تسكن بعيداً جداً. وقد نجم عن ذلك أنه، في سبيل العثور عليها بالانتقال من فتاة إلى أخرى، انعقدت من حولها على نحو طبيعي تماماً روابط من زهور. وإني لأجرؤ فأقرّ بأن كثيرات من صديقاتها - وما كنت بعد أحبّها - وفّرن لي على هذا الشاطئ أو ذاك لحظات إمتاع. وما كانت تبدو تلك الرفيقات الشابات العطوفات كثيراً جداً، لكنّي عدت ففكّرت فيهنّ مؤخراً وعاودتني أسماؤهن، وقد عددت أن اثنتي عشرة وهبنني آيات حبّهن العابرة في ذلك الفصل وحده. وحضرني اسم فيما بعد فكان المجموع ثلاث عشرة. وانتابني حينذاك ما يشبه الخوف الصبياني من أن أمكث على هذا العدد. ورحت أفكّر، وأسفي، أنني نسيت الأولى، «ألبيرتين» التي طواها الموت وكانت الرابعة عشرة.

كنت سجلت، كيما أعود إلى قصّتي، أسماء وعناوين الفتيات اللواتي ربما وجدتها عندهنّ في يوم لا تكون فيه في «انكرفيل»، ولكني فكّرت أني ربما أفدت من تلك الأيام بالأحرى للذهاب إلى منزل السيدة «فيردوران». على أن رغباتنا الموجّهة لنساء مختلفات ليست تملك على الدوام القوة

نفسها. فإننا لا نستطيع ذات مساء أن نكون في غنى عن واحدة تكاد لا تثيرنا بعد ذلك على مدى شهر أو اثنين. ثم إنه بالإضافة إلى أسباب التناوب التي ليس مجال النظر فيها هنا، وفي أعقاب الإرهاقات الجسدية الكبيرة فإن المرأة التي تلازم صورتها شيخوختنا المؤقتة امرأة كدنا ربما لا نقوم بأكثر من تقبيلها على جبينها. أما «ألبيرتين» فكنت أراها نادراً وفي أمسيات متباعدة جداً فحسب كنت لا أستطيع فيها الاستغناء عنها بغيرها. فإن تنازعتني مثل تلك الرغبة وهي بعيدة عن «بالبيك» بعداً يحول دون أن تستطيع «فرانسواز» بلوغ مكانها، كنت أرسل الخادم الخاص إلى «ايبرفيل» و«لاسونيي» و«سان فريشو» بعدما أطلب منه إنهاء عمله أبكر قليلاً. وكان يدخل غرفتي ولكنه يدع الباب مفتوحاً فإنه على الرغم من إنجازه الوجداني لعمله، وكان شاقاً جداً ويقوم منذ الخامسة صباحاً على عمليات تنظيف كثيرة، ولم يكن يستطيع القيام بجهد إغلاق الباب، وإن أشرت إليه أنه مفتوح كان يعود أدراجه ويدفعه دفعاً خفيفاً بالغاً بذلك أقصى حدّ في جهده. وبالكبرياء الديمقراطية التي كانت تطبعه والتي لا يبلغ إليها في الأعمال الحرّة أعضاء مهن كثيرة إلى حدّ ما من محامين وأطبّاء وأدباء لا يدعون إلا محامياً آخر أو طبيباً أو أديباً «أخاً» لهم، كان هو يستخدم بحقّ مصطلحاً مخصصاً للهيئات المحدودة كالمجامع العلمية على سبيل المثال فيقول لي وهو يكلمني عن موزّع يضحي خادماً خاصاً مرة كلّ يومين: «سأنظر في أمر إحلال «زميلي» محلّي». وما كانت كبرياؤه تلك تمنعه، بغية تحسين ما كان يدعوه «مرتّبه»، عن قبول مكافآت لقاء مشاويره جعلت «فرانسواز» كارهة له. «أجل، ربما أعطيته لأول مرة تراه جسد الربّ دونما اعتراف[١]، ولكنّه في بعض الأيام مهذّب كما هو باب السجن. كلّ هؤلاء من نوع الحراميّة». وهي فئة غالباً ما وضعت

---

(١) إشارة على أحد الأسرار المقدّسة لدى المسيحيين وهو التقرّب إلى المائدة المقدّسة في حال الطهارة التامّة.

فيها « أولالي»، وكانت من أسف، إزاء كلّ المصائب التي سيجرّها الأمر فيما بعد، تحشر فيها مذ ذاك «ألبيرتين»، لأنها كثيراً ما كانت تراني أطلب من أمي لصديقتي الرقيقة الحال حاجات صغيرة وحلي رخيصة، وهو ما كانت «فرانسواز» لا تغتفره مطلقاً إذ لم يكن لدى السيدة «بونتان» سوى خادمة لمشاغل البيت جميعها. وسرعان ما برز عامل المصعد، بعدما خلع بزّته وما كان يدعوه ثوبه، برز بقبّعة قشّ وعصا وهو يهتم بخطرته منتصب القامة إذ أوصته والدته بأن لا يتّخذ مظهر «العامل» أو «الموزّع». ومثلما يغدو العلم، بفضل الكتب، في متناول العامل الذي لا يعود عاملاً بعدما ينهي عمله، كذلك كانت الأناقة بفضل القبعة وزوج الكفوف تغدو في متناول عامل المصعد الذي كان يظن، وقد كفّ في السهرة عن نقل الزبائن إلى فوق، شأن جرّاح شابّ خلع صدريته أو شأن الرقيب «سان لو» إذ يخلع بزّته، أنه أصبح بالتمام والكمال من رجال الطبقة الراقية. ولم يكن بأيّة حال عديم الطموح أو الموهبة كذلك كيما يتحكم بمصعده ولا يوقفك بين دورين بيد أن لغته كانت ملأى بالعيوب. كنت أصدّق طموحه إذ كان يقول في حديثه عن البواب الذي كان هو تابعاً له: «بوّابي» بذات اللهجة التي لعلّ رجلاً يملك في باريس، ما ربما سمّاه الموزّع «فندقاً خاصاً». كان تحدّث بها عن بوّابه. أما بخصوص لغة عامل المصعد، فالغريب أن يسمع أحدهم الزبون يقول خمسين مرة في اليوم «مِصْعَد» ولا يقول هو البتّة إلا «مَصْعِد»، وكانت بعض الأمور تزعجك إلى أبعد حدّ لدى عامل المصعد: فقد كان مهما قلت له يقاطعني بعبارة «ها أنت ترى!» أو «تأمّل!» التي تبدو وكأنها تعني إما أن ملاحظتي من البداهة إلى حدّ أن كان وجدها كلّ الناس، أو أنه يردّ الفضل إلى نفسه كما لو أنه هو من يلفت انتباهي للأمر. كانت عبارة «ها أنت ترى!» أو «تأمّل!» التي تنطلق بأعظم زخم، تعود كل دقيقتين على لسانه في معرض أمور ما كان لينتبه لها في يوم، وهو أمر كان يثير حنقي إلى حدّ أني كنت أشرع في الحال في قول العكس لأظهر له أنه ما كان يفقه في الأمر شيئاً.

ولكنّه إزاء توكيدي الثاني، ومع أنه لا يتّفق مطلقاً مع الأول، كان يجيب مع ذلك: «ها أنت ترى!» أو «تأمّل!» وكأنما لا يمكن تفادي هذه الكلمات، وكنت أغفر له بصعوبة استخدامه بعض مصطلحات مهنته، والتي ربما كانت بسبب ذلك مناسِبة تماماً بمعناها الحقيقي، بالمعنى المجازي فقط، الأمر الذي كان يضفي عليها مقصداً تظرّفياً على شيء من الغباء، كالفعل «دوّس» مثلاً، فإنه لم يستخدمه قط بعد قيامه برحلة على الدرّاجة ولكنّه إن أسرع في سيره على قدميه كي يصل في الساعة المحددة، كان يقول: «ها أنت ترى كم دوّسنا!» وعامل المصعد كان أقرب أن يكون قصيراً سيّئ البنية وعلى قبح كافٍ. ولا يحول ذلك في كلّ مرة تحدّثه فيها عن فتى طويل القامة مديد ممشوق دون أن يقول: «آه! أجل، أعرف، هو واحد بطولي تماماً». وفي يوم كنت أنتظر جواباً منه، وإذ سمعت من يصعد الدرج قمت، وقد عيل صبري لسماع وقع خطاه، ففتحت باب غرفتي وأبصرت موزّعاً جميلاً جمال «أنذيميون»[1] كامل القسمات إلى حدّ لا يصدّق وقد جاء من أجل سيدة ما كنت أعرفها. وبعدما عاد عامل المصعد رويت له، وأنا أخبره بأي نفاد صبر كنت أنتظر جوابه، أنني ظننته هو يصعد ولكنّما كان موزّعاً من فندق «النورماندي» فقال لي: «آه! أجل، أعرف من هو، ليس ثمة آخر سواه، إنه صبي بقامتي. وهو بالوجه كذلك يشبهني إلى حدّ يمكن أن نؤخذ به الواحد مكان الآخر؛ لكأنه شقيقي بالتمام والكمال». وأخيراً كان يريد أن يبدو عليه أنه فهم كلّ شيء منذ اللحظة الأولى، فكان لذلك يقول ما إن يوصونه على أمر: «نعم، نعم، نعم، نعم، نعم أنا فاهم تماماً» بوضوح ولهجة ذكية أوهماني زمناً ما؛ ولكن الأفراد كلما ازددنا معرفة بهم أشبه

(١) راع شاب على جمال عظيم في الأساطير اليونانية وقعت «سليني» (القمر) في حبه فسألت كبير الآلهة «زيوس» راحة البال والخلود له فقبل على أن يأخذه النوم إلى الأبد.

بمعدن غُمس في مزيج مفسد، فتراهم يفقدون شيئاً فشيئاً صفاتهم (كما يفقدون أحياناً عيوبهم). وقبل أن أسمعه توصياتي رأيت أنه ترك الباب مفتوحاً، فحملته على ملاحظة الأمر إذ خشيت أن يسمعونا. ونزل عند رغبتي وعاد وقد قلّل الفتحة. «ذلك كُرمى لك، فليس أحد بعد في الدور سوانا». وسمعت في الحال أحدهم يمرّ، ثم اثنين فثلاثة، كان الأمر يزعجني بسبب إفشاء ممكن للأمور، بل على وجه الخصوص لأني أرى أن ذلك لا يدهشه البتّة وأن الجيئة والرواح أمر طبيعي. «أجل إنها الوصيفة التي بجانبنا تمضي لجلب حاجاتها، آه! لا أهمية لذلك، إنه الساقي يصعد بمفاتيحه. لا، لا، لا شيء هناك بوسعك أن تتحدث، إنه زميلي يبدأ نوبته». لمّا كانت دواعي الناس للمرور لا تقلّل من انزعاجي أن يمكنهم سماعي فقد مضى نزولاً عند طلبي الصريح لا ليغلق الباب، فالأمر يجاوز قوى هذا الدرّاج الذي كان راغباً في «درّاجة ناريّة»، بل ليدفعه أكثر قليلاً. «وهكذا ترانا مطمئنين تماماً».

وكنا كذلك إلى حدّ أن أميريكية دخلت وانسحبت تعتذر عن أنها أخطأت غرفتها، فقلت له بعد أن صفقت بنفسي الباب بكلّ ما أملك من قوة (فدعا ذلك موزّعاً آخر ليتأكد أن لم يكن ثمة نافذة مفتوحة). «تَذْكُرُ تماماً: إنها الآنسة «ألبيرتين سيمونيه» ذلك على المغلّف بأية حال. ما عليك إلا أن تقول لها إن الأمر من جانبي وستأتي بكل طيبة خاطر» أضيف قولي لأشجعه على أن لا يبالغ في إذلالي. - «ترى ذلك!» - «لا، على العكس، فليس طبيعياً أن تأتي عن طيب خاطر، لأن المجيء من «بيرنفيل» إلى هنا ينطوي على إزعاج كبير». - «فهمت!» - «قل لها أن تأتي معك». - «نعم، نعم، نعم، نعم، أفهم تماماً»، يجيب قوله بتلك اللهجة الواضحة الدقيقة التي كفّت منذ فترة طويلة عن إيلائي «انطباعاً طيباً» لأنني كنت أعلم أنها تقرب أن تكون آلية وأنها تخفي خلف وضوحها الظاهر الكثير من الإبهام والغباء.

«وفي أية ساعة ستعود؟» فيجيب عامل المصعد وهو يذهب بالقاعدة

التي سنّها «بيليز»[1] لتجنب تكرار أداتَي نفي إلى حدّها الأقصى فيكتفي على الدوام بأداة واحدة، ويقول: «لن يطول غيابي. ويمكنني تماماً أن أذهب. والحقيقة أن الطلعات ألغيت بعد الظهر هذا إذ كان ثمة صالة بعشرين مقعداً أعدّت للغداء، وكان دوري في الطلعة بعد الظهر. فإن خرجت قليلاً في هذا المساء فالوقت يكاد لا يكفي. آخذ درّاجتي معي وهكذا أكون أكثر عجلة». وكان يعود بعد ساعة قائلاً: «لقد انتظر سيدي طويلاً، ولكن الآنسة تأتي معي. إنها تحت». - «آه! شكراً، والبواب ألن يغضب مني»؟ - «السيد بول»؟ إنه حتى لا يعلم أين ذهبتُ. حتى مشرف الباب لا علاقة له». ولكن حينما قلت له ذات مرة: «لا بدّ أن تعود بها»، قال لي وهو يبتسم: «تعلم أني لم أَلْقَهَا، فليست هناك ولم أستطع البقاء أكثر، فقد خفت أن أصبح مثل زميلي الذي «سفّروه» من الفندق»، (ذلك لأن عامل المصعد الذي كان يقول «عاد» بشأن وظيفة يدخلها المرء للمرة الأولى: «بودّي أن «أعود» إلى البريد»، كان بداعي التعويض أو لتخفيف الأمر إن تعلّق به، أو للتلميح به بلهجة متكلّفة اللطف أو غادرة إن تعلّق بآخر غيره، يقول «سفّروه»: «أعرف أنهم سفّروه»). وما كان يبتسم عن خبث بل من جرّاء استحيائه. كذلك إن كان قال لي: «تعلم أني لم أَلْقَهَا»، فما ذلك لأنه يعتقد أني عالم بالأمر. فهو على العكس ما كان يشكّ بأني أجهله وكان على وجه الخصوص في هلع منه ولذلك تراه يقول: «تعلم» ليجنّب نفسه الأهوال التي سيقطعها وهو ينطق بالجمل المعدّة لإطلاعي عليه. فيجدر بنا أن لا تثور ثائرتنا على أولئك الذين إذ نأخذهم بذنبهم إلينا يشرعون بالقهقهة، فإنما يفعلون ما يفعلون لا لأنهم يسخرون ولكنّما يرتجفون من إمكان أن نستاء فلنظهر إشفاقاً كبيراً ولنبرز لطفاً كبيراً إزاء من

---

(١) أحد شخوص مسرحية لـ«موليير» بعنوان «**النساء العالمات**» وتنصّ قاعدته على نبذ استخدام نفيين في آن واحد ne ... pas. non، علماً بأن ne ... pas أداة واحدة وهنا يكمن خطأ عامل المصعد، والقاعدة لا تنطبق إلا على الفرنسية ولذلك نراها غائبة في الترجمة.

يضحكون. لقد حمل اضطراب عامل المصعد لنفسه، على نحو أزمة قلبية تماماً، لا احمرار السكتة فحسب بل تشوّهاً في اللغة التي أضحت فجأة دارجة. وقد أوضح لي في نهاية المطاف أن «ألبيرتين» لم تكن في «ابيرفيل» وأنها لن تعود إلا في التاسعة، فإن اتّفق لها أحياناً، ويقصد إن صادف أن تعود أبكر من ذلك فسوف يبلّغونها الرسالة وتكون في جميع الأحوال عندك قبل الواحدة صباحاً.

على أن شكوكي المؤلمة لم تبدأ بعد بالتماسك في ذلك المساء. لا، وكيما أقول ذلك في الحال، ومع أن المسألة لم تحدث إلا بعد عدّة أسابيع، فقد نجم الأمر عن ملاحظة أدلى بها «كوتار». لقد أرادت «ألبيرتين» وصاحباتها أن يدفعنني إلى كازينو «آنكرفيل» في ذلك اليوم، وما كنت لحسن الحظ لحقت بهنّ إلى هناك (حيث أبغي الذهاب لزيارة السيدة «فيردوران» التي سبق أن دعتني عدّة مرات) لو لم يُوقفني في «آنكرفيل» نفسها عطل في الحافلة يقتضي إصلاحه بعض الوقت. وإذ كنت أذرع المكان طولاً وعرضاً بانتظار إنجازه رأيتني فجأة وجهاً لوجه مع الدكتور «كوتار» الذي جاء إلى «آنكرفيل» في استشارة. كدت أتردّد في تحيّته لأنه لم يكن أجابني على أية من رسائلي. ولكنّ اللطف لا يتجلّى لدى الجميع بالطريقة نفسها. فلمّا لم تُلزم التربية «كوتار» بقواعد آداب السلوك الثابتة ذاتها التي تلزم جماعة الطبقة الراقية، فقد كان يفيض من طيب نوايا يجهلها الناس وينكرونها إلى اليوم الذي تحين فيه الفرصة لإظهارها، واعتذر، وكان قد تسلّم رسائلي وبلّغ آل «فيردوران» عن وجودي وهم بشوق كبير للقائي وهو ينصحني بالذهاب إلى منزلهم. كان حتى يريد اصطحابي إليهم في المساء نفسه لأنه يعتزم أن يستقلّ القطار الصغير المحلّي كي يمضي للعشاء عندهم. وإذ كنت متردداً ولا يزال لديه قليل من الوقت ليستقلّ القطار بما أن العطل سيمتدّ فترة لا بأس بها، أدخلته إلى الكازينو الصغير، وهو من تلك التي كانت بدت لي بالغة الحزن في أول مساء لوصولي، فيما يعجّ الآن بضوضاء الفتيات اللواتي كنّ يتراقصن في

غياب الراقصين. وأقبلت «أندريه» إليّ بزحلقات تقوم بها، وكنت أعتزم الذهاب بعد فترة قصيرة بصحبة «كوتار» إلى منزل آل «فيردوران» حين رفضت عرضه رفضاً نهائياً وقد تملّكتني رغبة مفرطة الشدّة في المكوث مع «ألبيرتين». ذلك لأنني سمعتها منذ قليل تضحك، فتذكّرني الضحكة في الحال بألوان البشرة الموردة والجوانب المعطّرة التي كان يبدو أنها احتكّت بها منذ قليل والتي تبدو، في حدّتها وشهوانيتها وسمتها الكاشفة، كمثل رائحة الجيرانيوم، وكأنها تنقل معها بضع ذرّات يقرب أن تكون موزونة ومثيرة وخفيّة.

جلست إحدى الفتيات، وما كنت أعرفها، إلى البيانو، وطلبت «أندريه» من «ألبيرتين» أن ترقص الفالس وإياها، وإذ كنت في ذاك الكازينو الصغير سعيداً بالتفكير في أنني سأمكث مع تلك الفتيات لفتُّ «كوتار» إلى أي درجة كنّ يُجدن الرقص. ولكنه أجابني من وجهة نظر الطبيب الخاصة وبسوء تهذيب لم يكن يأخذ في الحسبان أنني أعرف هاتيك الفتيات اللواتي لا بدّ رآني أحيّيهنّ، أجابني قائلاً: «أجل، ولكنّ الأهل قليلو التبصّر إلى حدّ بعيد إذ يفسحون لبناتهم باكتساب مثل هذه العادات. ما كنت بالتأكيد أسمح لبناتي بالمجيء إلى هنا. لعلّهن جميلات على الأقل؟ فإني لا أميّز ملامحهنّ». وأضاف يقول، وهو يُريني «ألبيرتين» و«أندريه» ترقصان ببطء وقد التصقت إحداهما بالأخرى التصاقاً شديداً: «هيا، انظر. لقد نسيت نظارتي فلا أرى بوضوح، ولكنّهما بالتأكيد في أقصى المتعة. فليس يعلم الناس تماماً أن النساء يبلغنها خصوصاً عن طريق النهدين. ألا انظر، إن نهودهما في تماسّ كامل». والتماسّ بالتأكيد لم ينقطع بين نهود كل من «أندريه» و«ألبيرتين»، ولست أعلم إن هما سمعتا أو حزرتا ملاحظة «كوتار» ولكنّهما انفصلتا قليلاً الواحدة عن الأخرى فيما تواليان الرقص. وقالت «أندريه» آنذاك كلمة لـ«ألبيرتين» فضحكت هذه ذات الضحكة النافذة العميقة التي سبق أن سمعتها منذ قليل، ولكن الاضطراب الذي حملته إليّ هذه المرة ما كان إلا قاسياً عليّ. فقد بدا أن

«ألبيرتين» تُظهر بها لـ«أندريه» وتحملها على ملاحظة رعشة مهيّجة خفيّة. لقد كانت ترنّ مثلما التساوقات اللحنية الأولى أو الأخيرة في احتفال مجهول. ومضيت مع «كوتار» وأنا ساهٍ في حديثي معه ولا أفكّر إلا لماماً بالمشهد الذي رأيته منذ قليل. وليس يعني ذلك أن حديث «كوتار» كان ممتعاً، بل هو اكتسى في هذه اللحظة طابع الحدّة إذ لمحنا منذ قليل الدكتور «دو بولبون» الذي لم يشاهدنا، لقد جاء يقضي وقتاً في الجانب الآخر من خليج «بالبيك» حيث كان يُستشار كثيراً، ومع أن «كوتار» تعوّد التصريح بأنه لا يمارس الطب أثناء عطلته فقد كان راوده أمل أن يوفّر لنفسه زبائن مختارين، بيد أن «دو بولبون» كان يقف عقبة دون ذلك. أجل، لم يكن بمقدور طبيب «بالبيك» أن يضايق «كوتار». ولكنّما كان طبيباً كبير الوجدان يعرف كل شيء، وما كنت تستطيع أن تكلمه عن أدنى حكّة دون أن يدلّك في الحال على المرهم أو السائل أو المروخ المناسب. كان يعرف، كما تقول «ماري جينيست» بلغتها الجميلة، كيف «يسحر» الجروح والقروح ولكنّه لم يكن على شهرة. صحيح أنه تسبّب بإزعاج طفيف لـ«كوتار»، فقد جعل هذا من صنوف التسمّم اختصاصاً له منذ أن شاء أن يستبدل بكرسيّه كرسيّ علم المداواة. والتسمّم، وهو تجديد في الطب ينطوي على مخاطر، يفيد في تجديد ملصقات الصيادلة فَيُصَرّح عن كلّ منتج لهم بأنه غير سامّ، بعكس الأدوية المشابهة، بل يشفي من التسمّم. إنها الدعاية الرائجة، وكاد لا يبقى في الأسفل التوكيد بأن المُنْتَج جرى تعقيمه بعناية تامة، وقد خُطَّ بحروف غير مقروءة وكأنه أثر طفيف لصيغة راجت سابقاً، والتسمّم يفيد كذلك في طمأنة المريض الذي يغبطه أن يعلم أن الشلل الذي أصابه إن هو إلا عارض سمّيّ. فإن دوقاً أكبر جاء يقضي بضعة أيام في «بالبيك» وكانت عينه بها انتفاخ عظيم فاستقدم «كوتار» الذي عزا، في مقابل بضع ورقات من فئة المئة فرنك (وما كان الأستاذ يكلّف نفسه لأقلّ من ذلك)، سبب الالتهاب إلى حالة سمّيّة وأمر بحمية مضادّة للتسمّم. ولمّا لم يذهب انتفاخ العين تحوّل

الدوق الأكبر إلى طبيب «بالبيك» العادي الذي استخرج في خمس دقائق ذرّة تراب. وفي الغد لم يكن يبدو شيء من ذلك. وكان ثمة خصم أشدّ خطراً، وهو أحد مشاهير الأمراض العصبية. كان رجلاً أحمر ممراحاً لأن مخالطة ذوي الانحطاط العصبي ما كانت تحول دون أن يكون بأحسن عافية وكيما يطمئن مرضاه في الآن نفسه بالضحكة العريضة التي تخالط تحيّته واستئذانه بالرحيل، وإن كان سيساعد بذراعيه القويتين في إلباسهم سترة المجانين عنوة فيما بعد. إلا أنك ما إن كنت تتحدث إليه في جماعة راقية، إن كان في سياسة أو أدب، حتى تراه يصغي إليك بعطف وانتباه كأني به يقول: «ما الأمر؟» دون أن ينطق بها في الحال كما لو أن الأمر أمر استشارة. لكنّ هذا في النهاية كان اختصاصياً أية كانت مواهبه. لذلك كان كامل حنق «كوتار» ينصبّ على «دو بولبون». وقد فارقت بعد قليل على أية حال، بغية العودة، الأستاذ صديق آل «فيردوران» وأنا أعده بالذهاب لزيارتهم.

كان الضرر الذي ألحقته بي أقواله بخصوص «ألبيرتين» و«أندريه» بالغاً، لكن أسوأ الآلام لم أحسّها في الحال مثلما هو أمر هذه الصنوف من التسمّم التي لا تفعل فعلها إلا بعد انقضاء وقت معيّن.

لم تجئ «ألبيرتين» في ذلك المساء الذي مضى فيه عامل المصعد في طلبها على الرغم من توكيداته، صحيح أن مواطن الفتنة لدى امرئ سبب للحبّ أقلّ تواتراً مما هي جملة من هذا القبيل: «لا، لن أكون دون ارتباط هذا المساء». ونكاد لا نعير هذه الجملة انتباهنا، إن كنّا بصحبة أصدقاء، فإننا نمرح طوال الأمسية ولا نهتمّ بصورة معيّنة، وإنها في هذه الأثناء يغمرها المزيج الضروري، حتى إذا عدنا لقينا الصورة السالبة وقد ظهّرت وأوضحت واضحة تمام الوضوح. ونتبيّن أن الحياة لم تعد الحياة التي لعلّنا كنا هجرناها في العشية لقاء أقلّ الأمور لأننا وإن لبثنا غير هيّابين للموت لا نجرؤ من بعد على التفكير بالهجران.

على أني منذ الساعة الثالثة صباحاً، لا الواحدة (وهي الساعة التي

كان حدّدها عامل المصعد) لم يعد يداخلني كما بالأمس ألم الإحساس بتناقص حظّي في أن تمثل أمامي. وحمل إليّ يقيني بأنها لن تجيء من بعد هدوءاً تاماً وحيوية. فهذه الليلة محض ليلة شبيهة بليال كثيرة أخرى ما كنت أراها فيها؛ من تلك الفكرة كنت أنطلق، ومذ ذاك كانت فكرة أني قد أراها في الغد أو في أيام أخرى تضحي، إذ تبرز على صفحة هذا العدم المسلّم به، رفيقة بي. إن ضيق النفس ناجم أحياناً، في أمسيات الانتظار تلك، عن دواء تناولناه. فإن الذي يعاني من العذاب يظن، بعد تفسير خاطئ له أنه مضطرب من جرّاء تلك التي لا تجيء. وإنما يولد الحبّ إذ ذاك. كما هي حال بعض الأمراض العصبية، من تفسير غير صحيح لضيق مؤلم. وليس يفيد تصحيح ذاك التفسير على الأقلّ في نطاق الحبّ، وهو شعور مضلّل على الدوام (أياً كان سببه).

وفي الغد، عندما كتبت إليّ «ألبيرتين» أنها عائدة تواً من «ابيرفبل» وأن رسالتي لم تصلها إذن في الوقت المناسب وأنها ستجيء للقائي في المساء إن أذنت بذلك، خلتني أحسّ خلف كلمات رسالتها مثلما خلف الكلمات التي سبق أن قالتها لي ذات مرة بالهاتف، بوجود متع وأشخاص فضّلتهم عليّ مرة أخرى، هزّ كامل كياني فضول أليم في أن أعلم ما عساها كانت تفعل، وكذلك فَعَلَ الحبّ الكامن الذي نحمله دوماً بين جوانحنا، وأمكنني الاعتقاد هنيهة أن سيربطني حالاً بـ«ألبيرتين» ولكنه اكتفى بالارتعاش في مكانه واندثرت آخر أصوات ضوضائه دون أن يكون تحرّك.

لقد أسأت في إقامتي الأولى في «بالبيك» فَهْم طباع «ألبيرتين» - وربما فعلت «أندريه» مثلي -، لقد ظننت من قبيل طيش ساذج تبديه أن لا تفلح توسّلاتنا كلها في استبقائها وتفويت حفلة راقصة عليها أو نزهة على ظهور الحمير أو وجبة طعام في الهواء الطلق. وراودني في إقامتي الثانية في «بالبيك» شكّ بأن ذاك الطيش إن هو إلا مظاهر، والحفلة الراقصة ستار، إن لم تكن ابتداعاً فقد كان يجري بأشكال مختلفة الأمر التالي

(وأقصد الأمر الذي أراه أنا من الزجاج الذي من جانبي، ولم يكن شفافاً على الإطلاق، دون أن يمكن معرفة ما كان صحيحاً من الجانب الآخر). كانت «ألبيرتين» تُسمعني أكثر توكيدات الحنان عاطفة متّقدة. كانت تنظر إلى الساعة لأنها عازمة على الذهاب لزيارة سيدة تستقبل، فيما يبدو، الساعة الخامسة من كل يوم في «انفرفيل». ولمّا كان الشكّ يعصف بي، وأحسست على أي حال أنني منحرف الصحة، سألت «ألبيرتين» وتوسّلت إليها أن تمكث معي كان ذلك مستحيلاً (بل هي لم يبق لها أكثر من خمس دقائق تمكث فيها) لأن لأمر ربما أغضب السيدة وهي غير مضيافة وسريعة التأثّر وتُميتك ضجراً، تقول «ألبيرتين». «ولكن من الممكن تماماً تفويت زيارة واحدة». - «لا، فقد علّمتني عمّتي أنه لا بدّ لي أن أكون مهذّبة قبل كل شيء». - «ولكنّي كثيراً ما رأيتك على سوء تهذيب». - «ولكن الأمر ليس واحداً، فسوف تحقد عليّ هذه السيدة وتسبّب لي المتاعب مع عمّتي ولست بعد على ما يرام وإياها، وهي تحرص على أن أكون ذهبت مرة لزيارتها». - «ولكن إن كانت تستقبل في كلّ يوم». وهنا غيّرت «ألبيرتين» السبب الداعي وقد أحسّت أنها «غالطت نفسها». - «هي بالطبع تستقبل في كلّ يوم ولكنّي اليوم ضربت موعداً عندها لصديقات لي، وهكذا نكون أقلّ مللاً». - «أتراك يا «ألبيرتين» تفضّلين السيدة وصديقاتك عليّ بما أنك تفضّلين أن تدعيني وحيداً مريضاً حزيناً؟» - «قد يستوي الأمر عندي أن تكون الزيارة مملّة. ولكنّي أفعل بداعي الإخلاص لهنّ، فسوف أنقلهنّ في العودة في عربتي. وإلا فلن يتوافر لهنّ أية وسيلة نقل». وأشرت على «ألبيرتين» أن ثمة قطارات من «انفرفيل» حتى العاشرة مساء - «صحيح ولكن تدري، من الممكن أن يسألونا البقاء على العشاء، فهي مضيافة جداً» - «حسن! ترفضين إذاً». - «سأغضب عمّتي أيضاً» - «على أي حال، يمكنكم تناول العشاء ثم تستقلّون قطار العاشرة». - «قد لا يتّسع الوقت» - «فلست أستطيع في يوم إذاً أن أتعشّى في المدينة وأعود بالقطار. ولكن دونك يا «ألبيرتين» سنقوم بأمر بسيط جداً: إني أحسّ أن

الهواء سيكون نافعاً لي، وبما أنك لا تستطيعين هجر السيدة فسأرافقك حتى «انفرفيل». لا تخشي شيئاً، فلن أمضي حتى «برج أليزابيث» (وهي دارة السيدة)، ولن ألتقي السيدة ولا صديقاتك». وبدا أن «ألبيرتين» تلقّت ضربة مخيفة. فقد كان كلامها متقطعاً، وقالت إن حمامات البحر ما كانت تُجدي معها.

«إن كان يزعجك أن أرافقك»؟ - «ولكن كيف يمكنك أن تقول ذلك، وتعلم تمام العلم أن أعظم غبطة عندي أن أخرج وإياك»؟ لقد حدث انقلاب مفاجئ داخلها فقالت لي: «بما أننا نمضي للنزهة سوية فلِمَ لا نذهب إلى الجانب الآخر من «بالبيك» فنتناول طعام العشاء سوية، ويكون ذلك لطيفاً جداً، إن ذاك الشاطئ في الأساس أكثر جمالاً، لقد سئمت نفسي «انفرفيل» وكلّ هذه الأمكنة الصغيرة المنعزلة ذات الخضرة الداكنة». - «ولكنّ صديقة عمّتك ستغضب إن لم تذهبي لزيارتها». - «ويزول غضبها، ويحك». - «لا، يجب أن لا نُغضب الناس» - «ولكنّها لن تنتبه حتى للأمر، فإنها تستقبل في كل يوم. فإن ذهبت في غد أو بعد غد أو بعد ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً فسيفي ذلك بالغرض» - «وصديقاتك»؟ - «ما أكثر ما هجرنني، وقد حان الآن دوري». - «ولكن ليس ثمة قطار بعد التاسعة في الجانب الذي تقترحينه لي». - «آه! ما أعسرها مسألة! الساعة التاسعة توافقني تماماً. ثم ينبغي أن لا توقفنا البتّة مشاكل العودة. فسنلقى دوماً عربة نقل أو دراجة، فإن لم يكن، فساقينا». - «نلقى دوماً، يا «ألبيرتين»، ما أعجب ما تذهبين إليه فمن جانب «أنفرفيل» حيث المحطات الخشبية الصغيرة التي يلتصق بعضها ببعضها الآخر، أجل. ولكنّ الأمر ليس نفسه من الجهة المقابلة». - «بل حتى في الجهة المقابلة. إني أعدك بأن أعيدك صحيحاً سالماً» كنت أحسّ أن «ألبيرتين» تتخلى من أجلي عن شيء مدبّر لم تشأ أن تقوله لي وأن ثمة واحداً سوف يكون تعيساً كما كنت. وإذ رأت أنّ ما ابتغت لم يكن ممكناً بما أني أودّ مرافقتها، تخلّت صراحة عنه، وكانت تعلم أنْ ليس الأمر مما يتعذّر إصلاحه. ذلك لأنها،

شأن سائر النساء اللواتي هنّ على أمور عدّة في حياتهن، كانت لديها نقطة الاستناد هذه التي لا تضعف في يوم، عنينا الشكّ والغيرة، صحيح أنها ما كانت تحاول إثارتهما، بل على العكس. ولكنّ المحبّين شديدو الريبة حتى ليستشعرون الكذب في الحال، إلى حدّ أن «ألبيرتين، وليست خيراً من أخرى سواها، كانت تعلم بالتجربة (ودون أن تحزر أقلّ ما تحزر أنها مدينة بذلك للغيرة) أنها متيقّنة على الدوام بأنها ستلتقي ثانية الناس الذين «باعتهم» ذات مساء. فالشخص المجهول الذي كانت تتركه من أجلي سوف يتألم ويزداد حباً لها من جرّاء ذلك (ولا تعلم «ألبيرتين» أنه يفعل بسبب ذلك)، وكي لا يستمر في عذابه فإنه يعود إليها من تلقاء ذاته كما لعلّي كنت فعلت. ولكنّي لم أكن أبغي لا غمّ الناس ولا إرهاق نفسي ولا الدخول في دروب التقصّيات المخيفة والمراقبة المتعدّدة الأشكال التي لا حصر لها «لا، يا «ألبيرتين»، لست أريد إفساد متعتك، فامضي إلى سيدتك في «أنفرفيل»، أو إلى الشخص الذي يختبئ وراء اسمها، فالأمر عندي سواء. أما السبب الحقيقي لإحجامي عن الذهاب برفقتك فأنك لا ترغبين في ذلك وأن النزهة التي قد تقومين بها برفقتي ليست تلك التي كنت تودّين القيام بها، والبرهان على ذلك أنك ناقضت نفسك أكثر من خمس مرات دون أن تتبيّني ذلك». وخشيت «ألبيرتين» المسكينة أن تكون تناقضاتها التي لم تنتبه لها أكثر خطراً فهي لا تعرف بالضبط الكذبات التي وقعت فيها: «ممكن جداً أن أكون ناقضت نفسي. إن هواء البحر لا يدع لي أي منطق. فإني أستبدل على الدوام بالأسماء غيرها، ثم إني أحسست «وبرهن الإحساس أنها ما كانت الآن لتحتاج الكثير من التوكيدات العذبة كيما أصدّقها) ما يشبه ألم الجرح وأنا أسمع هذا الإقرار بما لم أكن افترضته إلا افتراضاً ضعيفاً، وقالت بصوت يطبعه الأسى، ولم تفعل دون أن تنظر إلى الساعة لتتبيّن أنها لم تكن متأخرة بالنسبة إلى الآخر ما دمت أوفّر لها الآن الحجة كي لا تمضي الأمسية معي. «أنت قاس مفرط القسوة فإني، أبدّل كلّ شيء لأقضي أمسية حلوة معك وأنت من لا يريد وتتّهمني بالكذب. لم

أرك بعد قط بمثل قسوتك. سيكون البحر لحدي ولن ألقاك بعد في يوم. (وخفق فؤادي لدى سماع هذه الكلمات مع أني كنت متيقّناً من أنها ستجيء في الغد، وقد حصل). سوف أغرق، سأُلقي بنفسي في الماء». - «مثل سافو»[1]. - «وهذه شتيمة تضيفها، فلست ترتاب بما أقول فحسب، بل بما أفعل». - «ولكنّي يا صغيرتي ما كنت أحمّلها أي قصد، أقسمت على ذلك، فتعلمين أن «سافو» ألقت بنفسها في البحر». - «بلى، بلى، لا ثقة لك فيّ مطلقاً». ورأت أن الساعة تشير إلى الدقيقة الأربعين وخشيت أن يفوتها ما ينبغي لها أن تفعله فاختارت أقصر صيغة وداع (اعتذرت عنها بأية حال إذ جاءت لزيارتي في الغد؛ والأرجح أن الشخص الآخر كان مرتبطاً في ذلك الغد)، وفرّت تجري صارخة: «ودائماً لا لقاء بعده»، وهي بادية الأسى. وربما كانت تلك حالها، فإذ كانت عالمة بما تفعل في هذه اللحظة أفضل مني وكانت أكثر قسوة وأوفر مسامحة لذاتها مما كنت إزاءها فربما ساورها مع ذلك شكّ بأني لا أودّ استقبالها من بعد على إثر الطريقة التي هجرتني بها. وإني أعتقد أنها كانت حريصة عليّ إلى حدّ أن الشخص الآخر كان أكثر غيرة مني.

وبعد بضعة أيام في «بالبيك» وإذ كنا في قاعة الرقص في الكازينو دخلت شقيقة «بلوك» وابنة عمه، وقد أضحت كلتاهما على جمال كبير، ولكنّي لم أعد أسلّم عليهما بسبب صديقاتي لأن أصغرهما سناً وهي ابنة العم كانت تعيش على رؤوس الأشهاد مع الممثلة التي سبق أن تعرّفت إليها في أثناء إقامتي الأولى. وقالت لي «أندريه» لدى تلميح إلى الأمر جرى بصوت خفيض: «آه! إني بخصوص هذه المسألة شبيهة بـ«ألبيرتين» فليس ما ينفّرنا كلتينا مثل ذلك». أمّا «ألبيرتين» فقد أدارت ظهرها للفتاتين السيّئتي المسلك وقد شرعت في التحدث إليّ على الكنبة التي كنا نجلس

---

(١) شاعرة يونانية ولدت في جزيرة «ليسبوس» (التي أورثت السحاقيات اسمها بالفرنسية lesbiennes) وقد ألقت بنفسها في البحر لحبّها للمراكبي «فاون» الذي كان يزدري صحبتها.

عليها. على أني كنت لاحظت قبل هذه الحركة وآن بدت الآنسة «بلوك» وابنة عمّها، لاحظت في عيني صديقتي التماع ذاك الانتباه المفاجئ العميق الذي كان يضفي على وجه الفتاة الخبيثة أحياناً هيئة جدّية، بل رزينة ثم يخلّفها حزينة. ولكنّ «ألبيرتين» أدارت في الحال صوبي نظراتها التي ظلّت مع ذلك جامدة حالمة بصورة غريبة. وغادرت الآنسة «بلوك» وابنة عمّها المكان في نهاية المطاف بعدما ضحكتا ضحكاً شديداً وأطلقتا صرخات غير لائقة إلى حدّ ما، فسألت «ألبيرتين» إن لم تكن الشقراء الصغيرة (تلك التي كانت صديقة الممثلة) هي نفسها التي حازت البارحة جائزة سباق عربات الزهور. فقالت «ألبيرتين»: «آه! لست أعلم، هل ثمة من هي شقراء منهما؟ سأقول لك إنهما لا تثيران كبير اهتمامي لم أنظر إليهما البتّة». ثمّ سألت صديقاتها الثلاث بلهجة متسائلة متجرّدة قائلة: «هل ثمة شقراء بينهما»؟ وبدا لي ذلك الجهل إذ ينطبق على أشخاص كانت «ألبيرتين» تلتقيهم كل يوم فوق السدّ، بدا لي مبالغاً جداً كي لا يكون متكلّفاً. وقلت لـ«ألبيرتين»: «ولا يبدو عليهما كذلك أنهما تنظران إلينا»، ربما بافتراض أن «ألبيرتين»، والافتراض ما كنت أنظر إليه على نحو واع بأية حال، كانت تحبّ النساء وكيما أنزع من نفسها أي اسف حينما أبدي لها أنها لم تسترعِ انتابهَهما وأنه لم تجر العادة بعامة، حتى بالنسبة إلى أكثرهنّ فسقاً، أنَ تهتمّ بالفتيات اللواتي لا تعرفهنّ. وأجابتني «ألبيرتين» على نحو طائش بقولها: «لم تنظرا إلينا؟ إنهما لم تفعلا غير ذلك طوال الوقت». فقلت لها: «ولكنّما ليس بمقدورك معرفة ذلك فقد كنت تولينهما ظهرك». فأجابتني: «وهذه ويحك؟»، وهي تُريني مرآة كبيرة قبالتنا مركّبة في الجدار، ولم أكن لحظتها وأخذت أدرك الآن أنّ صديقتي لم تكفّ، فيما تحدّثني، عن التحديق إليها بعينيها الجميلتين اللتين تفيضان همّاً.

منذ اليوم الذي دخل فيه «كوتار» برفقتي إلى كازينو «أنكرفيل» الصغير، ودون أن أشاطره الرأي الذي أبداه، بدا لي أن «ألبيرتين» لم تعد هي نفسها، فقد كانت رؤيتها تثير حنقي. وكنت تبدّلت بدوري بقدر ما

كانت تبدو لي مختلفة. وكففت عن تمنّي الخير لها وكنت أتحدّث عنها بالطريقة الأوفر تجريحاً في حضرتها وفي غيابها حينما يمكن أن يُنقل إليها ذلك. ولكنّما كان ثمة فترات مهادنة. فقد بلغني ذات يوم أن «ألبيرتين» و«أندريه» قبلتا كلتاهما دعوة إلى منزل «ايلستير». وإذ لا شكّ أن الأمر تمّ باعتبار أنهما ربما استطاعتا أن تلهوا في طريق العودة كطالبات داخليات وذلك بتقليد الفتيات سيّئات المسلك وتلقيان في ذلك متعة خفيّة تحسّ بها العذارى وتضيّق عليّ أنفاسي، كنت أصل فجأة إلى منزل «ايلستير» دون خبر مني لإزعاجهما وحرمان «ألبيرتين» من المتعة التي كانت تتوقّعها. ولكنّي لا ألقى هناك غير «أندريه»، فـ«ألبيرتين» كانت قد اختارت يوماً آخر تزمع عمّتها الذهاب فيه. حينئذ كنت أقول في نفسي إن «كوتار» أخطأ دونما شك. وكان الانطباع المناسب الذي خلّفه لدي وجود «أندريه» بدون صديقتها يتطاول ويبعث في نفسي استعدادات أكثر رقّة تجاه «ألبيرتين» ولكنّها لا تدوم أكثر من الصحة الهشّة التي لهؤلاء الأشخاص الضعاف البنية الذين يفيدون من فترات تحسّن عابرة ويكفي أقلّ القليل ليردّهم إلى مرضهم. كانت «ألبيرتين» تدفع «أندريه» إلى صنوف من اللعب ربما لم تكن، وإن هي لا تذهب بعيداً جداً، بريئة تماماً. وإذ كنت أعاني من ذلك الارتياب فقد كنت أستبعده في نهاية المطاف. ولكنّي «لا أكاد أنجو منه حتى يعاودني بشكل آخر. فقد اتّفق أن رأيت «أندريه» منذ قليل في واحدة من تلك الحركات الظريفة الخاصة بها تلقي برأسها بغنج ودلال على كتف «ألبيرتين» وتقبّلها في عنقها وهي نصف مغمضة العينين. أو هما تبادلتا نظرة سريعة، أو أن كلمة أفلتت من شخص سبق أن رآهما وحيدتين معاً ذاهبتين للسباحة، وكلّها أمور صغيرة من مثل ما يعمر الجوّ المحيط بصورة طبيعية فيبتلعها القسم الغالب من الناس طوال النهار دون أن تتأثر صحبتهم أو يفسد مزاجهم، ولكنّها مسقمة تورث من كان لديه استعداد مسبق آلاماً جديدة. بل كنت أحياناً، دون أن أكون رأيت «ألبيرتين» مجدداً ودون أن يكون أحد حدّثني عنها، كنت أعود فألقى في ذاكرتي وقفة لـ«ألبيرتين»

بالقرب من «جيزيل» وكانت بدت لي بريئة آنذاك. فكانت تكفي الآن للقضاء على الهدوء الذي أمكنني أن أستعيده، بل لم تعد بي حاجة للذهاب واستنشاق جراثيم خطيرة في الخارج فقد كنت سمّمت نفسي، كما قال «كوتار» ربما. وفكّرت حينئذ في كلّ ما عرفته عن حبّ «سوان» لـ«أوديت»، وعن الطريقة التي خُدع بها «سوان» طوال حياته. وإن كنت في الأساس أبغي التفكير في الأمر فإن الفرضية التي جعلتني أبني شيئاً فشيئاً كامل طباع «ألبيرتين» وأقوم بتفسير مؤلم لكل لحظة في حياة ما كان بوسعي مراقبتها كلياً إنما كانت تذكّري طباع السيدة «سوان» والفكرة الثابتة عنها على نحو ما نُقل إليّ أنها كانت. وقد أسهمت هذه القصص في أن جعلت خيالي في المستقبل يقوم بلعبة يفترض بها أن «ألبيرتين» ربما استطاعت، بدلاً من أن تكون فتاة صالحة، أن تكون على ذات الفجور وذات القدرة على الخداع التي تميّز عاهرة سابقة وأخذت أفكّر في صنوف العذاب جميعها التي كانت ستنتظرني في هذه الحالة لو انبغى لي أن أحبّها في يوم.

وكنت قمت ذات يوم، أمام الفندق الكبير الذي كنا مجتمعين فيه فوق السدّ، بتوجيه أكثر العبارات قسوة وإذلالاً لـ«ألبيرتين» فتقول «روزموند»: «آه! ما أكثر ما تبدّلت مع ذلك بالنسبة إليها، فما كان أمر فيما مضى إلا لها، وهي التي كانت تمسك الحبل، والآن لم تعد تصلح لتلقي طعاماً للكلاب». وكيما أبرز أكثر من ذاك موقفي من «ألبيرتين» كنت آخذاً في توجيه كلّ اللطائف الممكنة إلى «أندريه»، وكانت تبدو لي، إن هي كانت مصابة بالعيب نفسه، أوفر عذراً لأنها كانت مريضة موهنة الأعصاب، حينما رأينا عربة السيدة «دو كامبرمير» تطلع خبباً بحصانيها في الشارع المعامد للسدّ الذي كنا نقف في زاويته، وابتعد الرئيس الأول الذي كان يتقدّم باتجاهنا في تلك اللحظة، ابتعد بقفزة واحدة حينما عرف العربة كي لا يشاهد بصحبتنا. ثم إنه حينما ظن أن نظرات المركيزة سوف تلاقي نظراته انحنى محيّياً بحركة واسعة بقبّعته. ولكنّ العربة توارت خلف مدخل

الفندق بدلاً من متابعة سيرها عبر شارع «البحر» كما بدا ذلك مرجّحاً. وكان انقضى تماماً عشر دقائق على ذلك حينما أقبل عامل المصعد يبلّغني منقطع الأنفاس: «إنها المركيزة «دو كامبرمير» جاءت إلى هنا للقاء سيدي. لقد صعدت إلى الغرفة وبحثت في قاعة القراءة فما استطعت أن ألقى سيدي. ومن حسن حظّي أن خطر لي أن ألقي نظرة على الشاطئ». وما كاد ينهي روايته حتى تقدّمت المركيزة نحوي تتبعها كنّتها وسيد شديد التصنع، وكانت آتية على الأرجح من حفلة بعد الظهر أو جلسة شاي في الجوار وقد تقوّس ظهرها أقلّ تحت عبء الشيخوخة منه جرّاء طائفة الحاجات الكمالية التي تظن من الألطف والأجدر بمكانتها طرحها فوق جسمها كي تبدو أكثر ما يمكن «كمالَ مَلْبَس» في عيون من جاءت لزيارتهم، وخلاصة القول أنه إنما جرى في الفندق ذاك «الحلول المفاجئ» لآل «كامبرمير» الذي كانت جدّتي بالأمس توجس منه أشدّ الخوف حينما تودّ أن يظل «لوغراندان» جاهلاً أننا ربما ذهبنا إلى «بالبيك». وكانت أمي تضحك حينذاك من المخاوف التي يوحي بها حادث تراه مستحيلاً. فإذا هو يقع في نهاية المطاف، إنما يسبل أخرى ودون أن تكون لـ«لوغراندان» يد فيه. وسألتني «ألبيرتين» (التي ظلّ في عينيها بضع دمعات لاحظتها دون أن أبدي أني أراها، وليس دون أن أغتبط لذلك، وقد جاءت بها الأشياء القاسية التي وجّهتها إليها منذ قليل): «هل يمكنني البقاء إن كنت لا أضايقك فربما كان لدي ما أقوله لك». كانت قبعة مريّشة يعلوها دبّوس من الياقوت قد وُضعت كيفما اتّفق على شعر السيدة «دو كامبرمير» المستعار مثل شارة إبرازُها ضروري ولكنّه كافٍ وموقعها قليل الأهمية وأناقتها مبتذلة وثباتها لا جدوى منه. كانت السيدة العجوز قد ارتدت على الرغم من الحرّ معطفاً حالك السواد شبيهاً بـ«دلماسيّة»[1] تتدلّى من فوقه تلفيعة من فرو

---

(١) ثوب طويل من قماش فاخر كان يرتديه عظماء الرومان وقد ورثته عنهم الكنيسة البيزنطية ولا يزال يرتديه الأساقفة والشمامسة في الخدمة الدينية.

القاقوم يبدو أن ارتداءها لا علاقة له بدرجة الحرارة والطقس بل بطابع الاحتفال. وعلى صدر السيدة «دو كامبرمير» يتدلّى تاج بارونة معلّق بسلسلة صغيرة كمثل صليب معلّق على الصدر. وكان السيد محامياً مشهوراً من باريس من عائلة نبيلة وقد جاء لقضاء ثلاثة أيام في منزل آل «كامبرمير». كان واحداً من أولئك الرجال الذين تجعلهم خبرتهم المهنية التامة يزدرون مهنتهم بعض الشيء فيقول مثلاً: «أعلم أني أترافع بصورة جيدة ولذا لم تعد المرافعة تبهجني»، أو «ليس يستهويني من بعد إجراء العمليات مع اني أعلم أني أجيد العمليات». وإذ هم أذكياء و«فنانون» فإنهم يشهدون من حول نضوجهم الذي يرفده النجاح رفداً قوياً التماع ذاك «الذكاء» وطبيعة «الفنان» تلك التي يقرّ لهم إخوانهم بها والتي توليهم ما يقرب أن يكون ذوقاً وتمييزاً. ويُشْغَفُون لا برسم فنان كبير بل فنان لامع جداً مع ذلك يستخدمون في شراء أعماله الدخول الكبيرة التي توفّرها لهم مهنتهم الناجحة. كان «لو سيدانير» هو الفنان الذي اختاره صديق عائلة «كامبرمير» الذي كان من جانب آخر ممتعاً جداً. كان يجيد الحديث عن الكتب، ولكن لا عن كتب المعلمين الحقيقيين، أولئك الذين ملكوا ذواتهم. ولكن العيب الوحيد المزعج الذي يبديه هذا الهاوي أنه كان يستخدم بعض العبارات الجاهزة بصورة مستديمة من مثل: «في أكبر قسم منه»، مما يضفي على ما كان يريد التحدّث عنه شيئاً من الأهمية واللااكتمال. كانت السيدة «دو كامبرمير» قد أفادت، فيما قالت لي، من حفلة بعد الظهر نظّمها أصدقاء لها في ذلك اليوم بالقرب من «بالبيك» عندما أتت لزيارتي مثلما سبق أن وعدت «سان لو» بذلك. «تعلم أنه سيجيء عما قريب لقضاء بضعة أيام في المنطقة، إن عمّه «شارلوس» يصطاف فيها في منزل زوجة الدوقة «دو لوكسمبور» وسيستغلّ السيد «دو سان لو» الفرصة ليذهب لتحيّة عمّته وزيارة كتيبته السابقة حيث يحيطونه بحبّ وتقدير عظيمين. فكثيراً ما نستقبل ضباطاً يشيدون به أجمل الإشادة في أحاديثهم، وكم عساكما تبديان من لطف لو أوليتمانا سروراً بمجيئكما

إلى «فيتيرن». وقدّمت لها «ألبيرتين» وصديقاتها. وذكرت السيدة «دو كامبرمير» أسماءنا لزوجة ابنها، فمدّت هذه يدها، هي الفاترة أشدّ الفتور إزاء صغار النبلاء الذين يضطرّها الجوار في «فيتيرن» إلى مخالطتهم، هي المتحفّظة جداً مخافة التعرّض للشبهات، مدّت لي يدها على العكس بابتسامة مشعّة وقد وجدت نفسها في وضع أمين بهيج في حضرة صديق لـ«روبير دو سان لو» كان هذا الأخير، الذي يتمتع بقدر من الرهافة المجتمعية يجاوز ما يبرز فيه للعيان، قد نقل لها عنه أنه وثيق الصلة بآل «غيرمانت». وهكذا كانت السيدة «دو كامبرمير»، بعكس حماتها، تملك صنفين من التأدب مختلفين أشدّ الاختلاف. ولعلّها كانت خصّتني على الأكثر بالصنف الأول الجاف الذي لا يطاق لو أني عرفتها عن طريق شقيقها «لوغراندان»، ولكنّها ما كانت تختزن ما يكفي من ابتسامات لصديق لآل «غيرمانت». كانت الحجرة الأكثر ملاءمة للاستقبال قاعة المطالعة، هذا المكان الرهيب جداً بالأمس الذي كنت الآن أدخله عشر مرات في اليوم وأغادره حرّاً سيداً كأولئك المجانين ذوي الإصابة الهيّنة وهم نزلاء مستشفى العاهات العقلية من فترة طويلة إلى حدّ أنْ استودعهم الطبيب مفتاحه، لذلك عرضت عليّ السيدة «دو كامبرمير» أن أصحبها إليها. ولمّا لم أعد أوجس خيفة من تلك الصالة ولم تعد تأسر فؤادي لأن وجه الأشياء يتغير بالنسبة إلينا كما يتغير وجه الأفراد، فقد عرضت عليها ذلك المقترح دونما اضطراب. ولكنّها رفضت مفضلّة البقاء خارجاً وجلسنا في الهواء الطلق في شرفة الفندق. ولقيتُ فيها فحملتُ معي كتاباً للسيدة «دو سيفينييه» لم يتّسع وقت أمي لحمله في هربها المفاجئ حينما علمت أن ثمة زائرين يجيئون إليّ. فقد كانت تخشى غزوات الغرباء تلك بقدر ما كانت تفعل جدّتي مخافة أن لا يسعها الإفلات من بعد إن هي حُوّطت فتنجو بنفسها بسرعة كانت تجعلنا على الدوام أنا ووالدي نسخر منها. كانت السيدة «دو كامبرمير» تحمل في يدها إلى جانب عصا شمسيّتها عدّة أكياس مطرّزة ومَفْرَغة جيوب وكيس نقود من ذهب تتدلّى منه خيوط

حمراء رمّانيّة ومنديل من الدانتيلا. كان يبدو لي من الأنسب لها لو تضعها على كرسي ولكنّما أشعر من غير اللائق وغير المفيد أن أسألها التخلّي عن حلي جولتها الراعوية وكهنوتها الدنيوي. كنا ننظر إلى البحر الهادئ تطفو فوقه نوارس مبعثرة شأن تويجات بيضاء. ورأيتني من جرّاء مستوى «الوسيط» المحض الذي ينزلنا إلى دركه حديث الدنيويات وكذلك رغبتنا في أن نروق غيرنا لا بوساطة ميزاتنا التي تخفى علينا بل بوساطة ما تظنّ أنه لا بدّ مقدّر من جانب من هم معنا، رأيتني أشرع غريزياً بالتحدث إلى السيدة «دو كامبرمير» المولودة «لوغراندان» بالطريقة التي لعلّ شقيقها كان انتهجها، فقلت وأنا أتحدّث عن النوارس: «إن بها جمود وبياض أزهار النيلوفر». وكانت بالفعل تبدو كأنما توفّر هدفاً ثابتاً للموجات الصغيرة التي تتقاذفها إلى حدّ أن هذه الموجات كانت تبدو بالمقابل، وهي تلاحقها مدفوعة بمقصد معيّن، كأنما تدبّ فيها الحياة. كانت المركيزة الوريثة لا تكلّ من الإشادة بمنظر البحر الرائع الذي يتوافر لنا في «بالبيك» وتحسدني هي التي ما كانت تشاهد الأمواج من «لا راسبليير» (الذي ما كانت تقطنه بأي حال في هذا العام) إلا من بعيد جداً. كان بها عادتان فريدتان ناجمتان في الآن نفسه عن حبّها المتّقد للفنون (ولا سيما الموسيقى) وعن قصورها السِنّيّ. ففي كلّ مرة كانت تتحدّث فيها عن علم الجمال كانت غددها اللعابية، كما هي الحال غدد بعض الحيوانات في فترة النزو، تدخل مرحلة من فرط الإفراز يبلغ بفم السيدة العجوز الأدرد أن يسمح بمرور بعض قطرات في زاوية الشفتين اللتين يكسوهما شارب خفيف، وهي هنا في غير محلّها، فكانت تسترجعها في الحال في تنهيدة كبيرة كمن يستردّ أنفاسه، فإن تعلّق الأمر أخيراً بجمال موسيقيّ عظيم كانت في حماستها ترفع ذراعيها وتتفوّه ببعض الأحكام المختصرة التي تلوكها بحزم وتنطلق من الأنف لدى الضرورة على أني ما ظننت في يوم أن شاطئ «بالبيك» العادي يمكن أن يوفّر بالفعل «إطلالة بحريّة»، فكانت أقوال السيدة «دو كامبرمير» البسيطة تغيّر أفكاري بهذا الشأن. وكنت في المقابل

سمعتُ على الدوام مَنْ يشيد بالمنظر الفريد من «لا راسبليير» الواقع على قمة الهضبة حيث يطلّ صفّ كامل من نوافذ صالة كبيرة بموقدين، يطلّ من أقصى الحدائق وبين أوراق الشجر على البحر إلى ما يجاوز «بالبيك»، ويطلّ الصفّ الآخر على الوادي. «كم أنت لطيف وما أحسن ما تقول: البحر بين أوراق الشجر. ذلك رائع، لكأنه. . . مروحة». وأحسست في تنفّس عميق مهيّأ لاسترجاع اللعاب وتنشيف الشاربين أن الإشادة كانت صادقة. ولكنّ المركيزة المولودة «لوغراندان» لبثت باردة لتبدي استهانتها لا بأقوالي بل بأقوال حماتها. وما كانت تستهين على أية حال بعقل هذه الأخيرة فحسب بل كانت تأسى للطفها إذ تخشى على الدوام أن لا يُكوّن الناس فكرة كافية عن آل «كامبرمير». وقلت: «وكم هو جميل الاسم. وددت لو نعرف أصل هذه الأسماء جميعاً». وأجابتني السيدة العجوز برفق قائلة: «أما بشأن ذاك فأستطيع أن أقوله لك. إنه مسكن عائلي يعود لجدّتي «أراشبيل»، وليست أسرة مشهورة، ولكنّها أسرة كريمة وعريقة جداً من الريف». وقاطعت زوجة ابنها الحديث بلهجة جافّة: «كيف هذا، غير مشهورة؟ ثمة زجاجية كاملة في كاتدرائية «بايّو» مليئة بشعاراتها فيما تحتفظ الكنيسة الرئيسية في «أفرانش» بأضرحتها. فإن كنت تجد تسلية في هذه الأسماء القديمة فقد تأخرت سنة في المجيء، تضيف قولها. ذلك أننا كنّا عينّا في خورنيّة[١] «كريكتو»، على الرغم من كل الصعوبات الكائنة في تبديل «الأبرشية»[٢]، عميد كهنة منطقة أملك فيها أراضي بعيداً جداً من هنا، في «كومبريه»، حيث أخذ يحسّ الكاهن الطيّب أنه يعاني من وهن الأعصاب. لكنّ هواء البحر لم يناسب لسوء الحظ كبر سنّه، فقد زاد وهن أعصابه فانثنى عائداً إلى «كومبريه». على أنه وجد سلوى حينما كان جاراً لنا في المبادرة للاطلاع على القوانين القديمة جميعها، وألف نشرة صغيرة

(١) مقر الخوري أو كاهن الرعية.

(٢) مجمل البلدان والقرى الواقعة تحت سلطة الأسقف أو المطران لدى الطوائف المسيحية.

طريفة إلى حدّ ما حول الأسماء في المنطقة. وقد استملح الأمر على أي حال إذ يبدو أنه يشغل آخر سني عمره في تأليف كتاب كبير حول «كومبريه» والمنطقة المحيطة بها. وسأبعث لك عما قريب نشرته حول المنطقة المحيطة بـ«فيتيرن»، إنه أشبه بعمل «بندكتيّ»(١). سوف تقرأ فيه أموراً مثيرة حول أرضنا القديمة في «لا راسبليير» التي تتحدث عنها حماتي بتواضع مفرط جداً». وأجابت السيدة «دو كامبرمير» الوريثة قائلة: «لم يعد قصر «لا راسبليير» هذه السنة قصرنا في جميع الأحوال ولست أملكه. على أني أحسّ لديك سليقة رسّام. جدير بك أن ترسم وكم وددت أن أريك «فيتيرن» فهي أفضل كثيراً من «لا راسبليير». ذلك أنه منذ أن أجّر آل «كامبرمير» هذا المسكن الأخير لأسرة «فيردوران» كفّ موقعه المشرف فجأة عن أن يبدو لهم ما سبق أن كان في نظرهم على مدى سنوات طويلة، يعني أنه يتمتع بميزة فريدة في البلاد قوامها الإطلالة على البحر والوادي في آن واحد، وابرز لهم في المقابل فجأة - وبعد فوات الأوان - السيّئة التي مفادها اضطرارهم المستمرّ للصعود والنزول للوصول إليه ومغادرته، ولعلّه بوجيز العبارة ساد الظن بأن السيدة «دو كامبرمير» إن كانت أجّرته فلتريح جيادها أكثر منها لتزيد عائداتها. وكانت تصرّح أنها في غاية الغبطة أن يمكنها أخيراً امتلاك البحر على مدى كامل الوقت وعن قرب شديد في «فيتيرن» هي التي ما رأته على مدى فترة طويلة جداً إلا من عل وكأنما ضمن مشهد عام وتنسى فترة الشهرين التي تقضيها على شاَطئه. «ها إني أكتشفه في سنّي، تقول، وكم أستمتع به! وأية فائدة أجنيها! ربما أجّرت «لا راسبليير» مقابل لا شيء كي أضطرّ إلى سكنى «فيتيرن»».

وأردفت شقيقة «لوغراندان» التي كانت تقول للمركيزة العجوز: «أمّي»، ولكنّها تبنّت على مرّ السنين تصرفات تتّسم بالوقاحة إزاءها: «نعود

(١) الآباء البندكتيّون الذين ينتمون للرهبانية التي أسّسها القدّيس بندكتوس اشتهروا بمباحثهم المعمّقة المتأنّية في علوم الدين والمجالات الأخرى، والصفة تطلق على أي عمل يتصف بالعمق والدقّة والتأنّي.

إلى موضوعات أوفر إثارة، كنت تتحدّثين عن أزهار النيلوفر: وأظنك تعرفين تلك التي رسمها «مونيه» يا له من عبقري! ذلك يثير اهتمامي ولا سيما أن ذلك المكان على مقربة من «كومبريه» حيث قلت لك إني أملك أرضاً. . . » ولكنّها فضّلت أن لا تفرط في الحديث عن «كومبريه». وصاحت «ألبيرتين» ولم تكن قالت شيئاً حتى ذاك: «آه! تلك بالتأكيد المجموعة التي كَلَّمَنَا عنها «ايلستير» أعظم الرسّامين المعاصرين». وصاحت السيدة «دو كامبرمير» التي شرقت دفقة لعاب وهي تأخذ نفساً عميقاً: «آه! واضح أن الآنسة تحبّ الفنون». وقال المحامي وهو يبتسم ابتسامة العارف: «اسمحي لي يا آنسة أن أفضّل «لو سيدانير» عليه». ولمّا سبق أن تذوّق أو شهد من تذوّق بعض «مواطن الجرأة» لدى «ايلستير» أضاف قوله: «كان «ايلستير» موهوباً، وهو حتى كان جزءاً من الطليعة تقريباً، ولكنّي لا أعلم لماذا كفّ عن اللحاق بالركب، لقد أفسد حياته». وأقرّت السيدة «دو كامبرمير» بصواب ما قال المحامي بخصوص «ايلستير» ولكنّها ساوت «مونيه» بـ«لو سيدانير» مما أولى مدعوّها غمّاً كبيراً. لا يمكن أن نقول إنها كانت غبية؛ لقد كانت تفيض ذكاء أحسّه لا طائل تحته كلياً بالنسبة إليّ. كانت النوارس صفراء بالضبط الآن والشمس تنحدر على الأفق كما هي حال أزهار النيلوفر في لوحة أخرى من مجموعة «مونيه» نفسها. فقلت إني أعرفها وأضفت (وأنا أوالي تقليد كلام الشقيق الذي لم أكن جرؤت بعد على ذكر اسمه) أنه من المؤسف أنْ لم تخطر لها بالأحرى فكرة المجيء البارحة فلعلّها كانت استطاعت في الساعة نفسها أن تشاهد ضياء على طريقة «بوسّان»، لعلّ السيدة «دو كامبرمير - لوغراندان» كانت دونما شكّ انتفضت كمن مُسَّتْ كرامتها في حضرة واحد من نبلاء الريف النورماندي يجهله آل «غيرمانت» ويقول لها إنه كان يجدر بها أن تجيء البارحة. ولكنّي ربما استطعت أن أكون بعد أكثر ألفة ولا تكون هي إلا نعومة طريّة ذائبة. كنت أستطيع في حرّ أواخر العشية الجميلة تلك أن أسرح كما يحلو لي في قرص العسل الضخم الذي يندر جداً أن

تكونه السيدة «دو كامبرمير» والذي حلّ محلّ المحمّصات الصغيرة التي لم يخطر لي أن أقدّمها. بيد أن اسم «بوسّان» أثار احتجاجات الهاوية دون أن يبدّل من وداعة امرأة المجتمعات الراقية. وإذ سمعت السيدة «دو كامبرمير» ذاك الاسم أصدرت ستّ مرات متوالية لا يفصل بينها تقريباً أي فاصل زمني نقرة اللسان الصغيرة تلك على الشفتين والتي تفيد إبلاغ طفل يرتكب حماقة لوماً على أنه بدأ ونهياً عن المتابعة في الآن نفسه. «بحق السماء لا تبادر، بعد رساماً مثل «مونيه» هو بكلّ بساطة عبقري، إلى تسمية مؤلّف مبتذل قديم تعوزه الموهبة من أمثال «بوسّان». سأقول لك بصراحة مكشوفة إني أجده من أكثر من يوردونك الملل. ما عساك تبغي، لست أستطيع تسمية ذلك رسماً. «مونيه»، «دوغا»، «مانيه»، أجل هؤلاء رسّامون! إنه لأمر غريب جداً، تضيف قولها وهي تثبّت نظرة متفحّصة مبهورة على نقطة مبهمة في الفراغ كانت تلمح فيها فكرتها الخاصة، إنه لأمر غريب جداً، كنت فيما مضى أفضّل «مانيه»؛ والآن لا أزال معجبة بـ«مانيه» بالطبع، ولكني أظن أني ربما أفضّل عليه «مونيه» أيضاً. آه! يا للكاتدرائيات!» كانت تلجأ إلى قدر متساوٍ من الدقّة المتحسّبة والتلطف لإطلاعي على خطّ التطور الذي سلكه ذوقها. وكنت تحسّ أن المراحل التي تقلّب فيها هذا الذوق لم تكن في رأيها، أقلّ أهمية من الأساليب المختلفة لدى «مونيه» نفسه. وما كان لي بأية حال أن أعتزّ بأنها تُسِرُّ إليّ بمواطن إعجابها لأنها لم تكن تقوى، حتى إزاء الريفية الأكثر محدودية، على البقاء خمس دقائق دون أن نحسّ بحاجة الإقرار بها. فحينما كانت سيدة من نبلاء «أفرانش»، لعلّها كانت عاجزة عن التمييز بين «موزارت» و«فاغنر» تقول في حضرة السيدة «دو كامبرمير»: «لم يتوافر لنا جديد مشوّق أثناء إقامتنا في باريس، فقد ذهبنا مرة إلى دار الأوبرا الهازلة، وكانوا يمثّلون فيها «**بيلياس وميليزاند**»، ويا للقباحة»، لم تكن السيدة «دو كامبرمير» تغلي فحسب بل تحسّ بحاجتها أن تصرخ: «إنها على العكس رائعة لافتة» و«تناقش». ربما كانت تلك عادة في «كومبريه» اقْتُبِسَتْ عن

شقيقات جدّتي اللواتي يسمّين ذلك «الكفاح في سبيل القضية الصحيحة»، ويعشقن الأعشية التي يعلَمن أنهن مدعوّات فيها كلّ أسبوع إلى الدفاع عن آلهتهنّ ضدّ «غلاظ القلوب».

كذلك كانت السيدة «دو كامبرمير» تحبّ أن «تهتاج» وهي في «شجار» حول الفن كأخريات حول السياسة. كانت تنحاز إلى «دوبوسّي» كما لعلّها تفعل بشأن واحدة من صديقاتها تُتّهم في سلوكها. على أنه كان يجدر بها أن تدرك أنها لا تستطيع بقولها: «لا، إنها رائعة لافتة» أن ترتجل لدى الشخص الذي كانت تؤنّبه كامل التدرّج في تطور الثقافة الفنية الذي لعلّهما اتّفقا في نهايته دون أن تكون بهما حاجة إلى النقاش. وقال لي المحامي: «ينبغي أن أسال «لو سيدانير» فكرته عن «بوسّان». إنه انطوائي سكوت ولكنّي سأعرف كيف أدفعه إلى الكلام».

وتابعت السيدة «دو كامبرمير» تقول: «إني على أي حال أنفر من مشاهد الغروب، فهي رومانتيكية، وهي أوبرالية. ولذلك أكره منزل حماتي بنباتاته الجنوبية. إنه يبدو، كما سترى، كحديقة في «مونتي كارلو»؛ ولذلك تراني أفضّل شاطئكم. إنه أشدّ حزناً وأوفر صدقاً، وثمة درب صغير لا ترى البحر منه، وليس فيه في الأيام الماطرة سوى الأوحال، إنه عالم قائم بذاته، ذلك كمال البندقية، فإني أكره القناة الكبرى ولا أعرف شيئاً مؤثّراً بقدر ما هي الجادّات الصغيرة، إنها مسألة محيط بأية حال». فقلت لها وبي إحساس بأن الطريقة الوحيدة لردّ اعتبار «بوسّان» في عيني السيدة «دو كامبرمير» هي إطلاع هذه السيدة على أنه عاد فأصبح رائجاً: «ولكنّ السيد «دوغا» يؤكّد أنه لا يعرف ما هو أفضل من لوحات «بوسّان» في «شانتيي».

وقالت السيدة «دو كامبرمير» وهي لا تبغي أن تكون من رأي مخالف لـ«دوغا»: «عجباً! لست أعرف لوحات «شانتيي» ولكنّي أستطيع التحدث عن لوحات «اللوفر» وهي قبيحة منفّرة». - «وإنه لمعجب بها كذلك أشدّ الإعجاب». - «لا بدّ أن أعود فأراها، فكلّ ذلك على شيء من قدم العهد

في رأسي»، تجيب قائلة بعد لحظة صمت وكأنما الحكم الإيجابي الذي ستطلقه بالتأكيد عما قريب على «بوسّان» إنما يرتبط وجوباً لا بالخبر الذي حملتُه إليها منذ قليل، بل بالامتحان الإضافي والنهائي هذه المرة التي كانت تعتزم إخضاع لوحات «بوسّان» في اللوفر له كي يسعها الرجوع عن رأيها. واكتفيت بما كان بداية تراجعٍ، بما أنها إن لم تكن بعد معجبة بلوحات «بوسّان»، كانت تؤجّل الأمر لمداولة أخرى، وبغية أن لا أدعها فترة أطول نهب العذاب قلت لحماتها كم حدّثوني عن الأزهار الرائعة في «فيتيرن». فتحدثت بتواضع عن الحديقة المتنوعة الصغيرة الكائنة في الخلف حيث كانت تذهب بمبذلها بعدما تدفع باباً لتُلقي بالطعام لطواويسها وتجمع البيض وتقطف زينيّات أو وروداً كانت على حافة الطاولة تجعل إطاراً من الزهر للبيض بالكريما أو الأطعمة المقلية فتذكّرها بممرّاتها. وقالت لي: «صحيح أن لدينا الكثير من الورود، ومشتل الورود يكاد يكون قريباً جداً من بيت السكن، وثمة أيام يورّثني فيها صداعاً. والمتعة أعظم من شرفة «لا راسبليير» حيث تحمل الريح عطر الورود، ولكنّه أقلّ نفاذاً مذ ذاك». والتفتُّ إلى الكنّة وقلت لها كي أرضي ميلها إلى النزعة العصرية: «إنها تماماً «**بيلياس**»، رائحة الورود هذه التي تتعالى إلى الشرفات، وهي قوية في التقسيم الموسيقي إلى حدّ أني كنت آخذ بالعطس، إذ أنا مصاب بحمّى القشّ وحمّى الورد، في كلّ مرة كنت أسمع فيها ذاك المشهد»، صاحت السيدة «دو كامبرمير» قائلة: «أية رائعة هي «**بيلياس**»! إني مشغوفة بها». واقتربت مني بحركات امرأة متوحّشة ودّت لو تسبّب لي إزعاجاً مستعينة بأصابعها لتنقر علامات موسيقية وهمية وأخذت تدمدم شيئاً افترضت أنه يمثّل بالنسبة إليها وداع «بيلياس» وتابعت بإصرار وعنف كما لو كان من الأهمية بمكان أن تذكّرني السيدة «دو كامبرمير» في هذا الوقت بذلك المشهد، أو ربما أن تُريني بالأحرى أنها كانت تتذكّره، وأضافت قولها: «أظن أنها حتى أجمل من «برسيفال» لأنه إنما ينضاف إلى أعظم مطارح الجمال في «برسيفال» هالة من الجمل اللحنية، يعني التي

عفّى عليها الزمن بما أنها «تطريبية». وقلت للوريثة: «أعرف أنك موسيقية عظيمة يا سيدتي. وددت كثيراً لو أسمعك». ونظرت السيدة «دو كامبرمير - لوغراندان» إلى البحر كي لا تشارك في الحديث. وإذ ترى أن ما كانت تحبّه حماتها لم يكن من الموسيقى في شيء، فقد كانت تعتبر الموهبة (المزعومة في نظرها والبارزة كأكثر ما تكون في الواقع) التي يقرّون أنها تتمتع بها براعة لا طائل تحتها. صحيح أن تلميذة «شوبّان» الوحيدة التي ما تزال على قيد الحياة كانت تصرّح بحق أن طريقة عزف المعلّم، أن إحساسه لم ينتقل عبرها إلا إلى السيدة «دو كامبرمير»، ولكن العزف على طريقة «شوبّان» ما أبعده كان عن أن يؤلف مرجعية في نظر شقيقة «لوغراندان» التي لا تزدري أحداً بقدر ازدرائها للموسيقي البولوني. وصاحت «ألبيرتين» قائلة: «آه! إنها تطير»، وهي تدلّني على النوارس التي تخلّت للحظة عن تنكّرها زهرات وارتفعت جميعها صوب الشمس. وقالت السيدة «دو كامبرمير» وهي تخلط بين النوارس وطيور القطرس: «تحول أجنحتها العملاقة دون مسيرها». وقالت «ألبيرتين»: «إني أحبّها كثيراً وكنت أشهد منها في «أمستردام». إنها تحسّ البحر وتُقبل لتنشّقه حتى عبر أحجار الشوارع». وسألت السيدة «دو كامبرمير» سؤال الآمر: «آه! كنت في هولندا، فهل تعرفين الـ«فيرمير»[1]؟ تقولها بلهجة من لعلّه قال: «هل تعرفين آل «غيرمانت»؟». لأن التحذلق إن هي غيّرت موضوعها لا تغيّر لهجتها. وأجابت «ألبيرتين» أنْ لا لأنها كانت تظنّهم أحياء يرزقون؛ ولكنّما لم يبدُ شيء من ذلك. وقالت لي السيدة «دو كامبرمير»: «كان أسعدني أن أعزف لكَ شيئاً من الموسيقى. ولكنك تعلم، أنا لا أعزف سوى أشياء لا تثير اهتمام بني جيلك من بعد. فقد نشأت على حبّ «شوبّان»، تقولها بصوت خفيض إذ كانت تخشى كنّتها وتعلم أن هذه ترى

(١) تسأل عن لوحات الرسام الشهير «فيرمير» والسؤال بالفرنسية مقتبس ويعني آل «فيرمير» ولوحات «فيرمير».

أن «شوبّان» إذ ليس من الموسيقى في شيء فإن إجادة أو إساءة عزفه عبارتان لا معنى لهما. كانت تقرّ بأن حماتها تملك الآلية وتجيد العزف السريع». وتخلص السيدة «دو كامبرمير - لوغراندان» إلى القول: «لن يحملوني يوماً على التصريح بأنها موسيقية». لأنها كانت تظن نفسها «متقدمة» وأنها (في نطاق الفن فحسب) «لم تكن إلى اليسار بما يكفي البتّة»، فقد كانت تتصوّر أن الموسيقى لا تتطور فحسب، بل هي تفعل على خطّ وحيد وأن «دوبوسي» درجة تضاف نوعاً ما إلى «فاغنر» وأنه متقدم قليلاً على «فاغنر». وما كانت تنتبه إلى أن «دوبوسي» إن لم يكن مستقلاً عن «فاغنر» بقدر ما سوف تفتقده هي بعد بضع سنوات لأن المرء إنما يستخدم الأسلحة التي غنمها كي يتحرّر نهائياً من ذاك الذي غلبه مؤقتاً، فقد كان يجهد مع ذلك، في أعقاب الاكتفاء الذي يحسّ به المرء من الأعمال الكاملة المكمّلة التي تعبّر عن كلّ شيء، في إرضاء حاجة مغايرة. كان ثمة نظريات بالطبع تدعم مؤقتاً ردة الفعل هذه وهي مشابهة لتلك النظريات التي تساند في نطاق السياسة القوانين المناهضة للجمعيات الدينية والحروب في الشرق (التعليم المضادّ للطبيعة، والخطر الأصفر، إلخ.، إلخ.). كانوا يقولون إن عصر العجلة يناسبه فن سريع، تماماً كما لعلّهم قالوا إن الحرب الآتية لا يمكن أن تدوم أكثر من خمسة عشر يوماً، أو أن البقاع الصغيرة الغالية على عربات الخيل سوف تُهجر بظهور القطارات مع أن السيارة سوف تُهجر بظهور القطارات مع أن السيارة سوف تعيدها إلى الصدارة. وكانوا يوصون بأن لا يرهقوا انتباه المستمع كما لو أننا لا نملك صنوف انتباه مختلفة يعود للفنّان بالضبط أن يوقظ أسمى أنواعها. فإن الذين يتثاءبون تعباً بعد عشرة سطور من مقالة ضحلة سبق أن أمّوا في كلّ عام «بايروت» لسماع «**الرباعية**». وعلى أي حال كان لا بدّ أن يجيء اليوم الذي يُعْلَنُ فيه لفترة من الزمن أن «دوبوسي» بمثل هشاشة «ماسّنيه» وأن انتفاضات «ميليزاند» انحدرت إلى مصاف انتفاضات «مانون». ذلك لأن النظريات والمدارس، شأن الميكروبات والكريّات،

تتناهش وتضمن بصراعها استمرار الحياة، ولكن هذا الزمن لم يكن بعد قد حلّ.

ومثلما هي الحال في البورصة عندما يحدث ارتفاع ويفيد من ذلك قطاع كامل من القيم المالية، كان عدد من المؤلفين المُزْدَرين يفيد من ردة الفعل، إما لأنهم ما كانوا يستحقّون ذاك الازدراء، وإما لأنهم تعرّضوا فحسب لذاك الخطر - الأمر الذي كان يفسح المجال لقول الجديد لدى امتداحهم -. بل كانوا يمضون باحثين في الحقب الخوالي عن بعض مواهب مستقلّة ما كان يبدو أن الحركة الراهنة سيكون لها أثر على سُمعتهم ولكنّما نُقِلَ عن أحد اربابها الجدد أنه قرن اسمهم بالتقدير. وكان ذلك في الغالب لأن الأستاذ، أي أستاذ، ومهما كانت مدرسته مقصورة حصرية، إنما يبدي رأيه في عاطفة أصيلة ويوفي الموهبة حقّها حيثما وجدت، بل يفعل بالنسبة إلى إيحاء ممتع عرفه فيما مضى ويرتبط بفترة حبيبة من يفاعته، أكثر منه بالنسبة إلى الموهبة. وأحياناً لأن بعض الفنانين من حقبة أخرى قد حققوا في مقطوعة واحدة شيئاً يشبه ما تبيّن الأستاذ شيئاً فشيئاً أنه كان يودّ أن يفعله بنفسه. حينئذ يبصر في ذاك القديم كأن له سلفاً ويحب عنده بلبوس آخر، جهداً هو بصورة وقتية وجزئية أخويّ. فثمة قِطَع من «تورنر» في أعمال «بوسّان»، وجملة لـ«فلوبير» في «مونتسكيو». وأحياناً كانت شائعة إيثار الأستاذ تلك نتيجة خطأ لا يعرف أحد أين نشأ وتناقلوه في المدرسة. ولكن الاسم المذكور كان يفيد آنذاك من المؤسسة التي سبق أن دخل في الوقت المناسب في حمايتها لأنه إن كان ثمة بعض الحرية وميل حقيقي في اختيار الأستاذ فإن المدارس في ما يخصّها لا تتوجّه من بعد إلا وفقاً للنظرية. وهكذا كان الفكر، في اتّباعه مجراه الطبيعي الذي يتقدّم استطراداً فينعطف مرة في اتجاه والمرة التالية في الاتجاه المعاكس، يعيد النور من فوق على عدد من الأعمال أضافت إليها الحاجة إلى العدالة أو التجديد، أو ذوق «دوبوسي» أو نزوة عابرة لديه أو كلام ربما لم يقله، أعمال «شوبّان». وإذ أوصى بها القضاة، وهم موضع

ثقة تامة، وأفادت من موجة الإعجاب التي أثارتها «**بيلياس**» فقد عادت فلقيت ألقاً جديداً وأضحى أولئك الذين لم يسبق أن عاودوا الاستماع إليها تتملّكهم رغبة شديدة في حبّها حتى ليفعلون ذلك رغماً عنهم وإن كانوا يتوهّمون الحرية في تصرّفهم. ولكنّ السيدة «دو كامبرمير - لوغراندان» كانت تقضي قسماً من العام في الريف، بل هي، لمرضها، كانت حتى في باريس تعيش كثيراً داخل غرفتها. صحيح أن مساوئ الأمر كان يمكن أن تحسّ بها على وجه الخصوص في اختيار التعابير التي تظنها السيدة «دو كامبرمير» رائجة ولعلّها كانت تناسب بالأحرى اللغة المكتوبة، وهي فوارق ما كانت تميّزها، لأنها أخذتها عن القراءة أكثر منها عن المحادثة. والمحادثة ليست ضرورية لمعرفة الآراء بدقّةٍ ضرورةَ التعابير الجديدة. على أن تجديد «**الليليّات**»[1] لم يكن بعد قد أُعلن من جانب النقّاد. وقد ذاع خبره فقط عن طريق محاضرات جماعة من الشبّان، وكان لا يزال مجهولاً لدى السيدة «دو كامبرمير - لوغراندان». وقد لذّني أن أنقل إليها، ولكني أفعل موجّهاً الحديث إلى حماتها، مثلما تلعب في البلياردو على الجوانب بغية إصابة إحدى الكرات، أنّ «شوبّان» كان الموسيقي المفضّل لدى «دوبوسي» وما كان متقادم العهد وما أبعد أن يكون. وقالت الكنّة في ابتسامة: «عجباً، ذلك ممتع»، كما لو لم يكن الأمر سوى مفارقة ألقى بها مؤلّف «**بيلياس**». على أنه كان من المؤكد الآن أنها لن تسمع «شوبّان» من بعد إلا بإجلال وحتى بغبطة. ولذلك فإن كلماتي التي دقّت منذ قليل ساعة الخلاص بالنسبة إلى الوريثة أشاعت في محيّاها علائم الامتنان لي ولا سيما الغبطة. والتمعت عيناها مثل عيني «لاتود» في المسرحية التي عنوانها «**لاتود أو خمسة وثلاثون عاماً في الأسر**» وتنسّم صدرها هواء البحر بذاك الاتساع الذي أجاد «بيتهوفن» إلى حدّ بعيد في الإشارة إليه في أوبرا «**فيديليو**» حينما يستنشق سجناؤه أخيراً «ذاك الهواء المحيي». وخِلتُ أنها

---

(١) مقطوعات من تأليف «شوبّان».

ستطبع على خدّي شفتيها «المشوربتين». «كيف هذا، تحبّ «شوبّان»؟ إنه يحبّ «شوبّان»، يحبّ «شوبّان»، تصرخ قائلة في خنّة حماسية كما لعلّها كانت تقول «عجباً، تعرف كذلك السيدة «دو فرانكتو»؟» بفارق أن علاقاتي بالسيدة «دو فرانكتو» ربما كانت غير ذات بال إلى أبعد حدّ في نظرها فيما دفعتها معرفتي لـ«شوبّان» إلى ضرب من الهذيان الفنّيّ. ولم يعد فرط الإفراز اللعابي كافياً. وهي حتى لم تحاول أن تفهم دور «دوبوسي» في إعادة اكتشاف «شوبّان» بل أحسّت فحسب أن الحكم الذي أصدرته كان لصالحه، وتملّكتها الحماسة الموسيقية. «إيلودي! إيلودي! إنه يحبّ «شوبّان»». وارتفع نهداها وضربت الهواء بذراعيها، وصاحت قائلة: «لقد شعرت تماماً أنك موسيقي. وإني أدرك أنك تحبّ ذلك، وأنت «فنان» بطبيعتك فيا لجماله!» وكان صوتها حصويّاً كما لو أنها في سبيل التعبير عن تحمّسها لـ«شوبّان» ملأت فمها، مقلّدة بذلك «ذيموستين»[1] بحصى الشاطئ جميعها. ثمّ كان الجزْر فبلغ حدّ غلالة الوجه التي لم يتّسع لها الوقت لوضعها في مكان آمن وجرى اختراقها، وأخيراً مسحت المركيزة بمنديلها المطرز الزبد الراغي الذي بلّلت ذكرى «شوبّان» شاربيها به.

وقالت لي السيدة «دو كامبرمير - لوغراندان»: «يا إلهي، أظن أن حماتي تبالغ قليلاً في تأخرها وتنسى أننا نستضيف على العشاء عمّي «دو شْنُوفيل». ثم إن «كانكان» لا يحبّ الانتظار». ظلّت «كانكان» غير مفهومة عندي وظننت الأمر ربما عنت به كلباً. أما في ما يخص أبناء عم «شْنُوفيل» فدونك الأمر. لقد خفّت لدى المركيزة الشابة المتعة التي كانت تحسّها في نطق اسمها على هذا النحو، وقد سبق لها مع ذلك أن قررت الزواج للتمتع بنطقه، وكانوا في جماعات أخرى من المجتمعات الراقية حينما يتحدثون عن آل «شْنُوفيل» قد اتخذوا عادة التضحية بصائت «دو»

---

(١) خطيب مفوّه من عصر «فليبّس» المقدوني والد الاسكندر الكبير، وكان في بداياته ألثغ متعثر اللفظ، فلم يزل يجهد في ذلك بوضع الحصاة تحت لسانه حتى استقام أمره.

(على الأقل في كلّ مرة يكون الحرف فيها مسبوقاً باسم نهايته صائت، إذ هم مضطرّون في الحالة المقابلة أن يتخذوا من «دو» نقطة استناد، فاللغة لا تطيق أن يقال «مدام دْشْنُونْسُو»). فكانوا يقولون: «السيد «دْشُنُوفيل». وكان التقليد معكوساً في أسرة «كامبرمير»، ولكنّه بمثل حتميّته، فقد كان ما يُحذف على الدوام هو صائت شُنُوفيل» فتقال «شْنُوفيل». وسواء كان الاسم مسبوقاً «بابن عمّي أو ابنة عمّي» فقد كان على الدوام «دو شْنُوفيل» وما كان في يوم «دو شُنُوفيل». (أما بالنسبة لوالد أفراد أسرة «شُنُوفيل» فقد كانوا يقولون «عمّنا» إذ لم يكونوا على قدر كافٍ من النخبوية في «فيتيرن» ليقولوا «عمّو» كما لعل آل «غيرمانت» كانوا فعلوا، هم الذين كانت لغتهم الغريبة المقصودة التي يحذفون السواكن فيها ويضفون شكلاً وطنياً على الأسماء الأجنبية صعب الفهم صعوبة الفرنسية القديمة أو اللهجات المحكية الحديثة). كان كلّ شخص يدخل في أسرة «كامبرمير» يتلقّى في الحال حول هذه النقطة المتعلقة بآل «شْنُوفيل» تحذيراً لم تكن الآنسة «لوغراندان» بحاجة إليه. وإذ سمعت ذات يوم في زيارة لها فتاة تقول: «عمّتي دوزيه» و«عمّو دو روان»[1]، فإنها لم تتعرّف في الحال الاسمين الشهيرين اللذين تعوّدت أن تلفظهما «أوزيس» و«روان» وقد أخذ منها العجب والارتباك والخجل الذي يصيب واحداً يجد أمامه على المائدة أداة اختُرِعَتْ حديثاً لا يعرف كيفية استخدامها فلا يجرؤ على مباشرة الأكل بها. ولكنّها في الليلة التالية والغد ردّدت مفتونة: «عمّتي دوزيه» بحذف حرف السين الأخير، وهو ما سبق أن أذهلها البارحة ولكنّما يبدو لها الآن من قبيل الابتذال الشديد أن لا يعرفها المرء إلى حدّ أن الآنسة «لوغراندان» أجابت واحدة من صديقاتها حدّثتها عن تمثال نصفي للدوقة «دوزيس» أجابت بامتعاض وبلهجة مستكبرة: «بمقدورك على الأقلّ أن تتلفظي كما ينبغي أن تفعلي: مام (مدام) دوزيه». لقد

(١) d'Uzai بدلاً من d'Uzés، وRouan بدلاً من Rohan.

أدركتْ مذ ذاك أنه بمقتضى استحالة المواد الصلبة عناصر أكثر فأكثر خفّة ورقّة فإن الثروة الضخمة المكتسبة بصورة شريفة جداً والتي ورثتها عن والدها والتربية الشاملة التي حازتها ودوامها ومثابرتها في «السوربون»، سواء على دروس «كارو» أو دروس «برونتيير» وحفلات «لامورو» الموسيقية، كل ذلك كان ينبغي أن يتبخّر ويلقى تصعيده الأخير في متعة أن تقول ذات يوم: «عمّتي دوزيه».

ولكنّما لا يقصي من فكرها أنها ستستمر، على الأقلّ في الفترات الأولى التي تلي زواجها، في عشرة، لا بعض الصديقات اللواتي تحبّهنّ واللواتي تسلّم بالتضحية بهنّ، بل بعض الأخريات اللواتي لا تحبّهنّ وتودّ أن يمكنها أن تقول لهنّ «إذ هي ستتزوج لهذه الغاية»: «سأقدّمكنّ لعمّتي دو شْنُوفيل و«سوف أوفر لكنّ عشاء مع أسرة «أوزيه».» وقد وفّر زواج الآنسة «لوغراندان» من السيد «دو كامبرمير» وفّر لها فرصة أن تقول الأولى من هاتين الجملتين لا الثانية إذ لم يكن المجتمع الذي يرتاده حمواها ذاك الذي ظنت والذي ما انفكّت تحلم به. وهكذا فإنها بعدما قالت لي عن «سان لو» (متّخذة لذلك عبارة لـ«روبير»، إذ كانت، إن أنا تكلّمت للحديث معها مثلما يفعل «لوغراندان»، تجيبني بإيحاء معاكس بلهجة «روبير» التي لا تعرف أنها مقتبسة من «راحيل»)، وهي تقرّب إبهامها من سبابتها في نصف إغماضة كما لو أنها تنظر إلى شيء في غاية الدقّة تمكنت من التقاطه: «إنه يملك فكراً من نوعية محبّبة»، امتدحته بقدر من الحماسة كبير حتى لأمكن الظن أنها كانت مغرمة به (وكانوا زعموا بأية حال أن «روبير» فيما مضى، حينما أقام في «دونسيير» كان عشيقاً لها)، ولكنّها فعلت في الواقع لمحض أن أردّد ذلك على مسامعها ولتصل إلى هذا: «إنك وثيق الصلة بالدوقة «دو غيرمانت»، وإني أكابد الآلام وأكاد لا أخرج وأعرف أنها تظلّ حبيسة حلقة من الأصدقاء المختارين، وهذا ما أراه جيداً جداً، ولذلك فمعرفتي بها هيّنة جداً ولكنّي أعرف أنها امرأة رفيعة المستوى». وإذ كنت أعلم أن السيدة «دو كامبرمير» تكاد لا تعرفها، وكيما أجعل

نفسي صغيراً بقدر ما كانت هي، فقد مررتُ مرور الكرام على هذا الموضوع وأجبت المركيزة بأني عرفت بوجه الخصوص شقيقها السيد «لوغراندان». واتّخذت لدى سماع هذا الاسم الهيئة المتهرّبة نفسها التي اتّخذتها بشأن السيدة «دو غيرمانت»، ولكنّما أضافت إليها ملامح استياء لأنها ظنت أنني قلت ذلك لا لأذلّ نفسي بل لأذلّها. فهل كان يتأكّلها اغتمامها أن تكون ولدت لآل «لوغراندان»؟ ذلك على الأقلّ ما كانت تزعمه شقيقات وبنات حمي زوجها، وهنّ سيدات نبيلات من الريف ما كنّ يعرفن أحداً ولا يعرفن شيئاً ويحسدن السيدة «دو كامبرمير» ذكاءها وتعليمها وثروتها والمفاتن الجسمانية التي كانت لها قبل أن يداهمها المرض. «إنها لا تفكّر في أي أمر آخر وهذا ما يقتلها»، تقول تلك الخبيثات حالما يتحدّثن عن السيدة «دو كامبرمير» إلى أحدهم، والأفضل إلى أحد أبناء الطبقة الدنيا إما لإضفاء قيمة أوفر، بالتوكيد على ما في الطبقة الدنيا من خزي، على اللطف الذي يُبدينه له، إن كان مغروراً غبياً، فإن كان خجولاً مرهفاً ويطبّق القول على نفسه فليصبن متعة فيما يُحسِنُ استقباله في توجيه وقاحة غير مباشرة إليه. ولكن إن ظنت تلك السيدات أنهنّ يقلن الحقيقة بالنسبة إلى بنت حميهنّ فقد كنّ على ضلال. فإن هذه قد تقلّصت معاناتها من أنها وُلدت لآل «لوغراندان» بقدر ما كانت قد نسيت ذكراها. واستاءت من أني رددت ذلك عليها وصمتت كما لو لم تفهم إذ لا ترى ضرورة في توفير إيضاح ولا حتى توكيد لأقوالي.

«ليس أهْلُنا السببَ الرئيسي لتقصير زيارتنا»، تقول السيدة «دو كامبرمير» الوريثة التي كانت على الأرجح أكثر لامبالاة من زوجة ابنها بشأن المتعة الناجمة عن قولها: «شْنُوفيل»؛ ولكن السيد، تقول وهي تشير إلى المحامي، لم يجرؤ، بغية أن لا يتعبك بمزيد من الناس، على إحضار زوجته وابنه إلى هنا وهما يتنزهان على الشاطئ بانتظارنا ولا بدّ أنهما بدآ يتضجّران» وطلبت وصفهما لي وصفاً دقيقاً وأسرعت لإحضارهما. كان للمرأة وجه مستدير شبيه ببعض الأزهار من فصيلة الشقيقيات وفي زاوية

العين علامة نباتية على اتّساع كافٍ. وإذ تحتفظ أجيال الناس بسماتها شأن فصيلة من النباتات، فإن العلامة نفسها، كما هي الحال على وجه الوالدة المتغضّن، العلامة التي ربما أمكن أن تعين على تصنيف نوع معيّن، كانت تنتفخ في أسفل عين الابن. لقد أثّرت عنايتي بزوجة المحامي وبولده في نفسه. فأبدى اهتماماً بشأن إقامتي في «بالبيك». «لا بدّ أنك تجد في نفسك في جوّ من الغربة، فههنا أجانب في الكثير الغائب». وكان ينظر إليّ فيما يحدثني لأنه يودّ، وهو لا يحبّ الأجانب مع أن كثيرين منهم من زبائنه، أن يتأكّد أني لا أناهض عداءه للأجانب فلعلّه كان تراجع إذ ذاك قائلاً: «يمكن بالطبع أن تكون السيدة «س» امرأة رائعة. إنها مسألة مبادئ». ولمّا لم أكن أحمل في تلك الحقبة أي رأي حول الأجانب فلم أُبْدِ أي استنكار وأحسَّ أنه في أرضٍ آمنة. وبلغ به أن سألني المجيء ذات يوم إلى بيته في باريس لمشاهدة مجموعة «لو سيدانير» التي يملكها وأن أحمل أسرة «كامبرمير» على المجيء معي، وكان يظن بجلاء أني على علاقة حميمة بهم. «سوف أدعوك بصحبة «لو سيدانير»، يقول وهو واثق أني لن أعيش من بعد إلا بانتظار هذا اليوم المبارك. وسترى أي رجل رائع هو، وتفتنك لوحاته. لا يسعني بالطبع منافسة كبار أصحاب المجموعات ولكني أظن أني من يملك العدد الأكبر من لوحاته المفضّلة. وسوف يزيد من اهتمامك وأنت من «بالبيك»، أنها في القسم الأكبر منها على الأقلّ لوحات بحريّة». كانت المرأة والابن اللذان يتسمان بالطابع النباتي يصغيان خاشعين. وكنت تحسّ أن فندقهما في باريس نوع من المعبد مكرّس لـ«لو سيدانير» ومثل هذه المعابد ليس غير ذي جدوى فالإله حينما تنتابه شكوك حول ذاته يسدّ بيسر شقوق رأيه بشهادات لا تُدحض يجود بها أناس كرّسوا حياتهم لأعماله.

كانت السيدة «دو كامبرمير» تزمع النهوض بناء على إشارة من كنّتها وتقول لي: «بما أنك لا تنوي الإقامة في «فيتيرن» أفلست تريد المجيء للغداء في أحد أيام الأسبوع، في الغد مثلاً ؟» وأضافت بلهجة رفيقة

وكيما تقنعني: «سوف تعود فتلقى الكونت «دو غريزنوا»، وما كنت أضعته في يوم، والسبب أني ما كنت أعرفه. وكانت آخذة بعرض إغراءات أخرى عليّ، ولكنّها توقفت على الفور. فإن الرئيس الأول الذي علم لدى عودته أنها في الفندق بحث عنها خفية في كلّ مكان وانتظرها فيما بعد وأقبل وهو يتظاهر بأنه يلتقيها مصادفة ليقدّم لها مظاهر احترامه. وأدركت أن السيدة «دو كامبرمير» لم تكن حريصة على أن تشمله الدعوة على الغداء التي وجّهتها إليه منذ قليل، مع أنه كان أسبق مني إلى معرفتها بفترة طويلة إذ كان منذ سنوات أحد روّاد حفلات العصر في «فيتيرن». وما أكثر ما كنت أشتهيها طوال إقامتي الأولى في «بالبيك»، ولكنّ القِدَمَ لا يمثّل كلّ شيء في نظر ناس المجتمع الراقي، وهم يفضّلون أن يخصّوا بحفلات الغداء المعارف الجدد اللذين لا يزالون يستثيرون فضولهم ولا سيما إن جاؤوا تسبقهم توصية مهيبة حارّة كتوصية «سان لو». وقدّرت السيدة «دو كامبرمير» أن الرئيس الأول لم يسمع ما قالته لي ولكنّها توجّهت إليه بألطف القول لتهدئ ما تعانيه من ندم. وأبصرنا في ضياء الشمس الذي كان يُغرق في الأفق شاطئ «ريفبيل» المُذهّب، ولا يرى عادة، أبصرنا بوضوح أجراس «التبشير» الصغيرة angelus تقرع في محيط «فيتيرن» وهي تكاد لا تنفصل عن زرقة السماء المشرقة وتطلع من المياه ورديّة فضية الرنّة تكاد لا تسمع. ولفتُّ السيدةَ «دو كامبرمير - لوغراندان» قائلاً: «ذلك أيضاً من لون «بيلياس» إلى حدّ ما؛ تعرفين المشهد الذي أعنيه». - «أعتقد تماماً أني أعرف»؛ ولكنّما صوتها ووجهها اللذان لم يتخذا قالب أي ذكرى، وكذلك ابتسامتها السائبة التي لا مرتكز لها كانت كلها تعلن قائلة: «لست أعرف على الإطلاق». كانت الوريثة في ذهول أن يصل صوت الأجراس إلى هنا ونهضت وهي تفكر بالساعة، وقلت: «ولكن بالفعل لسنا نرى عادة ذلك الشاطئ من «بالبيك»، كما لا نسمعه أيضاً. لا بدّ أن يكون الطقس تبدّل وضاعف من اتساع الأفق؛ ما لم تكن أقبلتْ تبحث عنك إذ أراها تحملك على الرحيل، فهي بالنسبة إليك جرس

العشاء». كان الرئيس الأول، وهو قليل التأثر بالأجراس، يتطلع خلسة إلى السدّ الذي تغمّه رؤيته بهذا الإقفار. وقالت لي السيدة «دو كامبرمير»: «إنك شاعر حقيقي، ويحسّك المرء عميق الانفعال وفناناً إلى أبعد حدّ». وأضافت تقول وهي ترفع ذراعيها بهيئة المتهلل وتنطق كلماتها بصوت أجشّ يبدو وكأنه ينقل حصى: «تعال، سأعزف لك من موسيقى «شوبّان». » ثم جاء دور بلع اللعاب، ومسحت السيدة العجوز بمنديلها شعر شاربها الخفيف المصفوف على الطريقة الأميريكية وفعلت بصورة عفوية. وأدّى لي الرئيس الأول دونما قصد خدمة كبيرة جداً وهو يمسك بذراع المركيزة ليصحبها إلى عربتها، إذ يُملي مقدار من السوقية والجرأة والميل إلى التباهي سلوكاً ربما تردّد الآخرون في حمل مسؤوليته وما أبعد أن يسوء في دنيا المجتمعات. وكان على أي حال قد تعوّد ذلك أكثر مني منذ سنوات كثيرة. وفيما كنت أباركه لم أجرؤ على تقليده وسرت إلى جانب السيدة «دو كامبرمير - لوغراندان» التي أرادت أن ترى الكتاب الذي كان بيدي. ودفعها اسم السيدة «دو سيفينييه» إلى قلب شفتها؛ وسألتني، وهي تلجأ إلى كلمة سبق أن قرأَتْها في بعض الصحف ولكنّها كانت إذ يُنطق بها وتؤنّث وتنطبق على كاتب من القرن السابع عشر تخلّف أثراً غريباً: «أوتجدها بالحقيقة ذات مواهب»؟ وزودت المركيزةُ الخادمَ الخاص بعنوان حلواني ينبغي أن تمرّ به قبل أن تنطلق ثانية في الطريق الوردية من غبار المساء وحيث أخذت الجروف المتدرّجة تكتسي زرقة وقد تشكلت أردافاً، وسألت حوذيّها الشيخ إن كان أحد جيادها، وكان برّيداً، قد أصاب قسطاً كافياً من الدفء وإن كان حافر الآخر لا يؤلمه. وقالت لي بصوت خافت: «سأكتب إليك عما يجدر الاتفاق حوله. لقد لاح لي أنك كنت تتحدث عن الأدب مع كنّتي»، وأضافت تقول: «إنها رائعة»، مع أنها لا تظن ذلك ولكنّها تعوّدت - واحتفظت بعادتها تلك عن كرم نفس - أن تقول في غمغمة أخيرة متحمّسة: «ثم إنها فنانة، وأية فنانة!» ثم استقلّت عربتها وهي ترجّح رأسها وترفع عصا شمسيّتها

وانطلقت عبر شوارع «بالبيك» تثقلها أثواب كهنوتها، شأن مطران عجوز في جولة تثبيت[1].

قال لي الرئيس الأول بنبرة قاسية بعدما ابتعدت العربة وعدت برفقة صديقاتي: «لقد دعتك إلى الغداء. ونحن على فتور علاقة، فإنها ترى أني أهملها. أجل، إني سهل معايشتي، فإن كانوا بحاجة إليّ فإني على الدوام هنا لأجيب: «حاضر». ولكنهم أرادوا الاستئثار بي. أما هذا، يضيف قوله بهيئة متذاكية وهو يرفع إصبعه كمن يفرّق ويحاجّ، فلست أسمح به، وإنما يعني المساس بشؤون عطلتي، لقد اضطررت أن أقول: «مكانك، قف!» تبدو على ما يرام معها. وعندما تبلغ عمري ستتبيّن أن المجتمع الراقي أمر هيّن جداً وستندم على إيلائك هذا القدر من الأهمية لهذه الهنات. وهيّا، سأقوم بجولة قبل العشاء». وصاح كأنما لا يكلم أحداً وكأنه ابتعد خمسين خطوة: «الوداع يا أولاد»!

حينما استودعتُ «روزموند» و«جيزيل»، أبصرنا بدهشة «ألبيرتين» متوقفة لا تتبعهما. «ويحك، يا «ألبيرتين» ما عساك تفعلين، أوتعرفين الساعة»؟ فأجابتهما بقوة: «عودا أنتما»، وأضافت قولها وهي تشير إليّ بخضوع: «لدي حديث معه». ونظرت «روزموند» و«جيزيل» إليّ وقد داخلهما احترام جديد في النظرة إليّ. كان يغبطني أن أشعر، لبرهة على الأقلّ، أني كنت في نظر «روزموند» و«جيزيل»، شيئاً أكثر أهمية بالنسبة إلى «ألبيرتين» من ساعة العودة ومن صديقاتها وأنه يمكن أن يكون بيننا أسرار خطيرة يستحيل إشراكهما بها». - «وهل نراك هذا المساء»؟ - «لست أدري فالأمر مرهون به. إلى الغد في جميع الأحوال». وقلت لها بعدما ابتعدت صديقتاها: «هيا نصعد إلى غرفتي». وأخذنا المصعد، فصمتتْ أمام عامل المصعد. ذلك أن عادة الاضطرار للجوء إلى الملاحظة الشخصية والاستقراء لمعرفة شؤون الأسياد، هؤلاء الناس الغريبو الأطوار

(١) من الطقوس الكنسية لدى المسيحيين وهو مكمل لطقس المعمودية.

الذين يتحدّثون فيما بينهم ولا يكلّمونهم إنما تنمّي لدى «الموظفين» (كما كان عامل المصعد يدعو الخدم) قدرة على التكهّن أعظم مما يتوافر «لأرباب العمل». فإن الأعضاء تضمر أو تصبح أكثر قوة أو رهافة حسبما تتعاظم الحاجة إليها أو تتناقص. ومنذ نشأة الخطوط الحديدية علّمتنا ضرورة أن لا يفوتنا القطار أن نحسب حساب الدقائق فيما المفهوم لدى قدماء الرومان الذين لم يكن علم الفلك عندهم أكثر بدائية فحسب بل كانت الحياة عندهم أقلّ استعجالا، فإن مفهوم الدقائق بل حتى مفهوم الساعات المحددة، كاد يكون معدوماً. ولذلك كان عامل المصعد قد أدرك أننا، أنا و«ألبيرتين» قلقان ويعتزم أن يروي عن ذلك لرفاقه. ولكنّه كان يكلمنا دون انقطاع إذ هو يفتقر إلى اللياقة. بيد أني كنت أرى هيئة من الانكسار والاضطراب الغريبين ترتسم على وجهه وقد حلّت محلّ شعور الودّ والغبطة المعتاد لديه من جرّاء اصطحابي في مصعده، ولمّا كنت أجهل سببهما فقد قلت له في محاولة مني لصرف انتباهه عنهما، ومع أني كنت أكثر انشغالاً بـ«ألبيرتين» قلت له إن السيدة التي غادرت تواً تدعى المركيزة «دو كامبرمير» وليس «دوكامنبير». وأبصرت في الدور الذي كنا نمرّ أمامه حينذاك وصيفة دميمة تحمل مسنداً وقد حيّتني بإجلال وهي تأمل إكرامية عند الرحيل. وددت لو أعلم إن كانت هي التي اشتهيتها كثيراً في عشية حلولي الأول في «بالبيك» ولكني لم أفلح البتّة في بلوغ أي يقين بهذا الشأن. وأقسم لي عامل المصعد بصدق معظم شهود الزور، ولكن دون أن تفارقه هيئته اليائسة، بأن المركيزة طلبت منه تقديمها باسم «دو كامنبير». وكان من الطبيعي، كي نصدق القول، أن يكون سمع اسماً سبق أن عرفه. ثم لمّا كان يملك حول طبقة النبلاء وطبيعة الأسماء التي تُصاغ بها الألقاب المفاهيم الشديدة الغموض التي يحملها كثير من الناس ليسوا عمال مصاعد، فقد بدا له اسم «كامنبير» محتملاً يزيد من احتماله أنه، لمّا كانت هذه الجبنة معروفة في كل أنحاء العالم، ما كان ينبغي أن ندهش من أنهم استخلصوا لقب مركيز من سمعة ماجدة إلى هذا الحدّ، ما لم يكن

اللقب نفسه هو الذي أعطى الجبنة شهرتها. ولكنّه لمّا لاحظ أني لا أودّ الظهور بمظهر من أخطأ وكان يعلم أن الأسياد يحبّون أن تُطاع أهواؤهم الأكثر تفاهة وتُقبل كذباتهم الأكثر وضوحاً وعدني وعد الخادم الطيّب أن يقول: «كامبرمير» من الآن فصاعداً، صحيح أنه ما كان لدكاني في المدينة ولا لفلاح في الضواحي حيث كان اسم وشخص آل «كامبرمير» معروفين تمام المعرفة أن يقعا في يوم في مثل خطأ عامل المصعد، ولكن مستخدمي «فندق بالبيك الكبير» لم يكونوا من أبناء المنطقة؛ فهم يجيئون مباشرة بكامل معدّاتهم من «بياريتز» و«نيس» و«مونتي كارلو»، فَيُوَجَّه قسم إلى «دوفيل» وآخر إلى «دينار» والثالث يُخَصَّص لـ«بالبيك».

ولكنّ ألم عامل المصعد وقلقه لم يكفّا عن التنامي. كان لا بدّ أن تكون حلّت به مصيبة كي ينسى هكذا أن يُعرب لي عن إخلاصه بابتساماته المعتادة. فربما كانوا صرفوه. وعزمت في مثل هذه الحال أن أحاول الحصول على استبقائه إذ وعدني المدير بالمصادقة على كلّ ما أقرّر بخصوص مستخدميه «تستطيع دوماً أن تفعل ما تشاء فإني «أصدقك» سلفاً». وأدركت فجأة وأنا أغادر المصعد ضيق عامل المصعد ومظهر الذهول لديه. ذلك أني لم أكن أعطيته بسبب وجود «ألبيرتين» المئة فلس التي تعوّدت أن أنقده إياها في صعودي. وكان ذلك المعتوه قد أخذ يرتجف مفترضاً أن الأمر انقضى إلى غير رجعة وأنني أعطيه شيئاً من بعد، بدلاً من أن يدرك أنني ما كنت أريد أن أقدّم إكرامياتي للآخرين على رؤوس الأشهاد. كان يتصوّر أني زلّت بي القدم إلى «درك العوز» (كما لعلّ الدوق «دو غيرمانت» كان قال) وما كان افتراضه يوحي إليه بأيّ إشفاق عليّ بل بخيبة أمل أنانية رهيبة. وقلت في نفسي إنني كنت أقلّ بعداً عن الصواب مما ترى أمي حينما لا أجرؤ أن لا أعطي ذات يوم المبلغ المغالى فيه والمنتظر على نار الذي سبق أن أعطيته البارحة. كذلك بدا لي المدلول الذي أعطيته حتى ذاك، ودون أن يداخلني أي شك، لمظهر الغبطة المعتاد الذي ما كنت أتردّد أن أبصر فيه دلالة حبّ، بدا لي غير

مؤكد المعنى تماماً، وإذ رأيت عامل المصعد على استعداد في خضمّ يأسه أن يلقي بنفسه من الدور الخامس أخذت أتساءل، لو اتّفق لشروطنا الاجتماعية أن تتبادل فيما بينها من جرّاء ثورة على سبيل المثال، إن لم يكن عامل المصعد ألقى بي، وقد أضحى بورجوازياً، من فوق المصعد بدلاً من قيادته بشكل لطيف من أجلي، وإن لم يتوافر لبعض طبقات الشعب قدر من النفاق أكبر مما يقع في المجتمع الراقي حيث يحتفظون دونما شكّ لغيابنا بالأقوال المسيئة، ولكنّما لا يكون موقفهم منا مُهيناً لو كنا تعساء.

على أنه لا يسعنا أن نقول إن عامل المصعد كان الأكثر نفعيّة في فندق «بالبيك»، فقد كان المستخدمون ينقسمون من وجهة النظر هذه إلى فئتين، فمن جهة الذين يقيمون فروقاً بين الزبائن وهم أكثر تأثراً بالإكرامية المعقولة التي يقدّمها نبيل عجوز (قادر من جانب آخر على تجنيبهم ٢٨ يوماً إذ يوصي بهم الجنرال «دو بوتريي») منهم بالعطايا غير المترويّة يقدّمها حديث نعمة يكشف بذلك عن افتقار لحسن التصرف يدعونه في حضرته فقط طِيبة. ومن جهة أخرى، الذين لا وجود عندهم لنبل وذكاء وشهرة ومركز وسلوك وقد غطّى عليه رقم معيّن. وما كان في نظر هؤلاء سوى مراتبية واحدة هي مقدار ما لديك من مال، أو بالأحرى ما تعطي من مال. وربما كان «إيميه» نفسه، مع أنه يزعم لنفسه، بسبب عدد الفنادق الكبير الذي خدم فيها، مقداراً كبيراً من معرفة أمور المجتمع، ربما كان ينتسب إلى تلك الفئة. كان على الأكثر يضفي مظهراً اجتماعياً وشيئاً من معرفة الأُسَر على نمط التقدير ذاك فيقول عن الأميرة «دو لوكسمبور» مثلاً: «أهنالك مال كثير؟» (وعلامة الاستفهام هنا كيما يستعلم أو يتحقق نهائياً من المعلومات التي جمعها قبل أن يوفّر لأحد الزبائن رئيس طبّاخين في باريس أو يضمن له طاولة على اليسار في المدخل مع إطلالة على البحر في «بالبيك»). وهو على الرغم من ذلك، ودون أن يخلو من المصلحة، ما كان ليبرزه على الملأ باليأس الأحمق الذي أبداه عامل المصعد. ربما

كانت سذاجة هذا الأخير على أي حال تبسّط الأمور. إن التيسير الذي يوفّره فندق كبير أو بيت من نحو ما كان فيما مضى بيتُ «راحيل» يعني أن رؤية ورقة من فئة المئة، وكم بالأحرى فئة الألف فرنك، حتى إن أُعطيت هذه المرّة لآخر غيره، تُشيع، دونما وسطاء، ابتسامة وعروضاً على وجه مستخدم أو امرأة ظلّا حتى ذاك جامدين. ثمة على العكس في السياسة وفي علاقات العاشق بعشيقته أشياء ما أكثرها تقوم بين المال ولين العريكة، أشياء كثيرة حتى ليعجز في الغالب هؤلاء الذين يوقظ المال البسمة لديهم في نهاية المطاف عن تعقّب السيرورة الباطنة التي تربط بينها ويظنون أنهم أكثر رقّة، وأنهم لكذلك. ثم إن ذلك يخلّص المحادثة المهذبة من الشوائب التي من قبيل «أعرف ما يقع عليّ فعله بعد، ففي غد يجدونني في غرفة عزرائيل». لذلك تصادف في المجتمع المهذب القليل من الروائيين والشعراء وجميع الشخصيات الرفيعة التي تتكلم بالضبط عما لا ينبغي قوله.

وما إن أضحينا وحدنا وولجنا الممرّ حتى قالت لي «ألبيرتين»: «ما الذي تتهمني به؟» فهل كانت قسوتي عليها أكثر إيلاماً لي؟ وهل كانت من جانبي محض حيلة لاشعورية تبغي إيصال صديقتي في مواجهتي إلى موقف الخشية والرجاء ذاك الذي قد يمكنني أن أسالها وربما أن أعلم أي الفرضيتين اللتين كوّنتهما عنها كانت هي الصحيحة؟ ومهما يكن من أمر، فإني حينما سمعت سؤالها أحسستني فجأة كمن يبلغ هدفاً تمنّاه منذ زمن طويل. وقبل أن أجيبها صحبتها إلى بابي. وعندما فُتح الباب انبثق النور الوردي الذي كان يملأ الغرفة وبدّل قماش الموسيلين الأبيض الذي صنعت منه الستارات المرخاة على العشيّة قماش «لمباس»[1] بلون الشفق. وذهبت حتى النافذة. كانت طيور النورس قد حطّت من جديد على الماء ولكنّها وردية الآن. ولفتُّ «ألبيرتين» إلى ذلك فقالت: «لا تغيّر خطّ

---

(١) قماش حريري واسع الرسمات يكثر استعماله في أثاث البيوت.

الحديث وكن صريحاً معي». فكذبت وصرّحت لها أنه ينبغي أن تصغي إلى إقرار يسبق ذلك وهو عن شغف عظيم كان يعتمل فيّ منذ زمن إزاء «أندريه»، وقد فعلت ببساطة وصراحة جديرتين بالمسرح ولكنّما لا يوافيانك في حياتك إلا بشأن صنوف الحبّ التي لا نحسّ بها. واستعدتُ الكذبة التي سبق أن استخدمتها مع «جيلبيرت» قبل إقامتي الأولى في «بالبيك» ولكنّما بدّلت فيها، وبلغ بي، كي أحملها بيسر أكبر على تصديقي حينما كنت أقول لها الآن إنني لا أحبّها، أن أسرّب ما مفاده أني كنت فيما مضى على وشك الوقوع في غرامها، ولكنّما انقضى زمن طويل على ذلك ولم تعد بالنسبة إليّ أكثر من رفيقة ولعلّه لن يمكنني من بعد، ولو قصدت ذلك، أن أحسّ ثانية تجاهها بعواطف أكثر اتقاداً. إذ كنت أشدّد هكذا أمام «ألبيرتين» على إثبات فتوري نحوها فما كنت - بسبب ظرف خاص وفي سبيل هدف خاص -أبرزتُ بقوة أكبر الإيقاع الثنائي الذي يتخذه الحبّ لدى سائر الذين يفرطون في الشكّ في ذواتهم كي يصدّقوا أن امرأة يمكنها في يوم أن تحبّهم وأن يستطيعوا هم كذلك أن يحبّوها حقاً. وإنهم يعرفون أنفسهم معرفة كافية كي يعلموا أنهم لدى أكثرهنّ اختلافاً كانوا يحسّون بالآمال نفسها وصنوف الضيق نفسها ويبتدعون الروايات نفسها وينطقون بالأقوال نفسها من جرّاء أن اتضح لهم أن عواطفهم وأفعالهم لا تدخل في علاقة وثيقة وضرورية بالمرأة المحبوبة بل تمرّ من جانبها وترشّها وتداورها مخادعة كالموجة التي تنفَضّ من حول الصخور، ثم إن الشعور باللااستقرار لديهم إنما يزيد أيضاً من ارتيابهم بأن هذه المرأة التي ما أكثر ما يودّون أن تحبّهم لا تحبّهم. فلماذا شاءت المصادفة، بما أنها لا تعدو كونها عارضاً وضع أمام تفجّر رغباتنا، أن نكون نحن هدف الرغبات التي بها؟ لذلك وفيما نحسّ بحاجة البوح بكل هذه العواطف الموجّهة إليها وهي شديدة الاختلاف عن العواطف الإنسانية المحضة التي يوحي لنا بها القريب، تلك العواطف الخاصة جداً التي تمثّلها عواطف الحبّ بعدما نكون خطونا خطوة إلى الأمام بإقرارنا لمن نحبّ بمودّتنا لها وآمالنا، فإننا

في الحال نخشى أن نسوء في عينها ويخجلنا كذلك أن نحسّ أن الكلام الذي خاطبناها به لم يُصَغْ خصيصاً لها وأنّا استخدمناه وسوف تستخدمه مع أخريات غيرها، وأنها إن كانت لا تحبّنا فلا يمكن أن تفهمنا وأننا تكلمنا حينذاك بقلة ذوق وقلة احتشام المتحذلق الذي يوجّه إلى جاهلين جملاً دقيقة المعاني، فنرى هذه الخشية وهذا الخجل يحملان معهما الإيقاع المضاد والتراجع والحاجة إلى معاودة الهجوم والإمساك مجدداً بالتقدير والسيطرة، وإن تمّ ذلك بالتقهقر أولاً والإسراع في سحب المودّة التي سبق الإقرار بها. إن الإيقاع المزدوج واضح للعيان في مختلف الفترات العائدة للحبّ نفسه وفي سائر الفترات المقابلة العائدة لصنوف حبّ مشابهة لدى جميع الأشخاص الذين يحلّلون أنفسهم أفضل من إفراطهم في تقدير ذواتهم. ولئن بدا مع ذلك أكثر بروزاً في شدّته من المعتاد عبر الخطاب الذي كنت أوجّهه لـ«ألبيرتين» فإنما لمحض تمكيني من الانتقال بسرعة أكبر وزخم أشدّ إلى الإيقاع المضادّ الذي ستؤكده مودّتي.

كما لو انبغى أن تصادف «ألبيرتين» عنتاً في تصديق ما كنت أقوله حول استحالة أن أحبّها ثانية لسبب طول الفاصل الزمني أخذت أدعّم ما كنت أدعوه غرابة أطواري بأمثلة أخذها عن أشخاص سبق أن أضعت الساعة التي كان عليّ أن أحبّهم فيها، بسببهم أو بسببي، دون أن يمكنني، مهما رغبت في ذلك، أن أعود فألقاها. كنت أبدو بذلك وكأني أعتذر إليها عن عجزي عن معاودة حبّها وكأنما عن سوء تهذيب، فيما أحاول إفهامها الأسباب النفسية الكامنة وراء ذلك كما لو أنها خاصة بي، ولكنني إذ كنت أبرّر نفسي على هذا النحو، وأسترسل في موضوع «جيلبيرت» التي سبق بالفعل أن كان صحيحاً تماماً في ما يخصّها ما كان يضحي قليل الصحة إن طُبّق على «ألبيرتين»، فإنما كنت فقط أجعل مزاعمي ممكنة التصديق بقدر ما أتظاهر بالظن أنها قليلة الاحتمال.

وإذ أحسست أن «ألبيرتين» كانت تقدّر ما تظنه «صراحة في القول»

وترى في استنتاجاتي وضوح البداهة، اعتذرت عن الأولى قائلاً إني أعلم تمام العلم أننا نسوء دوماً في عين الناس بقولنا الحقيقة وأنه لا بدّ أن تبدو لها هذه الحقيقة عسيرة الفهم. ولكنها شكرت لي على العكس صراحتي وأضافت أنها إلى ذلك تدرك أحسن الإدراك حالة ذهنية شائعة جداً وطبيعية جداً.

إن هذا الإقرار لـ«ألبيرتين» بعاطفة وهمية نحو «أندريه» وفي ما يخصها هي بلا مبالاة أكدتُ لها عرضاً، وكأنما بداعي إفراط في التهذيب، وكيما تبدو صادقة تماماً وغير مبالغ فيها، أنه يجدر بها أن لا تأخذها كثيراً بالمعنى الحرفي، استطعت أخيراً أن أكلّم «ألبيرتين» به برقّة امتنعت عنها طويلاً وبدت لي لذيذة دون خشية لدي أن ترتاب بوجود حبّ فيها. كنت الأمس تقريباً نجيّتي، وتغرورق بالدمع عيناي وأنا أحدّثها عن صديقتها التي أحبّها. ولكنّي قلت لها في النهاية، وقد انتقلت إلى الأساسي من أمرنا، إنها تعلم ما هو الحبّ وحساسياته وآلامه وأنها ربما تهتمّ، بوصفها صديقة قديمة لي، بإيقاف صنوف الكربة الكبيرة التي تسببها لي لا على نحو مباشر بما أنها ليست هي من أُحِبّ، إن حالفتني الجرأة في ترداد ذلك دون أن أغمّها، بل على نحو غير مباشر إذ تصيبني في حبّي لـ«أندريه». وتوقفت لأنظر وألفت «ألبيرتين» إلى طائر كبير وحيد عجلان كان يمرّ أمامنا في البعيد وهو يضرب الهواء بخفق جناحيه المنتظم، يمرّ بأقصى سرعة فوق الشاطئ الذي تبقّعه هنا وهناك انعكاسات ضوء شبيهة بقطع ورقية صغيرة حمراء ممزّقة، ويجتازه بكامل طوله دون أن يبطئ انطلاقته ودون أن يصرف انتباهه ودون أن يحيد عن طريقه كمبعوث يمضي ليحمل إلى مكان بعيد جداً رسالة ضرورية هامة. فقالت لي «ألبيرتين» بمظهر اللائم: «هو على الأقلّ يمضي رأساً إلى هدفه!» - «تقولين ما تقولين لأنك لا تعلمين ما وددت أن أقوله لك. ولكنّ الأمر صعب حتى لأفضّل التخلّي عن ذلك، فإني على يقين من إغضابك ولن يفضي بي ذلك إلا إلى الأمر التالي: لن يزيدني الأمر سعادة مع من أحبّها حباً حقيقياً وأكون

فقدت رفيقة طيّبة». - «ولكنْ ما دمت أقسم لك أنني لن أغضب». كان مظهرها من رقّة وخضوع حزين كمن تنتظر مني سعادتها إلى حدّ كان يشقّ عليّ معه أن أتمالك عن تقبيل هذا الوجه - عن تقبيله بنوع المتعة التي ربما أصبتها بتقبيل والدتي - هذا الوجه الجديد الذي لم يعد يوفّر ذاك المحيّا النابض بالحياة وحمرة الخجل لهرّة ثائرة شريرة بأنفها الصغير المورّد المرفوع بل يبدو في تمام حزنها المُضْني وكأنما يمتزج سكبات عريضة مسطحة متدلّية في مساحة من الطيبة. وأخذت، وقد صرفتُ النظر عن حبّي وكأنما عن جنون مزمن لا علاقة له بها ووضعت نفسي مكانها، أخذت أرقّ نفساً أمام هذه الفتاة الطيّبة التي تعوّدت أن يسلك الناس معها مسالك لطيفة ومستقيمة والتي كان الرفيق الطيّب الذي أمكنها الاعتقاد بأني كنته بالنسبة إليها يلاحقها منذ أسابيع بأنواع من القسوة بلغت في النهاية الذروة. ولأنني بدأت أتّخذ وجهة نظر إنسانية محضة خارجة عن نطاقنا نحن الاثنين ويتلاشى فيها حبّي الغيران أخذت أحسّ إزاء «ألبيرتين» بذاك الإشفاق العميق الذي لعلّه كان أقلّ عمقاً لو لم أكن أحببتها. وفي هذا الترجّح الموزون الذي ينتقل بين البوح والاختصام (الوسيلة الأكيدة كأكثر ما تكون، الناجعة في خطورتها كأكثر ما تكون كي تشكّل بحركات متعارضة ومتعاقبة عقدة لا حلّ لها تربطنا بكائن ما ربطاً قوياً) ما جدوى أن نميّز، في صميم حركة التراجع التي تؤلّف أحد عنصري الإيقاع، ارتدادات الإشفاق الإنساني التي تقابل الحبّ والتي تُحدث في جميع الأحوال الآثار نفسها مع أنها ربما نجمت لاشعورياً عن السبب نفسه؟ وحينما نتذكر فيما بعد مجموع ما فعلناه من أجل امرأة تتبيّن في الغالب أن الأفعال التي أوحت بها الرغبة في أن نبدي أننا نحبّ وأن نُحَبّ وأن نفوز بصنوف الحظوة لا تشغل حيّزاً أكثر من تلك الناجمة عن الحاجة الإنسانية إلى إصلاح أخطائنا تجاه الشخص الذي نحبّه تلبية لمحض واجب أدبي وكأننا لا نحبّه. وسألتني «ألبيرتين» قائلة: «ولكن ما الذي أمكن أن أفعله. وقُرع الباب فكان عامل المصعد. لقد توقفت عمّة «ألبيرتين» وكانت تمرّ

أمام الفندق في عربتها، توقفت تحسّباً لأي طارئ لترى إن لم تكن هناك وتعود بها. وأرسلت «ألبيرتين» تجيب أنها لا تستطيع النزول وأن يتناولوا طعام العشاء دونها وأنها لا تعلم في أية ساعة تعود. «ولكن عمّتك سوف تغتاظ؟» - «تظن ذلك! سوف تفهم تمام الفهم».

وهكذا كان الحديث يبدو معي، بسبب الظروف، - وعلى الأقلّ في هذه اللحظة وبصيغته التي ربما لن تعود - كان يبدو في عيني «ألبيرتين» أمراً ذا أهمية بديهية إلى حدّ كان ينبغي معه تقديمه على أي شيء آخر ولا تشكّ صديقتي في أن تجد عمّتها من الطبيعي تماماً أن يُضَحَّى بساعة العشاء، وتستند في ذلك دونما شكّ بصورة غريزية إلى اجتهاد عائلي فَتُعَدِّدُ الظروف التي لم يبالوا فيها بتكاليف رحلة حينما كان مستقبل السيد «بونتان» المهني في خطر. كانت «ألبيرتين» تدفع إليّ بتلك الساعة البعيدة التي تقضيها بدوني في منزل ذويها فتهبني إياها، وكان بوسعي استخدامها كما يحلو لي. وانتهى بي الأمر بأن تجرّأت وقلت لها إنهم رووا لي عن نمط حياتها وإني على الرغم من القرف الشديد الذي كانت توحي به إلى النساء اللواتي يعانين من العيب نفسه لم أهتم للأمر إلى أن ذكروا لي اسم شريكتها في الجرم وهي تستطيع أن تدرك بيسر أيّ ألم أحسست به من جرّاء ذلك لكثرة ما أحبّ «أندريه». ولعلّ قولي بأنهم ذكروا لي نساء أخريات أيضاً، إنما من اللواتي كنت لا أبالي بهنّ، لعلّه كان بدا أكثر حذاقة. ولكن الكشف المفاجئ الرهيب الذي باح لي به «كوتار» كان نفذ إلى صدري يمزّقني حسبما أورده كاملاً ولكن دونما زيادة. ومثلما لم تكن لتراودني في السابق من تلقاء نفسي فكرة حبّ «ألبيرتين» لـ«أندريه» أو على الأقلّ أن يكون ثمة مداعبات ممكنة معها لو لم يلفتني «كوتار» إلى وضعهما وهما ترقصان الفالس، كذلك لم أفلح في الانتقال من هذه الفكرة إلى أخرى ثانية مختلفة جداً في نظري ومفادها إمكان أن تكون «ألبيرتين» على علاقة مع نساء أُخر غير «أندريه» ولا تكون المودّة حتى عذراً لها. أما ألبيرتين» فأبدت، حتى قبل أن تقسم لي أن الأمر ليس

صحيحاً، أبدت، شأن كل شخص نُقِل إليه منذ قليل أنهم تناولوه بمثل ذاك الحديث، غضباً واغتماماً، وأما بحق المفتري المجهول ففضول الحانق ليعلم من عساه كان والرغبة في مواجهته لتستطيع أن تسومه الخزي والهوان. ولكنّها أكّدت لي أنها، على الأقلّ في ما يخصني، لم تكن حاقدة عليّ. «لو كان ذلك صحيحاً لكنت أقررت به. فإننا أنا و«أندريه» نكره كلانا هذه الأمور الكره نفسه. ونحن لم نبلغ هذا القدر من عمرنا دون أن نرى نساء بشعور قصيرة لهنّ مسالك الرجال وهنّ من النوع الذي نقول وليس ما يثير اشمئزازنا بهذا القدر». كانت «ألبيرتين» تقسم بشرفها فحسب بكلام قاطع لا يستند إلى براهين. وكان ذلك بالضبط ما يمكن أن يهدئ روعي كأفضل ما يكون، إذ تنتمي الغيرة إلى تلك الأسرة من الشكوك المرضيّة التي يتغلب عليها الحزم في التوكيد أكثر من مظهر الحقيقة فيه. وإنّ من مميزات الحبّ على أي حال أنه يجعلنا أكثر تشككاً وأسرع تصديقاً ويحملنا على التشكيك بمن نحبّ بأسرع مما لعلّنا كنا نفعل بغيرها، وعلى تصديق صنوف إنكارها بيسر أكبر. لا بدّ أن نحبّ كيما يساورنا القلق بأن ليس ثمة نساء شريفات فحسب، وهو كمثل قولنا أن نتنبّه للأمر، كما لا بدّ أن نحبّ أيضاً كيما نتمنّى، يعني كيما نتأكد أنهنّ موجودات. وإنه لمما يميّز الإنسان أن يبحث عن الألم وأن يبحث في الحال عن التخلص منه؛ والمقترحات القادرة على النجاح في هذا المضمار إنما تبدو لنا صحيحة وبسهولة فلسنا نماحك كثيراً في أمر مهدّئٍ يفعل فعله. ثم إن الشخص الذي نحبّه يستطيع مهما كان متعدداً، أن يقدّم لنا في جميع الأحوال شخصيتين أساسيتين حسبما يبدو لنا على أنه خاصتنا أو أنه يوجّه رغباته وجهة غيرنا، وتملك أولى هاتين الشخصيتين القدرة الخاصة التي تحول دون أن نؤمن بحقيقة الثانية والسرّ المحدّد ليسكّن الآلام التي سبّبتها هذه الأخيرة. ويمثّل الشخص المحبوب على التوالي الداء والدواء الذي يوقف ويعمل على تفاقمه. وليس من شكّ أني كنت مهيأً منذ فترة طويلة، من جرّاء التأثير الكبير الذي لمثال «سوان» على

مخيلتي وقدرتي على الانفعال، لأعُدَّ صحيحاً ما كنت أخشاه بدلاً مما كنت تمنّيته. لذلك أوشكت العذوبة التي حملتها إليّ توكيدات «ألبيرتين» أن تكون لفترة في خطر لأنني تذكرت قصة «أوديت». ولكنّي قلت في نفسي إنه، إن كان من الصحيح أن نحسب حساب الأسوأ لا حينما حاولتُ، بغية إدراك آلام «سوان»، أن أضع نفسي مكانه فحسب، بل حين أبحث الآن، والأمر يتناولني أنا وكأنه يتعلّق بآخر غيري، فليس ينبغي مع ذلك أن يفضي بي الأمر، بداعي القسوة على ذاتي، كجندي يختار لا المركز الذي يمكن أن يكون الأكثر فائدة فيه بل ذاك الذي يكون فيه أكثر عرضة للخطر، إلى خطأ احتساب فرضية أكثر صحة من غيرها لمحض أنها أكثر إيلاماً. أفلم تكن ثمة هوّة بين «ألبيرتين» الفتاة التي من أسرة بورجوازية طيّبة المستوى إلى حدّ ما و«أوديت» تلك العاهرة التي باعتها أمها منذ الطفولة؟ وما كان يمكن مقارنة عهد الواحدة بعهد الأخرى. ولم يكن لـ«ألبيرتين» على أية حال في الكذب عليّ المصلحة نفسها التي لـ«أوديت» على «سوان». أضف أن «أوديت» كانت أقرّت لهذا الأخير بما أنكرته «ألبيرتين» منذ قليل. وكنت ارتكبت إذاً خطأً في المحاكمة العقلية بمثل فداحة ذاك الذي كان صرفني إلى فرضية ما - وإن تكن عكسية - لأن هذه كانت أورثتني عذاباً أقلّ من الأخريات إن لم آخذ في اعتباري تلك الاختلافات الفعلية في المواقف وإن أعدت رسم مراحل حياة صديقتي الحقيقية بالاستناد فقط إلى ما سبق أن عرفته عن حياة «أوديت». كان أمامي «ألبيرتين» جديدة، سبق والحق يقال إن استشففتها عدّة مرات في أواخر إقامتي الأولى في «بالبيك»، صريحة طيبة، «ألبيرتين» اغتفرت لي منذ قليل بداعي مودّتها لي شكوكي وحاولت تبديدها. وأجلستني إلى جانبها فوق سريري. وشكرتها عمّا قالته لي وأكدت لها أن مصالحتنا استُكْمِلَتْ وأنني لن أكون في يوم قاسياً عليها من بعد. وقلت لـ«ألبيرتين» إنه يجدر بها مع ذلك أن تعود للعشاء. وسألتني إن لم أكن هكذا بأحسن حال. وجذبتُ إليها رأسي لمداعبة لم يسبق أن خصّتني بها من قبل وربما كنت أدين بها لخصامنا الذي انتهى فأمرّت

لسانها مرّاً خفيفاً على شفتيَّ تحاول فتحهما. ولم أفتحهما في البداية، فقالت لي: «ما أكثر ما تبدي من خبث!».

كان يجدر بي أن أرحل في ذلك المساء دون أن أعود فألقاها في يوم. فقد كنت أستشعر مذ ذاك أن المرء يمكنه في الحبّ غير المتبادل - والأحرى أن نقول في الحبّ لأن ثمة قوماً لا وجود للحبّ المتبادل في نظرهم - أن يتذوّق من السعادة محض ذلك المظهر الخارجي الذي كان يقدّم لي منها في إحدى تلك اللحظات الفريدة التي يُطبق في أثنائها لطف المرأة أو نزوة لديها أو المصادفة على رغباتنا، في نوع من التطابق تامّ، ما تأتيه من أقوال وأفعال كما لو كنا محبوبين حقاً. ولعلّ الحكمة كانت قضت بأن أتأمّل بفضول وأمتلك بالتذاذ هذه الرقعة الصغيرة من السعادة التي كنت لولاها قضيت نحبي دون أن أرتاب بما يمكن أن تكون لقلوب أقلّ تشدّداً أو أكثر حظوة، وبأن أفترض أنها جزء من سعادة واسعة دائمة كانت تظهر لي في هذه النقطة فحسب، وأن لا أحاول، كي لا يجيئني الغد بتكذيب لذاك التظاهر، طلب معروف إضافي بعد الذي دان بحدوثه لمجرّد حيلة صنعتها دقيقة استثنائية. كان يجدر بي أن أغادر «بالبيك» وأسجن نفسي في عزلتي وأبقى داخلها في تناغم مع آخر رعشات الصوت الذي أفلحت في جعله مغرماً مقدار لحظة والذي ما كنت لأطالبه من بعد بشيء سوى الكفّ عن توجيه مزيد من الحديث إليّ، مخافة أن يجيء كلام جديد، ما كان يمكن أن يجيء مذ ذاك إلا مختلفاً، فيجرح بنشازه صمت الحواس الذي ربما أمكن لرنّة السعادة فيه أن تتردّد، كأنما بفضل دوّاسة ما، طويلاً في داخلي.

وإذ وفّر لي استيضاحي لـ«ألبيرتين» قسطاً من الطمأنينة عاودت العيش فترات أطول بالقرب من أمي. كانت تحبّ أن تحدّثني برفق عن الفترة التي كانت فيها جدّتي أحدث سناً. ولمّا كانت تخشى أن ألوم نفسي على صنوف الغمّ التي أمكن أن أكدّر بها أواخر حياتها فقد كانت ترجع بادية السرور إلى السنوات التي أشاعت فيها دراستي الأولى في نفس جدّتي

بهجة أخفوها إلى الآن دوماً عني. كنا نعاود الحديث عن «كومبريه». وقالت لي والدتي إني كنت أقرأ هناك على الأقلّ ويجدر بي أن أفعل أيضاً في «بالبيك» إن لم أكن أعمل. فأجبت إني أحبّ أن أعيد قراءة «**ألف ليلة وليلة**» كي أحيط نفسي فعلاً بذكريات «كومبريه» وبالصحون الجميلة المصوّرة. وكما كان شأنها بالأمس في «كومبريه» حينما كانت تعطيني كتباً في عيدي أمرت أمّي سراً بإحضار كتابي «**ألف ليلة وليلة**» من ترجمة «غالان» و«**ألف ليلة وليلة**» من ترجمة «ماردروس» كي تفاجئني بالأمر. ولعلّ أمي بعدما ألقت نظرة على كلا الترجمتين كانت فضّلت أن أكتفي بترجمة «غالان» فيما تخشى التأثير عليّ بسبب الاحترام الذي تكنّه للحرية الفكرية والخوف من التدخل في حياة فكري والشعور أنها لمّا كانت امرأة فإنما ينقصها من جهة، فيما تظن، الكفاءة الأدبية اللازمة، كما ينبغي لها من جهة أخرى أن لا تحكم على قراءات الشباب انطلاقاً مما يجرح إحساسها. وكان أثار ثائرتها، إذ وقعت على بعض الحكايات، الفجور في الموضوع وبذاءة التعبير. ولم يكن بوسع والدتي على وجه الخصوص، وهي تحافظ بعناية كبيرة، كأنما على ذخائر مقدّسة، لا على مشبك أمها والمظلّة والمعطف ومجلّد السيدة «دو سيفينييه» فحسب، بل على عاداتها الفكرية والكلامية أيضاً، وتبحث في كلّ مناسبة، عما لعلّها كانت أبدت من رأي، لم يكن بوسعها أن تشكّ في الإدانة التي كانت أصدرتها جدّتي ضد كتاب «ماردروس». كانت تتذكّر أن جدّتي، بينما كنتُ قبل الذهاب في نزهة على الأقدام إلى جانب «ميزيغلير» أقرأ «أوغوستان تييرّي»، كانت، وهي مسرورة بقراءاتي ونزهاتي، تثور ثائرتها مع ذلك لرؤيتها ذاك الذي ظلّ اسمه يرتبط بصدر بيت الشعر هذا: «ثمّ كان مُلْكُ «ميروفيه» المدعو «ميروفيغ»»، وترفض أن تقول «الكارولنجيّين» بدلاً من «الكارلوفنجّيين» الذين بقيت مخلصة لهم. وكنت أخيراً قد رويت لها عن رأي جدّتي بالأسماء اليونانية التي كان «بلوك» يطلقها على آلهة «هوميروس» متأثراً بـ«لو كونت دو ليل»، حتى ليبلغ به، بالنسبة لأبسط

الأمور، أن يجعل من تبنّي الإملاء اليوناني واجباً دينياً يظن الموهبة الأدبية قائمة عليه. فقد كان يكتب، إن وقع عليه مثلاً أن يقول في رسالة إن الخمر الذي يحتسى في داره كان من رحيق حقيقي (Nectar). ويكتب الكلمة (Nektar) بحرف الـ K (Nektar)، وهو ما كان يسمح له بالقهقهة لدى سماع اسم «لامارتين». فإن لم تعد «**الأوذيسة**»، في نظرها، إن غاب عنها اسما «أوليس» و«مينيرفا»، هي «**الأوذيسة**»، فما كان عساها تقول وهي ترى عنوان «**ألف ليلة وليلة**» الذي تعهده، مشوّهاً على الغلاف وإذ لا تلقى فيه من بعد اسمَي «شهرزاد» و«دنيازاد» الشائعين أبداً، وقد خُطّا بالتمام مثلما تعوّدتْ على الدوام لفظهما، وحيث «الخليفة» الظريف والجنّ الأشدّاء يكادون، وقد تغيرت أسماؤهم في المعمودية، إن حالفتنا الجرأة في استعمال اللفظة في الحكايات الإسلامية، لا يتعرّفون أنفسهم إذ هم يدعون الآن «الخليفة» بالنسبة للأول والجنيّون» بالنسبة للآخرين؟ مع ذلك سلّمتني أمي الكتابين وقلت لها إني سأقرأهما في الأيام التي أكون فيها متعباً جداً فلا أتنزّه.

وما كانت تلك الأيام كثيرة جداً على أية حال. وكنا نمضي لتناول «العصرونية» جماعة، شأننا بالأمس، أنا و«ألبيرتين» وصديقاتها فوق الجرف أو في مزرعة «ماري أنطوانيت». ولكنّما كان ثمة مرّات توليني فيها «ألبيرتين» هذه المتعة العظيمة إذ تقول لي: «بودّي اليوم أن أمكث وإياك وحيدين فخير لنا أن نلتقي كلانا». حينئذ كانت تقول إنها مشغولة وإنها غير ملزمة بتأدية حساب عن ذلك، وكي لا تستطيع الأخريات اللحاق بنا، إن هنّ ذهبن مع ذلك للنزهة وتناول «العصرونية»، كنا نمضي وحدنا كعاشقين إلى «باغاتيل» أو إلى «لاكروا دولان» فيما الجماعة التي ما كان ليخطر لها في يوم أن تبحث عنّا هناك ولا تذهب البتّة إلى ذلك المكان، كانت تلبث زمناً غير محدود في «ماري أنطوانيت» على أمل أن ترانا نصل إلى المكان. وإني أتذكّر الطقس الحارّ الذي كان سائداً حينذاك حيث كانت تسقط نقطة عرق من جبين أجراء المزرعة الشباب الذين يعملون في

الشمس، تسقط عمودية منتظمة متقطّعة كمثل نقطة ماء من خزّان متناوبة مع سقطة الثمرة الناضجة التي تهوي من الشجرة في «البساتين» المجاورة. وقد ظلّ الطقس اليوم أيضاً، إلى جانب سرّ المرأة المخبّأة هذا، الجزء الأكثر تماسكاً لأي حبّ يفد إليّ. تلك امرأة يحدّثونني عنها، وما كنت لأفكّر فيها لحظة، فأراني أعطل مواعيدي كلها في بحر الأسبوع لأتعرّف إليها إن كان أسبوعاً يسوده مثل ذلك الطقس وإن كنت سألتقيها في مزرعة منعزلة. وعبثاً أعرف أن مثل هذا الطقس وهذا الموعد لا بدّ لها فيهما، فإنهما الطُّعم، وهو معروف لديّ تماماً، الذي استسلم له ويكفي ليملك فؤادي. أعلم أن هذه المرأة كان بوسعي أن أشتهيها في طقس بارد وفي مدينة أية مدينة، ولكن دون أن يترافق ذلك بعاطفة خيالية ودون أن أصبح عاشقاً. وليس يكون الحبّ لذلك أقلّ قوة حالما يكون قيّدني بفضل ظروف معيّنة، إنه أكثر كآبة فحسب على نحو ما تضحي في الحياة العواطف التي نكنّها لأشخاص معيّنين كلما ازددنا إدراكاً للحيّز المتضائل الذي يشغلونه فيها وبأن الحبّ الجديد الذي نتمنّاه يدوم ويدوم سوف يكون، وقد قُصِّرَ مثلما قصّرت حياتنا ذاتها، هو الحبّ الأخير.

لم يكن بعدُ إلا القليل من الناس في «بالبيك» والقليل من الفتيات. وكنت أبصر أحياناً هذه أو تلك منهنّ متوقّفة على الشاطئ دونما اغتباط على الرغم مما يبدو من تطابقات كثيرة تثبت لي أنها هي نفسها التي سبق أن يئست من إمكان الاقتراب منها وهي تغادر مضمار الألعاب أو مدرسة الرياضة برفقة صاحباتها. فإن كانت هي نفسها (وقد تحاشيت أن أحدّث «ألبيرتين» عنها)، فالفتاة التي ظننتها فتّانة لم تكن موجودة ولكنّما لم يكن بمقدوري بلوغ اليقين لأن وجه تلك الفتيات لم يكن يشغل مساحة على الشاطئ ولا يقدّم شكلاً دائماً لأنه كان متقبّضاً متمدّداً متحوّلاً من جرّاء أملي ذاته أو اضطراب الرغبة لديّ أو هناء يلقي كفايته في ذاته أو الأزياء المختلفة التي يرتديها أو سرعة مسيرهنّ أو جمودهنّ. كانت اثنتان أو ثلاث منهنّ يبدون لي مع ذلك فاتنات عن كثب، وفي كل مرة كنت أشاهد

إحداهنّ تتملكني رغبة اصطحابها إلى شارع «التمارى» أو إلى كثبان الرمال والأفضل من هذا وذاك فوق الجرف. ولكن على الرغم من أنه يداخل الرغبة مذ ذاك، بالمقارنة مع اللامبالاة، تلك الجرأة التي تؤلّفها بداية التحقّق وإن من طرف واحد فقد كان مع ذلك، بين رغبتي والفعل الذي قد يشكّله ابتغائي عناقها، كان ثمة كامل «الفراغ» اللامحدّد للتردّد والخجل. حينئذ كنت أدخل دكّان الحلواني بائع الليموناضة وأشرب سبع إلى ثماني كؤوس من «البورتو» الواحدة تلو الأخرى. ويخطّ الكحول فوراً، بدلاً من المسافة الفاصلة التي يستحيل ردمها بين رغبتي والفعل، خطاً يربط بين الاثنين. فلا مكان من بعد للتردّد أو الخوف. كان يبدو لي أن الفتاة تزمع الطيران إليّ، فأذهب إليها وتخرج هذه الكلمات من شفتيّ من تلقاء ذاتها: «أودّ التنزّه برفقتك، ألا تريدين أن نمضي إلى الجرف، فليس يزعجنا هناك أحد خلف الحرجة الصغيرة التي تحمي من الريح البيت القابل للتفكيك وغير المأهول حالياً؟». لقد ذُللت جميع صعوبات الحياة ولم يبقَ ثمة عقبات أمام تعانق جسدينا. لا عقبات بالنسبة إليّ على الأقلّ. فإنها لم تكن تبخّرت بالنسبة إليها هي التي لم تحتسِ «البورتو». وحتى لو فعلت وفقد العالم بعضاً من حقيقته في عينيها فلعلّ الحلم الذي طال الشوق إليه والذي كان سيبدو حينذاك فجأة ممكن التحقيق، لعلّه ما كان على الإطلاق أن ترتمي بين ذراعيّ.

لم تكن الفتيات قليلات العدد فحسب بل هنّ في هذا الفصل الذي لم يكن «الموسم» بعد لا يمكثن إلا وقتاً يسيراً. وإني أتذكّر واحدة ذات لون بحمرة زهرة الغمد وعينين خضروايْن ووجنتين صهباوين ويشبه وجهها المزدوج الخفيف البذور المجنّحة لبعض الأشجار. لست أعلم أي نسيم جاء بها إلى «بالبيك» وأي نسيم آخر عاد فحملها معه. لقد جاء الأمر مفاجئاً إلى حدّ أن أصابني منه على مدى عدّة أيام غمّ تجرأت واعترفت به لـ«ألبيرتين» حينما أدركت أنها رحلت إلى غير رجعة.

ينبغي القول إن كثيرات كنّ إما فتيات لا أعرفهنّ البتّة أو إني ما رأيتهن

منذ سنوات. وكثيراً ما كنت قبل لقائهنّ أكتب إليهنّ، فإن حملتني إجابتهنّ على الاعتقاد بحبّ ممكن فيا لفرحتي! ولا يستطيع المرء في بداية صداقة يكنّها لامرأة، حتى إن لم تتحقق بعد ذلك، أن ينفصل عن هذه الرسائل الأولى التي يتسلّمها، إنه يبغي أن تكون طوال الوقت بالقرب منه شأن أزهار جميلة وردته، ولا تزال نديّة يافعة، فلا يكفّ عن النظر إليها إلا ليشمّها فيقرّبها منه أكثر. إن الجملة التي نعرفها عن ظهر القلب إنما يمتعنا أن نعيد قراءتها. أما الجمل التي حفظناها بصورة أقلّ حرفيّة فإننا نودّ أن نتحقق فيها عن مدى الحنان الكامن في عبارة. فهل كتبتْ «إن كتابك العزيز»؟ هناك خيبة أمل طفيفة في العذوبة التي نتنسّمها لا بدّ من أن نعزوها إما إلى قراءة مفرطة السرعة، وإما إلى كتابة مراسلتنا التي تستعصي على القراءة؛ فهي لم تكتب: «وكتابك العزيز»، بل «حينما رأيت هذه الرسالة». ولكنّ الباقي رقيق رقيق. آه! فلتأت مثل هذه الزهرات في الغد! ثم لا يكفي ذلك وينبغي مقابلة الكلمات المكتوبة بالنظرات، بالصوت. ونضرب موعداً فإذا بنا - دون أن تكون ربّما تغيّرت - نجد، حيث كنا نظنّ، بناء على الوصف المُقدَّم أو الذكرى الشخصية، أننا ملاقون الجنيّة «فيفيان»، «الهرّ صاحب الجزمة». ونضرب لها موعداً في الغد مع ذلك لأنها لا تزال على الرغم من كل شيء «هي»، وهي ما كنّا نشتهي. على أن هذه الأشواق إلى امرأة حلمنا بها لا تجعل جمال هذا الملمح المعيّن أو ذاك ضرورياً. فهذه الأشواق هي الشوق إلى هذا الكائن فحسب، وهي غامضة غموض العطور، مثلما كان الأُصْطرك هو الشوق الذي بـ«بروتيراايّاً»، والزعفران الشوق الأثيري، والطيوب شوق «هيرا»، والمرّ عطر الغيوم، والمنّ شوق «نيكيه»، والبخور عطر البحر. ولكنّ تلك العطور التي تتغنّى بها أناشيد «أورفيوس» تقلّ كثيراً عن عدد الآلهة التي تهواها؛ فالمرّ عطر الغيوم، ولكنّه إلى ذلك عطر «بروغُنوس» و«نبتون» و«نيريه» و«ليتو»؛ والبخور عطر البحر، ولكنّه إلى ذلك عطر «ذيكي» الجميلة و«ثيميس» و«سيرسيه» وربّات الشعر التسع و«إيوس» و«منيموسيني» والنهار و«ذيكايوسينيه». أمّا بشأن الأُصْطرك والمنّ والطيوب

فلعلّنا لا ننتهي من ذكر الآلهة التي توحي بها لكثرة عددها. فـ«أمْفِيتيسْ» يملك العطور جميعها فيما عدا البخور، و«غابْيَا» لا تستبعد منها سوى الفول والطيوب. كذلك كان شأن تلك الأشواق التي بي إلى الفتيات. فإنها لمّا كانت أقلّ عدداً منهنّ كانت تستحيل خيبات وكآبات قريبة الشبه الواحدة بالأخرى. وإني لم أقبل بالمرّ في يوم وقد خصصت به «جوبيان» والأميرة «دو غيرمانت»، إنه شوق «بروتوغونوس» «حامل الجنسين الذي له خوار الثور ذو القُصوف الكثيرة الجدير بالذكر الذي يمتنع على الوصف وينحدر جذلان إلى أضاحي «الأورغيوفانت». ».

ولكن سرعان ما عجّ الموسم بروّاده، ففي كلّ يوم وصول جديد، وكان في أساس كثرة نزهاتي التي تنامت فجأة فحلّت محلّ قراءة «**ألف ليلة وليلة**» الممتعة سبب خلو من المتعة كان ينغّصها كلها. لقد عمرت الفتيات الشاطئ الآن ولمّا جعلتني الفكرة التي أوحى لي بها «كوتار»، ولم توفّر لي شكوكاً جديدة، لمّا جعلتني أكثر حساسية وهشاشة من هذا الجانب ومحاذراً أن لا أدع لمثلها أن تتشكّل في داخلي فقد كنت أحسّني غير مرتاح ما إن تصل امرأة شابة إلى «بالبيك» فأقترح على «ألبيرتين» أكثر النزهات بعداً كي لا تستطيع التعرّف بها، بل كي لا تستطيع أن ترى الوافدة الجديدة إن أمكن. وكنت بالطبع أكثر خشية بعد من اللواتي يُلاحَظ سوء سلوكهنّ وتشيع سمعتهنّ الرديئة، فكنت أحاول إقناع صديقتي أن تلك السمعة السيئة لا أساس لها البتّة وأنها افتراء، وربما أفعل دون أن أقرّ لنفسي بذلك لخشية لا تزال لاواعية بأن تحاول مصادقة الفاسدة أو تأسف أنها لا تستطيع محاولة ذلك بسببي أو تعتقد بسبب عديد الأمثلة أن عيباً منتشراً إلى هذا الحدّ ليس مستنكراً. وما كنت أنزع، وأنا أنفيه عن كلّ مذنب، إلى أقلّ من الزعم بأن السحاق لا وجود له. كانت «ألبيرتين» تتبنّى موقفي المتشكّك بشأن فجور هذه أو تلك: «لا، أعتقد أنه محض مظهر خاصّ تحاول الظهور به، إنها تريد الظهور بمظهر خاص». ولكنّي كنت آسف تقريباً حينذاك لأني انتصرت للبراءة إذ كان يسوؤني أن يسع

«ألبيرتين»، هي المتشدّدة جداً فيما مضى الظن أن ذاك «النوع» أمر يبعث على الزهو وهو مشرّف إلى الحدّ الذي حاولت فيه امرأة بعيدة عن هذه الميول أن تظهر بمظهرها. وددت ألا تجيء امرأة من بعد إلى «بالبيك». كنت أرتعد وأنا أفكّر، إذ كانت الفترة تقريباً هي تلك التي ستصل فيها السيدة «بوتبوس» إلى منزل آل «فيردوران»، بأن وصيفتها التي لم يخفِ «سان لو» عني ميولها يمكن أن تجيء في رحلاتها حتى الشاطئ وأن تحاول، إن وقع ذلك في يوم لا أكون فيه بالقرب من «ألبيرتين»، جرّها إلى مواطن الفساد. وبلغ بي أن أتساءل، إذ لم يكن «كوتار» أخفى عني أن آل «فيردوران» حريصون جداً على صحبتي ولعلّهم فيما يأنفون الظهور وكأنهم يتعلقون بأذيالي، على حدّ قوله لعلّهم كانوا يضحّون بالكثير في مقابل ارتيادي منازلهم، إن لم يكن بوسعي، في مقابل وعود باصطحاب آل «غيرمانت» جميعهم دونما استثناء إلى باريس، أن أحصل من السيدة «فيردوران» على تحذير توجّهه بحجة أو بأخرى إلى السيدة «بوتبوس» بأنه يستحيل عليها الاحتفاظ بها في منزلها وأن تأمر بترحيلها بأقصى سرعة.

وعلى الرغم من تلك الأفكار وبما أن وجود «أندريه» هو الذي كان يقلقني على وجه الخصوص، فإن الطمأنينة التي وفّرتها لي أقوال «ألبيرتين» كانت لا تزال مستمرّة إلى حدّ ما. كنت أعلم على أية حال أنني سوف أكون عما قريب أقلّ حاجة إليها، فـ«أندريه» سوف ترحل مع «روزموند» و«جيزيل» في الفترة التي يصل فيها الجميع تقريباً، ولم يبق لها سوى بضعة أسابيع تمكث فيها إلى جانب «ألبيرتين». وقد بدا في أثنائها على أي حال أن «ألبيرتين» تدبّر كل ما تفعله وكل ما تقوله من أجل القضاء على شكوكي إن بقيت شكوك أو للحؤول دون عودتها. كانت تتدبّر أمرها كي لا تلبث البتّة وحيدة مع «أندريه» وتلحّ عليّ حينما نعود كي أرافقها حتى بابها وأعود لاصطحابها منه حينما ينبغي أن تخرج. وكانت «أندريه» في تلك الأثناء تتحمّل من جانبها المشقّة نفسها وتبدو كأنها تتجنّب لقاء «ألبيرتين». ولم يكن ذاك التفاهم الظاهر بينهما المؤشّر الوحيد على أن «ألبيرتين» لا بدّ

أطلعت صديقتها على حديثنا وطلبت منها أن تتلطّف وتهدّئ شكوكي اللامعقولة.

في حوالي تلك الفترة وقعتْ في فندق «بالبيك» الكبير فضيحة لم يكن من شأنها تغيير مَواطن عذابي. فقد كانت شقيقة «بلوك» تقيم منذ وقت يسير علاقات خفيّة مع ممثلة سابقة، ولم تعد تكفيهما تلك العلاقات بعد قليل. فقد بدا لهما أن مشاهدتهما إنما تضيف فسقاً إلى متعتهما وتريدان لذلك إمتاع عيون الجميع بصنوف لهوهما الشريرة. كانت البداية مداعبات يمكن بالإجمال أن نعزوها إلى ألفة الأصدقاء في صالة اللعب وحول طاولة «البكارا» ثم تجاسرتا. وذات مساء، وفي زاوية من قاعة الرقص الفسيحة حتى غير مظلمة لم تتورّعا فوق إحدى الكنبات أكثر مما لو كانتا في سريرهما. واشتكى ضابطان إلى المدير وكانا غير بعيدين من هناك برفقة زوجتيهما. وظن الناس بعض الوقت أن احتجاجهما سوف يثمر إلى حدّ ما. ولكنّما كان في غير صالحهما أنهما، لما جاءا من «نيتلهوم» حيث سكناهما إلى «بالبيك» لقضاء أمسية واحدة، لم يكن بوسعهما أن يفيدا المدير في شيء، فيما يمتدّ فوق الآنسة «بلوك» حتى دون علم منها وأياً تكن الملاحظة التي يوجّهها المدير إليها جناح السيد «نسيم برنار». ولا بدّ أن نقول سبب ذلك. كان السيد «نسيم برنار» يتعاطى أعلى درجات الفضائل العائلية. فقد كان كل عام يستأجر «فيلا» رائعة في «بالبيك» لصالح ابن أخيه وما من دعوة كانت قادرة على صرفه عن العودة للعشاء في منزله الذي كان بالحقيقة منزلهم. ولكنه ما كان قط يتناول غداءه في منزله، فقد كان ظهر كل يوم في الفندق الكبير. ذلك لأنه كان ينفق، مثلما يفعل غيره على راقصة أوبرا، على «مستخدم» قريب الشبه بأولئك الموزّعين الذين تكلمنا عنهم والذين كانوا يذكّروننا بالفتيان الإسرائيليين[1]

(١) الكلمة مأخوذة بالمعنى الديني كما وردت في المسرحيتين المذكورتين في متن النص.

في مسرحيتَي «استير» و«آتالي». والحقيقة أن السنوات الأربعين التي كانت تفصل بين السيدة «نسيم برنار» والمستخدم الشاب كان وجب أن تحمي هذا الأخير من اتصال غير محبب. ولكن حسبما يقول «راسين» بعميق حكمته في نشيد الجوقات نفسها:

«يا إلهي بأي خطى غير ثابتة تمضي
الفضيلة الوليدة بين عظيم المخاطر!
وكم تجد النفس التي تبحث عنك وتبغي أن تكون بريئة
من عقباتٍ لِما عقدت العزم عليه!».

فعبثاً نشأ المستخدم الشاب «بعيداً عن العالم» في هيكل (فندق) «بالبيك»، فهو لم يتبع مشورة «جواد»:

«لا تجعل من الثراء والذهب سنداً لك».

وربما سلّم بذلك وهو يقول في نفسه: «إن الخطأة يغطون وجه الأرض». ومهما كان من أمره ومع أن السيد «نسيم برنار» لم يكن يأمل مهلة قصيرة إلى هذا الحدّ فإنه منذ اليوم الأول

«إما فزَعاً أو مداعبة له
أحسّ به يطوّقه بذراعيه البريئتين».

ومنذ اليوم الثاني، وفيما يأخذ «نسيم برنار» المستخدم في نزهة «كان مَقْدَمه المُعدي يشوّه براءته». ومنه ذلك الحين تبدّلت حياة الصبي الصغير وعبثاً تراه يحمل الخبز والملح مثلما يأمره بذلك رئيس زمرته، فقد كان محيّاه كله ينشد:

«من زهور إلى زهور ومن متع إلى متع
هيّا ننقّل رغباتنا
فإن عدد سنينا الزائلة غير ثابت.

فلنسارع اليوم إلى الاستمتاع بالحياة!
وإنما التكريم والوظائف
ثمن الطاعة العمياء الوادعة،
فمن ذا يبادر ويرفع صوته
ليساند البراءة الحزينة»[١].

منذ ذلك اليوم لم يَفُت السيد «نسيم برنار» البتّة أن يجيء ليشغل مكانه على الغداء (كما كان فعل في قاعة المسرح ذاك الذي يتولى الإنفاق على ممثلة صامتة، ممثلة من نمط شديد التميّز ولا يزال ينتظر الرسّام «دوغا» يتبناه). وكانت تلك متعة السيد «نسيم برنار» أن يلاحق بنظره في قاعة الطعام وحتى الآفاق البعيدة حيث تتربع أمينة الصندوق في ظلال نخلتها حركات الفتى اليافع الحريص المبادر إلى الخدمة، خدمة الجميع، وأقلّها لـ«نسيم برنار» منذ شرع ينفق عليه، إما لأن ابن الجوقة الصغير لم يكن يرى ضرورة في إبداء مقدار اللطف نفسه لمن يظن أنه محبوب عنده بالقدر الكافي، وإما لأن ذاك الحبّ يثير حنقه وإما لإنه يخشى أن يفوّت عليه، إن اكتشف، فرصاً أخرى. لكن ذاك الفتور بعينه كان يروق السيد «نسيم برنار» في كل ما يخفي خلفه. فقد كان يصادف متعة غريبة، إن كان من جرّاء ما يجري في عروقه من إرث عبراني أو تدنيساً للشعور المسيحي، في هذا الاحتفال «الراسيني»، سواء أكان يهودياً أو كاثوليكياً. ولو كان ذاك تمثيلاً حقيقياً لـ«**أستير**» أو «**آتالي**» لأسف السيد «نسيم برنار» أن لا يكون اختلاف القرون مكّنه من معرفة المؤلف، «جان راسين»، كي يحصل للمحسوب عليه دوراً أرفع شأناً. ولمّا كان حفل الغداء لا يصدر عن أي كاتب فقد كان يكتفي بعلاقات طيبة مع المدير ومع «إيميه» كيما يُرَقّى «الإسرائيلي

(١) كل الاستشهادات مأخوذة من مسرحية «آتالي» وهي آخر مسرحيات «جان راسين» المسرحي الفرنسي الشهير في القرن السابع عشر، وكان واقعاً آنذاك تحت تأثير جماعة «الجانسينيّين» المتشدّدة.

الشاب» للوظيفة المبتغاة، فإما نصف رئيس أو حتى رئيس مجموعة. وكانوا عرضوا عليه وظيفة مدير مؤن. ولكن السيد «برنار» ألزمه برفضها إذ لن يسعه من بعد المجيء في كل يوم ليراه يجري في قاعة الطعام الخضراء وأن يقوم هو على خدمته كأحد الغرباء. لقد كانت تلك المتعة قوية إلى حدّ أن السيد «برنار» كان يعود كلّ عام إلى «بالبيك» ويتناول فيها طعام غدائه خارج منزله، وهما عادتان كان السيد «بلوك» يبصر في الأولى منهما ميلاً شاعرياً إلى الضياء الجميل وساعات غروب الشمس في هذا الشاطئ الذي يَفْضُل أي شاطئ آخر، وفي الثانية هوس عازب عجوز مستعصياً.

والحقيقة أن خطأ وَالِدَي السيد «نسيم برنار»، وما كانا يرتابان بالسبب الحقيقي لعودته السنوية إلى «بالبيك» وبما كانت السيدة المتحذلقة «بلوك» تدعوه «خياناته المطبخية»، ذاك الخطأ إنما كان حقيقة أكثر عمقاً ومن الدرجة الثانية. ذلك أن السيد «نسيم برنار» نفسه كان يجهل ما يمكن أن يداخل من حبّ لشاطئ «بالبيك» والمنظر الذي يطلّ من المطعم على البحر، أو من عادات مهووسة الميل الذي به في الإنفاق، وكأنما على راقصة أوبرا من نوع آخر لا يزال ينقصها «دوغا» يتولى أمرها، على واحد من خدمه الذين كانوا بدورهم فتيات. لذلك كان السيد «نسيم برنار» يقيم مع مدير هذا المسرح الذي هو فندق «بالبيك»، ومع المخرج ومدير المسرح «إيميه» - وما كان دورهما في كلّ تلك المسألة من أصفاها - علاقات ممتازة. وذات يوم تقوم ترتيبات ومناورات للحصول على دور كبير ربما كان مركز رئيس خدم. وبانتظار ذلك كانت متعة السيد «نسيم برنار»، مهما تكن شاعرية تأمّلية هادئة تتّسم إلى حدّ ما بطابع أولئك الرجال الباحثين عن النساء الذين يعلمون على الدوام - وهي حال «سوان» بالأمس مثلاً - أنهم في ارتيادهم دنيا المجتمع الراقي سوف يلتقون عشيقتهم. فما إن يكون السيد «نسيم برنار» جلس حتى يرى محطّ أمنياته يتقدّم على خشبة المسرح حاملاً في يده فواكه أو مجموعة سيكار على طبق. فكان يتأكّله لذلك كل صباح، بعدما يقبّل ابنة أخيه ويبدي اهتمامه

بمشاغل صديقي «بلوك» وبعدما يلقّم جياده قطعاً من السكّر موضوعة على راحته الممدودة، استعجال محموم في الوصول إلى طعام الغداء في الفندق الكبير. ولعلّه لو شبّ حريق في بيته أو حلّت أزمة قلبية بابنة أخيه، لعلّه كان لا ريب مضى مع ذلك. وهو لذلك يخشى، خشيته من الطاعون، رشحاً يُلزمه الفراش - إذ هو مصاب بوسواس المرض - ويضطره أن يطالب «إيميه» بإرسال صديقه الشاب إلى منزله قبل ساعة «العصرونية».

لقد كان يحبّ من جانب آخر كامل متاهة الممرّات والحجرات السريّة والصالات والمشالح وغرف المؤونة والأورقة التي يمثلها فندق «بالبيك». وكان يحبّ الحريم من جرّاء منابته الشرقيّة، فتراه حين يخرج في المساء يستكشف خلسة الزوايا منها والخفايا.

وفيما كان السيد «نسيم برنار»، فيما كان يجازف بالذهاب حتى الأقبية ويحاول مع ذلك أن لا يراه أحد وأن يتجنب الفضيحة، ويذكّر في بحثه عن الفتيان اللاويّين بهذه الأبيات من مسرحية «**اليهودية**»(١):

يا إله آبائنا
حُلَّ فيما بيننا
واخْفِ أسرارنا
عن أعين الأشرار!

كنت أصعد على العكس إلى غرفة شقيقتين رافقتا إلى «بالبيك»، بصفتهن وصيفتين، سيدةً أجنبية مسنّة. كانتا ما يدعى في لغة الفنادق ساعيتين وفي لغة «فرانسواز» التي تظن أن الساعي أو الساعيّة إنما يُفيدان في القيام بالمشتريات، «شاريتين». أما الفنادق فقد توقفت في ما يخصّها بصورة أكثر شهامة في الفترة التي كانوا ينشدون فيها: «إنه ساع لأحد المكاتب».

---

(١) اوبرا للكاتب «فرومنتال هاليفي» (١٨٣٥).

وعلى الرغم من صعوبة وصول أحد الزبائن إلى غرف الوصيفات، والعكس بالعكس، فسرعان ما ربطتني صداقة قوية جداً وإن تكن عفيفة جداً بهاتين الشابتين: الآنسة «ماري جينيست» والسيدة «سيليست ألباريه». كانتا تبدوان، وقد ولدتا على اسفل جبال وسط فرنسا العالية على ضفاف سواقٍ وسيول (كان الماء يجري حتى تحت منزل الأسرة حيث تدور طاحونة، وخرّبه الفيضان عدّة مرات)، وكأنهما احتفظتا بطابعها. فكانت «ماري جينيست» بصورة أكثر انتظاماً سريعة متقطّعة الحركة، و«سيليست ألباريه» أكثر رخاوة ووهناً تنبسط مثل بحيرة ولكن بردّات فوران مخيفة يذكّر غضبها فيها بخطر الفيضانات والأعاصير المائية التي تقذف بكل شيء وتخرّب كل شيء. كانتا تجيئان في الغالب صباحاً للقائي وأنا بعد في سريري. وإني ما عرفت يوماً أناساً بمثل جهلهما المتعمّد وما كانتا تعلّمتا شيئاً في المدرسة وكانت لغتهما مع ذلك ذات مسحة أدبية إلى حدّ تظن معه، لولا الطابع الوحشي تقريباً الذي يطبع لهجتهما، أن أقوالهما متكلّفة. وكانت «سيليست» تقول لي، بألفة لا أغيّر فيها على الرغم من صنوف المديح (وليست هنا للإشادة بي بل للإشادة بعبقرية «سيليست» الغريبة) والانتقادات، وهي مختلفة بدورها ولكنها صادقة تماماً، ويبدو أن تلك الأقوال تتضمّنها بالنسبة إليّ فيما كنت أغمس معجّنات في فنجان الحليب: «آه! أيها الشيطان الأسود الصغير ذو الشعر الفاحم، يا للخبث العميق! لست أعلم بما كانت تفكّر أمك حين صنعتك، ففيك من العصفور كل شيء. هيا انظري يا «ماري»، أليس يخيّل إليك أنه يصقل ريشه ويدير عنقه، وبمرونة؟ ويبدو شديد الخفة؛ لكأنما يتعلّم الطيران. آه! إنك لمحظوظ أنْ والداك من صنعاك في مرتبة الأغنياء؛ فما عساك كنت أضحيت وأنت بمثل تبذيرك؟ ها إنه يرمي بقرص معجّناته لأنه لامس سريره. عجباً، ها هو يُريق الحليب، فانتظر لأضع لك فوطة لأنك لن تفلح في هذا الأمر، وإني ما رأيت يوماً أحداً بمثل غبائك وقلّة مهارتك». حينذاك كنت تسمع الضجة الأكثر انتظاماً لسيل «ماري جينيست» التي

تمضي حانقة تكيل التوبيخ لشقيقتها: «هيا يا «سيليست»، هلّا صمتِّ؟ وهل جُننتِ لتكلّمي السيد مثلما تفعلين؟» ولا تردّ «سيليست» بغير الابتسامة، ولمّا كنت أكره أن يربطوا لي فوطة حول عنقي: «ولكن لا، انظري إليه يا «ماري»، «بِنْغْ»! هو ذا ينتفض منتصباً كما الحيّة، حيّة حقيقية أقول لك». كانت تسرف على أيّ حال في التشبيهات الحيواناتية، فما كانوا يعرفون حسب رأيها متى كنت أنام، وكنت أحاول طوال الليل تحويم فراشة وفي النهار كنت سريعاً سرعة تلك السناجب، «تعرفين يا ماري»، من مثل ما نرى عندنا، رشيقة حتى لا تستطيعين ملاحقتها بالعين». - «ولكنّك تدرين يا «سيليست» أنه لا يحبّ وضع فوطة حينما يأكل» - «ليس الأمر أنه لا يحبّ ذلك، بل ليقول بوضوح إنه لا يمكن أن يغيّروا مشيئته. إنه سيّد ومراده أن يظهر أنه سيّد، سنغيّر الملاءات عشر مرات إن لزم الأمر لكنه لن يكون تراجع. ملاءات البارحة أنجزت مشوارها، ولكنّها اليوم مُدَّت منذ قليل فحسب وينبغي منذ الآن تغييرها. آه! كنتُ على حق إذ قلت إنه لم يُخلق ليولد بين الفقراء. انظري، إن شعره ينتصب وينتفخ جرّاء الغضب مثل ريش الطيور. أيها المُرَيَّشُ المسكين!» وهنا لم تعد «ماري» وحدها هي التي تحتجّ بل كنت أنا، لأنني ما كنت أُحسّني البتّة سيداً. ولكنّ «سيليست» ما كانت تصدّق البتّة صراحتي وقاطعتني بقولها: «آه! يا جعبة الأحابيل! يا للعذوبة! ويا للغدر! أيها المحتال بين المحتالين، الجِفْس بين الأجفاس! آه يا «موليير»!» (كان الاسم الوحيد الذي تعرفه لكاتب ولكنّها تعزوه لي وتقصد بذلك من كان قادراً على تأليف المسرحيات وتمثيلها في آن معاً). وتصيح «ماري» بلهجة آمرة: «سيليست!» وهي تخشى لجهلها اسم «موليير» أن تكون شتيمة جديدة. وتعود «سيليست» إلى الابتسام: «أفلم تري في دُرجه صورته حينما كان طفلاً؟ لقد شاء أن يجعلنا نصدّق أنهم كانوا يلبسونه دوماً الثياب الأكثر بساطة. وههنا بعكّازه الصغير يبدو كلّه فراء ودانتيلا مثلما لم يحزه أمير من قبل. وليس ذلك شيئاً إزاء مهابته العظيمة وطيبته التي تفوقها عمقاً.

ويزمجر السيل الذي اسمه «ماري» قائلاً: «ويحك، ها إنك تنقّبين الآن في دروجه». وسألتُ «ماري» كي أهدئ من مخاوفها عما تظن أن السيد «نسيم برنار» يفعله. «آه! يا سيدي إنها أمور ما كان يسعني الظن بأنها موجودة: كان لا بدّ من المجيء هنا» وتغلّبت هذه المرة على «سيليست» بقول أكثر عمقاً: «آه! تدري يا سيدي، لا يمكن أن نعرف البتّة ما يمكن أن تتضمّنه حياة أحدهم». وكلّمتها بغية تغيير الموضوع عن حياة والدي الذي كان يعمل ليل نهار. «آه! يا سيد، تلك حيوات لا يحتفظ المرء بشيء منها لنفسه، ليحتفظ بدقيقة واحدة ولا بمتعة واحدة؛ كل شيء، كل شيء تماماً تضحية في سبيل الآخرين؛ إنها حيوات «موهوبة»... انظري يا سيليست، إن لم يكن إلا في وضع يده على غطاء السرير وأخذ فطيرته، أية أناقة تلك! يمكنه أن يأتي الأمور الأكثر تفاهة، وتخالين كامل نبلاء فرنسا حتى جبال «البيرينيه» ينتقلون في كلّ من حركاته».

كنت أصمت وقد حطّمتني تلك الصورة القليلة القرب من الحقيقة إلى هذا الحدّ، فتبصر «سيليست» في الأمر حيلة جديدة: «آه! يا جبيناً يبدو شديد النقاء ويخفي أموراً ما أكثرها، يا وجنتين صديقتين يانعتين كقلب لوزة، أيتها اليدان اللتان من ساتين يغطّيه الوبر، والأظافر التي تشبه المخالب، إلخ. ويحك يا «ماري»، انظري إليه يشرب حليبه بخشوع أتوق معه إلى القيام إلى صلاتي. وأي مظهر جدّيّ! ينبغي أن يوضع رسمه في هذا الوقت. كل ما فيه من الأطفال. أهو شرب الحليب مثلهم ما حفظ لك لون وجههم الفاتح؟ آه! يا للشباب! يا للبشرة الحلوة! لن تشيخ في يوم. أنت محظوظ فلن تضطرّ البتّة أن ترفع يدك على أحد لأنك تملك عينين تعرفان كيف تفرضان مشيئتهما. ثم ها إنه يتملكه الغضب الآن. إنه ينتصب واقفاً كالحقيقة الجليّة».

لم تكن «فرانسواز» تحبّ مطلقاً أن تجيء اللتان كانت تدعوهما الساحرتين للتحدث على هذا النحو معي. أما المدير الذي كان يرصد بمستخدميه كلّ ما يجري فقد لفت نظري بلهجة رزينة إلى أنه لا يليق بأحد

الزبائن أن يتحدّث إلى الساعيات. وأما أنا الذي كان يرى «الساحرتين» تفوقان زبائن الفندق جميعاً فقد اكتفيت بالانفجار ضاحكاً في وجهه ليقيني بأنه لن يفهم إيضاحاتي. وتعود الشقيقتان: «انظري يا «ماري» قسماته الرقيقة جداً. يا للمنمنمة الكاملة الأكثر جمالاً من أثمن ما قد يشاهد خلف واجهة، فإن له حركات وأقوالاً من مثل ما يغري سماعه أياماً وليالي».

من أعاجيب الزمان أن استطاعت سيدة أجنبية اصطحابهما، فإنهما دون معرفة للتاريخ والجغرافية كانتا تمقتان من باب الثقة الإنكليز والألمان والروس والإيطاليين «وحثالة» الأجانب ولا تحبّان مع بعض الاستثناءات سوى الفرنسيين. فقد كان وجههما احتفظ برطوبة غضار سواقيهما المطواع إلى حدّ أن «سيليست» و«ماري»، ما إن يجري الحديث عن أجنبي يقيم في الفندق حتى تلصقا، بغية ترداد ما سبق أن قال، على وجهيهما وجهه ويصبح فمهما فمه وأعينهما عينيه، وحبّذا لو جرى الاحتفاظ بأقنعة المسرح الرائعة هذه. بل كانت «سيليست»، وهي تتظاهر بأنها لا تردّد إلا ما قاله المدير أو فلان من أصدقائي، كانت تدسّ في روايتها الصغيرة أقوالاً متكلّفة ترسم فيها بخبث عيوب «بلوك» جميعها أو عيوب الرئيس الأول دون أن تبدي من ذلك شيئاً. وكان ذلك رسماً لا يُجارى على هيئة عرض لمهمة بسيطة تكلّفتها متلطّفة. ما كانتا تقرآن قطّ شيئاً، حتى ولا صحيفة. لكنّهما ذات يوم وجدتا كتاباً على سريري، وكانت قصائد رائعة ولكنها غامضة لـ«سان ليجيه ليجيه». وقرأت «سيليست» بضع صفحات وقالت لي: «ولكن هل أنت متيقّن أنها أبيات شعرية، أفليست بالأحرى أحجيات؟» كان ثمة بالبداهة، بالنسبة إلى امرئ تعلّم في طفولته قصيدة واحدة: «أزهار الليلك تموت جميعها على هذه الأرض الدنيا»، مرحلة وسيطة ناقصة. وفي اعتقادي أن عنادهما في رفض تعلّم أي شيء إنما يرتبط قليلاً ببلدهما غير الصحي. وكانتا مع ذلك على مثل مواهب الشاعر. إلى جانب اتّضاع ليس للشعراء بعامة.

فإن سبق أن قالت «سيليست» شيئاً لافتاً ولم أذكره تماماً فسألتها أن تذكّرني به كانت تؤكد أنها نسيت. إنهما لن تقرآ كتباً في يوم ولكنّهما لن تؤلّفا كتباً بالمقابل.

لقد أثّر في «فرانسواز» إلى حدّ أنْ علمت أن شقيقي هاتين المرأتين البسيطتين جداً تزوّجا، الأول ابنة شقيق رئيس أساقفة «تور»، والثاني قريبةً لمطران «روديز» ولعلّ الأمر ما كان عنى شيئاً للمدير. كانت «سيليست» تنعي على زوجها أحياناً أنه لا يفهمها، أما أنا فكنت أعجب أن يطيق احتمالها. ذلك لأنها كانت في ارتعاشها وحنقها وتخريبها كلّ شيء مقيتة في بعض الأحايين. يزعمون أن السائل المالح الذي هو دمنا إن هو إلا الأثر الداخلي الباقي للعنصر البحري البدائي. وفي اعتقادي كذلك أن «سيليست» كانت تحتفظ، لا في صنوف غيظها فحسب بل في ساعات انحطاط قواه، بإيقاع سواقي بلادها. فحين تكون منهكة فعلى شاكلتها، وتراها تجفّ حقاً. وما من شيء حينذاك يمكن أن يردّ إليها نشاطها. ثم يعود الجريان فجأة في جسمها الطويل الرائع الخفيف، وينساب الماء في الشفافية اللبنيّة لبشرتها المائلة إلى الزرقة. كانت تبتسم في ضياء الشمس فتضحي أكثر زرقة بعد. لقد كانت في تلك الأوقات سماويّة[١] بحق.

عبثاً لم تكن أسرة «بلوك» ارتابت في يوم بالسبب الذي من أجله لم يكن عمّها يتناول غداءه في المنزل، وقبلت بالأمر منذ البداية على أنه هوس عازب عجوز، فإن كلّ ما كان يتعلق بالسيد «نسيم برنار»، ربما لضرورات صلة مع إحدى الممثلات، كان محرّماً بالنسبة إلى مدير فندق «بالبيك». لذلك ودون أن يكون حتى رجع إلى العمّ لم يجرؤ في نهاية المطاف أن يخطئ ابنة الأخ فيما يوصيها في الوقت نفسه بشيء من الحيطة. وإذ ذاك سعدت الفتاة وصديقتها، وكان خيّل إليهما على مدى بضعة أيام أنهما مستبعدتان عن الكازينو والفندق الكبير، سعدتا إذ تريان

---

(١) تلاعب لفظي لأن اسم السيدة Céleste يعني بالفرنسية «سماويّة».

كلّ شيء يتدبّر شأنه، أن تُظهرا لآباء الأسر الذين كانوا يستبعدونهما أنهما تستطيعان دونما عقاب أن تأتيا ما تشاءان. ليس من شكّ أنه لم يبلغ بهما أن تكرّرا المشهد العلني الذي أثار اشمئزاز الجميع. لكنّ تصرّفاتهما عادت شيئاً فشيئاً وعلى نحو تكاد لا تحسّه. وذات مساء كنت خارجاً فيه من الكازينو وأنا نصف مطفأ برفقة «ألبيرتين» و«بلوك» الذي التقيناه من قبل، فمرّتا بنا وهما في عناق لا تكفّان عن القُبل وإذ أصبحتا بموازاتنا أطلقتا ضحكات مكتومة وقهقهات وصيحات غير محتشمة. وأطرق «بلوك» كي لا يبدو أنه يتعرّف شقيقته وكنت أنا في عذاب وأنا أفكّر أن هذا الكلام الخاص والمروِّع ربما كان موجّهاً إلى «ألبيرتين».

وإن حادثاً آخر زاد من تركيز اهتمامي على جانب «عامورة». فقد كنت رأيت على الشاطئ امرأة شابة جميلة مديدة القامة شاحبة اللون كانت عيناها تسطّران حول مركزهما خطوطاً مضيئة هُنْدِسَتْ حتى لتفكر إزاء نظرتها بإحدى المجموعات النجمية. وفكّرت كم كانت هذه الفتاة أوفر جمالاً من «ألبيرتين» وكم يبدو التخلي عن الثانية أكثر حكمة. أكثر ما هنالك أن وجه هذه المرأة الشابة الجميلة قد مرّ عليه مسحاج خفيّ، مسحاج دناءة كبيرة في الحياة والقبول المستمر لوسائل وأمور دنيئة إلى حدّ ينبغي معه أن لا تشعّ عيناها، مع أنهما أوفر نبلاً من باقي الوجه، إلا شهوات ورغبات. ولكنّي لاحظت في الغد، وكانت تلك الشابة أُجلسَتْ بعيداً جداً عنا في الكازينو، أنها لا تنفكّ تحطّ بأنوار ألحاظها المتناوبة الدوّارة على «ألبيرتين». لكأنما كانت تعطيها إشارات وكأنما بمصباح. كان يعذّبني أن ترى صديقتي أنها تسترعي الانتباه إلى هذا الحدّ وكنت أخشى أن تحمل هذه النظرات المتّقدة باستمرار الدلالة المألوفة لموعد حبّ يضرب للغد. ومن ذا يدري؟ ربما لم يكن هذا الموعد هو الأول، إذ يمكن أن تكون المرأة الشابة ذات العينين المشرقتين جاءت إلى «بالبيك» في سنة أخرى. وإنما كانت تجيز لنفسها توجيه تلك الإشارات اللمّاعة لأنه ربما سبق أن استجابت «ألبيرتين» لرغباتها أو لرغبات إحدى

الصديقات. كانت تلك الإشارات تقوم حينئذ بأكثر من المطالبة بأمر يتصل بالحاضر، كانت تتوسّل لذلك بساعات الماضي الحلوة.

والموعد في هذه الحال كان ينبغي أن لا يكون الأول بل التتمة لحفلات أقيمت معاً في سنوات أخرى. ذلك أن النظرات ما كانت تقول «هل تودّ؟» فما إن تسنّى للمرأة الشابة أن تبصر «ألبيرتين» حتى أدارت رأسها تماماً وأرسلت باتجاهها بريق نظرات محمّلة بالذكرى كما لو خشيت واعتراها ذهول أن لا تتذكّر صديقتي. أما «ألبيرتين» التي كانت تبصرها تماماً فقد لبثت رابطة الجأش لا حراك بها إلى حدّ أن كفّت الأخرى، بذات التكتّم الذي يبديه رجل يشاهد عشيقته السابقة مع عشيق آخر، عن النظر إليها والاهتمام بها أكثر مما لو لم تكن موجودة.

ولكنّما توافر لي بعد بضعة أيام البرهان على ميول تلك المرأة الشابة وكذلك على أرجحية أن تكون عرفت «ألبيرتين» فيما مضى. فغالباً ما كان يقع، حينما يتّفق لفتاتين في قاعة الكازينو أن تشتهي إحداهما الأخرى، ما يشبه الظاهرة الضوئية ونوعاً من السحابة الفوسفورية تنتقل من الواحدة إلى الأخرى. ولنقل في معرض حديثنا إن «عامورة» إنما تسعى بمثل هذه التجسيدات، وأن تمتنع على القياس، وبمثل هذه العلامات النجمية التي تلهب جزءاً من الجوّ بكامله، تسعى «عامورة» المشتّتة، في كلّ مدينة وكلّ قرية، إلى التقاء أعضائها المنفصلين، وإلى إعادة تشكيل مدينة العهد القديم، فيما تتوالى الجهود نفسها، وإن يكن في سبيل إعمار متقطّع، على يد من يهزّهم الحنين والمنافقين وأحياناً الشجعان المنفيّين من «سادوم».

وذات مرة أبصرت المجهولة التي تظاهرت «ألبيرتين» بأنها لا تعرفها بالضبط في وقت كانت تمرّ فيه ابنة عمّ «بلوك». وتلألأت عينا المرأة الشابة، ولكنّما بدا تماماً أنها ما كانت تعرف الآنسة اليهودية. إنها تبصرها للمرة الأولى وتحسّ رغبة، وليس من شكّ تقريباً أنْ لم يكن ثمة البتّة ذات اليقين الذي أبدته تجاه «ألبيرتين»، «ألبيرتين» التي لا بدّ أنها اعتمدت عليها إلى حدّ أنها أحسّت إزاء فتورها بدهشةِ غريبٍ من روّاد باريس ولكنّه لا

يقطن فيها ويرى بعدما عاد لقضاء بضعة أسابيع فيها أنهم ابتنوا مصرفاً في مكان المسرح الصغير الذي تعوّد أن يمضي فيه أمسيات جميلة.

ومضت ابنة عمّ «بلوك» فجلست إلى طاولة قلّبت عليها مجلّة مصوّرة. وسرعان ما أقبلت المرأة الشابة لتجلس إلى جانبها بهيئة ساهية. ولكن سرعان ما كان يمكن أن ترى تحت الطاولة اصطخاب أقدامهما، فالسوق والأيدي التي تمازجت. وأعقبت ذلك الكلمات وانعقد الحديث ودهش زوج الشابة الساذج الذي كان يبحث عنها في كل مكان أن لقيها تعقد مشروعات للأمسية نفسها مع فتاة لم يكن يعرفها. وقدّمت له زوجته ابنة عم «بلوك» على أنها صديقة طفولة باسم غير مفهوم إذ كان فاتها أن تسألها عن اسمها. إلا أن وجود الزوج أكسب ألفتهما خطوة إضافية فقد رفعتا الكلفة بينهما إذ كانتا تعارفتا في الدير، وهو الحادث الذي ضحكتا منه فيما بعد، ومن الزوج المخدوع أيضاً، بمرح كان مناسبة لصنوف من الرقّة جديدة.

أمّا «ألبيرتين» فلست أستطيع أن أقول إنها سلكت في أي مكان، في الكازينو على الشاطئ، سلوكاً مفرط الحرية مع إحدى الفتيات. بل كنت أرى لديهما فرطاً من الفتور والتفاهة كان يبدو حيلة من شأنها تبديد الشكوك أكثر منه ثمرة تربية صالحة. فقد كانت لها طريقة سريعة باردة محتشمة في إجابتها إحدى الفتيات بصوت عال: «أجل، سأذهب في حوالي الخامسة إلى كرة المضرب، وسأستحم في صباح الغد حوالي الساعة الثامنة»، ومفارقة الفتاة التي وجّهت الحديث إليها في الحال، حديثاً يبدو بعنف أنه يبغي التضليل وضرب موعد أو بالأحرى، بعدما تكون حدّدته بصوت خفيض، أن تقول بصوت قوي تلك الجملة التافهة بالفعل «كي لا تلفت الانتباه إليها». وما كنت أستطيع حينما أراها تمتطي درّاجتها وتنسلّ بأقصى سرعة، ما كنت أستطيع أن أصرف نفسي عن التفكير بأنها ماضية لالتقاء تلك التي لم تكد تكلّمها.

وأكثر ما في الأمر أن «ألبيرتين» ما كان يسعها الإحجام عن الالتفات

حينما تنزل امرأة شابة جميلة من السيارة في زاوية الشاطئ. وتوضح في الحال قائلة: «كنت أنظر إلى الراية الجديدة التي رفعوها أمام المسابح. كان بوسعهم أن يتكلفوا أكثر في ذلك. لقد كانت الأخرى بائسة، لكنّي أعتقد حقاً أن هذه أكثر قبحاً أيضاً». مكتبة سُر مَن قرأ

وذات مرة لم تكتفِ «ألبيرتين» بالفتور فزاد الأمر من تعاستي. كانت تعلم أنه يزعجني أن تستطيع أحياناً لقاء صديقة لعمّتها كانت سيئة المسلك وتجيء أحياناً لقضاء يومين أو ثلاثة في منزل السيدة «بونتان». وكانت «ألبيرتين» قالت لي بلطف إنها لن تحيّيها من بعد. وتقول «ألبيرتين» حينما تجيء تلك المرأة إلى «أنكرفيل»: «تعلم بالمناسبة أنها هنا. هل قيل لك ذلك؟» كأنما لتبرهن لي أنها لا تراها خفية. وقد أضافت في يوم كانت تنقل إليّ فيه الأمر: «أجل، لقد التقيتها على الشاطئ متقصّدة، من منطلق الفظاظة، لقد لامستها تقريباً وأنا أمرّ بها، لقد دفعتها». حينما قالت لي «ألبيرتين» ذلك عادت بي الذاكرة إلى جملة للسيدة «بونتان» لم أكن افتكرتها ثانية البتّة، تلك التي قالت فيها للسيدة «سوان» في حضرتي كم كانت ابنة أخيها «ألبيرتين» وقحة وكأنما تلك ميزة، وكيف أنها قالت لمن لست أذكر من نساء الموظفين إن والدها سبق أن كان مساعد طباخ. ولكنّ قولاً قالته من نحبّ لا يُحتفظ به طويلاً في نقائه؛ إنه يفسد ويتعفّن. وعدت بعد مساء أو اثنين ففكرت في جملة «ألبيرتين» ولم يعد ما بدا أنها تعنيه هو سوء التهذيب الذي كانت تفاخر به - وما كان بوسعه إلا رسم ابتسامة على شفتيّ - بل كان أمراً مغايراً، وأن «ألبيرتين»، حتى دون هدف واضح ربما، وكيما تثير حواس تلك السيدة أو تذكّرها بخبث بعروض سابقة ربما جرى القبول بها قديماً، لامستْها لمساً سريعاً وظنتْ أني ربما عرفتُ بالأمر إذ وقع في العلن فشاءت أن تستبق تفسيراً في غير صالحها.

ومهما يكن من أمر فإن غيرتي التي تبعثها النساء اللواتي ربما أحبّتهنّ «ألبيرتين» كانت ستتوقف على نحو مفاجئ.

*

كنت و«ألبيرتين» أمام محطة القطار المحلّي الصغير في «بالبيك». وكنا طلبنا من سيارة الفندق الكبيرة نقلنا بسبب رداءة الطقس. كان السيد «نسيم برنار» غير بعيد عنا مورّم العين. فقد كان منذ وقت يسير يخون ابن جوقات «**آتالي**» مع عامل فني في مزرعة مجاورة كثيرة الزبائن تدعى «**أشجار الكرز**». كان هذا الصبي الأحمر ذو القسمات الحادة يبدو كأنما يحمل رأس «قرص بندورة». ويشكّل «قرص بندورة» يشبهه تمام الشبه رأساً لأخيه التوأم. ثمة بالنسبة إلى المتأمّل المتجرّد عنصر على قدر كاف من الجمال في تلك التشابهات التامة بين توأمين قوامه أن تبدو الطبيعة وكأنها انقلبت صناعية مؤقتة فتزوّدنا بمنتجات متماثلة. ولكنّ وجهة نظر السيد «نسيم برنار» كانت لسوء الحظ مغايرة والتشابه ذاك محض خارجيّ. فقرص البندورة رقم ٢ كان يجد متعة جنونية في توفير ملذّات السيدات حصراً، أمّا القرص رقم ١ فلم يكن يأنف من مماشاة ميول بعض السادة. وفي كلّ مرة كان السيد «برنار» يحضر فيها إلى «**أشجار الكرز**» يهزّه شأن فعل ارتكاسيّ تذكّر الساعات الحلوة التي قضاها مع قرص البندورة رقم ١، كان اليهودي العجوز، وهو قصير النظر (وقصر النظر لم يكن ضرورياً بأي حال للخلط بينهما) يخاطب الشقيق التوأم، وهو يمثّل دون علم منه «أمفيتريون»[1]، ويقول له: «هل تكرّمت بموعد لي لهذا المساء؟» وكانت ترده في الحال سلسلة من الكلمات القوية. بل اتفق أن تجددت أثناء وجبة الطعام نفسها حيث كان يواصل مع الآخر ما بدأ من حديث مع الأول. وقد أصابه طول المدة وبتداعي الأفكار قرف شديد من البندورة، حتى ما كان منها يؤكَل، إلى حدّ أنه كان في كلّ مرة يسمع فيها مسافر يطلب شيئاً منها بالقرب منه في الفندق الكبيرة يهمس في أذنه قائلاً: «عذراً يا سيد عن أني أخاطبك دون أن أعرفك، ولكنّي سمعتك تطلب شيئاً من البندورة. إنها متعفّنة اليوم؛ وإني أقول ما أقول لمصلحتك، فالأمر واحد عندي بما

(١) مسرحية هزلية لـ«موليير» يجري الخلط فيها بين شخصين متشابهين.

أني لا أتناولها البتّة». فيشكر الغريب بفيض من الكلام هذا الجار المحبّ للناس المتجرّد ويستدعي النادل ثانية ويتظاهر بالعدول عن رأيه قائلاً: «لا، لا بندورة بالتأكيد». أما «إيميه» العارف بالمشهد فقد كان يضحك وحده ويفكّر قائلاً: «السيد «برنار» هذا، يا للعجوز الماكر، لقد تمكّن مرة أخرى من تغيير الطلبية». لم يكن السيد «برنار» يحرص على تحيّتنا أنا و«ألبيرتين» وهو ينتظر الحافلة المتأخرة، بسبب عينه المورّمة. وكنا أقلّ منه حرصاً على التحدث إليه. ولعلّه ما كان يمكن تجنّب ذلك لو لم تنقضّ علينا بأقصى سرعة في تلك اللحظة درّاجة. وقفز عامل المصعد عنها فاقد الأنفاس. كانت السيدة «فيردوران» قد اتصلت هاتفياً بعد ذهابنا بمدّة وجيزة كي أحضر للغداء ما بعد الغد، وسنرى بعد قليل لأي سبب. ثم فارقنا عامل المصعد بعدما زوّدني بمضمون الهاتف مفصّلاً وأضاف، على غرار هؤلاء «المستخدَمين» الديمقراطيين الذين يتكلّفون الاستقلالية إزاء البورجوازيين ويعودون فيقيمون بينهم مبدأ السلطات، أضاف وهو يقصد أن البوّاب وسائق العربة يمكن أن يستاءا إن هو تأخّر: «سأفرّ عائداً بسبب رؤسائي».

كانت صديقات «ألبيرتين» قد رحلن فترة من الزمن. وكنت أودّ إلهاءها. كنت أعلم، بافتراض أن تكون شعرت بالسعادة في قضاء فترات العصر معي وحدي في «بالبيك»، أن السعادة لا تسمح البتّة بأن تُمْتَلَكَ امتلاكاً كاملاً وأن «ألبيرتين»، ولا تزال في السن «التي لا يتجاوزها البعض» والتي لم يكتشف المرء فيها أن هذا العيب مرتبط بمن يحسّ السعادة لا بمن يعطيها، كان يمكن أن تنساق إلى ردّ سبب خيبتها إليّ. وكنت أفضّل أن تعزوه للظروف التي نسجتها أنا فلا تيسّر لنا المكوث سويةً فيما تحول دون بقائها في الكازينو أو فوق السدّ بمعزل عنّي. لذلك سألتها في ذلك اليوم أن ترافقني إلى «دونسيير» حيث سأمضي للقاء «سان لو». وفي سياق هدف إشغالها نفسه كنت أشير عليها بالرسم الزيتي الذي سبق أن تعلّمَتْه فيما مضى، فإنها لن تتساءل حين تعمل إن كانت سعيدة أو

تعيسة. ولعلّي كنت اصطحبتها بكل طيبة خاطر للعشاء بين حين وآخر في منزل آل «فيردوران» وآل «كامبرمير»، وكان هؤلاء وأولئك استقبلوا بالتأكيد بكلّ سرور صديقة قدّمتها أنا، لكنّما كان ينبغي أن أتيقّن أولاً من أن السيدة «بوتبوس» لم تكن بعد في دارة «لا راسبلبير». وما كان بوسعي تبيّن الأمر إلا في موقعه ولمّا كنت أعلم مسبقاً أن «ألبيرتين» مضطرة للذهاب بعد الغد برفقة عمّتها إلى الضواحي المحيطة فقد استغللت الأمر لأبعث بعجالة إلى السيدة «فيردوران» أسألها إن كان بوسعها استقبالي يوم الأربعاء. فإن كانت السيدة «بوتبوس» هناك تدّبرت أمري للقاء وصيفتها والتأكد إن كان يُحتمل أن تجيء إلى «بالبيك» وأن أعلم والحالة هذه متى يكون ذلك كي أذهب بـ«ألبيرتين» بعيداً في ذلك اليوم. كان القطار المحلّي الصغير يقوم بانعطافة لم تكن موجودة حينما استقللته برفقة جدّتي فيمرّ الآن بـ«دونسيير لاغوبي»، وهي محطة كبيرة تنطلق منها قطارات هامة، ولا سيما القطار السريع الذي جئت فيه من باريس لزيارة «سان لو» وعدت به. وحملتنا سيارة الفندق الكبير أنا و«ألبيرتين» بسبب رداءة الطقس إلى محطة الحافلة الصغيرة «بالبيك الشاطئ».

لم يكن القطار الصغير قد وصل بعد إلا أنك كنت ترى سحابة الدخان التي خلّفها في طريقة خاملة بطيئة والتي اقتصرت الآن على محض وسائلها الخاصة كسحابة قليلة الحركات فأخذت تتسلّق ببطء السفوح الخضراء للجرف «كريكتو». وأخيراً وصل القطار الصغير الذي كان ذاك قد سبقه ليتّخذ اتجاهاً عمودياً، وصل بطيئاً بدوره. وتباعد المسافرون الذين يزمعون استقلاله كي يفسحوا له في المكان ولكن دونما استعجال إذ يعلمون أنهم يعاملون سيّاراً ليّن العريكة يكاد يكون من البشر ولا يُحتمل، إذ تقوده إشارات مدير المحطة المتساهلة، وكأنما درّاجة مبتدئ، لا يُحتمل في وصاية الميكانيكي النافذة أن يسقط أحداً ولكان توقّف حيثما يرغبون.

كانت عجالتي تفسّر هاتف آل «فيردوران» وكان يزيد من حسن توقيتها

أن الأربعاء (واتّفق أن بعد الغد كان يوم أربعاء) كان يوم حفلة عشاء كبرى بالنسبة إلى السيدة «فيردوران» في «لا راسبليير» وباريس على حدّ سواء، وهو ما كنت أجهله. وما كانت السيدة «فيردوران» تقيم حفلات عشاء، ولكنّما كان لها «أيام أربعاء» وكانت أيام الأربعاء أعمالاً فنية. وفيما تعلم السيدة «فيردوران» أنْ ليس لها من شبيه في أي مكان فقد كانت تدخل فروقاً فيما بينها وتقول: «هذا الأربعاء الأخير ما كان يساوي السابق. ولكنّي أعتقد أن المقبل سيكون أحد أنجح ما نظّمته في يوم». وكان يبلغ بها أحياناً أن تعترف قائلة: «هذا الأربعاء لم يكن خليقاً بالأخريات ولكنّي في المقابل أحتفظ لكم بمفاجأة كبيرة للتالي». وفي الأسابيع الأخيرة من الموسم الباريسي وقبل الانطلاق إلى الريف كانت ربّة البيت تعلن ختام أيام الأربعاء، وهي مناسبة لشحذ عزائم الخلص، فتقول: «لم يبقَ إلا ثلاثة أيام أربعاء، لم يبقَ إلا يومان»، باللهجة التي تعني أن العالم على وشك أن ينتهي، «لن تفوّت الأربعاء القادم وهو الختام». ولكن الختام ذاك كان مصطنعاً، فقد كانت تنبّه قائلة: «الآن لم يعد ثمة أيام أربعاء. لقد كان الأخير بالنسبة إلى هذا العام. لكنّي مع ذلك سأكون هنا نهار الأربعاء، وسوف نحتفل بالأربعاء فيما بيننا؛ ومن يدري؟ ربما كانت أيام الأربعاء هذه الهيّنة الحميمة من أكثرها إمتاعاً». كانت أيام الأربعاء في «لا راسبليير» محدودة حكماً، وبما أنهم كانوا يدعون في هذه العشية أو تلك أي صديق التقوه يمرّ مروراً عارضاً فقد كانت كل الأيام تقريباً أربعاء. وكان عامل المصعد قال لي: «لست أذكر تماماً اسم المدعوّين ولكنّي أعرف أن السيدة المركيزة «دو كامنبير» هناك»؛ ولم يكن تذكّر إيضاحاتنا المتعلقة بآل «كامبرمير» أفلح في الحلول نهائياً محلّ الكلمة القديمة التي كانت مقاطعها المألوفة المليئة بالمعاني تهبّ لمساعدة المستخدم الشاب حينما يربكه هذا الاسم الصعب فيفضّلها في الحال ويتبناها لا تكاسلاً وكأنما تلك عادة قديمة لا يقوى على اقتلاعها، بل من جرّاء الحاجة إلى المنطق والوضوح اللذين ترضيهما.

وسارعنا للوصول إلى عربة خالية أستطيع فيها معانقة «ألبيرتين» طوال الرحلة. ولمّا لم نجد شيئاً من هذا القبيل صعدنا إلى مقصورة كانت تجلس فيها سيدة ضخمة الوجه قبيحة مسنّة ذكرية القسمات أسرفت في لباسها وتقرأ «**مجلة العالَمَيْن**». كانت على الرغم من سوقيّتها متصنّعة في حركاتها وتلهّيت في مساءلة نفسي عن الفئة الاجتماعية التي يمكن أن تنضوي تحت لوائها. وخلصت في الحال إلى أنها لا بدّ مديرة بيت كبير للمومسات، قوّادة في رحلة لها. كان وجهها وكل تصرفاتها تبرز ذلك بوضوح. ولكنني كنت فقط جاهلاً حتى ذاك أن تلك السيدات يقرأن «**مجلة العالَمَيْن**». ودلّتني عليها «ألبيرتين» ولم يفتها أن تغمز بعينها وهي تبتسم لي. كانت السيدة تبدو شديدة الوقار؛ ولمّا كنت من جانبي أعي تمام الوعي أني كنت مدعوّاً في الغد في آخر محطة للقطار الصغير إلى منزل السيدة «فيردوران» الشهيرة وأن «روبير دو سان لو» ينتظرني في محطة وسيطة وأنني إلى أبعد بقليل كنتُ أشعتُ أعظم السرور في نفس السيدة «دو كامبرمير» لو أقبلت للسكنى في «فيتيرن» فقد كانت عيناي تلتمعان استهزاء وأنا أتأمّل تلك السيدة الخطيرة التي تبدو أنها تظن نفسها شخصية أرفع شأناً مني بسبب لباسها المتكلّف والريش الذي يعلو قبّعتها و«**مجلة العالَمَيْن**» التي تحملها. وكنت آمل أنْ لن تمكث السيدة أكثر مما فعل السيد «نسيم برنار» وأنها ستغادر على الأقلّ في «توتانفيل»، وخاب الأمل. وتوقف القطار في «ايبرفيل»، فلبثت جالسة؛ وكذلك الأمر في «مونمارتان سورمير» و«بارفيل لا بنغار» و«أنكرفيل» حتى أني شرعت من يأس، وبعدما غادر القطار «سان فريشو»، وكانت آخر محطة قبل «دونسيير»، بمعانقة «ألبيرتين» دون أن أهتمّ بالسيدة. وفي «دونسيير» كان «سان لو» قد جاء ينتظرني في المحطة متجشماً أعظم الصعوبات، يقول، فإنه إذ يسكن عند عمّته لم تصله برقيتي إلا للتو ولن يستطيع أن يخصّني إلا بساعة واحدة لأنه لم يسعه تدبير وقته سلفاً. وبدت لي تلك الساعة للأسف مفرطة في طولها لأن «ألبيرتين» لم تعد تهتم حالما نزلنا من العربة إلا بـ«سان لو». فلم تكن

تتحدّث إليّ وتكاد لا تجيبني إن خاطبتها وقد أبعدتني حين اقتربت منها. وكانت في المقابل تضحك بصحبة «روبير» ضحكتها المغرية وتحدّثه بطلاقة كبيرة وتلاعب الكلب الذي معه وتحتكّ فيما تستثير الحيوان احتكاكاً طفيفاً متعمّداً بسيّده وتذكّرت أني في اليوم الذي سمحت فيه «ألبيرتين» بأن أقبّلها للمرة الأولى ابتسمت ابتسامة امتنان للغاوي المجهول الذي أدخل في نفسها تحوّلاً عميقاً إلى هذا الحدّ وسهّل لي المهمة بدرجة كبيرة. أمّا الآن فكنت أفكّر فيه باشمئزاز. ولا بدّ أن «روبير» تبيّن أن «ألبيرتين» لم تكن غير ذات شأن بالنسبة إليّ فهو لم يستجب لصنوف غنجها، الأمر الذي أوغر صدرها عليّ. ثم إنه كلّمني كما لو كنت وحدي، وقد رفع ذلك من قدري عندها حينما انتبهتْ للأمر. وسألني «روبير» إن كنت لا أودّ محاولة العثور، بين الأصدقاء الذين كان يدعوني للعشاء وإياهم كل مساء في «دونسيير» حين أقمت فيها من قبل، على من لا يزال منهم هناك. ولمّا كان ينزع هو نفسه إلى نوع التباهي المزعج الذي يستهجنه قال: «ما نفع أن تكون أبديت ما أبديت لهم من إغراء بذاك القدر من المثابرة إن كنت لا تريد لقاءهم ثانية؟» ورفضت اقتراحه إذ لم أكن أودّ المجازفة بالابتعاد عن «ألبيرتين» ولأني كنت كذلك قد انفصلت عنهم الآن. عنهم، يعني عن ذاتي. فإننا نرغب أعنف الرغبة أن تكون ثمة حياة أخرى نماثل فيها ما نحن عليه في الحياة الدنيا. ولكننا لا نفكّر أننا حتى دون انتظار تلك الحياة الأخرى، وفي هذه نفسها، لا نظلّ مخلصين لما كنّا عليه وما كنا نودّ أن نلبثه خالدين فيه. وحتى دون افتراض أن الموت يبدّلنا أكثر من تلك التغيرات التي تحدث في بحر الحياة، فإننا لو صادفنا في تلك الحياة الأخرى الأنا التي كنّاها لأعرضنا عن ذواتنا إعراضنا عن أولئك الأشخاص الذين ارتبطنا بصداقتهم ولكننا لم نلتقِ بهم منذ فترة طويلة - كأصدقاء «سان لو» مثلاً الذين كان يمنعني أكثر ما يمنعني أن ألحق بهم كل مساء في مطعم «التدرج الذهبي» والذين لن يكون حديثهم بالنسبة إليّ الآن سوى إزعاج ومضايقة. ولعلّ نزهة بهذا الخصوص في

«دونسيير»، ولأني فضّلت أن لا أذهب إليها لألتقي ما سبق أن أمتعني فيها، لعلّها كانت استطاعت أن تبدو لي وكأنها تمثّل مقدّماً الوصول إلى الجنة. والمرء يحلم كثيراً بالجنة أو بالأحرى بجنّات كثيرة متعاقبة ولكنّها جميعاً، وقبلما نموت، جنّات مفقودة، وربما أحسّ المرء أنه ضائع فيها.

وفارقنا في المحطة وهو يقول: «ولكن ربما وجب أن تنتظر قرابة الساعة. فإن قضيتها هنا فسترى دون شكّ عمّي «شارلوس» الذي يعود ليستقلّ القطار عما قليل إلى باريس عشر دقائق قبل قطارك. لقد سبق لي أن ودّعته لأني مضطر أن أكون عدت قبل إقلاع قطاره. ولم يكن بوسعي أن أحدّثه عنك لأن برقيتك لم تكن بعد وصلتني». وأجابتني «ألبيرتين» عن اللوم الذي وجّهته إليها بعدما فارَقَنا «سان لو» أنها ابتغت من فتورها معي أن تمحو، تحسباً لكل طارئ، الفكرة التي أمكن أن تراوده لو أنه رآني لحظة توقّف القطار أنحني فوقها وأمرّر ذراعي حول خصرها. وكان لاحظ بالفعل ذاك الوضع (وما كنت لمحته وإلا لاتخذت جلسة أكثر لياقة إلى جانب «ألبيرتين») واتسع له الوقت كي يهمس في أذني: «أهؤلاء هنّ الفتيات اللواتي حدّثتني عنهنّ واللواتي ما كنّ يبغين عشرة الآنسة «دو ستيرماريا» لأنهنّ يرين أنها سيئة المسلك؟» وكنت بالفعل قلت لـ«روبير» وبمنتهى الصراحة حينما ذهبت من باريس لالتقائه في «دونسيير» وإذ كنا نعيد الحديث عن «بالبيك» إنه لا مجال للإقدام على أي شيء مع «ألبيرتين» إذ كانت الفضيلة مجسّدة. أما الآن وقد علمت بنفسي منذ فترة طويلة أن الأمر غير صحيح فقد كنت بعد أكثر رغبة في أن يظن «روبير» أن ذلك صحيح. ولعلّه كان كفاني أن أقول لـ«روبير» إني أحبّ «ألبيرتين». فقد كان من هؤلاء الناس الذين يعرفون كيف يحجمون عن متعة ليجنّبوا صديقهم آلاماً ربما أحسّوا بها وكأنها آلامهم. وأضفت أقول بادي القلق: «أجل، إنها طفولية إلى أبعد حدّ. ولكن ألا تعرف شيئاً عنها؟» - «لا شيء سوى أني رأيتكما تتخذان وضعية حبيبين».

وقلت لـ«ألبيرتين» بعد أن فارقنا «سان لو»: «لم يكن موقفك يمحو

شيئاً البتّة». فقالت «صحيح، لقد كنت خرقاء وأشعت الغمّ في نفسك وإني لحزينة جداً من أجلك. وسترى أني لن أكون البتّة كذلك من بعد. سامحني»، تقول وهي تمدّ لي يدها بهيئة كئيبة. وأبصرت في تلك اللحظة من أقصى قاعة الانتظار التي كنا نجلس فيها، السيد «دو شارلوس» يمرّ بطيئاً يتبعه على مسافة قصيرة مستخدم كان يحمل حقائبه.

ما كنت في باريس حيث لا ألتقيه إلا إبان السهرة جامداً لا حراك به متحزّماً بلباس أسود، يحفظ له اتجاهُه العمودي انتصابَ قامته المستكبرة واندفاعه ليروق للناس وانطلاقة حديثه، وما كنت أتبيّن إلى أي حدّ تقدّمت به السنّ. أما الآن، وإذ يرتدي بدلة سفر بلون فاتح يبدو بها أوفر سمنة، وإذ يسير ويتمايل مرجّحاً كرشاً يتكوّر وعجزاً يكاد يكون رمزياً، فقد كانت قسوة ضياء النهار تحلّل كلّ ما كان بدا على أنوار المصابيح حيوية في لون الوجه لدى شخص لا يزال فتياً، تحلّله خضاباً على الشفتين وبودرة ثبّتتها الكريما على طرف الأنف وسواداً على الشاربين المصبوغين اللذين يتعارض سوادهما الفاحم والشعر المتشيّب.

كنت فيما أتحدّث إليه، إنما باقتضاب بسبب القطار الذي سيستقلّه، أنظر إلى عربة «ألبيرتين» كي أومئ إليها بأني آت. وحين ملتُ برأسي صوب السيد «دو شارلوس» سألني أن أتكرّم وأدعو مجنداً قريباً له كان في الجانب الآخر من السكة كما لو أنه يزمع بالضبط أن يستقلّ قطارنا ولكن في الاتجاه المعاكس وفي الجهة التي يبتعد بها عن «بالبيك». وقال لي السيد «دو شارلوس»: «إنه في موسيقى الكتيبة. وإذ يسعفك الحظ في كونك على شباب كاف، ويتعسني أنا أني هرمت إلى حدّ، مما يمكنك تجنيبي اجتياز الخطّ والذهاب حتى هناك...» ورأيت من واجبي أن أمضي إلى الجندي المعيّن وتبيّنت بالفعل من القيثارات المطرزة على ياقته أنه من جماعة الموسيقى. ولكن أية دهشة ألمّت بي، بل يمكن أن أقول أية متعة أصبت لحظة كنت أزمع الوفاء بما كُلِّفْتُ به حينما تعرّفت «موريل» ابن خادم عمي الخاص والذي كان يذكّرني بأشياء ما أكثرها! ونسيت من

جرّاء ذلك القيام بالمهمة التي كلّفني بها السيد «دو شارلوس». «عجباً، أأنت في «دونسيير»؟ - «أجل وقد أُلحقت بفرقة الموسيقى في مجموعة آلات النقر». ولكنّه أجاب يقول بلهجة جافّة متعالية. فقد كان أضحى شديد التكلّف ولم تكن رؤيتي لتروقه وهي تذكّره بمهنة والده. وأبصرت السيد «دو شارلوس» فجأة ينقضّ علينا. فمن الواضح أن تأخري أفقده صبره، وقال لـ«موريل» دون أية مقدمات: «ربما رغبت في سماع بعض الموسيقى هذا المساء وإني أدفع ٥٠٠ فرنك للأمسية وربما أمكن أن يكون ذلك موضع اهتمام أحد أصدقائك إن توافر في مجموعة الموسيقى. وعبثاً كنت أعرف وقاحة السيدة «دو شارلوس» فقد أذهلني أنْ لم يقل حتى مرحبا لصديقه الشاب. ولم يدع لي البارون على أية حال وقتاً للتفكير فقد مدّ يده بصورة ودّية وقال: «إلى اللقاء أيها العزيز» ليبلّغني بأنْ ليس عليّ سوى الذهاب. وكنت على أي حال بالغت في ترك عزيزتي «ألبيرتين» فترة طويلة، وقلت لها وأنا أصعد ثانية إلى القطار: «ترين، إن حياة الحمّامات البحرية وحياة الأسفار تُفهمانني أن في مسرح الدنيا ديكورات أقلّ من الممثلين، وممثلين أقل من «المواقف». - «بأي شأن تقول لي ذلك؟» - «لأن السيد «دو شارلوس» سألني منذ قليل أن أبعث إليه واحداً من أصدقائه عرفت فيه في هذه اللحظة تماماً وعلى رصيف هذه المحطة واحداً من أصدقائي». وكنت فيما أقول ذلك أبحث كيف يمكن للبارون أن يعرف «موريل»، فإن التفاوت الاجتماعي الذي لم تراودني فكرته بادئ الأمر كان شاسعاً جداً. وخطر لي أولاً أن الأمر تمّ عن طريق «جوبيان» الذي بدا أن ابنته، كما نذكر، أُغرمت بعازف الكمان. على أن ما كان يذهلني أن يكون البارون طلب سماع الموسيقى في «دونسيير» وهو يعتزم الذهاب إلى باريس بعد خمس دقائق. ولكني إذ عدت أرى ابنة «جوبيان» في ذكرياتي شرعت أرى أن «صنوف التعرّف»، وهي الوسيلة التعيسة التي تلجأ إليها الأعمال الأدبية المصطنعة، إنما هي التعبير على العكس عن جزء هام من الحياة إن عرفنا كيف نذهب حتى حدود الخيالي الصحيح، حينما برق في خاطري

بارق مفاجئ وأدركت أني كنت في غاية السذاجة. فما كان السيد «دو شارلوس» على أدنى معرفة بـ«موريل»، ولا «موريل» بالسيد «دو شارلوس» الذي بهره وأفزعه جندي ما كان يحمل مع ذلك سوى قيثارات فطلب منّي في غمرة اضطرابه أن أجيئه بمن لم يكن يرتاب بأني أعرفه. ولا بدّ في جميع الأحوال أن يكون عرض الخمس مئة فرنك قد حلّ في نظر «موريل» محلّ انتفاء العلاقات السابقة، فقد رأيتهما يواليان حديثهما دون أن يخطر لهما أنهما بجوار حافلتنا. وإذ تذكرت الطريقة التي أقبل بها السيد «دو شارلوس» نحوي ونحو «موريل» أخذت أدرك شبهه ببعض أهليه حينما يتصيّدون امرأة في الشارع، ولكن الموضوع المستهدف تبدّل جنساً. فإنه ابتداء من سنّ معيّنة وحتى لو تحققت في داخلنا تطورات مختلفة، كلما أصبح المرء ذاته كلما برزت القسمات العائلية. لأن الطبيعة فيما توالي باتساق خطوط نسيجها إنما تقطع رتابة التأليف بفضل تنوّع الرسوم المدرجة فيه. ومهما تكن الحال فإن التعالي الذي حدج به السيد «دو شارلوس» عازف الكمان نسبيّ حسب وجهة النظر التي نعتمدها منطلَقاً. ولعلّ ثلاثة أرباع أفراد دنيا المجتمع كانوا أقرّوا بذلك، وهم يسلّمون بالأمر، لا مفوّض الشرطة الذي أمر بمراقبته بعد بضع سنوات.

وقال المستخدم الذي كان يحمل الحقائب: «لقد جرى الإعلان عن قطار باريس يا سيد». «ولكنّي لا أستقلّ أي قطار، فضع كل ذلك في مستودع الأمانات ويحك!» يقول السيد «دو شارلوس» وهو ينقد عشرين فرنكاً المستخدم الذي أذهله الانقلاب وفتنته الإكرامية. واجتذب هذا الكرم في الحال بائعة زهور. «خذ هذه القرنفلات، هاك هذه الوردة الجميلة، أيها السيد الطيّب، فسوف تجلب لك الحظ» فمدّ لها السيد «دو شارلوس»، وقد نفد صبره، أربعين فلساً قدّمت له المرأة في مقابلها تبريكاتها وزهورها مرة ثانية. «يا إلهي، لو أمكن أن تدعنا وشأننا»، يقول السيد «دو شارلوس» موجّهاً حديثه بلهجة ساخرة باكية شأن رجل متوتر الأعصاب، إلى «موريل» الذي كان يجد شيئاً من العذوبة في طلب

مساندته. «فإن ما ينبغي لنا أن نقوله بلغ كفايته من التعقيد». ربما لم يكن السيد «دو شارلوس» حريصاً أن يكون من حوله حضور كبير إذ لم يكن مستخدم الخط الحديدي بعيداً جداً بعد، وربما سمحت هذه الجمل العارضة، ربما سمحت لحيائه المستكبر أن لا يتعرض مباشرة لطلب المواعيد. أما الموسيقي فقد استدار بهيئة صريحة، هيئة الآمر المصمم، صوب بائعة الزهور ورفع في وجهها راحة كانت تدفعها بعيداً وتعلن لها أنهم لا يريدون أزهارها وأن عليها أن تمضي في سبيلها بأسرع ما يمكن. ورأى السيد «دو شارلوس» باغتباط تلك الإشارة الحازمة الرجولية تقوم بها اليد الناعمة والتي كان ينبغي أن تكون بعد ثقيلة عليها قاسية ضخمة، تقوم بها بحزم ومرونة سابقين لأوانهما ويوليان هذا المراهق الأمرد هيئة «داود» شابّ قادر على الاضطلاع بأعباء مقاتلة «جليات». كان إعجاب البارون يمتزج دون قصد بتلك الابتسامة التي تحسّ بها إذ ترى على وجه أحد الأطفال تعابير تفوق برزانتها سنّه. وقال السيد «دو شارلوس» في نفسه. «هو ذا شخص أحببت أن يرافقني في أسفاري ويساعدني في أموري، وكم لعلّه يسهّل أمور حياتي!».

انطلق قطار باريس (الذي لم يستقلّه البارون). ثم صعدنا إلى قطارنا أنا و«ألبيرتين» دون أن أكون علمت ما الذي حلّ بالسيد «دو شارلوس» و«موريل». وعادت «ألبيرتين» تقول لي في إشارة إلى حادثة «سان لو»: «يجب أن لا نتنازع بعد اليوم، وإني أستميحك عذراً»؛ وأردفت تقول برقّة: «يجب أن نظلّ كلانا لطيفين. أما في ما يخصّ صديقك «سان لو» فإن ظننت أني أهتم به أياً كان فأنت على ضلال كبير. ما يروقني منه فقط ما يبدو أنه يكنّه لك من حبّ عظيم». فقلت: «إنه فتى طيب جداً»، قلت وأنا أتحاشى أن أنسب إلى «روبير» مزايا عظيمة خيالية كما لعلّه لم يكن فاتني أن أفعل مودّة له لو كنت مع شخص آخر غير «ألبيرتين»؛ إنه شخص ممتاز صريح خدوم صادق يمكن الاعتماد عليه في كلّ شيء». وكنت إذ أقول ذلك أكتفي، تمنعني غيرتي، بإيراد الحقيقة بشأن «سان لو»، بيد أن

ما أقول كان عين الحقيقة. وواقع الحال أنها كانت تستخدم بالضبط ذات الألفاظ التي سبق أن استخدمتها السيدة «دو فيلباريسيس» لتحدّثني عنه حين لم أكن أعرفه بعد وأتخيّله مختلفاً جداً متعالياً جداً وأقول في نفسي: «يرونه طيباً لأنه سيد كبير». كذلك تصوّرت، حينما قالت لي: «سوف يسعد كثيراً»، بعدما شاهدته أمام الفندق جاهزاً للانطلاق، أن أقوال عمّته كانت مجرّد ترّهات مجتمعية ترمي إلى مداهنتي، وتبيّنت بعد ذلك أنها قالت صادقة وهي تفكّر بما يثير اهتمامي وبقراءاتي ولأنها كانت تعلم أن ذلك ما كان يحبّه «سان لو» كما كان سيتفق لي أن أقول بصدق لواحد كان يؤلف قصة عن جدّه «لاروشفوكو» واضع كتاب «**الحِكَم**» وودّ لو يذهب لاستشارة «روبير»: «سوف يسعد كثيراً». ذلك أني كنت تدرّبت على معرفته.

ولكنّي يوم رأيته أول مرة لم أصدّق أن عقلاً مشابهاً لعقلي يمكن أن يتجلبب بهذا القدر من الأناقة ملبساً وموقفاً. وكنت حكمت من مظهره أنه من نوع آخر. و«ألبيرتين» الآن هي من قالت لي، ربما لأن «سان لو» كان فاتراً معها إلى هذا الحدّ ترفّقاً بي، ما سبق أن فكّرت به فيما مضى: «آه! إنه خدوم إلى هذا الحدّ فإني ألاحظ أنهم يرون دوماً كلّ الفضائل تجتمع للناس إن كانوا من ضاحية «سان جيرمان».» أما أن يكون «سان لو» من ضاحية «سان جيرمان» فذلك أمر ما عدت فكرت فيه مرة واحدة خلال تلك السنين التي أبرز لي فيها فضائله وقد تجرّد من مكانته. إنه تغيّر في المنظور في نظرتنا إلى الناس وهو أكثر جلاء في الصداقة منه في العلاقات الاجتماعية المحضة، وكم هو بعدُ أكثر جلاء في الحبّ حيث يضع الشوقُ على مقاس واسع جداً ويضخّم أدنى وهلة كي أظن في الحال أن «ألبيرتين» تزدريني وأن أتخيل صديقاتها بمثابة كائنات غير بشرية إلى حدّ عجيب وأن أودّ إلى محض التسامح الذي نبديه للجمال ولنوع من الأناقة حكم «ايلستير» حين كان يقول لي حول المجموعة الصغيرة ما كان تماماً من قبيل ما قالت السيدة «دو فيلباريسيس» حول «سان لو»: «إنهن فتيات

طيبات». على أن هذا الحكم ليس هو الذي كنت أصدرته مختاراً حينما أسمع «ألبيرتين» تقول: «أملي في جميع الأحوال، أخدوماً كان أو غير خدوم، أن لا ألقاه ثانية بما أنه جلب الخصام بيننا. ينبغي أن لا نختصم من بعد. أليس ذلك لطيفاً؟» كنت أحسّ، إذ بدا أنها تشتهي «سان لو»، أني شفيت بعض الوقت من فكرة أنها تحبّ النساء، لأني كنت أرى تناقضاً في ذلك. وفي مواجهة المشمّع الذي كانت «ألبيرتين» تبدو فيه وقد أضحت امرأة أخرى، جوّالة الأيام الماطرة التي لا تكلّ، ذاك المشمّع الملتصق الطيّع الرمادي في هذه اللحظة الذي يبدو وكأنه جعل أقلّ ما جعل لحماية ثيابها من الماء وأكثره لما هي بلّلته فالتصق بجسد صديقتي كأنما ليرفع خطوط تقاطيعه لأحد النحاتين، رأيتني أنتزع ذاك الرداء الذي يلاصق بعناية صدرًا مشتهى وجذبت، «ألبيرتين» إليّ وقلت لها:

«وأنت، ألست تريدين، أيتها المسافرة المتراخية،
أن تحلمي فوق كتفي وقد ألصقت بها جبينك؟»[1].

قلت وقد أخذت رأسها بين يدي وأريتها المروج الواسعة الغارقة الصامتة المنبسطة في الضياء الغارب حتى الأفق الذي تسدّه سلاسل متوازية من تموّجات أودية بعيدة ضاربة إلى الزرقة.

كنت بعد الغد، في ذاك الأربعاء الشهير وفي ذات القطار الصغير الذي أخذته من «بالبيك» للذهاب إلى «لا راسبليير» وتناول العشاء هناك، كنت شديد الحرص على أن لا تفوتني فرصة لقاء «كوتار» في «غرانكور سان فاست» حيث نقل إليّ هاتف جديد للسيدة «فيردوران» أني ملاقيه هناك. كان عليه أن يصعد إلى القطار الذي استقلّه ليدلّني أين ينبغي لي النزول لأجد العربات التي يبعثون بها من «لا راسبليير» إلى المحطة. وبما أن القطار لا يتوقف سوى لحظة في «غرانكور»، وهي المحطة الأولى بعد

---

(١) من كتاب «المصائر» للشاعر ألفريد دو فيني، والقصيدة بعنوان «بيت الراعي».

«دونسيير»، فقد أقمت سلفاً على الباب لخوفي الشديد أن لا أرى «كوتار» أو لا يراني هو، وعبثاً ساورتني المخاوف! فلم أكن تبيّنت إلى أي حدّ كانت العشيرة الصغيرة قد صاغت «روّادها» جميعاً على الشاكلة نفسها فأصبح من السهل، وهم فوق ذلك بلباس العشاء الرسمي ينتظرون على الرصيف، التعرف إليهم في الحال من جرّاء هيئة لهم تتسم بالثقة والأناقة والألفة ونظرات تجتاز صفوف الدهماء المكتظة، كأنما تلك مساحة فارغة ليس فيها ما يستوقف الانتباه، وتترصد وصول واحد من الروّاد استقلّ القطار في محطة سابقة، وتلتمع مذ ذاك استمتاعاً بالحديث الآتي. وما كانت تلك العلامة المختارة التي طبعت بها عادة تناول العشاء سوية أعضاء المجموعة الصغيرة، ما كانت تميّزهم فقط حينما كانوا يحتشدون بكثرة وقوة فيؤلّفون بقعة أكثر لمعاناً وسط قطيع المسافرين - وما كان «بريشو» يدعوه الدهماء - الذين لا يمكن أن تقرأ على وجوههم الكامدة أية فكرة تتعلق بآل «فيردوران» وأي أمل في تناول العشاء يوماً في «لا راسبليير».
ولعلّ هؤلاء المسافرين السوقة كانوا أبدوا اهتماماً أقلّ مني على أية حال لو جرى أمامهم النطق بأسماء هؤلاء الخلّص - على الرغم من الشهرة التي اكتسبها بعض منهم - وكنت أعجب لما أراهم يوالون تناول عشائهم في المدينة فيما كان بضعة منهم يفعلون ذلك، وفقاً للقصص التي سبق أن سمعتها، قبل مولدي وفي فترة هي في الآن نفسه بعيدة وغامضة حتى ليغريني أن أبالغ في بعدها عني. وأن التعارض بين استمرارهم لا على قيد الحياة فحسب بل في التمتع بكامل قواهم وزوال الكثير من الأصدقاء الذين رأيتهم يختفون ههنا وهناك كان يوليني الشعور نفسه الذي ينتابنا حينما نقرأ في «أخبار آخر ساعة» في الصحف الخبر الذي كنا بالضبط ننتظره أقلّ ما ننتظر، كخبر وفاة مبكرة على سبيل المثال تبدو لنا مفاجئة لأن الأسباب التي هي مآلها لبثت مجهولة لدينا. ذلك الشعور مفاده أن الموت لا يصيب جميع الناس بالتساوي، ولكن موجة أكثر تقدماً في هجمتها المأساوية تزهق حياة واقعة على مستوى حيوات أخرى توفّرها الموجات اللاحقة فترة

طويلة بعد. وسوف نرى فيما بعد على أي حال أن تنوّع الميتات التي تتنقّل على نحو خفيّ إنما تشكّل سبب المفاجأة الخاص التي تمثلها في الصحف زاوية الوفيات. ثم كنت أرى أن مواهب حقيقية يمكن أن تعايش أتفه صنوف الحديث تتكشف وتفرض نفسها مع مرّ الزمن، وليس ذلك فحسب بل إن أفراداً ضحلي المستوى يبلغون تلك المقامات العالية التي تقترن في مخيلة طفولتنا ببعض الشيوخ المشهورين دون أن نفكّر بأن تلاميذهم سوف يضحون كذلك بعد انقضاء عدد من السنين وقد أصبحوا أساتذة بدورهم وهم الآن يوحون بالاحترام والمهابة اللذين كانا يداخلانهم بالأمس. ولئن كانت أسماء الخلّص مجهولة لدى «الدهماء» فإن مظهرهم كان يكشفهم أمامها. فإنه حتى في القطار (حين تجمعهم كافة فيه مصادفة ما انبغى أن يفعله هؤلاء وأولئك في أثناء النهار)، ولا يقع عليه من بعد أن ينقل معه من المحطة التالية سوى شخص بمفرده، كانت العربة التي يجتمعون فيها، وقد أبرزها مرفق النحّات «سكي» وصحيفة «**الزمان**» التي يحملها «كوتار» تتلألأ من البعيد مثل عربة باذخة وتلحق الرفيق المتأخر بالمحطة المقصودة. والوحيد الذي أمكن أن تفوته من جرّاء نصف عماه علامات الميعاد تلك كان «بريشو». ولكنّما كان أحد الروّاد يقوم طواعية إزاء الأعمى بمهام الراصد وما إن يبصروا قبعة القش التي يعتمرها وممطرته الخضراء ونظارتيه الزرقاوين حتى يقوده برفق واستعجال إلى المقصورة المختارة. إلى حدّ أنْ ليس من مثال على أن أحد الخلّص، ما لم يثر أخطر شكوك العربدة أو أنه حتى لم يستقلّ «القطار»، لم يلتق الآخرين وهو في الطريق إليهم. ويقع العكس أحياناً: فقد اضطر أحد الخلّص أن يمضي بعيداً بعد الظهر وانبغى له بالتالي أن يقطع قسماً من المسير بمفرده قبل أن تلتحق به المجموعة. وما كان في الكثير الغالب إلا ليخلّف بعض الأثر وإن كان بمفرده على ذاك النحو وكان وحيداً من جنسه. فإن «الآتي» الذي يمضي شطره كان يلفت إليه نظر الجالس على المقعد المواجه فيقول في نفسه: «لا بدّ أنه ذو شأن» ويميّز بالتبصّر الغامض الذي لمسافري «عمّاوس» ما يشبه الهالة حتى حول

قبعة «كوتار» أو قبعة «سكي» ولا تأخذه إلا نصف دهشة حينما يستقبل جمهور أنيق في المحطة التالية، إن كانت المحطة الأخيرة، المخلص على عتبة المقصورة ويمضي معه باتجاه إحدى العربات التي تنتظر، يحيّيهم جميعاً أفضل تحية المستخدم في «دوفيل»، فإن كانت محطة وسيطة اجتاح المقصورة. ذلك ما فعلته الجماعة التي أطلقها «كوتار» رملاً باتجاه العربة التي رأى إشاراتي تنطلق من نافذتها، وقد فعلت باستعجال لأن الكثير منهم وصل متأخراً وفي اللحظة عينها التي يزمع فيها القطار المتوقف من قبل في المحطة معاودة سيره. و«بريشو» الذي كان في عداد أولئك الخلّص أصبح أكثر إخلاصاً في بحر هذه السنوات التي حدّت بالنسبة إلى آخرين من مثابرتهم. ذلك أن بصره إذ تراجع تدريجياً اضطره حتى في باريس إلى تخفيض أعماله المسائية أكثر فأكثر. وكان على أي حال قليل الميل إلى السوربون الجديدة حيث أخذت أفكار الدقّة العلمية تتقدم على الاتجاه الإنساني. كان يقصر عمله الآن حصراً على درسه المقرر وعلى اللجان الفاحصة، فيتوافر لديه وقت أكثر يصرفه لأمور الدنيا، يعني للأمسيات في منزل آل «فيردوران» أو لتلك التي يحييها أحياناً لآل «فيردوران» هذا المخْلص أو ذاك وهو يرتعش انفعالاً. وصحيح أن الحبّ كاد يفعل مرتين متواليتين ما لم تعد الأعمال تقوى عليه، أي فصل «بريشو» عن العشيرة الصغيرة. لكن السيدة «فيردوران» التي كانت تسهر على الأمور قد أفضى بها الأمر على أية حال، وكانت تعوّدت ذلك لصالح منتداها، إلى إصابة متعة خالية الغرض في هذا النوع من الفواجع والإجراءات فجعلته يختصم على نحو نهائي مع الشخص الخطير، إذ هي تعلم، كما كانت تقول، كيف تتدارك الفوضى وكيف تضرب الحديد حامياً. وقد زاد من يسر الأمر عليها بالنسبة إلى إحدى المرأتين الخطيرتين أنها كانت مجرّد غسّالة «بريشو» ولم يقع على السيدة «فيردوران»، وهي مخولة بدخول الدور الخامس الذي يقطنه الأستاذ ويكتسي وجهها استكباراً لوناً قرمزياً حينما تتفضل وتصعد أدوارها الخمسة، لم يقع عليها إلا أن تطرد تلك المرأة التي لا قيمة لها،

فقد قالت البارونة لـ«بريشو»: «ويحك! تشرّفكَ امرأة مثلي بالمجيء إلى بيتك وتستقبل مخلوقة كهذه؟» ولم ينس «بريشو» في يوم الصنيع الذي قدّمته له السيدة «فيردوران» إذ حالت دون أن تغوص شيخوخته في الأوحال، وأخذ يزداد تعلقاً بها في حين أخذت «المعلّمة»، خلافاً لتجدّد الودّ ذاك وربما بسببه، تنفر من مُخْلِص مفرط في خضوعه وهي متيقّنة سلفاً من طاعته. على أن «بريشو» كان يجني من حال الألفة مع آل «فيردوران» ألقاً يميّزه بين زملائه جميعاً في السوربون. فقد كانت تبهرهم القصص التي يرويها عن أعشية لن يُدعَوا إليها في يوم، وكذلك ذكره في المجلات أو رسمه المعروض في الصالة، وقد أقدم عليهما هذا الكاتب أو ذاك الرسام الشهير الذي كان أصحاب الكراسي العلمية الأخرى في كلية الآداب يقدرون موهبته ولا يسعفهم الحظ إطلاقاً في إثارة اهتمامه، وأناقة الملبس نفسها التي يبرز بها فيلسوف المجتمع المخملي، أناقة أخذوها بادئ الأمر على أنها من باب الإهمال إلى أن تكرّم زميلهم وأوضح لهم أن القبعة العالية تقبل طائعة أن توضع أرضاً في أثناء زيارة وليست مقبولة في حفلات العشاء في الأرياف مهما تكن أنيقة ولا بدّ أن تستبدل بها القبعة الطرية التي تليق تماماً «بالسموكن». لم أستطع أثناء الثواني الأولى التي اندفعت فيها المجموعة الصغيرة داخل العربة، لم أستطع حتى التحدث إلى «كوتار» فإنه ضاقت أنفاسه لا من جرّاء أنه جرى كي لا يفوته القطار، بل من جرّاء دهشته أن يكون لحق به في الوقت المناسب تماماً. لقد أصابه من ذلك أكثر من فرحة النجاح، وما يقارب الضحك الناجم عن «مقلب» سارّ. وقال بعدما استعاد هدوءه: «آه! شيء عظيم! ولو زدنا القليل، ويحك لكان ذلك ما يسمّونه الوقوف على الحافة تماماً!»(١) يضيف قوله وهو يغمز بعينه لا ليسأل إن كان التعبير صحيحاً، إذ كان يفيض الآن ثقة بنفسه، بل بداعي

---

(١) العبارة تعني بالفرنسية «الوصول في الوقت المناسب» وفي الأصل «السقوط عمودياً في النقطة المطلوبة»، وهو تلاعب لفظي يصعب ردّه، وقد آثرنا الاحتفاظ بما يوحي بشيء من الخطر.

الرضى عن الذات. وأخيراً استطاع أن يذكر اسمي أمام أعضاء المجموعة الصغيرة الآخرين. وأزعجني أن أبصر أن الجميع تقريباً كانوا يرتدون ما يدعى بـ«السموكن» في باريس؛ وكنت نسيت أن «آل «فيردوران» باشروا تطوراً خجولاً باتجاه المجتمع الراقي بطّأتْ منه قضية «دريفوس» وسرّعته الموسيقى «الجديدة»، تطوراً جرى بأية حال تكذيبه من جانبهم وربما والوا التكذيب إلى أن ينجح، كما هي حال تلك الأهداف العسكرية التي لا يعلنها الجنرال إلا بعدما يبلغها كي لا يبدو أنه غُلب إن أخطأها. وكان المجتمع الراقي في ما يخصّه على أتمّ الاستعداد المتقدم في اتجاههم. وكان لا يزال بعد يعتبرهم أناساً لا يذهب إليهم أحد من كبار القوم ولكنهم لا يشعرون بأي أسف من ذلك. كان منتدى آل «فيردوران» يُعَدّ معبداً للموسيقى، فهناك فيما يؤكدون لاقى «فانتوي» الوحي والتشجيع. ولئن ظلّت «سوناتا» «فانتوي» غير مفهومة كلياً ومجهولة تقريباً فقد كان اسمه، ويذكرونه كأعظم موسيقي معاصر، يشيع من حوله مهابة خارقة. ثم إن بعض فتيان «الحي» تنبّهوا إلى وجوب أن يكونوا بمثل ثقافة البورجوازيين فكان ثلاثة من بينهم قد تعلّموا الموسيقى وحازت سوناتا «فانتوي» عندهم شهرة عظيمة. وكانوا يحكون عنها بعدما يعودون إلى منازلهم، للوالدة الذكية التي دفعتهم إلى تثقيف أنفسهم. والأمهات المهتمات بدروس أبنائهن كنّ في الحفلة الموسيقية يتطلّعن باحترام إلى السيدة «فيردوران» وهي تتابع مجموعة العزف من مقصورتها الأمامية. هذه الصيغة المجتمعية الكامنه لدى آل «فيردوران» لم يكن يجسّدها سوى واقعتين. فقد كانت السيدة «فيردوران» من جهة تقول عن الأميرة «دو كابرارولا»: «آه! هذه ذكية، إنها امرأة ظريفة، وما لا أطيق احتماله هم البلهاء، الناس الذين يُضجرونني، إنهم يثيرون جنوني». الأمر الذي يخال معه من كان على قليل من رهافة الفكر أن الأميرة «دو كابرارولا»، وهي امرأة من علية القوم، قامت بزيارة السيدة «فيردوران»، بل هي تفوّهت باسمها في أثناء زيارة مؤاساة قامت بها للسيدة «سوان» بعد وفاة زوج هذه الأخيرة وسألتها إن

كانت تعرفهم. فأجابت «أوديت» بلهجة أضحت فجأة حزينة: «كيف تقولين؟» - «فيردوران». فعادت تقول بأسى: «آه! أراني أعلم الآن، لست أعرفهم، أو أنا بالأحرى أعرفهم دون أن أعرفهم، هم جماعة التقيتهم فيما مضى لدى أصدقاء، منذ زمن بعيد، وإنهم على ظرف». وبعدما ذهبت الأميرة «دو كابرارولا»، ودّت «أوديت» لو أنها قالت الحقيقة دون سواها. لكن الكذبة الفورية لم تكن نتاج حساباتها بل الكاشف عن صنوف خشيتها ورغباتها. فلم تكن تنكر ما لعلّه كان من اللباقة إنكار، بل ما ودّت أنْ لم يكن حتى إن انبغى أن يعرف محدّثك بعد ساعة أن ذلك كان بالفعل. وبعد قليل كانت قد استعادت ثقتها بنفسها وراحت حتى تستبق الأسئلة بقولها، بغية أن لا يبدو أنها تخشاها: «السيدة «فيردوران» يا عجبي، لقد عرفتها كثيراً»، تقول بتصنّع التواضع شأن سيدة كبيرة تقصّ عليك أنها استقلّت الحافلة الكهربائية. وتقول السيدة «دو سوفريه»: «لقد كثر الحديث عن آل «فيردوران» منذ حين». فتجيب «أوديت» بابتسامة دوقة مستكبرة: «أجل، يبدو لي بالفعل أن الحديث عنهم كثير. ثمة بين الحين والحين أناس جدد من هذا القبيل يحلّون في المجتمع»؛ ودون أن يخطر لها أنها هي من أقربهن عهداً. وأردفت السيدة «دو سوفريه» تقول: «لقد تناولت الأميرة «دو كابرارولا» عشاءها هناك»، فأجابت «أوديت» وهي تزيد من ابتسامتها: «آه! ليس يدهشني ذلك، فهذه الأمور تبدأ دوماً بالأميرة «دو كابرارولا»، ثم تأتي أخرى غيرها، كالكونتيسة «موليه» مثلاً». وإذ تقول «أوديت» ما تقول، تبدو وكأنها تزدري ازدراء عميقاً السيدتين الكبيرتين اللتين تعوّدتا استباق الجميع إلى دخول المنتديات المفتتحة حديثاً، وكنت تحسّ في لهجتها أن ذلك إنما يعني أنهم لن يفلحوا في وضعها، هي «أوديت» والسيدة «دو سوفريه» على حدّ سواء، في مثل هذه المراكب.

بعد الإقرار الذي أعلنت فيه السيدة «فيردوران» عن ذكاء الأميرة «كابرارولا» كانت العلامة الثانية التي تشير إلى أن آل «فيردوران» كانوا يعون المصير الآتي أنهم كانوا يرغبون رغبة شديدة (دون أن يكونوا طلبوا

ذلك رسمياً بالطبع) أن يجيئهم الناس الآن للعشاء عندهم بلباس المساء الرسمي؛ كان يمكن الآن تحية السيد «فيردوران» دونما خجل من جانب ابن أخيه، ذاك الذي كان «يحلّ أخيراً في التصنيف».

كان «سانييت» في عداد الذين صعدوا إلى عربتي في «غرانكور»، وسبق فيما مضى أن طرده ابن عمّه «فورشيفل» من منزل آل «فيردوران»، ولكنّه عاد من جديد. كانت عيوبه فيما مضى، على صعيد حياة المجتمعات الراقية، - على الرغم من مزايا عالية المستوى - تقرب أن تكون من نمط عيوب «كوتار»، خجل ورغبة في أن يروق الآخرين وجهود غير مثمرة لبلوغ ذلك. ولئن كانت الحياة ألبست «كوتار»، إن لم يكن لدى آل «فيردوران» حيث لبث إلى حدّ ما على حالة بفضل الإيحاء الذي تمارسه علينا الدقائق الماضية حينما نعود فنلقى أنفسنا في وسط تعوّدناه، فعلى الأقلّ بين زبائنه وداخل قسمه في المشفى وفي الأكاديمية الطبية، لئن ألبسته مظاهر من البرودة والاستعلاء والرزانة كانت تتزايد وهو يلقي على طلابه الذين يجاملونه تلاعباته اللفظية فأحدثت فجوة حقيقية بين «كوتار» الحالي والقديم، فقد تعاظمت العيوب نفسها على العكس لدى «سانييت» كلما حاول أن يصطلح. فإذ كان يشعر أنه يثير في الغالب الملل وأنهم لا يصغون إليه فإنه عوضاً عن الإبطاء حينذاك كما لعلّ «كوتار» كان فعل وشدّ الانتباه إليه بمظهر السلطة عنده. لم يكن يحاول فحسب أن يطلب العفو عن طابع الجديّة المفرطة الذي يسم حديثه باللجوء إلى لهجة هازلة بل كان يسرّع إلقاءه ويمهد له السبيل ويلجأ إلى الاختصارات ليبدو أقل تطويلاً وأكثر ألفة مع الأشياء التي يتحدّث عنها ويفلح فقط، إذ يجعلها متعذرة الفهم، في أن يبدو مطولاً لا ينتهي. لم تكن ثقته بنفسه كثقة «كوتار» الذي كان يجمّد الدم في عروق مرضاه فيجيبون من يمتدحون لطفه في المجتمع قائلين: «إنه لا يلبث الرجل نفسه حينما يستقبلك في مكتبه، أنت في الضوء وهو بعكس الضوء وبعينيه الثاقبتين». فلم تكن تفرض الاحترام وتحسّ أنها تخفي الكثير من الحياء وأن أقلّ القليل يكفي لحملها على الهرب،

و«سانييت» الذي قال له أصدقاؤه دوماً إنه يفرط في لاثقته بنفسه والذي كان يرى أناساً يحكم بحق أنهم أدنى منه كثيراً يبلغون بيسر نجاحات تحجب عنه، «سانييت» ما عاد يباشر قصة دون أن يبتسم لغرابتها مخافة أن لا ترفع الهيئة الجادة من شأن بضاعته إلى الحدّ الكافي. ويمنون عليه بالصمت الشامل أحياناً إذ يولون ثقتهم طابع الهزل الذي يبدو أنه هو ملاقيه في ما سيقول. ولكن الحكاية تفشل فشلاً ذريعاً. وكان أحد المدعوّين ممّن حباهم الله طيب القلب يمرّر أحياناً لـ«سانييت» تشجيعاً خاصاً ويقرب أن يكون خفياً في ابتسامة استحسان يبلغه إياها خلسة دون أن يثير الانتباه كما لو يمرّر رسالة صغيرة. ولم يكن يبلغ بأحد أن يتحمّل مسؤولية قهقهة تنطلق وأن ينسبها لنفسه علناً. ويظل «سانييت» وحده، بعد انتهاء الحكاية وفشلها، يبتسم لذاته كأنما يتذوّق فيها ولذاته اللذة التي يتظاهر باعتبارها كافية والتي لم يحسّ بها الآخرون. أمّا النحّات «سكي»، وقد دُعي هكذا بسبب الصعوبة التي يلقونها في النطق باسمه البولوني، ولأنه كان يبدي علناً منذ أن بدأ يعيش في مجتمع معيّن أنه لا يريد أن يخلطوا بينه وبين أقارب مرموقي الموقع ولكنهم مملّون إلى حدّ وكثيرون جداً، فقد كان، وهو في الخامسة والأربعين وعلى قبح شديد، يبدي نوعاً من «الشقاوة» والنزوات الحالمة التي ظلّ يحتفظ بها إذ كان حتى العاشرة أروع طفل معجزة في العالم ومالك ألباب السيدات جميعاً. كانت السيدة «فيردوران» تزعم أنه أعمق فناً من «ايلستير». وما كان يشاطر هذا الأخير على أية حال إلا وجوه شبه خارجية بحتة؛ وكانت كافية لتبعث في صدر «ايلستير»، الذي سبق أن التقى «سكي» مرة واحدة، النفور العميق الذي يثيره فيناً، حتى أكثر من الأشخاص الذين يضادوننا تماماً، أولئك الذين يشبهوننا على جودة أقل والذين ينداح فيهم ما كان الأسوأ عندنا، العيوب التي شفينا منها، فيذكروننا على نحو مزعج بما أمكن أن نبدو عليه في عيون بعض الناس قبل أن نكون أصبحنا ما نحن عليه، ولكن السيدة «فيردوران» كانت تعتقد أن «سكي» يملك شخصية أقوى من «ايلستير» لأنه لم يكن فن إلا وكان سهلاً

عليه، ويقينها أن هذه السهولة كان يمكن أن يبلغ بها حدّ الموهبة لو أنه بدا أقلّ كسلاً، بل يبدو هذا الكسل لـ«لمعلّمة» موهبة إضافية بما أنها عكس الشغل الذي تظنه قسمة الأشخاص الذين لا نبوغ لهم. كان «سكي» يرسم ما تشاء على أزرار الأكمام وعلى القسم العلوي من الأبواب. وكان ينشد بصوت ملحّن ويعزف من الذاكرة مضيفاً على البيانو الانطباع الذي تعطيه الأوركسترا والأمر ناجم أقلّ ما ينجم عن براعته وأكثره عن نشازات في القرار تدلّ على عجز الأصابع أن تدلّ على وجود بوق هنا وكان يقلّده على أية حال بِفمِهِ. وإذ يبحث عن كلماته في حديثه ليحمل على الاعتقاد بانطباع غريب مثلما كان يؤخر ائتلافاً لحنياً يعزفه فيما بعد وهو يقول: «بنْغْ» كي يُشعرك بوجود الآلات النحاسية، كان يُعَدُّ رائع الذكاء ولكن أفكاره كانت تختصر في الواقع باثنتين أو ثلاثة شديدة الإيجاز. فقد كان صمّم، إذ تزعجه سمعته كشخص غريب الأطوار، أن يبرهن أنه رجل عملي واقعي مما بعث لديه تصنّعاً ظافراً لدقّة كاذبة وسلامة تفكير زائغة يزيدهما سوءاً أنه لا ذاكرة البتّة له وأن معلوماته غير صحيحة على الدوام. ولعلّ حركات رأسه وعنقه وساقيه كانت بدت محبّبة لو كان بعدُ في التاسعة بخصل شقراء وقبّة دانتيلا واسعة وحذاء صغير من الجلد الأحمر. ولما كانوا وصلوا قبل الوقت المحدد إلى محطة «غرانكور» بصحبة «كوتار» و«بريشو» فإنهم تركوا «بريشو» في قاعة الانتظار ومضوا في جولة. وحينما أبدى «كوتار» رغبة في العودة أجاب «سكي» قائلاً: «ولكن لا داعي للعجلة، فالقطار اليوم ليس المحلي بل قطار المقاطعة». وإذ أخذ منه العجب أن يرى الأثر الذي يخلّفه في نفس «كوتار» هذا الفارق في الدقّة أضاف وهو يتحدث عن نفسه: «أجل، لأن «سكي» مغرم بالفنون ويشكل عجينة الغضار يظنونه غير عملي. فليس من يعرف السكة أفضل مني». ولكنهم عادوا مع ذلك باتجاه المحطة حينما أبصروا فجأة دخان القطار الصغير وهو مقبل وصاح «كوتار» وقد أطلق صرخة قوية: «لا بدّ أن تجري بأقصى سرعة». وقد وصلوا بالفعل في الوقت المناسب، إذ التمييز بين القطار المحلي وقطار المقاطعة لم يكن إلا

من نسج خيال «سكي». وسأل «بريشو» بصوت مدوّ: «ولكن أليست الأميرة في القطار؟» فيما تبدو نظارتاه الضخمتان، وهما تلتمعان كالعاكسات التي يعلّقها أطباء الحنجرة فوق جبينهم ليضيئوا حنجرة مرضاهم، وكأنما استمدتا من عينَي الأستاذ حياتهما فتبدوان، ربما بسبب الجهد الذي يبذله كي يطابق بينهما وبين رؤيته، حتى في أقلّ اللحظات أهمية، كأنهما تنظران بذاتهما بانتباه متصل وتحديق ثابت خارق. وكان المرض على أي حال قد كشف لـ«بريشو»، وهو يسلبه الرؤية شيئاً فشيئاً، عن مواطن الجمال في هذه الحاسة مثلما ينبغي لنا غالباً أن نحزم أمرنا لفراق حاجة ما، كأن نهديها على سبيل المثال، كيما ننظر إليها ونتأسف عليها ونتأمّلها بإعجاب. «لا لا، لقد صحبَت الأميرةُ حتى «مينفيل» مدعوّين لدى السيدة «فيردوران» سيستقلّون قطار باريس وذلك لوداعهم. وليس يستحيل أن تكون السيدة «فيردوران» بصحبتها إذ كان عليها قضاء بعض الحاجات في «سان مارس». ولعلّها، وهذه حالها، تسافر معنا ونقطع الطريق جميعنا سوية ويكون الأمر ممتعاً، وإنما يقع علينا أن تظلّ عيننا مفتوحة في «مينفيل»، والعين المطلوبة! آه! لا بأس علينا، يمكننا أن نقول إننا كنا على شفا تفويت العربة. وحينما رأيت القطار أُسقط في يدي. ذلك ما يدعونه الوصول في اللحظة النفسية المناسبة. أرايت ذلك لو فاتنا القطار، وتبيّنت السيدة «فيردوران» أن العربات تعود بدوننا: يا لها من لوحة!»، يضيف الدكتور قوله، وما كان بعد هدأ روعه. «تلك مغامرة غير عادية». وعاد الدكتور يسأل بشيء من الاعتزاز: «هات نَر، يا «بريشو»، ما عساك تقول في مغامرتنا الصغيرة؟» فأجاب «بريشو» قائلاً: «صدقاً، لو أنكم بالفعل لم تجدوا القطار لكانت وقعة وسخة، كما لعلّ «فيلمان» كان قال». أما أنا، وقد شرد ذهني منذ اللحظات الأولى من جرّاء هؤلاء الناس الذين لا أعرفهم، فقد تذكّرت فجأة ما سبق أن قاله لي «كوتار» في قاعة الرقص في الكازينو الصغير، وكما لو أن حلقة خفيّة أمكن أن تقرن بين عضو وصور الذاكرة كانت صورة «ألبيرتين» وهي تضغط بنهديها على صدر «أندريه»

تصيبني بألم رهيب في القلب. ولم يدم ذاك الألم إذ لم تعد فكرة قيام علاقات ممكنة بين «ألبيرتين» ونساء أخريات تبدو لي ممكنة منذ ما قبل البارحة يوم أثارت «الدعوات» التي وجّهتها صديقتي لـ«سان لو» غيرة جديدة في صدري أنْسَتني الأولى. فقد كنت ساذجاً سذاجة قوم يظنون أن ميلاً إنما يستبعد حتماً ميلاً آخر. وفي «أرامبوفيل»، ولمّا كان القطار مزدحماً، صعد إلى مقصورتنا مزارع بمريلته الزرقاء وليس بيده سوى بطاقة من الدرجة الثالثة. وإذ رأى الدكتور أنه لا يمكن أن تدع الأميرة تسافر معه استدعى مستخدماً وأبرز بطاقته بصفته طبيباً لشركة كبرى للخطوط الحديدية وألزم رئيس المحطة بإنزال المزارع. وقد آلم هذا المشهد فؤاد «سانييت» الطيّب وأثار مخاوفه حتى إنه ما إن شهد بدايته وخشي مذ ذاك، من جرّاء عدد الفلاحين الكبير الواقفين على الرصيف، أن يتخذ حجم ثورة على السلطة تظاهر بأوجاع في البطن وكي لا يمكن اتهامه بحمل قسم من المسؤولية في فعلة الدكتور العنيفة سلك الممرّ وهو يتظاهر بالبحث عما كان «كوتار» يسمّيه «بيوت الماء». ولمّا لم يجدها أخذ يحدّق في المنظر في الطرف الآخر من السكة. وقال لي «بريشو» في حرصه على إبراز مواهبه أمام «مستجدّ» مثلي: «إن كانت هذه بداياتك لدى السيدة «فيردوران»، فستلاحظ أن ليس من وسط تحسّ أفضل إحساس فيه بـ«حلاوة العيش»، كما كان يقول أحد مخترعي نزعة الهواية في الفن ونزعة اللامبالاة ونزعات أخرى كثيرة رائجة عند متحذلقاتنا الصغيرات، عنيت السيد الأمير «دو تاليران».» ذلك أنه حينما كان يتحدث عن أسياد الماضي العظام كان يرى من النباهة ومن قبيل «إضفاء لون العصر» أن يجعل قبل اللقب كلمة «سيد» فيقول السيد الدوق «دو لاروشفوكو» والسيد الكاردينال «دو ريتز» الذي كان يدعوه أيضاً بين الحين والحين: «هذا النضال[1] في سبيل الحياة»

---

(١) العبارة واردة بالإنكليزية على نحو ما يلفظها الفرنسيون «struggle for Life» وغوندي هو لقب الكاردينال دوريتز.

المدعو «غوندي» وذاك «البولانجيّ» المدعو «مارسياك»[1]. وما كان يفوته في يوم أن يدعو «مونتسكيو» من خلال ابتسامة حين يتحدّث عنه: «السيد الرئيس سوغوندا دو مونتسكيو». ولعلّ رجل مجتمع نبيهاً كان تضايق من هذه الحذلقة التي تفوح منها رائحة «المدرسة». لكنّ ثمة في تصرفات رجل المجتمعات التي لا غبار عليها إذ يتحدث عن أحد الأمراء حذلقةً أيضاً تكشف النقاب عن طبقة مميزة أخرى، تلك التي يضعون فيها قبل اسم «غليوم» كلمة «الإمبراطور» والتي يكلّمون فيها صاحب الجلالة بضمير الغائب. وعاد «بريشو» يقول في حديثه عن «السيد الأمير «تاليران»: «آه: هذا لا بدّ من تحيّته بمظاهر الاحترام العميق، فإنه من الأجداد». وقال «كوتار»: «إنه وسط رائع وسنجد فيه شيئاً من كل شيء، لأن السيدة «فيردوران» ليست حصرية في خياراتها: فعلماء مشهورون من أمثال «بريشو» وطبقة الأشراف العليا كالأميرة «شيرباتوف»، هذه السيدة الروسية العظيمة صديقة الدوقة الكبرى «أودوكسي» التي تراها حتى وحيدة في الساعات التي لا يُقبَل فيها بدخول أحد. فإنه لمّا كانت الدوقة الكبرى أودوكسي» لا تهتم بأن تجيء الأميرة «شيرباتوف»، التي لم يعد يستقبلها أحد منذ فترة طويلة إلى منزلها حينما لعلّه كان بمقدورها استقبال بعض الناس عندها، فقد كانت لا تأذن لها بالجيء إلا في ساعة مبكّرة جداً حينما لا يكون لدى صاحبة السموّ أي من الأصدقاء ممّن ربما كان التقاؤه الأميرة غير مستحبّ عنده بقدر ما هو سبب ضيق بالنسبة إليها. ولما كانت السيدة «شيرباتوف» تبادر منذ ثلاث سنوات، حالما تكون فارقت شأن عاملة «مانيكور» الدوقة الكبرى، إلى الذهاب إلى منزل السيدة «فيردوران» التي أفاقت توّاً من نومها ولا تفارقها من بعد، فإنه يمكن القول إن إخلاص الأميرة كان يتجاوز إلى ما لا حدود حتى إخلاص «بريشو» مع أنه كان

(١) هو «لاروشفوكو» صاحب كتاب «الحِكَم». أما «مونتسكيو» فهو المفكر الفرنسي المعروف الذي عاش في القرن الثامن عشر. وتبدو المقارنة غير مقنعة بين عصر «التمرد والعصيان» في السابع عشر وعصر الجنرال «بولانجيه» في التاسع عشر.

شديد المثابرة على أيام الأربعاء تلك التي يلذّه فيها أن يظن نفسه، في باريس، ما يقرب أن يكون «شاتوبريان» في الـ«آبيبي أوبوا»[1]، وفي الأرياف كان يورث انطباعاً بأنه أضحى معادلاً لما كان يمكن أن يكون عليه لدى السيدة «دو شاتليه» ذاك الذي كان يدعوه دوماً (بمكر وارتياح الأديب): «السيد دو فولتير».».

لقد سمح انعدام المعارف لدى الأميرة «شيرباتوف» أن تمحض آل «فيردوران» منذ بضع سنوات إخلاصاً جعل منها أكثر من «مخلصة» عادية، المخلصة النموذج والمثل الأعلى الذي ظنّته السيدة «فيردوران» عسير المنال وتراه اليوم، بعد ما بلغت من اليأس، مجسّداً في هذه المتطوعة الجديدة. وأية كانت الغيرة التي عانت منها «المعلّمة» فلم يكن ثمة مثال على أن أكثر المثابرين من بين المخلصين لها لم «يتخلوا» عنها مرة. فإن أكثرهم ملازمة لبيته كان يقع في حبال رحلة ما، وأكثرهم تعفّفاً أصاب فرصة طيّبة، وأكرهم صلابة كان يمكن أن تصيبه الوافدة؛ والأقلّ انشغالاً أن تشغله الثمانية وعشرون يوماً[2]، والأكثر لامبالاة أن يمضي ليغمض عيني والدته المحتضرة، وعبثاً كانت السيدة «فيردوران» تقول لهم حينذاك، مقالة الإمبراطورية الرومانية[3]، إنها الجنرال الوحيد الذي تجب طاعته، ومقالة المسيح أو القيصر[4]، إن من أحبّ أباه وأمه قدر حبّه لها ولم يكن مستعداً لهجرهما ليتبعها فليس يستحقّها، وإن أفضل ما يفعلون أن يمكثوا إلى جانبها، هي الدواء الوحيد واللذة الوحيدة. ولكن القدر الذي يروقه أحياناً أن يجمّل الأيام الأخيرة في حيوات تتطاول كثيراً جعل السيدة

(١) حيث كان منتدى السيدة «ريكامييه» الشهيرة.

(٢) المدة التي يقضيها المدعوّون لخدمة الاحتياط ويحاولون التأجيل باللجوء إلى معارفهم أو إلى شهادات طبية.

(٣) «أغريبينا» زوجة «كلاوديوس» ووالدة «نيرون».

(٤) غليوم الثاني الذي كتب في سجل دار البلدة في «ميونخ» (١٨٩١) العبارة التالية: «مشيئة الملك رأس القوانين».

«فيردوران» تلتقي الأميرة «شيرباتوف». فإذا كانت الأميرة اختصمت مع أسرتها ونُفيت من بلادها ولا تعرف من بعد سوى البارونة «بوتبوس» والدوقة الكبرى «أودوكسي» اللتين لا تذهب إلى منزليهما، لأنها ما كانت ترغب لقاء صديقات الأولى فيما لا ترغب الثانية أن تلتقي صديقاتُها الأميرة، إلا في ساعات الصباح الأولى حيث السيدة «فيردوران» لا تزال بعد نائمة، وإلا لا تذكر أنها مكثت في غرفتها مرة واحدة منذ سن الثانية عشرة التي أصيبت فيها بداء الحصبة، وكانت أجابت في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) السيدة «فيردوران» التي سألتها في قلقها من المكوث وحدها إن لم يكن باستطاعتها البقاء للنوم عندها بصورة مباغتة وعلى الرغم من يوم رأس السنة: «ولكن ما الذي يحول دون أن أفعل ذلك في أي يوم؟ وفي هذا اليوم على أية حال يبقى الناس بين أسرهم وإنك أنت أسرتي»، وإذ تعيش في نزل وتبدّله حينما يُخلي آل «فيردوران» منزلهم وتلحق بهم في أماكن اصطيفاهم فقد حققت للسيدة «فيردوران» أفضل ما يكون التحقيق بيت «فينيي» القائل:

«وحدكِ أنتِ بدوت لي بصورة ما نبحث دوماً عنه»

إلى حدّ أن رئيسة الحلقة الصغيرة سألتها، وهي راغبة أن تضمن لنفسها «إحدى المخلصات» حتى في موتها، وأن تأمر مَن مِن الاثنين تموت أخيراً بأن تُدفن إلى جانب الأخرى. كانت الأميرة «شيرباتوف» تحرص إزاء الغرباء - الذين لا بدّ أن نحصي بينهم على الدوام ذاك الذي يشقّ علينا أكثر ما يشقّ أن يزدرينا، عنينا ذاتنا - أن تصوّر صداقاتها الثلاث الوحيدة - على الدوقة الكبرى وآل «فيردوران» والبارونة «بوتبوس» - على أنها الوحيدة لا التي أفسحت لها كوارث خارجة عن إرادتها مجال البروز من وسط الدمار الذي حلّ بكلّ ما بقي، بل تلك التي جعلها الاختيار الحر تفضّلها على ما عداها والتي جعلها ميل معيّن إلى العزلة والبساطة تقتصر عليها. «لست أرى أحداً غيرهم»، تقول وهي تؤكد على

الطابع الذي لا يلين لما كان يبدو قاعدة يفرضها المرء على نفسه أكثر منها ضرورة تفرض نفسها عليه، وتضيف قولها: «لست أتردد إلا على ثلاثة بيوت»، كهؤلاء المؤلفين الذين يعلنون أن مسرحيتهم لن تمثّل إلا ثلاث مرات إذ هم يخشون أن لا يمكنهم بلوغ الرابعة. سواء أصدّق السيد والسيدة «فيردوران» ذلك التخييل أم لا فقد ساعدا الأميرة على إدخال ذلك في روع الخلّص. وكان أولئك متيقّنين في الآن نفسه أن الأميرة اختارت من بين آلاف المعارف الذين يتوافرون لها، آل «فيردوران» وحدهم وأن آل «فيردوران» الذين يخطب ودّهم كبار الأرستقراطيين جميعاً لم يرتضوا إلا استثناء واحداً جاء لصالح الأميرة.

ما كانت الأميرة، وهي في نظرهم تفوق إلى حدّ كبير وسطها الأصلي كي لا تحسّ بالملل فيه، ما كانت تجد بين الكثيرين ممّن كان يمكن أن تخالطهم إلا آل «فيردوران» وحدهم ممتعين، وفي المقابل لم يقبل هؤلاء، وقد صمّوا آذانهم دون محاولات كامل الأرستقراطيين الموجّهة إليهم، إلا باستثناء واحد لصالح سيدة كبيرة أوفر ذكاء من مثيلاتها هي الأميرة «شيرباتوف».

كانت الأميرة بالغة الثراء، فقد كانت لها في حفلات العروض الأولى كافة مقصورة كبيرة تصطحب إليها، بعد استئذان السيدة «فيردوران»، الخلّص وحدهم ولا أحد سواهم. كانوا يتداولون على تلك المرأة الغامضة الشاحبة التي شاخت دون بياض في شعرها، بل احمرار بالأحرى كما هي حال بعض ثمار الأسيجة المعمّرة المتكرّشة. ينظرون بإعجاب إلى اقتدارها وتواضعها في آن معاً إذ يصحبها على الدوام عضو في الأكاديمية هو «بريشو» وعالم مشهور هو «كوتار» وأول عازف بيانو آنذاك والسيد «دو شارلوس» فيما بعد، وتجهد دوماً مع ذلك في حجز متقصّد لأكثر المقصورات عتمة وتبقى في ركنها القصيّ ولا تهتمّ بأمر القاعة البتّة وتعيش حصراً للمجموعة الصغيرة التي تنسحب قبل نهاية العرض قليلاً تتبع هذه السلطانه الغريبة التي لا تخلو من جمال خجول فاتن متعب. ولئن كانت

السيدة «شيرباتوف» لا تنظر إلى القاعة وتلبث في العتمة فلمحاولة أن تنسى أن ثمة عالماً حياً تشتهيه بشغف ولا تستطيع أن تعرفه؛ فقد كانت «العصبة» المجتمعة «في مقصورة»، كانت بالنسبة إليها ما هو بالنسبة إلى بعض الحيوانات التيبّس الجثثي تقريباً في مواجهة الخطر. على أن الميل إلى الجدّة والغرابة الذي يعتمل في صدور أرباب المجتمع كان يدفعهم ربما إلى إيلاء هذه المجهولة التي تكتنفها الأسرار انتباهاً أكبر مما يولون مشاهير المقصورات الأولى الذين يُقْبِلُ كلّ إلى زيارتهم. كانوا يتخيلونها مختلفة عن الأشخاص الذين يعرفونهم، وأن ذكاء خارقاً مقروناً بطيبة تكهنيّة كانت تمسك من حولها بذاك الوسط الصغير من الناس البارزين. كانت الأميرة إن حدّثوها عن أحدهم أو قدّموه لها مرغمة على تكلّف فتور عظيم للإبقاء على وهم كرهها للعالم. بيد أن بعض الجدد كانوا يفلحون بمساندة «كوتار» أو السيدة «فيردوران» في التعرف إليها وكانت نشوتها بمعرفة أحدهم تبلغ حداً تنسى معه خرافة العزلة المتعمّدة وتصرف إلى حدّ الجنون من جهدها في سبيل الوافد الجديد. فإن كان شديد الضحالة عجب كلّ منهم. «أي أمر غريب هو أمر الأميرة التي لا تبغي التعرف بأحد وتبادر إلى استثناء واحدٍ قليل التميّز إلى هذا الحدّ!» لكنّ هذه المعارف المثرية كانت نادرة والأميرة تعيش قابعة بين الخُلّص.

كان «كوتار» يقول: «سألتقيه نهار الأربعاء في منزل آل «فيردوران» أكثر من قوله «سألتقيه نهار الثلاثاء في المجمع العلمي». كان يتحدّث كذلك عن أيام الأربعاء وكأنما عن شغل يساويه أهمية وحتمية. وكان «كوتار» على أية حال من أناس قلّ أن يسعى إليهم الآخرون ويرون واجباً ملحّاً في الذهاب إلى دعوة كما لو تشكّل أمراً، كدعوة عسكرية أو قضائية. كان لا بدّ أن تستدعيه زيارة هامّة جداً كيما يتخلّى عن آل «فيردوران»، نهار الأربعاء، والأهمية بأية حال تتعلق بصفة المريض أكثر منها بخطورة المرض، فـ«كوتار»، وإن كان رجلاً طيب القلب، كان يتخلّى عن حلاوة يوم الأربعاء لا من أجل عامل ألمّت به أزمة قلبية بل من أجل

رشح أصاب وزيراً. على أنه كان في حالة كهذه يقول لزوجته: «اعذريني لدى السيدة «فيردوران» والْفتِيها إلى أني سأصل متأخراً. ولعلّ سيادته كان استطاع انتقاء يوم آخر ليصاب بالرشح». وذات أربعاء قطعت فيه طباختهم العجوز وريد ذراعها، وكان «كوتار» ارتدى السموكن للذهاب إلى منزل آل «فيردوران» فارتفع بمنكبيه حينما سألته زوجته وجلة إن لم يكن يستطيع تضميد الجريحة وصاح بلهجة نائحة: «ولكني لا أستطيع يا «ليونتين»، فإنك ترين أني وضعت صدريّتي البيضاء. وأرسلت السيدة «كوتار»، كي لا يضيق زوجها ذرعاً بها، في طلب رئيس العيادة بالسرعة القصوى. وكان هذا الأخير قد استقلّ سيارة ليمضي بسرعة أكبر وإذ دخلت إلى الباحة لحظة كانت سيّارة «كوتار» تزمع الخروج لتقلّه إلى منزل آل «فيردوران» فقد أضاعوا خمس دقائق في التحرك إلى الأمام والخلف. وشعرت السيدة «كوتار» بضيق من أن يرى رئيس العيادة معلّمه في ثياب السهرة. وكان «كوتار» يتعالى صراخه جرّاء تأخره، وربما بسبب تبكيت ضميره ومضى بمزاج مقيت اقتضاه سائر متع نهار الأربعاء كي يفلح في تبديده.

وإن سأل أحد الزبائن «كوتار» قائلاً: «هل تلتقي أسرة «غيرمانت» أحياناً؟» كان الأستاذ يجيب بأصفى نيّة في العالم: «ربما ليس بالضبط آل «غيرمانت»، لست أدري. ولكنّي ألتقي كلّ أولئك القوم لدى أصدقاء لي. لقد سمعتم بالتأكيد عن أسرة «فيردوران» فإنهم يعرفون سائر الناس. ثم إنهم ليسوا على الأقلّ قوماً متأنّقين تهاوت إمكاناتهم، إذ لديهم ما يكافئ ذلك. فهم يقدرون بعامة أن السيدة «فيردوران» ثرية بما يبلغ خمسة وثلاثين مليوناً. خمسة وثلاثون مليوناً، ويحك! ذلك رقم لا يستهان به. وهي لذلك لا تهتمّ بما تصرف وتتكلّف. كنت تحدّثني عن الدوقة «دو غيرمانت» وسوف أقول لك الفارق: إن السيدة «فيردوران» سيدة كبيرة والدوقة «دو غيرمانت» بؤس كلها على الأرجح. وإنك تدرك الفارق، أليس كذلك؟ وفي جميع الأحوال، وسواء ذهب آل «غيرمانت» أم لا إلى منزل السيدة «فيردوران» فإنها تستقبل ما كان أفضل، من آل «شيرباتوف» و«فورشفيل» ومثلهم كثر،

أناس من أرفع المستويات وكامل طبقة النبلاء في فرنسا «ونافار» وتراني أتحدّث إليهم حديث الندّ للند. ثم إن هذا النمط من الناس يطيب له أن يبحث عن أمراء العلم»، يضيف قوله بابتسامة اعتزاز مطمئنة رسمها على شفتيه شعور بالرضى والتعالي، لا لأن العبارة التي قُصِرَتْ فيما مضى على أمثال «بوتان» و«شاركو» كانت تنطبق عليه الآن، بل لأنه يعرف أخيراً كيف يستخدم كما ينبغي أن يفعل سائر العبارات التي تقرّها العادة والتي أصبح يملك ناصيتها بعدما سبر أغوارها فترة طويلة. لذلك كان «كوتار» يضيف بعدما ذكر لي الأميرة «شيرباتوف» في عداد الأشخاص الذين تستقبلهم السيدة «فيردوان»، يضيف وهو يغمز بعينه: «فأنت ترى نمط الدار، هل تدرك ما أودّ أن أقول؟» وهو يودّ أن يقول ما كان أكثر أناقة. على أن استقبال سيدة روسية لا تعرف سوى الدوقة الكبرى «أودوكسي» كان أمراً هيناً. لكنّما كان يمكن حتى أن لا تعرفها الأميرة «شيرباتوف» دون أن يضعف الرأي الذي يحمله «كوتار» بخصوص أرفع درجات الأناقة التي يملكها منتدى آل «فيردوان» وغبطته أن يرحب به فيه. فليس الروعة التي يخيّل إلينا أن من نعاشرهم من الناس يرتدونها أكثر التصاقاً بهم من روعة شخوص المسرح الذي لا يجدي على الإطلاق أن يصرف مدير على ملابسهم مئات ألوف الفرنكات لشراء بزّات أصيلة ومجوهرات حقيقية لن تخلّف أي أثر في حين يعطي عنهم زخرفيّ كبير انطباعاً بالغنى يفوقها ألف مرة بذخاً بتسليط شعاع صنعيّ على صدار من قماش غليظ نُثرت فوقه قطع زجاجية وعلى معطف من ورق. وهذا رجل أمضى حياته بين ظهراني عظماء الأرض وما كانوا في نظره سوى أقارب مملّين أو معارف يولونك سأماً، لأن عادة اكتسبها في المهد جرّدتهم من أية مهابة في عينيه. ولكنّما كان كافياً في المقابل أن تنضاف تلك المهابة بفعل المصادفة إلى أشخاص مغمورين كأكثر ما يكون كيما يكون عاش قوم لا يحصون من أمثال «كوتار» وقد بهرتهم نساء ذوات ألقاب خيّل إليهم أن منتداهنّ كان مركز الأناقات الأرستقراطية وما كنّ حتى ما كانت عليه السيدة «دو فيلباريسيس»

وصديقاتها (أي سيدات كبيرات فقدن مكانتهنّ وما عادت الطبقة الأرستقراطية التي تربّت وإياهن تتردّد عليهن)؛ لا، أولئك اللائي شكّلت صداقتهن اعتزاز الكثيرين من الناس فما من أحد، لو نشر هؤلاء الناس مذكّراتهم وذكروا فيها أسماء هاتيك النساء وأسماء من كنّ يستقبلنهنّ، يستطيع أن يعرف هويّتهن، لا هوية السيدة «دو كامبرمير» ولا السيدة «دو غيرمانت». ولكن ما همّ! فإن من كان مثل «كوتار» يملك هكذا بارونته أو مركيزته التي هي في نظره «البارونة» أو «المركيزة» مثلما هي عند «ماريفو» البارونة التي لا يُذكر اسمها البتّة والتي لا يخطر حتى لنا البتّة أن كان لها اسم ذات يوم، ويعتقد «كوتار» أنه يجد فيها اختصاراً للأرستقراطية - التي تجهل تلك السيدة - ويزيد من اعتقاده أنه كلما كانت الألقاب موضع شكّ، كلما شغلت التيجان مكاناً أكبر على الكؤوس والفضيات وورق الرسائل والحقائب. كثيرون من أمثال «كوتار»، ممّن ظنوا أنهم قضوا حياتهم في قلب ضاحية «سان جيرمان»، إنما فتنت خيالهم الأحلام الإقطاعية أكثر من أولئك الذين سبق بالفعل أن عاشوا بين الأمراء تماماً كما هي حال التاجر الصغير الذي يذهب أحياناً يوم الأحد لزيارة أبنية من «العصور الغابرة» فإنه إنما يوافيه أكثر ما يوافيه شعور بالعصر الوسيط أحياناً في الأبنية التي تعود كلّ حجارتها إلى عصرنا والتي دُهنت قبابها على يد تلاميذ «فيوليه لودوك» باللون الأزرق ونثرت عليها نجمات ذهبية. «ستكون الأميرة في «مينفيل» وستسافر معنا. ولكنّي لن أعرّف بكم في الحال، فالأفضل أن تقوم السيدة «فيردوران» بذلك، ما لم تتّفق لي صلة وصل أخرى، فاعتبروا إذ ذاك أنها لن تفلت من يدي». وقال «سانييت» الذي تظاهر بأنه كان مضى يتفسّح: «عمَّ كنت تتحدّث؟» فقال «بريشو»: «كنت أذكر للسيد كلمة تعرفها تماماً لمن هو في نظري أول «جماعة نهاية القرن» (أقصد الثامن عشر) وهو المدعو «شارل موريس» رئيس إقطاعة «بريغور»[1]. فقد كان وعد في البداية

---

(١) تاليران.

أن يكون صحفياً ممتازاً، ولكنه انتهى نهاية سيئة، أعني أنه أصبح وزيراً! فإن في الحياة تقلّبات تسوء المرء. وكان على أية حال سياسياً قليل التحرّج ولا يربكه، بما يبدي من صنوف تعالي السيد الكبير الأصيل، أن يعمل في ساعات فراغه دون أن يجني من ذلك شيئاً، وهو ما ينبغي التنويه به إذ مات وهو يلبس لبوس يسار الوسط».

في «سان بيير ديزيف» صعدت فتاة رائعة لم تكن لسوء الحظ من الجماعة الصغيرة. وما كنت أستطيع صرف النظر عن بشرتها التي بلون زهر المانيوليا وعينيها السوداوين والهندسة الرائعة المديدة لقالب جسمها. وما إن انقضت ثانية حتى ودّت فتح زجاج النافذة فالطقس كان حارّاً بعض الشيء في المقصورة وإذ لم تشأ أن تستأذن الجميع وكنت الوحيد الذي لا يرتدي معطفاً، فقد قالت لي بنبرة سريعة ريّانة ضاحكة: «ليس يزعجك الهواء يا سيّد؟» وددت لو أقول لها: «تعالي معنا إلى منزل آل «فيردوران»، أو «أخبريني عن اسمك وعنوانك». فأجبت قائلاً: «لا، ليس يزعجني الهواء يا آنسة». وقالت بعد ذلك، ودون أن تغادر مكانها: «والدخان، أليس يزعج أصدقاءك؟» وأشعلت لفافة. وفي المحطة الثالثة نزلت بقفزة واحدة. وفي الغد سألت «ألبيرتين» من يمكن أن تكون. فإني، إذ ظننت بغباء أن المرء لا يحبّ سوى أمر واحد، إذ أخذتني الغيرة من موقف «ألبيرتين» من «روبير»، كنت مطمئن النفس بخصوص النساء. قالت «ألبيرتين»، وأظنها فعلت بصدق كبير، إنها لا تعلم، فصرخت قائلاً: «كم أودّ لقاءها ثانية!» فتجيب «ألبيرتين»: «اطمئن بالاً، فالناس يلتقون ثانية على الدوام». وكانت على خطأ في هذه الحالة الخاصة، فما عدت التقيت ولا عرفت هويّة الفتاة ذات السيجارة. وسوف نرى لاحقاً لماذا اضطررت أن أكفّ فترة طويلة عن البحث عنها. ولكنّي لم أنسها، وكثيراً ما يتّفق لي إذ أفكر فيها أن تتملكني رغبة جامحة. ولكن عودات الرغبة هذه تضطرنا إلى التفكير بأنه لا بدّ لنا، إن أردنا التقاء هاتيك الفتيات ثانية بالمتعة ذاتها، من العودة أيضاً إلى السنة التي تلتها مذ ذاك عشر أخريات خبت في

أثنائها نضارة الفتاة. فإننا نستطيع أحياناً التقاء شخص ثانية، لا أن نلغي الزمن، وكلّ ذلك إلى اليوم اللامتوقَّع الحزين كليلة من ليالي الشتاء حيث لا نبحث من بعد عن تلك الفتاة ولا عن أخرى غيرها، وحيث يبلغ بك حتى أن تخيفك اللقيا. فإنك لا تحسّ من بعد بما يكفي من الجاذب لتُمتع ومن القوة لتحبّ. وليس يعني ذلك أننا عاجزون بالمعنى الحقيقي للكلمة. فإنه بشأن الحبّ ربما أحببنا أكثر من أي وقت مضى. ولكننا نحسّ أنها عملية تتجاوز كثيراً النزر اليسير مما نحتفظ به من قوى. فإن الراحة الأبدية قد وضعت فواصل زمنية لا تستطيع فيها الخروج أو الكلام. وإن وضع قدمك على الدرجة المناسبة نجاح كمثل أن لا تخطئ القفزة الخطيرة. فإن تراك في حالتك هذه الفتاة التي تحبّ حتى إن احتفظت بوجه شبابك وبكامل شعورك الشقراء! ليس يستطيع المرء من بعد تحمّل تعب مماشاة الشباب. وليكن ما يكون إن الشهوة الجنسية تضاعفت عوضاً عن أن تنطفئ فإننا نجيء لها بامرأة لا تهتمّ بأن نحسن في عينيها ولن تقاسمنا فراشنا إلا ليلة واحدة ولن نعود فنلقاها في يوم.

وقال «كوتار»: «لا بدّ أنهم بعد بدون أخبار عن عازف الكمان». فقد كان حدث الساعة في العشيرة الصغيرة هجر عازف الكمان المفضّل لدى السيدة «فيردوران». وكان يمضي خدمته العسكرية بالقرب من «دونسيير» ويجيء ثلاث مرات في الأسبوع للعشاء في «لا راسبلبير» إذ هو مأذون حتى منتصف الليل. لكنّ الخُلّص لم يفلحوا للمرة الأولى قبل البارحة في اكتشافه في الحافلة، وافترضوا أنه لم يلحق بها. وعبثاً أرسلت السيدة «فيردوران» من ينتظر الحافلة التالية ثم الأخيرة وعادت العربة فارغة. «لقد أودع السجن بالتأكيد، فليس من تفسير آخر لهربه. وأنت تدري، ويحك، أنه يكفي مع هؤلاء الفتيان في مهنة العسكر مساعد واحد شكس». وقال «بريشو»: «سوف يزيد من جرح كرامة السيدة «فيردوران»، إن تخلّى هذا المساء أيضاً، أنّ مضيفتنا المحبوبة تستقبل بالضبط على العشاء وللمرة الأولى الجيران الذين أجّروها «لا راسبلبير»، المركيز والمركيزة «دو

كامبرمير». وصاح «كوتار» قائلاً: «المركيز والمركيزة «دو كامبرمير»، في هذا المساء! ولكنّي ما علمت عن ذلك شيئاً. كنت أعلم بالطبع مثلكم جميعاً أنهما لا بدّ آتيان في يوم ولكنّي ما علمت أن الأمر قريب إلى هذا الحدّ». وقال وهو يلتفت صوبي: «يا عجبي، ما الذي قلته لك: الأميرة «شيرباتوف» والمركيز والمركيزة «دو كامبرمير». وبعدما ردّد تلك الأسماء وهو يهدهد النفس بأنغامها قال لي: «ترى أننا نبذل في ذلك جهوداً طيبة. ومهما يكن فإنك في بداياتك تصيب الهدف في الصميم. وسوف تتوفّر هنا مجموعة استثنائية في تألّقها». وأضاف وهو يستدير نحو «بريشو»: «لا بدّ أن المعلّمة تستشيط غيظاً وقد آن الأوان لنُقبل ونمدّ لها يد العون». فمنذ أن أقامت السيدة «فيردوران» في «لا راسبليير» أخذت تتظاهر إزاء الخُلّص أنها بالفعل ملزمة ومغتمّة من جرّاء دعوة أصحاب المنزل مرة واحدة. فقد تتوافر لها هكذا شروط أفضل في السنة التالية، تقول، وهي لا تقدم على الأمر إلا لمصلحة. ولكنّها تزعم أن بها هلعاً عظيماً وتتصوّر وحشاً في هذا العشاء برفقة أناس ليسوا في المجموعة الصغيرة إلى حدّ كانت ترجئ معه دوماً ذاك العشاء. وكان إلى ذلك يبعث الذعر في صدرها للأسباب التي كانت تعلنها وهي تبالغ فيها، إن هو يفتنها من جانب آخر لأسباب سنوبية تفضل السكوت عنها. لقد كانت إذاً نصف صادقة وتظن العشيرة الصغيرة شيئاً فريداً في العالم وواحدة من تلك المجموعات التي يقتضي تشكيل مثيلتها قروناً إلى حدّ أنها كانت ترتجف لفكرة أن يلجأ أناس من الريف يجهلون الرباعية و«الأساتذة» ولا يسعهم القيام بالقسم الخاص بهم في «تخت» المحادثة العامة ويستطيعون بحضورهم إلى منزل آل «فيردوران» تخريب أحد أيام الأربعاء الشهيرة، هذه الروائع التي لا تضاهى والسريعة العطب الشبيهة بزجاجيّات البندقية التي تكفي نغمة ناشزة لتحطيمها. وكان السيد «فيردوران» قد قال: «لا بدّ أن يكونوا إلى ذلك أكثر الناس مناهضة لـ«دريفوس» وحباً للجيش». وأجابت السيدة «فيردوران»: «أما بهذا الخصوص فالأمر عندي سواء، فإنهم يتحدّثون عن تلك القصة منذ فترة

ليست بالقصيرة»، ولعلّها، وهي صادقة في مناصرتها «دريفوس»، لعلّها ودّت أن تجد في رجحان منتداها الدريفوسيّ النزعة مكافأة مجتمعية. إلا أن الدريفوسية كانت لها الغلبة على الصعيد السياسي لا على الصعيد المجتمعي.

فقد لبث «لابوري» و«ريناك» و«بيكار» و«زولا» في نظر رجال المجتمع من أصناف الخونة الذين لا يمكن إلا أن يبعدوهم عن النواة الصغيرة. لذلك كانت السيدة «فيردوران» حريصة على العودة إلى الفن بعد هذه الغزوة في دنيا السياسة. ومن ناحية أخرى ألم يكن «داندي» و«دوبوسي» في موقع غير مريح بالنسبة إلى القضية؟ فقالت: «بخصوص القضية، ما علينا إلا أن نضعهم إلى جانب «بريشو» (وكان الجامعي هو الوحيد بين الخلّص الذي انحاز إلى جانب ضباط الأركان، وقد خفض ذلك كثيراً من مكانته في تقدير السيدة «فيردوران»). فلسنا ملزمين بالتحدث أبداً عن قضية «دريفوس». لا، الحقيقة أن آل «كامبرمير» يزعجونني». أما بالنسبة إلى الخلّص، وهم تستثيرهم رغبتهم المكتومة في التعرّف إلى آل «كامبرمير» بقدر ما يخدعهم الانزعاج المتكلف الذي تقول السيدة «فيردوران» إنها تعاني منه في استقبالهم، فكانوا يردّدون كلّ يوم في حديثهم إليها الحجج الرديئة التي كانت تقدّمها هي في صالح تلك الدعوة ويجهدون في جعلها دافعة لا تردّ. كان «كوتار» يردّد قوله: «احزمي أمرك نهائياً تحصلي على تنازلات في الإيجار، فهم يدفعون للبستاني وتتصرّفين أنت بالمرج. إن ذلك كله يساوي انزعاجك سهرة واحدة. وما حديثي في ذلك إلا من أجلك»، يضيف قوله، مع أن قلبه خفق ذات مرة لاقى فيها في الطريق وهو داخل عربة السيدة «فيردوران» عربة السيدة العجوز «دو كامبرمير»، وأنه على وجه الخصوص أُذلّ في نظر مستخدمي السكة الحديدية حينما كان يقف في المحطة بالقرب من المركيز. ولمّا كانت أسرة «دو كامبرمير» تعيش بعيداً جداً عن الحركة المجتمعية كيما يمكنها حتى الارتياب بأن بعض النساء الأنيقات كنّ يتحدّثن عن السيدة

«فيردوران» بشيء من الاعتبار، فقد كانوا يتصوّرون أن هذه السيدة امرأة لا يمكنها أن تعرف غير المتشردين وربّما لم تكن حتى متزوجة زواجاً شرعياً وأنها في ما يخص الناس «الكريمي المحتد» لن تلتقي غيرهم في يوم. ولم يسلّموا بأمر تناول العشاء عندها إلا ليكونوا على علاقة طيبة بمستأجرة يأملون عودتها لمواسم كثيرة، ولا سيما بعدما علموا في الشهر الفائت أنها ورثت الكثير من الملايين. وكانوا يستعدون لليوم المحتوم بصمت ودون مزحات قليلة الذوق. أما الخلّص فما عادوا يأملون أن يحلّ في يوم لكثرة ما سبق أن حدّدت السيدة «فيردوران» في حضرتهم تاريخه الذي تغيره دوماً. كانت تلك القرارات الكاذبة تهدف لا إلى التظاهر بالإزعاج الذي يسببه لها هذا العشاء فحسب، بل إلى انتظار محيّر تفرضه على أعضاء المجموعة الصغيرة الذين يقطنون في الجوار ويميلون أحياناً إلى التخلي عنها. وما ذلك لأن «المعلّمة» حزرت أن «اليوم العظيم» كان يمتعهم بقدر ما يمتعها بل لأنها كان يمكن، بعدما أقنعتهم بأن ذاك العشاء كان في نظرها من أشدّ أعمال السخرة، أن تستنهض إخلاصهم. «لن تدعوني وحدي في مواجهة هؤلاء الصينيين! ينبغي على العكس أن نكون كثيرين لتحمّل الملل. لن يسعنا بالطبع التحدث عن شيء يشوقنا. ما باليد حيلة! سوف يكون يوم أربعاء فاشل».

وأجاب «بريشو» موجّهاً حديثه إليّ: «بالفعل، أعتقد أن السيدة «فيردوران»، وهي ذكية جداً وتعد أيام أربعائها بأناقة عظيمة، لم تكن تحرص كثيراً على استقبال هؤلاء النبلاء الريفيين الذين من سلالة عريقة ولكنّهم لا نباهة لديهم. فلم تستطع أن تقرّر دعوة المركيزة الوريثة فاكتفت بالابن والكنّة. وقال «كوتار» بابتسامة ظن أنه يجدر به أن يضمّنها شيئاً من المجون والرقّة المتكلّفة على الرغم من أنه يجهل إن كانت السيدة «دو كامبرمير» جميلة أم لا: «ماذا! سنلتقي المركيزة «دو كامبرمير»؟ «ولكنّ لقب المركيزة كان يوقظ في نفسه صوراً رائعة غرامية. وقال «سكي» الذي كان التقاها مرة كان يتنزه فيها مع السيدة «فيردوران»: «آه! إني أعرفها».

وقال الدكتور «لست تعرفها بمعنى الكتاب المقدس»؟ قال وهو يرسل نظرة مشبوهة من تحت نظارته، وكانت تلك إحدى مزحاته المفضّلة وقال لي «سكي»: «إنها ذكية». وعاد يقول إذ يرى أني لا أتفوّه بكلمة ويشدّد وهو يبتسم على كلّ كلمة: «بالطبع هي ذكية وليست ذكية وتفتقر إلى التعليم وهي طائشة ولكنّها تتمتع بغريزة الأشياء الجميلة. إنها تسكت ولكنّها لن تفوه بحماقة في يوم. ثم إن لها لون بشرة جميلاً». وأضاف قوله وهو يطبق عينيه نصف إطباقة كما لو ينظر إليها وهي تقف إزاءه وقفة الجليس: «ولعلّه رسم كان من المثير إنجازه». ولما كنت أفكر بما يناقض تماماً ما كان «سكي» يعبّر عنه بفيض من التدرجات الدقيقة فقد اكتفيت بقولي إنها شقيقة مهندس مرموق جداً يدعى السيد «لوغراندان». وقال لي «بريشو»: «ها أنت ترى، سوف يعرّفونك بامرأة جميلة وليس يعلم أحد ما قد ينجم عن ذلك. فلم تكن «كليوباترا» حتى سيدة كبيرة، بل السيدة العادية، السيدة الهيّنة الطائشة المزعجة التي نجدها لدى «ميلاك»، وهيا انظر إلى النتائج، لا بالنسبة إلى ذاك المغفل «أنطونيوس» فحسب، بل على صعيد العالم القديم». فأجبت: «سبق أن عُرِّفْت بالسيدة «دو كامبرمير».» - «فستكون إذاً في بلاد تعرفها». وأجبت قائلاً: «سوف يزيد من سعادتي بلقائها أنها كانت وعدتني بكتاب لكاهن «كومبريه» السابق حول أسماء الأماكن في هذه المنطقة وسوف يسعني أن أذكّرها بما وعدت. وإني أهتمّ بهذا الكاهن وبالاشتقاقات والتأثيلات. وأجاب «بريشو»: «لا تبالغ في الوثوق بتلك التي يشير إليها. إن الكتاب الذي في «لا راسبليير» والذي تلهّيت بتقليب صفحاته لا يساوي شيئاً ذا قيمة وهو محشوّ بالأخطاء، وسوف أعطيك مثالاً عن ذلك. فكلمة «bricq» تدخل في تكوين عدد من أسماء الأمكنة في المناطق المحيطة بنا. وقد خطرت لرجل الدين الطيّب فكرة غريبة إلى حدّ ما قوامها أنها مشتقّة من «briga» وتعني: مُرْتَفَع ومكان محصّن. وهو يراها قبلاً في الأقوام السيلتيّة: «لاتوبريج» و«نيميتوبريج»، إلخ.، ويلاحقها حتى اسماء مثل «بريان» و«بريون»، إلخ. وتعود إلى المنطقة التي

يسرّنا اجتيازها الآن برفقتك، فـ«بريكبوسك» تعني عندئذ حرج المرتفع و«بريكفيل» مسكن المرتفع «وبريكبيك» التي سنتوقف فيها بعد قليل قبل الوصول إلى «مينفيل» المرتفع قرب الساقية. وليس من ذلك شيء إطلاقاً من جرّاء أن «bricq» هي الكلمة الزوجية القديمة التي تعني بكل بساطة «جسر». وكذلك «fleur» التي يجهد مَحْميّ السيدة «دو كامبرمير» جهداً عظيماً في إلحاقها باللفظات الاسكندنافية «floi» و«flo»، تارة وطوراً بالإيرلندية «ae» و«aer»، فهي على العكس كلمة «fiord» الدانمركية وتعني «مرفأ» لا ريب في ذلك. وكذلك يعتقد الكاهن الطيّب أن محطة «سان مارتان لو فيتو» التي تجاور «لا راسبلبير» تعني «سان مارتان لو فيو» (Vetus)[1]. والأكيد أن كلمة «Vieux» لعبت دوراً كبيراً في أسماء بلدان هذه المنطقة. وكلمة «Vieux» (مسنّ - قديم) مشتقة بعامة من «Vadum» وتعني مخاضة، مثلما هو المكان المسمّى «ليه فيو»، وهو ما كان الإنكليز يدعونه «ford» (أكسفورد، هيرفورد). ولكن «فيو» (vieux) مشتقة في هذه الحالة الخاصة لا من (vetus) بل من vastatus وتعني المكان الخرب العاري. ولديك على مقربة من هنا «سوتّفاست» (Sottvast) أي «خربة سيتولد» و«بريلفاست» أي «خربة بيرولد». وإن ما يزيد يقيني من خطأ الكاهن أن «سان مارتان لو فيو» سمّيت فيما مضى «سان مارتان دو غاست» وحتى «سان مارتان دو تيرغات». ولكنّ حرفَي «v» و«g» في هذه الكلمات حرف واحد، فيقولون خرّب وكذلك أتلف، والأرض البور والمقفرة تحمل ذاك المعنى نفسه (وتنحدر من الألمانية القديمة wastinna)... و«تيرغات» هي إذن «تيرافاستا». أما بخصوص «سان مارس»، وهي بالأمس «سان ميرد»[2] (وملعون كلّ من ساء ظنه)، و«سان

---

(١) أي القديم من vetus فيما الأصل le vêtu هي من اللاتينية Vastatus وتعني خراب - قفر.

(٢) «سان ميرد»: القسم الأخير من الكلمة يعني خـ. . . في العربية، وهو ما يفسر الملاحظة اللاحقة.

ميداردوس»، وهي تارة «سان ميدار» وطوراً «سان مارد» و«سان مارك» و«سانك مارس» وحتى «دمّاس». ويجب أن لا يغيب عنا على أية حال أن أمكنة قريبة جداً من هنا تحمل اسم «مارس» هذا إنما تثبت فحسب أصلاً وثنياً (إله الحرب مارس) ظل حياً في هذه المنطقة، ولكنّ الرجل القديس يرفض الإقرار بالأمر. إن المرتفعات المكرّسة للآلهة كثيرة بوجه الخصوص، كجبل «جوبيتير» مثلاً (جومون Jeumont). أما كاهنك فلا يريد أن يرى شيئاً من هذا القبيل وفي مقابل ذلك نرى في كل مكان خلّفت المسيحية فيه آثاراً أنها تخفى عليه، لقد مدّ رحلته حتى «لوكتودي»، وهواسم غريب، يقول، فيما هو «لوكس سانكتي توديني» (أي بيت القديس تودينوس) ثم إنه إلى ذلك لم يكشف في لفظه «سامّرْكول» اسم «سانكتوس مارسياليس» (القدّيس مارس).» وأردف «بريشو» يقول وقد لاحظ أنه يثير اهتمامي: «إن كاهنك يرد الكلمات المنتهية بـ«hon, home, holm» إلى كلمة «holl» (hullus) التي تعني «رابية» فيما هي مشتقة من النروجية «holm» التي تعني جزيرة، وتتعرفها تماماً في «ستوكهولم» وهي كثيرة الانتشار في هذه المنطقة: «لاهولم»، «أنغوهوم»، «تاهوم»، «روبهوم»، «نيهوم»، «كيتّهو»، إلخ.». وقد ذكّرتني هذه الأسماء باليوم الذي اعتزمت فيه «ألبيرتين» الذهاب إلى «امفرفيل لابيغو» (نقلاً عن اسم اثنين من أربابها المتعاقبين، على حدّ ما قاله لي «بريشو») واقترحت بعدها عليّ أن نتناول العشاء معاً في «روبهوم». أما «مونمارتان» فكنا على وشك المرور فيها بعد وقت قصير. وسألت قائلاً: «أليست «ينهوم» على مقربة من «كاركتوي» و«كليتور»؟» - «تماماً، «نيهوم» هي «هولم»، أي جزيرة أو شبه جزية الفيكونت «نيجيل» الذي بقي اسمه أيضاً في «نيفيل». أما «كاركتوي» و«كليتور» اللتين تحدّثني عنهما فمناسبة تسمح لمحميّ السيدة «دو كامبرمير» بارتكاب أخطاء أخرى. وهو لا شكّ يرى تماماً أن «كارك» تعني كنيسة وهي اللفظة الألمانية «كيرشه» (Kirsche). وأنت تعرف «كيركفيل» و«كاركبو»، ناهيك عن دانكيرك»، فإنه من الأفضل لنا إذ ذاك أن نتوقف

عند كلمة «دون» (dun) المشهورة التي كانت تعني للسلتيّين «المُرْتَفَع»، وهذا ما أنت واجده في كلّ أنحاء فرنسا. وكاهنك هذا يقف مبهوراً أمام «دونفيل». ولكنّه لقي في مقاطعة «أور إي لوار» «شاتودون»، وفي مقاطعة الـ«شير» «دون لو روا»، و«دونو» في الـ«سارت»، و«دون» في الـ«أرييج» و«دون ليه بلاس» في الـ«نييفر»، إلخ. ، إلخ. وكلمة «دون» هذه تدفعه إلى خطأ غريب في ما يتصل بـ«دوفيل» التي سننزل فيها وحيث تنتظرنا عربات السيدة «فيردوران» المريحة. «دوفيل»، يقول، من اللاتينية «دونفيلا». و«دوفيل» تقع بالفعل على أسفل مرتفعات كبيرة. وكاهنك العارف بكل شيء يحسّ مع ذلك أنه ارتكب خطأً فاحشاً. فإنه قرأ في سجل كنسي قديم اسم «دومفيلا»، فتراجع آنذاك، وإذا «دوفيل» في نظره إقطاعة لرئيس كهنة (domino abbati) جبل «سان ميشيل». ويُسْعَدُ بذلك، وهو أمر غريب إلى حدّ ما نفكر بالحياة الفاضحة التي كانوا يعيشونها في جبل «سان ميشيل»، وقد لا يكون أكثر غرابة من أن ملك الدانمارك سيد هذا الشاطئ بكامله حيث كان يدعو إلى ممارسة عبادة «أودين»[1] أكثر منه عبادة المسيح. ثم إن افتراض تحول حرف «n» إلى حرف «u» لا يصدمني ويقتضي تغيراً أقل من تغير «ليون» الصحيح تماماً فهي بدورها مشتقة من «دون» (Lugdunum). ولكنّ الكاهن مخطئ في النهاية، فـ«دوفيل» لم تكن في يوم «دونفيل» بل «دُوفيل» (Eudonis villa) أي قرية «أودْ». ذلك أن «دوفيل» كانت تدعى فيما مضى «إيسكالكليف»، أي درج المنحدر. وفي حوالي ١٢٣٣ مضى «أود لو بوتيبيه» سيد «إيسكالكليف» إلى الأراضي المقدّسة في حين الرحيل سلّم الكنيسة إلى دير «بلانشلاند» وكان تبادل في الخدمات المؤداة فاتخذت القرية اسمه الذي منه «دوفيل» الحالية، ولكنّي أضيف أن علم التسميات المكانية الذي أنا جاهل أشدّ الجهل فيه ليس علماً دقيقاً، فلو لم تتوافر لنا هذه الشهادة التاريخية فربما أمكن اشتقاق

---

(١) إله الأساطير الإسكندنافية.

«دوفيل» من «أوفيل»، يعني المياه. فالصيغ التي ترد بـ«ai» (مثل «إيغ مورت» – Aigues-Mortes) من اللاتينية «aqua» (ماء) كثيراً ما تستحيل «eu» و«ou». والحقيقة أنه كان ثمة عيون ماء مشهورة قريبة جداً من «دوفيل» وتتصور أن الكاهن كان شديد الغبطة أنْ وجد هناك أثراً مسيحياً على الرغم مما يبدو من أن المنطقة كانت صعبة على صعيد التبشير إذ انبغى أن يعيد الكرة فيها على التوالي القديس «أورسال» والقديس «غوفروا» والقديس «بارسنور» والقديس «لوران دو بريفدان» الذي أوكل المهمة أخيراً إلى رهبان «بوبيك». لكنّ المؤلف يخطئ بشأن «توي» (tuit)، فيرى فيها أحد أشكال «توفت» (toft)، بمعنى كوخ، كما هي حال «كريكتو» و«إيكتو«و«إيفتو»، فيما هي «تفيت» (thveit) وتعني «إعشاب» أو «استصلاح الأراضي» كما هو شأن «براكتْوِي» و«لو تْوِي» و«رينتْوِي»، إلخ. وإن كان أيضاً يتعرف في «كليتور» الكلمة النورماندية «تورب» (thorp) التي تعني «قرية» فإنه يريد اشتقاق القسم الأول من الاسم من «كليفوس» (clivus) التي تعني «منحدر» فيما هو مشتق من «كليف» (cliff) وتعني «صخرة» لكن أكثر عثراته فداحة ناجم أقل ما ينجم عن جهله منه عن أحكامه المسبقة. أفينبغي لنا، مهما كنا فرنسيين في الصميم، إنكار البديهات وأن نعتبر أن القديس «لوران آن بريه» هو الكاهن الروماني الذائع الصيت، فيما الأمر أمر القديس «لورانس أوتول» رئيس أساقفة «دوبلن»؟ على أن الرأي الديني القبْلي الذي يحمله صديقك إنما يوقعه، أكثر من شعوره الوطني، في أفدح الأخطاء. من ذلك أن ثمة موقعَي «مونمارتان» في مكان غير بعيد عن مضيفنا في «لا راسبليير»، «مونمارتان سورمير» و«موغارتان آن غريني». أما في ما يخصّ «غريني» فلم يرتكب كاهننا الطيّب خطأ، إذ رأى بوضوح أن «غريني»، وهي في اللاتينية «غرانيا» وفي اليونانية «غريني»، إنما تعني مستنقعات، سبخات؛ وكم «كريسماس» و«كروين» و«غرينفيل» و«لانغرون» يمكننا الاستشهاد بها؟ ولكن عالم اللسانيات المزعوم مصمّم حكماً، بخصوص «مونمارتان» أن الأمر يتعلق

برعيات[1] مكرّسة للقديس «مارتان». وهو يستند في ذلك إلى أن القديس شفيعُها، ولكنّه لا ينتبه إلى أن الأمر لم يؤخذ على هذا المحمل إلا بعد التسمية، أم تراه تعميه كراهيته للوثنية فلا يريد أن يتبين أنهم كانوا قالوا «مون سان مارتان» مثلما يقولون «مون سان ميشيل» لو أن الأمر يدور حول «سان مارتان»، فيما ينطبق اسم «مونمارتان» من وجهة نظر أقرب إلى الوثنية على معابد مكرّسة للإله «مارس»، وهي معابد لم يبق منها بين أيدينا، والحق يقال، أطلالاً أخرى، ولكن وجود معسكرات رومانية ضخمة لا يرقى إليها الشكّ في الجوار تجعلها أكثر معقولية حتى بدون اسم «مونمارتان» الذي يقطع الشك باليقين. ترى إذاً أن الكتاب الصغير الذي ستجده في «لا راسبلبير» ليس من أفضلها صنعة». ورددت بأن الكاهن في «كومبريه» كثيراً ما علّمنا اشتقاقات مثيرة. «من المرجح أنه كان أفضل على أرضه فلا بدّ أن الرحلة في «نورمانديا» ضيّعته». فأضفت قائلاً: «ولم تشفه، فقد كان جاء إليها موهن الأعصاب ورحل عنها مصاباً بالرثية». - «آه: إنما الذنب ذنب وهن الأعصاب فقد وقع من وهن الأعصاب في الفيلولوجيا (فقه اللغة)، كما لعلّ معلّمي الطيّب «بوكلان»[2] كان قال. ولكن قل لي يا «كوتار» أيخيّل إليك أن وهن الأعصاب يمكن أن يؤثر تأثيراً سيئاً في الفيلولوجيا، والفيلولوجيا يمكن أن تخلف أثراً مهدئاً في وهن الأعصاب وأن يقود الشفاء من وهن الأعصاب إلى الرثية»؟ - «بالضبط، فإن الرثية ووهن الأعصاب شكلان بديلان من التهاب المفاصل العصبي، ويمكن المرور من الواحد إلى الآخر بظاهرة الانتقال». وقال «بريشو»: «يتحدث الأستاذ البارز، سامحني الله، بفرنسية تخالطها اللاتينية واليونانية من مثل ما كان استطاع السيد «بورغون» الموليريّ الذكر نفسه أن يفعل! إليّ، يا عمي، بل يا ناقدنا

(١) آثرنا «رعيات» على «رعايا» للتمييز ونقصد بها مجموعة المؤمنين التي يخدمها كاهن أو كهنة في كنيسة ما.
(٢) هو المسرحي الهزلي «موليير».

الوطني «سارسيه»[1]. . . » ولكنّه لم يتمكن من إنهاء الجملة، إذ كان الأستاذ قد انتفض وأطلق صيحة مدوّية: «يا لعنة الـ. . ما. . ، يقول وهو ينتقل أخيراً إلى لغة واضحة النطق، لقد تجاوزنا «مينفيل» (هيه! هيه!) وحتى «رينفيل». » وكان لاحظ منذ قليل أن القطار توقف في «سان مارس لوفيو» حيث نزل المسافرون جميعهم تقريباً. «لا بدّ أنهم لم يتجاوزوا الموقف مع ذلك. ولعلّنا لم ننتبه ونحن في حديثنا عن آل «كامبرمير». » - «اسمعني يا «سكي»، مهلاً، فسأقول لك «شيئاً يسترك»، يقول «كوتار» الذي كان أعجب بهذه العبارة المستخدمة في الأوساط الطبية. «لا بدّ أن الأميرة في القطار ولعلّها لم تشاهدنا وصعدت إلى مقصورة أخرى. هيا نبحث عنها، والمهم أن لا يفضي الأمر إلى الفوضى»! واصطحبنا جميعاً للبحث عن الأميرة «شيرباتوف». ولقيها في زاوية عربة فارغة تقرأ «**مجلة العالَمَيْن**». فقد كانت تعوّدت منذ سنوات طويلة، مخافة جفاء الاستقبال، أن تبقى في مكانها، وتلبث في ركنها في الحياة وفي القطار على حدّ سواء، وأن تنظر أن يُقرئوها السلام كي تمدّ يدها. واستمرت في قراءتها حينما دخل الخُلّص إلى عربتها. وتعرّفتها في الحال؛ تلك المراة التي يحتمل أن تكون فقدت مركزها، ولكنّها مع ذلك من منشأ رفيع، وهي في جميع الأحوال لؤلؤة منتدى من طراز منتدى آل «فيردوران»، إنما كانت هي السيدة التي ظننت قبل البارحة أنها قد تكون مديرة محلّ عمومي. وأصبحت شخصيتها الاجتماعية المشكوك فيها إلى أبعد حدّ واضحة لعيني في الحال حينما عرفت اسمها، شأننا حينما نعرف أخيراً، بعدما بذلنا من جهد انصبّ على أحجية، الكلمة التي توضح كلّ ما ظلّ غامضاً والتي هي الاسم في ما يخص الأشخاص. وإن إطلاعنا بعد الغد على اسم الشخص الذي سافرنا إلى جانبه في القطار دون أن نفلح في العثور على مركزه الاجتماعي مفاجأة أبعث للسرور من أن نقرأ في عدد جديد من إحدى المجلات كلمة السر المقترحة في العدد

(١) أحد أشهر النقاد المسرحيين في النصف الثاني من القرن ١٩.

السابق. إن المطاعم الكبرى والكازينوهات وقطارات المناطق هي المتحف الذي يضمّ عائلات هذه الألغاز الاجتماعية. «ربما فاتنا لقاؤك في «مينفيل» أيتها الأميرة، فهل تسمحين لنا بالجلوس في مقصورتك»؟ فقالت الأميرة: «اجل، يا له سؤال!» وإذ سمعت «كوتار» يكلّمها رفعت حينذاك فقط عن المجلة التي تقرأها عينين كانتا، شأن عيني السيد «دو شارلوس» وإن على وداعة أوفر، تبصران تماماً الأشخاص الذين تتظاهر بأنها لا تلاحظ وجودهم. أما «كوتار» الذي فكر في أن دعوتي مع أسرة «كامبرمير» كانت بالنسبة إليّ توصية كافية فقد قرّر بعد حين أن يقدّمني للأميرة التي انحنت بتأدّب كبير ولكنّما بدا أنها تسمع اسمي للمرة الأولى. وصاح الدكتور قائلاً: «يا للعنة، لقد نسيت أمرأتي تبديل أزرار صدريّتي البيضاء. آه: يا للنساء، إنهن لا يفكّرن في شيء». ثم قال لي: «لا تتزوج البتّة، فأنت ترى». ولمّا كانت تلك إحدى المزحات التي يعتبرها مناسبة حينما لا يحضرك شيء تقوله، فقد نظر من طرف عينه إلى الأميرة والخلّص الآخرين الذين ابتسموا، إذ هو أستاذ وعضو أكاديمية، وهم يعجبون لظرافة طباعه وعدم غطرسته. وأعلمتنا الأميرة أنهم عثروا على عازف الكمان الشاب. فقد لازم الفراش بالأمس جرّاء صداع نصفي ولكنه سيجيء هذا المساء ويصطحب معه صديقاً قديماً لوالده التقاه في «دونسيير». لقد علمت ذلك عن طريق السيدة «فيردوران» التي تناولت إفطارها معها في الصباح، تقول لنا بنبرة سريعة تسمع فيها دحرجة حروف «الراء» الروسية تدور بغمغمة لطيفة في أقصى الحنجرة كما لو كانت حروف «لام» لا «راء». وقال «كوتار» للأميرة: «آه! لقد تناولتِ إفطارك هذا الصباح معها»، ولكنّه إذ يقول ينظر إليّ لأن تلك الأقوال كانت ترمي إلى إبراز مدى حميمية علاقة الأميرة «بالمعلمة». «إنك لمخلصة أنت!» - «أجل، إني أحبّ هذا المنتدى الصغيل[1] الذكي الظريف غيل السيّئ البسيط جداً غيل المتحذلق وحيث

(١) الأميرة تلفظ «الراء» أقرب إلى «اللام».

يمتلئ الناس ظلفاً حتى أطراف أظافرهم». - «يا للعنة! لا بد أني أضعت بطاقتي، فإني لا أجدها»، يقول «كوتار» صارخاً دون أن يداخله قلق كبير. فقد كان يعلم أن الموظف في «دوفيل»، حيث ستنتظرنا عربتان، سوف يسمح له بالمرور دون بطاقة وسوف ينحني انحناءة أكبر محيّياً بقبّعته كي يوفّر بهذه التحية تفسيراً لتساهله قوامه أنه تعرّف في شخص «كوتار» أحد روّاد منزل آل «فيرودوران». وخلص الدكتور إلى القول: «لن أوضع في قاعة الشرطة بسبب ذلك». وسألت «بريشو»: «كنت تقول يا سيد إن ثمة على مقربة من هنا مياهاً مشهورة، فكيف يعلمون ذلك؟» - «إن اسم المحطة التالية، من بين أدلّة أخرى كثيرة، يشهد بذلك، فإنها تدعى «فيرفاش». - «لست أفهم ما تعنيه»، تقول الأميرة مغمغمة باللهجة التي لعلّها كانت قالت بها مُلاطِفة: «أليس أنه يزعجنا؟» - «ولكن «فيرفاش» أيتها الأميرة تعني المياه الساخنة، (fervidae aquae)[1] . . . وأردف «بريشو» يقول: «نسيت بخصوص عازف الكمان الشاب أن أنقل إليك الخبر الهام يا «كوتار»؛ فهل جاءك أن صديقنا المسكين «دوشامبر»، عازف البيانو السابق المفضّل لدى السيدة «فيردوران» قد قضى نحبه منذ فترة وجيزة؟ إنه لأمر مخيف». فأجاب «كوتار»: «كان بعد فتيّاً، ولكن لا بدّ أنه كان يعاني من كبده، ولا بد أن ثمة أمراً غير حميد في هذا الجانب، فقد كان وجهه متعباً منذ بعض الوقت». وقال «بريشو»: «لكنه لم يكن فتيّاً إلى هذا الحدّ، فمنذ أن كان «ايلستير» و«سوان» يرتادان منزل السيدة «فيردوران» كان «دوشامبر» ذائع الصيت في باريس، وأروع الأمر أن شهادة نجاحه لم تأته من البلاد الأجنبية آه! ما كان صاحبنا من أتباع الإنجيل بحسب القدّيس «بارنوم»[2]. - «أنت تخلط، فما كان بوسعه الذهاب إلى منزل السيدة «فيردوران» في تلك الفترة، إذ كان بعد في الحضانة». - «ولكنّما يبدو لي، ما لم تخنّي ذاكرتي العتيقة، أن

(١) وردت باللاتينية في متن النص.
(٢) مهرّج أمريكي مدير سيرك كتب سيرة حياته وكتاباً آخر عنوانه: «**كيف تكسب الملايين**»، والمقصود واضح.

«دوشامبر» كان يعزف سوناتا «فانتوي» لـ«سوان» حين كان هذا المنتدى الذي تعوزه الأرستقراطية يكاد لا يرتاب بأنه سيضحي ذات يوم الزوج المُبَرْجَز لأميرتنا الوطنية «أوديت». - «مستحيل، فسوناتا «فانتوي» عرفت في منزل السيدة «فيردوران» بعد فترة طويلة من الوقت الذي لم يعد «سوان» يرتاد فيه منزلها»، يقول الدكتور، وأمره أمر من يعملون كثيراً ويظنون أنهم لا بدّ يحفظون الكثير من الأشياء التي يتخيّلون أنها مفيدة فينسون الكثير غيرها، وذلك ما يسمح لهم بالافتتان إزاء ذاكرة أناس ليس لديهم ما يفعلونه. وأردف الدكتور مبتسماً: «أنت تسيء إلى معلوماتك مع أنك لم تبلغ مرحلة الخرف». وأقرّ «بريشو» بغلطته. توقف القطار، وكانت محطة «لاسونيي»، وشغل الاسم بالي فقلت لـ«كوتار»: «كم وددت أن أعلم ماذا تعنيه كل هذه الأسماء». - «ولكن، هيا اسأل السيد «بريشو» فربما عرف ذلك». «لاسونيي تعني اللقلق وهي «سيكونيا» (Siconia) اللاتينية»، يجيب «بريشو» الذي كنت أتحرّق لسؤاله عن أسماء أخرى كثيرة.

بادرت السيدة «شيرباتوف»، وقد فاتها أنها تحرص على «ركنها الخاص»، فعرضت عليّ بلطف مبادلتي مكاني كي يمكنني التحدّث بصورة أفضل إلى «بريشو» الذي كنت أودّ سؤاله اشتقاقات أخرى تثير اهتمامي، وأكّدت أنها لا تعير اهتماماً للسفر إلى الأمام أو الخلف أو وقوفاً، إلخ. كانت تقف موقف الدفاع ما دامت تجهل مقاصد الوافدين الجدد، لكنها كانت تحاول، ما إن تكون عرفت أنها لطيفة، تحاول بجميع السبل إدخال السرور على قلب كلّ منهم. وأخيراً توقّف القطار في محطة «دوفيل - فيتيرن» التي تقع على مسافة تقرب أن تكون متساوية بين قرية «فيتيرن» وقرية «دوفيل» فحملت لهذه الخاصية اسميهما. وصاح الدكتور «كوتار» حينما وصلنا أمام الحاجز حيث تؤخذ البطاقات متظاهراً بالتنبّه للأمر آنذاك فقط: «يا عجبي! لا أستطيع العثور على بطاقتي ولا بدّ أضعتها». لكنّ المستخدم أكّد وهو ويرفع قبّعته أن الأمر لا أهمية له وابتسم باحترام. أما الأميرة فقد اصطحبتني إلى جانب «بريشو» في إحدى العربتين (وهي تزوّد

الحوذي بتعليمات كما ربما كانت فعلت إحدى وصيفات السيدة «فيردوران» التي لم تستطع بسبب أسرة «كامبرمير» المجيء إلى المحطة، وقليلاً ما تفعل على أية حال). واستقلّ العربة الأخرى الدكتور «سانييت» و«سكي».

كان الحوذي على صغر سنّه أول حوذي لدى آل «فيردوران» والوحيد الذي كان حقاً حوذياً رسمياً. فقد كان ينقلهم نهاراً في سائر نزهاتهم، إذ هو يعرف الدروب جميعها وفي المساء يمضي فيجيء بالخلّص ويعيدهم فيما بعد. كان يرافقه يوم تدعو الحاجة إضافيّون (يختارهم). كان فتى طيباً قنوعاً ماهراً ولكنّ له واحداً من تلك الوجوه الكئيبة التي تعني النظرة المفرطة في ثباتها أن المرء يقلق لأقلّ الأمور، بل تراه نهب الأفكار السوداء. لكنّه كان شديد السعادة في هذه اللحظة لأنه أفلح في توظيف شقيقه، وهو من طينة رجال رائعة أخرى، في منزل آل «فيردوران». واجتزنا بادئ الأمر «دوفيل»، وفيها حدبات معشوشبة تنحدر مجموعات واسعة حتى البحر يكسبها إشباع الرطوبة والملح كثافة ونعومة وحيوية في الألوان عظيمة. كانت جُزَيرات «ريفييل» وتقاطيعها وهي هنا أكثر قرباً منها في «بالبيك» تكسب هذا الجزء من البحر المظهر الجديد بالنسبة إليّ لمستوى مجسّم. ومررنا أمام شاليهات صغيرة أجّرت جميعها تقريباً لرسّامين وسلكنا درباً سدّت علينا الطريق فيه أبقار طليقة أصابها ما أصاب جيادنا من ذعر على مدى عشر دقائق سلكنا بعدها طريق الشاطئ. وسأل «بريشو» فجأة قائلاً: «سألتكم بالآلهة الخالدين أنْ دعونا نعود إلى ذلك المسكين «دوشامبر»؛ أتظنون السيدة «فيردوران» على اطلاع؟ وهل قيل لها؟» فالسيدة «فيردوران» كحال بني المجتمعات الراقية جميعاً على وجه التقريب، ولأنها بالضبط كانت بحاجة إلى مخالطة الآخرين، ما كنت تفكّر يوماً واحداً من بعد فيهم بعدما لا يسعهم، وقد طواهم الموت، المجيء إلى أيام الأربعاء أو السبت أو العشاء بمباذلهم. وما كان باستطاعتك أن تقول عن العشيرة الصغيرة، وهي في ذلك صورة عن سائر المنتديات، إنها

تتألف من عدد من الأموات يفوق عدد الأحياء إذ يضحي الأمر ما إن يموت المرء وكأنما لم يكن في يوم. لكن السيد «فيردوران»، تجنباً للإزعاج الناجم عن التحدّث عن المتوفّين، بل عن تعليق حفلات العشاء، وهو أمر لا تطيقه «المعلّمة» من جرّاء حداد، كان يتظاهر بأن موت الخلّص يؤثر في زوجته إلى حدّ ينبغي معه الإقلاع عن التحدّث عنهم في سبيل صحّتها.

ولأن موت الآخرين ربما كان يبدو له بالضبط حادثاً نهائياً وعادياً إلى أبعد حدّ فإن فكرة موته هو كانت ترعبه فيتجنب أية ملاحظة يمكن أن تتعلق به. أما «بريشو» فإذ كان طيّب القلب إلى أبعد الحدود وقد خدعه تماماً ما كان يقوله السيد «فيردوران» عن زوجته، فقد كان يخشى على صديقته من الانفعالات الناجمة عن غمّ كهذا، وقالت الأميرة: «أجل إنها تعرف كل شيء منذ هذا الصباح ولم نستطع إخفاء الأمر عنها». وصاح «بريشو» قائلاً: «آه! يا ألف صاعقة للإله «زيوس»! لا بدّ أنها كانت ضربة رهيبة، هذا الصديق منذ خمسة وعشرين عاماً! ذلكم واحد كان من جماعتنا!» وقال «كوتار»: «بالطبع، بالطبع، وما بيدنا نحن، إنها مناسبات تشقّ عليك دوماً، ولكن السيدة «فيردوران» امرأة قوية، إنها امرأة عقل أكثر منها انفعالية». - «لست أرى تماماً رأي الدكتور»، تقول الأميرة التي يكسبها كلامها السريع ونبرتها المهمومة بالتأكيد هيئة المستاءة النبيهة في آن واحد. «إن السيدة «فيردوران» تخفي كنوزاً من الحساسية خلف مظهر البرودة لديها. لقد قال لي السيد «فيردوران» إنه صادف عنتاً كبيراً في الحيلولة دون ذهابها إلى باريس لحضور المأتم، فقد اضطر أن يوهمها بأن كل شيء سيجري في الريف». - «هكذا إذن! كانت تبغي الذهاب إلى باريس. ولكني أعلم تماماً أنها حساسة، بل ربما مفرطة الحساسية. مسكين «دوشامبر»! وكما كانت تقول السيدة «فيردوران» منذ أقل من شهرين: «بلانتيه»، باديريفسكي» وحتى «ريسلر»، ليس ثمة في مواجهته ما يوازيه». آه! لقد وسعه أن يقول بالضبط أكثر من ذاك المزهو «نيرون» الذي

استطاع تضليل العلوم الألمانية نفسها: أي مبدع يموت بموتي[١]! لكنّه هو، «دوشامبر»، لا بدّ مات وقد أنجز كهنوته في جوّ من ورع موسيقى «بيتهوفن»، وقضى بشجاعة، لا ريب في ذلك ولعلّ كاهن الموسيقى الألمانية هذا كان يستحقّ بالعدل والإنصاف أن يقضي وهو يحتفل بـ«القدّاس الذي من مقام ريه»[٢]. بيد أنه كان مع ذلك من صنف رجال يستقبلون الموت بالزغردة، إذ كان هذا العازف العبقري يجد في أسلافه هو «الشامبانيّ» الذي لبس لبوس الباريسيين صنوفاً من الجسارة والأناقة تَسِمُ الحرس الفرنسي».

لم يعد البحر يتبدّى من المرتفع الذي كنا نقف فوقه، كما هو حاله من «بالبيك»، شبيهاً بتموّجات جبال متدافعة، بل على العكس مثلما تبدو من قمة أو من طريق يلفّ حول الجبل جليدية ضاربة إلى الزرقة أو سهل يخطف الأبصار، والكلّ واقع على ارتفاع أقلّ. كان يبدو تقطع المياه المضطربه وكأنما جُمِّد وخَطَّ نهائياً دوائره المتراكزة. حتى مينا البحر الذي كان يبدّل من لونه لاشعورياً كان يتخذ في أقصى الخليج حيث ينشق مصبّ البياض الأزرق الحليبي الذي بدت فيه عالقة كما الذباب عوّامات صغيرة سوداء لا تتحرك إلى الأمام. لم يكن يبدو لي أنه يمكن من أي مكان اكتشاف لوحة أكثر اتساعاً. بيد أن قسماً جديداً كان ينضاف في كل منعطف، وحينما بلغنا «مركز الميرة» في «دوفيل» تراجع أنف الجرف الذي حجب عنا حتى ذاك نصف الخليج الصغير وأبصرت فجأة على يساري خليجاً بمثل عمق ذاك الذي كنت أراه حتى ذاك أمامي ولكنّه كان يبدّل في أبعاده ويضاعف من جماله. والهواء في هذه النقطة الشديدة الارتفاع أخذ يتّسم بنشاط ونقاء أنتشي بهما. لقد أخذت أحبّ آل «فيردوران». وأن يكونوا بعثوا إلينا بعربة كان يبدو لي متّسماً بطيبة مؤثرة، ووددت لو أعانق

---

(١) العبارة المنسوبة إلى «نيرون» لدى وفاته: Qualis artifex pereo.

(٢) لـ«بيتهوفن» واسمه الآخر «القدّاس الاحتفالي».

الأميرة، وقلت لها إني لم يسبق لي أن رأيت ما كان بمثل هذا الجمال. وصرّحت بأنها تحبّ أيضاً هذه المنطقة أكثر من أية منطقة أخرى. لكنّما كان يداخلني إحساس بأن المسألة الهامة في نظرها ونظر آل «فيردوران» على السواء لا تكمن في تأمّلها تأمّل السائحين، بل في تناول وجبات طيّبة وأن يستقبلوا فيها مجتمعاً يروقهم ويكتبوا رسائل فيها ويقرأوا ويعيشوا فيها باختصار القول، فكانوا يدعون لجمالها أن يغمرهم دونما تدخّل من قبلهم أكثر من أن يجعلوا منه موضع اهتمامهم.

وإذ توقّفت العربة حيناً على ارتفاع كبير فوق البحر إلى حدّ أن منظر الهاوية الضاربة إلى الزرقة كاد، كأنما من فوق إحدى القمم، يخلّف الدوار، فتحت زجاج النافذة. كانت الضجّة الواضحة التي توافيك من كلّ موجة تتكسر تملك في عذوبتها ووضوحها طابعاً رائعاً. أفلم تكن مؤشر قياس يرينا، وقد قلب انطباعاتنا المعتادة أن المسافات العمودية يمكن مماثلتها بالمسافات الأفقية، بعكس التصور الذي يكوّنه فكرنا عنها عادة، وأنها، وإذ تقرّب السماء منا، ليست كبيرة، بل هي أقلّ اتساعاً بالنسبة إلى صوت يجتازها كما كان يفعل دويّ هذه الأمواج الصغيرة بما أن الوسط الذي يقع عليها اجتيازه أكثر نقاء؟ فإننا بالفعل إن تراجعنا مترين فحسب خلف «مركز الجباية» ما عدنا نميّز صوت الأمواج الذي لم تُفقده مئتا متر من الجرف وضوحه الرقيق الدقيق العذب. كنت أقول في نفسي إن جدّتي ربما كانت أحسّت تجاهه بذاك الإعجاب الذي تبعثه في نفسها تجلّيات الطبيعة أو الفن التي نقرأ في بساطتها العظمة والجلال، كانت حماستي قد بلغت الأوج فترفع كلّ ما يحيط بي. وكنت متأثراً من أن تكون أسرة «فيردوران» كلّفت من يصطحبنا من المحطة. وأعربت للأميرة عن الأمر فبدا أنها ترى مني مغالاة كبيرة إزاء مجاملة بسيطة إلى هذا الحدّ. وإني أعرف أنها أقرّت فيما بعد لـ«كوتار» أنها تجدني شديد الحماسة، فأجاب أني أفرط في انفعالاتي وأني ربما كنت بحاجة إلى مهدّئات وإلى القيام بنزهات. كنت ألفت نظر الأميرة إلى كلّ شجرة وكلّ منزل صغير يتهاوى

تحت وروده، وأستثير إعجابها بكلّ شيء، بل وددت لو أضمّها هي إلى صدري. وقالت لي إنها على بيّنة من موهبتي للرسم بالزيت وإنه يجدر بي أن أرسم وإنها فوجئت أن لم يعرب لي أحد عن ذلك بعد. وأقرّت بأن المنطقة رائعة فعلاً. واجتزنا قرية «أنغليسكيفيل» الصغيرة («أنغلبيرتي فيلا»: حسبما قال لنا «بريشو») الجاثمة فوق الرابية. «ولكن هل أنت متيقّنة تماماً من أن عشاء هذه الليلة قائم أيتها الأميرة على الرغم من وفاة «دوشامبر»؟» يضيف قوله دون أن يفكر في أن حضور العربات التي كنا نستقلّها إلى المحطة إنما كان جواباً. فقالت الأميرة: «أجل، فقد حرص السيد «فيلدولان» على أن لا يُؤَجَّل كي يحول بالضبط دون «تفكّر» زوجته. ثم إن هذا التغيير في عاداتها، بعد هذه السنوات الكثيرة التي لم يفتها فيها أن تستقبل يوم أربعاء، كان يمكن أن يؤثّر فيها. فإنها عصبية جداً في هذه الآونة». «لقد كان السيد «فيردوران» سعيداً بوجه الخصوص أنْ جئتَ للعشاء هذا المساء إذ يعلم أن الأمر سيكون سلوة كبيرة للسيدة «فيردوران»، تقول الأميرة، متناسية ما تصنّعت من أنها لم تسمع من يتحدّث عني». وأضافت الأميرة قولها: «أظن أنه يحسن بك أن لا تجيء على ذكر شيء في حضرة الأميرة». فأجاب «بريشو» بسذاجة: «حسناً تفعلين بقولك ذلك، وسأنقل التوصية لـ«كوتار». توقّفت العربة لحظة، وعاودت سيرها ولكنّ الضجة المنبعثة من العجلات في القرية انقطعت. وكنا دخلنا في ممرّ الشرف في «لا راسبلبير» حيث كان السيد «فيردوران» ينتظرنا على الدرج الخارجي، فقال: «حسناً فعلتُ أن ارتديت «السموكن»، وقد لاحظ باغتباط أن الخلّص يرتدون «السموكن» أيضاً، «بما أن لديّ رجالاً أنيقين إلى هذا الحدّ». وإذ أخذت أعتذر عن سترتي: «هيا، إنها تمام التمام. فههنا أعشية بين رفاق. كنت عرضت عليك أن أعيرك إحدى بزّاتي السموكن ولكنّها لن تناسبك». أما المصافحة التي تنضح تأثراً والتي خص بها «بريشو» ربّ البيت، وهو يدخل ردهة «لا راسبلبير» وكنوع من التعازي بموت عازف البيانو، فلم تُثِر أي تعليق من جانب هذا الأخير. وأعربت له

عن إعجابي بهذه المنطقة. «آه! نِعْمَ الأمر، وأنت لم تشاهد شيئاً، وسوف نريك إياها. فلم لا تجيء للسكنى بضعة أسابيع هنا؟ إن الهواء رائع». وخشي «بريشو» أن لا تكون مصافحته أدركت فقال، ولكن بصوت خفيض مخافة أن تكون السيدة «فيردوران» غير بعيدة: «يا له، هذا المسكين «دوشامبر»!» وأجاب السيد «فيردوران» بلهجة مرحة: «أمر فظيع». فأردف «بريشو» قائلاً: «بشبابه هذا». فردّ السيد «فيردوران»، وقد أزعجه التثاقل على هذه الأمور غير المفيدة، ردّ بلهجة معجلة وأنّة أكثر من حادّة، لا من غمّ بل من نفاد صبر حانق: «أجل، أجل، ولكن ما عساك تريد، لا تستطيع في ذلك شيئاً، فلن تردّ أقوالنا الروح إليه، أليس كذلك؟» وقال السيد «فيردوران» وقد عادت إليه دماثته مع نبرة المرح: «هيا، أيها الطيّب «بريشو»، ضع حاجاتك بسرعة، فإن عندنا حساء بالسمك لا يطيق انتظاراً. ولكن بحق السماء إياك أن تتحدث عن «دوشامبر» للسيدة «فيردوران»! فأنت تعلم أنها تخفي إلى حدّ بعيد ما تحسّ به. ولكنّ بها مرض حساسية حقيقياً. لا، أقسمت لك، لقد كادت تبكي حين علمت أن «دوشامبر» قضى نحبه»، قال بلهجة تهكّمية كبيرة. ولعلّه يخيّل إليك إذ تسمعه أنه لا بدّ من نوع من الجنون كيما تأسف على صديق في الثلاثين من عمره، وكنت تستشفّ من جانب آخر أن الوحدة الدائمة التي تجمع السيد «فيردوران» وزوجته ما كانت تمضي من جانبه هو دون أن يبدي رأيه فيه وأن تضايقه في الغالب. «إن حدّثتها بالأمر فسيوافيها المرض مرة أخرى. وذلك مؤسف بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على ما أصابها من التهاب قصبات. وفي هذه الحالة تراني أنا الممرّض، وإنك تدرك أني فعلت من فترة وجيزة. تأسَّ على مصير «دوشامبر» في صميم فؤادك ما طاب لك. فكّر بالأمر ولا تتحدّث عنه. كنت أحبّ «دوشامبر» بالتأكيد، ولكنك لا تستطيع ملامتي أن أحبّ زوجتي أكثر منه. دونك، هذا «كوتار»، وبوسعك أن تسأله». وكان يعلم بالفعل أن طبيب الأسرة يستطيع تأدية الكثير من الخدمات الصغيرة، كأن يصف لك مثلاً ضرورة أن لا تغتمّ.

وكان «كوتار» رجل الطاعة قد قال «للمعلّمة»: «هيا، لتضطرب نفسك على هذا النحو فإذا بك تهيئين لي ترفعاً حرورياً يبلغ ٣٩٠»، كما لعلّه كان قال للطبّاخة: «هيّئي لي للغد طبقاً من لوز العجل»، فالطبّ، إن هو لم يشفِ، يهتمّ بتغيير معاني الأفعال والضمائر.

أحسّ السيد «فيردوران» بالسعادة إذ لاحظ أنّ «سانييت» لم يهجر النواة الصغيرة على الرغم من صنوف الجفاء التي أصابها أوّل البارحة. ذلك أن السيّدة «فيردوران» وزوجها كانا قد اكتسبا في البطالة غرائز قاسية لم تعد المناسبات الكبرى، وهي نادرة، كافية لها. لقد أمكنهما فعلاً إفساد العلاقة بين «أوديت» و«سوان»، وبين «بريشو» وعشيقته. ولعلّهما يعيدان الكرّة مع آخرين، ذلك أمر مفروغ منه. ولكنّ المناسبة ما كانت تسنح كلّ يوم، فيما يوفّر لهم «سانييت»، بفضل حساسيته المرهفة وخجله المتهيّب السريع الاضطراب، كبش محرقة يوميّاً. لذلك كانا يحرصان، مخافة هجرانه، على دعوته بكلمات ودودة مقنعة كتلك التي تَحْضُر قدماء المدرسة الثانوية ومتقدّمي الكتيبة لغرّ يريدون ملاطفته ليمكنهم وضع اليد عليه لمجرّد مداعبته آنذاك ولإساءة معاملته حين لا يستطيع الإفلات من بعد. وذكّر «كوتار»، وما كان سمع السيد «فيردوران»، ذكّر «بريشو» قائلاً: «الصمت، الصمت بوجه الخصوص في حضرة السيّدة «فيردوران».
- «لا تخش يا «كوتار» فالأمر بين يدي حكيم، كما يقول «ثيوكريت».
وأضاف قوله: «والسيّد «فيردوران» على حقّ في جميع الأحوال، فما عسى أن تفيد شكاوانا؟» ذلك أنّه كان قادراً على تمثّل صيغ فعليّة معيّنة والأفكار التي تبعثها في نفسها ولكنّه إذ لم يكن يملك الحسّ المرهف فقد أعجبته في أقوال السيد «فيردوران» نزعة التجلّد الأكثر شجاعة. - «مهما يكن من أمر فإن موهبة عظيمة صارت إلى زوال». - «عجباً، ما زلتم تتحدّثون عن «دوشامبر»؟ يقول السيد «فيردوران» وكان سبقنا فعاد أدراجه إذ رأى أننا لا نلحق به، قال لـ«بريشو»: «اسمع، يجب تحاشي الغلوّ في أيّ أمر. فليس من سبب إذ هو مات أن نجعل منه عبقريّاً لم يكنه. كان

يعزف عزفاً لا غبار عليه، ذلك مفروغ منه، وكان على وجه الخصوص محوّطاً على أحسن حال هنا. فإن رُحّل لم يعد له وجود. لقد شغفت به زوجتي فصنعت شهرته، وتعرف ما فُطِرَت عليه. بل أزيد فأقول إنّه في صالح شهرته ذاتها مات في الوقت المناسب، في الوقت المحدّد كما هو شأن جراد البحر المشويّ حسب تعليمات «بامبيي»[١] التي لا مثيل لها، هذا أملي (ما لم تستمرّ أبد الدهر في مراثيك في هذه القصة المعرّضة لرياح الأرض جميعها). لست تقصد مع ذلك أن نهلك جميعنا لأن «دوشامبر» قضى نحبه وحينما كان يضطرّ منذ عام أن يعزف عدداً من السلالم قبل مباشرته حفلته الموسيقيّة كي يستعيد وقتيّاً، وقتيّاً ليس إلّا، رشاقته. وسوف تسمع هذا المساء على أيّ حال، أو تلتقي على الأقلّ، لأن هذا النابح كثيراً ما يهجر بعد العشاء الفنّ للعب الورق، من كان فناناً من غير طراز «دوشامبر»، فتى اكتشفته زوجتي (كما سبق أن اكتشفت «دوشامبر» و«بادرفسكي» والباقين): إنّه «موريل». لم يصل ذلك اللعين بعد. سأضطرّ إلى إرسال عربة إلى القطار الأخير. إنه آتٍ بصحبة صديق قديم لعائلته عاد فالتقاه وهو يبعث في نفسه أشدّ السأم ولكنّما يقال إنّه كان اضطرّ لولا ذاك أن يبقى معه، تجنّباً لشكاوى والده، في «دونسيير» ليؤانسه في مجلسه: إنّه البارون «دو شارلوس». ودخل الخلّص. أمّا السيّد «فيردوران» الذي بقي في المؤخّرة وأنا أنزع أغراضي فقد أمسك بذراعي ممازحاً مثلما يفعل ربّ البيت حين لا تتوافر له على العشاء مدعوّة يعرّفها لأصحابه. «هل قمت برحلة مريحة؟» فقلت، وأنا أفكّر بالاشتقاقات ولأني سمعت من يقول إن آل «فيردوران» كانوا يمحضون «بريشو» إعجاباً كبيراً: «أجل، لقد علّمني السيد «بريشو» أموراً استهوتني كثيراً». فقال لي السيد «فيردوران»: «لعلّني كنت عجبت أن لم يعلّمك شيئاً، فإنه رجل

---

(١) الاسم المستعار الذي كانت توقّع به السيدة «ليون دوديه» مقالاتها في باب الأزياء والطبخ، و«ليون دوديه» هو مدير صحيفة «العمل الفرنسي».

شديد الاتّضاع قليل الحديث عن الأمور التي يعرفها». ولم يبدُ لي هذا المديح منصفاً جداً، فقلت: «إنّه يبدو ظريفاً». فأجاب السيد «فيردوران»: «رائع، لذيذ، ليس في ظلّ حماقة، غريب الأطوار خفيف الظلّ تعبده زوجتي وأنا كذلك»، أجاب بلهجة تعمرها المغالاة كمن يتلو درسه. حينذاك فقط أدركت أنّ ما قاله عن «بريشو» كان من باب التهكّم. وتساءلت إن كان السيّد «فيردوران» لم يزح عنه نير وصاية زوجته منذ الزمن الذي سمعتهم يتحدّثون عن ذلك.

وعجب النحّات أشدّ العجب أن علم أن أسرة «فيردوران» كانت ترتضي استقبال السيد «دو شارلوس». ففي حين كانوا في ضاحية «سان جيرمان» حيث كان السيد «دو شارلوس» معروفاً على نطاق واسع لا يأتون البتّة على ذكر أخلاقه (ويجهلها السواد الأعظم وهي موضع شكّ بالنسبة إلى آخرين يظنّون الأمر بالأحرى صداقات لاهبة، ولكنّها أفلاطونية، وصنوفاً من قلّة الحذر، فيما يتستّر عليها بعناية المطّلعون على الأمور فيرتفعون بمناكبهم إن جازفت هذه الـ«غالاردون» السيّئة المقاصد أو تلك بتلميح ما)، تلك الأخلاق التي يكاد لا يعرفها إلا بعض الأُلّاف كانت على العكس موضع مذمّة يوميّة بعيداً عن الوسط الفني الذي يعيش فيه، شأن بعض ضربات المدفع التي لا تسمعها إلّا بعد تداخل مع منطقة ساكنة. وفي تلك الأوساط البورجوازيّة والفنيّة التي كان يُعَدُّ فيها التجسيد الحيّ للشذوذ كانت مكانته الاجتماعية الرفيعة ونبل محتده مجهولين على أيّة حال جهلاً تامّاً من جرّاء ظاهرة شبيهة بتلك التي تجعل اسم «رونسار» لدى الشعب الروماني معروفاً على أنّه اسم سيّد عظيم فيما آثاره الشعريّة مجهولة هناك. وأكثر من ذلك أن نبالة «رونسار» قائمة في رومانية على خطأ. كذلك إن كان للسيّد «دو شارلوس» في عالم الرسّامين والممثّلين سمعة سيّئة إلى هذا الحدّ فمردّ ذلك إلى أنهم كانوا يخلطون بينه وبين «كُونت» اسمه «لوبلوا دو شارلوس» لم يكن يمتّ إليه بأيّة صلة قربى أو هي بعيدة جداً، وسبق أن ألقي القبض عليه ربّما خطأ في واحدة من

مداهمات الشرطة ظلّت مشهورة. وخلاصة القول أن القصص التي كانت تروى عن السيد «دو شارلوس» كانت تنطبق جميعها على المزيّف. كان الكثيرون من المحترفين يقسمون أنّهم ارتبطوا بعلاقات مع السيد «دو شارلوس» وكانوا صادقين إذ يظنّون «شارلوس» الزائف هو الحقيقي، وربّما سهّل الزائف التباساً نصفه تباهٍ بالنبالة والنصف الآخر طمس للمنكر، والالتباس ظلّ فترة طويلة بالنسبة إلى الحقيقة (البارون الذي نعرفه) مصدر ضرر ثم أصبح فيما بعد، حين انزلق وفق ميوله، مصدر راحة إذ أمكنه أن يقول بدوره: «لست أنا». والآن ما كانوا بالفعل يتحدثون عنه. ثمّ إن ما كان يزيد من زيف التعليقات على واقعة حقيقيّة (هي ميول البارون) أنّه سبق أن كان الصديق الحميم والطاهر إلى أبعد حدّ لمؤلّف كانت له في عالم المسارح، دونما سبب معروف، تلك السمعة وما كان يستحقّها البتّة، فحينما كانوا يشاهدونهما معاً في واحد من العروض الأولى كانوا يقولون: «أنت تعلم»، مثلما يظنّون أن الدوقة «دو غيرمانت» تقيم علاقات لاأخلاقية مع الأميرة «دو بارما»؛ والأسطورة عسيرة الزوال لأنّها ما كانت لتتلاشى إلّا باقتراب من هاتين السيدتين العظيمتين لن يصل إليه على الأرجح في يوم الناس الذين كانوا يردّدونها إلّا باستكشافهما بالمنظار في المسرح والافتراء عليهما لدى شاغل المقعد المجاور. وكان النحّات يبدي رأيه في أخلاق السيد «دو شارلوس» بتردّد يتناقص حجماً بقدر السوء الذي لا بدّ كان عليه وضع البارون في المجتمع الراقي وبمقدار ما لا يملك أيّ نوع من المعلومات حول الأسرة التي ينتمي إليها السيّد «دو شارلوس» وحول لقبه واسمه. ومثلما كان يعتقد «كوتار» أنّ الجميع يعرفون أن لقب دكتور في الطبّ لا يعني شيئاً ولقب طبيب داخلي في المشافي يعني شيئاً ما، يخطئ أرباب المجتمع الراقي إذ يتخيّلون أن الجميع يملكون الأفكار نفسها التي يملكونها هم والذين من وسطهم حول أهمية اسمهم الاجتماعية.

كان أمير «أغريجانت» غريباً مشبوه الثروة في نظر خادم ندوة يدين لها

بخمسة وعشرين فرنكاً ذهباً، ولا يستعيد أهميّته إلّا في ضاحية «سان جيرمان» حيث يتوافر له ثلاث شقيقات دوقات لأن السيّد العظيم إنّما يخلّف بعض الأثر في نفوس الناس المتواضعين الذين يبدو قليل القدْر في نظرهم، بل في نفوس اللامعين الذين يحيطون بالحال التي هو فيها. وكان سيتاح للسيّد «دو شارلوس» على أيّة حال أن يتبيّن منذ المساء نفسه أنّ ربّ المنزل كانت معلوماته حول أشهر الأسر الدوقيّة تفتقر إلى العمق. وظنّ النحّات من واجبه، وقد أيقن أن آل «فيردوران» سيقعون في خطأ سببه الجهل إذ يفسحون لرجل فاسد أن يدخل منتداهم المصطفى إلى أبعد حدّ، أن ينتحي بالمعلّمة جانباً. فأجابت السيدة «فيردوران»: «إنّك على ضلال مبين، وأنا بأيّة حال لا أصدّق البتّة مثل هذه الأمور وسأقول لك، بافتراض أنّها صحيحة، إنّها لن تعرّضني كثيراً للشبهات في ما يخصّني»، أجابت وبها حنق لأنّها كانت تحرص قبل كلّ شيء، إذ يمثّل «موريل» العنصر الرئيسي في أيام أربعائها، على ألا تثير استياءه. أمّا «كوتار» فلم يتمكّن من إبداء رأيه إذ كان طلب الصعود برهة «القيام بمسعى صغير» في «بيت الخلاء» ولكتابة رسالة عاجلة جداً بعد ذلك لأحد المرضى في غرفة السيد «فيردوران».

وقفل ناشر كبير باريس جاء في زيارة وظنّ أنّهم سيستبقونه، قفل راجعاً بحركة عنيفة سريعة وقد أدرك أنّه لم يكن على أناقة كافية بالنسبة إلى العشيرة الصغيرة. كان رجلاً مديد القامة قوياً شديد السّمرة مجدّاً وبه ما يشبه الحدّ القاطع. كان يبدو كأنه قاطعة ورق من خشب الأبنوس.

كانت السيّدة «فيردوران» قد وقفت هنيهة من لعبة تُنازل فيها صديقاً وذلك كيما تستقبلنا في صالتها الفسيحة حيث تتناوب طاقات من النجيليات والخشخاش وزهر الحقول قطفت في ذات اليوم والموضوع نفسه الذي رسمه بلون متدرّج فنّان رائع الذوق قبل قرنين، واستأذنتنا إنهاءها بدقيقتين فيما توالي الحديث معنا. ولم يرقْ لها ما نقلتُ من انطباعاتي إلّا جزئيّاً بأيّة حال. فقد صدمني بادئ الأمر أن ألاحظ أنّها وزوجها كانا يعودان

أدراجهما فترة طويلة قبل ساعات المغيب التي تعتبر عظيمة الجمال إنْ شوهدت من ذلك الجرف، وأكثر من ذلك من سطح «لا راسبليير»، وكنت قطعت أميالاً في سبيلها. وقالت السيدة «فيردوران» بدون تروّ وهي تلقي نظرة على النوافذ الفسيحة التي يبدو كأنّها باب مزجّج: «أجل، لا مثيل لذلك، وعبثاً نشاهده في كلّ يوم فإنّنا لا نملّه»، ثمّ عادت بعينيها إلى ورق اللعب. على أن اندفاعي نفسه كان يجعل منّي شخصاً متطلباً. فأخذت أشكو من أنني لا أشاهد من الصالة صخور «درانيتال» التي سبق أن قال لي «ايلستير» إنّها بديعة في هذا الوقت الذي تعكس فيه الكثير الكثير من الألوان، «آه! لا يسعك مشاهدتها من هنا ولا بدّ من الذهاب إلى أقصى المنتزه، في موقع «منظر الخليج». فمن الموقع الظاهر هناك تحيط بالمشهد بكامله. ولكنّك لا تستطيع الذهاب إلى هناك فقد تضلّ الطريق». وأضافت تقول بلهجة فاترة: «سأصحبك إلى هناك إن شئت». - «كلّا، ويحك، ألا تكفيك الأوجاع التي انتابتك ذلك اليوم فتريدين أخرى جديدة؟ سوف يعود ويشاهد منظر الخليج في مرّة ثانية». ولم ألحّ وأدركت أنّه يكفي آل «فيردوران» أن يعلموا أن تلك الشمس الغاربة كانت حتّى داخل صالتهم وقاعة طعامهم بمثابة لوحة رائعة ومينا يابانية ثمينة تبرّر الثمن المرتفع الذي يؤجّرون به «لا راسبليير» مفروشة بالكامل ولكنّهم نادراً ما يرفعون الأنظار إليها. فإن الشأن العظيم هنا هو العيش والاستمتاع والذهاب في نزهات والطعام الجيّد والحديث واستقبال أصدقاء ممتعين يحملونهم على لعب أدوار مسلّية من البلياردو ووجبات طيبة وعصرونيّات مرحة. ولكنّي تبيّنت فيما بعد بأيّ ذكاء سعوا إلى تعرّف المنطقة إذ يحملون ضيوفهم على القيام بنزهات «مبتكرة» كالموسيقى التي يُسمعونهم إيّاها. لقد كان الدور الذي تلعبه الأزهار في «لا راسبليير» والدروب على امتداد البحر والبيوت القديمة والكنائس المجهولة في حياة السيّد «فيردوران» كبيراً إلى حدّ كاد لا يسع الذين ما كانوا يلتقونه إلّا في باريس وكانوا في ما يخصّهم يستبدلون بالحياة على شاطئ البحر وفي الأرياف من بذخ المدنية أن

يدركوا معه الفكرة التي يحملها عن حياته ذاتها والأهميّة التي تضفيها مسرّاته عليه في نظره هو. وتتزايد هذه الأهميّة لأن آل «فيردوران» كانوا على يقين من أن «لا راسبليير» التي يعتزمون شراءها عقار فريد في العالم. وقد برّر هذا التفوّق الذي يعزوه اعتزازهم بذاتهم إلى «لا راسبليير»، برّر في نظرهم حماستي التي ربّما كانت أزعجتهم لولا ذاك بعض الشيء بسبب خيبات الأمل التي تتضمّنها (كتلك التي سبّبها لي فيما مضى سماعي لـ«لا بيرما») والتي كنت أكشف لهم بصدق عنها.

وهمست المعلّمة فجأة تقول: «ها إنّي أسمع العربة تعود وأملنا أنّها وجدتهم». لم تعد السيّدة «فيردوران»، ونقولها بوجيز العبارة، لم تعد حتّى فيما عدا التغيّرات التي يفرضها السنّ لا محالة تشبه ما كانت عليه في الزمن الذي كان «سوان» و«أوديت» يسمعان الجملة الصغيرة في منزلها. فلم تعد ملزمة، حتّى حينما يجري عزفها، بهيئة يضنيها الإعجاب تتّخذها فيما مضى لأن هيئتها تلك أصبحت وجهها. لقد اتّخذ جبين السيدة «فيردوران»، تحت تأثير الآلام العصبية التي تسبّبها له موسيقى «باخ» و«فاغنر» و«فانتوي» و«دوبوسي» أبعاداً هائلة كحال الأعضاء التي تشوّهها الرثية في نهاية المطاف. كان صدغاها، ويشبهان دائرتين جميلتين ملتهبتين مُوْجَعَتين بلون الحليب، وفيهما يدوّي على الدهر توافق الأنغام، تُلقيان من كل جانب خصلاً فضيّة وتعلنان لحساب المعلّمة ودون أن تكون بها حاجة للكلام: «إني أعلم ما الذي ينتظرني هذا المساء». فلم تعد قسماتها تجهد في أن تصوغ على التوالي انطباعات جماليّة مفرطة القوّة إذ كانت هي ذاتها كأنّها التعبير الدائم عنها في وجه متغضّن مستكبر. كانت وقفة التسليم بالآلام الآتية على الدوام التي يوقعها الجمال بها والشجاعة التي أُبديت في ارتداء فستان وهي لم تكن تشفى من آخر «سوناتا»، كانت تفضي بالسيّدة «فيردوران» إلى أن تحتفظ بوجه هادئ ينضح استخفافاً حتّى من أجل سماع الموسيقى الأكثر إيلاماً، بل هي تختبئ لابتلاع ملعقتي أسبيرين صغيرتين.

وصاح السيّد «فيردوران» مشروح الصدر وهو يرى الباب ينفتح في وجه «موريل» يتبعه السيّد «دو شارلوس»: «آه! أجل، ها هما». وبدا هذا الأخير، وما كان العشاء في منزل آل «فيردوران» يعني له البتّة ارتياد المجتمع الراقي بل التردّد على مكان مشبوه، بدا متخوّفاً كطالب الثانوية يدخل أوّل مرة المحلّ العمومي ويبدي الكثير من الاحترام لـ«لباترونه». لذلك سادت رغبة السيّد «دو شارلوس» المعتادة في أن يبدو على رجولة وفتور (حينما طلع في الباب المفتوح) أفكار التأدّب التقليديّة التي تستيقظ ما إن يقضي الخجل على موقف متصنّع ويلجأ إلى وسائل اللاوعي. فإذا فعل شعور تأدّب غريزي وراثيّ من هذا القبيل فعله في نفس أمثال «شارلوس» هذا، سواء أكان نبيلاً أو بورجوازياً، فإن روحَ قريبةٍ أنثى مُعينة كإلهة أو متجسّدة شأن صنو له هي التي تتولّى على الدوام التعريف به في صالة جديدة وقولبة موقفه إلى أن يكون وصل أمام ربّة المنزل. فهذا رسّام شابّ ربّته ابنة عمّ بروتستانتية قدّيسة سيدخل مائل الرأس مرتعشاً والعين عالقة بالسماء واليدان تتشبّثان بمقبض خفيّ يعين شكلُه الموحى به ووجوده الحقيقي المنقذ الفنّان المتهيّب على اجتياز المسافة المليئة بالهاويات الكائنة بين الردهة والصالة الصغيرة دون خوف يعتريه من الأماكن العامّة، هكذا كانت القريبة الورعة التي توجّهه اليوم ذاكراها تدخل لسنين كثيرة خلت وبهيئة المتأوّه حتّى ليتساءل المرء أية مصيبة جاءت تنقل أخبارها فإذا به يدرك منذ كلماتها الأولى، كما هو شأن الرسام الآن، أنّها جاءت في زيارة هضميّة. وبمقتضى هذا القانون نفسه الذي يقضي بأن تعمل الحياة، لصالح الفعل الذي لم يُنْجَز بعد، على الإفادة من مواريث الماضي الأكثر مدعاة للاحترام، والأوفر قدسيّة أحياناً والأكثر براءة مرّات فقط واستخدامها وتشويهها في حركة تعهّر مستمرّة، ومع أنّها تولّد آنذاك مظهراً مختلفاً، فقد كان ذاك الذي من بين أشقّاء السيدة «كوتار» كان يغمّ أسرته بتصرّفاته المخنّثة وعلاقاته الاجتماعية يدخل دوماً دخول المتهلّل كما لو يعتزم أن يفاجئك بأمر أو يبشّرك بإرث وقد نوّرت وجهه سعادة لعلّ من

العبث سؤاله عن سببها المرتبط بموروثه اللاواعي وجنسه المهاجر. كان يمشي على رؤوس أصابعه ويعجب دونما شكّ من نفسه أن لا يحمل في يده دفتر بطاقات زيارة ويمدّ يده وهو يفتح فاه على هيئة قلب كما شاهد عمّته تفعل ولا تتّجه النظرة القلقة الوحيدة لديه إلّا إلى المرآة التي يبدو أنّه يبغي التحقّق فيها من أن قبّعته، مثلما سبق أن سألت السيدة «كوتار» ذات يوم «سوان»، لم تكن مائلة، مع أنّه كان حاسر الرأس. أمّا السيد «دو شارلوس» الذي كان المجتمع يزوّده في هذه الدقيقة الحرجة بأمثلة مختلفة وخطوط زخرفية أخرى للطافة وأخيراً بالحكمة القائلة بأنّه لا بدّ في بعض الحالات من أن نعلم، بالنسبة إلى محض بورجوازيين صغار، كيف نصنع ونُفيد من مواطن الظرف الأكثر ندرة والتي يحتفظ عادة على سبيل الاحتياط، فقد توجّه صوب السيدة «فيردوران» وهو يحرّك جسمه بلطف متكلّف وبالاتّساع نفسه الذي يوليه ويقيّد فيه لبْس التنّورة تمايلاته وبهيئة من تدغدغ مشاعره وتكرّمه إلى حدّ يخيّل إليك معه أنّ التعريف به في منزلها كان في نظره أرفع منّة تُسدى إليه. وكان وجهه نصف المائل الذي يتنازعه الارتياح والتهذيب تغضّنه تجاعيد صغيرة من اللطافة. وربّما خِلتَ السيدة «دو مارسانت» تتقدّم نحوك لشدّة ما تبرز في هذه الحالة المرأة التي جعلتها هفوة للطبيعة في جسم السيد «دو شارلوس». صحيح أن البارون جَدّ كثيراً لطمس تلك الهفوة واتخاذ مظهر ذكوري. ولكنّه ما كاد يفلح في هذا الأمر، وإذ احتفظ في الوقت نفسه بالميول نفسها، فإن عادة الشعور شعور المرأة أخذت تكسبه مظهراً أنثوياً جديداً ناجماً لا عن الوراثة بل عن الحياة الفرديّة. ولمّا أخذ يتوصّل شيئاً فشيئاً إلى التفكير حتّى في الأمور الاجتماعية بالمؤنّث، وذلك دون انتباه منه، فليس يكفّ المرء عن ملاحظة كذبه لا لفرط ما يكذب على الآخرين فحسب بل لفرط ما يكذب على نفسه، ومع أنّه طالب جسده أن يُبرز بشكل جليّ (حين كان داخلاً إلى منزل آل «فيردوران») كامل التأدّب الذي يميّز السيد الكبير، فإن هذا الجسد الذي أدرك تماماً ما كفّ السيد «دو شارلوس» عن فهمه أبرز، إلى

حدّ لعلّ البارون استحقّ معه صفة «مشابه السيّدة»، جميع صنوف إغراء السيّدة الكبيرة. وهل يمكننا من جانب آخر أن نفصل فصلاً تاماً بين مظهر السيد «دو شارلوس» ومسألة أن الأبناء، وليسوا دوماً على شبه بالأب إنّما يُتِمُّون، حتى دون أن يكونوا شاذّين وفي بحثهم عن النساء، يُتِمُّون في وجههم تدنيس اسم والدتهم؟ ولكن لندع جانباً ههنا ما ربّما كان أهلاً بفصل منفرد: الأمّهات اللواتي تُدَنَّس أسماؤهن.

ومع أن ثمّة أسباباً أخرى توجّه هذا التحوّل الحاصل لدى السيد «دو شارلوس» وأن خمائر ماديّة خالصة تخمّر المادّة لديه وتنقل جسمه شيئاً فشيئاً إلى فئة الأجسام الأنثويّة، فإن التحوّل الذي تشير إليه هنا كان ذا منشأ روحيّ. والمرء لفرط ما يخال نفسه مريضاً يصيبه المرض ويهزل ولا يقوى من بعد على القيام ويصاب بالتهابات معويّة عصبيّة. ولفرط ما يفكّر المرء بالرجال تفكيراً رقيقاً يصبح امرأة ويقيّد فستان مستعار خطاك. إنّ الفكرة الثابتة تستطيع أن تغيّر في تلك الأحوال الجنس (مثلما الصحّة في أحوال أخرى). وأقبل «موريل» الذي كان يتبعه يحيّيني. وقد خلّف في نفسي منذ ذلك الوقت، بسبب تحوّل مزدوج جرى في داخله (ولم أفلح في وقت مبكّر كافٍ للأسف في أخذه بعين الاعتبار)، انطباعاً سيئاً. وإليك السبب. لقد قلت إنّ «موريل» الذي أفلت من عبوديّة والده، كان يستحلي بعامّة ألفة شديدة التعالي. فقد سبق أن كلّمني يوم جاءني بالصور الشمسيّة دون أن يقول لي مرّة واحدة يا سيّد وعاملني معاملة الأعلى للأدنى. ويا لدهشتي في منزل السيّدة «فيردوران»، إذ رأيته ينحني انحناءة عظيمة أمامي، وأمامي وحدي وسمعت منه، حتّى قبل أن يتفوّه بأيّ كلام آخر، لفظتي احترام ويفيض احتراماً يوجّهها إليّ - وكنت أظنّ من المستحيل ورود هاتين الكلمتين على شفتيه أو أن يجري بهما قلمه! وداخلني في الحال انطباع مفاده أنّ لديه أمراً يطلبه منّي. وانتحى بي بعد دقيقة ناحية وقال لي، وقد بلغ به هذه المرّة أن يكلّمني بصيغة الغائب: «سوف يؤدّي لي سيّدي خدمة كبيرة جداً إن أخفى تماماً عن السيدة «فيردوران»

ومدعوّيها نوع المهنة التي كان يشغلها والدي في منزل عمّها. والأفضل أن يُقال إنّه كان في عائلتكم قيّماً على أملاك واسعة حتّى ليجعل منه ذلك مساوياً تقريباً لوالديك». كان مطلب «موريل» يغيظني إلى ما لا حدود لا لأنّه يضطرّني إلى تضخيم وضع والده، وما كان يهمّني ذلك، بل إلى تضخيم ثروة والدي ظاهريّاً على الأقل، وهو ما أجده مضحكاً. ولكنّ هيئته بدت تعيسة جداً ملحاحة إلى حدّ أني لم أرفض. وقال متوسّلاً: «لا، قبل العشاء، فلدى سيّدي ألف حجّة كي ينتحي بالسيدة «فيردوران» جانباً». وذلك ما فعلت محاولاً أن أرفع ما وسعني الأمر من بريق اسم والد «موريل» دون أن أفرط في تضخيم نمط معيشة والديّ وما يملكان تحت الشمس. ومرّ ذلك مرور رسالة في البريد، على الرغم من استغراب السيّدة «فيردوران» التي سبق لها أن عرفت جدّي معرفة سطحيّة. ولمّا كانت تعوزها اللباقة وكانت تكره الأُسَر (هذا العنصر الحالّ للنواة الصغيرة) فقد قالت لي، بعدما أخبرتني أنّها لمحت والد جدّي في الماضي وكلّمتني عنه وكأنّما عن رجل يكاد يكون مخبولاً ولعلّه ما كان ليفهم شيئاً في المجموعة الصغيرة، و«ما كان منها»، حسب تعبيرها: «الأسر بأيّة حال باعثة على الملل وتوقنا الوحيد أن نخرج منها»؛ وروت لي في الحال عن والد جدّي سمة كنت أجهلها مع أنّي كنت ارتبت في المنزل (وما كنت عرفته ولكنّهم كثيراً ما كانوا يتحدّثون عنه) ببخل لديه نادر (يقابله كرم يتجاوز قليلاً حدّ البذخ يتّسم به شقيق جدّي صديق السيّدة ذات الأثواب الورديّة وربّ عمل والد «موريل»): «بما أن أجدادك كانوا يملكون مدير أعمال أنيقاً إلى هذا الحدّ فإنّما يعني ذلك أن ثمّة أناساً من كلّ لون في داخل الأُسر. لقد كان والد جدّك بخيلاً إلى حدّ أنه، وهو يقارب الخرف في آخر العمر- فما كان في يوم، والأمر بيننا، صلب العود وإنّك تفتديهم جميعاً -، لم يكن يقبل بإنفاق ثلاثة فلوس أجرة سيارة النقل العامّة. وهكذا اضطرّوا أن يرسلوا من يتبعه ويوهم العجوز الشحيح بأن صديقه السيد «دو بيرسيني» وزير الدولة قد حصل له على التنقّل مجاناً في سيّارات

النقل العامّة، وإنّي بأيّة حال مسرورة جداً أنْ كان والد «موريل» على مثل مكانته. وكنت فهمت أنّه مدرّس في المدرسة الثانوية، وما همّ فقد كنت أخطأت الفهم. ولكنّما الأمر قليل الأهميّة لأنني سأقول إنّنا لا نقدّر هنا إلّا القيمة الذاتية والإسهام الشخصي وما أسمّيه المشاركة، بشرط أن يكون المرء من دنيا الفنّ، وبوجيز العبارة أن يكون من الجماعة، أمّا الباقي فقليل الأهمية». والطريقة التي كان بها من المجموعة - بقدر ما وسعني أن أعلم - أنّه كان يحبّ النساء والرجال بما يكفي كي يمتّع كل جنس بوساطة ما سبق أن جرّبه على الآخر؛ وهذا ما سوف نراه لاحقاً. لكنّ ما كان من الجوهريّ قوله هنا أني ما إن أعطيته عهداً بالتدخّل لدى السيدة «فيردوران»، وما إن فعلت ذلك على وجه الخصوص ودون تراجع ممكن حتّى تبخّر «احترام» «موريل» الموجّه إليّ وكأنّما بسحر ساحر واختفت عبارات الاحترام، بل هو تجنّبني بعض الوقت وهو يتدبّر أمره كي يبدو وكأنّه يزدريني حتّى إنّه إن أرادت السيّدة «فيردوران» أن أقول له شيئاً ما وأن أطلب منه هذه المقطوعة الموسيقية أو تلك كان يوالي حديثه مع أحد الخلّص ثم ينتقل إلى آخر ويبدّل مكانه إن مضيت إليه. وكانوا يضطرّون أن يقولوا له حتّى ثلاث مرّات أو أربع إنّي توجّهت بالحديث إليه، وبعد ذلك كان يردّ عليّ بهيئة المرغم وباختصار إلّا إذا كنّا وحدنا. وإذ ذاك كان كثير الكلام ودوداً إذ يملك أقساماً رائعة في طباعه. لكن ذلك لم يحل دون أن أخلص من هذه الأمسية الأولى إلى أنّ طبيعته لا بدّ كانت خسيسة وأنّه لا يحجم إن اقتضى الأمر عن أيّ إسفاف وأنّه يجهل عرفان الجميل، وكان يشبه في ذلك السواد الأعظم من الناس. بيد أنّي، لمّا كنت أحمل في داخلي شيئاً من جدّتي وكان يروقني تنوّع الناس دون أن أنتظر حاجة منهم أو أحقد عليهم، أهملت دناءته وراقني مرحه حيثما توافر ذلك، بل راقني ما أظنّه كان صداقة صادقة من جانبه حينما تبيّن، بعدما استعرض كامل معارفه الزائفة عن الطبيعة البشريّة تبيّن (بشكل غير منتظم، إذ كانت له ردّات غريبة إلى عشوائيّته البدائيّة العمياء) أن رقّتي معه كانت غير مغرضة

وأن تسامحي لا يصدر عن قلّة تبصّر بل عمّا دعاه طيبة، وفتنني على وجه الخصوص فنّه الذي كاد يكون محض مهارة رائعة ولكنّها كانت تسمعني من جديد أو تعرّفني كمّاً كبيراً من الموسيقى الجميلة (دون أن يكون موسيقيّاً حقيقيّاً بالمعنى الثقافي للكلمة). وقد أفلح على أيّة حال مدير أعمال السيّد «دو شارلوس» الذي كنت أجهل لديه تلك المواهب (مع أن السيدة «دو غيرمانت» التي سبق أن عرفته مختلفاً جدّاً في شبابهما زعمت أنّه ألّف لها «سوناتا» ورسم مروحة يدويّة، إلخ.)، وكان متواضعاً في ما يخصّ مواطن تفوّقه الحقيقيّة ولكنّه من الطراز الأوّل، أفلح في وضع هذه المهارة في خدمة حسّ فنّي متعدّد زادها عشرة أضعاف. فلنتصوّر فنّاناً من الباليه الروسي يتمتّع بمهارة بحتة ثمّ يُهَذَّب ويُدَرَّب ويُطَوَّر على يدي السيد «دياغيليف».

كنت نقلت منذ قليل الرسالة التي كلّفني «موريل» حملها إلى السيدة «فيردوران»، وكنت أحدّث السيد «دو شارلوس» عن «سان لو» حينما دخل «كوتار» إلى الصالة يعلن، وكأنّما ثمّة حريق، عن وصول آل «كامبرمير». ولم تحرّك السيّدة «فيردوران» ساكناً كي لا تبدي في حضرة أغرار من أمثال السيد «دو شارلوس» (الذي لم يكن رآه «كوتار») ومثلي أنّها تولي هذا القدر من الأهميّة وصول آل «كامبرمير»، ولم تردّ على إعلان هذا الخبر واكتفت بأن قالت للدكتور وهي تحرّك مروحتها برشاقة وباللهجة المتكلّفة نفسها التي لمركيزة في المسرح الفرنسي: «كان البارون يقول لنا بالضبط...»، وكان ذلك كثيراً على «كوتار»! فصاح بحماسة أقل ممّا كان فعل فيما مضى، لأنّ الدراسة والمراكز العالية التي شغلها كانت قد بطّأت إلقاءه، ولكنّما بذاك الانفعال الذي يلقاه مع ذلك لدى آل «فيردوران»: «بارون! أين هو البارون؟ أين هو البارون؟»، صاح وهو يبحث عنه بعينيه بدهشة تقارب الشكّ واللاتصديق. وأجابت السيدة «فيردوران» باللامبالاة المتكلّفة التي تبديها ربّة بيت لخادم أتى أمام المدعوّين على كسر كأس ثمينة، وبالنبرة المصطنعة المبالغ في ارتفاعها التي يتّخذها حامل جائزة

الكونسرفاتوار الأولى وهو يمثّل نصّاً لـ«دوما» الابن، أجابت وهي تشير بمروحتها إلى حامي «موريل»: «إنه البارون «دو شارلوس» الذي سأعرّفه باسمك. . . يا سيادة الأستاذ «كوتار». » ولم يكن يسوء السيدة «فيردوران» على أيّة حال أن تسنح فرصة للعب دور السيّدة الكبيرة. ومدّ السيد «دو شارلوس» إصبعين شدّ عليهما الأستاذ بابتسامة «أمير العلم» المجانيّة، ولكنه توقّف في الحال إذ رأى أسرة «دو كامبرمير» داخلة فيما كان السيد «دو شارلوس» يدفع بي إلى زاوية ليقول لي كلمة، ولا يفعل دون أن يتلمّس عضلاتي، وهي طريقة ألمانيّة. لم يكن السيد «دو كامبرمير» يشبه كثيراً المركيز العجوز، فقد كان «بالتمام من جهة والده»، كما تقول بصوت حنون. كان مظهره الجسماني يُدهش بالنسبة لمن لم يسمع إلّا من يتحدّث عنه أو حتّى عن رسائل منه تنبض بالحياة وقد صيغت صياغة مناسبة. كان لا بدّ من التعوّد على الأمر دونما شك، لكنّ أنفه كان قد اختار، بغية أن يتخذ مكاناً له مواربا فوق فمه، ربما الخطّ المائل الوحيد من بين الكثير غيره الذي ما كانت لتوافيك فكرة اختطاطه على ذاك الوجه والذي كان يعني غلطة فظّة يزيد منها مجاورتها للون نورمانديّ أحمر حمرة التفّاح. ومن الممكن أن تكون عينا السيّد «دو كامبرمير» احتفظتا في الجفنين بشيء من سماء «الكوتنتان» وما أحلاها في الأيّام الجميلة المشمسة التي يتلهّى فيها المتنزّه بأن يشاهد ويعدّ بالمئات ظلال أشجار الصفصاف المتوقّفة على حافة الطريق، ولكنّ هذه الجفون الثقيلة الرمضاء السيئة الإطباق كانت حالت حتّى دون مرور الفكر نفسه. لذلك كنتَ ترتدّ إلى الأنف الكبير الموارب، وقد حيّرتك هزالة تلك النظرة الزرقاء. فكان السيّد «دو كامبرمير» بمناقلة بين الحواس ينظر إليك بأنفه. وما كان أنف السيد «دو كامبرمير» هذا قبيحاً، بل هو إلى حدّ أكثر من جميل، مفرط البروز مفرط الاعتزاز بأهميّته. كان بعقفته وصقله ولمعانه وجدّته التامّة مهيّأ تماماً للتعويض عن قصور النظرة الروحي. ولئن كانت العينان أحياناً العضو الذي يتكشّف فيه الذكاء، فإن الأنف لسوء الحظّ (أيّاً يكون من جهة أخرى

التضامن الحميم والتأثير غير المتوقّع للقسمات بعضها في بعض) هو العضو الذي تنكشف فيه البلاهة بعامّة كأيسر ما يكون الانكشاف.

عبثاً كانت لياقة الأثواب القاتمة التي يرتديها السيد «دو كامبرمير» على الدوام، حتّى في الصباح، تطمئن أولئك الذين كان يبهرهم ويثير حنقهم الألق الوقح لبزّات الشاطئ التي يرتديها أناس ما كانوا يعرفونهم، فما كان بوسعك أن تدرك كيف تعلن زوجة الرئيس الأوّل بهيئة الفطين ولهجة صاحب السلطة، وبوصفها شخصاً أكثر خبرة منك بالمجتمع الراقي في «آلانصون» أن المرء في حضرة السيدة «دو كامبرمير» يحسّ نفسه في الحال، حتّى قبلما يعرف من عساه يكون، في حضرة رجل رفيع السويّة، رجل مهذّب أكمل التهذيب يعطيك صورة من غير نمط «بالبيك»، رجل تستطيع بجواره أن تتنفّس. لقد كان في نظرها، هي التي تختنق من جرّاء وفرة السائحين في «بالبيك» ممّن لا يعرفون عالمها، كأنّما قارورة أملاك. وبدا لي على العكس من فئة أناس كانت وجدتهم جدّتي في الحال «سيئين جداً»، ولعلّها وهي لا تفهم التحذلق كانت دهشت أن أفلح في أن تتزوّجه الآنسة «لوغراندان» التي لا بدّ كانت متشدّدة بأمور التأنّق هي التي كان شقيقها متأنّقاً إلى هذا الحدّ، كان يمكن بالأكثر أن نقول عن دمامة السيد «دو كامبرمير» المألوفة أنّها إلى حدّ ما من المنطقة وتتسم بشيء من الطابع المحلي القديم جداً. كنت إزاء قسماته المغلوطة التي وددت لو تقوّمها، أفكّر بأسماء تلك المدن النورمانديّة الصغيرة التي كان الكاهن الذي أعرفه يخطئ في أصولها لأن الفلاحين أساؤوا لفظ أو فهم الكلمة النورمانديّة أو اللاتينيّة التي تدلّ عليها فثبّتوا في نهاية المطاف معنى خاطئاً ولفظاً مشوّهاً في صيغة مغلوطة فاضحة نجدها مذ ذاك في سجلّات الكنائس، حسبما كان قال «بريشو». والحياة في هذه المدن الصغيرة القديمة يمكن على أيّة حال أن تكون ممتعة، ولا بدّ أن السيد «دو كامبرمير» كان يملك صفات مميّزة لأنه إن كان من خصائص الأم أن تفضّل المركيزة العجوز ابنها على كنّتها فإنّها في المقابل، هي التي وُلد لها عدّة أولاد اثنان منهم على الأقل

لا يخلوان من المزايا، كثيراً ما كانت تعلن أن المركيز في رأيها أفضل أسرته. وكان رفاقه في الفترة القليلة التي أمضاها في الجيش قد أطلقوا عليه، إذ يجدون تطولاً مفرطاً في قولهم «كامبرمير» لقب «كانكان» الذي لم يكن استحقّه في شيء في جميع الأحوال. كان يعرف كيف يزيّن حفل عشاء إذ يقول ساعة تقديم السمك (وإن تفسّخ السمك) أو الطبق الأول: «ماذا عساني أرى، يبدو لي أن ذلك صيد ثمين». وإذ تبنّت زوجته حين دخولها الأسرة كل ما ظنّت أنّه في صميم طراز ذاك المجتمع، فقد أخذت ترتفع إلى مستوى أصدقاء زوجها وتحاول أن تحسن في عينه على غرار عشيقة، وكما لو سبق أن كانت في صلب حياته يوم كان عازباً فتقول بهيئة طلقة حينما تحدّث ضبّاطاً عنه: «ستلتقون «كانكان» عمّا قليل؛ لقد ذهب «كانكان» إلى «بالبيك» ولكنّه سيعود في المساء». وكانت حانقة من أنها تعرّض نفسها للشبهات هذا المساء في منزل آل «فيردوران»، وهي لا تفعل إلّا نزولاً عند رغبة حماتها وزوجها ولصالح الإيجار. لكنّها، وهي أقلّ تهذيباً منهما، لم تكن تخفي السبب وكانت تهزأ من ذلك العشاء مع صديقاتها منذ خمسة عشر يوماً. «تعلمن أنّنا نتناول عشاءنا في منزل مؤجّرينا، والأمر يستحق زيادة في الإيجار. وبي فضول في الأساس أن أعلم ما الذي أمكن أن يفعلوه بمبنى «لا راسبليير» العتيق المسكين (وكأنّما ولدت وتعثر فيه على ذكريات أهليها جميعاً). لقد قال لي حارسنا العجوز البارحة أيضاً أنْ لم يعد شيء بعد معروفاً. وتخونني الجرأة في التفكير بكل ما لا بدّ يجري في الداخل، وفي اعتقادي أننا نحسن فعلاً إن أمرنا بتطهير كلّ شيء قبل العودة للإقامة فيه». قدمت متعالية مقطّبة ولها هيئة سيّدة عظيمة يحتل الأعداء قصرها بسبب حرب وقعت، ولكنّها تحسّ مع ذلك أنّها في بيتها وتحرص على أن تبيّن للمنتصرين بأنّهم دخلاء. لم تستطع السيّدة «دو كامبرمير» أن تراني بادئ الأمر لأنّني كنت في شرفة جانبيّة مع السيد «دو شارلوس» الذي كان يقول لي إنّه علم من جانب «موريل» أنّ والده سبق أن كان «مدير أعمال» في أسرتي وأنّه، هو

«شارلوس»، يعتمد اعتماداً كافياً على ذكائي وشهامتي (والكلمة مشتركة بينه وبين «سوان») كي أمتنع عن المتعة السافلة الخسيسة التي لن يتردّد أغبياء صغار منحطّون (وهكذا بلغني التحذير) في اتخاذها في مكاني وذلك بأن يكشفوا لمضيفينا تفاصيل ربّما ظنّها هؤلاء تحطّ من شأنه. وخلص البارون إلى القول: «إنّ مجرّد اهتمامي به وحمايتي له يتّسمان بشيء من الرفعة الزائدة ويبطلان الماضي». وفيما أصغي إليه وأعده بالصمت الذي كنت لزمته حتّى دون أمل أن يراني بالمقابل ذكيّاً وشهماً، كنت أنظر إلى السيدة «دو كامبرمير». وعسر عليّ أن أتعرّف الشيء الذائب اللذيذ الذي كان في ذاك اليوم بالقرب منّي ساعة العصرونيّة، على شرفة «بالبيك»، في الفطيرة النورماندية التي كنت أراها قاسية كالحصاة، وعبثاً كان الخلّص سيحاولون نهشها. فإذ تملّكها الحنق سلفاً من الجانب الساذج الذي ورثه زوجها عن أمّه والذي ربّما أكسبه مظهر «المُتَشَرّف» حينما يقدّمون له الخلّص، ورغبة منها مع ذلك في القيام بوظيفتها كامرأة من المجتمع الراقي فقد شاءت، حينما ذكروا لها اسم «بريشو»، أن تعرّفه إلى زوجها إذ سبق لها أن شاهدت صديقاتها الأوفر أناقة يفعلن هكذا، ولكن الحنق أو الكبرياء تغلّب على التباهي بحسن التصرّف فقالت، لا كما لعلّه انبغى أن تفعل: «اسمح لي أن أقدّم لك زوجي»، بل «أقدّمك لزوجي»، رافعة بذلك عالياً راية آل «كامبرمير» رغم أنفهم لأنّ المركيز انحنى أمام «بريشو» انحناءة تساوي ما كانت توقّعته. إلّا أن كامل مزاج السيدة «دو كامبرمير» هذا تغيّر فجأة حينما أبصرت السيد «دو شارلوس» الذي كانت تعرفه شكلاً. ولم تكن أفلحت في يوم أن يعرّفوها به حتّى في فترة العلاقة التي ربطتها بـ«سوان» لأن السيد «دو شارلوس»، إذ كان يتّخذ على الدوام جانب النساء، جانب زوجة أخيه ضدّ سائر عشيقات السيد «دو غيرمانت»، و«أوديت» وهي غير متزوجة حينذاك ولكنّ علاقتها بـ«سوان» قديمة، ضدّ الجديدات، كان قطع لـ«أوديت» وعداً - برّ به -، هو المدافع الصارم عن الأخلاق وحامي الأزواج المخلص، بأن لا يسمح بذكر اسمه للسيدة «دو

كامبرمير». ولم ترتب هذه الأخيرة بالتأكيد بأنّها لن تتعرّف هذا الرجل الذي يصعب الاقتراب منه إلّا في منزل آل «فيردوران». وكان السيد «دو كامبرمير» يعلم أن الأمر يمثل في عينيها فرحاً عظيماً إلى حدّ أحسّ معه أن نفسه رقّت به ونظر إلى زوجته بهيئة من يعني: «ها إنّك راضية أن تكوني قرّرت المجيء، أليس كذلك؟» كان قليل الكلام على أيّ حال وهو يعلم أنّه تزوّج امرأة متفوّقة. «أنا غير أهل»، يقول في كل لحظة ويستشهد بكلّ سرور بمثل لـ«لافونتين» وآخر لـ«فلوريان» يبدو أنّهما ينطبقان على جهله ويمكّنانه من جانب آخر بأشكال من التملّق المتعالي أن يبرهن لرجال العلم الذين ليسوا من نادي الخيول أنّه يمكنك الصيد وأن تكون قرأت أمثالاً. أمّا المصيبة فأنّه كاد لا يعرف إلّا مثلين، ولذلك كثيراً ما كان يرد ذكرهما. لم تكن السيدة «دو كامبرمير» غبيّة، ولكن بها عادات مختلفة مزعجة جداً. فلم يكن تشويه الأسماء عندها يتّسم على الإطلاق بشيء من التعالي الأرستقراطي. فليس هي من لعلّها، شأن الدوقة «دو غيرمانت» (التي كان ينبغي من جرّاء نبل محتدها أن تكون في مأمن من تلك المزيّة المضحكة)، كانت قالت كي لا يبدو أنّها تعرف الاسم القليل الأناقة (في حين هو الآن اسم واحدة من النساء اللواتي يصعب أكثر ما يصعب الاتصال بهن)، اسم «جوليان دو مونشاتو»: «سيدة هينة هي السيدة «بيك دو لا ميراندول»». لا، فحينما كانت السيدة «دو كامبرمير» تذكر خطأ أحد الأسماء فمن باب العطف وكي لا يبدو أنّها تعرف شيئاً ما، وحتّى حينما كانت تقرّ بالأمر من باب الصراحة فلظنّها أنها تخفيه بنزع علامته المميّزة. فإن كانت على سبيل المثال تدافع عن امرأة كانت تحاول أن تتستّر، فيما تودّ أن لا تكذب على من يتوسّل إليها أن تقول الحقيقة، على أن السيدة فلانة هي الآن عشيقة السيد «سيلفان ليفي» وكانت تقول: «لا . . . لست أعلم شيئاً على الإطلاق، وأظنّ أنهم لاموها على أنها أشعلت نار الهوى في صدر سيّد لا أعرف اسمه، شيء على شاكلة «كان»، «كون»، «كين»، وأظنّ على أيّة حال أن هذا السيد قضى منذ فترة طويلة جداً وأنْ لم يقع البتّة شيء

بينهما». إنّها الطريقة الشبيهة بطريقة الكذّابين - (وهي نقيض طريقتهم) - الذين يتصوّرون، إذ يحرّفون ما فعلوا حين يروون عنه لعشيقة أو لمجرّد صديق، أنّ هذا أو تلك لن تتبيّن في الحال أن الجملة المحكيّة (على غرار «كان» و«كون» و«كين») مدسوسة وأنّها من غير نوع الجمل التي تؤلّف الحديث وأنّها مزدوجة القعر.

سألت السيدة «فيردوران» زوجها همساً: «هل آخذ بذراع البارون «دو شارلوس»؟ فلعلّنا استطعنا، بما أن السيدة «دو كامبرمير» ستكون على يمينك، مصالبة المجاملات». فقال السيد «فيردوران»: «لا، لأنّ الثاني أرفع مرتبة (ويقصد بذلك أن السيد «دو كامبرمير» مركيز)، وأن السيد «دو شارلوس» باختصار القول أدنى منه». - «حسن، أقيمه إذاً إلى جانب الأميرة». وعرّفت السيدة «فيردوران» السيدة «شيرباتوف» بالسيد «دو شارلوس»، وانحنى الاثنان بصمت وكأنّما يعرفان الكثير الواحد عن الآخر ويعد كلّ منهما الآخر بسريّة متبادلة وقدّمني السيد «فيردوران» للسيد «دو كامبرمير». كانت قامته المديدة ومحيّاه النضر يبرزان في تأرجحهما، حتّى قبل أن يكون تحدّث بصوته القوي المتلجلج، بعض الشيء، التردّد العسكري لدى قائد يحاول طمأنتك ويقول لك: «لقد كلّموني، وسوف نتدبّر الأمر؛ على رفع عقوبتك، فلسنا مصّاصي دماء؛ سيكون كلّ شيء على ما يرام». ثمّ قال لي وهو يشدّ على يدي: «أظنّ أنّك تعرف والدتي». وفعل «أظنّ» كان يبدو له من وجهة أخرى أنه يناسب التحفّظ الذي يسود أوّل تعريف بك ولا يعبّر مطلقاً عن شك، إذ أضاف يقول: «وإني على أيّة حال أحمل رسالة منها إليك». كان السيّد «دو كامبرمير» يحسّ سعادة ساذجة أن يعود فيرى أماكن عاش فيها فترة طويلة. فقال للسيدة «فيردوران»: «ها إني أعرف طريقي»، فيما تلتمع الدهشة في عينيه لتعرّفه لوحات الأزهار المرسومة فوق الأبواب والتماثيل الرخامية النصفيّة على قواعدها العالية. كان يمكن مع ذلك أن يحسّ بالغربة لأن السيدة «فيردوران» كانت قد حملت معها الكثير من الأشياء القديمة الجميلة التي

تملكها. وما كانت السيدة «فيردوران» من هذه الزاوية، وفيما يعتبر آل «كامبرمير» أنّها تقلب كلّ شيء رأساً على عقب، ثوريّة بل محافظة ذكية بمعنى لا يدركونه، كانوا كذلك يتّهمونها زوراً بأنها تمقت هذا المنزل القديم وأنّها تحطّ من قدره بلوحات بسيطة بدلاً من مخاملهم الفاخرة، مثلما يلوم كاهن جاهل مهندساً في دار الأسقفيّة لأنّه يعيد إلى مكانها خشبيات قديمة محفورة كانت وضعت جانباً وظنّ رجل الدين من الأفضل أن تحلّ محلّها زينات ابتاعها في ساحة «سان سولبيس». ثمّ إن حديقة متعدّدة النباتات أخذت تحلّ أمام القصر محلّ الأحواض التي كانت موضع اعتزاز آل «كامبرمير» وبستانيّهم من قبلهم. وكان هذا يعتبر «كامبرمير» وحدهم أسياده ويئنّ من جور آل «فيردوران» كما لو احتلّ الأرض مؤقتاً غازٍ وجماعة من الأجلاف، فيروح سراً يتظلّم إلى المالكة التي نُزعت ملكيّتها وتثور ثائرته للمكانة الزريّة التي يضعون فيها شجيرات «الأروكارية» وأزهار «البيغونيا» والمُخلّدات والدهلية المزدوجة، ولأنهم يجرؤون في منزل غنيّ إلى هذا الحدّ على غرس أزهار بمثل ابتذال الأقحوان وشَعر الأرض. وكانت السيّدة «فيردوران» تحسّ تلك المقاومة الخفيّة وقد عقدت العزم إن هي أقدمت على إيجار طويل الأمد أو ابتاعت «لا راسبليير» أن تشترط صرف البستاني الذي تحرص عليه صاحبة البيت العجوز أشدّ الحرص. فقد خدمها مقابل شيء زهيد في الأيّام الصعبة وكان يعبدها. ولكنّه كثيراً ما كان يقول عن السيّدة «دو كامبرمير» التي اضطرّت عام ٧٠ وقد فاجأها الغزو في قصر كانت تملكه في الشرق أن تتحمّل على مدى شهر الاتصال بالألمان، يقول، من جرّاء هذا التجزيء الغريب في رأي عامّة الناس حيث يداخل الازدراء الأدبي الأكثر عمقاً التقدير الذي يتّسم بأشدّ الحماسة والذي يمتزج بدوره بأحقاد دفينة: «ما عابوا أشدّ العيب على السيدة المركيزة أنّها اتخذت في أثناء الحرب جانب البروسيّين وأنّها حتى أسكنتهم في بيتها. ولعلّني في وقت آخر كنت فهمت، ولكنّها ما كان ينبغي أن تفعل في زمن الحرب. فذاك غير

صحيح». وهكذا كان يُخلص لها حتّى الموت ويكرّمها لطيبتها ويؤكّد أنّها ارتكبت جريمة الخيانة. وغاظ السيدة «فيردوران» أن يزعم السيد «دو كامبرمير» أنه يتعرّف بهذا التمام «لا راسبلير». وأجابت تقول: لا بدّ مع ذلك أن تجد بعض التغييرات؛ فثمّة بادئ الأمر تماثيل ضخمة من البرونز من أعمال «باربديين» ومقاعد لعينة موبّرة سارعت إلى إرسالها إلى التسقيفة وهي أكثر مما تستحق». وبعد هذا الردّ اللاذع الموجّه إلى السيد «دو كامبرمير» مدّت له ذراعيها للذهاب إلى المائدة. وتردّد لحظة يقول في نفسه: «ليس يصحّ مع ذلك أن أمرّ قبل السيد «دو شارلوس».» ولكنّه قرّر، إذ فكّر أن هذا صديق قديم لأهل الدار بما أنّه لم يُخَصّ بمقعد الشرف، قرّر أن يأخذ الذراع الممدودة إليه وقال للسيدة «فيردوران» كم كان فخوراً بقبوله في الندوة (هكذا سمّى النواة الصغيرة دون أن يفوته أن يضحك قليلاً اعتزازاً بمعرفة تلك اللفظة). أمّا «كوتار» الذي كان يجلس بجانب السيد «دو شارلوس» فكان ينظر إليه من تحت نظّارته للتعارف وكسر الجليد بغمزات تزيد كثيراً في إلحاحها عمّا لعلّها كانت بدت فيما مضى ولا تقطّعها صنوف من الخجل. ولم يعد زجاج نظّارته يحتوي نظرات الإغراء عنده، وقد تعاظمت بابتسامته فتفيض عنه من كلّ جانب. ولم يشكّ البارون الذي كان يبصر بيسر أشباهاً له في كلّ مكان، لم يشكّ أن «كوتار» واحد منهم وأنّه يغمز له بعينه. فأبدى الأستاذ في الحال قسوة الشاذّين، وهم في احتقارهم لمن يحسنون في عينه بمثل تهالكهم الشديد على من يحسن في عينهم. وليس من شك، مع أن الجميع يتحدّثون كذباً عن العذوبة التي يحجبها القدر على الدوام والمتمثلة في أن تُحَبّ، بالتأكيد أن ليس يسري على أمثال «شارلوس» فحسب القانون العام الذي قوامه أنّ الشخص الذي لا نحبّه ويحبّنا إنّما يبدو لنا عسير الاحتمال. وأننا نفضّل على ذلك الشخص، على تلك المرأة التي لن نقول عنها إنّها تحبّنا بل هي تتشبث بنا، صحبة أيّة امرأة أخرى لا تتمتع لا بسحرها ولا بفتنتها ولا بظرفها. ولن تعود فتكتسبها في نظرنا إلا بعدما تكفّ عن

حبّنا. ويمكن بهذا المعنى أن لا نبصر في الحنق الذي يثيره في صدر أحد الشاذّين رجل يسوء في عينه ويسعى في إثره سوى نقل لهذه القاعدة الشاملة بصيغة مضحكة. ولكنها أكثر قوّة عنده. ففي حين يحاول سواد الناس إخفاءها فيما يحسّون بها في الوقت نفسه فإن الشاذّ يُشْعِرُ بها دون شفقة ذاك الذي كان سبباً لها مثلما لعلّه بالتأكيد لن يُشْعِرَ امرأة بها، كما هو أمر السيد «دو شارلوس» مثلاً مع الأميرة «دو غيرمانت» التي كان غرامها يزعجه ولكنّه يدغدغ مشاعره. ولكنّهم حينما يبصرون رجلاً آخر يبدي نحوهم ميلاً خاصاً حينئذ، إمّا لعدم إدراكهم أنّه ذات الميل الذي بهم، وإمّا تذكّر مزعج بأن هذا الميل الذي يجمّلون فيه ما داموا هم الذين يحسّون به إنّما يُعَدُّ عيباً، وإمّا رغبة منهم في ردّ الاعتبار لذواتهم بتصرّف أرعن في ظرف لا يكلّفهم فيه شيئاً، وإمّا خشية من افتضاح أمرهم تعود تداخلهم فجأة حينما لا تقودهم الشهوة من بعد معصوبي العينين من تهوّر إلى آخر، وإمّا من حنق أن يلحق بهم، من جرّاء موقف ملتبس يقفه آخر، الضرر الذي ما كانوا يخشون إلحاقه بآخر غيرهم من جرّاء موقفهم إن راقهم ذاك الآخر، حينئذ يمكنك أن تسمع أولئك الذين لا يجدون حرجاً في ملاحقة شاب على مدى مسافات ولا يحوّلون أنظارهم عنه في المسرح حتّى إن كان برفقة أصدقاء، فيعرّضونه بذلك للاختصام معهم، يمكنك لأقلّ ما ينظر إليهم آخر لا يروقهم أن تسمعهم يقولون: «من تظنّني يا سيد؟ (لمجرد أنّهم يأخذونهم على حقيقتهم)، لست أفهمك، ولا جدوى من الإلحاح فأنت مخطئ»، ويبلغ بهم الأمر إن دعت الضرورة حدّ الصفعات ويثورون في حضرة من يعرف المتهوّر قائلين: «ويحك، أوتعرف هذا القبيح؟ وأيّة طريقة في النظر إليك! يا له من تصرّف!» أمّا السيد «دو شارلوس» فلم يذهب بعيداً إلى هذا الحدّ، ولكنّه اتخذ هيئة المُهان المجافي التي تتّخذها نساء حينما يبدو أنك تظنّهن طائشات ولسن كذلك، بل يزدن إن كنّ كذلك. والشاذ إن وضعته في حضرة شاذّ آخر ليس يرى على أيّ حال صورة مزعجة لذاته فحسب، لا تستطيع، إذ هي محض

صورة جامدة، إلّا إيذاء كبريائه، بل ذاتاً أخرى له حيّة تنشط في الاتجاه نفسه وهي قادرة والحالة هذه على إيذائه في مطارح حبّه. لذلك تراه من منطلق غريزة البقاء يطعن بمنافس محتمل إمّا مع من يستطيعون إيذاءه (ودون أن يبالي الشاذّ رقم ١ بأن يُعَدّ كاذباً حين ينهال على هذا النحو على الشاذّ رقم ٢ في نظر أشخاص يمكن أن يكونوا على اطّلاع على حالته الخاصّة)، إمّا مع الشابّ الذي «كشّه» والذي ربّما اختُطف منه ولا بدّ من إقناعه بأن الأشياء ذاتها التي يصلح له أن يفعلها معه ربّما تسبّبت في خراب حياته إن قادته النفس إلى تعاطيها مع الآخر. وفي ما يخصّ السيّد «دو شارلوس» الذي كان يفكّر ربّما بالمخاطر (وهي من نسج الخيال) التي كان وجود «كوتار»، وهو من يفهم خطأ ابتسامة يعرّض «موريل» لها، لم يكن الشاذّ الذي لا يروقه صورة كاريكاتورية عنه فحسب بل كان إلى ذلك خصماً مختاراً. فإن تاجراً، ويعمل في تجارة نادرة، إن رأى، وهو يحلّ في المدينة الريفيّة التي يأتي للإقامة فيها مدى الحياة، في الساحة نفسها قبالته بالضبط التجارة نفسها يديرها منافس لن يكون أكثر خيبة من أشباه «شارلوس» يمضون ليخبّئوا حبّهم في منطقة هادئة فيبصرون في يوم وصولهم نبيل المنطقة أو الحلّاق اللذين لا يدع له مظهرهما وتصرفاتهما أيّ شك. والتاجر يكنّ في الغالب الكراهية لمنافسه، والكراهية تنقلب أحياناً كآبة، فإن اتّفق أقلّ قدر محمّل بالوراثة إلى حدّ ما رأيت في المدن الصغيرة التاجر يظهر بدايات جنون لا شفاء لها إلّا إذا دُفع إلى بيع تجارته وهجر بلده. أمّا حنق الشاذّ فأشدّ تعذيباً بعد. لقد أدرك منذ الثانية الأولى أن النبيل والحلّاق اشتهيا رفيقه الشابّ. وعبثاً يردّد مئة مرّة في اليوم أمامه أن الحلّاق والنبيل لصّان قد يُلحق به الاقتراب منهما العار فإنّه مضطر، شأن «هارباغون»، أن يسهر على كنزه وينهض ليلاً ليتأكد أنّهم لا يأخذونه منه. وهذا دونما شكّ ما يجعل الشاذ يكتشف الشاذ بسرعة ويقين يكادان لا يخيبان حتّى أكثر مما تفعل الشهوة أو التلاؤم في العادات المشتركة وعلى قدر خبرة المرء بذاته تقريباً، وهي

الوحيدة الحقّة. من الممكن أن يخطئ حيناً ولكنّما تردّه إلى جادّة الصواب كهانة سريعة. لذلك كان خطأ السيد «دو شارلوس» قصير المدّة. وقد أبرز له وضوح البصيرة السماوي بعد مضيّ لحظة أن «كوتار» لم يكن من عجينته وأنْ ليس عليه أن يخشى تودّده لا على نفسه، وما كان ذلك إلّا ليغيظه، ولا على «موريل»، وهو ما كان بدا له أشدّ خطراً. واستعاد هدوءه، ولمّا كان بعد تحت تأثير مرور «فينوس» الخنثى أخذ يبتسم لأسرة «فيردوران» ابتسامة باهتة بين حين وآخر دون أن يكلّف نفسه عناء شق فمه مكتفياً ببسط زاوية من شفتيه فيما يشعل مقدار ثانية نار الدلع في عينيه هو الكلف بالرجولة، كما لعلّ زوجة أخيه الدوقة «دو غيرمانت» كانت بالضبط فعلت. وقالت السيدة «فيردوران» للسيد «دو كامبرمير» بلهجة يلوّنها الازدراء: «تذهب كثيراً إلى الصيد يا سيّد؟» وسأل «كوتار» المعلّمة قائلاً: «هل روى لك «سكي» أنّه وقع لنا حادثة طريفة؟» وأجاب السيّد «دو كامبرمير»: «أذهب إلى الصيد في غابة «شانتيي» على وجه الخصوص». وقال «سكي»: «لا، لم أروِ عن شيء». - «وهل هي أهل لهذا الاسم؟» يقول «بريشو» موجّهاً سؤاله إلى السيّد «دو كامبرمير» بعدما نظر إليّ بطرف عينه إذ سبق أن وعدني بالكلام عن الاشتقاقات فيما سألني أن أخفي عن آل «كامبرمير» الازدراء الذي توحي به اشتقاقات كاهن «كومبريه». وقال السيد «دو كامبرمير»: «لا بدّ أني عاجز عن الفهم، ولكنّي لا أدرك معنى سؤالك». فردّ «بريشو» قائلاً: «مرادي أن أقول: هل يُغنّي فيها الكثير من طيور العقعق؟» وكان «كوتار» يعاني في تلك الأثناء من أن السيّدة «فيردوران» تجهل أنّهم أوشكوا أن يفوتهم القطار. - «هيّا، ويحك»، تقول السيدة «كوتار» لزوجها بغية تشجيعه، «احكِ عن مغامرتك العجيبة». فقال الدكتور وهو يعيد سرد قصّته: «إنّها في الحقيقة غير عاديّة. فحينما شاهدت القطار في المحطّة وقفت ذاهلاً. الذنب في كل ذلك ذنب «سكي». ما أقرب أن تكون غريب الأطوار في معلوماتك يا عزيزي! و«بريشو» الذي كان ينتظرنا في المحطة!» فقال الجامعي وهو

يلقي من حوله ما تبقّى له من نظر ويبتسم بشفتيه الرقيقتين: «كنت أظنّ أنكم إن كنتم تأخرتم في «غرانكور» فلأنّكم التقيتم إحدى المشّاءات». فقال الأستاذ: «هلّا خرست! أما إن سمعتك زوجتي! فالزوجة التي لنا «غيور». فصرخ «سكي»، وقد أيقظت فيه مزحة «بريشو» الماجنة مرحه التقليدي: «آه! «بريشو» هذا هو، إنّه لا يتغيّر»، مع أنّه ما كان يعلم والحقّ يقال إن سبق أن كان الجامعيّ ماجناً. وكيما يضيف إلى هذه الأقوال التي ثبّتها العرف الإشارة الشعائريّة تظاهر بأنّه لا يقوى على مقاومة رغبته في قرص ساقه». وأردف «سكي» يقول «إنّه لا يتغيّر هذا الرجل»، وأضاف دون أن يفكّر بالطابع الحزين والمضحك الذي يسبغه على هذه الكلمات شبه العمى الذي أصابه: «هناك على الدوام نظرة سريعة إلى النساء». وقال السيّد «دو كامبرمير»: «انظر أي أمر هو أن تلتقي عالِماً. فإني أصطاد منذ خمسة عشر عاماً في غابة «شانتيي» ولم أفكّر يوماً في ما يعنيه اسمها. وحدجت السيّدة «دو كامبرمير» زوجها بنظرة قاسية، فيما كان بودّها أن يتّضع هكذا أمام «بريشو». وزاد استياؤها بعد حينما أخذ «كوتار» إزاء كلّ عبارة «جاهزة» يستخدمها «كانكان»، أخذ يبرهن للمركيز، وكان يعرف مواطن القوّة والضعف فيها إذ سبق أن جدّ في تعلّمها، أنّها لا تعني شيئاً، فيما يقرّ المركيز بغبائه: «لماذا: غبيّ كالملفوف؟ أتظنّ أن الملفوف أكثر غباء من أي شيء آخر؟ وتقول: ردّد الأمر ذاته ستاً وثلاثين مرّة؛ فلمَ ست وثلاثون تخصيصاً؟ ولمَ قولك: نام مثل وتد؟ ولمَ رعود «بريست»؟ ولمَ قولك: عمل الأربع مئة عَمْلة؟»[1] ولكنّ الدفاع عن السيّد «دو كامبرمير» كان يتولّاه آنذاك «بريشو» الذي كان يفسّر منشأ كلّ عبارة. أمّا السيّدة «دو كامبرمير» فكان يشغلها على وجه الخصوص أن تنظر في التغييرات التي أدخلها آل «فيردوران» على «لا راسبليير» كي تتمكّن من انتقاد بعضها واصطحاب غيرها إلى «فيتيرن» أو

(١) كقولنا: عمل السبعة وذمّتها.

ربّما ذاك البعض نفسه. «إنّي أتساءل ما عسى تكون الثريّا التي تتدلّى مواربة تماماً. أكاد لا أتعرّف «راسبليير» القديمة التي سكنتها»، تضيف قولها بلهجة مألوفة أرستقراطيّتها كما لعلّها كانت تكلّمت عن خادم تزعم أقل ما تزعم الإشارة إلى سنّه والأكثر أن تقول إنّه حضر ميلادها. ولمّا كانت لغتها مستمدّة من الكتب أضافت تقول بصوت خفيض: «يبدو لي مع ذلك أنّني لو كنت أقطن منزل غيري لداخلني استحياء من تغيير كلّ شيء على هذا النحو». وقالت السيدة «فيردوران» للسيد «دو شارلوس» و«موريل» وهي تأمل أن السيّد «دو شارلوس» يشارك «في الاستعراض» وسوف يمتثل للقاعدة القائلة بأن يصل الجميع في القطار نفسه: «من أسف أن لا تكونا وصلتما معهم». وأضافت تقول لتبرهن أنّها كانت تشارك بوصفها سيدة البيت في جميع الأحاديث في وقت واحد: «أمتيقّن أنت أن «شانتيبي» تعني طائر العقعق الذي يغنّي؟» وقالت لي السيّدة «دو كامبرمير»: «كلّمني قليلاً عن عازف الكمان هذا، فإنّه يثير اهتمامي. إنّي أعشق الموسيقى وإخالني سمعت من يتحدّث عنه، فهيّا علّمني». وكانت علمت أن «موريل» جاء مع السيّد «دو شارلوس» وبودّها إذ تُحضر الأوّل أن تحاول الارتباط بصداقة الثاني، على أنها أضافت كي لا يسعني استشفاف ذاك السبب: «والسيّد «بريشو» يثير اهتمامي أيضاً». فإن كانت السيّدة «دو كامبرمير» واسعة الثقافة، فإنّها، مثلما يكاد بعض الذين يبدون استعداداً للبدانة لا يأكلون ويمشون طوال النهار دون أن يكفّوا عن السمنة على مرأى منك، كانت بدورها أيضاً تعمق عبثاً، ولاسيّما في «فيتيرن»، فلسفة أكثر فأكثر باطنيّة وموسيقى أكثر فأكثر علمية ولا تخرج من هذه الدراسات إلّا لحبك دسائس تمكّنها من «قطع» صداقات شبابها البورجوازية وإقامة علاقات ظنّت بداية أنّها جزء من مجتمع أسرة زوجها، وتبيّنت فيما بعد أنّها واقعة على درجة أكثر علوّاً وأكثر بعداً. قال فيلسوف لم يكن على حداثة كافية بالنسبة إليها، وهو «لايبنيز»، إن المسافة طويلة من العقل إلى القلب. والمسافة تلك لم يتفق للسيدة «دو كامبرمير» أكثر

مما اتّفق لأخيها من قوّة لاجتيازها. فقد كانت، وهي لا تنصرف عن قراءة «ستيوارت ميل» إلّا إلى قراءة «لاشلييه»[(١)]، كلّما قلّ إيمانها بحقيقة العالم الخارجي زاد ما تصرف من سعي حثيث في محاولة إيجاد موقع طيّب لها فيه قبل مماتها. وإذ هي مغرمة بالفنّ الواقعي لم يكن ثمة شيء محسوس يبدو لها على وضاعة كافية كي يستخرج نموذجاً للرسام أو الكاتب. ولعلّ لوحة أو رواية موضوعهما المجتمع الراقي كانتا أورثتاها غثياناً، فيما يمثل «موجيك» تولستوي وفلّاح «مييه» الحد الاجتماعي الأقصى التي لا تسمح للفنان بتجاوزه. ولكنّما تجاوز الخطّ الذي يحدّ علاقاتها الخاصة، والارتفاع به حتّى مخالطة الدوقات إنما يشكّل هدفاً لكامل جهودها وذلك لقلّة ما يبدو العلاج الروحي الذي تخضع عن طريق دراسة أمّهات الكتب ناجعاً ضدّ الحذلقة الفطريّة المرضيّة التي تتنامى في نفسها. بل بلغ بتلك الحذلقة في نهاية المطاف أن تشفيها من بعض ميول إلى البخل والزنى كانت تنزع إليها في صباها في ما يشبه تلك الحالات المرضيّة الغريبة الدائمة التي يبدو أنها تحصّن المصابين بها ضدّ الأمراض الأخرى. وما كنت أستطيع بأيّة حال، وأنا أسمع حديثها، الحيلولة دون أن أنصف، ولا أصيب من ذلك أيّة متعة، العناية المثلى في اختيار تعابيرها. فقد كانت تلك التي يستخدمها في عصر معيّن كلّ الذين يمتازون بالسعة الفكريّة ذاتها إلى حدّ تزوّدك معه العبارة المرهفة في الحال، كمثل قوس الدائرة، بوسيلة خطّ وتحديد كامل الدائرة. لذلك كان من شأن تلك التعابير أن يبعث في نفسي الملل في الحال أولئك الذين يستخدمونها على أنّهم معروفون لديّ ولكنّما يُعَدّون من طينة متفوقة وكثيراً ما أُعْطِيتُهم جيراناً رائعين وغير مُحَبّذين. «لستِ تجهلين يا سيدتي أن الكثير من مناطق الغابات تأخذ اسمها من الحيوانات التي تعيش فيها. فإلى جانب

---

(١) Jules Lachalier, Stuart Mill: فيلسوفان إنكليزي وفرنسي على التوالي، الأوّل مناهض للحدس والاستقراء بجميع أشكاله والثاني منادٍ به.

غابة «شانتيبي» يقع حرج «شانتيرين»[1]. فقال السيّد «دو كامبرمير»: «لست أعلم أيّة ملكة يعنون، ولكنك لست كيّساً إزاءها». وقالت السيدة «فيردوران»: «خذها يا «شوشوت». والى جانب ذلك هل انقضت الرحلة على ما يرام؟» - «لم نلتق سوى خيالات بشر كانت تملأ القطار. ولكنّي أجيب عن سؤال السيّد «دو كامبرمير»»: فلفظة «رين - reine» هنا لا تعني زوجة الملك بل الضفدعة، وهو الاسم الذي لبثت عليه أمداً في هذه المنطقة كما هو جليّ في محطة «رينفيل - Renneville» التي يجب أن تكتب «Reineville» وقال السيد «دو كامبرمير» للسيدة «فيردوران» وهو يشير إلى سمكة أمامه: «يبدو لي أن ثمة صيداً ثميناً». كان ذلك من المجاملات التي يظنّ أنّه يدفع بها حصّته في حفل عشاء ويردّ المجاملة مذ ذاك بمثلها. (فكثيراً ما كان يقول وهو يحدّث زوجته عن أصدقاء لهما: لا داعي لدعوتهم، فقد ابتهجوا كثيراً لوجودنا بينهم وهم من كانوا يشكرونني»). «ويجدر بي من ناحية أخرى أن أقول إني أذهب كل يوم تقريباً إلى «رينفيل» ومنذ سنوات كثيرة، ولم أجد فيها ضفادع أكثر من غيرها. وكانت السيدة «دو كامبرمير» قد أرسلت في طلب كاهن رعية تملك فيها أرزاقاً كثيرة، وكان من ذات طرازك الفكريّ فيما يبدو، وقد ألّف كتاباً». فأجاب «بريشو» منافقاً: «أعتقد ذلك، وقد قرأته باهتمام عظيم». وقد بعث الارتياح الذي يوليه إيّاه هذا الجواب بصورة غير مباشرة ضحكة طويلة لدى السيد «دو كامبرمير». «آه! حسن، إن مؤلّف، كيف عساني أقول، هذه الجغرافية، هذا المعجم، يعلق تعليقاً طويلاً على اسم قرية صغيرة كنّا فيما مضى، إن جاز لي القول، أسيادها وتدعى «بونتا كولوفر» (Pont-à-Couleuvre). ولست بالطبع سوى جاهل فظّ بالمقارنة ببحر العلم هذا، ولكنّي ذهبت ألف مرة إلى «بونتا كولوفر» وهي واحدة

(١) يخيّل لأوّل وهلة أن الاسم يعني: حيث تغنّي الملكة وهذا ما يبرّر ملاحظة السيّد «دو كامبرمير».

بالنسبة إليه، وليأخذني الشيطان إن كنت رأيت فيها في يوم واحدة من تلك الحيّات الشنيعة، أقول الشنيعة على الرغم من المديح الذي يكيله لها هذا الطيّب «لافونتين» (و«الرجل والثعبان» واحدة من الامثولتين).» وأجاب «بريشو»: «أنت لم تر منها واحدة وأنت من أصاب إذ رأى. إن الكاتب الذي تتحدث عنه يعرف موضوعه حق المعرفة بالتأكيد فقد ألّف كتاباً ممتازاً». وصاحت السيدة «دو كامبرمير» قائلة: «بل الكتاب والقول بالتأكيد في محلّه، من عمل راهب بندكتي[1] حقيقي». - «لا شكّ أنّه رجع إلى بعض السجلّات الكنسيّة (والمقصود بذلك لوائح الدخول الكنسيّة ومقارّ الرعايا في كلّ دائرة أسقفية)، وهو ما أمكن أن يزوّده باسم المسؤولين العلمانيّين وموزّعي المُقْطَعَات الماليّة من رجال الدين. ولكنّ ثمة مصادر أخرى، وقد استقى منها أحد أكثر أصدقائي علماً، وقد وجد أنّ المكان نفسه كان يدعى «بونتا كيلوفر» (Pont-à-Quileuvre). وقد دفعه هذا الاسم الغريب إلى العودة إلى ما كان أبعد من ذلك، إلى نصّ لاتينيّ يُطْلَقُ فيه على الجسر الذي يظنّه صديقك مرتعاً للثعابين اسم Pons cui aperit (الجسر لمن يفتحه)، وهو جسر مغلق لا يُفتح إلا مقابل أجر مناسب». - «تتكلّم عن الضفادع. أمّا أنا فإخالني، إذ أراني وسط جماعة عالمة إلى هذا الحدّ، الضفدعة أمام المحكمة العليا في أثينا» (وهو المثل الثاني)، يقول «كانكان» الذي كثيراً ما كان يطلق هذه المزحة في جوّ من الضحك الشديد ويظنّ بذلك، تواضعاً منه وبشيء من حضور البديهة في آن، أنّه يقرّ بجهله ويبرز معارفه. أمّا «كوتار» الذي سدّ عليه صمت السيد «دو شارلوس» الأبواب وحاول التزوّد بالهواء في الجوانب الأخرى فقد استدار صوبي وطرح عليّ واحداً من تلك الأسئلة التي كانت تدهش مرضاه إن أصاب فتبرهن بذلك أنه يقيم داخل جسمهم؛ فإن كان العكس ولم يصب سمحت له بتصويب بعض النظريّات وتوسيع وجهات النظر

---

(١) الرهبان البندكتيون اشتهروا بدقة معارفهم وعمق مؤلفاتهم.

القديمة. وسألني قائلاً، وهو متيقّن من إثارة الإعجاب بمعارفه أو من إكمالها: «حينما تصل إلى هذه المواقع العالية نسبيّاً كهذا الذي نحن فيه الآن هل تلاحظ أن ذلك يزيد من نزعة الاختناقات لديك؟» وسمع السيد «دو كامبرمير» السؤال وابتسم وأطلق نحوي عبر الطاولة قوله: «لا أستطيع أن أقول لك كم يضحكني أن أعلم عن اختناقاتك». ما كان مراده أن يقول إن الأمر يشيع السرور في نفسه وإن كان ذلك صحيحاً بدوره. ذلك لأن هذا الرجل ما كان يسعه سماع من يتحدث عن مصيبة الغير دونما شعور بالراحة ومرح عصبي سرعان ما يخليان المكان لإشفاق قلبه الطيّب. ولكن ما كان لجملته معنى آخر أوضحته الجملة التي أعقبتها: «ذلك يضحكني، يقول، لأنّ شقيقتي تعاني بالضبط منها». وخلاصة القول أن الأمر كان يشيع السرور في نفسه كما لو كان سمعني أذكر بمثابة أحد أصدقائي واحداً ممّن تردّدوا كثيراً على منزلهم. «ما أصغر العالم»، تلك كانت الخاطرة التي أدلى بها ذهنياً وأبصرتها مخطوطة على وجهه المشرق حين كلّمني «كوتار» عن اختناقاتي. وقد أصبحت هذه منذ ذلك العشاء ضرباً من العلاقة المشتركة ما كان يفوت السيد «دو كامبرمير» البتّة أن يسألني عن أخبارها حتّى لمحض أن يزوّد شقيقته بالأخبار عنها.

كنت أفكّر، فيما أجيب عن الأسئلة التي تطرحها عليّ زوجته حول «موريل»، بحديث جرى بيني وبين والدتي عصراً. ولمّا كانت والدتي تذكّرني، فيما لا تنهاني عن ارتياد منزل آل «فيردوران» إن أمكن أن يفرّج الأمر عنّي، بأنّه وسط ما كان ليروق جدّي ولعلّه كان صاح من جرّائه: «حذار! حذار!» فقد أضافت قولها: «اسمع، لقد قال لي الرئيس «توروي» وزوجته إنهما تناولا طعام الغداء مع السيّدة «بونتان». لم يطلب أحد منّي شيئاً ولكنّما خلتني فهمت أن قراناً بينك وبين «ألبيرتين» ربّما شكّل حلم عمّتها. في اعتقادي أن السبب الحقيقي لذلك أنّك قريب جداً إلى قلب الجميع. ومع ذلك فليس البذخ الذي يظنّونك قادراً أن توفّره لها ولا العلاقات التي يعلمون في كثير أو قليل أننا نقيمها، ليس كلّ ذلك بمنأى

عن الأمر وإن كان ثانوياً. وما كنت لأحدّثك عن الأمر لأنّني غير حريصة عليه، ولكنّني فضّلت إذ أتصوّر أنّهم سيحدّثونك عنه، أن أكون السبّاقة». وقد سألت أمّي قائلاً: «ولكن كيف ترينها أنت؟» - «ولكن لست أنا من سيتزوّجها: بوسعك بالتأكيد أن تفعل أفضل ألف مرّة على صعيد الزواج، ولكنّي أعتقد أن جدّتك ما كان بودّها أن يؤثّروا فيك. لا أستطيع أن أقول لك حاليّاً كيف أجد «ألبيرتين»، فإني لا أجدها، وسأقول لك مثل السيدة «دو سيفينييه»: «إن لها صفات طيّبة، ذلك اعتقادي على الأقل. ولكنّي في هذه البداية لا أعرف أن أمدحها إلّا بجمل منفيّة، فليست هذا، وليست تملك لهجة مدينة «رينّ» وربّما قلت مع مرّ الزمن: إنّها هذا. وسأجدها دوماً على ما يرام إن كان لا بدّ أن تُسعدك». لكنّ أمّي وضعتني، بهذه الكلمات ذاتها التي تعيد إليّ أمر تقرير سعادتي، في حالة من الشكّ سبق أن أقمت فيها حينما أحسستني فجأة، بعدما أذن لي والدي بالذهاب إلى مسرحية «فيدر» وعلى وجه الخصوص بأن أصبح أديباً، أحملُ مسؤولية كبيرة عليّ ويسكنني هاجس غمّة وتلك الكآبة التي تداخلك حينما تكفّ عن الخضوع لأوامر تحجب عنك المستقبل يوماً فيوماً وتبين أنّك شرعت أخيراً تعيش حياتك جدياً على غرار شخص بالغ، الحياة الوحيدة التي في متناول كلّ منّا.

ربّما كان خيراً لي أن أنتظر قليلاً، وأن أبدأ بلقاء «ألبيرتين» شأني في الماضي لأحاول أن أعلم إن كنت أحبّها حقاً. بوسعي أن أصطحبها إلى منزل آل «فيردوران» كي أسرّي عنها، وذكّرني ذلك بأني لم أجئ بنفسي هذا المساء إلّا لأعلم إن كانت السيدة «بوتبوس» تقطن هناك أم هي تزمع المجيء. ولم تكن تتناول عشاءها على أيّ حال. «بشأن صديقك «سان لو»، تقول السيدة «دو كامبرمير» مستخدمة هكذا عبارة تنمّ عن ترابط أكبر في الأفكار ممّا كانت دلّت عليه جملها، لأنّها إن كلّمتني عن الموسيقى فقد كانت تفكّر بآل «غيرمانت»، «تعلم أن الجميع يتحدّثون عن زواجه بابنة شقيق الأميرة «دو غيرمانت». وسأقول لك في ما يخصّني أنّي لا أهتمّ البتّة

بكلّ هذا الهذر المجتمعي». وتملّكتني خشية أن أكون تكلّمت دون وداد في حضور «روبير» عن تلك الفتاة الزائفة في طرافتها والتي تتساوى ضحالة فكرها وعنف طباعها. ليس من خبر تقريباً يُنْقَلُ إلينا إلّا ويجعلنا نأسف على أحد أقوالنا. وأجبت السيدة «دو كامبرمير»، وكان الجواب صحيحاً بكلّ حال، أنّي لا أعلم عن ذلك شيئاً وأن الخطيبة أيّاً كان الأمر، تبدو لي حديثة السن». - «ربّما لم يكن الأمر بعدُ رسمياً لهذا السبب، ولكنّما الحديث كثير حوله في جميع الأحوال». وقالت السيدة «فيردوران» للسيدة «دو كامبرمير»: «أفضل أن أحذّرك»، قالت بلهجة جافّة، وقد سمعت أنّ هذه الأخيرة حدّثتني عن «موريل» وإذ ظنّت حينما خفضت صوتها لتكلّمني عن خطبته «سان لو» أنّها توالي الحديث عنه. «ليس ما يُقَدَّم هنا من الموسيقى الهيّنة. فإن المخلصين لأيّام الأربعاء عندي، أو من أدعوهم بمثابة أبنائي، متقدّمون تقدّماً مذهلاً»، تضيف قولها بنوع من الهلع المستكبر؛ «وأحياناً أقول لهم: «أيّها الناس الأعزّاء الطيّبون، أنتم تمضون أسرع من معلّمتكم التي لا يبدو أن صنوف الجرأة أخافتها في يوم». وفي كلّ عام تمضي الأمور أبعد قليلاً، وإنّي عمّا قريب أرى اليوم الذي لن يهزّهم فيه «فاغنر» و«داندي». وتقول السيدة «دو كامبرمير»: «ولكن حسن جداً أن يكون المرء متقدّماً، فليس يبلغ في يوم حدّاً كافياً، تقول وهي تتفحّص كل زاوية في قاعة الطعام وتحاول تعرّف الحاجات التي تركتها حماتها وتلك التي جاءت بها السيدة «فيردوران» وأن تأخذ هذه بجرم قصور الذوق المشهود. وكانت آنذاك تحاول أن تحدّثني عن الموضوع الذي يشغلها أكثر ما يكون، عن السيد «دو شارلوس». فقد كان يحرّك مشاعرها أن يبسط حمايته على عازف كمان. «إنّه يبدو ذكيّاً». فقلت: «بل شرّ القريحة بالنسبة إلى رجل تقدّم به العمر قليلاً». - «تقدّم به العمر؟ ولكنّه لا يبدو مسنّاً. هيّا انظر، فإن «الشعرة» لبثت فتيّة». (فمنذ ثلاث سنوات أو أربع استعملت كلمة «شعرة» بصيغة المفرد من جانب أحد هؤلاء المجهولين الذين يروّجون للصرعات الأدبيّة، وكلّ الذين يملكون

طول موجة السيدة «دو كامبرمير» كانوا يقولون «الشعرة»، دون أن تفوتهم ابتسامة متكلّفة. ولا يزالون يقولون في الوقت الراهن «الشعرة» ولكنّ الجمع سوف يطلع من جديد من الإفراط في المفرد). وأضافت تقول: «ما يستهويني على وجه الخصوص لدى السيد «دو شارلوس» أنّك تحسّ الموهبة عنده. وسأقول لك أني أستخفّ بالعلم وإنّ ما يتعلّمه المرء لا يثير اهتمامي». وما كانت تلك الأقوال تناقض القيمة الخاصة بالسيدة «دو كامبرمير» التي كانت بالضبط ثمرة التقليد والاكتساب. على أن أحد الأمور التي كان ينبغي بالضبط معرفتها في تلك الفترة أن المعرفة لا تساوي شيئاً ولا تزن قشّة بجانب الطرافة. وكانت السيدة «دو كامبرمير» قد تعلّمت، شأن الأمور الأخرى، أنْ ليس ينبغي تعلّم أي شيء. «ولذلك، تقول لي، فإن «بريشو» الذي يملك جانباً طريفاً، لأنّني لا أزدري شيئاً من التبحّر المستملح، إنّما يستهويني مع ذلك أقلّ». ولكنّ «بريشو» لم يكن يشغله في تلك اللحظة سوى شيء واحد: فإنّه إذ سمعهم يتحدّثون عن الموسيقى أخذ يرتعد من أن يذكّر السيدة «فيردوران» بموت «دوشامبر». وكان يودّ أن يقول شيئاً ليستبعد الذكرى المشؤومة. فوفّر له السيد «دو كامبرمير» الفرصة بهذا السؤال: «هيّا قل، أتحمل الأماكن المحرَجة دائماً أسماء الحيوان». - «بالطبع لا»، يجيب «بريشو»، وقد أسعده أن يبسط علمه أمام هذا العدد الكبير من المستجدّين الذين كنت قلت له إنّه واجد بالتأكيد بينهم واحداً على الأقل يثير اهتمامه. «يكفيك أن ترى إلى أيّ حدّ يتم الحفاظ على شجرة في أسماء الأشخاص أنفسهم مثل نبتة سرخس داخل الفحم الحجري. فإنّ واحداً في مجلس شيوخنا يدعى السيد «دوسولس دو فريسينيه» الذي يعني، إن لم أكن مخطئاً، المكان المزروع بشجر الصفصاف والدردار (salix et fraxinetum)[1]؛ أما ابن أخيه السيّد «دو سيلف» فيجمع بعد أشجاراً أكثر بما أنّه يدعى «دو سيلف» (sylva)».

---

(١) الاسم اللاتيني للشجرتين المذكورتين، كما هو أمر sylva التالي ويعني الغابة.

أمّا «سانييت» فكان يرى باغتباط أن الحديث يتخذ منحى حامياً إلى هذا الحدّ. وكان بإمكانه، إذ يوالي «بريشو» الكلام طوال الوقت، أن يصمت صمتاً يجنّبه أن يكون موضع هزء السيد والسيدة «فيردوران». وإذ أصبح في غمرة فرحة بالنجاة أكثر إحساساً بعد فقد تأثر لسماعه السيّد «فيردوران» يقول لرئيس الخدم، على الرغم من السمعة الرسميّة لمثل ذلك العشاء، أن يضع قارورة ماء قرب السيّد «سانييت» الذي لم يكن يشرب شراباً آخر. (فالجنرالات الذين يرسلون إلى الموت أكبر عدد من الجنود يحرصون على أن يُغَذَّوا أحسن التغذية). ثم إن السيّدة «فيردوران» ابتسمت مرّة لـ«سانييت» في نهاية المطاف. بالتأكيد كانا من الأناس الطيّبين، ولن يُعَذَّب من بعد. وفي هذه اللحظة جرى تعطيل الطعام من جانب مدعوّ نسيت أن أذكره، وهو فيلسوف نروجي مشهور كان يتكلّم الفرنسية بصورة جيّدة جدّاً ولكن ببطء شديد وذلك لسبب مزدوج، أولاً لأنه إذ تعلّمها منذ وقت قليل ولا يودّ الوقوع في أخطاء (مع أنّه كان يقع في بعضها) كان يرجع كلّ كلمة إلى ما كان من قبيل المعجم الداخلي، ثم لأنّه كان يفكر دائماً، بوصفه عالماً ميتافيزيقيّاً، في ما ينبغي أن يقوله أثناء ما يقوله، الأمر الذي يكون سبباً في البطء حتّى لدى أحد الفرنسيين. وكان على أيّة حال إنساناً رائعاً وإن يكن يشبه كثيرين غيره، باستثناء نقطة واحدة. ذلك أن هذا الرجل الشديد البطء في كلامه (فبين كلّ كلمة كان ثمّة صمت) كان يضحي ذا سرعة مدوّخة لينجو بنفسه ما إن يقول وداعاً. كان استعجاله يحمل على الظنّ للمرّة الأولى بأنّه أدركه المغص أو حتّى حاجة أكثر إلحاحاً.

وقال لـ«بريشو»: «أيها الزميل - العزيز»، قال، بعدما قلّب في فكره إن كانت لفظة «زميل» هي اللفظة المناسبة، «يداخلني نوع من - الرغبة لأعلم إن كان ثمة أشجار أخرى في - جدول مصطلحات لغتكم الجميلة - الفرنسية - اللاتينية - النورماندية. قالت لي سيدتي (ويقصد السيّدة «فيردوران» مع أنه لا يجرؤ على النظر إليها) إنّك تعرف كلّ هذه الأشياء. أفليس هذا بالضبط وقتها؟» فقاطعته السيدة «فيردوران» إذ رأت أن العشاء

لا ينتهي: «لا، إنّما الوقت وقت طعام». فأجاب الاسكندنافيّ يُطأطئ الرأس في صحنه بابتسامة حزينة مستسلمة: «حسن إذاً؛ ولكنّما يجدر بي أن أُلفت نظر سيّدتي إلى أني إن سمحت لنفسي بهذا الاستقصاء - عفوك بهذا «الاستسآل»[١] - فلأنّي ينبغي أن أعود إلى باريس للعشاء في مطعم البرج الفضّي أو في فندق «موريس». إن زميلي - الفرنسي - السيد «بوترو» سوف يحدّثنا في أثنائه عن جلسات مناجاة الأرواح - عفوك عن «الاستحضارات الروحية» - التي راقبها. فقالت السيدة «فيردوران» بادية الضيق: «هذا البرج الفضي ليس طيّباً مثلما يقولون، حتّى إنّي أقمت فيه حفلات مقيتة». - «ولكن هل أنا مخطئ، أوليس الطعام الذي نأكله في منزل سيّدتي من أفخر ما يقدّم في المطبخ الفرنسي؟» وأجابت السيدة «فيردوران» وقد هدأت نفسها: «يا إلهي ليس شيئاً تماماً وإذا جئت يوم الأربعاء القادم فسيكون أفضل». - «ولكني ذاهب الاثنين إلى مدينة الجزائر ومن هناك أتوجّه إلى «الرأس». وعندما أكون في «رأس الرجاء الصالح» فلن يتسنّى من بعد لقاء زميلي الذائع الصيت - عفوك لن يتسنّى لي من بعد لقاء زميلي في العمل». وبعدما قدّم هذه الأعذار بعد الأوان أخذ يأكل طائعاً بسرعة مدوّخة. لكنّ «بريشو» كان يفيض سعادة إذ تسنّى له أن يقدم أصولاً نباتيّة جديدة وأجاب فأثار اهتمام النرويجي إلى حدّ أن هذا الأخير كفّ ثانية عن الأكل، ولكن وهو يومئ بأنّهم يستطيعون رفع صحنه المليء والانتقال إلى الطبق الثاني وقال: «إن أحد الأربعين يدعى «هوسّيه» (Houssaye) من المكان المزروع بنبات «شرّابة الراعي» (houx) وإنّك واجد في اسم ديبلوماسي رقيق هو «دورميسّون» (d’Ormesson) شجرة الدردار (l’orme) وهي اللاتينيّة «ulmus» العزيزة على قلب «فيرجيليوس» والتي أعطت اسمها لمدينة «أولم» (Ulm)؛ وفي اسم زملائه السيّد «دولا بوليه» شجرة السّندر (le bouleau) والسيد «دونيه» (d’Aunay)

---

(١) نضع بين مزدوجتين ما كان من قبيل الأخطاء التي يرتكبها الفيلسوف النرويجي.

شجرة جار الماء (l'aulne) والسيد «دو بوسّيير» (de Bussière) شجرة الشمشاد (le buis) والسيد «ألباريه» خشب الشّكير (l'aubier) واعتزمت أن أقول ذلك لـ«سيليست» والسيد «دو شوليه» (de Cholet) الملفوف (le chou) وشجرة التفّاح في اسم السيد «دو لا بومّريه» (de la Pommeray) الذي سمعناه يُحاضر، هل تذكر ذلك يا «سانييت»، في الفترة التي أرسل فيها «بوريل» الطيّب قنصلاً في إقليم «أوديونيا» في أقاصي الدنيا؟» ولدى سماع اسم «سانييت» على لسان «بريشو» رمى السيد «فيردوران» زوجته و«كوتار» بنظرة ساخرة أفقدت الخجول رباطة جأشه. وقلت لـ«بريشو»: «كنت تقول إن «شوليه» مشتقّة من «Chou» (ملفوف). فهل المحطّة التي مررت فيها قبل الوصول إلى «دونسيير» واسمها «سان فريشو» «Saint - Frichoux» مشتقة أيضاً من «Chou»؟ - «لا، «سان فريشو» هي «Sanctus Fructuosus» مثلما «Sanctus Ferreolus» أعطتنا «سان فارجو» (Saint - Fargeau) ولكنّها ليست نورمانديّة على الإطلاق». وقوقأت الأميرة بصوت خافت: «إنّه «يعلف» «الكثيل» من الأمور ويزعجنا». - «هناك الكثير مما يستهويني من أسماء أخرى ولكنّي لا أستطيع أن أسألك كلّ شيء مرّة واحدة». ثمّ استدرت صوب «كوتار» قائلاً: «هل السيدة «بوتبوس» حاضرة؟» فأجابت السيدة «فيردوران» وكانت سمعت سؤالي: «لا، حمداً لله، فقد جهدت في حرف أيّام اصطيافها وجهة البندقية وتخلّصنا منها في هذا العام». وقال السيد «دو شارلوس»: «سيكون لي الحقّ أنا بشجرتين، فقد حجزت لي تقريباً بيتاً صغيراً بين «سان مارتان دو شين (Saint-Martin-du-Chêne) و«سان بيير ديزيف» (Saint-Pierre-des-Ifs)[1]. «ولكنّ المكان قريب جداً من هنا، فآمل أن تجيء كثيراً برفقة «شارلي موريل». وما عليك سوى الاتفاق ومجموعتنا الصغيرة في ما يخصّ القطارات، فإنّك على خطوتين من «دونسيير»، تقول

---

(١) Chêne تعني سنديان وif تعني سرو، وهو ما يفسّر حتّى «دو شارلوس» بشجرتين.

السيدة «فيردوران» التي كانت تكره أن لا يجيئوا على القطار نفسه وفي الساعات التي تبعث فيها بعربات. كانت تعلم كم الصعود قاس إلى «لا راسبلبير» حتّى بسلوك دروب دائريّة من خلف «فيتيرن» ممّا يستغرق نصف ساعة تأخير، وتخشى أن لا يجد من ينفردون بالمجيء عربات تقلّهم أو أن يمكنهم، وقد مكثوا بالحقيقة في بيوتهم، أن يحتجّوا بأنّهم لم يلقوا عربات في «دوفيل - فيتيرن» وأنّهم لم يؤانسوا من ذواتهم القوّة لسلوك مثل تلك الطريق الصاعدة سيراً على الأقدام. واكتفى السيد «دو شارلوس» بانحناءة صامتة للردّ على هذه الدعوة. «إنّه لا بدّ غير سهل في سلوكه اليومي، وهو بادي الانزعاج»، يقول الدكتور همساً لـ«سكي»، وقد ظلّ شديد البساطة على الرغم من طبقة استكبار سطحيّة فلا يحاول إخفاء أن «شارلوس» كان يعامله بفوقيّة. «إنّه يجهل دون شك أن الأطباء في مدن الحمّامات جميعها وحتّى في العيادات في باريس، وأنا بالطبع «المعلّم الكبير بالنسبة إليهم، يصرّون على شرف تقديمي لسائر النبلاء الحاضرين والذين يُحرجون أمامي». وأضاف قوله بلهجة مستخفّة: «وذلك يجعل الإقامة في مراكز الحمّامات ممتعة إلى حدّ بالنسبة إليّ، بل إنّ الرائد في الكتيبة في «دونسيير» وهو طبيب آمر اللواء المعالج، دعاني للغداء معه وهو يقول لي إني في مركز من هو أهل لتناول العشاء مع الجنرال. والجنرال هذا سيّد من النبلاء. ولست أدري إن كانت وثائقه أكثر أو أقلّ قدماً من وثائق هذا البارون». وأجاب «سكي» بصوت خافت: «لا تأخذُك الحميّة فإنّه تاج هيّن جدّاً»؛ وأردف يقول شيئاً غامضاً ومع فعل ميّزت فيه فحسب المقطعين الأخيرين «arder» إذ كنت مشغولاً بسماع ما كان «بريشو» يقوله للسيّد «دو شارلوس». «لا، ليس لديك على الأرجح، ويؤسفني قول ذلك، إلا شجرة واحدة، فلئن كانت «سان مارتان دوشيف» فهي بالتأكيد «Sanctus Martinus juxta quercum»[1]، فيمكن أن تكون لفظة «if»

(١) القديس مارتينوس الذي بجانب السنديانة.

بالمقابل مجرّد الجذر ave, eve الذي يعني «رَطْب» كما هو شأن «أفيرون» (Aveyron) و«لوديف» (Lodeve) و«إيفيت» (Yvette) والذي تراه بعد قائماً في المجال في مطابخنا (eviers). إنّه الماء الذي يُدعى في اللغة البريتانية» «ستير» (Ster) Ster - en- Dreuchen, Stermaria. Steriaer, Sterbouest» ولم أسمع الخاتمة إذ مهما تكن المتعة التي كنت أصبتها من سماع اسم «ستيرماريا» مجدداً كنت أسمع على الرغم منّي «كوتار» الذي كنت بالقرب منه يقول لـ«سكي» بصوت خافت جدّاً: «آه! ما كنت أعلم. فهو إذاً سيّد يعرف كيف يتدبّر أمره في الحياة. ويحك! إنه من الجماعة! وليس له مع ذلك عينان بحواسٍ من «الجمبون»[1]. ينبغي أن أنتبه لقدميّ تحت الطاولة، فلم يلزمه إلّا أن يقرص نيابة عنّي. ولا أتعجّب على أيّة حال كلّ العجب من ذلك؛ فإني أشاهد عدّة نبلاء في الحمّام بحلّة آدم وهم منحلّون أخلاقياً بمقادير تكثر أو تقلّ، وإني لا أتحدّث إليهم لأني موظّف باختصار القول ويمكن أن يؤذيني ذلك. ولكنهم يعلمون تماماً العلم من أنا. أمّا «سانييت» الذي أفزعته المناداة عليه من جانب «بريشو» فقد أخذ يتنفّس الصعداء شأن من يخشى العاصفة ويتبيّن أن البرق لم يعقبه أي صوت للرعد حينما سمع السيد «فيردوران» يسأله فيما يسمّر عليه نظره لا تترك المسكين وشأنه ما دام يوالي الحديث كيما يُفقِده في الحال رباطة جأشه ولا يدع له أن يعود إلى صوابه. «ولكن لماذا أخفيت عنّا دائماً أنّك تتردّد على حفلات العصر في مسرح «أوديون» يا «سانييت»؟ فأجاب «سانييت» وهو يرتجف كمجنّد في حضرة رقيب مشاكس ويضفي على جملته أصغر الأبعاد الممكنة كي تتوافر لها أحسن الحظوظ في تجنّب الضربات: «مرّة واحدة إلى مسرحية «**الباحثة**». وصاح السيّد «فيردوران» بأعلى صوته: «ما الذي يقوله؟» صاح بهيئة المشمئزّ الساخط وهو يقطّب الحاجبين وكأنّما لا يكتفي بكامل انتباهه ليفهم أمراً يمتنع على الإدراك.

(١) لحم الخنزير.

«ليس يفهم المرء بادئ الأمر ما تقول فما الذي في فمك؟» يقول السيّد «فيردوران» متزايد العنف ملمّحاً إلى عيب التلفّظ لدى «سانييت». فقالت السيدة «فيردوران» بلهجة الإشفاق الكاذب وكي لا تدع لأحد أن يشكّ في المقصد الوقح الذي يبيّته زوجها: «يا لـ«سانييت المسكين»، لا أريد أن تجعل منه رجلاً تعيساً.» «كنت في البـ. . .» - «بـ. . . بـ. . . بـ. . .»، يقول السيد «فيردوران»: «حاول أن تتكلّم بوضوح، فإني حتى لا أسمعك». لم يكن أحد من الخلّص تقريباً يملك نفسه عن القهقهة ويبدون وكأنّي بهم زمرة من آكلي لحوم البشر أيقظ فيهم جرح أحد البيض شهوة الدم. ذلك لأن غريزة التقليد وغياب الشجاعة إنّما يحكمان المجتمعات مثلما يحكمان الجماهير. والجميع يضحكون ممّن يرون الناس يضحكون منه، على أن يجلّوه بعد عشر سنوات في منتدى هو فيه موضع إعجاب. وإنّما يطرد الشعب الملوك أو يرحّب بهم بالطريقة نفسها. وقالت السيدة «فيردوران» «ليس الذنب ذنبه ويحك». - «وليس ذنبي أنا أيضاً؛ والناس لا يتناولون عشاءهم في المدينة حينما لا يستطيعون النطق من بعد». - «كنت في «**الباحثة عن الفكر**» لـ«فافار». - «ماذا؟ أهي «**الباحثة عن الفكر**» التي تسمّيها «**الباحثة**»؟ آه! ذلك رائع، كان يمكن أن أبحث مئة عام دون أن أجد»، يقول السيد «فيردوران» صارخاً، مع أنّه كان حكم من المرّة الأولى أنْ ليس أحدهم مثقّفاً وفناناً و«ليس من الجماعة» لو سمعه يقول العنوان الكامل لبعض المؤلّفات. كان ينبغي على سبيل المثال أن يُقال «**المريض**» أو «**البورجوازي**» ولعلّ من يضيفون «بالوهم» أو «النبيل» لعلّهم كانوا برهنوا على أنّهم غرباء عن «الدار»، مثلما يبرهن أحدهم في منتدى على أنّه ليس من المجتمع الراقي إن قال: السيد «دو مونتسكيو - فزنساك» بدلاً من السيد «دو مونتسكيو». وقال «سانييت» فاقد الأنفاس جرّاء انفعاله ولكنّه يبتسم مع أنّه غير راغب في ذلك: «ولكن ليس الأمر خارقاً إلى هذا الحدّ». وصاحت السيدة «فيردوران» مقهقهة وقد ثارت ثائرتها: «بلى، وتيقّن أنه ما من أحد في العالم كان استطاع أن

يحزر أن الأمر يعني «**الباحثة عن الفكر**». وعاد السيد «فيردوران» يقول بصوت رقيق موجّهاً حديثه لـ«سانييت» و«بريشو» معاً: «إنّها لمسرحية جميلة على أية حال هذه «**الباحثة عن الفكر**». وقد أولت هذه الجملة البسيطة التي قيلت بلهجة جديّة ولا تجد فيها أثراً لخبث، أولت «سانييت» فائدة وأثارت في نفسه مقداراً من الامتنان يساوي ما تثيره مجاملة. ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة وصمت صمتاً تغمره السعادة. وكان «بريشو» أكثر كلاماً فأجاب «فيردوران» قائلاً: «هذا صحيح، وإن عددناها من أعمال مؤلّف سرماتي أو اسكندنافي أمكن أن نرشّح «**الباحثة عن الفكر**» لموقع الرائعة الأدبية، وهو شاغر. ولكن دعنا نقول دون أن نسيء إلى روح «فافار» الطيّب إنه لم يكن «إيبسنيّ»[١] المزاج. (وكسته الحمرة في الحال حتّى أذنيه إذ فكّر بالفيلسوف النروجيّ الذي كان يبدو تعيساً لأنّه يحاول عبثاً أن يعرف أيّ نبات يمكن أن تمثّله شجيرة الشمشاد التي ذكرها «بريشو» منذ قليل بخصوص «بوسّيير»). وبما أنّ مرزبة «بوريل» هي بأية حال مشغولة الآن من جانب موظّف من أتباع «تولستوي» المتشدّدين فمن الممكن أن نشاهد «**آنا كارنينا**» و«**القيامة**» تحت سقف الـ«أوديون»[٢]. وقال السيد «دو شارلوس»: «إني أعرف رسم «فافار» الذي تودّين الحديث عنه. لقد رأيت صورة جميلة جداً له في منزل الكونتيسّة «موليه». وخلّف اسم الكونتيسّة «موليه» انطباعاً شديداً في نفس السيّدة «فيردوران» فصاحت قائلة: «آه! إنّك تزور السيدة «دو موليه». كانت تظنّهم يقولون «الكونتيسّة موليه» و«السيّدة موليه» لمحض الاختصار، مثلما كانت تسمعهم يقولون آل «روهان» أو بداعي الازدراء مثلما تقول بدورها «مدام لاتريمواي». وما كان يخالجها أيّ شكّ بأن الكونتيسّة «موليه»، وهي تعرف ملكة اليونان والأميرة «دو كابرارولا»، لا

---

(١) نسبة إلى الكاتب الشهير هنريك إبسن (Henrik Ibsen).

(٢) أحد المسارح الباريسية.

يدانيها أحد في استحقاقها للحرف «دو» (de)[١]، وكانت عازمة هذه المرّة على إطلاقها على شخصيّة متألّقة إلى هذا الحدّ وسبق أن أبدت لها الكثير من اللطف. ولذلك عادت تقول كيما تُبرز أنّها إنّما تكلّمت على ذاك النحو قاصدة، وما كانت تتردّد في منح الكونتيسّة حرف الـ«دو»: «ولكنّي ما كنت أعلم على الإطلاق أنّك تعرف السيدة «دو» موليه!» كما لو كان ثمّة غرابة مزدوجة: أن يكون السيّد «دو شارلوس» عرف تلك السيدة دون أن تعرف السيدة «فيردوران» أنّه يعرفها. ولكنّما يؤلّف العالم، أو على الأقل ما كان السيد «دو شارلوس» يطلق عليه تلك التسمية، كلاً متجانساً نسبياً ومغلقاً فبقدر ما ندرك بسهولة أن يقوم محام في خضمّ البورجوازية المتباين لواحد يعرف أحد رفاقه في المدرسة الثانوية: «ولكن كيف تعرف فلاناً ويحك؟» يكاد استغرابك في المقابل من أن يعرف فرنسيّ معنى لفظة «معبد» أو «غابة»، يكاد لا يكون أكثر غرابة من أن تُعجب بالمصادفات التي أمكن أن تجمع بين السيد «دو شارلوس» والكونتيسّة «موليه». أضف إلى ذلك أنّه حتّى لو لم تنجم مثل تلك المعرفة بصورة طبيعيّة عن القوانين المجتمعيّة، وكانت ثمرة المصادفة، فكيف يكون غريباً أن تجهل السيدة «فيردوران» الأمر وهي ترى السيد «دو شارلوس» أوّل مرّة وما أبعد أن تكون علاقاته بالسيدة «موليه» الشيء الوحيد الذي لا تعلمه في ما يتّصل به هو الذي ما كانت والحقّ يقال تعرف عنه شيئاً؟ وسأل السيد «فيردوران» يقول: «من ذا الذي كان يمثل هذه «**الباحثة عن الفكر**» يا صغيري «سانييت»؟ «وتردّد أمين المحفوظات السابق في الإجابة مع أنه أحسّ العاصفة مرّت. «ولكنّك إلى ذلك تلقي الرعب في فؤاده، تقول السيدة «فيردوران»، فإنّك تسخر من كلّ ما يقول ثم تريده أن يجيب». وأردفت السيدة «فيردوران» وهي تلمّح بخبث إلى الخربة التي قذف

---

(١) هو الحرف الذي يسبق أسماء النبلاء في فرنسا، وهذه الأسماء مأخوذة بعامة من القصور أو الإقطاعات المختلفة.

«سانييت» بنفسه فيها ومراده إخراج زوجين من أصدقائه منها: «قل من كان يمثّلها وسوف تُعطى هُلاميّة جاهزة تحملها معك». فقال «سانييت»: «أذكر فقط أن السيدة «ساماري» كانت تقوم بدور «لا زيربين». وصرخ السيد «فيردوران» كأنّما ثمّة حريق: «لا زيربين؟ أيّ شيء هو هذا؟» - «إنّها عادة مستقاة من المجموعة المسرحيّة المعدّة للتمثيل، خذ مثلاً في «**الكابتن فراكاس**»، كأن تقول «ترانش مونتانيي»[1] والمتحذلق». وصاح السيّد «فيردوران» قائلاً: «آه! إنّما المتحذلق أنت. «لا زيربين»! لا، إنّه مختلّ العقل». ونظرت السيّدة «فيردوران» إلى مدعوّيها ضاحكة كأنما لتجد العذر لـ«سانييت». «لا زيربين» يتصوّر أن الجميع يعرفون في الحال ما عسى يعني ذلك. إنّك مثيل السيد «لونجبيير» الرجل الأكثر غباء ممّن عرفت والذي كان يقول لنا يومذاك، قول من ألف الأمر، الـ«بانات». ولم يعرف أحد عمّا يبغي التحدّث. وعلم القوم أخيراً أنها مقاطعة من «صربيا». وبغية وضع حدّ لعذاب «سانييت» الذي كان يؤلمني أكثر منه سألت «بريشو» إن كان يعلم ما تعنيه «بالبيك» فقال لي: «بالبيك على الأرجح صيغة مشوّهة لـ«دالبيك». وربّما انبغى أن نستطيع الاطّلاع على صكوك ملوك إنكلترا، وهم سادة «نورماندیا»، لأن «بالبيك» كانت تابعة لبارونيّة «دوفر» وغالباً ما كانوا يقولون بسبب ذلك «بالبيك ما وراء البحر» و«بالبيك اليابسة». ولكن بارونيّة «دوفر» كانت تخضع بدورها لأسقفيّة «بايّو»، وعلى الرغم من الحقوق التي كانت لفرسان الهيكل مؤقّتاً على الدير بدءاً من «لويس داركور» بطريرك القدس وأسقف «بايّو» فإن أساقفة هذه الأبرشيّة هم الذين تولّوا توزيع ريوع أملاك «بالبيك». ذلك ما شرحه لي عميد «دوفيل»، وهو رجل أصلع بليغ خياليّ ذوّاق يعيش في طاعة «بريا سفاران»، وقد عرض لي بعبارات غامضة بعض الشيء نظريات تربويّة محيّرة فيما يطعمني أروع البطاطا المقليّة». وفيما كان «بريشو»

(١) أي قاطع الجبل.

يبتسم ليظهر ما كان من ظرف في جمع أشياء متباينة إلى هذا الحدّ وفي استخدام لغة رفيعة المستوى وضحكة للتعبير عن أمور مألوفة، كان «سانييت» يحاول الإتيان بنكتة يمكن أن تنتشله من سقطته القريبة. والنكتة كانت ما يدعونه بـ«التقريبي» ولكنّها بدّلت شكلها لأن ثمّة تطوّراً في النكات اللفظية كما هي الحال بالنسبة إلى الأنواع الأدبيّة والأوبئة التي تزول إذ تحلّ أخرى محلّها، إلخ. وكان شكل «التقريبيّ» فيما مضى يعني «الطامة». ولكنّها كانت متقادمة العهد وليس من يستخدمها من بعد، ولم يظلّ سوى «كوتار» ليقول أحياناً في أثناء لعبة ورق: «أتعلمون ما هي طامة شرود الذهن؟ أن تأخذ مرسوم «نانت» على أنه امرأة إنكليزيّة»[١]. ثمّ إن لفظة الطامة استبدلت بها الألقاب وقد لبثت في الأساس «التقريبي» القديم، ولكن لم يكن أحد ينتبه للأمر إذ كان اللقب شائعاً في حينه. وحينما كانت تلك «التقريبيّات»، لسوء حظّ «سانييت»، من غير وضعه، وهي عادة مجهولة لدى النواة الصغيرة، كان يلقيها بلهجة خجولة إلى حدّ أنْ لم يكن أحد يفهمها على الرغم من الضحكة التي يذيّلها بها لإبراز طابع الدعابة فيها. فإن كانت الكلمة على العكس من وضعه، وإذ كان وجدها بعامّة وهو يتحدث إلى أحد الخلّص فردّدها هذا وقد خصّ نفسه بها فقد كانت حينذاك معروفة ولكن لا على أنّها من وضعه. ولذلك كانوا حينما يهمس بواحدة منها يتعرّفونها ولكنّهم يتّهمونه بالتقليد لأنّه هو واضعها. وأردف «بريشو» يقول: «إذن، «بيك bec» في اللغة النورمانديّة تعني «ساقية». وهناك دير الـ«بيك» و«موبيك» أي ساقية المستنقع («مور» أو «مير» كانت تعني المستنقع كما هي الحال في «موفيل» أو في «بريكمار» و«ألفيمار» و«كامبرمير»)؛ و«بريكبيك» وهي ساقية المرتفع

(١) تلاعب لفظي لا مجال لردّه، أما مرسوم «نانت» الشهير هو الذي أصدره هنري الرابع عام ١٥٩٨ ويقرّ فيه حرية المعتقد للبروتستانت. وللتقريب يمكن كتابة l'Edit de Nantes بالعربية «ليدي دو نانت» للتمكّن من فهم التلاعب اللفظي Lady Denant.

واشتقّت من «بريغا» (briga) أي المكان المحصّن، كما هي حال «بريكفيل» و«بريكبوسك» و«لو بريك» و«بريان» أو من «بريس» (brice) أي الجسر وهي ذات «بروك» (Bruck) الألمانية)«إنسبروك»(و«بريدج» (bridge) الإنكليزية التي ترد في الكثير من أسماء المكان (كامبريدج، إلخ.) لديك أيضاً في الـ«نورماندي» عدد آخر كبير من اشتقاقات «بيك»: «كودبيك» «بولبيك»، «لو روبيك»، «لو بيك هيلوان» «بيكريل». وتلك هي الصيغة النورمانديّة التي تقابل الألمانية «باخ» (Bach)، مثل «أوفنباخ» و«آنسباخ». و«فاراغبيك»، جاءت من كلمة «فارينيي» المساوية لكلمة «غارين» (garenne) أي الأحراج والمستنقعات المحميّة». وعاد «بريشو» يقول: «أمّا «دال» (dal) فهي شكل من «تال» (thal) أي الوادي: «دارنتال» و«روزندال»، وحتّى بالقرب من «لوفييه» و«بيكدال». أمّا النهر الذي أورث «دالبيك» اسمها فرائع. فإن شاهدته من جرف (falaise) (وهي fels الألمانية، بل لديك، على مسافة غير بعيدة من هنا وفوق مرتفع، مدينة «فاليز» الجميلة)، فإنّها تجاور سهميّ قباب الكنيسة، وهي واقعة في الحقيقة على مسافة بعيدة، ويبدو كأنّما يعكسهما في مياهه». فقلت: «ذلك ما أعتقد، فإنه من المؤثرات التي يحبّها «إيلستير» كثيراً، وقد رأيت منها عدّة ترسيمات في منزل». وصاحت السيدة «فيردوران»: «إيلستير! أفتعرف «تيش»؟ تدري أني عرفته بأحسن ما تكون الألفة. شكراً لله أني لا أراه من بعد. ولكن لا، هيّا اسأل «كوتار» و«بريشو» فقد كان مكانه معدّاً على مائدتي وكان يجيء كلّ يوم. ذاك واحد يمكن أن تقول إن هجره لنواتنا الصغيرة لم يكن خيراً عليه. سأريك عمّا قليل أزهاراً رسمها من أجلي، وسترى أيّ فارق بينها وبين ما يفعل اليوم ولا أحبّه على الإطلاق، أقول على الإطلاق! كيف ذلك! لقد طلبت إليه أن ينفذ رسماً لـ«كوتار»، ولا أُدخل في الحساب كلّ ما فعله من رسوم لي». - «وكان قد جعل للأستاذ شَعراً بنفسجياً»، تقول السيدة «كوتار» وقد فاتها أنّ زوجها لم يكن حتى يحمل «الأكريكاسيون» (التبريز)

آنذاك[1]. «لست أدري يا سيّدي إن كنت تجد لزوجي شَعراً بنفسجياً». فقالت السيدة «فيردوران» وهي ترفع ذقنها بهيئة المزدري للسيدة «كوتار» والمُعجب بمن كانت تتحدّث عنه: «لا أهمية لذلك، فقد كان من صنع خبير ألوان كبير ورسام مجيد». وأضافت تقول وقد توجّهت صوبي ثانية: «فيما لا أعلم إن كنت تسمّي فنّاً كلّ هذه التأليفات الغريبة وهذه الأشياء الضخمة التي يعرضها منذ أن كفّ عن المجيء إلى منزلي. إنّني أسمّي ذلك تلطيخاً ورسماً مكروراً، ثم إنّه ينقصه التميّز والشخصيّة فإن فيه كلّ واد عصا». وقال «سانييت» معجلاً وقد تقوّى ورُدّتْ إليه عزيمته من جرّاء ما أبديت من لطف: «إنّه يردّ إلينا رشاقة القرن الثامن عشر ولكن بصورة عصريّة. على أنّي أفضّل «هيلّو». وقالت السيّدة «فيردوران»: «لا صلة له البتّة بـ«هيلّو». - «بلى، إنه شيء من الثامن عشر محموم، إنّه «واتّو» بُخاري»[2]، وطفق يضحك. - «آه! معروفة، معروفة تماماً، فهم يأتونني بها من سنين»، يقول السيّد «فيردوران» الذي كان «سكي» بالفعل قد روى له ذلك فيما مضى، ولكن على أنّه من صنعه. «يا خيبة حظّك أنّك في المرّة اليتيمة التي تنطق فيها بأمر مفهوم يتّسم بشيء من الغرابة لا أراه من صنعك». وأردفت السيدة «فيردوران»: «يشقّ عليّ ذلك لأنّه كان شخصاً موهوباً، لقد قضى على نفسيّة فنان لافتة، آه! لو لبث ههنا، فلعلّه كان أصبح أوّل رسّام لوحات طبيعية في عصرنا. وإن ما أوصله إلى هذا الدرك امرأة! ليس يدهشني الأمر على أي حال لأن الرجل كان ممتعاً ولكنه سوقيّ. لقد كان في الأساس قليل الذكاء. وسأقول لك إني أحسست ذلك في الحال، وهو في الأساس لم يثر في يوم من الأيام اهتمامي. كنت أودّه، لا أكثر. ثم إنّه أولاً، يا لقذارته! أتحبّ كثيراً،

(١) شهادة تخصص واسع تلي الإجازة فدبلوم الدراسات العليا. أما لقب الأستاذ فلا يطلق إلّا على حاملي الدكتوراه من أرباب الكراسي في الجامعات.

(٢) التلاعب اللفظي لا يظهر إلّا بالفرنسية (boleau à vafeur) مركب بُخاري و(Watteau à vapeur).

أنت، أناساً لا يغتسلون البتّة؟» وسأل «سكي» قائلاً: «أي شيء هو هذا الذي نأكله وهو بمثل جمال اللون هذا؟» فقالت السيدة «فيردوران»: «إنّه قشدة بالفريز». - «ولكنه رائع، ولا بدّ أن يصار إلى فتح زجاجات من نبيذ «شاتو مارغو» و«شاتو لافيت» ومن «البورتو». - «لا أستطيع أن أقول لك كم يضحكني، فإنّه لا يشرب إلّا الماء»، تقول السيّدة «فيردوران» كي تخفي ستار المتعة التي تلقاها في هذا السلوك الطريف الهلع الذي يبعثه في نفسها ذاك الإسراف فأردف «سكي» قائلاً: «ما ذلك لغاية الشراب، بل تملؤون بها كؤوسنا جميعاً ويأتونني بثمرات درّاق رائعة وزليقات ضخمة، هنا قبالة الشمس الغاربة، وستكون وفرة ألوان كمثل لوحة جميلة لـ«فيرونيز». وقال السيّد «فيردوران» همساً: «وتكلّف ما تكلفه اللوحة تقريباً». ولكن ارفعوا هذه الأجبان القبيحة ألوانها»، يقول وهو يحاول انتزاع قصعة ربّ المنزل الذي دافع عن حصّته من جبنة «الغروبير» بكامل قواه. وقالت السيّدة «فيردوران»: «أنت تدرك أنّي غير آسفة على «إيلستير»، فإن هذا حبته الطبيعة أكثر من ذاك. إن «إيلستير» يعني العمل، والرجل الذي لا يقوى على هجر رسمه حينما يرغب في ذلك. إنه التلميذ المجدّ ووحش المباريات. أمّا «سكي» فلا يعرف سوى نزواته، وتراه يشعل سيكارته في أثناء عشائه. وقال «كوتار»: «لست أعلم في الواقع لماذا لم تودّي استقبال زوجته، إذاً لكان هنا كما في السابق». «قل ويحك، هلّا كنت مهذّباً يا أنت؟ فلست أستقبل مومسات يا سيادة الأستاذ»، تقول السيدة «فيردوران»، وكانت على العكس بذلت ما وسعها من جهد لاسترجاع «إيلستير» حتّى برفقة زوجته. ولكنّها حاولت قبلما يتزوجان أن تزرع الخصام بينهما، فقالت لـ«إيلستير» إن المرأة التي يحبّها غبية قذرة طائشة وسبق أن سرقت. ولم تفلح في القطيعة هذه المرّة، وإنما قطع «إيلستير» علاقاته بمنتدى آل «فيردوران» وكان يغتبط لذلك كما يبارك المرتدّون إلى الإيمان المرض أو النكسة التي دفعتهم إلى الاعتزال وكشفت لهم طريق الخلاص. «إنه لرائع الأستاذ، تقول؛ قل بالأحرى

على الملأ إن منتداي بيت لقاءات. لكأني بك لا تعرف ما عسى تكون السيدة «إيلستير». ولعلّني أفضل عليها استقبال أسوأ العاهرات! لا، لا: ليست تلك مشاربي. سأقول لك على أية حال أن لعلّني كنت سأبدي في غض النظر عن المرأة غباء يتزايد بمقدار ما لم يعد الزوج يثير اهتمامي، ذلك انقضى عهده، بل هو لم يعد حتّى رسماً، فقال «كوتار»: «ذلك غريب بالنسبة إلى رجل بمثل ذكائه». فأجابت السيدة «فيردوران»: «لا، لا! ما كان يضايقك، حتّى في الفترة التي كان فيها صاحب موهبة، إذ كان الوغد ذا موهبة بل فيض من الموهبة، أنّه لم يكن ذكياً على الإطلاق». على أن السيّدة «فيردوران» لم تنتظر لتطلق هذا الحكم على «إيلستير» اختصامهما وغياب حبّها لرسمه ذلك أنّه كان يتّفق، حتى في الفترة التي كان فيها في عداد المجموعة الصغيرة، أن يقضي «إيلستير» أياماً كاملة بصحبة امرأة كانت السيدة «فيردوران» بحق أو بغير حقّ تجدها غبية، وما كان ذلك برأيها من فعل رجل ذكي. ثم قالت بلهجة المنصف: «لا. أعتقد أنه وزوجته خلقا على أكمل وجه ليناسب أحدهما الآخر، ويعلم الله أني لا أعرف امرأة على وجه البسيطة أبعث على الملل منها وأنني قد يأخذني أشدّ الحنق لو انبغى أن أمضي ساعتين معها. ولكنّما يقال إنّه يجدها ذكية جداً ذلك أنّه لا بدّ من الإقرار بأنّ «تيش» كان على وجه الخصوص مفرط الغباء! فقد رأيته تدهشه نساء لا تتصورها، بلهاوات ساذجات ما كنّا لنقبل بهنّ البتّة ضمن عشيرتنا الصغيرة والعجيب أنّه كان يكتب إليهنّ ويناقشهن هو «إيلستير»! لكن ذلك لا يحول دون جوانب ساحرة، آه! ساحرة، ساحرة ورائعة في عبثيّتها بالطبع». ذلك أن السيدة «فيردوران» كانت متيقّنة أن الرجال المرموقين حقاً يأتون ألفاً من الحماقات، وهي فكرة خاطئة مع أنّها تتضمن شيئاً من الحقيقة. صحيح أن «حماقات» الناس لا تطاق. ولكنّ الخلل الذي لا نكتشفه إلّا مع الأيّام إنما ينجم عن دخول لطافات في دماغ الإنسان وهو غير مُعَدّ لها عادة. مما يجعل غرابات الناس الظرفاء باعثة على الحنق،

ولكنّما ليس من أناس ظرفاء إلا كانوا من جانب آخر غريبي الأطوار. وقالت لي وقد رأت زوجها يشير إليها بإمكان مغادرة المائدة: «هيّا، سيكون بوسعي أن أريك في الحال أزهاره». وعادت تتأبط ذراع السيد «دو كامبرمير». وودّ السيد «فيردوران» أن يعتذر للسيد «دو شارلوس» حالما فارق السيدة «دو كامبرمير» وأن يقدّم له دوافعه وذلك على وجه الخصوص في سبيل متعة التحدث عن هذه الفوارق المجتمعية الدقيقة إلى رجل صاحب ألقاب هو مؤقتاً أدنى من أولئك الذين كانوا يعينون له المكان الذي يحكمون أنّه حق له. ولكنّه حرص بادئ الأمر أن يُبدي للسيّد «دو شارلوس» أنّه يضعه على الصعيد الفكريّ في مرتبة أرفع من أن يظنه قادراً على الالتفات إلى هذه التفاهات. وبدأ يقول: «عفوك أني أكلمك عن هذه التوافه لأني أفترض أنّك لا تقيم لها وزناً. العقول البورجوازية تأبه بها، فأمّا الآخرون، الفنانون، الناس الذين هم حقاً من الجماعة فلا يلتفتون إليها. وإني منذ الكلمات الأولى التي تبادلناها أدركت أنّك منها». أمّا السيد «دو شارلوس» الذي كان يولي هذه العبارة معنى شديد الاختلاف فقد انتفض مرتعشاً. فإن صراحة «المعلّم» المهينة، في أعقاب غمزات الدكتور، كانت تقطّع أنفاسه. وأردف السيد «فيردوران» يقول: «لا ترفع صوتك بالاحتجاج أيّها السيد العزيز، فإنّك منها، ذلك واضح وضوح الشمس. لاحظ أني لا أعرف إن كنت تمارس أيّاً من الفنون، ولكن ليس الأمر ضرورياً وليس يكفي دائماً «دوشامبر» الذي قضى نحبه منذ قليل كان يعزف على الوجه الأكمل وبالآلية الأكثر متانة ولكنّه لم يكن منها؛ كنت تحسّ في الحال أنّه ليس منها و«بريشو» ليس منها. أمّا «موريل» فمنها، وزوجتي منها، وأحسّ أنّك منها...» وقاطعه السيد «دو شارلوس» وقد شرع يطمئن إلى ما يرمي إليه السيد «فيردوران» ولكنّه يفضّل أن يخفّف من اطلاق تلك الأقوال المزدوجة المعاني: «ماذا كنت تزمع أن تقول لي؟» فأجاب السيد «فيردوران»: «لقد وضعناك إلى اليسار فقط». وردّ السيد «دو شارلوس» بابتسامة متفهّمة

بسيطة وقحة: «لا عليك! فلا أهمية البتّة لذلك، هنا!» وأطلق ضحكة خفيفة كان يتميّز بها - ضحكة يُرَجّح أنّها انتقلت إليه من جدّة من «بافاريا» أو «اللورين» وقد ورثتها بدورها مماثلة تماماً لذاتها من جدّة لها فكانت تجلجل هكذا دونما تغيير منذ عدد لا بأس به من القرون في البلاطات الأوربية الصغيرة العتيقة ويتذوّقون نوعيّتها الثمينة كما هي حال بعض الآلات القديمة الشديدة الندرة. فهناك أوقات ينبغي فيها، بغية رسم أحدهم رسماً متكاملاً، أن تقترن المحاكاة الصوتية بالوصف، وربما جاء وصف الشخصية التي يصطنعها السيد «دو شارلوس» ناقصاً بسبب غياب هذه الضحكة الصغيرة الرقيقة الخفيفة كمثل بعض متواليات لـ«باخ» لا يجري في يوم ردّها ردّاً دقيقاً لأن الأوركسترات تفتقر إلى تلك «الأبواق الصغيرة» ذات الجرس الخاص جداً والتي كتب لها المؤلّف هذا القسم أو ذاك. وقال السيد «فيردوران» المجروح موضحاً: «ولكنّ ذلك متعمّد؛ على أنّي لا أُولي ألقاب النبلاء أية أهمية»، يضيف قوله بتلك الابتسامة المتعالية، حيال جدّتي وأمي، والتي رأيت كثيرين ممن عرفت يتّخذونها إزاء الأشياء التي لا يملكونها، في حضرة من لم يسعهم والحالة هذه، فيما يعتقدون، أن يجعلوا منها أداة تفوّق عليهم. «ولكن بما أن السيد «دو كامبرمير» حاضر بالضبط هنا وهو مركيز وأنت بارون فحسب. . .» وردّ السيد «دو شارلوس» باستعلاء على السيد «فيردوران» الذي أخذته الدهشة: «اسمح لي، فإنّي إلى ذلك دوق «برابان» وفتى «مونتارجيس» وأمير «أوليرون» و«كارانسي» و«فياريجيو» و«دون». على أن ذلك لا يهمّ على الإطلاق، فلا تعذّب نفسك»، يضيف قوله وهو يستعيد ابتسامته الرقيقة التي أشرقت على وقع هذه الكلمات الأخيرة: «لقد تبيّنت في الحال أنك لم تتعوّد هذه الأمور».

وجاءت إلي السيدة «فيردوران» لتريني أزهار «إيلستير». ولئن أولاني فعل الذهاب في المدينة لتناول طعام العشاء، وقد أضحى منذ زمن طويل ذا شأن في نظري، لئن أولاني على العكس، بالشكل الذي كان يجدّده

كلياً، شكّل رحلة على امتداد الشاطئ يعقبها صعود بالعربة إلى ارتفاع مئتي متر فوق البحر، نوعاً من النشوة، فإن هذه لم تتلاش في «لا راسبليير». وقالت لي المعلّمة «هاك، انظر إلى هذا»، وهي تدلّني على وردات لـ«إيلستير» ضخمة رائعة ولكن حمرتها القرمزية الناعمة وبياضها المندوف كانا يعطيان بروزاً على بعض إفراط في شكلها القشديّ فوق حامل الأصص الذي وضعت عليه. «أتظنّه يملك بعدُ يداً على قدر من المهارة ليلتقط كلّ هذا؟ وأيّة قوّة فيه! ثم إن هذا جميل كمادّة أولية وقد يشوقك أن تتقرّاه لمساً. لا أستطيع أن أقول لك كم كان يفرحني أن أراه يرسمها، إذ كنت تحسّ أنّه مهتمّ بالبحث عن هذا الأثر الذي تخلّفه». وتوقفت نظرة المعلّمة حالمة على حاضر الفنّان هذا الذي تُختَصَرُ فيه لا موهبته العظيمة فحسب، بل صداقتهما الطويلة التي لم تلبث حيّة إلا في هذه الذكريات التي ورثتها عنه. فقد كان يخيّل إليها أنها ترى من جديد، خلف الأزهار التي قطفها فيما مضى من أجلها، اليد الجميلة التي رسمتها صبيحة يوم تنضح نضارة إلى حدّ أنّها استطاعت أن تمثّل الورود، وهي بعد حيّة، ورسْمها، الذي يشبهها إلى حدّ، يتقابلان، في غداء المعلّمة، هذه على الطاولة والآخر المركون على مقعد في قاعة الطعام، فلن يشبهها إلى حدّ، لأن «إيلستير» لا يقوى على النظر إلى زهرة إلّا إذا نقلها بادئ الأمر إلى ذاك البستان الداخلي الذي نضطر إلى المكوث فيه على الدوام. وقد أبرز في هذه اللوحة المائية ظهور الورود التي رآها والتي ما كانت قطّ عُرفت لولاه، حتّى ليمكن القول إنّها كانت نوعاً جديداً أغنى به هذا الرسّام، على نحو ما يفعل جنائنيّ حاذق، فصيلة الورد. وقالت: «منذ اليوم الذي فارق فيه النواة الصغيرة قضى على الرجل. ويبدو أن حفلات العشاء عندي كانت تضيّع وقته وأني كنت أسيء إلى تطوّر عبقريته»، تقول بلهجة ساخرة؛ ورفعت صوتها بحركة مستكبرة: «كما لو أمكن أن لا تكون عشرة امرأة مثلي مفيدة لفنان!» وعلى مقربة منّا همّ السيد «دو كامبرمير»، وكان جالساً منذ ذاك، همّ إذ رأى السيد «دو شارلوس» واقفاً يبغي القيام وأن

يعطيه كرسيّه. ربّما لم يكن هذا العرض يوافق في فكر المركيز سوى نيّة في مجاملة غير محدّدة المعالم. وفضّل السيد «دو شارلوس» أن يقرن بها الدلالة على واجب يعلم النبيل البسيط أنه يقع عليه الوفاء به تجاه أمير وما ظن بمقدوره تثبيت حقّه في أن يتقدم غيره إلا برفضه. لذلك صاح قائلاً: «ولكن كيف يكون ذلك! رجوتك! ما أغربه أمر! لقد اتّسمت لهجة الاحتجاج المتحايلة في عنفها، اتّسمت مذ ذاك بشيء من طابع آل «غيرمانت» برز أكثر فأكثر في الحركة الآمرة اللامجدية الأليفة التي ضغط بها السيد «دو شارلوس» بكلتا يديه، وكأنما ليرغمه على الجلوس ثانية على كتفي السيد «دو كامبرمير» الذي لم يكن نهض من مكانه، وألحّ البارون يقول: «عجباً لك يا عزيزي! ما أحوجنا إلى مثل هذا! ليس ما يدعو إلى ذلك! فمثله مقصور على أمراء الأسرة المالكة». لم يتأثر لا آل «كامبرمير» ولا السيدة «فيردوران» بما أبدى من حماسة إزاء منزلهم. ذلك لأنّي كنت فاتراً إزاء جمالات يدلّونني عليها وأتحمّس لذكريات مبهمة، بل كنت أقرّ لهم أحياناً بخيبة أملي إذ لا أجد ما كان مطابقاً لما سبق أن أثاره اسمه لديّ من تخيّلات. وقد أثرت حفيظة السيدة «دو كامبرمير» إذ قلت لها إنّي ظننته أكثر طابعاً ريفيّاً. وفي المقابل توقّفتُ مسحوراً أستنشق رائحة ريح تنسلّ عبر الباب. «أرى أنّك تحبّ مجاري الهواء. ولم يصادف ما أثنيت به على قطعة صقيلة من الحرير الأخضر سُدّ بها لوح زجاج مكسور نجاحاً أوفر، إذ رفعت المركيزة صوتها تقول: «يا للفظاعة!» وطفح الكيل إذ قلت: «كان أعظم فرح أصبته حينما وصلت، فعندما سمعت وقع خطاي في الممرّ لست أعلم في أي مكتب عُمْديّة قرية تحوي خارطة المنطقة خلتني دخلت». وفي هذه المرّة أدارت لي السيّدة «دو كامبرمير» بحزم ظهرها. وسألها زوجها بالعناية المُشفقة نفسها التي كان اتّخذها لو استعلم كيف احتملت زوجته احتفالاً حزيناً: «لم تجدي في كلّ ذلك سوء ترتيب مفرطاً؟ فثمة أشياء جميلة». ولكن، لمّا كان سوء الطويّة يجد كلّ شيء قابلاً للانتقاد لدى الذين حلّوا محلّنا، سواء في شخصهم أو

منزلهم حين لا تفرض عليها قواعد ثابتة في الذوق السليم حدوداً حتميّة، فقد قالت: «أجل، ولكنها ليست في مكانها، ثمّ هل هي بمثل هذا الجمال؟». - «لقد لاحظت، يقول السيد «دو كامبرمير» باغتمام يحدّ منه شيء من الحزم، ثمّة لوحات لـ«جوي» بانت خيوطها، وأشياء متهرّئة تماماً في هذه الصالة». - «وقطعة القماش هذه بورودها الضخمة كما هو لحاف فلّاحة»، تقول السيدة «دو كامبرمير» التي كانت ثقافتها المصطنعة تنطبق حصراً على الفلسفة المثالية والرسم الانطباعي وموسيقى «دوبوسّي». وكي لا يكون الادعاء باسم البذخ حصراً، بل باسم الذوق أيضاً أضافت: «ثم إنّهم أقاموا صادّات للريح! فأيّ خطأ في الأسلوب! ما عساك تريد هؤلاء الناس لا يعرفون وأين عساهم كانوا تعلّموا؟ لا بدّ أنّهم تجّار كبار اعتزلوا، وهذا شيء لا بأس به بالنسبة إليهم». وقال المركيز: «لقد بدت لي الشمعدانات جميلة»، دون أن يعلم أحد لماذا كان يستثني الشمعدانات، مثلما كان ما يبادر دوماً، لا محالة في ذلك، في كلّ مرّة يجري الحديث فيها عن كنيسة، سواء أكانت كاتدرائية «شارتر» أو «رانس» أو «أميان» أو كنيسة «بالبيك» إلى ذكره على أنّه رائع هو: «طاولة الأرغن والمنبر وأعمال الرحمة». «أما الحديقة، فلا داعي للحديث عنها، تقول السيدة «دو كامبرمير»، إنها لمجزرة، تلك الممرّات التي تمضي كلها بالمقلوب»!

وانتهزتُ فرصة تقديم السيّدة «فيردوران» القهوة لأبادر إلى إلقاء نظرة على الرسالة التي سلّمني إيّاها السيد «دو كامبرمير» والتي تدعوني أمّه فيها إلى العشاء. كان الخطّ بهيّن الحبر ذاك يعبّر عن شخصيّة أصبحت منذ الآن معروفة لديّ من بينها جميعاً دون أن تكون حاجة من بعد إلى اللجوء إلى فرضيّة يراعات خاصّة أكثر ممّا يلزم الرسّام ألوان نادرة خفيّة الصنعة ليعبّر بها عن رؤيته الفريدة، ولعلّ مشلولاً أصيب بفقد الكتابة بعد أزمة قلبية وقُضي عليه أن ينظر إلى الحروف على أنّها رسم دون أن يعرف كيف يقرأها، لعلّه كان أدرك، حتّى هو، أن السيدة «دو كامبرمير» تنتمي إلى

أسرة عريقة بعث فيها تعاطي الآداب والفنون الحماسيّ شيئاً من الجوّ الرحب للتقاليد الأرستقراطية؛ وكان حزر أيضاً في أيّة سنوات تقريباً تعلّمت المركيزة في الآن نفسه الكتابة وعزف «شوبان». ذلك كان العصر الذي كان فيه الناس الحسنو التهذيب يتقيّدون بقاعدة التزام اللطف والقاعدة المسمّاة بالصفات الثلاث. وكانت السيّدة «دو كامبرمير» تُآلف بين الاثنتين. فما كانت تكفيها صفة مادحة فتتبعها (بعد خطّ صغير) بأخرى ثمّ بثالثة (بعد خطّ ثان). لكنّ ما كان خاصاً بها أنّ تعاقب الصفات الثلاث، خلافاً للهدف الاجتماعي والأدبي الذي ترمي إليه، لم يكن يرتدي في وريقات السيدة «دو كامبرمير» طابع التدرّج الصاعد بل شكل التناقص، فقد نقلت إليَّ السيّدة «دو كامبرمير» في هذه الرسالة الأولى أنّها التقت «سان لو» وقدّرت أكثر من أي وقت مضى صفاته «الفريدة – النادرة – الحقيقيّة» وأنه سيعود مع أحد أصدقائه (ذاك الذي بالضبط كان يحبّ الكنّة) وأنّي إن وددت المجيء إلى «فيتيرن» برفقتهم أو بدونهم للعشاء فسوف «يفتنها ذلك – يسعدها – يفرحها». ربّما كان ذلك بسبب أن الرغبة في اللطف لديها لم تكن توازيها خصوبة الخيال وثراء المفردات، وأنّ هذه السيّدة التي تحرص على إطلاق ثلاث صيغ تعجّب لم يكن يتوافر لها من القوّة في الثانية والثالثة سوى صدى ضعيف للأولى، حتى إن اتفق ثمّة صفة رابعة لم يبق شيء من اللطافة الأوليّة. ثمّ إنّ السيدة «دو كامبرمير» كانت قد تعوّدت، جرّاء بساطة مرهفة لا بدّ أنّها ولّدت انطباعاً ضخماً في الأسرة وحتّى في دائرة معارفها، أن تستبدل بكلمة «صادق» التي كان يمكن في النهاية أن تبدو كاذبة كلمة «حقّ». وكيما تُظهر تماماً أن الأمر يتعلّق فعلاً بشيء صادق، كانت تكسر الحلف التقليدي الذي يضع كلمة «حق» قبل الاسم وتغرسها بشجاعة بعده. فكانت رسائلها تُختم بالكلمات التالية: «أرجو أن تتأكدوا من ودّي الصادق»، «أرجو أن تتأكدوا من تعاطفي الصادق»، ولكنّما أصبحت تلك لسوء الحظّ عبارة معتادة إلى حدّ أن ذاك التظاهر بالصراحة أخذ يخلّف انطباعاً بالمجاملة الكاذبة أكثر من

العبارات القديمة التي لم نعد نفكّر بمعناها. كنت مُربكاً على أيّة حال في قراءتي من جرّاء لغط الأحاديث الغامضة التي يطغى عليها الصوت الأكثر ارتفاعاً للسيد «دو شارلوس» الذي لم يتخلّ عن موضوعه وكان يقول للسيد «دو كامبرمير»: «كنت تذكّرني في مرادك أن آخذ مكانك، برجل بعث إليّ هذا الصباح برسالة يوجّهها «إلى سموّ البارون دو شارلوس» ويبدأها بلقب «سيّدي». فأجاب السيد «دو كامبرمير» وهو يستسلم لضحكة خفيفة: «كان مراسلك بالفعل يبالغ بعض الشيء». وكان السيد «دو شارلوس» قد أثار تلك الضحكة ولكنه لم يشاطره إيّاها، فقال: «ولكن في الأساس يا عزيزي لاحظ أنه هو من كان على حقّ من منظور الشّعارات، لست أجعل من الأمر مسألة شخصية، لا بدّ تعلم ذلك. إنّي أتحدّث عن الأمر كما لو تناول آخر غيري. ولكن ما عساك تريد، التاريخ هو التاريخ ولا حيلة لنا فيه وليس يعود لنا أن نعيد صناعته. فلن أذكر لك الإمبراطور «غليوم» الذي لم يكفّ قط في «كييل» عن مناداتي بـ«سيدي». وقد تناهى إليّ أنه كان يدعو على هذا النحو سائر الدوقة الفرنسيين، وفي الأمر إفراط، وربّما كان محض لفتة لطيفة موجّهة من فوق رؤوسنا إلى فرنسا». - «لطيفة وفي الصراحة بين بين»، يقول السيد «دو كامبرمير». وأضاف السيد «دو شارلوس»: «لا أوافقك الرأي. لاحظ أن سيّداً من أدنى طراز كهذا الـ«هوهنزوليرن»، وبروتستانتي إلى ذلك، وقد انتزع أملاك ابن عمّي ملك «هانوفر»، لا يمكن في ما يخصّني شخصياً، أن يروقني»، وقد بدا أن «هانوفر» أقرب إلى قلبه من «الألزاس واللورين». «ولكنّي أظنّ الميل الذي يدفع بالإمبراطور نحونا صادقاً عميقاً، سيقول الهُبْل إنّه إمبراطور مَسْرح، ولكنّه على العكس رائع الذكاء. إنّه غير خبير في الرسم وقد أرغم السيد «تشودي» على سحب لوحات «إيلستير» من المتاحف الوطنية. لكنّ «لويس الرابع عشر» ما كان يحبّ الأساتذة الهولنديين وكان كذلك ميّالاً إلى الأبّهة وكان بمجمل القول ملكاً عظيماً، أضف أن «غليوم الثاني» سلّح بلاده على الصعيد العسكري والبحري كما لم يفعل «لويس الرابع عشر»، وآمل ألا

يشهد حكمه في يوم النكسات التي أظلمت بها نهاية حكم من يُدعى ابتذالاً الملك - الشمس. لقد ارتكبت الجمهورية فيما أرى خطأ كبيراً برفضها لفتات سليل «الهوهنزوليرن» أو بأن لم تردّها له إلّا بالقطّارة. ويتبيّن ذلك بنفسه بأوضح شكل ويقول بما يملك من موهبة تعبير: «ما أبغيه مصافحة بالأيدي لا تحيّة بالقبّعات». إنه سافل كإنسان، فقد هجر وسلّم وأنكر أفضل أصدقائه في ظروف كان سكوته فيها بائساً بقدر ما كان سكوتهم عظيماً»، يقول السيد «دو شارلوس» موالياً فكرته وكان ينزلق، مدفوعاً على الدوام على سفح انحداره، باتجاه قضية «أولنبورغ» ويتذكر الكلمة التي وجّهها إليه أحد المتهمين الأعلى مكانة: «أفينبغي أن يثق الإمبراطور برقّة نفوسنا كي يكون تجرّأ وسمح بمثل هذه الدعوى! لكنّه لم يخطئ على كل حال إذ وثق بتكتّمنا، فلعلّنا كنّا حبسنا ألسنتنا حتّى على المقصلة». كلّ ذلك لا دخل له، أيّاً كان الحال، مع ما كنت أبغي قوله، وأعني أنّنا بوصفنا أمراء يستمدّون السلطة من غيرهم، أصحاب السموّ الرفيع في ألمانيا، فيما كانت مكانتنا كأصحاب سموّ في فرنسة مقرّاً بها علناً. أمّا «سان سيمون» فيزعم أنّنا أخذنا اللقب تجاوزاً وهو مخطئ تماماً فيما مضى إليه. وإن الحجّة التي يقدّمها في ذلك، وقوامها أن لويس الرابع عشر أمرنا بالامتناع عن دعوته الملك المسيحيّ جداً وأصدر أمره إلينا بدعوته الملك فحسب، إنّما تبرهن فقط أننا كنّا مرتبطين به لا أنّنا ما كنّا نملك الإمارة؛ وإلّا لانبغى إنكارها على دوق «دولورين» وكثيرين غيره! على أيّ حال عدّة ألقاب جاءتنا من أسرة «دو لورين» عن طريق «تيريز ديسبينوا» جدّة جدّتي التي كانت ابنة الفتى «دو كومّيرسي»». «وإذ انتبه السيد «دو شارلوس» أن «موديل» كان يصغي إليه فقد توسّع أكثر في أسباب ادّعائه فقال: «لقد لفتُّ نظر شقيقي إلى أن النبذة حول أسرتنا لا بدّ أن تكون موجودة في الجزء الثاني من دليل «غوتا»[1] إن لم تكن في الأول، وليس في الثالث»، قال

---

(١) هو دليل دبلوماسي وأنسابي، نُشر في «غوتا» (ألمانيا) بدءاً من عام ١٧٦٣.

دون أن يتبيّن أن «موريل» ما كان يعلم ما عسى يكون دليل «غوتا». «ولكنّ الأمر يتعلّق به، إنّه رئيسي في السلاح وبما أنه يرى أن الأمر حسن كذلك ويدع الأشياء على سجيّتها فما عليّ إلّا أن أغمض عينيّ دونها». وقلت للسيدة «فيردوران» وهي تُقبل إليّ وفيما كنت أضع رسالة السيدة «دو كامبرمير» في جيبي: «لقد استهواني السيّد «بريشو» كثيراً». فأجابتني بفتور: «إنه رجل مثقف وطيّب القلب. وهو يفتقر بالطبع إلى الظرف والذوق، ويتمتّع بذاكرة مخيفة. كانوا ينقلون عن «جدود» الناس الذين نستقبلهم هذا المساء، عنيت المهاجرين، أنهم لم ينسوا شيئاً. ولكنّهم كانوا يلقون على أيّ حال عذراً، تقول وقد أخذت لحسابها كلمة لـ«سوان»، في أنّهم لم يتعلّموا شيئاً، فيما يعرف «بريشو» كلّ شيء ويقذفنا في أثناء العشاء بأكداس من المعاجم؛ وعندي أنّك لا تجهل شيئاً من بعد ممّا يعنيه اسم هذه المدينة وتلك القرية». وفيما كانت السيدة «فيردوران» تتكلّم تذكّرت أنني كنت عازماً على سؤالها عن أمر ولكنّي عجزت عن أن أتذكّر ما كان ذاك الأمر. وقال «سكي»: «يقيني أنكما تتحدّثان عن «بريشو». «شانبيي» و«فريسينيه»، لم يسامحكما بشيء. لقد راقبتك أيتها «المعلّمة» العزيزة». - «لقد رأيتك بدوري وأوشكت أنفجر». لا يسعني أن أقول اليوم أيّة ملابس كانت ترتديها السيّدة «فيردوران». وربما لم أكن أكثر علماً بذلك في تلك اللحظة نفسها لأني لا أتمتع بروح الملاحظة. بيد لانني قلت لها، وقد أحسست أنّ ملابسها لا تخلو من نزعة تباهٍ، قولاً لطيفاً، بل يتّسم بالإعجاب، لقد كانت كالنساء جميعهنّ تقريباً اللواتي يخيّل إليهن أن الثناء الموجّه إليهنّ إنما يمثّل التعبير عن الحقيقة حصراً وأنّه حكم يطلق دون محاباة وعلى نحو لا يقاوم وكأنّما الأمر أمر حاجة فنيّة لا ترتبط بشخص، ولذلك طرحت عليّ هذا السؤال الذي يتّسم بالاعتزاز والسذاجة، وهو عاديّ في مثل هذه الأحوال، طرحته بجديّة كستني منها حمرة الخجل من نفاقي: «يروقك ذلك؟» وقال السيد «فيردوران» وهو يقترب منّا: «تتحدّثون عن «شانتبي»، إني متيقّن من

ذلك». لقد كنت الوحيد، وأنا أفكّر بقماشي الأخضر اللمّاع وبرائحة تنبعث من الخشب، في أنّي لم ألاحظ أنّ «بريشو» أثار السخرية منه وهو يعدّد تلك الاشتقاقات. ولمّا كانت الانطباعات التي تكسب الأشياء قيمتها في نظري من تلك التي لا يحسّها الآخرون أو يكتبونها دون التفكير بها على أنّها غير ذات بال، وأنّها كانت لبثت بالتالي غير مفهومة أو كانت موضع ازدراء لو استطعت الإفصاح عنها، فقد كانت بالنسبة إليّ غير ذات فائدة إطلاقاً وتحمل إلى ذلك خطر احتسابي غبيّاً في نظر السيدة «فيردوران» التي بدا لها أنّي أصدّق السيد «بريشو» مثلما سبق أن بدوت للسيدة «دو غيرمانت» لأنني كنت أستحلي المكوث في منزل السيدة «دارباجون». أمّا بالنسبة إلى «بريشو» فثمّة سبب آخر قوامه أنّي لم أكن من العشيرة الصغيرة. وفي كلّ عشيرة، سواء أكانت من دنيا المجتمع، أم سياسية أم أدبيّة يكتسب المرء سهولة شريرة في اكتشاف كلّ ما لم يكن ليخطر للقارئ النزيه أن يجده في حديث أو خطاب رسميّ أو أقصوصة أو قصيدة قصيرة. فكم مرّة اتّفق لي، وأنا أقرأ بشيء من الانفعال حكاية نسجها بمهارة عضو أكاديمية فصيح اللسان على شيء من القدم، أن أجد نفسي على شفا أن أقول لـ«بلوك» أو للسيدة «دو غيرمانت»: «ما أجمل هذا!» فإذا بهما يصيحان كلّ بلغة مختلفة قبلما أكون فتحت فمي: «إن أردت قضاء فترة طيّبة فاقرأ حكاية لفلان، فالغباء البشري لم يبلغ قطّ الحدّ الذي يبلغه». أمّا ازدراء «بلوك» فناتج على وجه الخصوص من أنّ بعض المؤثّرات الأسلوبية، وهي ممتعة على أيّ حال، كانت قد خبا إلى حدّ بريقها؛ وأمّا ازدراء السيدة «دو غيرمانت» فمن أن الحكاية تبدو كأنّما تبرهن بالضبط عن عكس ما قصد إليه المؤلّف لأسباب واقعة كانت تبرع في استخلاصها ولكنّها ما كانت لتخطر لي على بال. وكانت دهشتي أن أرى السخرية التي تختفي وراء لطف آل «فيردوران» الظاهر إزاء «بريشو» تساوي دهشتي لسماع آل «كامبرمير» يقولون لي بعد بضعة أيّام في «فيترن» في مقابل المديح الحماسيّ الذي أوجّهه لقصر «لا راسبليير»: «لا يمكن

أن تكون صادقاً بعد الذي فعلوه به». صحيح أنّهم أقرّوا بأن آنية الطعام كانت جميلة، وما كنت رأيتها أكثر ممّا رأيت صادّات الريح التي تؤذيك رؤيتها. وقال السيّد «فيردوران» بلهجة ساخرة: «باختصار القول، سوف تعلم الآن حينما تعود إلى «بالبيك» ما تعنيه «بالبيك». وكانت الأمور التي يطلعني عليها «بريشو» هي بالضبط ما يثير اهتمامي، أمّا ما كانوا يدعونه ظرفه فقد كان بالضبط هو نفسه الذي كانوا يستسيغونه إلى حدّ كبير داخل العشيرة الصغيرة، فقد كان يتكلّم بذات السهولة التي تبعث فيك الضيق، ولكن كلامه لم يعد مؤثراً وكان عليه أن يغالب صمتاً عدائياً أو أصداء مزعجة، ولم يكن ما يقول هو الذي تغيّر، بل شروط السماع في الصالة وميول الجمهور. وقالت السيدة «فيردوران» وهي تدلّ على «بريشو»: «حذار!» ولمّا كان هذا قد حافظ على حاسّة سمع أكثر نفاذاً لديه من الرؤية فقد حدج «المعلّمة» بنظرة أحسر وفيلسوف سرعان ما مال بها عنها. ولئن كانت عيناه أقلّ صلاحاً فإن عيني فكره كانتا في المقابل تلقيان في الأشياء نظرة أشمل. فقد كان يبصر القليل الذي يمكن توقّعه من صنوف الودّ الإنساني وقد سلّم بذلك. كان بالتأكيد يعاني العذاب من جرّائه، إذ يتّفق حتّى لذاك الذي يكشف ذات مساء واحد، داخل وسط تعوّد أن يكون فيه موضع استحسان، أنّهم وجدوه إمّا شديد الطيش أو مفرط الحذلقة أو شديد الهوج أو مُفرطاً في جرأته، إلخ. أن يعود إلى منزله تعيساً. وغالباً ما يكون بدا لغيره غير معقول أو من نمط قديم بسبب مسألة آراء معيّنة، نظام معيّن. وغالباً ما يعلم حقّ العلم أن هذا الغير لا يساويه؛ وربّما استطاع بيسر تشريح السفسطات التي حكموا بها عليه ضمنيّاً ومراده أن يمضي للقيام بزيارة، لكتابة رسالة: ولكنّه أكثر حكمة فلا يُقدم على شيء وينتظر دعوة الأسبوع المقبل. وأحياناً كان فقدان الحظوة ذاك يدوم شهوراً بدلاً من أن ينتهي في أمسية واحدة. فإذا هو ناجم عن تقلّب الأحكام المجتمعيّة فإنّه يزيد منه أيضاً، لأنّ الذي يعلم أن السيدة «س» تحتقره ويحسّ أنه موضع تقدير أكبر لدى السيدة «ع. . » فإنّه يعلن

هذه الأخيرة أفضل منها ويهاجر إلى منتداها. وليس هنا على أيّ حال مجال وصف هؤلاء الناس الذين هم أعلى مستوى من الحياة المجتمعيّة ولكنّهم لم يفلحوا في تحقيق ذاتهم خارجها، الذين يسعدهم أن يُسْتَقْبَلُوا ويغيظهم أن يتجاهلهم الآخرون، الذين يكتشفون في كلّ عام عيوب ربّة البيت التي كانوا يمجّدونها ونبوغ تلك التي لم يقدروها حقّ قدرها، على أن يعودوا إلى حبّهم الأول بعدما يكونوا عانوا من سيّئات الثاني وتكون سيّئات الأول طواها النسيان إلى حدّ. ويمكننا انطلاقاً من فترات فقدان الحظوة القصيرة هذه أن نقدّر الغمّ الذي يلحقه بـ«بريشو» غياب الحظوة الذي يعلم أنّه نهائيّ. فلم يكن يجهل أن السيدة «فيردوران» تسخر منه في العلن أحياناً وحتى من عاهاته، وإذ يعلم أنّ ما ينبغي توقّعه من الوداد البشري قليل وقد سلّم به فإن ذلك لم ينتقص من اعتباره «المعلّمة» بمثابة أفضل صديقة له. إلّا أن السيدة «فيردوران» أدركت من الحمرة التي كست وجهه الجامعيّ أنّه سمعها فاعتزمت أن تكون لطيفة معه في أثناء السهرة. ولم أستطع أن أمسك عن قولي لها إنّها كانت تبدي منه القليل القليل لـ«سانييت». «ما بالك تقول غير لطيفة! ولكنّه يعشقنا ولست تعلم ما نمثّل بالنسبة إليه! إن زوجي يحسّ أحياناً بشيء من الضيق من جرّاء غبائه، ولا بدّ من الإقرار بأن ثمّة ما يبرّره، ولكن لماذا لا يثور أكثر مما يفعل في تلك الأحيان بدلاً من اتخاذه مظهر الكلب الخنوع؟ ذلك يفتقر إلى الصراحة ولست أحبّه. ولا يحول ذلك دون أن أحاول دوماً تهدئة زوجي لأنّه إن تمادى فلن يظلّ لـ«سانييت» إلا أن لا يعود؛ ولست راغبة في الأمر لأنني سأقول لك إنّه لم يعد يملك شروى نقير وهو بحاجة إلى حفلات العشاء هذه. فإن تكدّر على أيّ حال فعليه أن لا يعود، فليست تلك مشكلتي، وحين تحتاج إلى الآخرين تحاول أن لا تكون بمثل ذلك الغباء». وكان السيد «دو شارلوس» يوضح للسيّد «دو كامبرمير» قائلاً: «كانت دوقيّة «أومال» على مدى فترة طويلة من أملاك أسرتنا قبل أن تؤول إلى أسرة «فرنسا»، ويفعل في حضرة «موريل» الذاهل والذي إن لم يكن

كامل هذا البحث موجّهاً إليه فقد كان على الأقلّ غايته. «فقد كان لنا حقّ التقدّم على سائر الأمراء الأجانب، وبوسعي أن أعطيك ألف مثال عن ذلك. منها أن الأميرة «دوكروا» إذ أرادت أن تجثو راكعة أثناء جنازة «السيّد»(١) بعد جدّة جدّتي فقد أفهمتها بلهجة قاسية أنْ ليس لها الحق في الوساد وأمرت ضابط الخدمة برفعة ورفعت الأمر إلى الملك الذي أمر السيدة «دوكروا» بالمبادرة إلى الاعتذار من السيدة «دو غيرمانت» في منزلها؛ وأن الدوق «دو بورغونيي»(٢) إذ جاء إلى منزلنا برفقة حجّابه وهم يرفعون العصا، فقد حصلنا من الملك أن يأمر بخفضها. أعلم أنه من غير المستحبّ التحدّث عن فضائل الأقارب، إلّا أنّه من الذائع أن أهلنا كانوا دائماً في المقدّمة ساعة الخطر. وأن صيحة الحرب التي اعتمدناها بعدما أقلعنا عن تلك الخاصّة بدوقة «دوبرايان» كانت «احتلّ المقدمة». وهكذا يبدو بوجيز القول مشروعاً إلى حدّ ما أن نكون حصلنا فيما بعد على ذاك الحقّ الذي سبق أن خصصنا أنفسنا به قروناً طوالاً في الحرب، أن نكون حصلنا عليه في البلاط. والحقّ أنّه أقرّ لنا فيه على الدوام. سأذكر لك أيضاً برهاناً على ذلك الأميرة «دو بادن». فإذ بلغ بها النسيان أن اعتزمت منازعة الدوقة «دو غيرمانت» نفسها التي كنت أكلّمك عنها توّاً مكانتها وهمّت تريد الدخول أولاً لدى الملك مستغلّة حركة تردّد ربّما بدرت من قريبتي (مع أنّه لم يكن ما يدفع إليها) صاح الملك بحزم: «هيا، ادخلي يا ابنة العمّ، فإن السيّدة «دو بادن» أكثر علماً بما تدين به لك». وإنّما كانت تحتلّ تلك المكانة بما هي دوقة «دو غيرمانت»، مع أنّها من جانبها سليلة أسرة عظيمة إلى حدّ ما إذ هي بوالدتها ابنة شقيقة ملكة بولونيا وملكة المجر وناخب «البالاتينا» والأمير «دو سافوا كارينيان» وأمير «هانوفر» وهو فيما بعد ملك إنكلترا. وقال «بريشو»: «Maecenas atavis edite»

(١) هو دوق أورليان وشقيق لويس الرابع عشر.
(٢) هو لويس، ولي عهد فرنسا، حفيد لويس الرابع عشر ووالد لويس الخامس عشر.

regibus» (ميكينس الذي ينحدر من جدود ملكيّين)[1]، قال متوجّهاً إلى السيد «دو شارلوس» الذي ردّ على هذه المجاملة بانحناءة بالرأس طفيفة. وقالت السيدة «فيردوران» تسائل «بريشو» الذي ودّت لو تحاول التكفير عن كلمات تفوّهت بها منذ قليل: «ما الذي تقوله؟» - «كنت أتكلّم، يسامحني الله عن رجل شديد التأنّق كان زهرة الصفوة (وقطّبت السيدة «فيردوران» حاجبيها)، في دوائر عصر «أغسطس» (واتخذت السيدة «فيردوران»، وقد هدّأ من روعها بُعد تلك الصفوة، هيئة أكثر صفاء)، عن صديق لـ«فيرجيليوس» و«هوراسيوس» وكانا يذهبان بالتملّق إلى حدّ التصريح له في حضرته عن أسلاف له أكثر من أرستقراطيين، أسلاف ملكيّين؛ كنت بوجيز القول أتكلّم عن «ميكينَس»، عن جليس مكتبات صديق لـ«هوراسيوس» و«فيرجيليوس» و«أغسطس». وإنّي لعلى يقين أن السيد «دو شارلوس» يعلم تمام العلم وعلى جميع الوجوه من كان «ميكينس». وأرسل السيد «دو شارلوس» من طرف عينيه نظرة لطيفة إلى السيدة «فيردوران» لأنّه سمعها تضرب موعداً لـ«موريل» في ما بعد الغد وخشي أن لا يُدعى فقال: «أعتقد أن «ميكينس» هو ما يقرب أن يكون «فيردوران» العصور القديمة». ولم تستطع السيدة «فيردوران» أن تكبت نصف ابتسامة بعثها الارتياح. وذهبت إلى «موريل» وقالت له: «إنّه محبّب، صديق أهلك، واضح أنّه رجل متعلّم وحسن التهذيب وسوف ينسجم مع نواتنا؛ فأين يقطن في باريس؟» وصمت «موريل» صمت المتعالي وطالب فقط بلعبة ورق. وأصرّت السيدة «فيردوران» قبل ذلك على عزف من الكمان. ورافق السيّد «دو شارلوس» الذي ما كان يتكلّم في يوم عن المواهب العظيمة التي يتمتّع بها، رافق، فأثار دهشة الجميع، بالأسلوب الأكثر صفاء، المقطوعة

---

(١) كان ميكينس في العصر الروماني حامياً وسنداً (بالنفوذ والمال) للشاعرين الكبيرين فريجيليوس وهوراسيوس، وغدا اسمه فيما بعد يعني راعي الأدب والفن والمحسن إلى الأدباء والفنانين: Mécène.

الأخيرة (القلقة المعذّبة «الشومانيّة» الطابع[١]، ولكنّها سابقة لسوناتا «فرانك») من سوناتا «فوريه» للبيانو والكمان، كنت أحسّ أنّه سيزوّد «موريل» ذا المواهب الرائعة في نطاق الصوت والبراعة، بما ينقصه بالضبط، أي الثقافة والأسلوب. ولكنّي فكّرت باستغراب بالذي يقرن لدى شخص واحد نقيصة جسميّة وموهبة روحيّة، ولم يكن السيد «دو شارلوس» كثير الاختلاف عن أخيه الدوق «دو غيرمانت». بل هو منذ قليل (وكان الأمر نادراً) تكلّم فرنسيّة بمثل سوء فرنسيّته. وإذ لامني (دونما شك بغية أن أتحدّث بلغة أكثر حرارة عن «موريل» إلى السيدة «فيردوران») على أنّي لا أمضي البتّة إلى زيارته، فيما تعلّلت أنا بالتزام التحفّظ، أجابني قائلاً: «ولكن بما أنني أنا من يطلب ذلك فليس سواي من يمكن أن يستاء جرّاءه». كان يمكن أن يجيء ذلك على لسان الدوق «دو غيرمانت». والسيد «دو شارلوس» في نهاية المطاف إن هو إلّا «غيرمانتيّ». لكنّما كان كافياً أن تُحدث الطبيعة خللاً كافياً في منظومته العصبيّة كيما يفضّل على امرأة، كما لعلّ أخاه الدوق كان اختار، أحد رعاة «فيرجيليوس» أو تلميذاً لأفلاطون، وفي الحال جعلت صفات يجهلها الدوق «دو غيرمانت»، وغالباً ما ارتبطت بذاك الخلل، جعلت السيد «دو شارلوس» عازف بيانو رائعاً ورسّاماً هاوياً لا يخلو من ذوق ومتحدّثاً بليغاً. والأسلوب السريع القلق الساحر الذي كان السيد «دو شارلوس» يعزف به الجزء «الشوماني» من سوناتا «فوريه»، من ذا كان يستطيع أن يتبيّن أن هذا الأسلوب يجد مقابله - ولا نجرؤ أن نقول سببه - في أقسام جسميّة حصراً، في صنوف من الخلل عصبيّة لدى السيد «دو شارلوس»؟ سوف نوضح فيما بعد عبارة «الخلل العصبي» هذه ولأيّة أسباب كان يمكن أن يكون يونانيّ من زمن «سقراط» ورومانيّ من زمن «أغسطس» ما عهدك به فيما يلبثان من الرجال الطبيعيّين تماماً، لا من الرجال - النساء على نحو ما نرى اليوم من هذا

---

(١) نسبة الى الموسيقي الكبير روبرت شومان ذي النزعة الغنائية.

القبيل. كذلك كان السيّد «دو شارلوس»، إلى جانب استعدادات فنيّة حقيقيّة لم تبلغ حدّها، قد أحبّ والدته أكثر كثيراً من الدوق، وأحبّ زوجته، بل كان حينما يحدّثونه عنها بعد سنوات يفيض دمع من عينيه، ولكنّه سطحيّ، شأن تعرّق رجل مفرط السمنة يتندّى جبينه عرقاً لأدنى أمر. مع فارق أنّك تقول لهؤلاء: «ما أشدّ ما بك من حرّ!» فيما تتظاهر بأنّك لا تبصر دموع الآخرين. وإنّما أعني بك الناس، لأن الشعب يقلق أن يرى من يبكي كما لو كان الانتحاب أشدّ خطراً من النزيف. أمّا الحزن الذي أعقب موت زوجة السيد «دو شارلوس» فما كان يتنافى لديه، بفضل تعوّده الكذب، وحياة تطابقه. بل بلغت به النذالة فيما بعد أن يسرّب بأنه تسنّى له في أثناء الاحتفال الجنائزي يسأل الفتى معاون الكاهن اسمه وعنوانه. وربما كان ذلك صحيحاً.

وفي ختام المقطوعة أذنت لنفسي بالمطالبة بموسيقى لـ«فرانك»، وقد بدا أن ذلك بعث في نفس السيدة «دو كامبرمير» من العذاب ما منعني من الإلحاح. وقالت لي: «لا يمكن أن تحبّ مثل هذا». وطلبت عوضاً عنها مقطوعة «**أعياد**» لـ«دوبوسي» ممّا جعل الناس يصرخون من أوّل نوطة: «آه! يا للروعة!» ولكنّ «موريل» تبيّن أنه لا يعرف سوى الفواصل الأولى وباشر، بفعل تصرّف صبيانيّ، ودونما مقصد تضليل، لحناً عسكرياً لـ«مايربير»، ولمّا لم يعد لسوء الحظ سوى اليسير من الفواصل الانتقالية ولم يتولّ إعلان الأمر فقد ظنّ الجميع أن موسيقى «دوبوسي» مستمرّة ولم ينفكّوا عن الصراخ قائلين: «يا للروعة!» وقد بعث «موريل» إذ أعلن أن المؤلف ليس من لحّن «**بيلّياس**» بل لحّن «**روبير لو ديابل**»، فسبّب شيئاً من الحرج. ولم يتّسع الوقت للسيدة «دو كامبرمير» كيما تحسّ به لنفسها إذ كانت اكتشفت منذ قليل دفتراً لـ«سكارلاتي» وانصرفت إليه باندفاعة هيستيرية، وكانت تصرخ قائلة: «آه! اعزف هذه، إليك هذه إنّها سماويّة». ولكنّ ما كانت تصطفيه في استعجالها المحموم، من ذلك المؤلّف الذي طال ازدراؤه ووُضع منذ فترة وجيزة في أعلى مراتب التكريم إنما واحدة

من تلك المقطوعات اللعينة التي غالباً ما زادت عنك المنام وتُقبل تلميذة خلت من الشفقة على تكرارها إلى ما لا نهاية في الدور الملاصق للدور الذي تسكن فيه. لكنّ السيد «موريل» كان قد ملّ الموسيقى ولمّا كان حريصاً على لعب الورق فقد ودّ السيد «دو شارلوس» من أجل المشاركة في اللعب لو تكون لعبة «الويست». وقال «سكي» للسيدة «فيردوران»: «لقد قال منذ قليل لربّ المنزل إنّه أمير، وليس الأمر صحيحاً فهو من مجرّد أسرة بورجوازيّة من صغار المهندسين». وعادت السيدة «فيردوران» تقول لـ«بريشو»: «أريد أن أعرف ما كنت تقول عن «ميكينس»، فإن ذلك يمتعني أنا، بلى»، تقول بلطف انتشى به هذا الأخير. فقال ومراده التألّق في نظر «المعلّمة» وربّما في نظري: «لكنّ «ميكينس»، والحقّ يقال يا سيّدتي، يثير اهتمامي على وجه الخصوص لأنّه الرسول الأول المتميّز لهذا الإله الصيني الذي فاق عدد أتباعه اليوم أتباع «براهما»، بل أتباع المسيح نفسه، الإله القدير «Je - Men - Fou»[1] (لست أبالي). ما كانت السيّدة «فيردوران» تكتفي في تلك الحالات بدفن رأسها في راحة يدها، فقد كانت تهوي بفجائية الحشرات المدعوّة «ابنة يومها» على الأميرة «شيرباتوف»؛ فإن كانت هذه على مسافة قليلة تعلّقت «المعلّمة» بإبط الأميرة وأنشبت فيه أظافرها وأخفت رأسها على مدى لحظات كطفل يلعب لعبة «التخباية». كان يُفترض أنّها خلف هذه الستارة التي تحميها، تضحك حتّى لتدمع منها العين كما يمكن أن لا تفكر في شيء مثلها مثل الذين يحتاطون لأنفسهم بحكمة أثناء ما يقومون بصلاة على شيء من الطول فيدفنون وجههم في أيديهم. كانت السيدة «فيردوران» تقلّدهم وهي تصغي لرباعيّات «بيتهوفن» كي تبدي أنّها تأخذها مأخذ صلاة وكي لا تدع

مكتبة سُر مَن قرأ

(١) أثبتنا الاسم المزعوم بالفرنسية لإبراز الشكل الصيني «جو - مان - فو» والجناس اللفظي الذي يتم على أساسه المزاح، والعبارة الفرنسية تعني «اللامبالاة، مع تضمين الإهانة» وهي شعبية تقابلها عندنا «ط. . .».

لأحد في الوقت نفسه أن يرى أنّها نائمة. وقال «بريشو»: «إنّي جادّ تماماً في ما أقول يا سيدتي. فإني أعتقد أن عدد الذين يقضون الوقت في النظر إلى سرّتهم على أنّها مركز العالم هو اليوم كبير جداً. وليس لي، وفق صحيح العقيدة، من اعتراض على ما لست أدري أيّ «نيرفانا» تنزع إلى إذابتنا في الكلّ الأعظم (الذي هو، شأن ميونيخ، وأكسفورد، أكثر قرباً إلى باريس من «آنيير» أو «بوا كولومب»، ولكنّما ليس من شيم الفرنسيّ الطيّب ولا حتّى الأوروبي الطيّب أن يبادر قوم مُشَركنون مناهضون للروح العسكرية بنقاش رزين حول فضائل الشعر الحرّ الرئيسية حينما اليابانيون ربّما على أبواب «بيزنطة». وظنّت السيدة «فيردوران» بإمكانها ترك كتف الأميرة المعذّب وسمحت بظهور وجهها من جديد، دون أن يفوتها التظاهر بمسح عينيها واسترداد أنفاسها مرّتين أو ثلاثاً. لكن «بريشو» أراد أن أحصل على نصيبي من الوليمة، وإذ احتفظ من مناقشات الأطروحات التي كان يترأسها أفضل من أيّ سواه أنّك لا تدغدغ مشاعر الشباب في يوم بقدر ما تفعل بتعنيفهم وإيلائهم أهميّة وبحملهم على رميك بالرجعيّة، قال وهو يختلس إليّ النظرة التي يلقيها الخطيب خلسة على واحد من الحضور يذكر اسمه: «لا أودّ التجديف على آلهة الشباب، ولا أودّ أن يُقضى عليّ بالهلاك على أنّي هرطوقيّ[1] أو مرتدّ في معبد «مالارميه» حيث لا بدّ أن صديقنا الجديد قد خدم القداس الباطنيّ شأن جميع من هم في سنّه، على الأقل بصفة مساعد للكاهن، وأبدى أنّه منحلّ أو من جماعة «روز كروا». ولكننا والحقّ يقال رأينا كثيرين من هؤلاء المثقّفين الذين يتعبّدون للفنّ بالمعنى القويّ للكلمة والذين حينما لا يكتفون من بعد بالانتشاء بخمرة «زولا» يأخذون حقنات من «فيرلين». وربما لم يعودوا قادرين، وقد أدمنوا المخدّرات إخلاصاً لـ«بودلير»، على بذل الجهد الرجولي الذي يمكن أن يطلبه الوطن منهم في هذا اليوم أو ذاك

---

(١) خارج على تعاليم الدين القويم.

وقد تخدّروا جرّاء العُصاب الأدبيّ الكبير في الجوّ الحارّ المثيل المُثقل بروائح عفنة ضارّة والمنبعث من رمزيّة محششة أفيون». ولمّا كنت عاجزاً عن التظاهر بأدنى الإعجاب بأبيات «بريشو» السخيفة المرقّشة انصرفت إلى «سكي» وأكّدتُ له أنّه مخطئ تماماً بشأن العائلة التي ينتمي إليها السيّد «دو شارلوس»؛ فأجابني أنّه متيقّن ممّا أورد وأضاف أنه حتى سبق لي أن قلت له إن اسمه الحقيقي «غاندان»، «لو غاندان». فأجبته: «لقد قلت لك إن السيدة «دو كامبرمير» هي شقيقة مهندس يدعى «لوغراندان»، ولم أحدّثك البتّة عن السيد «دو شارلوس». فثمّة صلة مولد بينه وبين السيدة «دو كامبرمير» بقدر الصلة القائمة بين «كوندي الكبير» و«راسين». وقال «سكي»: «آه! ظننت»، قال مقالة طيش دون أن يعتذر عن خطأه أكثر ممّا فعل قبل بضع ساعات عن الخطأ الذي أوشك أن يفوّت علينا القطار. «هل تنوي المكوث فترة طويلة على الشاطئ؟» تقول السيدة «فيردوران» للسيد «دو شارلوس» الذي كانت تتوسّم فيه أحد الخلّص وترتعد من أن تراه يعود إلى باريس أبكر ممّا ترغب. فيجيب السيد «دو شارلوس» بصوت أخنّ متباطئ: «يا الله، ليس الأمر أكيداً. فبودّي البقاء حتّى آخر أيلول». فقالت السيدة «فيردوران»: «إنّك على حقّ، فإنّها فترة العواصف الشديدة». - «ليس ذلك في الحقيقة ما قد يدفعني إلى الجزم. فإني بالغت منذ بعض الوقت في إهمال رئيس الملائكة القديس ميخائيل شفيعي وأودّ تعويضه عن ذلك بالبقاء إلى عيده في ٢٩ أيلول في دير «التلّة». وسألت السيدة «فيردوران» قائلة: «تهمّك كثيراً هذه المسائل؟»، ولعلّها كانت أفلحت في إسكات عدائها الإكليروسي الذي أصيب في الصميم لو لم تخش أن تؤدّي رحلة بهذا الطول إلى «هجران» عازف الكمان والبارون مدّة ثمان وأربعين ساعة. وأجاب السيد «دو شارلوس» بوقاحة: «ربّما عانيت من صمم متقطّع، فقد قلت لك إن القدّيس ميخائيل أحد شفعائي الأماجد». ثم أضاف وهو يبتسم بافتتان رفيق وقد علقت عيناه في البعيد وتعاظم صوته جرّاء حماسة بدت لي أكثر من جماليّة ولكنّها دينيّة: «ما

أجمل ذلك لحظة التقدمة[١]، حينما يقف ميخائيل على قدميه قرب المذبح بالثوب الأبيض يؤرجّح مبخرة من ذهب وبأكداس من العطور كبيرة حتى لتصعد رائحتها حتى عرش الله!» واقترحت السيدة «فيردوران» قائلة على الرغم من كرهها للقلنسوة: «يمكن أن نذهب إلى هناك جماعة»، وأردف السيد «دو شارلوس» يقول، وما كان يجيب البتّة لدى مقاطعته ويتظاهر بأنّه لم يسمعها على غرار ما يفعل الخطباء المفوّهون في المجلس ولكنّما تحدوه أسباب أخرى: «وإنّه لرائع في تلك اللحظة وحال التقدمة أن تشاهد صديقنا الشابّ يتمايل ويعزف حتّى لحناً لـ«باخ» وسوف يطير الكاهن الطيّب هو الآخر فرحاً، وإنّه لأعظم تكريم، أعظم تكريم علنيّ على الأقل، يمكن أن أحيط به شفيعي القدّيس، وأيّة هداية للمؤمنين! سوف نتحدّث عن ذلك في الحال لـ«انجيليكو» الموسيقي الشابّ، وهو عسكري كالقدّيس ميخائيل».

وأعلن «سانييت»، إذ دُعي لينهض بدور الميت، أنّه لا يعرف لعبة «الويست». وإذ تبيّن «كوتار» أنّه لم يعد ثمّة متّسع كبير من الوقت قبل ساعة القطار باشر في الحال لعبة «استبعاد»[٢] مع «موريل». أمّا السيد «فيردوران» فقد أقبل على «سانييت» بهيئة مخيفة وصاح قائلاً: «أنت إذن لا تحسن اللعب بشيء!» وقد هزّه الحنق أن أضاع فرصة لعبة ورق عليه، والطرب أن صادف فرصة لشتم مدير المحفوظات السابق. واتخذ هذا الأخير، وقد دبّ فيه الهلع، هيئة المتظرّف وقال: «بلى، فإني أحسن العزف على البيانو».

وكان «كوتار» و«موريل» قد جلسا وجهاً لوجه. وقال «كوتار»: «تفضّل أنت». وقال السيد «دو شارلوس» للسيد «دو كامبرمير»: «هلّا اقتربنا قليلاً من طاولة اللعب»، وقد أقلقه أن يبصر عازف الكمان بصحبة

---

(١) أي تقديس الخبز والخمر في القدّاس لدى الطوائف المسيحية.
(٢) لعبة ورق يجري فيها التخلّي عن كلّ ورقة لا يريدها اللاعب ويستبدل بها غيرها.

«كوتار». «فذلك مشوّق كمثل أمور آداب السلوك التي لم تعد تعني الكثير في عصرنا. إن الملوك الوحيدين الذين ما زالوا لدينا، في فرنسا على الأقلّ، هم «ملوك» لعبة الورق؛ ويبدو لي أنّهم يُقبلون بأعداد كبيرة بين يدي الموسيقار الشابّ»، يضيف بعد قليل قوله بداعي إعجاب بـ«موريل» أخذ يمتدّ إلى طريقة لعبه كما يدغدغ مشاعره أيضاً وليفسّر في نهاية المطاف الحركة التي ينحني بها فوق كتف عازف الكمان. وقال «كوتار»: آني بَقْطَع»، وهو يقلّد لهجة الثريّ الغريب التي انفجر لها الأطفال بالضحك كما كان يفعل طلّابه ورئيس المستوصف حينما كان «المعلّم» يطلق، حتّى أمام سرير مريض إصابته خطرة وهو يتّخذ قناع مصروع جامد القسمات، إحدى نكاته المعتادة. وقال «موريل» مستشيراً السيّد «دو كامبرمير»: «لست أدري تماماً ما يجدر بي أن ألعبه». - «أنت وما تشاء، فأنت مغلوب على جميع الوجوه، هذا أو ذاك، سيّان». وقال الدكتور وهو يرسل باتّجاه السيّد «دو كامبرمير» نظرة مخادعة مجّانيّة: «سيّان... «سيّان ماريه»؟ لقد كانت ما ندعوه سيّدة الغناء الحقيقيّة، كانت الحلم، كانت «كارمن» من نوع لن نراه ثانية، لقد كانت امرأة الدور المخصّص لها. كنت أحبّ كذلك أن أسمع بالدور نفسه «أما سيّان ماريه»[1]. ونهض المركيز بتلك السوقيّة المستكبرة التي تصدر عن ناس كريمي المحتد لا يدركون أنّهم يحقّرون ربّ البيت إذ يبدو وكأنهم غير متأكّدين من أنّه يمكن مخالطة مدعوّيه، ويحتجّون بالعادة الإنكليزية ليتسنّى لهم استخدام عبارة تتّسم بالازدراء: «من السيّد الذي يلعب الورق؟ وما الذي يفعله في الحياة؟ وماذا «يبيع»؟ فإني أحبّ أن أعرف مع من أقيم كي لا تكون لي علاقة بأيّ كان. والمسألة أني لم أسمع اسمه حينما أوليتني شرف تعريفه بي». لو أن السيد «فيردوران» كان قدّم، تأسيساً على هذه الكلمات

---

(١) التلاعب اللفظي مُختلق، وغني عن التبيان أنّه يستحيل ردّ التلاعب الوارد في النص وهو Egal... Golli-Marié Ingalli-Marié وهما مغنّيتان شهيرتان في القرن التاسع عشر.

الأخيرة، السيد «دو كامبرمير» لمدعوّيه، لرأى هذا الأخير الأمر في غاية السوء. ولكنّه إذ كان يعلم أن ما جرى هو العكس فقد كان يرى من الظريف أن يظهر بمظهر الساذج المتواضع دونما خطر يلمّ به. هذا وأن الاعتزاز الذي يداخل السيد «فيردوران» لعلاقته الحميمة بـ«كوتار» ما انفكّ يتعاظم منذ أن أصبح الدكتور أستاذاً مشهوراً، ولكنه لم يعد يظهر للعيان بالشكل الساذج الذي كان بالأمس. حينذاك، وعندما كان «كوتار» معروفاً على نطاق ضيّق، كان السيد «فيردوران» يقول، إن حدّثوه عن آلام الأعصاب الوجهيّة لدى زوجته: «ليس هناك ما يمكن فعله»، يقول بالاعتزاز الساذج الذي لقوم يظنّون أنّ من يعرفونه مشهور وأن الجميع يعرفون اسم أستاذ ابنتهم في الغناء. «لو كان طبيبها من النسق الثاني لأمكن البحث عن علاج آخر، ولكن حينما يدعى ذلك الطبيب «كوتار» (وكان يلفظ الاسم كما لو كان «بوشار» أو «شاركو») فليس بعد من أمل». ولجأ السيد «فيردوران» إلى أسلوب عكسي، وهو يعلم أن السيد «دو كامبرمير» قد سمع بالتأكيد من يحدّث عن الأستاذ المشهور «كوتار»، فاتخذ مظهر السذاجة. «إنّه طبيب العائلة، رجل طيّب القلب نعشقه وقد يُقدِم على أيّ شيء في سبيلنا، ليس طبيباً، بل صديق، لا أظنّ أنّك تعرفه أو أن اسمه يوحي إليك بأي شيء، أمّا في ما يخصّنا فإن اسمه في جميع الأحوال اسم رجل طيّب جدّاً وصديق عزيز جدّاً، «كوتار». وخدع الاسم، وقد جرى النطق به بهمس متواضع، خدع السيد «دو كامبرمير» الذي ظنّ الأمر يتعلّق بآخر غيره. «كوتار؟ لست تحدثني عن الأستاذ «كوتار؟» كان يتناهى بالضبط إلى الأسماع صوت الأستاذ المذكور الذي كان يقول ممسكاً بأوراقه وقد حار في لعبة: «ههنا أدرك الأثينيّون بعضهم بعضاً». وقال السيد «فيردوران»: «آه! بلى، بالضبط إنّه أستاذ». - «يا عجبي! الأستاذ «كوتار»! لست تخطئ القول! وأنت متيقّن تمام اليقين أنّه هو نفسه! هو الذي يسكن في شارع «لوباك»! - أجل، إنّه يسكن في شارع «لوباك» - ٤٣ فهل تعرفه؟» - ولكنّ الجميع يعرفون الأستاذ «كوتار» فهو

من الجهابذة، وكما لو أنّك تسألني إن كنت أعرف «بوف دو سان بليز» أو «كورتوا سوفي». لقد تبيّنت تماماً وأنا أصغي إلى حديثه أنّه رجل غير عادي، لذلك سمحت لنفسي أن أسألك». وكان «كوتار» يسأل قائلاً: «هات نرَ، ما الذي تنبغي إضافته؟ الورقة الرابحة؟» ثمّ اتخذ «كوتار» فجأة، وقد صمّم على لعب الورقة الرابحة، هيئة متجهّمة، هيئة «الرجل المتهور»، وفي تلميح إلى الذين يخاطرون بحياتهم لعب ورقته وكأنّما تلك حياته، وصاح بسوقيّة لعلّها كانت أورثت إزعاجاً حتّى في ظرف بطوليّ يبغي فيه أحد الجنود أن يولي ازدراءه للموت تعبيراً مألوفاً ولكنّها تصبح مضاعفة الغباء في إطار ألهية الورق الخلو من الخطر، صاح قائلاً: «إلى جهنّم في كلّ الأحوال!» وما كان يجب أن يلعب كما فعل ولكنّما أصاب عزاء بعده، فإنّ السيدة «كوتار» كانت، إذ استسلمت، في مقعد عريض في وسط الصالة، لمفعول فترة ما بعد الغداء، قد أسلست القياد بعد جهود غير مجدية لنعاس واسع خفيف كان يتملّكها. وعبثاً كانت تستقيم في لحظات لتبتسم إمّا هزءاً بنفسها وإمّا مخافة أن تدع دون جواب كلمة لطيفة ربّما وجّهت إليها، فقد كانت تعود فتهوي رغماً عنها فريسة داء لذيذ لا يرحم. ما كان يوقظها هكذا على مدى ثانية فحسب إنّما كانت النظرة أكثر منها الضجّة، النظرة (التي كانت تراها من فرط حنان حتّى مغمضة العينين وتتوقّعها، لأنّ المشهد نفسه كان يجري كلّ مساء ويسكن نومها كالساعة التي يقع عليك أن تنهض فيها من نومك) والتي كان يبلغ بها الحاضرين عن نوم زوجته. كان يكتفي بداية بالنظر إليها والابتسام، فإنّه إن كان بوصفه طبيباً يذمّ هذا النوم بعد العشاء (كان على الأقل يقدّم هذا السبب العلميّ من أجل أن يغضب في النهاية. بيد أنّه ليس أكيداً أنّه سبب جازم لكثرة ما كان لديه من نظريّات متنوّعة حول الموضوع)، كان بوصفه زوجاً كلّي الاقتدار نكداً يغبطه أن يسخر من زوجته وأن لا يوقظها بادئ الأمر إلّا نصف إيقاظة كي تعود فتنام ويصادف متعة في إيقاظها ثانية.

كانت السيدة «كوتار» تنام الآن ملء جفونها. فصاح بها الأستاذ: «ما

دهاك يا «ليونتين»، إنّك نائمة». فأجابت السيدة «كوتار» بصوت ضعيف: «إني أصغي إلى ما تقول السيدة «سوان» يا صاحبي»، وأهوت ثانية في سباتها. وصاح «كوتار» قائلاً: «يا للجنون، ستؤكّد لنا بعد قليل أنّها لم تنم. إنّها كمثل أولئك المرضى الذين يمضون إلى المعاينة ويزعمون أنّهم لا ينامون البتّة». فقال السيد «دو كامبرمير» ضاحكاً: «إنّهم يتخيّلون ذلك، ربّما». لكنّ الدكتور كان يحبّ المعارضة بقدر ما يحبّ التنكيد وما كان يقبل على وجه الخصوص أن يتجرأ على الحديث عن الطبّ غريب عنه، فأعلن بلهجة حازمة: «لا يتخيّل المرء أنّه لا ينام»، فأجاب المركيز وهو ينحني باحترام كما لعلّ «كوتار» كان فعل فيما مضى: «آه!» وأردف «كوتار» يقول: «واضح أنّك لم تعط مثلي ما يصل إلى غرامين من «التريونال» دون أن تفلح في إحلال النوم». فأجاب المركيز ضاحكاً وقد اتّخذ هيئة مناسبة: «فعلاً، فعلاً، لم أتناول «التريونال» في يوم ولا أيّاً من تلك العقاقير التي سرعان ما تكفّ عن التأثير ولكنّها تخرّب معدتك. حينما تصطاد مثلي طوال الليل في غابة «شانتبي» فإني أؤكّد لك أنّك لست تحتاج «التريونال» لتنام». وردّ الأستاذ قائلاً: «الجهلة من يقولون ذلك. فإن «التريونال» يرفع أحياناً بصورة لافتة النشاط العصبيّ. تتحدّث عن «التريونال»، فهل تعرف على الأقل ما عسى أن يكون؟» - «حسن... لقد سمعت من يقول إنّه دواء يعين على النوم». فعاد الأستاذ يقول بلهجة تعليميّة، وكان ثلاث مرّات في الأسبوع من لجان الامتحان في الكليّة: «لست تجيب عن سؤالي. فإني لا أسألك إن كان ينوّم أم لا، بل ما هو. فهل تستطيع أن تقول لي ما يحتوي عليه من أجزاء من «الأميل» و«الإيتيل»؟ فأجاب السيّد «دو كامبرمير» محرجاً: «لا؛ وإنّي أفضّل كأساً من ماء الحياة الجيد أو حتّى الـ«بورتو» ٣٤٥». فقاطعه الأستاذ: «وهما عشر مرّات أكثر سمّيّة»، وقال السيد «دو كامبرمير» محاذراً: «بخصوص «التريونال»، فإن زوجتي تعوّدت كلّ ذلك، ولعلّ من الأفضل أن تتحدّث إليها عن ذلك». - «ولا بدّ أنها تعرف عنه قدر ما تعرف أنت تقريباً. على

أيّ حال، إن كانت زوجتك تتناول «التريونال» لتنام فأنت ترى أن زوجتي لا حاجة لها به. هيّا يا «ليونتين» تحرّكي، فإنّك تتصلّبين، أتراني أنام بعد العشاء أنا؟ وما عساك تفعلين في الستّين من عمرك إن كنت الآن تنامين مثل امرأة عجوز؟ سوف تستكرشين وتوقفين دورتك الدمويّة... ها إنّها لم تعد حتّى تسمعني». وقال السيد «دو كامبرمير» كيما يردّ اعتباره لدى «كوتار»: «إنّها ضارّة بالصحّة تلك الإغفاءات اليسيرة بعد العشاء، أليس أنّها كذلك، دكتور؟ على المرء بعدما يكثر من الطعام القيام بالتمارين». فأجاب الدكتور قائلاً: «حكايات! فقد رفعوا ذات كميّة الطعام في معدة كلب ظلّ ساكناً ومعدة كلب آخر قام بالجري، وكان الهضم في مرحلة أكثر تقدّماً لدى الثاني». - «النوم إذاً هو الذي يوقف عمليّة الهضم؟» - «الأمر يختلف باختلاف صنوف الهضم على صعيد المريء والمعدة والأمعاء. ولا فائدة من إعطائك إيضاحات قد لا تفهمها بما أنّك لم تقم بدراسة الطب. هيّا يا «ليونتين»، أمام... سر! لقد حان وقت الرحيل». وما كان ذلك صحيحاً لأنّ الدكتور كان ينوي فقط إنهاء لعبة الورق، ولكنّه يأمل بذلك أن يقاوم بصورة أعنف نوم الخرساء التي كان يوجّه إليها أكثر صنوف الحضّ علميّة دون أن يصله منها أيّ جواب. ثم إنّ رأس السيدة «كوتار» أطيح به آليّاً من اليسار إلى اليمين ومن الأسفل إلى الأعلى وكأنّه شيء جامد في الفراغ، إمّا لأنّه لا يزال لديها عزم على مقاومة النوم حتّى وهي نائمة، وإمّا لأنّ المقعد ما كان ييسّر مسنداً لرأسها، فبدت في ترجح الرأس وكأنّها تصغي إلى الموسيقى تارة وطوراً كأنّها دخلت في آخر مرحلة النزاع. وأفلح شعورها بحماقتها حيث أخفقت صنوف تأنيب زوجها المتزايدة عنفاً. فهمست تقول: «حمّامي جيّد بخصوص السخونة»، ثم صرخت وهي تستوي في مقعدها: «ولكن ريش معجمي... آه! يا إلهي كم أنا غبيّة! ما الذي أقوله؟ كنت أفكّر في قبّعتي ولا بدّ أنّي تفوّهت بحماقة، لولا القليل لأغفيت، إنّها تلك النار اللعينة». وأخذ الكلّ يضحكون، فلم يكن ثمّة نار.

«إنكم تسخرون منّي»، تقول السيدة «كوتار» نفسها ضاحكة وتمحو بحركة من يدها عن جبينها، بخفّة المنوِّم المغناطيسي ومهارة امرأة تعيد تصفيف شعرها، آخر آثار النوم، «وأودّ تقديم عذري المتواضع للسيدة العزيزة «فيردوران» ومعرفة الحقيقة من فمها». ولكن سرعان ما أضحت ابتسامتها حزينة لأن الأستاذ الذي كان يعلم أن زوجته تحاول أن تحسن في عينه وترتعد أن لا تفلح في ذلك كان قد صاح بها: «انظري إليك في المرآة فإنّك اكتسيت حمرة كما لو أصابك طفح من حبّ الشباب وتبدين كأنّك فلّاحة عجوز». وقالت السيدة «فيردوران»: «تدرون، إنّه ظريف ولديه جانب حلو من الطيبة الساخرة ثمّ إنّه ردّ زوجي عن أبواب القبر بعدما حكمت الكليّة بأسرها أنّه هالك. لقد أمضى ثلاث ليال إلى جانبه دون أن ينام. ولذلك فإن «كوتار» بالنسبة إليّ شيء مقدّس لو تدرون!»، تضيف قولها بلهجة رزينة تكاد تكون متوعّدة وهي ترفع يدها إلى كُرَتَي صدغيها الموسيقيّين بخصلهما البيضاء وكما لو أردنا المساس بالدكتور، «بوسعه أن يطلب ما يشاء، وإني على كلّ حال لا أدعوه الدكتور «كوتار» بل الدكتور «العليّ القدير»! وإني حتّى أفتري عليه إذ أقول ذلك لأنّ هذا «العلي القدير» يصلح ما أمكن الإصلاح جزءاً من المصائب التي تقع مسؤوليتها على عاتق الآخر». وقال السيد «دو شارلوس» لـ«موريل» وقد بدت السعادة على وجهه: «العب الورقة الرابحة». وقال عازف الكمان: «الورقة الرابحة للاستطلاع». فقال السيد «دو شارلوس»: «كان ينبغي الإعلان عن الملك الذي تحمله أوّلاً، إنّك شارد الفكر، ولكن كم تحسن اللعب!» فقال «موريل»: «الملك في يدي». وأجاب الأستاذ: «إنّه رجل حسن الطلعة». وسألت السيدة «فيردوران» وهي تدلّ السيد «دو كامبرمير» على شعار رائع النحت فوق الموقد: «ما هو هذا الشيء مع هذه الأوتاد؟» وأضافت تقول بازدراء يفيض استهزاء: «أهو شعاركم؟» فأجاب السيد «دو كامبرمير»: «لا، ليس شعارنا، لأن شعارنا ذهبيّ له ثلاثة أشرطة في الوسط محزّزة بالأحمر ومعكوسة الحزوز لكلّ شريط خمس قطع تحمل

كلّ منها ورقة نفل ذهبيّة. لا، هذا الشعار هو لآل «أرّاشبيل» الذين ما كانوا من فصيلنا ولكنّا ورثنا عنهم المنزل ولم يشأ الذين من ذريّتنا أن يبدّلوا فيه شيئاً البتّة. وكان لآل «أرّاشبيل» (وهم فيما مضى آل «بيلفيلان» فيما يقال) شعار بترس ذهبيّ بخمسة أوتاد حمراء ملتمّة الرأس. وحينما ناسبوا آل «فيتيرن» تبدّل ترسهم ولكنّما لبث مزوّداً في زواياه بعشرين صليباً صغيراً أعيد رسمها في الوتد الذي يتوسّط الترس والمغموس بالذهب وإلى اليمين جناحان من فرو القاقم». وقالت السيدة «دو كامبرمير» بصوت خفيض: «إليك هذه». - «كانت جدّة جدّتي من آل «أرّاشبيل» أو «دو راشبيل» كما تشائين، لأنّنا نجد الاسمين في الصكوك القديمة»، يعلن السيد «دو كامبرمير» موالياً قوله وقد كست وجهه حمرة شديدة إذ خطرت له حينذاك فقط الفكرة التي بعثت زوجتُه الفزع منها في نفسه وخاف أن تكون السيدة «فيردوران» نسبت لنفسها أقوالاً ما كانت موجّهة إليها البتّة. «وفي الرواية أن أوّل «أرّاشبيل» في القرن الحادي عشر، وهو «ماسيه» المدعوّ «بيلفيلان»، أبدى مهارة خاصّة في انتزاع الأوتاد في الحصار، ومنها جاء لقب «أرّاشبيل» الذي أصبح نبيلاً على أساسه والأوتاد التي لا تزال مستمرة في شعارهم على مدى القرون، وإنما أعني الأوتاد التي كانوا يغرزونها، واسمحوا لي أن أقول «يدقّونها» في الأرض أمام الحصون ليضاعفوا من صعوبة الاقتراب منها، وكانت توصل فيما بينها. وهي ما كنتم تدعونها المجموعات الوتديّة والتي لا علاقة لها بالعصيّ الطافية لدى ذاك الطيّب «لافونتين»[1]. ذلك أنّها اشتهرت بإكساب المناعة التامّة لحصن ما، والأمر بالطبع أدعى إلى السخرية مع المدفعيّة الحديثة. ولكن ينبغي أن نتذكّر أنّ الأمر يعود إلى القرن الحادي عشر». وقالت السيدة «فيردوران»: «ذلك تعوزه الراهنيّة، ولكن برج الأجراس يتّسم بطابع خاصّ». وقال «كوتار»: «حظك حظّ مهراجا، والكلمة يردّدها عادة

(١) من أمثال «لافونتين»: «الجمل والعصيّ الطافية».

لتجنّب كلمة «موليير»[1]. «أتعلم سبب صرف ملك الديناري من الخدمة». وقال «موريل» الذي كانت تزعجه الخدمة العسكرية: «وددت لو أكون مكانه» وصاح السيد «دو شارلوس» الذي لم يتمالك عن قرص أذن عازف الكمان: «آه! يا للوطنيّ السيّئ!» وعاد «كوتار» يقول، وكان حريصاً على مزحاته: «لا، لست تعرف سبب صرف ملك الديناري من الخدمة؟ لأنّه لا يملك سوى عين واحدة». وقال السيد «دو كامبرمير» ليبرهن لـ«كوتار» أنّه كان يعلم من هو: «أمامك خصم قويّ يا دكتور». وقاطع السيّد «دو شارلوس» الحديث بسذاجة وهو يدلّ على «موريل»: «هذا الشاب مدهش؛ إنّه يلعب لعب الآلهة». ولم ترق الفكرة الدكتور كثيراً فأجاب: «من يعش يرَ؛ والمخادع نقابله بأكثر من مثله». وأعلن «موريل» بلهجة ظافرة، وكان الحظّ إلى جانبه: «البنت، الأَص». وأطرق الدكتور برأسه وكأنّما لا يقوى على إنكار هذا الحظّ وأقرّ ذاهلاً: «جميل ذلك». وقالت السيدة «دو كامبرمير» للسيدة «فيردوران»: «لقد سررنا سروراً جمّاً بتناول العشاء مع السيد «دو شارلوس». فأجابت السيدة «فيردوران»: «أما كنت تعرفينه؟ إنّه مسلّ إلى حدّ وذو طابع خاص وينتمي إلى عصر» (ولعلّه كان أحرجها أشدّ الحرج أن تقول أي عصر)، أجابت بابتسامة الرضى التي تطبع الهاوية والقاضي وربّة المنزل، وسألتني السيدة «دو كامبرمير» إن كنت سآتي إلى «فيتيرن» بصحبة «سان لو». ولم أفلح في احتباس صرخة إعجاب وأنا أبصر القمر معلّقاً كمثل فانوس في عقد شجر السنديان المنطلق من القصر. - «ليس في الأمر شيء يذكر حتّى الآن وسوف يصبح ألف مرّة أكثر جمالاً حينما يكون القمر بعد قليل أكثر ارتفاعاً ويمتدّ الضياء على الوادي. ذاك ما لا يتوافر لكم في «فيتيرن»! تقول بلهجة مستكبرة للسيدة «دو كامبرمير» التي لا تعلم بماذا تجيب إذ لا تبغي الانتقاص من قيمة

(١) كلمة «المقرون» (من نبتت له قرون) أو الزوج المخدوع، ترد في مسرحيات لـ«موليير» كاتب الهزليات الشهير.

أملاكها ولا سيّما في حضرة المستأجرين وسأل السيد «دو كامبرمير» السيدة «كوتار» قائلاً: أتمكثين بعد بعض الوقت في المنطقة يا سيدتي؟»، الأمر الذي كان يمكن اعتباره من قبيل النيّة الغامضة في دعوتها وكان يغني في الوقت الحاضر عن موعد أكثر دقّة. - «آه! بالتأكيد يا سيد، فإنّي جدّ حريصة بالنسبة إلى الأولاد على هذه «الطلعة» السنوية. وعبثاً يقولون، فلا بدّ لهم من الهواء الطلق، ربّما كنت في ذلك شديدة البدائيّة ولكنّي أرى أنْ ليس من علاج يساوي الهواء الطلق بالنسبة إلى الأطفال حتّى وإن أقاموا البرهان على العكس بـ آ + ب. لقد تغيّرت منذ الآن وجوههم الصغيرة تغيّراً تاماً. كانت الكليّة عازمة على إرسالي إلى «فيشي»، ولكنّها محصورة أكثر ممّا ينبغي وسوف أهتمّ بمعدتي بعدما يكون هؤلاء الصبية الكبار قد كبروا بعد قليلاً. ثم إن الأستاذ يبذل على الدوام جهداً كبيراً في الأعمال الامتحانية التي يجريها، وإن فترات الحرّ تتعبه كثيراً. ثم إنّي أرى أنّ المرء يحتاج إلى راحة حقيقية حينما يلبث مثله طوال العام دائباً. سوف نمكث في جميع الأحوال نيّفاً وشهراً بعد». - «فنحن إذاً ممّن سيلتقون».

- «ما يزيد على أي حال من اضطراري للبقاء أن زوجي يجب أن يذهب في جولة إلى مقاطعة «سافوا» ولن يعود إلى إقامة ثابتة هنا إلّا بعد انقضاء خمسة عشر يوماً». وعادت السيدة «فيردوران» تقول: «أفضّل بعد جانب الوادي على جانب البحر. سوف يتوافر لكم طقس رائع للعودة». وقال لي السيّد «فيردوران»: «ينبغي حتّى التأكّد من أنّ العربات أسرجت إن كنت حريصاً تماماً على العودة إلى «بالبيك» هذه الليلة، فإني أنا لا أجد ضرورة في ذلك، وغداً صباحاً يعيدونك في العربة ويكون الطقس جميلاً بالتأكيد، والطرق رائعة». فقلت إن الأمر مستحيل. واعترضت المعلّمة قائلة: «لم تحن الساعة بعد في جميع الأحوال، فدعهم وشأنهم فإن الوقت يتّسع لهم. سوف يكسبون الكثير في الوصول إلى المحطّة قبل ساعة من الموعد. إنّهم هنا أفضل حالاً». ثم قالت لـ«موريل»: «وأنت أيّها المحبّب موزار»، ولا تجرؤ على التوجّه مباشرة إلى السيد «دو

شارلوس»، ألست تريد البقاء؟ فإنّ لدينا غرفاً جميلة تطلّ على البحر». وأجاب السيد «دو شارلوس» عن اللاعب المشدود الانتباه الذي لم يكن قد سمع: «ولكنّه لا يستطيع، فإجازته حدّها منتصف الليل، ولا بدّ أن يعود لينام، فِعْلَ الوالد المطيع العاقل»، يضيف قوله بصوت مجامل متكلّف ملحاح كما لو يجد متعة ساديّة في استعمال هذا التشبيه العفيف وفي تثاقل صوته كذلك، في معرض الحديث، على ما يتّصل بـ«موريل»، وفي لمسه إن لم يكن باليد فبكلام يبدو وكأنّه يتحسّسه.

استخلص السيد «دو كامبرمير» من العظة التي وجّهها إليّ «بريشو» أني من أنصار «دريفوس» ولمّا كان مناهضاً لـ«دريفوس» إلى أبعد حدّ ممكن فقد شرع مجاملةً منه لأحد الأعداء يكيل المديح للواء يهودي كان دوماً عادلاً جداً إزاء ابن عمّ لآل «شوفرينيي» وعمل على إعطائه الترفيع الذي يستحقّه. «وكان ابن عمّي يحمل أفكاراً معارضة تماماً»، يقول السيد «دو كامبرمير» وهو يمرّ سريعاً على ما كانت عليه تلك الأفكار التي أحسستها بمثل قدم وسوء تكوين وجهه، أفكار لا بدّ أن بعض أسر من بعض مدن صغيرة كانت تحملها منذ زمن طويل جداً. وخلص السيد «دو كامبرمير» إلى القول: «إيه، تدري، إنّي أجد ذلك جميلاً جداً!» صحيح أنه ما كان يستخدم كلمة «جميل» بالمعنى الجماليّ الذي لعلّه كان أشار بالنسبة إلى والدته أو زوجته إلى أعمال مختلفة، ولكنّما هي أعمال فنيّة. أمّا السيد «دو كامبرمير» فكان يستخدم هذه الصفة بالأحرى في تهانيه لرجل ناحل الجسم على سبيل المثال سمن قليلاً. «عجباً، كسبت ثلاثة كيلوات في مدى شهرين؟ تدري أن هذا جميل جداً!» وكان على إحدى الطاولات مرطّبات معدّة. ودعت السيدة «فيردوران» الرجال إلى المبادرة بأنفسهم إلى اختيار الشراب الذي يرتؤونه، ومضى السيد «دو شارلوس» فشرب كأسه وقفل سريعاً للجلوس بالقرب من طاولة اللعب ولم يُبدِ من بعد حراكاً. وسألته السيدة «فيردوران»: «هل أخذت ممّا أعددت من شراب البرتقال؟» حينئذ أجاب السيد «دو شارلوس» بابتسامة ناعمة وصوت بصفاء الكريستال

نادراً ما يتّخذه وبألف من زمّات فمه وتخلّع في القامة: «لا، لقد فضّلت عليه جاره وهو من شراب توت الأرض فيما أعتقد، إنّه لذيذ». والغريب أن بعض صنوف الأعمال السريّة تكون نتيجتها الظاهرة طريقة في الكلام أو حركات لليدين تكشفها. ولئن آمن رجل أو لم يؤمن بالحبل بلا دنس أو ببراءة «دريفوس» أو بتعدّد العوالم وابتغى السكوت عن ذلك فلن تجد في صوته أو مشيته ما يمكن أن يكشف عن فكره لكنّما كان يسعك أن تقول، وأنت تسمع السيد «دو شارلوس» يقول بذاك الصوت الحادّ وتلك الابتسامة وحركات ذراعيه: «لا، لقد فضّلت جاره شراب توت الأرض»، ويحك، إنّه يحبّ الجنس الخشن» باليقين نفسه الذي يتيح بإصدار الحكم، بالنسبة إلى القاضي على مجرم لم يعترف، وبالنسبة إلى طبيب على مصاب بشلل عام ربّما لا يعرف هو نفسه داءه ولكنّه وقع في أخطاء تلفّظيّة من شأنها أن يُستخلص منها أنّه سيكون في عداد الأموات بعد ثلاث سنوات. وربما لم يكن أولئك الذين يستنتجون من طريقة قول أحدهم: «لا، فضّلت عليه جاره شراب توت الأرض» حبّاً يسمّونه مضاداً للطبيعة، ربّما لم يكونوا بحاجة إلى هذا الكم من العلم. وإنّما الأمر هنا أن ثمّة صلة أكثر مباشرة بين الإشارة الكاشفة والسر. فأنت تحسّ دون أن تصرّح بذلك بوضوح لنفسك أن من يجيبك سيّدة عذبة مفترّة الثغر وأنّها تبدي تصنّعاً لأنّها تتظاهر بأنّها رجل وأنّك لم تتعوّد رؤية الرجال يقومون بهذا القدر من صنوف التصنّع. وربّما كان من الألطف أن نعتقد أن عدداً من النساء الملائكيات حُشرن خطأ منذ زمن طويل في جنس الذكور حيث يعرفن، وهنّ منفيّات فيما تخفق أجنحتهنّ عبثاً باتّجاه رجال يبعثن نفوراً جسدياً في صدورهم، كيف يرتّبن صالة ويهندسن منازل من الداخل. ما كان السيد «دو شارلوس» يهتم لأن تكون السيّدة «فيردوران» واقفة وظلّ يوالي الجلوس على كنبته ليكون أكثر قرباً من «موريل». وقالت السيدة «فيردوران» للبارون: «أتعتقد أنْ ليس من باب الإجرام أن يجلس هذا الشخص الذي يمكن أن يفتننا بكمانه إلى طاولة لعبة «الاستبعاد»، وحين

يعزف على الكمان كما يفعل!» - «إنه يحسن لعب الورق ويحسن كلّ ما يفعل، وهو شديد الذكاء»، يقول السيد «دو شارلوس» فيما يتابع سير اللعب كي يسدي النصح لـ«موريل». لم يكن ذلك على أيّ حال السبب الوحيد لامتناعه عن القيام من مقعده أمام السيدة «فيردوران». فقد كان إلى جانب الخليط الغريب الذي ألفه من مفاهيمه الاجتماعية، مفاهيم السيد الكبير وهاوي الفنون في آن معاً، كان يصنع لنفسه، بدلاً من أن يكون مهذّباً كما لعلّ رجلاً من مجتمعه كان، أنواعاً من اللوحات الحيّة يأخذها عن «سان سيمون»؛ وكان في هذا الوقت يتسلّى بتمثيل دور الماريشال «دوكسيل» الذي كان يثير اهتمامه بجوانب أخرى والذي قيل عنه إنّه كان معتزاً بنفسه إلى حدّ لا ينهض معه عن مقعده بنوع من الكسل الظاهر أمام ما كان الأكثر رفعة في البلاط. وقالت السيدة «فيردوران» وقد شرعت تبدي ألفة: «ألا قل لي يا «شارلوس»، أليس في حيّكم من نبيل عجوز فقد ثروته ويمكن أن يقوم عندي مقام بوّاب؟» وأجاب السيد «دو شارلوس» وهو يبتسم بهيئة ساذجة: «بلى... بلى... ولكنّي لا أنصحك به». - «ولماذا؟» - «أخشى من أجلك ألا يمضي الزوّار الأنيقون إلى أبعد من حجرة البوّاب»، كانت تلك أوّل مناوشة بينهما، وكادت السيدة «فيردوران» لا تتنبّه له. وسوف تتبعها في باريس، لا بدّ في ذلك، مناوشات أخرى لسوء الحظ. ولبث السيد «دو شارلوس» لا يغادر مقعده. ما كان على أيّ حال يستطيع أن يملك النفس عن ابتسامة خفيّة وهو يرى إلى أي حدّ كان إخضاع السيدة «فيردوران» الذي حصل عليه بيسر عظيم يؤكّد حِكَمَه المفضّلة حول مهابة الأرستقراطيّة وجبن البورجوازيين. لم يَبدُ البتّة أنّ المعلّمة دهشت من وضعية البارون، ولئن فارقته فلأنّها قلقت فحسب إذ رأت السيد «دو كامبرمير» يلاحقني. ولكنّها كانت تبغي قبل ذلك أن تستوضح مسألة علاقات السيد «دو شارلوس» بالكونتيسّة «موليه». وسألت تقول: «أنبأتني أنّك تعرف السيدة «دو موليه». فهل تذهب إلى منزلها؟» تقول وهي تولي الكلمات: «تذهب إلى منزلها» ما يعني أنّه يجري استقباله

في منزلها وأنّه حصل منها على إذن بالذهاب لالتقائها. وأجاب السيد «دو شارلوس» بعطفة في الصوت يلوّنها الازدراء وتكلّف في الدقّة ولهجة مرتّلة: «أحياناً». وبعثت كلمة «أحياناً» هذه شكوكاً في صدر السيدة «فيردوران» فسألت: «وهل التقيت هناك بالدوق «دو غيرمانت»؟» - «آه! لست أذكر». وقالت السيّدة «فيردوران»: «آه! ألا تعرف الدوق «دو غيرمانت»؟ فأجاب السيد «دو شارلوس» وقد موّجت فمه ابتسامة: «ولكن كيف لي ألا أعرفه؟» وكانت الابتسامة ساخرة، إلّا أن البارون قطعها، وقد خشي من إظهار سنّ له من ذهب، وبارتداد من شفتيه ممّا جعل الالتواءة الحاصلة التواءة ابتسامة رفيقة. - «ولماذا تقول: كيف لي ألا أعرفه؟» - «كيف ذلك وهو أخي»، يقول السيد «دو شارلوس» بلهجة لامبالية ويخلّف السيدة «فيردوران» غارقة في ذهولها وحيرتها في أن تعلم إن كان ضيفها يسخر منها أم هو ابن من خارج الزواج أم ابن من زواج آخر. ولم تخطر لها فكرة أن يُدعى شقيق الدوق «دو غيرمانت» البارون «دو شارلوس». وقصدت إليّ تقول: «سمعت منذ قليل أن السيد «دو كامبرمير» يدعوك للعشاء. أمّا أنا، فأنت تدرك أنّ الأمر عندي سواء. ولكنّي آمل لصالحك أنّك لن تذهب، فالمكان بادئ الأمر يعجّ بالمُبرمين، أمّا إذا كنت تحب تناول العشاء بصحبة «كونتات» و«مركيزات» من الريف لا يعرفهم أحد فأنت وما تشتهي». - أظنّني مضطراً للذهاب إلى هناك مرّة أو مرتين، ولست بأيّ حال خالي الأشغال كثيراً، فإن لي ابنة عمّ شابّة لا يمكن أن أدعها وحدها (وكنت أرى أن هذه القرابة المزعومة تبسّط الأمور للخروج بمعيّة «ألبيرتين»). ولكن لمّا سبق في ما يخصّ آل «كامبرمير» أن عرّفتها بهم...» - «افعل ما تشاء. ما يمكن أن أقوله لك أن المكان غير صحّي على الإطلاق. وبعدما تكون جنيت نزلة صدريّة أو رثيات الأسر اللطيفة المحبّبة أتراك تكون كسبت الكثير؟» - «ولكن أليس المكان جميلاً جداً؟» - «نننننعم... إن شئت. أمّا أنا فأقرّ صراحة أني أفضّل مئة مرّة الإطلالة على هذا الوادي من هنا. وبادئ الأمر ما كنت لآخذ البيت

الآخر حتّى لو نقدونا مالاً بالمقابل لأن هواء البحر قاتل بالنسبة إلى السيد «فيردوران». حسبك أن تكون ابنة عمّك عصبيّة. . . ولكنّك عصبيّ أنت أيضاً على أيّ حال فيما أعتقد. . . وتصاب باختناقات. حسن! سوف ترى. امضِ إلى هناك مرّة ولن تنام لثمانية أيام. لا، ليس يناسبك ذلك». ودون أن تفكّر في ما ستحمله جملتها الجديدة من تناقض مع سابقاتها: «إن سرّك أن تزور البيت الذي لا بأس به»، فقد نغلو إن قلنا الجميل، ولكنّه ممتع بأي حال، بالخندق القديم والجسر المتحرّك العتيق، وبما أنّه لا بدّ لي من الامتثال للأمر وأن أتناول فيه طعام العشاء مرّة، فتعال إلى هناك في ذلك اليوم وسأحاول اصطحاب كلّ جماعتي الصغيرة وإذ ذاك يكون الأمر لطيفاً. بعد غد سنمضي إلى «أرامبوفيل» في عربتنا. إن الطريق رائع وهناك عصير تفّاح لذيذ. فتعال إذن. وأنت يا «بريشو» تعال بدورك. وأنت أيضاً يا «سكي»، سوف تكون تلك حفلة لا بدّ أن زوجي على كلّ حال دبّرها سلفاً. لست أعلم الكثير عمّن دعا. سيد «دو شارلوس» هل أنت من الركب؟» وانتفض البارون الذي لم يسمع سوى هذه الجملة، وما كان يعلم أن الحديث يدور حول رحلة إلى «أرامبوفيل»، وهمس بلهجة ساخرة أحسّت السيدة «فيردوران» أنّها تمسّها في الصميم: «سؤال غريب». وقالت لي: «من جانب آخر وبانتظار عشاء آل «كامبرمير» لماذا لا تصطحب ابنة عمّك إلى هنا؟ أهي تحبّ المحادثة والقوم الأذكياء؟ وهل هي ظريفة؟ أجل، جيّد جداً والحالة هذه. تعال وإيّاها، فإنّ في العالم غير آل «كامبرمير». إنّي أدرك أن يسعدوا بدعوتها فهم لا يفلحون في الحصول على أحد. ستجد هنا جوّاً طيّباً وأناساً أذكياء على الدوام. وأحسب في جميع الأحوال أنّك لن تتخلّى عنّي يوم الأربعاء القادم. وقد نُمي إليّ أن لديك عصرونية في «ريفبيل» بصحبة ابنة عمك والسيد «دو شارلوس» ولست أعلم مَنْ بعد. يجب أن نتدبّر أمر نقل كلّ ذلك إلى هنا، وربّما كان لطيفاً أن تصلوا جماعة. إن المواصلات من أيسرها إطلاقاً والدروب رائعة، ولدى الضرورة آمر بالمجيء بكم. لست أعلم على أيّ حال ما

الذي يمكن أن يجذبكم إلى «ريفبيل» فإنّها يملؤها البعوض. ربّما آمنت بشهرة فطائر الرقاق. إنّ طبّاخي يضعها بجودة غير هذه، وسأطعمك أنا فطيرة الرقاق النورمانديّة الحقيقيّة والمرمّلات، ولن أقول لك غير هذا. أمّا إن كنت حريصاً على القذارة التي يقدّمونها في «ريفبيل» فهذا لا أريده. إنّي لا أقتل المدعوّين عندي يا سيّد، وحتّى لو شئت ذلك فإن طبّاخي ما كان ليقبل أن يضع هذا الشيء الذي لا يُسمّى وكان غيّر هذا البيت. هذه الفطائر هناك لستَ تعلم من أي شيء صنعت. إني أعرف فتاة مسكينة أورثها ذلك التهاباً في الحجاب الحاجز قضى عليها في ثلاثة أيّام، ولم تكن تجاوزت السابعة عشرة، ذلك محزن بالنسبة إلى أمّها المسكينة»، تضيف السيدة «فيردوران» قولها بادية الكآبة تحت دوائر صدغيها المثقلين بالخبرة والألم. «ولكن هيّا اذهب إلى عصرونيّتك في «ريفبيل» إن سرّك أن يُسلخ جلدك وتلقي بمالك من النوافذ. إنّما، رجوتك، إنّها مهمّة قائمة على الثقة أكلّفك إيّاها: حينما تدقّ السادسة جئني بجماعتك كلّها إلى هنا ولا تدع الناس ينثنون عائدين كلّ إلى منزله مشتّتي الصفوف. تستطيع اصطحاب من تشاء؛ وما تراني أقول ذلك لسائر الناس، ولكنّي متيقّنة أن أصدقاءك لطفاء، فإني أرى منذ الساعة أنّنا متفاهمان. وفي يوم الأربعاء يجيء بالإضافة إلى النواة الصغيرة أناس هم بالضبط ظرفاء جداً. ألا تعرف السيدة الشابة «دو لونبون»؟ إنّها فاتنة كثيرة الظرف غير متحذلقة على الإطلاق، سوف ترى أنّها ستروقك كثيراً». وأضافت السيدة «فيردوران» تقول لتُظهر أنّها من طراز طيّب وتشجّعني بالمثال الصالح: «وهي بدورها ستصطحب زمرة كاملة من الأصدقاء. وسوف نرى من يكون الأوفر نفوذاً ويصطحب أوفر عدد من الناس، «دو بارب - دو لونبون» أم أنت. في ظنّي كذلك أنّهم سيصطحبون «بيرغوت» أيضاً، «تضيف قولها بطريقة مغمغمة إذ أصبحت مشاركة شخصية شهيرة كهذه أكثر من بعيدة الاحتمال جرّاء ملاحظة نشرت صباحاً في الصحف تعلن أن صحّة الكاتب الكبير بأشدّ المخاوف. «سوف ترى بمختصر القول أنّه سيكون من بين أكثر أيّام

الأربعاء التي أدعو إليها نجاحاً ولست أريد نساء مزعجات. ومهما يكن من أمر، فلا تحكم قياساً على أربعاء هذا المساء فقد كان فاشلاً تماماً. لا ترفع صوتك بالاحتجاج، فلا يمكن أن تكون تضجّرت أكثر منّي، فقد ألفيته بنفسي قاتلاً. لن تكون الأمور دوماً كهذا المساء تدري! وإنّي على كلّ حال لا أتحدّث عن أسرة «كامبرمير» فهم لا يُحتملون، ولكني عرفت جماعة من علية القوم كانوا يُعدون من الظرفاء، ولكنّهم كانوا لا وجود لهم بجانب نواتي الصغيرة. سمعتك تقول إنّك ترى «سوان» على ذكاء. رأيي بادئ الأمر أن هذا مبالغ فيه كثيراً، ولكن حتّى دون الكلام عن طبيعة الرجل الذي وجدته على الدوام مُنَفِّراً إلى أبعد حدّ وخبيثاً ومتستّراً فغالباً ما كان في عداد المدعوّين إلى العشاء يوم الأربعاء. حسناً بوسعك أن تسأل الآخرين، فـ«سوان» حتّى لو قارنته بـ«بريشو»، وما أبعد أن يكون هذا نسراً وهو أستاذ ناجح في الثاني الثانوي أدخلته المعهد، ما كان مع ذلك ليظلّ على شيء. يا الله كم كان باهتاً!» وإذ كنت أبدي رأياً مخالفاً: «الأمر كذلك. ولست أريد أن أقول لك شيئاً ضدّه بما أنّه كان صديقاً لك. كان على أيّة حال يحبّك حبّاً جمّاً وقد حدّثني عنك حديثاً حلواً، ولكن اسأل هؤلاء الناس إن كان قال في يوم شيئاً مشوّقاً على موائد عشائنا؛ ذلك والحق يقال حجر المحكّ. عجباً! لست أدري سبباً لذلك، ولكنّ «سوان» في منزلي لم يكن يعطي شيئاً، لم يكن ينتج شيئاً. والقليل الذي يساويه إنّما كسبه هنا». وأكّدت أنّه كان شديد الذكاء. «لا، إنّما تعتقد ذلك لمحض أنّك تعرفه من فترة تقلّ عن معرفتي له. وفي الحقيقة ما أسرع ما كنت تحيط بكلّ شيء لديه. أمّا أنا فكان يقتلني. (وترجمتها: كان يرتاد منزل آل «لا تريمواي» وآل «دو غيرمانت» ويعلم أنّي لا أذهب إلى هناك). بوسعي أن أتحمّل كلّ شيء فيما عدا الملل. أمّا هذا فلا!» كان النفور من الملل يمثّل الآن في نظر السيدة «فيردوران» السبب المكلف بتفسير تركيبة الوسط الصغير. فهي بعد لا تستقبل دوقات لعجزها عن الملل عجزها عن القيام برحلة بحرية بسبب دوار البحر، كنت أقول في نفسي إن ما تقوله السيدة

«فيردوران» لم يكن خطأ بالمطلق، ففي حين كان يمكن أن يعلن آل «غيرمانت» أن «بريشو» هو الرجل الأكثر غباء ممّن ربّما التقوهم في يوم كنت غير متيقّن إن لم يكن بالحقيقة يفوق «سوان» نفسه أو على الأقل أولئك الذين اكتسبوا روح آل «غيرمانت» ولعلّه تيسّر لهم من سلامة الذوق ما جعلهم يتجنبون، ومن الحياء ما يحمرّون به خجلاً من نكاته الحذلقية، كنت أسائل النفس عن ذلك كما لو أمكن أن تتضح طبيعة الذكاء إلى حدّ ما بالإجابة التي أقدّمها لنفسي وبجديّة مسيحيّ متأثّر بتعاليم «بور رويّال» يطرح على نفسه مشكلة النعمة. وتابعت السيدة «فيردوران» تقول: «سوف ترى، حينما يجتمع لديك أناس من المجتمع الراقي وأناس أذكياء حقاً، أناس من وسطنا، فإذ ذاك يجدر بك أن تلتقيهم، وإن رجل المجتمع الراقي الأكثر ظرفاً في مملكة العميان ليس من بعد هنا سوى أعور. أضف إلى ذلك أنّه يجمّد الآخرين الذين لا يشعرون من بعد أنّهم في جوّ ثقة. إلى حدّ أني أتساءل إن لم أرتّب لنفسي، عوضاً عن اللجوء إلى تخليط يفسد كلّ شيء، مجموعات للمُبرمين فحسب حتّى أجد أحسن المتعة في نواتي الصغيرة. الخلاصة الآن: تجيء بصحبة ابنة عمّك. اتفقنا. حسن. هنا على الأقل سيتوافر الطعام لكليكما. أمّا في «فيتيرن» فالجوع والعطش. آه! أمّا إن كنت تحبّ الجرذان فامض إليها في الحال وسيتوافر لك منها ما تشتهي ويحتفظون بك قدر ما تشاء. وتموت وحقّك جوعاً. وفي جميع الأحوال عندما أذهب سأتناول طعام عشائي قبل الذهاب. ويجدر بك، كي يكون الجوّ أكثر مرحاً، أن تأتي لاصطحابي. فنتناول العصرونية بجدّ ونتناول العشاء لدى العودة. هل تحبّ الفطائر بالتفّاح؟ تحبّها، حسن! إن طبّاخنا يصنعها كما لا يفعل أحد سواه. ترى أني كنتُ على حقّ بقولي إنّك خُلقت لتعيش هنا. فهلمّ إذن واسكن فيه. تعلم أن المكان عندي متّسع أكثر مما يبدو. وأني لا أقول ذلك كي لا أجتذب المزعجين. بوسعك اصطحاب ابنة عمّك بصورة دائمة، وسيتوافر لها هواء غير هواء «بالبيك». وإنّي أزعم أني أشفي بالهواء الذي هنا من لا شفاء لهم، وقد شفيت منهم، أقسمت،

وليس اليوم فحسب. ذلك أني سكنت فيما مضى، قريباً جداً من هنا، شيئاً كنت اكتشفته وحصلت عليه مقابل كسرة خبز وكان له طابع غير الذي لقصر «لا راسبليير». سأريك ذلك إن ذهبنا في نزهة. على أنّي أقرّ أن الهواء منشّط حقّاً حتّى هنا. بيد أنّي لا أريد الإفراط في التحدّث عن ذلك إذ لن يبقى للباريسيين سوى الشروع في تعشّق ركني الخاص. ذاك كان على الدوام نصيبي. باختصار القول انقل ذلك لابنة عمك وسوف تُعطيان غرفتين جميلتين تطلّان على الوادي، وستشهد ذلك في الصباح، والشمس وسط الضباب! وأيّ شيء هو هذا، «روبير دو سان لو» الذي كنت تتحدّث عنه؟»، تقول بادية القلق إذ سبق أن سمعت أنّني أزمع الذهاب للقائه في «دونسيير» وخشيت أن يحملني على هجرها. «يمكنك بالأحرى أن تجيء به إلى هنا إن لم يكن من المزعجين. لقد سمعت «موريل» يتحدّث عنه»، تقول السيدة «فيردوران» وهي تكذب تماماً لأن «سان لو» و«موريل» ما كان أحدهما يعلم حتّى بوجود الآخر. ولكنّها ظنّت وقد سمعت أن «سان لو» كان يعرف السيد «دو شارلوس» أن ذلك كان عن طريق عازف الكمان وأرادت أن يبدو أنّها على اطّلاع. «أليس يُحتَمل أنّه يدرس الطبّ أو الآداب؟ فأنت تعلم، إن كنت بحاجة إلى توصيات في الامتحانات، أنّ «كوتار» قادر على كل شيء وأنّي أفعل به ما أشاء. أمّا بخصوص الأكاديميّة، وذلك لما بعد إذ أعتقد أنّه لم يبلغ السنّ، فإنّ بتصرّفي عدّة أصوات، وقد يحسّ صديقك هنا أنّه في بلد يعرفه وربّما سرّه أن يشاهد البيت. و«دونسيير» ليست متعة ومسرّات». وختمت تقول: «خلاصة القول، تفعل ما تشاء وأفضل ما تراه مناسباً لك»، تقول دونما إلحاح كي لا يبدو أنّها تحاول التعرّف بالنبلاء ولأنّها كانت تطمح أن يُدعى النظام الذي تفرض على الخلّص العيش في ظلّه، عنينا الاستبداد، حريّة. ثمّ قالت: «ويحك، ما بك؟» وهي تشاهد السيّد «فيردوران» يتّجه، باشارة من نفد صبره، نحو الشرفة التي من ألوان خشبية تمتدّ من أحد جوانب الصالة فوق الوادي، وكأنّه رجل يختنق غيظاً وبه حاجة إلى الهواء: «هو «سانييت»

أيضاً أزعجك؟ ولكن ما دمت تعلم أنّه معتوه فسلّم بالأمر ولا تبلغ مثل هذه الأطوار». وقالت لي: «لست أحبّ ذلك فهو يلحق به الأذى ويسبّب له احتقاناً. لكنّما ينبغي لي أن أقول إنّه لا بدّ أحياناً من صبر أيّوب لاحتمال «سانييت» وأن نتذكّر على وجه الخصوص أن من الإحسان إيواءه. أمّا أنا فأقرّ أن روعة غبائه مدعاة بالأحرى لسروري. وفي ظنّي أنّك سمعت نكتته بعد العشاء: «لست أحسن لعبة «الويست» ولكني أحسن العزف على البيانو». يا لجمالها! إنّها واسعة اتّساع العالم وهي كذبة على أيّ حال، فهو لا يعرف هذا ولا تلك. لكنّ زوجي بظواهره الخشنة حسّاس جداً طيب جداً، ونوع الأنانية التي يبديها «سانييت»، وهو دائم الاهتمام بالأثر الذي يخلّفه، إنّما يخرجه عن طوره... هيّا يا عزيزي، هدّئ من روعك، فأنت تعلم أن «كوتار» قال إن ذلك مؤذٍ لكبدك. وإنّما سيرتدّ كلّ شيء عليّ، تقول السيّدة «فيردوران». في غد يأتي «سانييت» يجرّر نوبة أعصابه ودموعه. يا للرجل المسكين! إنّه مريض جدّاً، على أن ذلك ليس سبباً كافياً ليقتل الآخرين. ثمّ إن غباءه يضع حداً قاطعاً لإشفاقك عليه حتّى في الفترات التي يعاني فيها كثيراً وتودّ فيها أن ترثي لحاله. إنّه مفرط الغباء. ما عليك إلا أن تقول له بلطف شديد إن هذه المشاهد تُعلّكما كليكما وأن يمتنع عن العودة. وبما أن ذلك أخشى ما يخشاه فسوف يكون له أثر مهدّئ على أعصابه»، تقول السيدة «فيردوران» لزوجها همساً.

كنت تكاد لا تميّز البحر من النوافذ التي إلى اليمين. لكنّ النوافذ من الجانب الآخر كانت تكشف الوادي الذي انهمر عليه الآن ثلج ضياء القمر. وكان يتناهى إليك بين الحين والحين صوت «موريل» وصوت «كوتار»: «معك الصنف الرابح؟» - «yes» (أجل) - «آه! معك من أحسنها أنت»، يقول السيّد «دو كامبرمير» لـ«موريل» جواباً عن سؤاله إذ رأى أن أوراق الدكتور مليئة بالصنف الرابح. وقال الدكتور: «هذه بنت الديناري. وهي من الصنف الرابح، تعرف ذلك؟ «آني» أقطع و«آني» آخذ... ولكن لم يعد ثمّة سوربون»، يقول الدكتور للسيد «دو كامبرمير»،

ليس ثمّة سوى جامعة باريس». وأقرّ السيد «دو كامبرمير» أنّه يجهل لماذا وجّه إليه الدكتور تلك الملاحظة. وأردف الدكتور يقول: «ظننتك تتحدّث عن السوربون. وكنت سمعت أنّك تقول: انفخ في «السوروبِنْ»، يضيف قوله وهو يغمز بعينه ليُظهر أن الأمر من باب النكتة. وقال وهو يدلّ على خصمه: «انتظر، فإني أعدّ له وقعة الطرف الأغرّ[1]». ولا بدّ أن الضربة كانت عظيمة من جانب الدكتور، فإنّه شرع في غمرة ابتهاجه يهزّ كتفيه بتلذّذ وهو يضحك، الأمر الذي كان يعني في الأسرة وفي «طراز» كوتار سمة تقرب أن تكون حيوانية للانشراح. كان يرافق تلك الحركة لدى الجيل السابق حركة فرك اليدين كما لو تغسلان بالصابون. وسبق أن استخدم «كوتار» نفسه بادئ الأمر تلك الإيمائيّة المزدوجة في آن واحد، ولكنّ حركة فرك اليدين اختفت ذات يوم دون أن يُعرف عن أيّ تدخّل كان ذلك ناجماً، تدخّل الزوجة وربّما الأستاذ. كان الدكتور يكتفي حتّى في لعبة «الدومينو» وحين يرغم شريكه على أخذ مجموعة من الأحجار وصولاً إلى «الستّين»، وهو في نظره أشدّ صنوف المسرّات، كان يكتفي بحركة كتفيه. وحينما كان يذهب إلى مسقط رأسه بضعة أيّام - وهو أندر النادر - فيلتقي ابن عمّه الشقيق الذي كان لا يزال على حركة فرك اليدين، كان حين عودته يقول للسيدة «كوتار»: «لقد وجدت «رنيه» المسكين عاديّاً جداً». ثمّ قال وهو يستدير صوب «موريل»: «معك من ذاك الشيء الصغير؟ لا؟ ألعب إذاً داوود العجوز[2] هذا». - «ويحك معك خمسة منه، لقد ربحت!». وقال المركيز: «إنّه لنصر مؤزّر يا دكتور». - «نصر كانتصار «بيروس»[3]»، يقول «كوتار» مخاطباً المركيز فيما ينظر من فوق نظّارته ليحكم على الأثر الذي تخلّفه نكتته. وقال لـ«موريل»: «إن كان ثمّة متسع من الوقت فإني أفسح

(١) إشارة إلى هزيمة نابليون والأسطول الإسباني الفرنسي أمام الإنجليز عام ١٨٠٥.

(٢) ملك البستوني.

(٣) هو نصر يحرزه المرء بعدما يُمنى بخسائر كبيرة (إشارة إلى انتصار «بيروس» على الرومان على إثر خسائر فادحة في معركة «اسكولوم» (٢٧٩ ق.م)).

لك في الثأر. دوري أنا في... ولكن لا، فها هي العربات، موعدنا يوم الجمعة وسأريك خدعة ليست بالأمر القليل». ورافقنا السيّد والسيّدة «فيردوران» خارجاً. وأبدت المعلّمة رقّة خاصة تجاه «سانييت» كي توقن أنّه سيحضر في الغد. لكنّما لا يبدو لي أنّك لم تثقّل في اللباس يا صغيري»، يقول لي السيد «فيردوران»، وكان تقدّمه في السنّ يسمح له بهذا النداء الأبويّ، «إذ يخيّل إليّ أن الطقس تبدّل». وملأتني هذه الكلمات حبوراً وكأنّما انبغى أن تؤذن الحياة العميقة، وانبثاق تأليفات جديدة تقتضيها في الطبيعة، بتغيّرات أخرى، وهذه تجري في حياتي، وأن توفّر فيها إمكانيات جديدة. فإنّك تحسّ، بمجرد فتح الباب على الحديقة قبل الانطلاق، أن «طقساً» آخر يشغل خشبة المسرح منذ لحظة. فقد أخذت أنسام عليلة، هي ملذّات الصيف، تهبّ في حرجة الصنوبر (حيث كانت السيدة «دو كامبرمير» تحلم بالأمس بـ«شوبان») وبدأت، على نحو يكاد لا يُلحظ وفي تثنّيات رقيقة وارتدادات غير متوقعة، ليليّاتها الرشيقة. ورفضت الغطاء الذي كنت سأرتضيه في الأمسيات التالية حينما تكون «ألبيرتين» هناك في سبيل سريّة المتعة أكثر منّي اتّقاء لخطر البرد. وعبثاً جرى البحث عن الفيلسوف النرويجي، فهل ألمّ به مغص؟ وهل خشي أن يفوته القطار؟ وهل أقبلت طائرة لنقله؟ أم هو حملته ظاهرة صعود؟ لقد اختفى في جميع الأحوال، دون أن يتّسع الوقت لملاحظة ذلك، شأن إله. وقال لي السيد «دو كامبرمير»: «أنت مخطئ، فالبرد يقصّ المسمار». وسأل الدكتور قائلاً: «ولمَ يقصّ المسمار؟» وعاد المركيز يقول: «حذار من الاختناقات. إن شقيقتي لا تخرج البتّة في العشية. وهي الآن في جميع الأحوال مقيّدة بأسوأ ارتهان. لا تلبث على أي حال هكذا حاسر الرأس وسارع إلى وضع غطاء رأسك». وقال «كوتار» بلهجة قاطعة: «ليست اختناقات a frigore[1]

---

(١) باللاتينية وهي طريقة كان يتصنعها أطباء أوروبا ومجال سخرية منهم يلجأ إليه منتقدوهم.

(ناشئة عن البرد). وردّ السيد «دو كامبرمير» وهو ينحني: «آه! إذاً، ما دام ذلك رأيك...» - «رأيي إلى القارئ!» يقول الدكتور وهو يسرّح نظراته خارج نظّارته ليبتسم، وضحك السيد «دو كامبرمير»، ولكنّه كان مقتنعاً أنّه على حقّ فألحّ قائلاً: «ومع ذلك فإن شقيقتي تصاب بنوبة في كلّ مرّة تخرج فيها مساءً». وأجاب الدكتور: «لا جدوى من المماحكة»، دون أن ينتبه إلى سوء تهذيبه. «وإنّي على أيّ حال لا أقوم بالتطبيب على شاطئ البحر، إلا إذا استُدعيت في استشارة. فإني هنا في عطلة». وكان كذلك أمره ربّما أكثر ممّا لعلّه أراد. فإنّ «كوتار»، إذ قال له السيد «دو كامبرمير»، وهو يستقلّ العربة وإيّاه: «إننا محظوظون أن يكون على مقربة كبيرة منّا (ليس من جانب الخليج الذي تطلّ عليه، بل من الآخر ولكنّه ضيّق جداً في ذلك المكان) شخصيّة طبيّة أخرى مشهورة: الدكتور «دو بولبون»، وكان يمتنع عادة، تمسّكاً بشرف المهنة، عن انتقاد زملائه، لم يملك نفسه عن أن يصرخ، مثلما سبق أن فعل أمامي في اليوم المشؤوم الذي ذهبنا فيه إلى الكازينو الصغير: «ولكنّه ليس طبيباً، إنّه يتعاطى الطبّ الأدبي وفنّ مداواة غريب وشيئاً من التهريج نحن على أيّ حال متفاهمان تماماً، ولو لم أكن مضطرّاً للتغيّب لبادرت في المركب للقائه ذات مرّة». ولكنّي أحسست إزاء الهيئة التي اتخذها «كوتار» للكلام عن «دو بولبون» مع السيد «دو كامبرمير»، أحسست أن المركب الذي لعلّه كان استقلّه بسرور للقائه ربّما كان أشدّ شبهاً بتلك السفينة التي استأجرها أطباء «ساليرن» للمبادرة إلى تخريب المياه التي اكتشفها طبيب أديب آخر هو «فيرجيليوس» (الذي كان يحرمهم أيضاً كامل زبائنهم)، ولكنّها غرقت وإيّاهم في أثناء العبور[1]. «إلى اللقاء يا عزيزي «سانييت» ولا تنسَ أن تجيء غداً، فأنت تعلم أن زوجي يودّك كثيراً. إنّه يحبّ ظرفك وذكاءك.

(١) يقال إن شاعر الرومان الأكبر فيرجيليوس كان يتعاطى الطب إلى جانب الشعر وإنه اكتشف مياهاً ذات مفعول سحري على مقربة من نابولي مما أوغر صدر الأطباء عليه، وكان ما كان.

بلى، تعلم ذلك تماماً، إنّه يحبّ اتخاذ مظاهر فظة ولكنّه لا يقوى على الاستغناء عنك. إنّه دوماً السؤال الأوّل الذي يطرحه عليّ: «هل يأتي «سانييت»؟ فشدّ ما أريد لقاءه!» وقال السيد «فيردوران» لـ«سانييت»: «ما قلت ذلك في يوم»، قال بصراحة متكلّفة كانت تبدد وكأنّها توفّق تمام التوفيق بين ما تقول المعلّمة والطريقة التي يعامل بها «سانييت». ثم نظر إلى ساعته كي لا يطيل دونما شك فترات الوداع في برودة المساء فأوصى الحوذيّة بأن لا يتباطؤوا وأن يتوخّوا الحذر أثناء النزول وأكد أننا سنصل قبل القطار. وكان سيتولّى نقل الخلّص، هذا إلى هذه المحطّة وذاك إلى أخرى فينتهي بي، إذ لا يمضي آخر غيري إلى ما كان في بعد «بالبيك» ويبدأ بأسرة «كامبرمير»، وكانوا استقلّوا القطار معنا، كي لا يصعدوا بأحصنتهم ليلاً حتى قصر «لا راسبليير»، في «دوفيل فيتيرن». ولم تكن هذه بالفعل الأقرب إلى منازلهم، وهي على بعد يسير عن القرية وأكثر بعداً عن القصر، بل محطّة «لا سونيى». وحرص السيّد «دو كامبرمير» لدى وصوله إلى محطّة «دوفيل فيتيرن» أن ينقد حوذيّ آل «فيردوران» «قطعته»، كما كانت تقول «فرانسواز»، (وكان بالضبط الحوذيّ اللطيف الحسّاس صاحب الأفكار الكئيبة)، ذلك أن السيد «دو كامبرمير» كان كريماً وكان أقرب في ذلك إلى «جانب أمّه». ولكنّما كان يحسّ، إمّا لأنّ «جانب والده» كان يتدخّل هنا، كان يحسّ فيما يعطي هاجس خطأ يقع - إمّا على يده هو إذ قد يعطي، لسوء الرؤية، فلساً عوضاً عن فرنك، وإمّا من جانب المتلقّي الذي قد لا يتبيّن أهمية الهبة التي يقدّمها له. ولذلك لفت الانتباه إلى تلك الأهمية، وقال للحوذيّ وهو ينقل بريق القطعة في الضوء وكيما يستطيع الخلّص ترداد ذلك على مسامع السيدة «فيردوران»: «ما أعطيك فرنك، أليس كذلك؟ إنّها عشرون فلساً ما دام المشوار قصيراً، أليس كذلك؟» وفارقنا هو والسيدة «دو كامبرمير» في محطة «لاسونيى». وأعاد على مسمعي قوله: «سأنقل لشقيقتي أنّك تصاب باختناقات وإنّي متأكّد من إثارة اهتمامها». وفهمت من ذلك أنّه يقصد: إشاعة السرور في نفسها. أمّا

زوجته فقد استخدمت وهي تستودعني اثنين من تلك الاختصارات التي كانت تصدمني حينذاك، وإن مسطّرة في رسالة مع أنّ الناس تعوّدوا الأمر مذ ذاك، ولكنّها إمّا قيلت لا تزال تبدو لي حتّى في يومنا هذا وكأنّها تحمل في لامبالاتها المقصودة وأُلفتها المكتسبة شيئاً من الحذلقة لا يُحتمل. وقالت لي: «سرّني أن قضيت الأمسية بصحبتك؛ مع مشاعر المودّة لـ«سان لو» إن كنت تراه». وقالت السيدة «دو كامبرمير» «سان لوب» وهي تدلي بجملتها تلك. ولم أتبيّن في يوم من الذي سبق أن نطقها على هذا النحو أمامها أو ما الذي حملها على الظنّ بأنّه لا بدّ من نطقها على هذا النحو. ومهما يكن من أمر فقد لفظتها «سان لوب» على مدى بضعة أسابيع وكذلك فعل رجل كان يبدي إعجاباً كبيراً بها ولا يؤلّف وإيّاها سوى كائن واحد. وإن قال آخرون غيرهما «سان لو» كانا يُلحّان ويلفظان بقوّة «سان لوب» إمّا ليعطيا الآخرين درساً غير مباشر وإمّا ليتميّزوا عنهم. وليس من شك أن نساء أكثر تألّقاً من السيدة «دو كامبرمير» قلن لها أو أفهمنها بصورة غير مباشرة أنْ ليس ينبغي لفظها هكذا، وأنّ ما كانت تأخذه مأخذ التفرّد كان غلطة ربّما حملت على الظنّ بأنّها قليلة الإحاطة بأمور الدنيا، إذ عادت السيدة «دو كامبرمير» تقول بعد وقت قصير «سان لو» وأوقف المعجب بها كذلك أيّة مقاومة، إمّا لأنّها عنّفته في ذلك وإمّا لأنّه لاحظ أنّها لم تعد تشدّد على الحرف الأخير وقال في نفسه إنّه لا بدّ كيما تتراجع امرأة ذلك القدر وتلك الهمّة وذاك الطموح فلا بدّ أن تفعل عن حسن تبصّر ودراية. وكان أسوأ المعجبين بها زوجها. فقد كانت السيدة «دو كامبرمير» تستحسن توجيه مضايقات للآخرين غالباً ما تكون شديدة الوقاحة. وحالما كانت توجّه على هذا النحو سهامها إمّا إليّ أو إلى آخر غيري كان السيد «دو كامبرمير» يأخذ في النظر إلى الضحيّة ضاحكاً. ولمّا كان المركيز أحول - والأمر يولي حتّى مرح المعتوهين مقصد الظرف - فقد كان من أثر تلك الضحكة أن تردّ شيئاً من الحدقة إلى بياض العين، وهو لولا ذاك كامل. كذلك تلقي فرجة شيئاً من الزرقة في سماء تلبّدت

بالغيوم. كانت النظّارة تحمي على أيّة حال هذه العمليّة الدقيقة مثلما زجاج فوق لوحة ثمينة. أمّا بخصوص مقصد الضحك نفسه فلست تعرف تماماً إن كان لطيفاً: «آه! أيها اللعين! يمكن أن تقول إنّك محسود. فإنّك لقيت حظوة في عين امرأة صلبة الرأس»؛ أو فظاً: «والآن، يا سيّد، آمل أنّهم يتدبّرون أمرك، فما أكثر ما تبلع من أمواس»؛ أو خدوماً: «تعلم أنّي هنا، إني آخذ الأمر بالضحك لأنّه مزاح صرف، ولكنّي لن أدع لهم أن يقسوا عليك». أو محرّضاً قاسياً: «ليس لي أن أتدخّل في ما لا يعنيني ولكنّك تراني أتلوّى وأنا أشهد كلّ الإهانات التي تكيلها لك. إنّي أضحك ملء الأشداق، وأوافق بالتالي، أنا زوجها، فإن حلا لك أن تثور فستجد من يقف في وجهك أيها السيّد العزيز. سوف أوجّه لك بادئ الأمر زوجاً من الصفعات المرتّبة، ثم نمضي نتقارع بالسيف في غابة «شانتبيي».

ومهما يكن من أمر هذه التفسيرات المختلفة لمرح الزوج، فإن نزوات الزوجة سرعان ما كانت تبلغ نهايتها. حينئذ كان السيد «دو كامبرمير» يكفّ عن الضحك وتزول الحدقة المؤقّتة وبما أن عادة العين البيضاء كلّها فُقدت منذ بضع دقائق فقد كانت تُكسب هذا النورماندي الأحمر شيئاً من الشحوب والذهول في آن معاً كما لو أجريت للمركيز عمليّة قريبة أو كان يلتمس من السماء، من تحت نظارته، أكاليل الشهادة.

الفصل الثالث

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحزان السيد «دو شارلوس». - مبارزته الوهميّة. - محطات «عابر الأطلسي». - مرادي، وقد سئمت «ألبيرتين»، أن أقطع علاقتي بها.

كنت أترنّح من النعاس. وحُملت في المصعد حتّى الدور الذي أسكنه، لا من جانب عامل المصعد، بل من جانب صبيّ الفندق الأحول الذي بادر إلى الحديث ليحكي لي أنّ شقيقته ما زالت مع السيّد الشديد الثراء وأنها إذ رغبت ذات مرّة في العودة إلى منزل ذويها بدلاً من البقاء على رصانتها فإن رجلها مضى فالتقى والدة صبيّ الفندق الأحول والأولاد الآخرين الأوفر حظّاً، وأنّ الوالدة أعادت الحمقاء بالسرعة القصوى إلى صديقها. «تدري يا سيّد، إن شقيقتي لسيّدة عظيمة الشأن. فهي تداعب البيانو وتتكلّم الإسبانية. وقد لا تصدّق ذلك، بالنسبة إلى المستخدم البسيط الذي يجيئك بالمصعد، إنّها لا تحرم نفسها شيئاً. فللسيّدة وصيفتها الخاصّة، ولن يدهشني أن تكون لها ذات يوم عربتها. إنّها حلوة جداً لو رأيتها، على شيء من فرط الاعتزاز، ولكن ذلك مفهوم بالطبع. وهي على قدر كثير من الذكاء. وليست تغادر فندقاً في يوم إلا قضت حاجتها في خزانة أو صوانة لتخلّف تذكاراً صغيراً للخادمة التي يقع عليها القيام بالتنظيف. بل هي تفعلها أحياناً في عربة وبعدما تدفع أجرة مشوارها تختبئ في زاوية لمجرّد أن تضحك وهي ترى الحوذيّ يحتجّ إذ يضطر أن

يغسل عربته. وقد كانت «وقعة» والدي عظيمة كذلك إذ عثر لشقيقي الأصغر على ذاك الأمير الهندي الذي كان عرفه فيما مضى. ذلك بالطبع طراز آخر، ولكنّ المكانة رفيعة، ولو لم تكن ثمّة رحلات لكان غاية المنى. وحدي حتّى الآن بقيت على الحصير. ولكن ما من أحد يستطيع أن يعلم، فالحظّ مقيم في أسرتنا، ومن ذا يعلم إن كنت لن أصبح يوماً رئيساً للجمهورية؟ ولكنّي أحملك على الثرثرة (ولم أكن قلت كلمة واحدة وشرعت أغفو وأنا أصغي إلى ما يقول). مساءً سعيداً يا سيّد. أوه! شكراً يا سيّد. لو كان الكلّ بمثل طيبة قلبك لما بقي تعساء من بعد. ولكن لا بدّ كما تقول شقيقتي أن يبقى منهم دوماً كيما أستطيع الآن وقد أصبحت غنيّاً أن «أحرق دينهم» بعض الشيء، اسمح لي بالعبارة. ليلتك سعيدة يا سيّد».

ربّما قبلنا في كل مساء احتمال أن نعيش، ونحن نيام، آلاماً نحسبها كأنّها لم تكن لأننا نكون أحسسنا بها في أثناء غفوة نظنّها لا وعي فيها. وكان يتملّكني في تلك العشيّات التي كنت أعود فيها متأخّراً من «لا راسبلبير» نعاس شديد. ولكن ما إن أقبل البرد حتّى لم أعد أستطيع الإغفاء في الحال لأن النار كانت تتوهّج كما لو أضيء مصباح. على أن ذلك لم يكن أكثر من هبّة إذ لا يلبث ضياؤها الشديد - كالمصباح أيضاً وكالنهار حينما يحلّ المساء - أن يتخافت. فكنت أَلِجُ النوم، وهو بمثابة شقّة ثانية نملكها ونمضي للنوم فيها وقد هجرنا شقّتنا. وإن له أجراسه، وأحياناً يوقظنا فيه بعنف رنين جرس سمعته أذننا بوضوح في حين لم يدقّ أحد. كما له خدمه وزوّاره الخاصون الذين يجيئون لاصطحابنا في نزهة حتى إنّنا على استعداد للنهوض فيما لا يسعنا إلا أن نلاحظ، فور هجرتنا تقريباً إلى الشقّة الأخرى، شقة اليقظة، أن الغرفة خالية وأنْ لم يجئ أحد. إن الجنس الذي يسكنها، شأن جنس البشريين الأوائل، من صنف الخناث. ويظهر فيها بعد لحظة رجل بهيئة امرأة. والأشياء مؤهلة فيها أن تصبح بشراً، والبشر أصدقاء وأعداء. والوقت الذي ينقضي بالنسبة إلى النائم في أثناء هذه الإغفاءات مختلف تمام الاختلاف عن الوقت الذي

تجري فيه حياة الإنسان اليقظان. فتارة يكون جريانه أكثر سرعة فيبدو ربع الساعة نهاراً، وأحياناً أكثر طولاً فنظنّ أنّنا لم نُصب إلّا إغفاءة هيّنة في حين نمنا اليوم بكامله. حينئذ ننحدر على عربة النوم إلى أعماق لا يستطيع التذكّر من بعد اللحاق بها فيما اضطرّ العقل أن يعود أدراجه قبل أن يبلغها. إن عربة النوم، مثلها مثل عربة الشمس، تذهب بخطوٍ متساو، وفي جوّ لا يمكن لأيّة مقاومة فيه أن توقفها من بعد إلى حدّ أنّه لا بدّ من حصاة نيزكيّة صغيرة غريبة عنّا (ألقى بها أي مجهول من القبّة الزرقاء؟) لتصيب النوم المنتظم (الذي ما كان ثمّة داعٍ لتوقّفه لولا ذلك وربّما دام بحركة متشابهة إلى أبد الآبدين) وتردّه في انعطافه مفاجئة إلى الواقع وتجعله يحرق المراحل ويجتاز المناطق المجاورة للحياة - حيث سيسمع منها النائم عمّا قليل الضوضاء الذي لا يزال غامضاً تقريباً ولكنّه مسموع منذ ذاك وإن يكُ مشوّهاً - ويحطّ فجأة على أرض اليقظة. حينئذ يستيقظ المرء من تلك الإغفاءات العميقة في فجر لا يعرف فيه من يكون، إذ هو لا أحد، وهو جديد متأهّب لكلّ شيء وقد أُفرغ دماغه من ذاك الماضي الذي كان حتّى ذاك الحياة. وربّما كان أجمل بعد حين يكون هبوط اليقظة عنيفاً ولا يتّسع الوقت لأفكار النوم، وقد حجبها غطاء من النسيان، للعودة تدريجياً قبل أن يتوقّف النوم. حينئذ نطلع من العاصفة السوداء التي يبدو لنا نحن أننا اجتزناها (ولكنّنا لا نقول حتّى «نحن»)، نطلع منطرحين مجرّدين من الأفكار وكأنّما ثمّة «نحن» بدون مضمون. فأية ضربة مطرقة أصابت الكائن أو الشيء بالأحرى الذي أمامنا كيما يجهل كل شيء وهو في ذهول إلى اللحظة التي تردّ له الذاكرة فيها، وقد سارعت إليه، وعيه أو شخصيّته؟ على أنّه لا بدّ، في ما يخصّ هذين النوعين من الاستيقاظ، ألا ننام، وإن يكن النوم عميقاً، تحت سلطان العادة. لأنّ العادة إنّما تراقب كلّ ما تضمّه في شباكها؛ فينبغي الإفلات منها وولوج النوم في اللحظة التي كنّا نظنّ فيها أنّنا فاعلون أيّ شيء آخر ما عدا النوم، وباختصار القول أن نلج ذاك النوم الذي لا يقيم تحت وصاية التبصّر وبرفقة التفكير وإن

مستتراً. كان كل شيء يجري، على الأقل في صنوف اليقظة على نحو ما جئت على وصفه، وهي في الغالب ما كان يجري لي بعدما أكون تناولت العشاء الليلة البارحة في «لا راسبليير»، وكأن الأمور على هذا المنوال، وأستطيع أن أشهد للأمر أنا الكائن الغريب الذي يعيش، بانتظار أن يعتقه الموت، ومصاريعه مغلقة لا يعلم شيئاً عن الدنيا، ويظلّ لا حراك به كطائر البوم أو كمثله لا يبصر بشيء من الوضوح إلّا في الظلمات. كلّ شيء يجري وكأن الأمور على هذا المنوال، ولكن وحدها طبقة من مُشاقة الكتّان ربّما حالت دون أن يسمع النائم حوار الذكريات الداخلي وثرثرة النوم التي لا تنقطع. ذلك لأنّ النائم في اللحظة التي تتمّ فيها اليقظة (الأمر الذي يمكن تفسيره تماماً في النمط الأول، وهو أكثر اتساعاً وأوفر أسراراً وأقرب إلى عالم النجوم) يسمع صوتاً داخلياً يقول له: «أتراك تأتي في هذا المساء للعشاء أيها الصديق العزيز؟ كم يسرّني ذلك!» «ويفكّر في نفسه»: «أجل، وكم نُصيب من مسرّة، سوف أذهب»؛ ثمّ تتزايد اليقظة فيتذكّر فجأة: «لم يبق لجدّتي سوى بضعة أسابيع تعيشها فيما يؤكد الدكتور». ويقرع الجرس ويبكي إذ تداخله فكرة أن لن تأتي، شأنها بالأمس، جدّته، جدّته التي تحتضر، بل خادم غير مبال سوف يُقبل ليردّ عليه. وفي جميع الأحوال، حينما كان النوم يحمله بعيداً جداً خارج العالم الذي يسكنه التذكر والفكر عبر أثير كان فيه وحده ليس إلّاه، لا يتوافر له حتّى ذاك الرفيق الذي يبصر ذاته فيه، كان خارج الزمن ومقاييسه. فها هو ذا الخادم الخاص يدخل، ولا يجرؤ أن يسأله عن الساعة لأنّه يجهل إن كان نام وكم ساعة نام (بل يتساءل إن لم يكن السؤال «كم يوماً» لشدّة ما يعود منهوك الجسم مرتاح الفكر يملأ قلبه الحنين وكأنّما من رحلة أبعد من أن لا تكون دامت فترة طويلة). أجل يمكن الزعم أن ليس ثمّة سوى زمن واحد للسبب التافه الذي مفاده أنّنا إنّما لاحظنا بالنظر إلى ساعة الحائط أن ما ظننّاه نهاراً إن هو إلا ربع ساعة. ولكنّنا حين نلاحظ الأمر فإننا بالضبط رجل مستفيق مغموس في زمن الناس المستيقظين وقد هجر

الزمن الآخر، بل ما كان ربّما أكثر من زمن آخر: حياة أخرى. إن المتع التي نصيبها في النوم لا نضعها في حساب المتع التي نحسّ بها خلال حياتنا. وكي لا نلمّح إلّا إلى أكثرها ابتذالاً في شهوانيتها، من منّا لم يشعر لدى استيقاظه ببعض الإزعاج من أنّه أصاب في نومه متعة لن يستطيع، إنْ استفاق ولم يشأ أن يفرط في إرهاق نفسه، أن يكرّرها بلا حدود في ذلك اليوم؟ لكأنما ذلك خير نفقده. لقد أصبنا متعة في حياة أخرى ليست حياتنا. إن آلام ومتع الحلم (التي سرعان ما تتلاشى بعامّة حين اليقظة) لو أدرجناها في موازنة فلن يكون ذلك في موازنة الحياة اليوميّة.

قلت بزمنين، وربّما ليس ثمّة سوى واحد؛ وما ذلك لأن زمن المستيقظ صالح للنائم، بل لأنّ الحياة الأخرى، الحياة التي ننام فيها، قد لا تكون - في قسمها العميق - خاضعة لفئة الزمن. كنت أتصوّر ذلك حينما كنت أنام غداة حفلات العشاء في «لا راسبليير» ذلك النوم الكامل الشامل. وإليك السبب. كنت آخذ بالاغتمام لدى استيقاظي إذ أرى أن الخادم الخاص لم يكن جاء بعدما قرعت الجرس عشر مرّات. وفي المرّة الحادية عشرة كان يدخل. ولم تكن تلك سوى الأولى. أمّا الأخريات العشر فإن هي إلا خطوط أولية كنت أخطّها في أثناء نومي الذي مايزال قائماً على قرع الجرس الذي أبغيه» وما كانت يداي المخدرتان حتى تحركتا. على أن جهدي في تلك الصبيحات (وذلك ما يحملني على القول إن النوم ربّما كان جاهلاً لقانون الزمن) من أجل أن أستيقظ إنما كان يقوم على جهد إدخال الكتلة الغامضة غير المحدّدة للنوم الذي عشته منذ قليل في أُطر الزمن. وليست المهمّة سهلة؛ فالنوم الذي لا يعرف إن كنّا نمنا ساعتين أو يومين لا يمكن أن يزوّدنا بأيّ معلم. فإن لم نلق معلماً في الخارج فإننا نعود، إذ لا نفلح في ولوج الزمن، إلى النوم مدّة خمس دقائق تبدو لنا ثلاث ساعات.

لقد قلت دوماً - وجرّبت - إن أشدّ المنوّمات هو النوم. فبعدما نمنا

ساعتين نوماً عميقاً وتقاتلنا مع الكثير من العمالقة وعقدنا على مدى الدهر الكثير من الصداقات، يبدو الاستيقاظ أكثر صعوبة ممّا هو الأمر بعدما تناولنا عدّة غرامات من مادّة «الفيرونال». ولذلك أدهشني أن أعلم، وأنا أنقّل الفكر بين هذه وذاك، من الفيلسوف النرويجي الذي أخذه عن السيد «بوترو» «زميله الشهير - بل أخوه الشقيق، عفواً، ما كان يعتقده «برغسون» حول التشوّهات الخاصة التي تذيب الذاكرة جرّاء المنوّمات. وكان «برغسون»، على حدّ قول الفيلسوف النروجي، قد قال للسيد «بوترو»: «بالطبع، لا تأثير للمنوّمات التي يجري تناولها بين الحين والحين بكميّات معتدلة على تلك الذاكرة المتينة لحياتنا اليوميّة المستقرّة في داخلنا على أفضل أساس. لكنّ ثمّة ذاكرات أخرى أرفع مكانة وأقلّ استقراراً أيضاً. إن أحد زملائي يدرّس مقرّراً في التاريخ القديم، وقد قال لي إنّه إن تناول في العشيّة قرصاً لينام فقد كان يصادف عنتاً في العثور أثناء درسه على الشواهد اليونانية التي يحتاج إليها. وقد أكّد له الدكتور الذي كان أوصى بتلك الأقراص أنْ ليس لها تأثير على الذاكرة. وقد أجابه المؤرّخ دون أن يغفل شيئاً من الاستعلاء الساخر: «ربّما يعني ذلك أنْ ليس عليك الإتيان بشواهد يونانيّة».

لست أدري إن كان هذا الحديث بين السيد «برغسون» والسيد «بوترو» صحيحاً. والفيلسوف النروجي ربّما أساء الفهم مع أنّه عميق الفكر واضحه إلى حدّ بعيد ويهيم بالدقّة أشدّ الهيام. وقد زودتني تجربتي في ما يخصني بنتائج عكسيّة. فإن فترات النسيان التي تعقب في الغداة تناول بعض المخدّرات تشبه جزئياً فقط، ولكنّما الشبه مقلق، النسيان الذي يسود في ليلة من النوم الطبيعي. فإن ما أنساه في كلتا الحالين ليس هذا البيت لـ«بودلير» الذي يرهقني بالأحرى «كما تفعل آلة التامبانون»، وليس ذاك المفهوم لأحد الفلاسفة المذكورين، بل حقيقة الأشياء العادية التي تحيط بي - إن كنت نائماً - والتي يبعث فيّ لا إدراكها الجنون؛ وليس كذلك - إن كنت يقظان وخرجت على إثر نوم اصطناعي - منظومة «بورفيروس» أو

«أفلوطين» التي أستطيع الجدال فيها كما هي حالي في يوم آخر، بل الجواب الذي وعدت بتقديمه عن دعوة حلّ محلّ تذكّرها حيّز أبيض تماماً. لقد لقبت الفكرة السامية في مكانها، أمّا ما جعله المنوّم خارج التداول فإمكان الفعل في الأشياء الصغيرة، في كلّ ما يتطلّب نشاطاً لتعود فتمسك في الوقت المناسب، لتقبض على هذه الذكرى من الحياة اليوميّة. وعلى الرغم من كل ما يمكن أن نقوله عن البقاء بعد تلف الدماغ فإني ألاحظ أن كل تشوّه في الدماغ يقابله جزء من الموت. إنّا لا نملك ذكرياتنا جميعها إن لم نملك القدرة على استذكارها، يقول نقلاً عن السيد «برغسون» الفيلسوف النرويجي الكبير الذي لم أحاول؛ تحاشياً للإبطاء، محاكاة لغته؛ إن لم يملك القدرة على استذكارها. ولكن ما عسى أن تكون ذكرى لا نتذكرها؟ أو دعنا نمضي أبعد من ذلك. إنّنا لا نتذكّر ذكرياتنا العائدة للسنوات الثلاثين الأخيرة؛ ولكنّها تغمرنا من كلّ جوانبنا؛ فلم نتوقّف، والحالة هذه، عند السنوات الثلاثين ولِمَ لا نمدّ إلى ما وراء الولادة تلك الحياة السابقة؟ وبما أنّني لا أعرف قسماً كاملاً من الذكريات الكائنة ورائي وبما أنّها خافية عليّ ولا أملك القدرة على استدعائها إليّ، فمن ذا يقول لي أنْ ليس في هذه الكتلة المجهولة لديّ ذكريات تعود إلى ما كان أبعد من حياتي البشرية؟ وإن أمكن أن يقوم في داخلي ومن حولي هذا الكم من الذكريات التي لا أتذكرها فإن هذا النسيان (على الأقل النسيان الواقع بما أني لا أملك القدرة على رؤية شيء) يمكن أن ينسحب على حياة عشتها في جسم رجل آخر وحتّى فوق كوكب آخر. ثمّة نسيان واحد يمحو كلّ شيء. ولكن ما الذي يعنيه والحالة هذه خلود النفس ذاك الذي كان الفيلسوف النروجي يؤكد حقيقته؟ فالفرد الذي سأكونه بعد الموت لا دواعي لديه لتذكّر الشخص الذي كنته منذ مولدي أكثر مما يتذكّر هذا الأخير ما كنته قبل مولدي.

وكان الخادم الخاص يدخل ولا أقول له إني قرعت الجرس عدّة مرّات إذ كنت أتبيّن أني لم أقم حتى ذاك بغير الاحتلام بأني أقرع

الجرس. على أني كنت فزعاً من التفكير بأن هذا الحلم اكتسب وضوح المعرفة. فهل تكتسب المعرفة بالمثل لاواقع الحلم؟

ولكني في المقابل كنت أسأله من ذا الذي بالغ إلى هذا الحدّ في قرع الجرس هذه الليلة، فيجيبني «لا أحد» وباستطاعته أن يؤكّد ذلك لأن «لوحة» الأجراس كانت سجّلت ذلك. ومع ذلك كنت أسمع الضربات المتكرّرة الحانقة تقريباً والتي لا تزال ترنّ في أذني وسوف تظلّ مسموعة لديّ على مدى عدّة أيّام. مع أنه يندر أن يُلقي النوم على هذا النحو في حياة اليقظة ذكريات لا تموت معه. ويمكن إحصاء هذه النيازك. فإن كانت فكرة صنعها النوم فإنّها تتفكّك بسرعة عظيمة قطعاً دقيقة لا يمكن العثور عليها. ولكن النوم هنا كان قد صنع أصواتاً أكثر ماديّة وأشدّ بساطة فتدوم أكثر. لقد دهشت للساعة الباكرة نسبياً التي ذكرها لي الخادم الخاص، ولكنّما لم أكن أقل ارتياحاً لذلك. فإنّ صنوف النوم الخفيف هي التي تدوم طويلاً لأنها متوسطة بين اليقظة والنوم، وإذ تحتفظ من الأولى بفكرة غائمة المعالم قليلاً ولكنّها ثابتة فإنّما تقتضي كيما تريحنا وقتاً أطول بما لا يقاس ممّا يقتضي النوم العميق الذي يمكن أن يكون قصيراً. وكنت أحسّني مرتاحاً تماماً لسبب آخر. فإن كان كافياً أن يتذكّر المرء أنّه تعب كيما يوافيه شعور بمرارة التعب فإن قوله لنفسه: «قد استرحت» كاف لبعث الراحة لديه. وإنّي حلمت أن السيد «دو شارلوس» بلغ المئة وعشر سنوات وأنه أقدم منذ قليل على توجيه صفعتين لوالدته السيدة «فيردوران» لأنها ابتاعت باقة بنفسج لقاء خمسة مليارات؛ لقد كنت على يقين إذاً من أني نمت نوماً عميقاً وحلمت بعكس مفاهيمي في اليقظة وإمكانات الحياة العادية جميعها، وكان ذلك كافياً كما أحسّني مرتاحاً تماماً.

لعلّني كنت أدهشت أمّي، وما كان بمقدورها فهم مواظبة السيد «دو شارلوس» لدى آل «فيردوران»، لو رويت لها مع من جاء السيد «دو شارلوس» لتناول طعام العشاء في صالة الفندق الكبير في «بالبيك» (في ذلك اليوم بالضبط الذي كنّا أوصينا فيه على قلنسوة «ألبيرتين» دون أن

نبدي لها من ذلك شيئاً كي تُفاجأ بها). فلم يكن المدعو سوى الخادم الخاص لواحدة من بنات عمومة آل «كامبرمير». وكان هذا الخادم يرتدي ملابس عظيمة الأناقة، وحينما اجتاز البهو برفقة البارون بدا في نظر السيّاح «وكأنّه من علية القوم»، كما لعلّ «سان لو» كان قال. حتّى الخدم من الشبّان و«اللاويّون»[1] الذين كانوا ينحدرون جماً غفيراً على أدراج الهيكل في ذلك الوقت، إذ كان وقت التبديل، لم يعيروا الوافدين انتباهاً، وقد حرص أحدهما، وهو السيد «دو شارلوس»، أن يبدي وهو يطرق برأسه أنّه لا يعيرهم إلا القليل القليل، كان يبدو وكأنّه يشقّ لنفسه طريقاً فيما بينهم. ثمّ قال وهو يتذكّر أبياتاً لـ«راسين» يستشهد بها بمعنى مختلف أشدّ الاختلاف: «ازدهر يا أملاً غالياً لأمّة مقدّسة». وسأل الخادم الخاص، وهو قليل الاطلاع على الأدباء الكلاسيكيّين، قائلاً: «بمَ تفضّلت؟» ولم يجبه السيد «دو شارلوس» إذ كان يجد بعض الاعتزاز في أن لا يأخذ في اعتباره الأسئلة وأن يمضي في خطّ مستقيم أمامه كما لو لم يكن في الفندق زبائن سواه، كأنّما ليس في الدنيا سواه، هو البارون «دو شارلوس». لكنّه بعدما تابع أبيات «جوزابيت»: «هيّا، إليّ يا بناتي» شعر أنه نهب القرف ولم يضف كما فعلت: «لا بدّ من دعوتهنّ»، لأن هؤلاء الأولاد الصغار ما كانوا بلغوا بعد السن الذي يكون الجنس فيه كامل التكوين والذي كان يروق السيد «دو شارلوس». ولئن كتب إلى خادم السيدة «دو شفرونيي» الخاص لأنه ما كان يشكّ في سهولة انقياده فقد كان يتمنّاه على أيّة حال أوفر رجولة. وكان يجده من حيث مظهره أكثر تخنّثاً ممّا لعلّه أراد. وقال له إنّه خيّل إليه أنّه يتعامل مع آخر سواه لأنه كان يعرف بالوجه خادماً خاصاً آخر للسيدة «دو شفرونيي» كان بالفعل لفت انتباهه فوق العربة. كان من صنف الفلّاح الخشن، تماماً نقيض هذا الذي كان يرى ألطافه المتكلّفة على العكس بمثابة مواطن تفوّق ولا يشكّ أن

---

(١) من هم من قبيلة «لاوي» لدى العبرانيين وكانوا يعدّون لخدمة الهيكل.

صفات رجل المجتمع الراقي تلك هي التي لعلّها فتنت السيد «دو شارلوس» فلم يفهم حتى عمّن كان البارون يبغي التحدّث. «ولكن لا رفيق لي إلا واحد لا يمكن أن تكون نظرت إليه، فإنّه دميم ويشبه فلّاحاً غليظاً». وإذ خطر له أن ذاك الفظّ ربما كان هو الذي شاهده البارون أحسّ بوخزة في كرامته. وحزرها البارون فوسّع من دائرة بحثه: «ولكنّي لم أقطع على نفسي عهداً خاصاً بأن لا أتعرّف إلا على جماعة السيدة «دو شفرونيي»، يقول؛ أفلا تستطيع، هنا أو في باريس، بما أنك راحل عمّا قليل، أن تعرّفني بكثيرين من رفاقك، من هذا البيت أو ذاك؟» فأجاب الخادم الخاص: «لا، لا فإنّي لا أخالط أحداً من طبقتي ولا أحدّثهم إلّا بشأن الخدمة. ولكنّ ثمّة واحداً من أحسنهم يمكنني أن أعرّفك به». وسأل البارون قائلاً: «ومن ذا يكون؟» «الأمير «دو غيرمانت». واغتاظ السيد «دو شارلوس» من أنه لا يُقَدّمُ له سوى رجل هذا عمره ولم يكن على أي حال يحتاج بشأنه إلى توصية خادم خاص. ولذلك رفض العرض بلهجة جافة. وعاد، دون أن يدع لعزيمته أن توهنها مطامع الخادم المجتمعيّة، عاد يوضح له ما هو راغب فيه، النوع والنمط، ولنقل فارس سباق، إلخ. وإذ خشي أن يكون سمعه الكاتب العدل الذي كان يمرّ طريقه في ذلك الحين، ظنّ من النباهة أن يبرز للعيان أنّه كان يتكلّم عن أمر مغاير تماماً لما لعلّه أمكن اعتقاده وقال مشدّداً وموجّهاً خطابه لشخص لا تراه ولكن كمن يتابع فحسب حديثه: «أجل لقد بقيت على الرغم من سنّي على حبّ البحث عن القديم، حبّ التحف الجميلة وإنّي يجنّ جنوني إزاء برونزيّة عتيقة، إزاء ثريّا عتيقة. إنّي أعشق الجمال». على أنّ السيد «دو شارلوس» بغية إفهام الخادم الخاص ما أجراه بتلك السرعة من تغيير في موضوعه، كان يتثاقل على كلّ كلمة ويصرخ بها جميعها، كما يسمعه الكاتب العدل، بقوّة ربّما كانت كلّ هذه التمثيلية كافية معها لتكشف ما كان يخبّئه بالنسبة إلى آذان أكثر تمرّساً من أذني المأمور القضائي. ولم يرتب هذا الأخير بشيء ولا أيّ زبون آخر في الفندق، وقد رأوا جميعاً في الخادم الخاص الحسن

الملبس أجنبيّاً أنيقاً. ولئن أخطأ أولو المجتمع الراقي الحكم فحسبوه أميركياً ذا أناقة بالغة، فإنّه ما كاد في المقابل يطلع أمام الخدم حتّى حزروا من هو، مثلما المحكوم بالأشغال يتعرّف المحكوم، بل بسرعة أكبر، بالاشتمام عن بعد مثلما الحيوان من جانب بعض الحيوانات، ورفع قادة الرتل نظرهم إليه، ورماه «إيميه» بنظرة ارتياب. أمّا الساقي فارتفع بمنكبيه وقال من خلف يده، إذ ظنّ ذلك من باب التأدّب، جملة تتضح بالإساءة تناهت إلى مسمع الجميع. حتّى عزيزتنا «فرانسواز» العجوز، التي كان بصرها آخذاً بالتراجع وكانت تمرّ في تلك اللحظة في أسفل الدرج لتذهب للعشاء «على جناح السرعة»، تعرّفت خادماً لم يَرتَبْ نزلاء الفندق به - مثلما تتعرّف المربية العجوز «أوريكليه» «أوليس» قبل طلاب الزواج الجالسين إلى مائدة الوليمة - وبدا عليها إذ رأت السيد «دو شارلوس» يسير وإيّاه مسيرة الأُلّاف علائم الأسى كما لو اكتسبت فجأة أقوال سوء سمعتها تُذاع ولم تصدّقها، كما لو اكتسبت فجأة شكل الحقيقة المؤلم. ولم تكلّمني البتّة، ولا كلّمت سواي عن تلك الواقعة ولكنّها لا بدّ تسببت بعمل هائل لدماغها لأنّها في كلّ مرّة سنحت لها فرصة لقاء «جوليان» الذي أحبّته حتى ذاك حبّاً جمّاً أبدت له على الدوام شيئاً من التأدّب ولكنّما كان أصابه الفتور وانضافت إليه دوماً كمية من التحفّظ. ولكن تلك الواقعة نفسها دفعت على العكس آخر غيره إلى استيداعي سرّاً. وكان «إيميه». فحينما التقيت السيد «دو شارلوس» صاح بي، وما كان يتوقّع لقائي: «مساء الخير»، وهو يرفع يده باللامبالاة الظاهرة على الأقل التي يبديها السيد الكبير الذي يظنّ كلّ شيء جائزاً له، ويرى براعة أكبر في الظهور مظهر من لا يتستّر. بيد أن «إيميه» الذي كان يرقبه في تلك اللحظة بعين الريبة والذي أبصرني أحيّي رفيق ذاك الذي كان متيقّناً أنّه يبصر فيه خادماً سألني في المساء نفسه من عساه كان. فإن «إيميه» منذ بعض الوقت كان يحبّ الحديث أو الجدال بالأحرى كما كان يقول كي يبرز دونما شك الطابع الفلسفي الذي يراه لهذه الأحاديث. ولمّا كنت أقول له في الغالب

إنّي أشعر بالإزعاج من أن يلبث واقفاً بالقرب مني وأنا أتناول طعام العشاء فيما كان يمكنه الجلوس ومشاركتي الطعام كان يعلن أنّه لم يشهد قط زبوناً «صحيح المحاكمة إلى هذا الحدّ». كان في ذلك الوقت يكلّم خادمين. وقد سلّما عليّ وما كنت أدري سبب ذلك. كان وجهاهما مجهولين لديّ مع أن في حديثهما رنّة غمغمات ما كانت تبدو لي جديدة. كان «إيميه» يعنّفهما كليهما بسبب خطبتهما التي كان يستنكرها. واستشهد بي على ذلك فقلت إنه لا يمكنني تكوين رأي بما أني لا أعرفهما. وذكّراني باسمهما وأنّهما كثيراً ما قاما على خدمتي في «ريفبيل». ولكن أحدهما كان أطلق شاربه والآخر حلقه وقصّ شعره. وبسبب ذلك ومع أنّ ما وضع على كتفيهما إنّما كان رأسهما بالأمس (وليس آخر كما هي الحال في أعمال الترميم الخاطئة في كنيسة نوتردام) فقد لبث خفيّاً عليّ كما هي تلك الأشياء التي تخفى على صنوف التفتيش الأكثر دقّة والملقاة على أبسط صيغة فوق الموقد أمام أعين الجميع الذين لا يلاحظونها. وما إن عرفت اسمهما حتّى تعرفت بالضبط غنّة صوتهما المبهمة لأنّي عدت أرى وجههما السابق الذي كان يحدّدها. وقال لي «إيميه»: «إنهما يبغيان الزواج وهما حتّى لا يعرفان الإنكليزية!»، وما كان يفكّر أنّني قليل الاطلاع على المهنة الفندقية ولا أفهم تماماً أنه لا يمكنك الاعتماد على مركز عمل إن كنت لا تعرف اللغات الأجنبية. أمّا أنا الذي ظنّ أنه سوف يعرف بسهولة أن «المتعشّي» الجديد هو السيد «دو شارلوس»، بل تصوّر أنه لا بدّ سيتذكره إذ قام على خدمته في قاعة الطعام حينما جاء البارون في أثناء إقامتي الأولى في «بالبيك» لزيارة السيد «دو فيلباريسيس»، فقد ذكرتُ له اسمه، ولكن «إيميه» ما كان يتذكّر البارون «دو شارلوس»، وليس ذلك فحسب بل بدا أن الاسم يخلّف لديه انطباعاً عميقاً. وقال لي إنّه سوف يبحث في الغد بين أغراضه عن رسالة ربّما استطعت أن أفسّرها له. وقد زاد من دهشتي أن السيد «دو شارلوس» حينما شاء أن يعطيني كتاباً لـ«بيرغوت» في السنة الأولى في «بالبيك» كان بعث بشكل خاص في طلب «إيميه» الذي لا بدّ

أنّه عاد فلقيه في مطعم باريس ذاك الذي تناولت فيه طعام الغداء بصحبة «سان لو» وعشيقته حيث جاء السيد «دو شارلوس» يتجسّس علينا. صحيح أن «إيميه» لم يستطع القيام شخصياً بهاتين المهمّتين إذ كان مرّة في سريره وفي الثانية في أثناء خدمته. على أنّي كانت تساورني شكوك كبيرة حول صدقه حين كان يزعم أنّه لا يعرف السيد «دو شارلوس». فلا بدّ من جهة أنّه كان يناسب البارون. إن «إيميه»، كما هي حال سائر المشرفين على الأدوار في فندق «بالبيك»، وكما هي حال عدّة خدّام لدى الأمير «دو غيرمانت» كان ينتمي إلى سلالة أكثر عراقة من سلالة الأمير وبالتالي أوفر نبلاً. وحينما كنت تطلب صالة كنت تظنّ بادئ الأمر أنّك وحيد. ولكن سرعان ما كنت تلمح في غرفة الخدمة رئيس خدم منحوت البنية، من ذلك النوع الايتروسكي الأصهب الذي كان «إيميه» نموذجه، وقد شاخ قليلاً جرّاء إفراط «الشمبانيا» وهو يرى اقتراب الساعة التي لا بدّ منها للانصراف إلى مياه «كونتركسيفيل»(١) وما كان سائر النزلاء يطلبون أن يُبادَرَ إلى تقديم الطعام لهم فحسب. أمّا المستخدمون الذين كانوا فتياناً متوجسين مستعجلين تنتظرهم عشيقة في المدينة فكانوا يتهرّبون. وكان «إيميه» يأخذ عليهم لذلك أنّهم غير جدّيين. وكان له الحق في ذلك، فقد كان جديّاً هو، وكانت له زوجة وأبناء، وطموح في سبيلهم. وما كان يرفض والحالة هذه محاولات التقرّب التي تجيئه من غريبة أو غريب وإن انبغى المكوث طوال الليل. فالعمل يحلّ قبل أي شيء آخر. كان إلى حدّ بعيد من النمط الذي يمكن أن يروق السيد «دو شارلوس» حتى شككت أنّه يكذب حينما قال لي إنّه لا يعرفه. وكنت مخطئاً. فقد كان الساعي نقل بمنتهى الصدق إلى البارون أن «إيميه» (الذي مرّر إليه صابونة في الغد) كان في سريره (أو هو خرج) وفي المرّة الثانية أنّه قائم على الخدمة. ولكنّ الخيال يفترض ما هو أبعد من الواقع. ويحتمل أن يكون ارتباك الساعي قد أثار في صدر

(١) مياه معدنية معروفة في فرنسة.

السيد «دو شارلوس» شكوكاً حول صدق أعذاره جرحت لديه مشاعر ما كان «إيميه» يرتاب بوجودها. كذلك رأينا أن «سان لو» كان قد منع «إيميه» من الذهاب إلى العربة التي أصيب السيد «دو شارلوس» فيها، وكان حصل، ولا أعرف كيف، على العنوان الجديد لرئيس الخدم، بخيبة أمل ثانية. وأحسّ «إيميه» الذي لم ينتبه للأمر بدهشة يمكن أن نتصوّرها حينما تسلّم في ذات مساء اليوم الذي تناولت فيه طعام الغداء برفقة «سان لو» وعشيقته رسالة مختومة بخاتم يحمل شعار آل «غيرمانت» وسوف أذكر منها هنا بعض مقاطع مثالاً على الجنون الأحاديّ الطرف لدى رجل ذكيّ يخاطب معتوهاً سليم الحسّ. «لم أفلح يا سيّد، على الرغم من جهود ربّما أدهشت الكثيرين ممّن يحاولون عبثاً أن أستقبلهم وأسلّم عليهم، في التوصّل إلى أن تُصغي إلى بعض إيضاحات لم تكن تطالبني بها ولكنّي ظننت من كرامتي وكرامتك أن أقدّمها لك. سوف أخطّ هنا إذن ما لعلّه كان من الأيسر أن أقوله لك مشافهة. ولن أخفيك أن وجهك بدا لي صراحة في أول مرّة رأيتك فيها في «بالبيك» منفّراً». ويعقب ذلك خواطر حول الشبه - الذي لوحظ في اليوم الثاني فقط - بصديق متوفّى كان يكنّ له السيد «دو شارلوس» مودّة عظيمة. «حينذاك وافتني للحظة فكرة أنك ربّما استطعت، دون أن تربك عملك البتّة، أن تجيء وتوهمني بأنّه لم يمت وذلك بالقيام معي بلعبات الورق التي كان مرحه يفلح بها في تبديد كآبتي. وأيّاً تكن طبيعة الافتراضات الحمقاء إلى حدّ ما التي أرجّح أنّك قمت بها وهي أقرب إلى فكر الخادم (الذي لا يستحقّ حتى هذا الاسم بما أنّه رفض أن يخدم) من إدراك شعور بذاك السموّ، فالمرجّح أنك ظننت أنك تضفي أهمية على نفسك متجاهلاً من أنا وما أنا عليه حين تبعث من يجيبني، إذ كنت أرسلت إليك في طلب كتاب، أنك تنام في سريرك. ولكنّما من الخطأ الظن بأن أسلوباً سيئاً يزيد في يوم من ظرف أنت على أي حال خلو منه تماماً. وكنت توقّفت عند هذا الحدّ لو لم يتّفق لي مصادفة أن أتحدّث إليك في صباح الغد. وقد تزايد الشبه بينك وبين

صديقي المسكين، ممّا أزال حتى شكل ذقنك البارز الذي لا يطاق، إلى حدّ أدركت معه أن المتوفّى هو الذي كان يمدّك في تلك الفترة بمظهره الطيّب كي يمكّنك من لمّ شتات نفسي والحؤول دون أن تفوتك الفرصة الفريدة التي تسنح لك. ولعلّي كنت سعدت بالفعل أشد السعادة، مع أني لا أريد أن أخلط في كلّ ذلك مسائل مصلحيّة فظة بما أن كل ذلك لم يعد ذا موضوع، بأن أنصاع لرجاء الميت (لأنني أعتقد بشراكة القديسين وابتغائهم التدخّل في مصير الأحياء) أن أتصرّف معك تصرّفي معه هو الذي كان يملك عربته وخدمه والذي كان من الطبيعي أن أكرّس له القسم الأعظم من دخلي بما أني كنت أحبّه كابن لي. وقد قرّرت خلاف ذلك. فقد أرسلت تجيب طلبي إليك بأن تحمل إليّ كتاباً أنك مضطرّ للخروج. وحينما طلبت منك المجيء هذا الصباح إلى عربتي أنكرتني للمرة الثالثة إن وسعني التحدّث على هذا النحو دون تدنيس للمقدّسات. أرجو أن تعذرني أن لا أضع في هذا المغلّف الإكراميات الكبيرة التي كنت أعتزم إعطاءك إيّاها في «بالبيك» والتي كان يشقّ عليّ الاكتفاء بها إزاء شخص ظننت حيناً مشاطرته كلّ شيء. ولعلّك تستطيع على الأكثر تجنيبي القيام لديك وفي مطعمك بمحاولة رابعة غير مجدية لن يبلغ اصطباري حدودها. (وهنا كان السيد «دو شارلوس» يدلي بعنوانه وبتحديد الساعات التي يجدونه فيها، إلخ.) الوداع يا سيّد. وإذ أعتقد أنّك لا يمكن أن تكون، وأنت تشبه إلى هذا الحدّ الصديق الذي فقدتُه، غبيّاً تماماً وإلا لكان علم الفراسة علماً كاذباً فإني متيقّن أنّك إن فكّرت ثانية بهذه الحالة ذات يوم فلن يتمّ ذلك دون بعض الأسف وشيء من الندم. أمّا في ما يخصّني، فثق أني بكل صدق لا أحمل منها أيّة مرارة. لعلّني كنت فضّلت أن نفترق عند ذكرى أقلّ سوءاً من ذاك المسعى الثالث اللامجدي. وسوف ننساه بسرعة فإننا نشبه تلك السفن التي لا بدّ أنّك شاهدتها أحياناً من «بالبيك» وتلاقت حيناً؛ وربّما كان لكلتيهما منفعة في التوقّف، ولكن إحداهما ارتأت غير ذلك. وعمّا قليل لن يتسنّى لأيّ منهما من بعد حتّى أن ترى الأخرى في

الأفق ويمّحي اللقاء. ولكن كلّ واحدة منهما تحيّي الأخرى قبل هذا الفراق النهائي. ذاك ما يفعله هنا يا سيّد البارون «دو شارلوس» وهو يتمنّى لك حظاً سعيداً».

لم يكن «إيميه» حتّى قرأ تلك الرسالة إلى نهايتها إذ هو لا يدرك فيها شيئاً ويخشى من خدعة ما. وحينما أوضحتُ له من يكون البارون بدا حالماً بعض الشيء وأحسّ بذاك الأسف الذي توقّعه له السيد «دو شارلوس». ولست حتى أقسم أن لا يكون كتب حينذاك يعتذر إلى رجل كان يعطي عربات لأصدقائه. ولكن السيد «دو شارلوس» كان تعرّف في تلك الأثناء إلى «موريل». وكان السيد «دو شارلوس» يبحث في الأكثر بين حين وآخر، إذ ربّما كانت علاقاته بهذا الأخير أفلاطونية، عن رفقة لمساء واحد كتلك التي التقيته معها منذ قليل في البهو. لكنّه ما كان يستطيع من بعد أن يصرف عن «موريل» العاطفة العنيفة التي كان غاية مطلبها، يوم هي حرّة قبل بضع سنوات، الالتصاق بـ«إيميه» وقد أملى الرسالة التي كنت أشعر بالضيق بشأنها إزاء السيد «دو شارلوس» والتي سبق أن أراني إيّاها رئيس الخدم. وكانت بسبب الحبّ المخالف للنظام الاجتماعي الذي يمثّله حبّ السيد «دو شارلوس» مثالاً أكثر جلاء على القوة غير المحسوسة والشديدة التي لتيارات الهوى تلك التي سرعان ما يغيب منظر الأرض جرّاءها عن عين العاشق كما هي حال السبّاح الذي تجرفه دون أن يلاحظ ذلك. وليس من شكّ أن حبّ الرجل الطبيعي يستطيع بدوره، حينما يبني العاشق بالاستنباط المتلاحق لرغباته وصنوف أسفه وخيبات أمله ومشروعاته رواية كاملة حول امرأة لا يعرفها، أن يمكّن من قياس تباعد هامّ إلى حدّ ما بين ساقي فرجار. وكان مثل ذاك التباعد مع ذلك يزداد اتّساعه على نحو فريد من جرّاء طابع عشق ليس متبادلاً بعامّة ومن جرّاء اختلاف الأوضاع الاجتماعية لكلّ من السيد «دو شارلوس» و«إيميه».

كنت كلّ يوم أخرج برفقة «ألبيرتين». وكانت اعتزمت العودة إلى الرسم واختارت بادئ الأمر بقصد العمل كنيسة «سان جان دو لاهيز» التي

لم يعد أحد يتردّد عليها وهي معروفة لدى القلّة القليلة ويصعب الاستدلال عليها، يستحيل اكتشافها دون دليل ويطول المسير إليها في عزلتها وهي على أكثر من نصف ساعة من محطة «ابيرفيل» بعدما تكون جاوزت منذ فترة طويلة آخر منازل قرية «كيتهولم». لم ألقَ توافقاً بخصوص اسم «ابيرفيل» بين كتاب الكاهن ومعلومات «بريشو». فقد كانت «ابيرفيل» حسب أحدهما «سبريفيلا» القديمة، أمّا الآخر فكان يشير إلى «ابريفيلا» بمثابة أصل لها. وفي المرة الأولى أخذنا القطار الصغير في الاتجاه المعاكس لـ«فيتيرن»، أي باتجاه «غراتفاست». ولكنّ الوقت كان قائظاً وسبق أن كان الانطلاق بعد الغداء مباشرة أمراً مروّعاً. ولعلّي كنت فضّلت أن لا أخرج في وقت مبكّر إلى هذا الحدّ؛ وكان الهواء المشرق الحارق يوقظ أفكاراً كلّها خمول واسترطاب. وكان يملأ غرفتينا، أنا وأمّي، حسب اتجاههما، وبدرجات حرارة غير متساوية وكأنّما هي غرف استشفاء بالحمّامات. وكانت حجرة ملابس والدتي التي تفرض الشمس حواشيها، وهي من بياض ناصع مغربي، تبدو كأنّما تغوص في قعر بئر بسبب جدران الجصّ الأربعة التي تطلّ عليها فيما السماء في أعلى مكان وفي المربّع الذي ترك فارغاً، السماء التي كنت تشهد أمواجها الطريّة المتناضرة تنزلق بعضها فوق بعض، تبدو (بسبب الرغبة التي بك) كأنّها حوض سباحة واقع فوق سطح (أو يشاهد بالمقلوب في مرآة عُلّقت بالنافذة) وقد امتلأ مياهاً زرقاء مخصّصة للاغتسال. وعلى الرغم من تلك الحرارة الخانقة بادرنا إلى ركوب قطار الساعة الواحدة. ولكنّ «ألبيرتين» عانت من الحرّ الشديد في عربة القطار وعانت أكثر من ذلك أثناء سيرها الطويل وخشيت أن يصيبها البرد وقد لبثت بعد ذلك لا حراك بها في هذا التجويف الرطب الذي لا تبلغه الشمس. ثمّ إنّي لمّا تبيّنت منذ زياراتنا الأولى لـ«إيلستير» أنّها ربّما لم تتوقّف عند حبّ البذخ بل هي تتجاوزه إلى شيء من الرفاهية يحول دونه افتقارها إلى المال، فقد اتفقتْ مع مؤجّر في «بالبيك» كي تجيء في كل يوم عربة لنقلنا. وكنّا نسلك طريق غابة «شانتبي» لنقلّل من معاناة

الحر. وإن احتجاب الطيور التي لا تحصى، وبعضها نصف بحريّة، والتي كانت تتنادى إلى جانبنا في الأشجار، كان يخلّف فيك ذات الانطباع بالراحة التي تحسّ به مغمض العينين. وكنت أصغي إلى تلك الحوريات البحرية إلى جانب «ألبيرتين» وقد كبّلني ذراعاها في أقصى العربة. وحينما كنت ألمح مصادفة أحد أولئك الموسيقيين يمرّ من ورقة تحت أخرى ثانية كانت العلاقة الظاهرة بينه وبين أنغامه يسيرة إلى حدّ أني ما كنت أظنّني ألقى سبب هذه في الجسم الصغير المتقافز الوضيع المستغرب الذي لا نظر له. وما كان بإمكان العربة المضيّ بنا حتى الكنيسة، فكنت أطلب إيقافها لدى مغادرة «كيتهولم» وأستودع «ألبيرتين». ذلك أنّها أفزعتني وهي تقول لي عن هذه الكنيسة، كشأنها عن أوابد أخرى وعن بعض اللوحات: «أيّة متعة أصيبها أن أزور كل ذلك برفقتك!» فما كنت أحسّني قادراً على توفير تلك المتعة، ولا يداخلني إحساس ذلك أمام الأشياء الجميلة إلّا إذا كنت وحيداً أو تظاهرت بأني كذلك وصمتّ. ولكن بما أنّها ظنّت أنها قادرة بفضلي أنا على الشعور بأحاسيس فنيّة لا تُبثّ على هذا النحو فقد رأيت قسطاً أوفر من الحذر في قولي لها إنّي مفارقها وسوف آتي لاصطحابها آخر النهار، ولكنّما ينبغي لي حتّى ذاك أن أعود بالعربة لأقوم بزيارة للسيدة «فيردوران» أو لأسرة «دو كامبرمير»، أو حتى لقضاء ساعة مع والدتي في «بالبيك»، ولا أذهب أبعد من ذلك البتّة، في البداية على الأقل. ذلك أن «ألبيرتين» قالت لي ذات مرّة تدفعها نزوة عابرة: «مزعج أن تكون الطبيعة أساءت إلى هذا الحدّ في صنع الأمور فجعلت «سان جان دو لاهيز» في جانب و«لا راسبليير» في جانب آخر وأن تظلّ النهار بطوله سجين المكان الذي اخترته»، وما إن تسلّمت القلنسوة والثوب الرقيق حتى أوصيت لسوء حظّي على سيارة في «سان فارجو» (سانكتوس فيرّيولوس - Sanctus Ferreolus - حسبما ورد في كتاب الكاهن). ودهشت «ألبيرتين» التي جاءت لتصحبني، وكنت تركتها في جهل عمّا يجري، دهشت إذ سمعت أمام الفندق أزيز المحرّك واغتبطت حين علمت أن تلك السيارة لنا.

وأصعدتها حيناً إلى غرفتي. كانت تقفز فرحاً. «سنقوم بزيارة لآل «فيردوران»؟ - «أجل، ولكن خير لك أن لا تمضي إلى هناك بهذا اللباس بما أنك ستحصلين على سيارتك. خذي، ستكونين هكذا أفضل». وأخرجت القلنسوة والثوب الرقيق وكنت خبّأتهما. فصاحت وهي تطوّق عنقي: «أهذا لي؟ آه: كم أنت لطيف!» وإذا التقانا «إيميه» على الدرج وداخله الاعتزاز لأناقة «ألبيرتين» وواسطة النقل التي حجزناها، لأن أمثال تلك السيارات كانت نادرة في «بالبيك»، فقد وفّر لنفسه متعة النزول خلفنا، ولمّا كانت «ألبيرتين» راغبة أن يشاهدها الناس قليلاً في حلّتها الجديدة فقد طلبت إليّ رفع الغطاء، على أن نرخيه فيما بعد كي نكون أكثر حريّة في مكوثنا معاً. وقال «إيميه» للميكانيكي الذي لم يكن يعرفه على أيّ حال والذي لم يبرح مكانه: «هيّا، ألا تسمع أنهم يقولون لك أن ترفع الغطاء»؟ ذلك أن «إيميه» الذي حرّكته حياة الفنادق التي حصل فيها بأية حال على مركز مرموق لم يكن بمثل خجل حوذيّ العربة الذي كانت «فرانسواز» في نظره «سيّدة». وعلى الرغم من غياب التعارف المسبق، فقد كان يكلّم دونما كلفة أفراد الشعب الذين لم يكن التقاهم في يوم، دون أن يتّضح تماماً إن كان الأمر من جانبه استخفافاً أرستقراطياً أم تآخياً شعبيّاً. وأجاب السائق الذي ما كان يعرفني: «لست خالي الارتباط، وقد أوصى عليّ لصالح الآنسة «سيمونيه»، ولا أستطيع اصطحاب السيّد». وقهقه «إيميه» قائلاً في ردّه على الميكانيكي، وقد أقنعه في الحال: «ويحك أيّها الأهبل الكبير، هذه بالضبط الآنسة «سيمونيه» والسيد الذي يأمرك برفع الغطاء هو بالضبط معلّمك». ولمّا كان «إيميه» فخوراً بسببي باللباس الذي كانت «ألبيرتين» ترتديه، مع أنّه لا يكنّ شخصياً أيّة مودّة لها، فقد همس في أذن السائق: «لو أمكنك لاصطحبت كلّ يوم، هيه، أميرات من هذا القبيل!» في هذه المرة الأولى لم أكن أنا الوحيد من استطاع الذهاب إلى «لا راسبليير» مثلما فعلتُ في أيّام أخرى أثناء ما ترسم «ألبيرتين»، فقد أرادت المجيء إليها برفقتي. صحيح أنّها كانت تعتقد أنّ بوسعنا التوقّف

ههنا وهناك في طريقنا، ولكنّها ترى من المستحيل أن نبدأ بالذهاب إلى «سان جان دو لاهيز»، يعني في اتجاه آخر، وأن نقوم بنزهة يبدو أنّها مكرّسة ليوم آخر. ولكنّها علمت من الميكانيكي خلافاً لذلك أنْ ليس ما كان أسهل من الذهاب إلى «سان جان» حيث يصل في عشرين دقيقة وأنّه يمكننا المكوث فيها إن أردنا بضع ساعات أو المضي إلى أبعد من ذلك لأنّه لن يستغرقه من «كيتهولم» إلى «لا راسبلبير» أكثر من خمس وثلاثين دقيقة. وأدركنا ذلك حالما اجتازت السيارة في انقضاضها عشرين خطوة لجواد ممتاز دفعة واحدة. فليست المسافات سوى نسبة المدى إلى الزمن وهي تختلف باختلافها. وإنّنا نعبّر عن الصعوبة التي نصادفها في الذهاب إلى مكان ما بمنظومة من الفراسخ والكيلومترات تصبح مغلوطة ما إن تتناقص هذه الصعوبة. حتّى الفن يتبدّل بذلك، فإنّ قرية كانت تبدو في عالم غير عالم قرية أخرى تضحي جارتها ضمن منظر تغيّرت أبعاده. ومهما يكن من أمر فلعلّ سماعك بإمكان وجود عالم يساوي فيه ٢ و٢ = ٥ ولا يكون فيه الخط المستقيم أقصر طريق بين نقطة وأخرى كان أقلّ إدهاشاً لـ«ألبيرتين» من سماع الميكانيكي يقول لها إنّه من السهل الذهاب في العصر نفسه إلى «سان جان» و«لا راسبلبير». فقد أقبلت «دوفيل»، و«كيتهولم» و«سان مارس لوفيو» و«سان مارس لوفيتو» و«غورفيل» و«بالبيك لوفيو» و«تورفيل» و«فيتيرن»، وهي سجينة احتُبِسَتْ بإحكام حتّى ذاك في زنزانة الأيّام المختلفة شأنها شأن «ميزيغليز» و«غيرمانت» بالأمس، ولا تستطيع العيون نفسها أن تحطّ عليها في عصر يوم واحد، فإذا هي تحرّرت الآن على يد العملاق الذي حذاؤه سبعة فراسخ، أقبلت تجمع حول ساعة عصرونيّتنا قباب أجراسها وأبراجها وحدائقها التي يسارع الحُرج المجاور إلى الكشف عنها.

بعدما وصلت السيارة إلى أسفل الطريق الشاطئي صعدت دفعة واحدة بضجيج متّصل كأنّما سكين تُشحذ، فيما البحر الذي هبط يتّسع من تحتنا. وتراكضت بيوت «مونسورفان» القديمة الريفية وهي تشدّ إلى صدرها كرمتها

أو شجيرة ورودها. وجرى صنوبر «لا راسبلبير» وهو أكثر اضطراباً منه حين تهبّ ريح المساء، جرى في كلّ صوب ليتجنّبنا، وأقبل خادم جديد لم يسبق أن رأيته البتّة ليفتح لنا الأبواب في مطلع الدرج فيما كان ابن البستاني يبتلع بعينيه موضع المحرّك كاشفاً بذلك عن استعدادات مبكّرة. وما كنّا نعلم، واليوم ليس يوم الاثنين، إن كنّا سنلقى السيدة «فيردوران»، فإنّه باستثناء ذاك اليوم الذي تستقبل فيه لم يكن من الحكمة أن تذهب لزيارتها مباغتاً. ليس من شك أنها كانت تمكث في منزلها «مبدئياً»، ولكن هذا التعبير الذي كانت السيدة «سوان» تستخدمه في الزمن الذي كانت تحاول فيه هي الأخرى تأليف عشيرتها الصغيرة واجتذاب الزبائن وذلك بأن لا تبرح مكانها وإن بلغ بها في الغالب أن لا تحصل على نتيجة ما بذلت من جهد، وكانت تترجمه خطأ بعبارة «التزاماً بالمبدأ»، إنّما كان يعني فقط «بصورة عامة»، أي باستثناءات كثيرة. فلم تكن السيدة «فيردوران» تحبّ الخروج فحسب، بل كانت تبلغ بالتزامات المضيفة حدّاً بعيداً، فقد كان البرنامج يتضمّن، إن اتفق لها أن استقبلت جماعة على الغداء، فور تناول القهوة والمشروبات الهاضمة ولفائف التبغ (وعلى الرغم من الاسترخاء الأول وليد الحرّ والهضم والذي لعلّك فضّلت فيه مشاهدة باخرة «جيرسيه» من خلال خضرة الأغصان في الشرفة، تنزلق فوق بريق مينا البحر) سلسلة من النزهات كان المدعوّون في أثنائها يحملون رغماً عنهم، بعدما أُجلسوا عنوة في العربة، إلى هذا المطلّ أو ذاك، وهي كثيرة جداً حول «دوفيل». ولم يكن هذا القسم الثاني من الاحتفال (بعدما بذلت جهدك في النهوض والصعود إلى العربة) لم يكن القسم الذي يسرّ المدعوّين أقلّ ما يسرّهم وقد أُعدّوا نفسياً جرّاء الأطباق اللذيذة أو الخمور النفيسة أو شراب التفّاح الفوّار كي يستسلموا بيسر للنشوة المنبعثة من نقاوة الأنسام وروعة المناظر. وكانت السيدة «فيردوران» تنظّم زيارة تلك المواقع للغرباء كما لو كانت أماكن (قريبة أو بعيدة) ملحقة بأملاكها ولا يمكنك الامتناع عن الذهاب لزيارتها ما دمتَ تأتي لتناول الغداء في

منزلها، وما كنت بالمقابل لتعرفها لو لم يُرَحّب بك في منزل المعلّمة. وما كان عزمها على الاستئثار بحقّ تنفرد به على النزهات كما على عزف «موريل»، وعزف «دوشامبر» بالأمس، وإلزام المناظر بأن تؤلّف جزءاً من العشيرة الصغيرة، ما كان على أيّة حال يمثل ما يبدو عليه من استحالة للوهلة الأولى. فقد كانت السيدة «فيردوران» تسخر من غياب الذوق الذي يبديه، حسب رأيها، آل «كامبرمير» لا في تأثيث «لا راسبلبير» وترتيب الحديقة فحسب، بل في النزهات التي يقومون بها أو يدعون إليها في الجوار. ومثلما ترى أن «لا راسبلبير» ما بدأت تضحي ما كان ينبغي أن نكون عليه إلا منذ أصبحت منتجعاً للعشيرة الصغيرة، كذلك كانت تؤكد أنّ آل «كامبرمير» كانوا يسكنون المنطقة بصورة دائمة ولكنّهم لا يعرفونها إذ هم يقطعون على الدوام بعربتهم وعلى طول السكّة الحديدية على شاطئ البحر الطريق الشنيعة الوحيدة الكائنة في المناطق المحيطة. وكان في ذلك الادعاء شيء من الصحّة. فلم يكن آل «كامبرمير» يغادرون منزلهم إلا ليمضوا دوماً إلى الأماكن نفسها وفي الدروب نفسها، بداعي الروتين أو غياب الخيال أو اللافضول إزاء منطقة تبدو مطروقة لأنّها قريبة جداً. كانوا يسخرون بالتأكيد من ادّعاء آل «فيردوران» بأنّهم يعلّمونهم منطقتهم. ولكنّهم لو أُحرجوا لعجزوا هم وحتّى حوذيّهم عن اصطحابنا إلى الأماكن الرائعة الخفيّة بعض الشيء التي يأخذنا إليها السيد «فيردوران» فيرفع هنا حاجز ملك خاص ولكنه مهجور وما كان غيره يظنّ بوسعه أن يغامر في الدخول إليه، وهناك ينزل من العربة ليسير في درب لم يكن صالحاً لسير العربات، ولكنّما كلّ ذلك تصحبه المكافأة الأكيدة المتمثّلة في مشهد ساحر. ولنقل على أيّ حال أن حديقة «لا راسبلبير» كانت تختصر نوعاً ما كلّ النزهات التي يمكن القيام بها على مسافة كيلومترات كثيرة في المنطقة المحيطة. أولاً بسبب موقعها المشرف الذي يطلّ من جهة على الوادي ومن الأخرى على البحر، ثم لأنّ ثمّة، حتّى من جهة واحدة، جهة البحر على سبيل المثال، فرجات كانت شُقّت وسط الأشجار حتى لتشهد من هنا

هذا الأفق ومن هناك ذاك الآخر. وكان في كلّ من تلك المطلّات مقعد، وكانوا يُقبلون للجلوس بالتناوب على هذا الذي تكشف منه «بالبيك» أو «بارفيل» أو «دوفيل». وكانوا قد وضعوا حتى في الاتجاه نفسه مقعداً يقرب أن يكون عمودياً على الجرف أو متراجعاً عنه قليلاً. كان لديك من هذين المقعدين طليعة أولى من الخضرة وأفق يبدو مذ ذاك أوسع ما يكون ولكنّه كان يتعاظم إلى ما لا نهاية إن واليت السير على درب صغير فمضيت حتى المقعد التالي حيث يحيط النظر بكامل دائرة البحر. من هنا كنت تسمع ضجّة الأمواج التي ما كانت تصل بعكس ذلك إلى الأقسام الأكثر إيغالاً في الحديقة حيث لا يزال الموج ماثلاً للعيان ولكنّك لا تسمعه. كانت أماكن الاستراحة هذه تحمل بالنسبة إلى صاحبي المنزل في «لا راسبليير» اسم «المطلّات». ولقد كانت بالفعل تجمع حول القصر أجمل المطلّات على المناطق المجاورة أو الشواطئ أو الغابات، وتشاهد مقلّصة جداً جرّاء البعد، مثلما سبق أن جمع «هدريانوس» في دارته مجسّمات مصغّرة عن الأبنية الأثريّة الأوفر شهرة في مختلف المناطق. أما الاسم الذي كان يعقب كلمة «المطلّ» فلم يكن اضطراراً اسم مكان على الشاطئ، بل في الغالب على الضفّة المقابلة من الخليج، وكنت تكتشفها وقد حافظت على شيء من التضاريس على الرغم من اتّساع المنظر الشامل. ومثلما كنت تأخذ مجلّداً في مكتبة السيد «فيردوران» لتمضي إلى ساعة قراءة في «مطلّ بالبيك» كذلك كنت تمضي، إن كان الوقت صحواً، لتناول مشروبات مقبّلة في «مطلّ ريفبيل»، ولكن بشرط أن لا تكون الرياح قويّة جداً إذ كان الهواء هناك قارساً على الرغم من الأشجار التي زرعت على كلّ جانب. نعود الآن إلى النزهات التي كانت السيدة «فيردوران» تنظّمها في العربات بعد الظهر، فقد كانت المعلّمة تتظاهر أنّها في قمّة السعادة إن وجدت لدى عودتها بطاقات أحد أرباب المجتمعات «لدى مروره العابر على الشاطئ»، ولكنّها كانت مغتمّة لما فاتتها زيارته فكانت تسارع (مع أنّهم لا يجيئون بعد إلّا لمشاهدة «البيت» أو التعرّف يوماً

واحداً على امرأة صاحبة منتدى فنّي شهير ولكنّما يصعب ارتياده في باريس) إلى دعوته على يد السيد «فيردوران» للمجيء لتناول طعام العشاء يوم الأربعاء التالي. ولمّا كان السائح مضطراً في الغالب إلى العودة قبل ذلك أو هو يخشى العودة متأخراً فقد كانت السيدة «فيردوران» قد وافقت على أنّهم سيلقونها نهار السبت دوماً ساعة العصرونيّة. ولم تكن حفلات العصرونية تلك كثيرة وسبق أن عرفت في باريس ما كان أكثر روعة في منزل الأميرة «دو غيرمانت» وفي منزل السيدة «دو غاليفيه» أي السيدة «دارباجون». ولكنّما المكان هنا ليس بالطبع باريس من بعد، وإن سحر المحيط لم يكن يؤثر في نظري في محض بهجة اللقاء، بل في نوعيّة الزوّار. فإن التقاء رجل مجتمعات، وما كان ليورثني في باريس أيّ متعة ولكنّه في «لا راسبلبير» التي جاءها من بعيد مروراً بـ«فيتيرن» أو بغاية «شانتبي»، يتغيّر طابعاً وأهميّة، كان يضحي حدثاً ممتعاً. وكان أحياناً واحداً أعرفه تمام المعرفة وما كنت لأقوم بخطوة واحدة للقائه في منزل آل «سوان». بيد أن اسمه كان له رنّة مختلفة فوق هذا الجرف، كما هو اسم ممثّل تسمعه كثيراً في المسرح وقد طُبِعَ بلون آخر في الإعلان المخصّص لحفلة تمثيليّة استثنائية واحتفالية تتعاظم فيه شهرته فجأة من جرّاء السياق اللامتوقّع. ولمّا كان الناس في الأرياف لا يقيّدون أنفسهم فإن رجل المجتمعات كان يأخذ على عاتقه في الغالب اصطحاب الأصدقاء الذين يقطن عندهم مؤكداً بصوت خافت للسيدة «فيردوران» على سبيل الاعتذار أنّه لا يستطيع التخلّي عنهم وهو يسكن في بيتهم، فيما يتظاهر في المقابل بأنّه يوفر لهؤلاء المضيفين نوعاً من المجاملة في اطلاعهم على هذا النوع من التسلية في حياة الشاطئ الرتيبة، تسلية قوامها الذهاب إلى وسط يتّسم بالطرافة وزيارة مسكن رائع والحصول على عصرونية ممتازة. وكان ذلك يؤلّف في الحال اجتماعاً لبضعة أشخاص متوسّطي القيمة. ولئن اكتست حديقة صغيرة جداً تؤلفها بضع شجرات، وربما بدت غير ذات بال في الريف، سحراً فريداً في شارع «غبرييل» أو شارع «دومونسو» حيث يتيسّر

لأصحاب الملايين الكثيرة فحسب أن يقتنوها، فإن سادة هم بالعكس من النسق الثاني في أمسية باريسيّة كانوا يكتسبون كامل قيمتهم عصر الاثنين في «لا راسبلبير». فما إن يجلس هؤلاء المدعوّون حول الطاولة التي يغطّيها سماط مطرّز بالأحمر ويُقَدّم لهم عليها تحت الفرجات المتدرّجة اللون الكعك والحلوى النورمانديّة المورّقة وفطائر على شكل قوارب مملوءة بكرز كأنّه درّ مرجاني وحلوى البودينغ حتّى يطرأ عليهم جرّاء الاقتراب من الكوب اللازوردي العميق الذي تنفتح عليه النوافذ ولا سبيل لرؤيته إلّا وإيّاهم، تغيّرٌ وتحوّل عميق كان يقلبهم شيئاً أكثر نفاسة. ثم إن القوم، حينما يجيئون يوم الاثنين إلى منزل السيدة «فيردوران»، ولم تكن لهم في باريس سوى نظرات أتعبتها العادة يلقونها على العربات الأنيقة المتوقّفة أمام أحد الفنادق الفخمة، كانوا حتى قبلما يرونها يحسّون قلوبهم تخفق لدى رؤية النجّادتين أو الثلاث المهلهلة المتوقّفة أمام «لا راسبلبير» تحت الصنوبرات الكبيرة، وما ذلك دونما شكّ إلّا لأن الإطار الريفي كان مختلفاً وأن الانطباعات المجتمعيّة كانت تعود فتصبح أكثر جدّة بفضل هذا الانتقال. وكذلك لأن العربة المهلهلة التي يستقلّونها للذهاب لزيارة السيدة «فيردوران» كانت تذكّر بنزهة جميلة «وسعر مقطوع» مكلف اتُّفِقَ عليه مع حوذيّ سبق أن طلب «هذا القدر» في اليوم. لكنّما الفضول المشوب بشيء من الانفعال إزاء الوافدين، ويستحيل بعدُ تمييزهم، كان ناجماً كذلك عن أنّ كلاً كان يتساءل: «من يكون هذا؟» والسؤال كان يصعب الإجابة عنه، إذ لا تعلم من أمكن أن يجيء لقضاء ثمانية أيام لدى أسرة «كامبرمير» أو في مكان آخر، ويحبّ المرء أن يطرحه على ذاته في مناطق العيش الريفي المنعزل حيث يكفّ التقاء شخص لم نره منذ فترة طويلة، أو التعريف بشخص لا نعرفه، عن كونه ذاك الأمر المملّ الذي يشكّله في حياة باريس ويقطع بصورة تَلَذُّذَ جوّ الفراغ في الحيوات المفرطة في عزلتها التي تضحي فيها ساعة البريد ذاتها ممتعة. وفي اليوم الذي جئنا فيه بالسيارة إلى «لا راسبلبير» لا بدّ أن السيد والسيدة «فيردوران»، إذ لم يكن يوم

الاثنين، كانا نهب تلك الحاجة إلى التقاء الناس التي تقلق الرجال والنساء وتبعث في نفس المريض الذي حُجِرَ عليه بعيداً عن ذويه من أجل استشفاء بالعزلة الرغبةَ في إلقاء نفسه من النافذة. ذلك لأن الخادم الجديد ذا القدمين الأوفر سرعة والذي ائتلف تلك التعابير إذ أجاب أن «السيدة إن لم تكن خرجت فلا بدّ أنها في مطلّ «دوفيل» وأنّه ماض ليرى»، فقد عاد في الحال يقول لنا إنّها ستستقبلنا. ووجدناها مشعّثة الشعر قليلاً إذ كانت تعود من الحديقة وخمّ الدجاج والمبقلة حيث ذهبت لتطعم طواويسها ودجاجاتها وتجلب البيض وتقطف الفاكهة والزهور «لتعدّ دربها الزخرفي فوق الطاولة»، درباً يذكّر بصورة مصغّرة بدرب الحديقة، بيد أنّه كان يوفّر على الطاولة هذه العلامة المميّزة بأنه لا يحمّلها مجرّد أشياء مفيدة وصالحة للأكل، فمن حول هبات الحديقة الأخرى التي تؤلّفها ثمار الإجاص وبياض البيض المخفوق كانت ترتفع سوق أزاهير الأفعى والقرنفل والورد وزهر البقّ، ومن خلالها تبصر، وكأنّما بين أوتاد اتجاه مزهرة، تبصر من زجاج النافذة المراكب في أعلى البحر تنتقل الهوينى. واتضح لي من الدهشة التي أبداها السيد والسيدة «فيردوران» بتوقفهما عن ترتيب الأزهار لاستقبال الزائرين المعلن عنهما حينما تبيّن لهما أنّ هذين الزائرين إن هما إلّا أنا و«ألبيرتين»، اتّضح لي أن الخادم الجديد الذي يفيض حماسة ولكنّما لم يكن اسمي بعدُ مألوفاً لديه قد أخطأ في ترداده وأن السيدة «فيردوران»، إذ تناهى إلى مسمعها اسم ضيفين مجهولين، قد أمرت مع ذلك بإدخالهما لمّا كانت بحاجة إلى لقاء أي شخص كان. أمّا الخادم الجديد فكان يتأمّل هذا المشهد على الباب كي يكون على بيّنة من الدور الذي ننهض به في البيت. ثم ابتعد جرياً يخطو خطى واسعة إذ لم يكن قد عُيّن إلا البارحة. وبعدما أرت «ألبيرتين» قلنسوتها وثوبها الرقيق لآل «فيردوران» رمتني بنظرة تذكّرني بها أنّه لم يكن أمامنا وقت قصير إزاء ما كنّا راغبين أن نقوم به. كانت السيدة «فيردوران» تودّ أن تنتظر العصرونية ولكننا رفضنا حينما انكشف فجأة مشروع ربّما كان قضى على جميع المتع

التي كنت أمنّي النفس بها من نزهتي بصحبة «ألبيرتين»: فالمعلّمة كانت تريد العودة معنا إذ لم تستطع أن تحمل النفس على فراقنا أو ربّما على الإفساح لتسلية جديدة بأن تفوتها. وإذ تعوّدت منذ فترة طويلة أن لا تحمل عروض من هذا القبيل من جانبها أيّةَ مسرّة ولم تكن على الأرجح متيقّنة أن هذا العرض سوف يولينا سروراً فقد أخفت تحت فيض من الثقة بالنفس الخجل الذي تحسّه بتوجيهه لنا وإذ لم يبدُ حتّى أنها تفترض إمكان وجود شك بجوابنا فإنّها لم تطرح علينا أيّ سؤال بل قالت لزوجها وهي تكلّمه عن «ألبيرتين» وعنّي وكأنّما تولينا منّة: «سوف أعيدهما أنا!» وارتسمت في الوقت نفسه على فيها ابتسامة ما كانت تخصّها هي ابتسامة سبق أن رأيتها لبعض الناس وهم يقولون لـ«بيرغوت» بلهجة رقيقة: «لقد اشتريت كتابك، يا حُسْنه»، واحدة من تلك الابتسامات الجماعية الكليّة التي يستخدمها الأفراد حينما يحتاجون إليها - مثلما يستخدمون السكّة الحديديّة وعربات نقل الأثاث - ما عدا بعضاً منهم من أكثرهم رهافة، من أمثال «سوان» أو السيد «دو شارلوس»، من الذين لم أشاهد يوماً تلك الابتسامة تحطّ على شفاههم. ومذ ذاك فسدت زيارتي، وتظاهرت بأني لم أفهم. وأصبح واضحاً بعد هنيهة أن السيد «فيردوران» سيحضر بدوره. فقلت: «ولكن ذلك سيطول بالنسبة إلى السيد «فيردوران». وأجابت السيدة «فيردوران» بلهجة المُتَفَضّل المبتهج: «لا، لا، فإنه يقول إنّه سيسرّه كثيراً أن يقطع مع هذه الشبيبة ذاك الطريق الذي ما أكثر ما قطعه فيما مضى. وإن دعت الحاجة جلس إلى جانب السائق فليس يفزعه ذلك، ثمّ نعود كلانا بهدوء في القطار كما يفعل الأزواج المحمودو السيرة. هيّا انظرا، فهو يبدو شديد الاغتباط». كان يبدو وكأنها تتحدّث عن رسام كبير عجوز يفيض طيبة يبني مسرّته، وهو أكثر شباباً من الشباب، على «خربشة» صور لإضحاك أحفاده. وما كان يزيد من غمّي أنْ كانت «ألبيرتين» تبدو كأنّها لا تشاطرني إيّاه وتجد متعة في الطواف على هذا النحو مع الزوجين «فيردوران» في كلّ المنطقة. أمّا أنا، فإن المتعة التي منّيت النفس بأن

أصيبها معها كانت ملحّة إلى حدّ أني لم أشأ أن أفسح للمعلّمة في مجال تخريبها. واختلقت أكاذيب كانت تهديدات السيدة «فيردوران» المغيظة تبرّرها، ولكن «ألبيرتين» للأسف، كانت تكذّبها. فقد قلت: «ولكن علينا أن نقوم بزيارة». فسألتْ «ألبيرتين»: «أيّة زيارة؟» - «سوف أوضح لك، لا بدّ من ذلك». وقالت السيدة «فيردوران» وقد سلّمت بكلّ شيء: «إذاً سوف ننتظركما». وبعث في نفسي في آخر المطاف قلقي من أن أحسّ سعادة مشتهاة إلى هذا الحدّ تنتزع منّي الشجاعة في أن أبدو عديم التهذيب. فرفضت رفضاً قاطعاً وهمستُ في أذن السيّدة «فيردوران» متذرعاً بأنّه لا بدّ من بقائي وحيداً مع «ألبيرتين» بسبب غمٍّ ألمّ بها وهي راغبة أن تستشيرني حوله. واتّخذت المعلّمة مظهراً مغضباً وقالت لي بصوت يهدّجه الغيظ: «حسن، لن نجيء». وأحسستها مغتاظة إلى حدّ أني قلت بغية أن أبدو وكأني أتراجع قليلاً: «ولكن ربّما كان بوسعنا...» فأردفت تقول متزايدة الحنق: «لا، وحينما أقول لا فأعني لا». وظننتني اختصمت وإيّاها ولكنّها استدعتنا من الباب كي توصينا بأن لا «نُخلف الوعد» يوم الأربعاء في الغد وأن لا نحضر بهذا «الشيء» الذي يشكّل خطراً في الليل، بل بالقطار مع كامل المجموعة الصغيرة؛ وأمرت بإيقاف السيّارة وقد تحرّكت في ممرّ الحديقة المتّجه نزولاً لأن الخادم الجديد نسي أن يضع في الغطاء قطعة الفطيرة ومرملات الحلوى التي كانت لفّتها لنا. وعدنا تواكبنا فترة قصيرة البيوتُ الصغيرة التي سارعت إلينا بأزهارها. وبدا لنا شكل المنطقة وقد تغيّر كليّاً لفرط ما يبدو أن مفهوم المكان في الصورة الطوبوغرافية التي نكوّنها عن كلّ منها بعيد عن أن يكون المفهوم الذي ينهض بالدور الأعظم. وقلنا إن مفهوم الزمان يباعدها أكثر. ولكنّه ليس الوحيد بدوره. فإن بعض الأماكن التي نراها على الدوام معزولة تبدو لنا وكأنّما تفوق كلّ ما عداها، كأنّما هي خارج العالم تقريباً، كمثل أولئك الناس الذين عرفناهم في فترات منفصلة من حياتنا، في الجيش، في زمن الطفولة، ولا نربط بينها وبين أيّ شيء آخر. كان ثمّة في السنة الأولى

لإقامتي في «بالبيك»، مرتفع تحبّ السيدة «دو فيلباريسيس» أن تصحبنا إليه إذ كنتَ لا ترى من هناك سوى الماء والأحراج، وكان يدعى «بومون». وبما أنّ الطريق الذي كانت تأمر بسلوكه للوصول إليه، وتراه من أجملها بسبب أشجاره العتيقة، كان في صعود مستمرّ فقد كانت عربتها مضطرّة للسير الهوينى فتستغرق وقتاً طويلاً جداً. وما إن تصل إلى فوق حتّى كنا ننزل ونتنزه قليلاً ثمّ نستقلّ العربة ثانية ونعود في الدرب نفسه دون أن نصادف أيّة قرية وأيّ قصر. كنت أعرف أن «بومون» شيء غريب جداً، بعيد جداً، عالٍ جداً، ولكنّما لا فكرة لديّ البتّة عن الجهة التي يقوم فيها إذ لم أسلك في يوم طريق «بومون» للذهاب إلى مكان آخر، وكنّا بأيّة حال ننفق وقتاً طويلاً في العربة لبلوغه. كان الموقع بالطبع جزءاً من مقاطعة «بالبيك» نفسها، ولكنّه في نظري واقع في مستوى آخر ويتمتع بميزة الأرض الخارجة عن حكم المحيط. ولكن السيارة التي لا تحترم أيّ سرّ وبعد أن تجاوزت «أنكرفيل» التي كانت بيوتها ما تزال تسكن عينيّ، وإذ كنّا نسلك المنحدر المختصر الذي يفضي إلى «بارفيل» وأبصرت البحر من سطح كنّا عليه سألت كيف يدعون هذا المكان وتعرّفت، حتى قبل أن يجيبني السائق «بومون» الذي كنت أمرّ هكذا بجانبه دون أن أعرفه في كلّ مرّة كنت أستقلّ فيها القطار الصغير، إذ كان على مدى دقيقتين من «بارفيل». وكمثل ضابط في كتيبتي كان بدا لي كائناً خاصّاً، مفرط الطيبة والبساطة كما يكون من أسرة كبيرة، مفرط البعد كثير الأسرار كي يكون فقط من أسرة كبيرة، ثم عرفت أنّه صهر أو ابن عمّ لهؤلاء أو أولئك ممّن كنت أتناول طعام عشائي معهم في المدينة، كذلك فقد «بومون» الذي ارتبط فجأة بأمكنة كنت أظنه مختلفاً تمام الاختلاف عنها، فقد سرّه واتّخذ مكانه داخل المنطقة وجعلني أفكّر بهلع أن «مدام بوفاري» و«لا سانسيفيرينا» ربّما كانتا بدتا لي امرأتين شبيهتين بغيرهما لو أني التقيتهما في غير جوّ الرواية المغلق. وربّما بدا أن عشقي للرحلات التي تفتن الألباب بالسكك الحديدية كان لا بدّ أن يحول دون مشاطرتي «ألبيرتين»

افتتانها أمام السيارة التي تحمل حتى مريضاً إلى حيث يشاء وتحول دون احتساب الموقع كما سبق أن فعلت حتى ذاك - بمثابة العلامة الفرديّة والجوهر الذي لا بديل له للجمالات التي لا تحول ولا تزول. ذاك الموقع دون شك ما كانت السيارة تجعل منه، مثلما السكة الحديدية بالأمس حين جئت من باريس إلى «بالبيك»، هدفاً متحرّراً من طوارئ الحياة العاديّة، يقرب أن يكون مثاليّاً لدى الرحيل ويبدو إذ يلبث على حاله تلك عند الوصول، الوصول إلى هذا المسكن الكبير الذي لا يقطنه أحد ويحمل فحسب اسم المدينة، عنينا المحطّة، وكأنّه يعد بإمكان الوصول إليها كما ربّما كانت هي تجسيداً له. لا، لم تكن السيارة تأخذنا على هذا النحو المسحور إلى مدينة كنّا نراها بادئ الأمر ضمن المجموعة التي يختصرها اسمها وبأوهام المشاهد في القاعة. لقد كانت تُدخلنا في كواليس الشوارع وتتوقّف لتسأل أحد السكّان بعض المعلومات. ولكنّ لدينا في ما يقابل هذا التقدّم المألوف إلى هذا الحدّ تلمّسات السائق الحائر في طريقه والذي يعود خطاه القهقرى، وتقاطعات المنظور التي تدفع قصراً إلى لعبة الزوايا الأربع مع هضبة وكنيسة والبحر فيما نقترب منه على الرغم ممّا يختبئ عبثاً تحت ظلال شجره العتيق، وتلك الدوائر التي تضيق أكثر فأكثر والتي تخطّها السيارة حول مدينة مفتونة كانت تهرب في كلّ صوب كي تفلت منها والتي تنقضّ عليها في نهاية المطاف بخطّ مستقيم عمودي إلى قعر الوادي حيث تظلّ مطروحة أرضاً. وهكذا فإن هذا الموقع، وهو النقطة الوحيدة التي يبدو أن السيارت جرّدتها من أسرار القطارات السريعة، إنّما تولينا هذه النقطة على العكس انطباعاً باكتشافه وبتحديدنا له وكأنّما بفرجار وبمساعدتنا على أن نتحسّس بيد تكتشف بحبّ أعظم ودقّة أوفر هندسة الأرضَ الحقيقيّة ومقاسها الجميل.

ما كنت أجهله لسوء الحظّ في تلك الفترة ولم أطّلع عليه إلا بعد نيّف وسنتين أن أحد زبائن السائق كان السيد «دو شارلوس» وأنّ «موريل» المكلّف بأن يدفع له والذي كان يحتفظ لنفسه بجزء من المال (وذلك بحثّ

السائق على مضاعفة عدد الكيلومترات ثلاث مرّات وخمس مرّات) كان قد ارتبط بعلاقة وثيقة معه (فيما يظهر بمظهر من لا يعرفه في حضرة الناس) وكان يستخدم سيارته في مشاوير بعيدة. ولو أني عرفت ذلك في حينه وأن الثقة التي سرعان ما وضعها آل «فيردوران» في ذلك السائق إنّما كانت ناجمة عن ذاك دون علم منهم لكنت تفاديت الكثير من غموم حياتي في باريس في السنة التالية والكثير من المصائب المتعلّقة بـ«ألبيرتين»، ولكنّي ما كنت أرتاب بالأمر البتّة. لم تكن نزهات السيد «دو شارلوس» بصحبة «موريل» بالسيارة، لم تكن في حدّ ذاتها موضع اهتمام خاص بالنسبة إليّ. فقد كانت تقتصر على أيّة حال في الغالب على غداء أو عشاء في مطعم على الشاطئ يحسبون السيد «دو شارلوس» فيه خادماً عجوزاً مفلساً و«موريل» المكلّف دفع الحساب نبيلاً مفرط الطيبة. وسأروي عن واحدة من تلك الوجبات يمكن أن تزوّد بفكرة عن الأخريات. كان ذلك في مطعم مستطيل الشكل في «سان مارس لوفيتو». «ألا يمكن رفع هذه؟» قال السيد «دو شارلوس» لـ«موريل» وكأنّما لوسيط وكي لا يوجّه الكلام إلى النادل مباشرة. وكان يعني بـ«هذه» ثلاث وردات ذابلة ظنّ رئيس خدم حسن النيّة من واجبه أن يزيّن بها الطاولة. فأجاب «موريل» مربكاً: «بلى.. ألا تحبّ الورود؟» - «ربّما برهنت على العكس بالطلب الذي تقدّمت به أن أحبّها إذ ليس من ورود هنا (وبدت الدهشة على «موريل»). على أني في الحقيقة لا أحبّها كثيراً. وإني أتأثّر بالأسماء إلى حدّ ما، فما أن تكون وردة على شيء من الجمال حتى تعلم أنها تدعى «**البارونة دو روتشيلد**» أو «**الماريشالة نييل**»، الأمر الذي يوليك فتوراً. هل تحبّ الأسماء؟ وهل لقيت عناوين حلوة لمقطوعاتك الموسيقيّة الصغيرة؟» - «هناك واحدة تدعى «**قصيدة حزينة**». فأجاب السيد «دو شارلوس» بصوت حادّ مفرقع مثلما الصفعة: ذلك مروّع. ولكنّي كنت طلبت شمبانيا؟» يقول لرئيس الخدم الذي ظنّ أنّه يجيء بشيء منها وهو يضع إلى جانب الزبونين كوبين من النبيذ الفوّار. - «ولكن يا سيّد..» - «أبْعِد هذا القرف الذي لا علاقة له بأردأ الشمبانيا.

إنّه المقيّئ الذي يسمّونه «كب» (cup) والذي يلقون فيه بعامّة ثلاث حبّات من توت الأرض متعفّنة في مزيج من الخلّ وماء «سيلتز». . . » وأردف قوله وهو يستدير صوب «موريل»: «أجل، يبدو أنّك تجهل ما عسى يكون العنوان. وحتّى في تنفيذ ما تعزفه أفضل ما يكون العزف يبدو أنّك لا تتبيّن الجانب الوسيطي في الأمر» وسأل «موريل»: «ماذا تقول؟»، وقد خشي، بعدما لم يفهم شيئاً مما قاله البارون، أن يفوّت على نفسه معلومة مفيدة من قبيل دعوة على الغداء على سبيل المثال. ولمّا أحجم السيد «دو شارلوس» عن اعتبار «ماذا تقول؟» بمثابة سؤال فقد ظنّ «موريل» إذ لم يصله بالنتيجة جواب، ظنّ من واجبه تغيير الحديث وإعطاءه طابعاً شهوانياً: «هيّا انظر، الشقراء الصغيرة التي تبيع تلك الزهور التي لا تحبّها، فهذه واحدة أيضاً لديها بالتأكيد صديقة صغيرة. وكذلك العجوز التي تتناول عشاءها على طاولة الركن القصيّ». وسأل السيد «دو شارلوس» وقد أدهشه علم «موريل» المسبق بالأمور: «ولكن كيف تعلم كلّ هذا الشيء؟» - «آه! أحزرهنّ في مدى ثانية. ولو تجوّلنا كلانا داخل جمهور من الناس لرأيت أنّني لا أخطئ مرّتين». ولعلّ من كان شهد «موريل» في تلك اللحظة بمظهره البنّوتيّ في إطار جماله الذكوري، لعلّه كان أدرك العرافة الغامضة التي كانت تدلّ بعض النساء عليه أقلّ مما تدلّه عليهن. كان يصبو إلى الحلول محلّ «جوبيان»، وبه رغبة غامضة في أن يضيف إلى مُرتّبه الثابت الدخولَ التي يستجرّها صانع الصداري، فيما يظنّ، من البارون. «أمّا بخصوص الفتيان الذين تتعهّدهم عشيقاتهم فإني أكثر خبرة بأمورهم وسوف أجنّبك الأخطاء جميعها. وعمّا قليل يقام المعرض في «بالبيك»، وسوف نلقى أشياء كثيرة؛ ناهيك عن باريس حيث سترى أنّك واجد صنوفاً من اللهو». ولكن حذر الخادم الوراثي جعله يعطي الجملة التي كان آخذاً بها منحى آخر، حتّى ظنّ السيد «دو شارلوس» أن الأمر ما زال يدور حول الفتيات. وقال «موريل» وهو راغب في إثارة حواس البارون بطريقة يظنّها أقلّ توريطاً له (مع أنّها في الواقع أكثر إغراقاً في اللاأخلاق): «تدري،

حلمي أن ألقى فتاة طاهرة جدّاً وأن أحملها على حبّي ثمّ أسلبها عذريّتها». ولم يملك السيد «دو شارلوس» نفسه عن فرك أذن «موريل» برقّة، ولكنّه أضاف بسذاجة: «وما عساك تفيد من ذلك؟ إن سلبتها بكارتها فستضطرّ أن تتزوّجها». وصاح «موريل» قائلاً: «أتزوّجها؟»، وهو يحسّ أن البارون قد انتشى، أو هو ما كان يفكّر أنّ الرجل الذي يتحدّث إليه هو بإجمال القول أكثر تحسّباً للأخلاق مما يظنّ، «أتزوّجها؟ هراء! ربّما وعدت بذلك، ولكن ما إن تتمّ العملية الصغيرة على ما يرام حتى أهجرها في المساء نفسه». كان السيد «دو شارلوس» قد تعوّد، حينما يستطيع وهمٌ ما أن يتسبّب له بمتعة حسيّة مؤقتة، أن يوافق عليه، على أن يسحب موافقته كاملة بعد انقضاء لحظات على نفاد المتعة. وقال لـ«موريل» وهو يضحك ويشدّه أكثر فأكثر إليه: «أحقّاً تفعل ذلك؟» - «بالطبع أفعل! يقول «موريل» وهو يرى أنه ما كان يسوء في عين البارون وهو ماضٍ في شرح صادق لما كانت بالفعل إحدى رغباته. وقال السيد «دو شارلوس»: «هذا أمر وبيل العاقبة». - «أحزم حقائبي سلفاً وأطلق ساقيّ للريح دون أن أترك عنواناً». وسأل السيد «دو شارلوس»: «وأنا؟» وسارع «موريل» يقول: «أصطحبك معي بالطبع»، وما كان فكّر بما يصير إليه البارون الذي كان أقلّ ما يهتمّ له. - «اسمع، ثمّة صغيرة قد تروقني كثيراً لذلك، إنّها خياطة صغيرة دكّانها في فندق السيد الدوق». وصاح البارون فيما كان الساقي يدخل: «ابنة جوبيان»! وأضاف يقول: «لا! على الإطلاق!» إمّا لأن وجود شخص ثالث ربّما بعث فتوراً في نفسه، وإمّا لأنّه ما كان ربّما يستطيع عقد العزم على إقحام أشخاص يكنّ لهم مشاعر الصداقة في مثل هذه الطقوس السوداء التي كان يحلو له فيها تدنيس أكثر الأمور قدسيّة، إن «جوبيان» رجل طيّب القلب والصغيرة رائعة ومن الشنيع أن نغمّهما». وأحسّ «موريل» أنّه تمادى فسكت، ولكنّ عينه والت في الفراغ التحديق بالفتاة التي ودّ ذات يوم أن أدعوه في حضرتها «بالفنّان العزيز العظيم» والتي أوصى لديها بصدريّة. وما كانت الصغيرة، وهي عظيمة الجدّ في عملها،

قد أفادت من عطلتها، ولكنّي علمت مذ ذاك أنّها لم تكفّ، فيما كان عازف الكمان في جوار «بالبيك»، عن التفكير بمحيّاه الجميل وقد أولاه نبلاً أنّها بعدما رأت «موريل» بصحبتي حسبته أحد «السادة».

قال البارون: «ما سمعت «شوبان» يُعزَف في يوم، مع أني ربّما وسعني ذلك، فقد كنت أتلقّى دروساً لدى «ستاماتي»، ولكنّه منعني من الذهاب لسماع سيّد «**الليليّات**» في منزل عمّتي «شيميه». فصرخ «موريل» قائلاً: «أيّة حماقة ارتكب!» وردّ السيد «دو شارلوس» بصوت عنيف حاد: «بالعكس، كان يقيم برهاناً على ذكائه، فقد أدرك أنني «طبيعة» مميّزة وأنني قد أقع تحت تأثير «شوبان». ولكن لا بأس، بما أني هجرت الموسيقى صغيراً جداً، كأي شيء آخر على أي حال». وأضاف يقول بصوت أخن مبطأ متهالك: «ثم إنّك تتخيّل الأمر قليلاً، فثمّة على الدوام أناس سمعوا، ويزوّدونك بفكرة. على أنّ «شوبان» كان حجّة فحسب للعودة إلى الجانب الوسيطي الذي تهمله».

نلاحظ أن لغة السيد «دو شارلوس»، بعد إدراجه للغة العاميّة، عادت فجأة فأصبحت يمثل تصنّعها وتعاليها المعتادين. ذلك لأن الفكرة التي مفادها أن «موريل» قد يهجر دون تبكيت من ضمير فتاة اغْتُصِبَتْ أذاقته فجأة متعة كاملة. وقد هدأت حواسّه مذ ذاك بعض الوقت وولّى الساديّ هارباً (هو الوسيطي حقّاً) ذاك الذي كان حلّ على مدى لحظات محل السيد «دو شارلوس» وأعاد الكلام للسيد «دو شارلوس» الحقيقي الذي يفيض رقّة فنيّة وحساسيّة وطيبة. «لقد عزفتَ ذاك اليوم نَسْخَ الرباعيّة الخامسة عشرة على البيانو، وهو بادئ الأمر من اللامعقول إذ ليس ما كان أقلّ موافقة للبيانو. وقد صُمِّمَ للناس الذين ترهق آذانهم أوتار الأطرش العظيم التي بولغ في شدّها، ولكنّما تلك الصوفيّة بالضبط، ويقرب أن تكون مزّة الطَّعْم، هي الإلهيّة. وقد عزفتَها في جميع الأحوال أسوأ عزف بتغييرك لجميع الحركات. ينبغي أن تعزفها كما لو أنّك تؤلّفها: «موريل» الشاب الذي ألمّ به صَمَمٌ وقتيّ وعبقريّة غير موجودة يبقى لحظة دون

حراك؛ ثم يأخذه الهذيان المقدّس فيعزف ويؤلّف المقاطع الأولى؛ وإذ ذاك ينهار وقد خارت قواه جرّاء مباشرة مثل هذا الجهد تاركاً خصلة شعره الجميلة تهوي ليروق السيدة «فيردوران»، ثم إنّه بذلك يستغلّ الوقت ليرمّم الكميّة الهائلة من المادة الرماديّة التي اقتطعها من أجل التجسيد العرافيّ. حينئذ ينطلق، بعدما استعاد قواه وتملّكه وحي جديد فائق، صوب الجملة الرائعة التي لا تنضب والتي سيروح الموسيقار البرليني (ونظن السيد «دو شارلوس» يقصد بذلك «منديلسون») يقلّدها دونما كلل. بهذه الطريقة، وهي وحدها متسامية حقّاً ومحرّكة للنفس، سأجعلك تعزف في باريس. كان «موريل»، حين يقدّم له السيد «دو شارلوس» آراء من هذا القبيل، أشدّ فزعاً من أن يرى رئيس الخدم يحمل معه ورداته وكوبه المزدراة إذ كان يتساءل بقلق أيّ أثر سوف يخلّف ذلك في «حلقة الدارسين». لكنّما لم يكن بوسعه التوقّف عند هذه الأفكار إذ كان السيد «دو شارلوس» يقول له بلهجة الآمر: «اسأل رئيس الخدم إن كان لديه «مسيحيّ» من النوع الصالح» - «مسيحيّ من النوع الصالح! لست أفهم». - «تلاحظ تماماً أننا بمرحلة الفاكهة، فهي إجّاصة إذن. وتأكّد أن السيدة «دو كامبرمير» لديها إجّاص لأن الكونتيسة «ديسكاربنياس»(١) وهي وإيّاها سواء لديها شيء منه. فالسيد «تيبودييه» يبعث به إليها وتقول هي: «هذا من صنف المسيحيّ الصالح وهو جميل جداً» - «لا، ما كنت أعرف» - «أرى على أيّ حال أنّك لا تعرف شيئاً. إن كنت حتّى لم تقرأ «موليير»... هيّا إذاً، بما أنّك لا بدّ لن تحسن الطلب أكثر من غيره فاسألهم فقط إجّاصة يقطفونها بالضبط على مقربة من هنا: «لويزة الطيّبة» من «أفرانش». - «لوي....» - على رسلك، بما أنك أخرق إلى هذا الحدّ فسوف أطلب بنفسي غيرها من التي أفضّلها: يا رئيس الخدم، هل عندك من صنف «دوايێنيه دي

(١) من هزليات الكاتب «موليير» (سيد الكوميديا في القرن السابع عشر) وكان «تيبودييه» يستعين باسم الإجّاص هذا ليعبّر عن حبّه للكونتيسّة ويفعل كالمسيحي الصالح الذي يقابل الشرّ بالخير، فيبعث بالإجّاص فيما تقابله بالجفاء أي الشر.

كوميس»[1]. «شارلي»، هلا قرأت الصفحة الرائعة التي كتبتها الدوقة «اميلي دو كليرمون تونّير» حول هذه الإجّاصة». - «لا، يا سيّد، ليس عندي منها». - «وهل لديك «تريونف جودوانيي»؟ - «لا، يا سيّد». - «ومن صنف «فيرجيني داليه»؟ و«باس كولمار»؟ لا؟ إذاً سوف نمضي بما أنكم لا تملكون شيئاً. إن «دوقة أنغوليم» لم تنضج بعد؛ هيّا، فلنذهب يا «شارلي». إن غياب الحسّ السليم لدى السيد «دو شارلوس»، لسوء حظّه، وربما العلاقة العفيفة التي تربطه على الأرجح بـ«موريل» جعله يسعى جاهداً منذ تلك الفترة لغمر عازف الكمان بألطاف غريبة ما كان بوسع هذا أن يفهمها ولا تستطيع طبيعته، وهي من النوع المجنون، ولكنّها ناكرة للجميل خسيسة، أن تردّ عليها إلّا بجفاء أو عنف متزايدين على الدوام ويُغرقان السيد «دو شارلوس» - وهو شديد الاعتزاز فيما مضى واليوم يمتلئ خجلاً - في نوبات من اليأس الحقيقي. وسوف نرى كيف فهم «موريل»، وهو مَن خال أنّه أضحى «دو شارلوس» آخر ألف مرّة أعظم خطراً، كيف فهم بالمقلوب في أهون الأشياء تعاليم البارون المستكبرة في ما يخصّ الأرستقراطيّة وذلك بأخذها بمعناها الحرفيّ. دعنا نقول الآن فقط، فيما تنتظرني «ألبيرتين» في «سان جان دولاهيز»، إنّه إن كان من أمر يضعه «موريل» فوق الأرستقراطية (والأمر من حيث المبدأ فيه بعض النبل ولا سيّما من جانب من كانت متعته في البحث عن البنات الصغيرات - «لا من رأى ولا من عرف» - مع السائق)، فإنما سمعته الفنيّة وما يمكن أن يراودهم من أفكار في «حلقة الكمان الدراسيّة». وليس من شكّ أنّه من القبح بمكان أن يبدو، لأنه يحسّ السيد «دو شارلوس» ملك يديه، وكأنّه ينكره ويسخر منه، على النحو نفسه الذي عاملني به معاملة الأعلى للأدنى حالما وعدته بالتزام السرّ حول وظيفة والده لدى شقيق جدّي ولكنّما كان

---

(١) آثرنا عدم الترجمة لأخذها مأخذ الاسم العلم والحقيقة أنّ Doyenné des comices تعني «عَمادة جماعات المزارعين» وهي من نوع الإجّاص اللذيذ الذائب. وحكم ما يلي من أصناف حكمها.

اسمه «موريل»، كفنّان يحمل شهادة، كان يبدو له فوق «الاسم». وحينما كان السيد «دو شارلوس» يودّ، في أحلام الوداد الأفلاطونية لديه، أن يحمل «موريل» على اتّخاذ أحد ألقاب أسرته، كان يرفض الأمر رفضاً حازماً.

حينما كانت «ألبيرتين» ترى أن البقاء للرسم في «سان جان دولاهيز» أوفر حكمة، كنت أستقلّ السيارة، وما كان بوسعي الذهاب، قبل العودة لاصطحابها، إلى «غروفيل» و«فيتيرن» فحسب، بل إلى «سان مارس لوفيو» حتى «كريكتو». وفيما كنت أتظاهر بالانشغال عنها بأمور أخرى، وبأني مضطرّ إلى هجرها إلى متع أخرى، كنت لا أفكّر إلا فيها. وكنت في الكثير الغالب لا أمضي أبعد من السهل الكبير الذي يطلّ على «غورفيل»، ولمّا كان يشبه قليلاً السهل الذي يبدأ فوق «كومبريه» باتجاه «ميزيغليز» فقد كان يسعدني التفكير، حتى على مسافة كبيرة إلى حدّ ما من «ألبيرتين»، أنّه إن لم تقوَ نظراتي على الذهاب إلى حيث هي، فإن نسيم البحر القوي العليل هذا الذي يمرّ بجانبي ويمتدّ مداه أبعد منها لا بدّ سينحدر مسرعاً دون أن يثنيه شيء حتى «كيتهولم» ويقبل ليهزّ أغصان الأشجار التي تغمر «سان جان دو لا هيز» بأوراق أغصانها، فيما يداعب محيّا صديقتي ويقيم بذلك بيني وبينها رباطاً مزدوجاً في هذه الخلوة التي تعاظمت إلى ما لا نهاية، ولكن دونما مخاطر كما هي الحال في تلك الألعاب التي يتفق لولدين فيها أن يكون كلّ منهما خارج مرمى صوت وبصر الآخر، ويمكثان فيها على صلة على الرغم من بعد الواحد عن الآخر. كنت أنثني راجعاً في تلك الدروب التي تبصر منها البحر وحيث كنت أغمض عينيّ فيما مضى قبل أن يطلع بين الأغصان كي أفكّر تماماً بأن ما سوف أراه إنّما هو جدّ الأرض الشاكي يوالي، كحاله يوم لم يكن بعد كائنات حيّة، اضطرابه المجنون المغرق في القِدم. أما الآن فلم تعد في نظري سوى وسيلة لموافاة «ألبيرتين». وحينما كنت أتعرّفها مشابهة تماماً لذاتها إذ أعلم إلى أين تعدو في خطّها المستقيم وأين تنعطف كنت أتذكّر أنّي سرت فيها وأنا

أفكّر بالآنسة «دو ستيرماريا» وأن الاستعجال نفسه لالتقاء «ألبيرتين» سبق أن أحسسته في باريس وأنا أنحدر في الشوارع التي تمرّ فيها السيدة «دو غيرمانت»؛ كانت تتّخذ بالنسبة إليّ الرتابة العميقة والدلالة الأخلاقية التي لنوع من الخطّ الذي تتبعه طبائعي. كان ذلك طبيعياً، بيد أنّه لم يكن غير ذي بال؛ فقد كانت تذكّرني أنّ قدري هو ألا ألاحق سوى أشباح، سوى كائنات كانت حقيقتها في جزء كبير منها داخل مخيّلتي. فثمّة بالفعل أناس - وتلك كانت حالي منذ شبابي - لا يقيمون وزناً لكلّ ما يحمل قيمة ثابتة يمكن للغير ملاحظتها: الثروة والنجاح والمراكز العليا. أمّا ما ينبغي لهم فالأشباح. إنهم يضحّون في سبيلها بكلّ ما عداها ويحرّكون كلّ شيء ويوجّهون كل شيء ليفيد في التقاء هذا الشبح أو ذاك. ولكن سرعان ما يتلاشى هذا الأخير. حينئذ يجرون خلف آخر غيره، على أن يعودوا إلى الأول فيما بعد. وما كانت المرّة الأولى التي أسعى فيها إلى «ألبيرتين»، تلك الفتاة التي شاهدتها في السنة الأولى أمام البحر. والحقيقة أنّ أخريات من النساء أدرجن بين «ألبيرتين» التي أحببتها أوّل مرّة وهذه التي أكاد لا أفارقها في هذه الفترة، أخريات من بينهنّ على وجه الخصوص الدوقة «دو غيرمانت». ولكن ربّ قائل يقول لماذا يحمّل المرء نفسه كل هذه الهموم بشأن «جيلبيرت» ويتحمّل كلّ هذا العناء في سبيل السيدة «دو غيرمانت» إن كان ذلك، وقد أضحى صديق هذه الأخيرة، لمحض أن لا يفكّر فيها من بعد بل يقصر التفكير على «ألبيرتين»؟ كان بوسع «سوان» أن يجيب قبل وفاته وهو من كان غاوي أشباح. كانت دروب «بالبيك» تلك مليئة بأشباح تلاحق وتُنْسى ويُسْعَى إليها مجدداً للقاء وحيد أحياناً وبهدف لمس حياة غير حقيقيّة كانت في الحال تمعن في الهرب. كان يبدو لي في تفكيري بأن أشجارها، أشجار الإجّاص والتفاح والطرفاء، سوف تبقى من بعدي، وأنني آخذ منها نصيحة بالانصراف أخيراً إلى العمل ما دامت لم تزف بعد ساعة الراحة الأبدية.

كنت أنزل من السيارة في «كيتهولم» وأجري في الدرب المحفّر الوعر

وأقطع الساقية على لوح من الخشب وألتقي «ألبيرتين» التي كانت ترسم أمام الكنيسة التي كلها قبب صغيرة وهي شائكة حمراء تزهر مثلما شجيرة ورد. وحدها الجبهة المثلّثة كانت صقيلة، وعلى صفحة الحجارة الضاحكة كانت تبرز ملائكة يوالون أمام زوج من ناس القرن العشرين القيام باحتفالات القرن الثالث عشر والشموع بأيديهم. هم من كانت «ألبيرتين» تحاول نقل صورهم على قماش لوحتها المعدّة وتخطّ في تقليدها لـ«إيلستير» ضربات ريشة واسعة تحاول بها الالتزام بالإيقاع السامي الذي يجعل أولئك الملائكة، كما سبق أن قال لها المعلّم الأكبر، شديدي الاختلاف عن كلّ من كان يعرف. ثم كانت تستعيد حاجاتها ونعود فنصعد في الدرب المحفّر وقد مال يتكئ واحدنا على الآخر، تاركين الكنيسة الصغيرة تصغي، بمثل هدوئها لو لم تبصرنا، إلى صوت الساقية الذي لا ينقطع. كانت السيارة تنطلق بعد قليل وتحملنا في العودة على درب غير درب الذهاب، فكنّا نمرّ أمام «مَرْكوفيل المستكبرة». وكانت الشمس الغاربة تلقي على كنيستها التي نصفها جديد والنصف مرمّم طبقة في مثل جمال الطبقة التي يخلّفها الزمان. وكانت النقوش تبدو من خلالها وكأنّها لا تُشاهد إلا تحت طبقة مائعة نصفها سائل والنصف منير. كانت العذراء والقدّيسة «أليصابات» والقديس «يواكيم» يسبحون بعدُ في الموجة المرتدّة العصيّة على اللمس في ما قارب الجفاف، يسبحون على وجه الماء أو وجه الشمس. والتماثيل الحديثة الكثيرة كانت تطلع فجأة في الغبار الساخن وتنتصب فوق أعمدة تبلغ نصف ارتفاع حُجُب الغروب المذهبة، وأمام الكنيسة تبدو شجرة سرو كبيرة وكأنّها في ما يشبه الأرض المسيّجة المكرّسة. وكنا ننزل قليلاً لمشاهدتها ونمشي بضع خطوات. كان لدى «ألبيرتين» شعور مباشر بقلنسوتها القشّ الإيطالية ومنديلها الحرير (وما كانا بالنسبة إليها مركز أحاسيس بالهناء أقلّ) بمقدار وعيها لأعضاء جسمها، ويجيئها منهما، فيما تطوف أرجاء الكنيسة، نوع آخر من الدفع يجسّده ارتياح جامد كنت أراه مع ذلك على لطافة. وما كان المنديل والقلنسوة

سوى جزء حديث طارئ من صديقتي، ولكنّ الجزء كان غالياً عليّ من ذاك وكنت أتعقّب بالعين خطّه على امتداد شجرة السرو في ريح المساء. وما كانت هي نفسها تستطيع رؤية ذلك ولكنّها كانت تشكّ أن هذه الأناقات إنّما تليق بها لأنها كانت تبتسم لي فيما توفّق بين ركيزة رأسها والعمرة التي تكمّلها. وقالت لي: «ليست تعجبني فقد جرى ترميمها»، وهي تدلّني على الكنيسة وتتذكّر ما سبق أن قال لها «إيلستير» عن جمال الحجارة القديمة الثمين الذي يمتنع على التقليد. كان بمقدور «ألبيرتين» أن تتعرّف الترميم في الحال، وما كان يسعك إلّا أن تعجب لسلامة الذوق الذي قد كسبته في فن العمارة في مقابل الذوق الرديء الذي يلازمها في الموسيقى. وما كنت أحبّ تلك الكنيسة كما هو شأن «إيلستير»، وكانت واجهتها المشمسة قد أقبلت تقف أمام ناظريّ دون أن توليني متعة، ولم أنزل لمشاهدتها إلّا لأحسن في عين «ألبيرتين». وكنت أرى مع ذلك أنّ الانطباعيّ القدير كان يناقض نفسه؛ فلماذا هذه الصنميّة التي تتمسّك بالقيمة الهندسيّة الموضوعيّة دون أن تأخذ في اعتبارها تحوّل الكنيسة في الغروب؟ وقالت لي «ألبيرتين»: «لا، لست أحبّها بالتأكيد؛ إني أحبّ اسم المستكبرة لديها. لكن ما ينبغي التفكير بسؤال «بريشو» عنه هو لماذا يدعون «سان مارس» باللابس. نذهب في المرّة القادمة، أليس كذلك؟ تقول وهي تنظر إليّ بعينيها السوداوين اللتين ترخي فوقهما قلنسوتها مثلما بالأمس قبّعتها الصغيرة. كان منديلها يخفق في الهواء؛ وكنت أستقلّ السيارة برفقتها ثانية وتغمرنا السعادة أنْ سنضطر إلى الذهاب سويّة في الغد إلى «سان مارس» الذي كان برجا أجراسه العتيقان يبدوان، في مثل هذا الطقس اللاهب الذي لا يفكّر فيه المرء إلا بالاستحمام، وبلونهما المورّد ومعيّنات آجرّهما كأنّهما، بانحناءتهما الطفيفة وما يشبه الخفقان فيهما، سمكتان قديمتان حادّتا الخطوط متداخلتا الحراشف راغيتان صهباوان ترتفعان، دون أن تبدو لهما حركة، في مياه صافية زرقاء. كنّا ننعطف لدى مغادرتنا «ماركوفيل»، بغية تقصير الطريق، على ملتقى طرق تقوم إلى جانبه مزرعة.

وكانت «ألبيرتين» أحياناً تأمر بالتوقّف وتسألني الذهاب وحيداً لأجلب لها شراب «الكالفادوس» أو شراب التفّاح كي تتمكّن من تناوله في السيارة؛ وكانوا يؤكّدون أنّه غير فوّار فيصيبنا منه بلل تام. كنّا نلتصق واحدنا بالآخر ويكاد الناس في المزرعة لا يرون «ألبيرتين» في السيارة المغلقة. وكنت أعيد لهم الزجاجات، وننطلق من جديد وكأنّما لموالاة هذه الحياة الثنائية، حياة العاشقين التي كان يمكن أن يفترضوها بيننا، ولعلّ التوقّف للشرب ما كان سوى برهة زهيدة منها. ولعلّ الافتراض كان بدا أقلّ ما يمكن بعداً عن الحقيقة لو رأونا بعدما تناولت «ألبيرتين» زجاجة شراب التفّاح، فقد كان يبدو حينذاك أنّها لا تقوى على احتمال وجود مسافة بيني وبينها، وما كان ذاك عادة مصدر ضيق لها. كانت ساقاها تضغطان على ساقيّ تحت تنورتها التي من كتّان، وكانت تقرّب من وجنتيّ وجنتيها اللتين أضحتا شاحبتين وحارقتين حمراوين في أعلاهما وبهما شيء من اللهيب والذبول كما هو أمر بنات الضواحي. كانت في تلك الآونة تبدّل صوتها بمثل السرعة التي تبدّل فيها شخصيتها، فتفقد صوتها لتأخذ آخر غيره به بحّة وجرأة وما يقرب أن يكون فجوراً. كان الظلام قريب الحلول؛ وأيّة متعة أن أحسّها ملتصقة بي، بمنديلها وقلنسوتها إذ أتذكّر أنّنا إنّما نلتقي العشاق دوماً على هذا النحو جنباً إلى جنب. ربّما كان بي عشق لـ«ألبيرتين» ولكنّي لا أجرؤ على إظهاره لها، بحيث انّه إن كان موجوداً في داخلي فلا يمكن أن يكون ذلك إلّا بمثابة حقيقة لا وزن لها إلى أن نكون استطعنا التحكّم بها عن طريق التجربة. ولكنّما كان يبدو لي غير قابل للتحقيق وخارج مرتسم الحياة. فأمّا غيرتي فكانت تدفعني إلى مفارقة «ألبيرتين» أقلّ القليل مع أني أعرف أنّها لن تشفى تماماً إلا بافتراقي عنها دونما رجعة. بل كنت أستطيع أن أحسّ بها بالقرب منها، ولكنّي أتدبّر نفسي آنذاك كي لا أدع للمناسبة التي أيقظتها في صدري أن تتجدّد. من ذلك أنّنا ذهبنا في يوم صحو لتناول طعام الغداء في «ريفبيل» وكانت الأبواب الواسعة المزجّجة لقاعة الطعام، لذاك البهو الذي على شكل ممر

وكان يُستخدم في حفلات الشاي، كانت مفتوحة على مستوى المروج التي كستها الشمس ذهباً والتي يبدو المطعم الفسيح المنوّر كأنّه جزء منها. كان النادل ذو الوجه المورّد والشعر الأسود المفتول على هيئة لهب ينطلق في كامل هذه المساحة الواسعة بسرعة تقلّ عمّا كانت عليه بالأمس، إذ لم يعد مستخدماً بل رئيس مجموعة. ولكنّك كنت تلمحه، بسبب نشاطه الطبيعي أحياناً في البعيد، في قاعة الطعام، وأحياناً أقرب من ذلك، إنّما في الخارج في خدمة زبائن فضّلوا تناول غدائهم في الحديقة، فطوراً هنا وتارة هناك كتماثيل متعاقبة لإله شاب يعدو، بعضها في داخل منزل يستطيل مروجاً خضراء، والداخل جيّد الإضاءة على أيّ حال، وبعضها الآخر في ظلال الشجر وضياء الحياة في الهواء الطلق. ووقف برهة على مقربة منّا. وأجابت «ألبيرتين» عمّا كنت أقول لها ساهية. كانت تنظر إليه بعينين موسّعتين. وأحسست على مدى بضع دقائق أنّه يمكنك أن تكون قرب الشخص الذي تحبّ ولا يكون معك على الرغم من ذلك. كانا يبدوان وكأنهما في لقاء انفرادي غامض أصبح صامتاً جرّاء وجودي وربّما أعقب مواعيد قديمة ما كنت أعرفها أو محض نظرة رماها بها - وكنت فيه الشخص الثالث المزعج الذي يُتكتّم عليه. وحتّى حينما ابتعد بعدما استدعاه ربّ عمله بلهجة عنيفة كان يبدو على «ألبيرتين»، فيما توالي تناول غدائها، أنّها تحسب المطعم والحدائق محض حلبة مضاءة يظهر فيها ههنا وهناك داخل أطر متنوّعة الإله العدّاء ذو الشعر الأسود. وتساءلت لحظة إن لم تكن عازمة على تركي وحيداً إلى طاولتي كي تتبعه. ولكنّي منذ الأيام التالية أخذت أنسى للأبد ذلك الانطباع المؤلم، فقد كنت عزمت أن لا أعود البتّة إلى «ريفبيل» وطلبت إلى «ألبيرتين» التي أكّدت لي أنّها جاءت إلى هذا المكان للمرّة الأولى أنّها لن تعود إليه في يوم. وأنكرتُ أنْ لم تكن للنادل ذي القدم الرشيقة عين إلا لها كي لا يتبادر إليها أن صحبتي حرمتها من متعة معيّنة. لقد اتّفق لي أحياناً أن أعود إلى «ريفبيل» ولكن وحيداً، وأن أبالغ في الشراب كما سبق أن فعلت هناك. وفيما أفرغ كوباً

أخيراً كنت أنظر إلى نجميّة مرسومة على الجدار الأبيض وأصبّ عليها المتعة التي كنت أحسّ بها. كانت وحدها موجودة في العالم بالنسبة إليّ، كنت ألاحقها وألمسها طوراً وتارة أفقدها بنظرتي المتهرّبة وكنت غير مبالٍ بالمستقبل أكتفي بنجميتي شأن فراشة تدور حول فراشة جاثمة سوف تضع معها حدّاً لحياتها في فعلة شهوانيّة أخيرة. على أني كنت أرى خطراً في أن أسمح بأن يُقيم في داخلي، حتّى بصورة خفيفة، مرض يشبه تلك الحالات المرضيّة المعتادة التي لا نعيرها انتباهاً ولكنّها كافية، إن حلّ به فجأة أقلّ عارض غير متوقّع ولا مفرّ منه، لتكسبه في الحال خطورة بالغة. وربّما كانت الفترة قد أُحسن اختيارها إلى حدّ بعيد للتخلّي عن امرأة ما كان أيّ عذاب قريب العهد شديد يضطرّني أن أطلب منها هذا البلسم الشافي للمرض، البلسم الذي تملكه اللائي تسبّبن بذاك المرض. كانت تلك النزهات عينها تشيع الهدوء في نفسي وكانت، مع أني ما اعتبرتها في أوانها سوى انتظار لغد لن يكون على الرغم من الرغبة التي يبعثها، مختلفاً عن الأمس، تحمل سحر كونها انْتُزعتْ من الأماكن التي عمرتها «ألبيرتين» حتّى ذاك وما كنت معها: في منزل عمّتها ولدى صديقاتها. لا سحر ينبعث من فرح إيجابيّ، بل من هدأة اضطراب فحسب، مع أنّه قويّ جدّاً. فحين كنت أعود، بعد انقضاء بضعة أيّام، إلى التفكير بالمزرعة التي شربنا أمامها عصير التفّاح أو بمجرّد الخطوات القليلة التي خطوناها أمام «سان مارس لو فيتو»، وإذ أتذكّر أن «ألبيرتين» كانت تمشي بقلنسوتها إلى جانبي، كان الإحساس بوجودها يضيف قوّة مفاجئة إلى صورة الكنيسة الجديدة التي لا آبه لها، قوّة يبدو لي معها، لحظة تُقبل الواجهة المشمسة لتحطّ هكذا من تلقاء ذاتها في ساحة ذكرياتي، كأنّما تُلْصَقُ على صفحة قلبي كمادَة كبيرة مهدّئة. كنت أُنْزِل «ألبيرتين» في «بارفيل» ولكن كيما أعود فألتقيها مساء وأمضي لأستلقي إلى جانبها على رمل الشاطئ في الظلام. ليس من شكّ في أني ما كنت ألقاها كلّ يوم ولكنّما كنت أستطيع أن أقول في نفسي: «لو أنّها تروي عن جدول توزيع وقتها وحياتها لكنت أنا من يحتلّ المكان

الأوسع فيه». وكنّا نقضي سويّة ساعات طوالاً على التوالي تشيع في أيّامي نشوة عذبة إلى حدّ أنّي ما كنت أحسّني، حتّى حينما تقفز في «بارفيل» من السيارة التي سأعيدها إليها بعد ساعة، أكثر وحدة في السيّارة منّي لو أنّها تركت فيها قبل مغادرتها زهوراً. كان بوسعي أن أكون بغنى عن لقائها كلّ يوم؛ وكنت سأفارقها سعيداً وأحسّ أنّ الأثر المهدّئ لتلك السعادة يمكن أن يدوم عدّة أيام. ولكنّي كنت حينئذ أسمع «ألبيرتين» تقول وهي تفارقني، لعمّتها أو واحدة من صديقاتها: «إذن، في غدٍ الساعة الثامنة والنصف. ينبغي أن لا تتأخري، فسيجهزون منذ الثامنة والربع». إن حديث امرأة نحبّها يشبه أرضاً تحوي مياهاً جوفيّة خطيرة، فإنّك تحسّ في كلّ لحظة وراء الكلمات وجود طبقة خفيّة وبرودتها النفّاذة، وتلمح ههنا وهنالك ارتشاحها الغادر، ولكنّها هي تلبث في الخفاء. وما إن تناهت إليَّ جملة «ألبيرتين» حتّى تهاوى هدوئي. كان بودّي أن أسألها التقاءها في صباح الغد بغية الحؤول دون ذهابها إلى موعد الثامنة والنصف الغامض هذا والذي لم يجرِ الحديث عنه أمامي إلّا بكلمات مبطّنة. ولعلّها كانت أطاعتني بالتأكيد في المرّات الأولى وبها أسف مع ذلك للتخلّي عن مشاريعها؛ ثم لعلّها كانت اكتشفت حاجتي الدائمة إلى تخريبها، فكنت ذاك الذي يختبئون عنه في كلّ أمر. ثمّ إنّه على الأرجح أن تلك الحفلات التي كنت أُقصى عنها كانت تقوم على أقلّ القليل وأنهم ما كانوا يدعونني ربّما مخافة أن ألتقي مدعوّة سوقيّة أو مبرمة. على أن هذه الحياة الشديدة الامتزاج بحياة «ألبيرتين» ما كانت للأسف تؤثّر فيّ وحدي، فقد كانت توليني هدوءاً فيما تحمل لأمّي هواجس قضى الإفصاح عنها على ذاك الهدوء. وفيما كنت أعود منشرح الصدر وقد عزمت على أن أضع بين يوم وآخر حدّاً لعيش كنت أظن نهايته رهناً بمحض مشيئتي قالت لي أمّي، وقد سمعتني أوصي بأن يمضي السائق لاصطحاب «ألبيرتين» بعد العشاء: «ما أكثر ما تنفق من مال! (وكانت «فرانسواز» تقول بلغتها البسيطة المعبّرة وبزخم أكبر: «المال يطير»). وأردفت والدتي تقول: «اجهد أن لا تضحي

كـ«شارل دو سيفينييه» الذي كانت أمّه تقول عنه: «يده بوتقة ينصهر فيها المال». وأعتقد إلى ذلك أنّك أكثرت حقّاً من الخروج برفقة «ألبيرتين». وأؤكّد لك أنّ الأمر مبالغ فيه وأنّه يمكن أن يبدو موضع سخرية حتّى بالنسبة إليها. لقد اغتبطت لما يروّح ذلك عنك. لست أسألك الامتناع عن لقائها، وإنّما أن لا يكون التقاؤكما الواحد دون الآخر مستحيلاً». وعادت حياتي مع «ألبيرتين»، وهي خلو من المتع المبالغة - المتع البالغة المرئيّة على الأقلّ -، تلك الحياة التي كنت أعتزم تغييرها بين يوم وآخر باختيار ساعة من الصفاء، عادت فأصبحت فجأة ضروريّة لي إلى حين عندما ألفيتها مهدّدة من جرّاء أقوال أمّي. وقلت لوالدتي إن أقوالها أخّرت ربّما مدّة شهرين القرار الذي تطالب به والذي كان ربّما اتُّخِذَ لولاها قبل ختام الأسبوع. وشرعت أمّي تضحك (كي لا تغمّني) من الأثر الفوري الذي أحدثته نصائحها ووعدت أن لا تتحدّث عنها ثانية كي لا تحول دون انبعاث مقاصدي الطيبة. ولكن في كلّ مرّة كانت والدتي، منذ وفاة جدّتي، تستسلم فيها للضحك، كانت الضحكة المنطلقة تتوقّف للحال وتنتهي بإعراب عن الألم قريب من النحيب، إمّا لملامة ذاتها أن استطاعت أن تنسى مقدار لحظة، وإمّا للزيادة التي أجّج بها ذاك النسيان الهيّن قلق نفسها الأليم. لكنّي شعرت أن قلقاً آخر ينضاف إلى القلق الذي تسبّبه ذكرى جدّتي المقيمة في صدر أمّي وكأنّما فكرة ثابتة، قلقاً يتعلّق بي وبما كان والدتي تخشى من عقابيل أُلفتي و«ألبيرتين»، ألفة لم تجرؤ مع ذلك على اعتراض سبيلها بسبب ما قلت لها منذ قليل. ولكنّما لم يبدُ أنّها اقتنعت بأنني غير مخطئ. كانت تتذكّر كم سنة لم تبادر في أثنائها هي وجدّتي في التحدّث إليّ عن عملي وعن منهج حياتي أكثر سلامة كان الاضطراب الذي تزجّني فيه إرشاداتهما يحول وحده، فيما أقول دون مباشرته ولم أستمرّ في الأخذ به على الرغم من سكوتهما وإذعانهما.

كانت السيّارة تُعيد «ألبيرتين» بعد العشاء والوقت لا يزال على بقيّة من ضياء. كان الهواء أقلّ سخونة؛ ولكنّنا بعد يوم لاهب كنّا نحلم كلانا

بصنوف ابتراد مجهولة. حينئذ بدا القمر لعيوننا المحمومة دقيقاً جدّاً بادئ الأمر (مثله في المساء الذي ذهبت فيه إلى منزل الأميرة «دو غيرمانت» والذي هاتفتني فيه «ألبيرتين») وكأنّه القشرة الخفيفة الرقيقة ثم القطعة النديّة لثمرة أخذت موسى خفيّة تنزع قشرتها في السماء. وأحياناً كنت أمضي أنا لاصطحاب صديقتي، ويكون ذلك حينئذ في وقت متأخّر قليلاً. كان عليها أن تنتظرني أمام قناطر السوق في «مينفيل». وما كنت أميّزها في اللحظات الأولى فيأخذ في القلق مذاك من أنّها لن تجيء وأن تكون أساءت الفهم. حينذاك كنت أبصرها بقميصها الأبيض المنقّط بالأزرق تقفز إلى جانبي في العربة قفزة رشيقة أقرب أن تكون لحيوان صغير منها لفتاة، وكمثل كلبة أيضاً شرعت في الحال تداعبني مداعبات لا تنتهي. وبعدما يرخي الليل سدوله وتتناشر[1] (كما كان يقول لي مدير الفندق) النجوم على كامل صفحة السماء كنّا، إن لم نذهب في نزهة في الغابة نحمل معنا زجاجة شمبانيا، نتمدّد على حضيض الكثبان دونما اهتمام للمتنزّهين وهم بعد يمشون الهوينى على السدّ الضعيف الإنارة، ولعلّهم ما كانوا ميّزوا شيئاً على خطوتين منهم فوق الرمل الأسود. وذاك الجسد عينه الذي تنبض رشاقته بكل السحر الأنثوي والبحريّ والرياضي، جسد الفتيات اللواتي رأيتهنّ يخطرن أوّل مرّة أمام أفق الماء، كنت أمسك به وأشدّه إليّ تحت الغطاء نفسه وبمحاذاة شاطئ البحر الساكن الذي يقسمه شعاع راعش. كنّا نصغي إليه دونما كلل وبالمتعة نفسها إمّا حين يمسك أنفاسه ويطيل إلى حدّ تظنّ معه أنّ الموجة الراجعة توقّفت، وإمّا حين يلفظ على أقدامنا همسته المنتظرة المؤجّلة. وفي النهاية كنت أعود بـ«ألبيرتين» إلى «بارفيل». وكان لا بدّ لي حين وصولي إلى بيتها من قطع قبلاتنا مخافة أن يشاهدونا. ولمّا لم تكن راغبة في النوم فقد كانت تعود معي حتى «بالبيك» وأعود بها من

---

(١) يخلط المدير المتحذلق بين الكلمات ونحاول إيجاد المقابل ولو بصعوبة؛ المقصود بالطبع «تتناثر» وليس «تتناشر».

هناك آخر مرّة إلى «بارفيل»، فقد كان سائقو تلك الفترات الأولى من عمر السيارات من قوم ينامون في أيّة ساعة. وما كنت بالفعل أعود إلى «بالبيك» إلّا مع نداوة الصباح الأولى، أعود وحيداً هذه المرّة ولكنّما لا يزال يغمرني حضور صديقتي، وأُغْرِقْتُ في مؤونة من القبل يطول نفادها. كنت ألقى على طاولتي برقية أو بطاقة بريديّة، والكلّ من «ألبيرتين» أيضاً. لقد سطّرتهما في «كيتهولم» أثناء ما ذهبت في السيّارة وحدي كي تقول لي إنّها تفكّر فيّ. وكنت أندسّ في فراشي وأنا أعيد قراءتهما. حينئذ كنت أبصر فوق الستائر خطّ النهار الطالع فأقول في نفسي إنّنا لا بدّ متحابّان على أيّ حال بما أننا قضينا الليل في عناق. وحينما كنت ألتقي «ألبيرتين» في صباح الغد فوق السدّ كانت تتملّكني خشية عظيمة من أن تجيب بأنّها مرتبطة في ذلك اليوم وأنّها لا تستطيع النزول عند طلبي إليها للخروج سويّة إلى حدّ أني كنت أؤجّل ما استطعت توجيه ذاك الطلب؛ وكان قلقي يتزايد بقدر ما تبدو باردة مهتمّة. ويمرّ أناس من معارفها؛ لا شكّ أنّها خطّطت لمشروعات بعد الظهر كنت مقصىً عنها. فكنت أنظر إليها، أنظر إلى ذلك الجسم الرائع، ذلك الرأس المورّد لـ«ألبيرتين» يرفع قبالتي لغز نواياها، القرار المجهول الذي سيكون سرّ سعادتي أو تعاستي في فترة ما بعد الظهر. إنّها حالة نفسيّة بتمامها، مستقبل حياتي كامل قد اتخذ أمامي شكل فتاة رمزياً قاتلاً. وحينما كنت أحزم أمري في نهاية المطاف، حينما كنت أسأل بأقصى ما أستطيع من اللامبالاة: «هل نتنزّه سويّة بعد قليل وفي هذا المساء؟» وتجيبني: «بكلّ سرور»، حينئذ كان التبدّل المفاجئ الكامل على الوجه المورّد، تبدّل قلقي المديد طمأنينة لذيذة، يجعل تلك الأشكال أكثر قيمة لديّ، تلك الأشكال التي أدين لها على الدوام بالهناء، بالهدوء الذي تحسّه بعد أن ثارت العاصفة. وكنت أردّد بيني وبين ذاتي: «كم هي لطيفة وأيّة مخلوقة رائعة هي!» في حماسة أقلّ خصباً من تلك الناجمة عن السُّكْر، وتكاد لا تتجاوز في عمقها تلك الناجمة عن الصداقة ولكنّها تفوق كثيراً تلك التي توليها الحياة المجتمعيّة. وما كنّا نلغي حجز السيارة إلا في

الأيام التي يقام فيها حفل عشاء لدى آل «فيردوران»، والأيام التي ربّما كنت أفيد منها، إذ لا تستطيع «ألبيرتين» لانشغالها الخروج برفقتي، لإخطار من كانوا يرغبون في لقائي بأنني باق في «بالبيك». كنت أجيز لـ«سان لو» المجيء في تلك الأيام، ولكن في تلك الأيام فقط. ذلك لأنني فضّلت ذات مرة وصل فيها على حين غرّة أن أحترم رؤية «ألبيرتين» على أن أجازف بالتقائه إيّاها وبتعريض حال الهدوء السعيد الذي كنت فيه منذ وقت يسير للخطر وبتجدّد غيرتي. ولم يطمئنّ فؤادي إلّا بعدما قفل «سان لو» راجعاً. ولذلك كان يلزم نفسه آسفاً، ولكنّما الالتزام الدقيق، بأن لا يجيء في يوم إلى «بالبيك» دون دعوة منّي. وكنت بالأمس أولي التقاءه ثمناً أيّ ثمن وأنا أفكّر حاسداً بالساعات التي تقضيها السيدة «دو غيرمانت» بصحبته. إنّ المخلوقات لا تنفكّ تبدّل مكانها بالنسبة إلينا. وإننا نعتبرها في مسيرة العالم غير المحسوسة والدائمة مع ذلك على أنّها جامدة في لحظة رؤية معيّنة هي من القصر حتى لا تُلاحظ الحركة التي تدفعها. ولكن ما علينا إلّا أن نختار في ذاكرتنا صورتين أُخذتا لها في أوقات مختلفة ولكنّها متقاربة بما يكفي كي لا تكون تغيّرت في حدّ ذاتها على نحو محسوس على الأقلّ، وإذ ذاك يقيس اختلاف الصورتين الانتقال الذي قامت به بالنسبة إلينا. وقد أقلقني أفظع القلق وهو يكلّمني عن آل «فيردوران»، وخشيت أن يطلب إليّ أن يُستقبل عندهم ولعلّ ذلك كان كافياً لإفساد كامل المتعة التي كنت أصيبها لديهم بصحبة «ألبيرتين» بسبب الغيرة التي ما كنت لأتوقّف عن الإحساس بها. لكن «روبير» أقرّ أمامي لحسن الحظّ أنّه كان راغباً على العكس ألا يعرفهم. وقال لي: «لا، فإني أجد هذا النوع من الأوساط الإكليروسيّة مثيراً للحنق». ولم أفهم بادئ الأمر صفة «الإكليروسيّ» التي تُطلق على آل «فيردوران»، ولكنّ آخر جملة «سان لو» كشفت فكرته وانجرافه خلف أشكال كلاميّة كثيراً ما يدهشنا أن يتبنّاها أناس أذكياء، فقد قال لي: «إنها أوساط يلتفّون فيها قبائل وجمعيّات وطوائف. ولن تقول لي إنّها ليست طائفة، فإنّهم «سمن وعسل»

لمن كانوا منها، ولا يملكون ما يكفي من ازدراء لمن ليسوا منها. ليست المشكلة، كما هي الحال بالنسبة إلى «هاملت»، أن تكون أو لا تكون منها، وإنّك منها، وخالي «شارلوس» منها. ما عساك تريد؟ أنا ما أحببت في يوم هذا الصنف وليست تلك غلطتي».

أمّا القاعدة التي فرضتُها على «سان لو» بأن لا يجيء لزيارتي إلّا على إشارة منّي فقد سننتها بالطبع بشكلها القاطع هذا بالنسبة لأيّ من الأشخاص الذين ارتبطتُ شيئاً فشيئاً بصداقة معهم في «لا راسبليير» و«فيتيرن» و«مونسورفان» وغيرها. وحينما كنت أبصر من الفندق دخان قطار الساعة الثالثة الذي كان يخلّف في تجاويف جروف «بارفيل» سحابته الثابتة التي كانت تلبث فترة طويلة عالقة على جنبات السفوح الخضراء لم أكن أتردّد إطلاقاً حول الزائر الذي كان سيجيء لتناول العصرونية معي ولا يزال محتجباً عنّي خلف تلك السحابة الصغيرة، مثله في ذلك مثل إله. وإني مضطرّ أن أعترف أن ذاك الزائر الذي أذنت له مسبقاً بالمجيء لم يكن البتّة تقريباً «سانييت»، وكثيراً ما لمت نفسي على ذلك، ولكن وعي «سانييت» لبعث الملل لدى الآخرين (أكثر بالطبع حين يجيء في زيارة منه حين يروي قصّة) كان ينجم عنه أن يبدو من المستحيل، مع أنّه كان أوسع علماً وأوفر ذكاء وأفضل من كثيرين غيره، أن تحسّ بالقرب منه بأيّة متعة، بل بغير ملل يكاد لا يطاق يفسد عليك كلّ فترة العصر. ولو أن «سانييت» كان أقرّ صراحة بذاك الملل الذي كان يخشى إشاعته فالأرجح أنّك ما كنت لتخشى زياراته. والملل واحد من الشرور الأقلّ خطراً من تلك التي يقع علينا تحمّلها، وربما لم يكن ذاك الملل موجوداً إلّا في مخيّلة الآخرين أو هو أدخل في خلده بنوع من الإيحاء صادر عنهم، إيحاء تمكّن من تواضعه المحبّب. ولكنّه كان شديد الحرص على أن لا يُبدي أنّه غير مرغوب فيه إلى حدّ لا يجرؤ معه أن يعرض نفسه على الغير. كان بالتأكيد على حقّ أن لا يفعل ما يفعل الناس الذين يغبطهم أن يحيّوا تحيّات واسعة في مكان عام إلى حدّ أنّهم، إن لم يروك منذ فترة طويلة وأبصروك في

مقصورة برفقة أشخاص لامعين لا يعرفونهم، يلقون عليك تحيّة خاطفة مدوّية وهم يعتذرون عمّا يصيبون من متعة، عمّا يصيبهم من انفعال لدى رؤيتك، لدى اكتشافهم أنّك تعود إلى متع الحياة، وأن صحّتك تحسّنت، إلخ، أمّا «سانييت» فكان يفتقر على العكس إلى الكثير من الجرأة، كان بوسعه أن يقول لي، في منزل السيدة «فيردوران» أو في القطار الصغير، إنّه قد يسرّه أعظم السرور أن يأتي لزيارتي في «بالبيك» لولا أنّه يخشى إزعاجي. وما كان مثل ذاك الاقتراح ليفزعني. ولكنّه كان على العكس لا يقترح شيئاً، بل يقول بوجه معذّب ونظرة بمثل صلابة المينا المشويّة، ولكنّما يداخلها، إلى جانب رغبة لاهثة في لقائك - ما لم يجد آخر غيرك أكثر تفكهة -، العزم على أن لا يُبدي شيئاً من تلك الرغبة، يقول لي بمظهر متجرّد: «لست تعلم ما أنت فاعل هذه الأيّام؟ لأني سأذهب دونما شكّ بالقرب من «بالبيك». لا، لا، لا بأس، كنت أسألك ذلك عرضاً». والمظهر ذاك ما كان يخدع أحداً والعلامات العكسيّة التي نعرب بوساطتها عن مشاعرنا بما كان عكسها واضحة القراءة إلى حدّ أنّنا نتساءل كيف يمكن أن يكون ثمّة أناس يقولون على سبيل المثال: «لديّ الكثير الكثير من الدعوات حتى لا أعرف إلى أين أتوجّه» كي يخفوا أنهم لا يُدْعَوْن. أضف أنّ ذاك المظهر المتجرّد، بسبب ما كان على الأرجح يدخل في تركيبه الغامض، كان يسبّب لك ما لم يكن بوسع خشية الملل أو الإقرار الصريح برغبة التقائك أن يفعل في يوم، عنينا هذا النوع من الانزعاج، هذا النفور الذي يعادل في رتبة علاقات المجاملة الاجتماعيّة البحتة ما كان على صعيد الحبّ العرض المقنّع الذي يقدّمه المحبّ لسيّدة لا تحبّه بأن يلتقيها في الغد فيما يحتجّ بأنّه غير حريص على ذلك، أو حتى ما لم يكن ذاك العرض، بل موقف يتّسم بفتور كاذب. وكان ينبعث في الحال من شخص «سانييت» ما لست أدري ممّا يحملك على أن تجيبه باللهجة الأكثر رقّة في العالم: «لا، للأسف، هذا الأسبوع، سوف أوضح لك. . .» وكنت أفسح في المجال لمجيء أناس غيره ما أبعد أن يساووه

ولكنّما لم يكن لهم نظرته المثقلة بالكآبة وفمه الذي يلتوي بكامل المرارة لكلّ الزيارات التي كان يرغب في القيام بها لدى هؤلاء وأولئك وهو يكتمهم تلك الرغبة. وكان من النادر جدّاً لسوء الحظّ ألا يصادف «سانييت» في القطار الصغير المدعوّ الذي جاء لزيارتي، هذا إن لم يكن هذا الأخير حتّى قال لي في منزل آل «فيردوران»: «لا تنسَ أنني سأزورك يوم الخميس»، اليوم الذي قلت بالضبط فيه لـ«سانييت» إنّني لن أكون حرّاً. وبذلك كان يخلص إلى تصوّر الحياة وكأنّها ملأى بصنوف من اللهو تنظّم دون علم منه، إن لم يكن حتّى ضدّه. وبما أن المرء من جانب آخر لا يكون البتّة واحداً موحّداً فإنّ هذا الشديد التكتّم كان فضوليّاً إلى حدّ المرض. فقد كانت رسالة ممّن لست أدري مرميّة، في المرة الوحيدة التي جاء فيها مصادفة لزيارتي على الرغم منّي، على الطاولة. ولاحظت بعد برهة أنّه لا يصغي إلّا ساهياً لما كنت أقول له. فإن الرسالة التي كان يجهل مصدرها تماماً كانت تخلب لبّه وكنت أظنّ في كلّ لحظة أن حدقتيه الملتمعتين توشكان الإفلات من محجريهما للحاق بهذه الرسالة العادية ولكنّ فضوله كان يمغنطها. لكأنه طائر يزمع الانقضاض لا محالة على حيّة. ولم يستطع في نهاية المطاف اصطباراً فبدّل مكانها بادئ الأمر وكأنّما ليرتّب غرفتي. ولمّا لم يَكْفِه ذلك أخذها وقلبها وأعاد قلبها وكأنما على نحو آليّ. ثمّ إن شكلاً آخر من فضوله كان يتمثّل بأنّه موثق بك فلا يستطيع فكاكاً. ولمّا كنت يومها متألماً فقد طلبت إليه أن يعود فيستقلّ القطار التالي ويغادر في مدى نصف ساعة. وما كان يشكّ بأني أتألّم ولكنّه أجابني قائلاً: «سأمكث ساعة وربع الساعة وبعد ذلك أنصرف». ومنذ ذلك الحين تألّمت لأنني لم أسأله، في كلّ مرّة كنت أستطيع ذلك فيها، أن يجيء. فمن ذا يعلم؟ ربّما كنت دفعت عنه شراً يبيَّت له وكان دعاه آخرون غيري فكان حينها هجرني في الحال إليهم، وهكذا كانت دعواتي أفضت إلى مكسب مزدوج في إعادة السرور إلى نفسه وإنقاذي منه.

في الأيام التي تعقب تلك التي كنت أستقبل فيها، لم أكن بالطبع

أنتظر زيارات وكانت السيارة تعود لتقلّنا أنا و«ألبيرتين». وحينما كنّا نعود ما كان «إيميه» يستطيع، على أول درجة من الفندق، أن يحول دون النظر بعينين مشغوفتين فضوليّتين نهمتين ليرى أيّ إكراميّة أعطي السائق. وعبثاً كنت أدفن قطعة أو ورقة النقود في يدي المطبقة فقد كانت نظرات «إيميه» تباعد أصابعي. وكان يدير رأسه بعد ثانية إذ كان غير فضولي وحسن التهذيب وكان حتّى يكتفي بمكاسب صغيرة نسبياً في ما يخصّه. ولكن المال الذي يرد غيره كان يثير في صدره فضولاً لا يستطيع أن يكبته ويسيل له لعابه. كان يبدو في تلك اللحظات القصيرة متيقّظاً محموماً كولد يقرأ رواية لـ«جول فيرن»، أو كرجل يتناول عشاءه ويجلس في مكان غير بعيد عنك في أحد المطاعم، وهو إذ يرى أنّهم يقطّعون لك تُدْرجاً لا يستطيع هو أو لا يريد أن يطلبه، يهجر لحظةً أفكارَه الجديّة ليسمّر على الطير نظرة يبعث فيها الحبّ والرغبة إشراقة ابتسامة.

هكذا كانت تتتالى في كلّ يوم تلك النزهات بالسيّارة. إلّا أن عامل المصعد قال لي ذات مرّة لحظة كنت أستقلّ المصعد إلى فوق: «لقد جاء هذا السيد وكلّفني بمهمة بشأنك». قال لي عامل المصعد تلك الكلمات بصوت مرتعش تماماً وهو يسعل ويبصق في وجهي. وأضاف قوله: «يا له رشح أعانيه!» كما لو لم أكن قادراً على تبيّن ذلك وحدي. «يقول الدكتور إنّه السعال الديكي»، وطفق يسعل من جديد ويبصق عليّ. فقلت له بمظهر اللطف الذي كنت أتصنّعه: «لا تتعب نفسك بالحديث»، وبي خشية من أن أصاب بالسّعال الديكي الذي ربّما كان شقّ كثيراً عليّ إنْ اقترن باستعدادي للاختناقات. ولكنّه على غرار عازف ماهر لا يودّ أن يعدّوه مريضاً، جعل اعتزازه في الكلام والتفّ طوال الوقت، وقال: «لا، لا أهميّة لذلك (وقلت في نفسي: في نظرك، وليس في نظري). على أيّ حال سأعود إلى باريس عمّا قليل» (ونِعْمَ ما يفعل، على أن لا ينقله إليّ قبل ذلك). وأردف يقول: «يبدو أن باريس شيء بالغ الروعة. ولا بدّ أن يكون ذلك أكثر روعة من هنا ومن «مونتي كارلو» مع أنّ بعض الخدم الفتيان وحتّى بعض الزبائن

بل رؤساء الخدم الذين كانوا يذهبون إلى «مونتي كارلو» في الموسم كثيراً ما قالوا لي إن باريس أقلّ روعة من «مونتي كارلو». ربّما كانوا مخطئين، على أنّه ينبغي أن لا يكون المرء معتوهاً كي يصبح رئيس خدم. فلتسجيل الطلبات جميعها وحجز الطاولات أيّ رأس أنت بحاجة إليه! لقد قيل لي إن الأمر ربّما كان أقسى من كتابة المسرحيّات والكتب». وكنّا وصلنا تقريباً إلى الدور الذي أسكنه حينما أنزلني عامل المصعد إلى أسفل لأنه كان يرى أن المفتاح لا يعمل تماماً وأصلحه بلمح البصر، وقلت له إني أفضّل الصعود سيراً على الأقدام وهو ما كان يعني ويخفي أنني أفضّل أن لا أصاب بالسعال الديكي. ولكن عامل المصعد عاد فدفع بي إلى المصعد بنوبة من السعال وديّة معدية. «لا خطر من بعدُ، الآن، فقد أصلحت المفتاح». وإذ اتّضح لي أنه لا يكفّ عن الكلام وفضّلت معرفة اسم الزائر والرسالة التي تركها لي على المقارنة بين جمالات «بالبيك» وباريس و«مونتي كارلو» قلت له (كأنّما لمغنّي «تينور»[1] يرهقك بـ«بنيامين غودار»: غنِّ لي بالأحرى لـ«دوبوسّي»): ولكن منذا الذي جاء يزورني؟» - «إنّه السيد الذي خرجتَ البارحة برفقته. سأمضي لجلب بطاقته المودعة لدى بوّابي». لمّا كنت أوصلت «روبير دو سان لو» في الليلة البارحة إلى محطّة «دونسيير» قبل أن أمضي لاصطحاب «ألبيرتين» فقد خلت عامل المصعد يودّ الحديث عن «سان لو» ولكنّه كان السائق. وكان، حين يشير إليه بهذه الكلمات: «السيد الذي خرجتَ برفقته»، يعلمني بالمناسبة نفسها أن عاملاً هو سيّد تماماً بقدر ما يكون رجل مجتمعات سيّداً. وهو درس كلمات فحسب، فما أقمت فارقاً في يوم بالنسبة إلى قوام الأمر، بين الطبقات. ولئن أخذتني، لدى سماعهم يدعون السائق سيّداً، ذات دهشة الكونت س. . . الذي لم يكن «كونت» إلّا منذ ثمانية أيّام والذي قلت له: «يبدو أن الكونتيسة متعبة» يدير رأسه إلى الوراء ليرى عمّن كنت أود الحديث،

(١) مغنّي الطبقة العالية في تصنيف أصوات الرجال.

فلمجرّد نقص في تعوّد الألفاظ؛ إنني لم أقم في يوم فارقاً بين العمال والبورجوازيين وكبار السادة ولعلّي كنت اتّخذت من هؤلاء وأولئك على السواء أصدقاء، مع شيء من التفضيل للعمّال يليهم كبار السادة، لا عن ميل ولكن لعلمي بإمكان مطالبتهم بتهذيب أكبر تجاه العمّال ممّا يمكن الحصول عليه من جنب البورجوازيين، إمّا لأن كبار السادة لا يزدرون العمّال كما يفعل البورجوازيون، أو لأنّهم مهذّبون تلقائياً تجاه أيّ كان، مثلهم مثل النساء الجميلات اللواتي يسعدن بتقديم ابتسامة يعلمن أنّها تُستقبل بفرح عظيم. لست أستطيع أن أقول على أيّة حال إن تلك الطريقة، التي كانت طريقتي في وضع عامّة الناس على قدم المساواة مع ناس المجتمع الراقي، إن كانت تصادف أحسن القبول لدى هؤلاء، كانت ترضي في المقابل والدتي تمام الرضى. وليس ذلك لأنّها كانت تقيم فارقاً، أيّ فارق، بين الناس على الصعيد الإنساني، وإن اتّفق أن أصاب «فرانسواز» غمّ أو شكت من ألم فقد كانت تلقى العزاء والعناية على الدوام من جانب أمّي بالوداد نفسه والتفاني نفسه الذي تبديه أفضل صديقة. ولكنّ أمّي كان يطبعها أنّها ابنة جدّي إلى حدّ يحول دون أن لا تأخذ في اعتبارها الطبقات على الصعيد الاجتماعي. وعبثاً يبدي أهل «كومبريه» شهامة ورقّة مشاعر ويأخذون بأفضل النظريّات حول المساواة الإنسانيّة فإن أمّي، حين يتحرّر خادم ويقول ذات مرّة «أنت» وينزلق انزلاقاً تدريجياً إلى الإقلاع عن مخاطبتي بشخص الغائب، كانت تبدي إزاء هذه التعدّيات ذات الاستياء الذي يتفجّر في «**مذكّرات**» «سان سيمون» كلّما انتهز أحد السادة فرصة يتّخذ بها لقب «السموّ» في صكّ رسميّ ولا حقّ له بذلك، أو لا يؤدّي للدوقة ما يتوجب عليه إزاءهم وما يعفي نفسه منه شيئاً فشيئاً. كانت ثمّة «ذهنيّة لكومبريه» مستعصية إلى حدّ ينبغي معه قرون من الطيبة (وطيبة أمّي لا حدّ لها) ومن نظريات المساواة لنفلح في تطويعها. وليس يمكنني القول إن بعض أجزاء من تلك الذهنيّة لدى والدتي لم تظلّ مستعصية على الحل. ولعلّها كانت استصعبت مدّ يدها لأحد الخدم بمثل السهولة التي كانت تهبه

بها عشرة فرنكات (التي كانت توليه بأيّة حال سروراً أعظم). لقد كان الأسياد في نظرها، سواء أقرّت بالأمر أم لم تقرّ، هم الأسياد، والخدم هم الذين يتناولون طعامهم في المطبخ. وحينما كانت ترى سائق سيارة يتناول عشاءه بصحبتي في قاعة الطعام لم تكن راضية تماماً وكانت تقول لي: «يبدو لي أنّه بوسعك أن تلقى أفضل من ميكانيكيّ صديقاً لك»، كما لعلّها كانت قالت لو أن الأمر أمر زواج: «باستطاعتك أن تلقى مع ما كان أفضل كزوجة». وكان السائق (وإنّي لحسن الحظّ لم أفكّر البتّة في دعوة هذا الأخير) قد جاء يقول لي إن شركة السيارات التي أرسلته إلى «بالبيك» للموسم تأمره بالعودة إلى باريس منذ الغد. وبدا لنا أن هذا السبب لا بدّ مطابق للحقيقة، لا سيما أن السائق كان ظريفاً ويتكلّم ببساطة كبيرة حتى ليخيّل إليك على الدوام أنّها أقوال من الإنجيل. وما كان إلّا نصف مطابق لها. فلم يبق بالفعل ما تقوم به في «بالبيك». وكانت الشركة ترغب في جميع الأحوال، إذ لا تثق ثقة كاملة بصدق الإنجيلي الشاب، المستند إلى عجلة تقديسه، أن يعود أسرع ما تكون العودة. فلئن كان الرسول[1] الشاب ينجز عجائبياً تكثير الكيلومترات حينما يعدّها للسيد «دو شارلوس» فقد كان بالمقابل يَقسِم على ستة ما قد جناه حالما يقع عليه أن يؤدي حساباً للشركة. وكانت الشركة نتيجة لذلك، وفي اعتقادها إمّا أنْ لم يعد أحد يقوم بنزهات في «بالبيك»، والموسم يجعل الأمر محتملاً، وإمّا أنّهم يسرقونها، كانت ترى في كلّ من الافتراضين أنّ من الأفضل استدعاءه إلى باريس حيث لا يقومون على أيّ حال بالكثير، كانت رغبة السائق أن يتجنّب موسم الكساد إن أمكن ذلك. لقد قلت - وهو ما كنت أجهله حينذاك ولعلّ معرفته كانت جنّبتني الكثير من الهموم - إنّه كان وثيق الصلة بـ«موريل» (دون أن يبديا البتّة أن أحدهما يعرف الآخر أمام الآخرين). ومنذ اليوم الذي استُدعي فيه دون أن يعلم بعد أنّ لديه إمكانيّة الامتناع عن

---

(١) فضلناها على الحواريّ لنبقى في جوّ الكاتب.

الذهاب، اضطررنا أن نكتفي لنزهاتنا باستئجار عربة أو جياد ركوب أحياناً لتسلية «ألبيرتين» إذ كانت تحبّ ركوب الخيل. كانت العربات سيئة، فتقول «ألبيرتين»: «يا للعربة المهلهلة!» ولعلّي كثيراً ما أحببت على أيّ حال أن أكون فيها بمفردي. كنت أتمنّى، دون أن أبغي تحديد التاريخ أن تنتهي هذه الحياة التي آخذ عليها أنّها تضطرّني إلى التخلّي لا أقصد أن أقول عن العمل بل عن المتعة. على أنّه كان يتفق أيضاً أن تُلغى على نحو مفاجئ العادات التي كانت تمسك بي، وكان ذلك في الأغلب حينما تحلّ «أنا» قديمة تفيض رغبة في عيش مرح محلّ الأنا الحاليّة على مدى لحظة. وقد أحسست على وجه الخصوص برغبة الهروب تلك ذات يوم تركت فيه «ألبيرتين» في منزل عمّتها ومضيت على صهوة جواد لزيارة آل «فيردوران» فسلكت في الغابة طريقاً موحشاً سبق أن أشادوا لي بجماله. كان يماشي أشكال الجرف فيصعد تارة وطوراً يضيق بين الأجمات فيغوص في مضائق موحشة. وعلى مدى لحظة طفت أمام ناظريّ، كأنّما أجزاء من عالم آخر، الصخور الجرداء والبحر الذي يتراءى من شقوقها: لقد تعرّفت المنظر الجبليّ والبحريّ الذي جعل منه «إيلستير» إطاراً لمائيّتيه الرائعتين: «شاعر يلتقي ربّة شعر» و«شاب يلتقي قنطوراً»، اللتين شاهدتهما في منزل الدوقة «دو غيرمانت». كان ذكرهما يعيد وضع الأماكن التي أقف فيها خارج العالم الراهن إلى حدّ أنّي ما كنت دهشت لو أني، على غرار الشابّ الذي من عصور ما قبل التاريخ والذي يرسمه «إيلستير»، التقيت شخصاً أسطورياً في أثناء نزهتي، وفجأة اهتاج جوادي وشبّ، فقد سمع ضجّة غريبة وصادفت عنتاً في السيطرة عليه وتفادي السقوط أرضاً ثم رفعت عينين يملؤهما الدمع صوب النقطة التي يبدو أن الضجّة كانت تنبعث منها وأبصرت على قرابة خمسين متراً فوقي في الشمس وبين جناحين عظيمين من الفولاذ الملتمع كانا يحملان كائناً بدا لي وجهه القليل الوضوح كأنّما يشبه وجه إنسان. وقد بلغ بي الانفعال المبلغ الذي يمكن أن يبلغه بيوناني يشاهد للمرّة الأولى نصف إله. كنت أبكي أيضاً، إذ كنت مهيّأ النفس

للبكاء ما دمت قد عرفت أن الضجّة تجيئني من فوق رأسي - وكانت الطائرات نادرة بعد في هذه الفترة -، لدى التفكير بأن ما أزمع أن أراه أوّل مرّة إنّما كان طائرة. حينئذ ما كنت أنتظر إلّا أن أكون أبصرت الطائرة حتى تنهمر الدموع من عينيّ كحالك حينما تحسّ بورود كلام مؤثر في صحيفة. وبدا الطيّار في تلك الأثناء وكأنّه يتردّد حول خطّ طيرانه؛ كنت أحسّ طرق الفضاء والحياة جميعها مفتوحة أمامه - وأمامي لو لم توقعني العادة أسيراً لها. واندفع إلى أبعد من ذلك وحلّق لحظات فوق البحر ثم عقد العزم فجأة وبدا أنّه ينقاد لجاذب معاكس لذاك المنبعث من الجاذبيّة، وكما لو يعود إلى موطنه انقضّ رأساً شطر السماء بحركة خفيفة لجناحيه المذهبين.

هيّا نعد الآن إلى الميكانيكيّ، فقد سأل «موريل» لا أن يتّخذ آل «فيردوران» سيّارة محلّ عربتهم فحسب (وكان ذلك سهلاً نسبياً بالنظر إلى سخاء آل «فيردوران» تجاه الخلّص) بل أن يستبدلوه، هو السائق، بحوذيّهم، الرئيسي، الشاب الحسّاس النزّاع إلى الأفكار السوداء، والأمر أكثر صعوبة. وقد جرى تنفيذ ذلك في بضعة أيام على النحو التالي. لقد بدأ «موريل» بتسهيل سرقة كل ما كان ضرورياً للإسراج من الحوذيّ ففي يوم لا يلقى اللجام، وفي آخر لا يلقى الزرد. وفي مرّات أخرى كان مسند المقعد هو الذي يختفي، وحتى سوطه وغطاؤه والمقرعة والإسفنجة وجلد «الشاموا». ولكنّه تدبّر أمره دوماً مع الجيران؛ لكنّما كان يحضر متأخراً وكان ذلك يثير حنق السيد «فيردوران» عليه ويغرقه في حال من الحزن والأفكار السوداء. وأعلن السائق لـ«موريل»، وهو في عجلة من أمره للدخول، أنّه يزمع العودة إلى باريس كان لا بدّ من ضربة قويّة وأقنع «موريل» خدم السيد «فيردوران» أن الحوذي الشاب سبق أن أعلن أنّه سيوقعهم جميعاً في مكيدة وأنه يأخذ على نفسه أن يقهرهم هم الستّة، وقال لهم إنّه لا يمكنه التغاضي عن ذلك. ولم يكن بوسعه في ما يخصّه أن يقحم نفسه في الأمر ولكنّه يحذّرهم كي يبادروا هم أوّلاً. واتّفق أن

ينهال الجميع على الشاب في الإسطبل عندما يكون السيد والسيدة «فيردوران» وأصدقاؤهما في نزهة. وسوف أنقل هنا أنّه كان ثمّة في ذلك اليوم صديق لأسرة «فيردوران» يصطاف لديهم وكانوا يودّون حمله على القيام بنزهة سيراً على الأقدام قبل رحيله الذي حدّد في المساء نفسه، مع أن هذا الأمر كان محض مناسبة لما سيجري.

ما أدهشني كثيراً حين ذهبنا في نزهة أن «موريل» قال لي، وكان جاء برفقتنا في نزهة على الأقدام يقع عليه أن يعزف فيها الكمان بين الأشجار: «اسمع، إن ذراعي تؤلمني ولا أودّ قول ذلك للسيدة «فيردوران»، ولكن اسألها أن تصطحب أحد أجرائها، «هاوسلر» مثلاً، ليحمل آلاتي». فأجبت قائلاً: «في اعتقادي أن آخر غيره قد يكون اختياراً أفضل، فهم بحاجة إليه لحفل العشاء». ولاحت أمارات الغضب على وجه «موريل»: «لا، لا، لا أريد أن أعهد لأيّ كان بكماني». وأدركت فيما بعد سبب هذا الإيثار، فقد كان «هاوسلر» الشقيق المحبوب جداً للحوذي الشاب ولو أنه مكث في البيت لاستطاع أن يمدّ له يد المساعدة. وقال «موريل» في أثناء النزهة وبصوت خفيض لا يستطيع معه الأخ الأكبر «هاوسلر» أن يسمعنا: «هذا صبيّ طيّب، وأخوه طيّب كذلك. ولو لم تكن به عادة الشراب المشؤومة تلك...». وقالت السيدة «فيردوران» وقد امتقع لونها إذ فكّرت بأنّ لديها حوذيّاً يشرب «كيف ذلك، شراب»؟ - «لست تلاحظين ذلك. وإني أقول دوماً في نفسي إنّها لمعجزة أن لا يكون وقع له حادث حينما يقود السيارة بك». - «أتراه يحمل آخرين غيري؟» - «يكفيك أن تلاحظي كم مرّة انقلب: فوجهه اليوم تملؤه الكدمات. لست أدري كيف لم يقتل نفسه، لقد كسر محفّته». وقالت السيدة «فيردوران» وهي ترتعش إذ تفكّر بما كان يمكن أن يقع لها هي: «لم أره اليوم، وإنّك تغمّني». وابتغت تقصير النزهة لتعود، واختار «موريل» لحناً لـ«باخ» يحتمل تنويعات لا تحصى كيما يطيل فيها. ومضت فور عودتها إلى الحظيرة وشاهدت المحفّة على جدّتها و«هاوسلر» يلطّخه دمه. كانت تزمع أن تقول له، دون أن تبدي

له أيّة ملاحظة، إنّها لم تعد بحاجة إلى حوذيّ، وأن تعطيه مالاً، ولكنّه طلب من تلقاء ذاته أن ينصرف، إذ لا يريد اتّهام رفاقه الذين كان يعزو بعد الأوان إلى عدائهم السرقة اليوميّة التي تتناول سروجه جميعها، إلخ.. وبذلك سُوّي كلّ شيء. ودخل السائق في الغد وقد أحسّت السيدة «فيردوران» فيما بعد (وكانت اضطرّت أن تستخدم آخر) بالرضى الشديد عنه إلى حدّ أنّها أوصتني به بحرارة وكأنّما برجل يوحي بثقة مطلقة. وأخذتُه في باريس بالمياومة أنا الذي كان يجهل كلّ شيء. ولكن ما أكثر ما استبقت الأمور فكلّ ذلك سنعود فنلقاه في قصّة «ألبيرتين». أمّا في هذه الفترة فإني في «لا راسبليير» التي أحضر للعشاء فيها أوّل مرة بصحبة صديقتي، والسيد «دو شارلوس» بصحبة «موريل» الابن المفترض «لمدير» يكسب ثلاثين ألف فرنك سنويّاً كدخل ثابت ويملك عربة وعدداً من القهرمانات ذوي المراتب الدنيا والبستانيّين والمشرفين الزراعيين الذين يأتمرون بأمره. ولمّا كنت قد سبّقت كثيراً، فإني لا أبتغي مع ذلك أن أخلّف لدى القارئ انطباعاً بخبث مطلق انطوت عليه نفس «موريل». فقد كان بالأحرى يفيض تناقضات وكان قادراً في بعض الأيّام على إبداء لطف حقيقي.

لقد دهشت تماماً بالطبع إذ علمت أن الحوذيّ قد طُرد، وأكثر من ذلك أن أتعرّف في شخص بديله السائق الذي أخذنا في نزهات أنا و«ألبيرتين». ولكنّه ألقى على مسامعي قصّة معقّدة كان يُفْتَرَض وفقاً لها أن يكون عاد إلى باريس حيث طلبوه من أجل آل «فيردوران»، ولم يخالجني الشك مقدار ثانية. فإن طرد الحوذيّ كان سبباً في حديث قليل أدلى به «موريل» كي يعرب لي عن حزنه بالنسبة إلى رحيل هذا الشاب الطيّب. وإذ رأى «موريل» من جانب آخر، حتى خارج اللحظات التي كنت فيها وحدي والتي كان يثب إليّ فيها، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، بفيض من السرور، إذ رأى أن الجميع كانوا يحتفون بي في «لا راسبليير» وشعر أنّه يقصي نفسه طوعاً عن ألفة شخص لا يشكّل خطراً عليه بما أنه نسف كلّ الجسور من

حولي وجرّدني من أيّة إمكانيّة للظهور مظهر الحامي له (الذي لم أفكّر البتّة على أيّ حال في اتخاذه) فقد كفّ عن البقاء بعيداً عنّي. وعزوت التبدّل في موقفه إلى تأثير السيد «دو شارلوس» الذي كان يجعله أقل محدوديّة حول بعض النقاط وأكثر فنّاً، ولكنّه كان يزيد من غبائه حول نقاط أخرى كان يطبّق فيها حرفياً قواعد معلّمه البليغة الكاذبة، والمؤقتة على أي حال. فالشيء الوحيد الذي افترضتُه كان بالفعل ما أمكن أن يقوله له السيد «دو شارلوس». فكيف كان لي أن أحزر حينئذ ما قيل لي فيما بعد (وما لم أتيقّن به في يوم، إذ بدت لي توكيدات «آندريه» في كلّ ما يتعلق بـ«ألبيرتين»، ولا سيما فيما بعد، بدت لي دوماً مشكوكاً فيها إلى حدّ بعيد، ذلك لأنّها حسبما تبيّناه في السابق، لم تكن صادقة في حبّ صديقتي وكانت تغار منها)، وما أُخفي عنّي في جميع الأحوال، إن كان صحيحاً، بصورة لافتة من جانبهما كليهما: عنيت أن «ألبيرتين» كانت على معرفة وثيقة بـ«موريل»؟ لقد سمح لي الموقف الجديد الذي وقفه مني «موريل» حوالي تلك الفترة من طرد الحوذي، بتغيير رأيي فيه. فقد احتفظت من طبعه بالفكرة البشعة التي حمّلتني إيّاها الدناءة التي أبداها لي ذلك الشابّ حينما كانت به حاجة إليّ وأعقبها فور تأدية الخدمة ازدراء بلغ به حدّ الظهور مظهر من لا يراني. وكان لا بدّ أن نضيف إلى ذلك وضوح صلات له بالسيد «دو شارلوس» تطبعها الرشوة إلى جانب الغرائز البهيميّة التي لا عاقبة لها والتي كان نقص إشباعها (إن اتّفق ذلك) أو التعقيدات التي تحملها معها تسبّب أحزانه. لكنّ ذلك الطبع لم يكن متماثل القبح إلى هذا الحدّ وكان مليئاً بالتناقضات. كان يشبه كتاباً عتيقاً من العصر الوسيط مليئاً بالأخطاء والتقاليد اللامعقولة والبذاءات، وكان مزيجاً عجيباً من عناصر شتّى. وظننت في البداية أنّ فنّه الذي امتلك حقاً ناصيته قد أولاه صنوفاً من التفوّق تتجاوز براعة العازف العادي. وفي مرّة كنت أعرب فيها عن رغبتي في مباشرة العمل قال لي: «هيّا اعمل وصر مشهوراً». فسألته: «ولمن القول؟» - «من «فونتين» إلى «شاتوبريان». كان يعرف كذلك

مراسلات غرامية لـ«نابليون». وفكرت قائلاً: حسن، إنّه مثقّف. ولكنّ تلك الجملة التي لا أعلم أين قرأها كانت دون شكّ الوحيدة التي يعرفها في كلّ الأدب القديم والحديث إذ كان يردّدها على مسامعي كلّ مساء. كان ثمّة أخرى يردّدها أكثر كي يمنعني من أن أقول عنه شيئاً لأحد، وهي هذه التي كان يظنّها أدبيّة أيضاً وتكاد لا تكون فرنسيّة أو هي على الأقل لا تتضمّن أيّ معنى إلّا ربّما في نظر خادم نزّاع إلى الخفاء: «فلنحذر مَنْ طبعهم الحَذَر». ولعلّنا بانتقالنا من هذا القول المأثور وصولاً إلى جملة «فونتين» إلى «شاتوبريان»، لعلّنا نكون طفنا في الأساس بقسم كامل من طبع لـ«موريل» منوّع ولكنّه أقلّ تناقضاً ممّا يبدو. فهذا الفتى الذي كان فَعَل، بشرط أن يكسب من ذلك مالاً، أيّ شيء ودون تبكيت ضمير - وربّما لم يخلُ الأمر من تكدّر غريب يصل حدّ التهيّج العصبي الشديد ولكن اسم تبكيت الضمير قد لا ينطبق عليه تماماً -، والذي كان أشاع الأسى أو حتّى الحداد، إن رأى في ذلك مصلحته، في نفوس عائلات بأسرها، هذا الفتى الذي كان يضع المال فوق أيّة منزلة، وبصرف النظر عن الطيبة، فوق مشاعر الإنسانية البحتة الأكثر قرباً من الطبيعة، هذا الفتى نفسه كان يضع مع ذلك فوق المال دبلوم الجائزة الأولى الذي حصل عليها من الكونسرفاتوار وأن لا يسع أحداً أن يقول قولاً يتناوله بالسوء في درس الناي أو «الكونتربوان». لذلك كانت أعظم صنوف غضبه ونوبات اهتياجه الأكثر كآبة والأقلّ تبريراً ناجمة عمّا كان يدعوه (وهو يعمّم دون شك بعض الحالات الخاصّة التي صادف فيها بعض السيئي الطويّة) بالخداع الشامل. وكان يباهي بتحاشيه وذلك بأن لا يتكلّم عن أحد البتّة وبإخفاء أوراقه وبإبداء الحذر من الجميع. (ولكنّ حذره، لسوء حظّي وبسبب ما كان سينتج عنه بعد عودتي إلى باريس، لم يفلح إزاء سائق «بالبيك» الذي لا شكّ أنّه تعرّف فيه مثيلاً له، أي بعكس حكمته المأثورة محاذراً بالمعنى الجيّد للكلمة، محاذراً معانداً في صمته في حضرة الشرفاء وتراه في الحال شريكاً للخليع). كان يبدو له - وما كان الأمر خطأ تماماً - أن ذلك الحذر

سوف يمكّنه من التخلّص دوماً من أيّة ورطة والانسلال خفيّاً لا تدركه العين عبر أكثر المغامرات خطورة ودون أن يستطيع أحد المجيء بشيء ضدّه في معهد شارع «بيرجير»[1]، ناهيك عن إقامة البرهان على شيء ضدّه. سوف يعمل ويصبح مشهوراً وربّما أضحى في يوم، والكرامة محفوظة لا مساس بها، رئيس اللجنة الفاحصة للكمان في مسابقات هذا المعهد الشهير.

ولكن ربّما بالغنا في ما نضع من منطق في دماغ «موريل» بأن نُخرج منه التناقضات بعضها من بعض. والحقيقة أن طبيعته كانت حقّاً كورقة جعلوا فيها من الثنيات في كلّ اتجاه ما يستحيل معه الاهتداء فيها. كان يبدو أنّ لديه مبادئ سامية إلى حدّ ما وكان يقضي ساعات يكتب فيها إلى شقيقه، بخطّ رائع تشوّهه أبشع الأخطاء الإملائيّة، أنّه أساء التصرّف مع شقيقاته وأنّه الكبير بينهم وهو سندهم، وإلى شقيقاته أنهنّ كنّ غير لائقات تجاهه هو.

بل إنّك بعد قليل حينما كنت، والصيف في أواخره، تنزل من القطار في «دوفيل» ما كانت الشمس، وقد خفّفها الضباب، ما كانت في السماء ذات اللون الخبّازيّ المتساوي سوى كتلة حمراء. وكان ينضاف إلى السكون الكبير الذي يحلّ في المساء على هذه المروج الكثيفة المِلْحِيّة والذي كان نَصَحَ الكثيرين من الباريسيين، وغالبيّتهم من الرسّامين، في المبادرة إلى الاصطياف في «دوفيل» رطوبة تحملهم على الرجوع في ساعة مبكّرة إلى الشاليهات الصغيرة، وفي كثير منها كان المصباح قد أوقد. وحدها بعض الأبقار كانت تلبث في الخارج تنظر إلى البحر وهي تخور، بينما تبدي أخرى غيرها اهتماماً أكبر بالإنسانية فتصرف انتباهها إلى سيّاراتنا. وثمّة رسّام كان، بعدما نصب حامل لوحاته على رابية صغيرة، يعمل وحده في محاولة ردّ هذا السكون العظيم وهدأة الضياء. وربّما

(١) حيث المعهد العالي للموسيقى.

كانت الأبقار عازمة على أن توفّر له نماذج على نحو غير واع وتطوّعي إذ إنّ مظهرها التأملي ووجودها المفرد بعدما يكون البشر قد عادوا، كانا يسهمان على طريقتهما في هذا الانطباع القويّ من السكينة المنبعث من المساء. ولم تكن عمليّة النقل بعد انقضاء عدّة أسابيع أقلّ إمتاعاً حينما أضحى النهار بتقدّم الخريف قصيراً جدّاً وانبغى إتمام هذه الرحلة ليلاً. فإن قمتُ بجولة بعد الظهر كان لا بدّ من العودة في الخامسة على أبعد حدّ لارتداء ثيابي، وكانت الشمس حينها قد انحدرت مستديرة حمراء وسط المرآة المائلة الممجوجة فيما مضى، وأخذت تلهب، شأن نار روميّة، مياه البحر في زجاج مكتباتي كافّة. وإذ أثارت حركة تعزيميّة، فيما كنت أرتدي لباسي الرسمي، الأنا الرشيقة الطائشة التي كانت لي حينما كنت أمضي بصحبة «سان لو» للعشاء في «ريفبيل» وفي العشيّة التي خلتني سأصطحب فيها الآنسة «دو ستيرماريا» لتناول العشاء في جزيرة الغابة، أخذت أدندن على نحو غير واع لحن ذاك الحين نفسه؛ وكنت حينما ألاحظ ذلك فقد أتعرّف من الأغنية المغنّي «المعاود» الذي ما كان يعرف بالفعل غيرها. فأول مرّة غنّيتها فيها كنت آخذاً في حبّ «ألبيرتين» ولكنّي كنت أظنّ إنني لن أعرفها في يوم. وكان ذلك فيما بعد في باريس حينما توقّفت عن حبّها وبعد بضعة أيّام على امتلاكي لها أوّل مرّة. والآن كان ذلك وأنا آخذ في حبّها من جديد ولحظة الذهاب لتناول طعام العشاء معها فأثير أسف المدير الذي كان يعتقد أني سوف أسكن في النهاية في «لا راسبليير» وأتخلّى عن فندقه والذي كان يؤكّد أنّه سمع من يقول إن ثمّة حمّات تتسيّد المكان ناجمة عن مستنقعات «بيك» ومياهها «العاسنة»[1]. كنت سعيداً لهذا التعدّد الذي أراه على هذا النحو في حياتي المنشورة على ثلاثة مستويات. ثمّ إنّك حينما تعود فتصبح على مدى لحظة إنساناً سابقاً، أعني مختلفاً عن الإنسان الذي أنت عليه منذ زمن بعيد، فإن الحساسية إذ لم

(١) يريد بها «الآسنة».

تعد تكسر العادة من حدّتها تجني من أدنى الصدمات انطباعات حادّة إلى درجة أنّها تحجب كلّ ما سبقها وأننا نتعلّق بها، من جرّاء شدّتها، بالحماسة العابرة التي تَهزّ السكّير. كان الليل قد حلّ حينما كنّا نستقل الحافلة أو العربة التي كانت ستنقلنا إلى المحطة لنستقلّ القطار الصغير. وكان الرئيس الأول يقول لنا في الردهة: «آه! تذهبون إلى «لا راسبليير» يا لها، السيدة «فيردوران»؛ وأيّة جسارة أن تحملكم على قضاء ساعة في القطار في أثناء الليل لمحض أن تتناولوا طعام العشاء، ثمّ تعاودون المشوار في العاشرة ليلاً عبر رياح جهنّميّة، واضح تماماً أنّه لا بدّ أن ليس لديكم ما تفعلونه» يضيف قوله وهو يفرج يديه. ولا شكّ أنّه كان يتكلّم على هذا النحو لاستيائه من أنّه لا يُدعى وبسبب الارتياح الذي يحسّه الناس «المشغولون» - حتّى بأكثر الأعمال غباء - في «أن لا يتوافر لهم الوقت» ليقوموا بما تقوم به. وإنّه لمن المشروع بالتأكيد أن يحسّ الرجل الذي يسطّر تقارير ويُراكِم الأعداد ويردّ على رسائل تجاريّة ويتابع أسعار البورصة، عندما يقول لك مقهقهاً: «هذا يناسبك أنت الذي ليس عنده ما يفعله»، بمتعة الشعور بتفوّقه، ولكنّ هذا التفوّق كان يتجلّى بذات القدر من الاستكبار، بل وأكثر (فالعشاء في المدينة يفعله الرجل المشغول أيضاً)، إن قامت تسليتك على كتابة «**هاملت**» أو على قراءته فحسب، وفي ذلك يفتقر الرجال المشغولون إلى التفكير. ذلك لأن الثقافة الخالية الغرض التي تبدو لهم تسلية من فعل عاطلين عن العمل حينما يضبطونها في لحظة قيامك بها إنّما ينبغي التفكير بأنّها هي ذاتها التي تضع في مكانة فذّة داخل مهنتهم رجالاً ربّما ليسوا قضاة أو مديرين أفضل منهم ولكنّهم ينحنون أمام تقدّمهم السريع قائلين: «يبدو أنّه مثقّف كبير وشخص متميّز تماماً». ولكنّ الرئيس الأوّل ما كان يتبيّن على وجه الخصوص أنّ ما يروقني في حفلات العشاء هذه في «لا راسبليير» أنّها «تمثّل رحلة حقيقيّة» كما كان يقول بحق، وإن كان على سبيل الانتقاد، رحلة كان يبدو سحرها متزايد القوّة بقدر ما لم تكن هدفاً لذاتها ولا يبحثون فيها البتّة عن المتعة،

فهذه مخصّصة للاجتماع الذي يمضون إليه والذي لا يكفّ عن التبدّل الشديد من جرّاء الجوّ الذي يحيط به. كان الليل قد حلّ الآن حينما كنت أستبدل بحرارة الفندق - الفندق الذي أصبح بيتي - عربة القطار التي كنت أصعد إليها برفقة «ألبيرتين» والتي يطلعني انعكاس المصباح على زجاجها في بعض مواقف القطار الصغير المنهوك القوى على أننا وصلنا إلى محطّة. وكي لا أجازف بألا يبصرنا «كوتار»، ولمّا لم أسمع باسم المحطّة ينادون عليه، فقد كنت أفتح باب العربة، ولكنّ ما يهرع إلى العربة كانت الريح والمطر والبرد وليس الخُلّص. وكنت أميّز في العتمة الحقول وأسمع البحر فقد كنّا في أرض مكشوفة. كانت «ألبيرتين» قبل أن نلحق بالنواة الصغيرة تنظر في مرآة صغيرة تُخرجها من صندوق زينة ذهبيّ تحمله معها. فقد كانت السيّدة «فيردوران» في المرّات الأولى قد أصعدتها إلى حجرة ملابسها كي تتزيّن قبل العشاء وأحسست أنا في صميم الطمأنينة العميقة التي كنت أعيش فيها منذ بعض الوقت بشيء من الاضطراب والغيرة لاضطراري أن أترك «ألبيرتين» في مطلع الدرج وشعرت بضيق عظيم فيما كنت في الصالة وحيداً وسط العشيرة الصغيرة أتساءل عمّا كانت صديقتي تفعل فوق إلى حدّ أني بادرت في الغد فأوصيت برقيّاً، بعدما سألت السيّد «دو شارلوس» حول ما كان أكثر أناقة في هذا المضمار، على صندوق زينة لدى «كارتييه» كان يبهج «ألبيرتين» ويبهجني. لقد كان بالنسبة إليّ عربون طمأنينة وكذلك عربون عطف صديقتي. فقد حزرتُ بالتأكيد أني ما كنت أودّ أن تمكث بدوني لدى السيدة «فيردوران» فكانت تتدبّر أمرها فتقوم في عربة القطار بكامل الزينة التي تسبق العشاء. مكتبة سُر مَن قرأ

كان السيّد «دو شارلوس» قد أصبح الآن منذ عدّة شهور في عداد روّاد منزل السيدة «فيردوران» وأكثرهم جميعاً إخلاصاً. فقد كان المسافرون الذين يتوقّفون في قاعات الانتظار أو على رصيف «دونسيير» الغربيّة يشاهدون بانتظام ثلاثاً في الأسبوع هذا الرجل السمين يمرّ بشعره الأبيض وشاربه الأسود وشفتيه الحمراوين بفعل خضاب يُلاحظ في آخر الموسم

أقلّ منه في الصيف حيث يجعله الضياء الساطع أكثر التماعاً والحرّ نصف مائع. وما كان يستطيع، وهو يتوجّه إلى القطار الصغير، أن يملك نفسه (من جرّاء عادة الخبير لديه فحسب، بما أن لديه الآن إحساساً كان يجعله عفيفاً أو على الأقل مخلصاً في غالب الأحيان) عن أن يلقي على الرجال الكادحين والعسكريين والشبّان بلباس كرة المضرب نظرة يختلسها قاسية هيّابة في آن معاً يرخي بعدها جفنيه في الحال على عينيه المطبقتين تقريباً بعذوبة رجل دين يصلّي مسبحته، وتحفّظِ زوجة نذرت نفسها لحبّها الوحيد أو فتاة حسنة التهذيب. كان يزيد من قناعة الخلّص بأنّه لم يبصرهم صعوده إلى مقصورة غير مقصورتهم (كما كانت تفعل في الغالب أيضاً الأميرة «شيرباتوف») فعلَ رجل لا يعرف إن كان يسرّك أو لا يسرّك أن تُشاهَد بصحبته فيدع لك أن تأتي للقائه إن رغبت في ذلك. والرغبة لم يكابدها الدكتور في المرّات الأولى وقد شاء أن ندعه وحده في مقصورته. وإذ كان يبرز عالياً، منذ أن أصبح يشغل مكانة طبيّة كبيرة، طبعه المتردّد فقد قال وهو يبتسم وينقلب إلى الوراء وينظر إلى «سكي» من فوق نظّارته، قال بخبث أو كي يفاجئ مواربة رأي رفاقه: «تدركون، لو كنت وحدي، عازباً. . . ولكنّي أتساءل إن كنت أستطيع، بسبب زوجتي، أن أتركه يسافر معنا بعد الذي قلتموه لي»، يضيف الدكتور همساً. وسألت السيدة «كوتار» تقول: «ما الذي تقول؟» فأجاب الدكتور وهو يغمز بعينه: «لا شيء والأمر لا يعنيك وليس للنساء»، أجاب بجلال الراضي عن نفسه، جلال هو الوسط بين مظهر المُضحك الذي لا يَضحك الذي يحتفظ به أمام تلاميذه ومرضاه والقلق الذي كان يرافق نكاته فيما مضى في منزل آل «فيردوران»، وتابع كلامه بصوت خافت. ولم تتبيّن السيدة «كوتار» سوى لفظتَي «من الجماعة» و«لسان»[1]، ولمّا كانت الأولى تعني في لغة الدكتور جنس

---

(١) الحقيقة أن كلمة «Tapette» تعني «لسان» في اللغة الدارجة و«لوطي سلبي» في اللغة البذيئة، وإن كنا اخترنا المعنى الأول فليتماشى مع ما يلي مع أن الثاني هو المقصود.

اليهود والثانية اللسان الثرّ الكلام فقد خلصت السيدة «كوتار» إلى أن السيد «دو شارلوس» لا بدّ كان يهودياً ثرثاراً. ولم تفهم أن يجري استبعاد البارون بسبب ذلك وحكمت أن من واجبها كعميدة للعشيرة أن تطالب بألا يتركوه وحده واتخذنا جميعاً طريقنا إلى مقصورة السيد «دو شارلوس» ودليلنا إليه «كوتار» الدائم الارتباك. ولمح السيد «دو شارلوس» ذاك التردّد من الركن الذي كان يقرأ فيه كتاباً لـ«بلزاك»، مع أنّه لم يرفع ناظريه. ولكن مثلما يعرف الصمّ البكم من مجرى هواء لا يحسّه الآخرون أن أحدهم يجيء على إثرهم كان يملك فرط حدّة إحساس حقيقية كيما يتنبّه للفتور الذي يواجه به. وقد ولّدت تلك الحدّة لدى السيد «دو شارلوس» عذابات وهميّة كما تعوّدت أن تفعل في سائر المجالات. وعلى غرار مرضى الأعصاب الذين يستشفّون حين يحسّون برودة خفيفة أنّه لا بدّ ثمّة من نافذة مفتوحة في الدور العلوي فيثورون غاضبين ويأخذون بالعطاس، كان السيد «دو شارلوس» يستخلص، إن أبدى أحدهم انشغالاً وهمّاً في حضرته، أنّهم لا بدّ ردّدوا لذاك الشخص قولاً سبق أن قاله فيه. بل لم تكن ثمّة حاجة أن يبدو المرء ساهياً أو متجهّماً أو مستهزئاً فقد كان يبتدع تلك المظاهر. وكانت المودّة في مقابل ذلك تحجب عنه بيسر ضروب النميمة التي لا يعرفها. وإذ حزر في المرّة الأولى تردّد «كوتار»، ولئن مدّ يده فأثار إلى حدّ بعيد دهشة الخُلّص الذين يظنّون أن القارئ المطرق الرأس لم يبصرهم بعد، لئن مدّ لهم يده حينما أصبحوا على مسافة مناسبة، فقد اكتفى بالنسبة إلى «كوتار» بانحناءة لكامل جسمه، الذي سارع في الحال فاعتدل، دون أن يأخذ بيده التي يكسوها قفّاز من السويد، اليد التي كان الدكتور قد مدّها له. وقالت السيدة «كوتار» للبارون بلهجة تفيض طيبة: «لقد حرصنا كلّ الحرص يا سيّد على مرافقتك وعلى أن لا ندعك هكذا وحيداً في ركنك الصغير. إنّه لسرور عظيم نصيبه». وتلا البارون بلهجة فاترة وهو ينحني: «لقد نلت شرفاً عظيماً». - «سعدت كثيراً حين علمت أنّك اخترت هذا البلد بصورة نهائية لتُقيم فيه مظ...» لقد أوشكتْ أن تقول مظلّتك، ولكنّ الكلمة بدت لها عبريّة ومكدِّرة بالنسبة

ليهودي يمكن أن يرى فيها تلميحاً. فاستدركت بغية اختيار تعبير آخر من تلك المألوفة لديها، ونعني بها عبارة رسميّة: «لتقيم فيه، قصدت أن أقول «آلهة بيتك» (صحيح أن هذه الآلهة ما كانت بدورها تنتمي إلى الديانة المسيحية بل إلى أخرى اندثرت منذ فترة طويلة جداً حتى لم يعد لها أتباع تخشى الإساءة إليهم). أمّا نحن فلا نستطيع، لسوء الحظ، بسبب افتتاح المدارس وعمل الدكتور في المشفى، لا نستطيع البتّة اختيار مسكن لنا في المكان نفسه». ثمّ قالت وهي تريه بطاقة دعوة: «انظر على أيّ حال كم نحن النساء أقلّ حظاً من الجنس الخشن فإننا نضطرّ في ذهابنا إلى مكان بمثل قرب منزل أصدقائنا آل «فيردوران» أن نحمل معنا طائفة من الحاجات». أمّا أنا فكنت أنظر في هذه الأثناء إلى مجلّد «بلزاك» خاصّة البارون. لم يكن طبعة بغلاف عادي ابتيعت مصادفة مثل مجلّد «بيرغوت» الذي أعارني إيّاه في السنة الأولى. لقد كان واحداً من مجلّدات مكتبته وكان يحمل بصفته تلك الشعار التالي: «إنّي أخصّ البارون «دو شارلوس» الذي تفسح له في المجال أحياناً، إبرازاً لميل لدى آل «غيرمانت» إلى العمل المجدّ، مثل هذه «In proeliis non semper» (ليس في المعارك دوماً)، وأخرى أيضاً مثل: «Non sine labore» (لا شيء يجيئك دون جهد). ولكنّنا سنجدها عمّا قليل وقد حلّ محلّها أخرى في محاولة منه ليحسن في عين «موريل». وباشرت السيّدة «كوتار» بعد فترة موضوعاً كانت ترى أنّه ألصق بشخص البارون، فقالت له بعد فترة وجيزة: «لست أدري إن كنت تشاركني الرأي يا سيّد، ولكنّي رحبة الفكر إلى حدّ بعيد، والأديان كلّها حسبما أرى صالحة، بشرط أن يمارسها المرء بإخلاص. ولست من هؤلاء الناس الذين يجعلهم منظر أحد البروتستانتيّين. . . يخشون المياه». فأجاب السيد «دو شارلوس»: «لقد علّموني أن ديني هو الحقّ». وفكّرت السيدة «كوتار» قائلة: «إنّه متعصّب. لقد كان «سوان» أكثر تسامحاً إلّا في أواخره، وصحيح أنّه كان قد اهتدى إلى الإيمان». ولكنّ البارون، على العكس تماماً، لم يكن مسيحياً على نحو ما هو معلوم فحسب، بل كان تقيّاً

على طريقة العصر الوسيط. لقد كانت الكنيسة المسيحيّة بالمعنى الحيّ للكلمة، في نظره ونظر النحّاتين في القرن الثالث عشر على السواء، تعمرها طائفة من الكائنات يعتقد أنّها حقيقيّة تماماً: أنبياء ورسل وملائكة وقدّيسون من كلّ نوع يحيطون بالكلمة المتجسّد ووالدته وزوجها الآب الأزليّ، والشهداء ومعلّمو الكنيسة جميعاً حتّى إن جمهرتهم تتدافع بارزة النقوش على البوّابة أو تملأ صحن الكاتدرائيات. وكان السيد «دو شارلوس» قد اختار من بينهم بمثابة أولياء شفعاء له رؤساء الملائكة ميخائيل وجبرائيل ورفائيل الذين كان يجري معهم أحاديث متعدّدة كي ينقلوا توسّلاته إلى الآب الأزلي الذي يقفون أمام عرشه. ولذلك أضحكتني غلطة السيدة «كوتار» كثيراً.

ولنقل، كيما ندع الميدان الديني جانباً، إنّ الدكتور الذي جاء إلى باريس يحمل زاداً يسيراً قوامه نصائح والدة فلّاحة، ثم شغلته الدراسات الماديّة المحضة تقريباً التي يضطر من يبغون الذهاب بعيداً في مهنتهم الطبيّة أن يصرفوا النفس إليها على مدى سنوات كثيرة لم يتثقّف في يوم. لقد اكتسب قسطاً أوفر من النفوذ، ولكنّه لم يكتسب خبرة. وقد أخذ كلمة «أصبنا شرفاً» بالمعنى الحرفيّ فاغتبط بها إذ كان مغروراً واغتمّ لها إذ كان فتى طيّباً في آن معاً. وقال في المساء لزوجته: «دو شارلوس المسكين، يا له، لقد شقّ عليّ حينما قال لي إنّه نال شرفاً عظيماً بسفره برفقتنا. تحسّ أنه، المسكين، لا معارف له وأنّه يذلّ نفسه».

لكنّ الخُلّص أفلحوا بعد قليل، ودونما حاجة بهم أن تقودهم السيدة «كوتار» الشفوقة، في السيطرة على الحَرَج الذي عانوا جميعاً منه إلى حدّ ما في البداية لأن يكونوا بجانب السيد «دو شارلوس». فليس من شكّ أنّهم ما كان يغرب عن بالهم وهم في حضرته ذكرى تصريحات «سكي» وفكرة الغرابة الجنسيّة التي ينطوي عليها رفيق أسفارهم. بيد أن هذه الغرابة عينها كانت تمارس عليهم نوعاً من الجاذبية. كانت تولي حديث البارون في نظرهم، وهو لافت على أيّ حال ولكنّما في أجزاء يكاد لا

يسعهم تقديرها، نكهة كانت تُظهر حديث أكثرهم إشارة، وحتّى «بريشو» نفسه إلى جانبه، على أنّه تافه بعض الشيء. وقد طاب لهم منذ البداية على أيّ حال أن يقرّوا بأنّه ذكيّ. «العبقرية يمكن أن تتجاوز الجنون»، يعلن الدكتور قوله، فإن ألحّت الأميرة في نهمها إلى التعلّم، لم يكن ليزيد على ذلك إذ المسلّمة هذه كلّ ما كان يعرف عن العبقريّة وهي لا تبدو له من جانب آخر واضحة البرهان وضوح كلّ ما تعلّق بالحمّى التيفيّة والتهاب المفاصل. ولمّا كان قد أضحى متعجرفاً ولبث سيّئ التهذيب: «لا أسئلة أيتها الأميرة، لا تسأليني فإني على شاطئ البحر لأستريح. ولن تفهميني بأيّة حال، فلست عارفة بالطبّ». وكانت الأميرة تصمت وهي تعتذر إذ ترى «كوتار» رجلاً ظريفاً وتدرك أنْ ليس مشاهير الناس دوماً ليّني الجانب. لقد خلصوا في هذه الفترة الأولى إذن إلى اعتبار السيد «دو شارلوس» ذكيّاً على الرغم من المعيبة التي به (أو ما يطلقون عليه هذا الاسم بعامّة). والآن كانوا بسبب تلك النقيصة، ودون أن يتبيّنوا ذلك، يرون أنّه أوفر ذكاء من الآخرين. كانت أبسط الحِكَم التي ينطق بها السيد «دو شارلوس»، وقد استشاره بمهارة الجامعيّ أو النحّات، حول الحبّ والغيرة والجمال، كانت تكتسب في نظر الخُلّص، بسبب التجربة الفريدة والخفيّة والمرهفة والرهيبة التي استقاها منها، سحر الشعور بالغربة التي ترتديه سيكولوجية شبيهة بتلك التي قدّمها لنا على الدوام أدبنا المسرحي في مسرحيّة روسيّة أو يابانيّة يقوم بأدوارها ممثّلون من هناك. كانوا بعدُ يجازفون، حينما لا يسمح، بإلقاء مزحة مُستنكَرة؛ فكان النحّات يهمس لدى رؤيته مستخدماً شاباً بأهداب كثيرة الألوان طويلة لم يستطع السيد «دو شارلوس» أن يملك نفسه عن التفرّس فيه: «آه! إن شرع البارون يغمز بعينه للمفتّش فلن نصل عن قريب وسيمضي القطار القهقرى. فهيّا شاهدوا بأيّة طريقة ينظر بها إليه، وبعدُ ليس ما نحن فيه قطار صغير، إنّه «مَعْجَزَة»[1]

(١) نحاول ما أمكن ردّ التلاعبات اللفظيّة، وهي بذيئة في هذا السياق (funiculeur, funiculaire).

ولكنّهم كانوا في الأساس يحسّون بالخيبة تقريباً إن لم يجئ السيد «دو شارلوس»، للسفر بين مجرّد أناس مثل كلّ الناس وأن لا يكون بالقرب منهم ذاك الشخص الذي تغطّيه الأصباغ المنتفخ المغلق الذي يشبه علبة أجنبيّة مشبوهة تنبعث منها الرائحة الغريبة التي لفواكه تكفي فكرة مجرّد تذوّقها لتصاب بالغثيان. ومن وجهة النظر هذه كان الخُلّص من الذكور يصيبون مسرّات أكثر شدّة في الجزء القصير من الرحلة الذي يقطعونه بين «سان مارتان دو شين» حيث يصعد السيد «دو شارلوس» و«دونسيير» حيث يلحق بهم «موريل». فما كان السيد «دو شارلوس»، ما دام عازف الكمان غير موجود هناك (وإن أقامت السيدات و«ألبيرتين» بعيداً وقد انتحين جانباً كي لا ينكّدن عليهم الحديث) ما كان يتحرّج كي لا يبدو أنّه يتجنّب بعض الموضوعات ويتكلّم «عمّا اصطلح على تسميته بسوء الأخلاق». ما كان بوسع «ألبيرتين» أن تضايقه إذ كانت على الدوام برفقة السيدات وذلك تلطّفاً من فتاة لا تودّ أن يحدّ وجودها من حريّة الحديث. أمّا أنا فكنت أحتمل بيسر ألا تكون إلى جانبي ولكن بشرط أن تمكث في العربة نفسها. فأنا الذي كان لا يحسّ من بعد لا بالغيرة عليها ولا بالحبّ تقريباً ولا يفكّر بما كانت تفعل في الأيام التي لا يراها فيها، إنّما كان حاجز بسيط، ساعة أكون حاضراً، ويمكن لدى الاقتضاء أن يخبّى خيانة، كان عسير الاحتمال في نظري، فإن مضت برفقة السيدات إلى المقصورة المجاورة كنت بعد حين لا أطيق المكوث في مكاني فأنهض مجازفاً بتكدير من كان يمسك بزمام الكلام، «بريشو» أو «كوتار» أو «دو شارلوس» الذين ما كان بمقدوري أو أوضح لهم سبب هربي، فأتركهم هناك وأنتقل إلى الجوار لأرى إن لم يكن ثمّة أمر غير طبيعيّ. وكان السيد «دو شارلوس» يتحدّث حتّى «دونسيير»، إذ لا خشية به من خدش الأسماع، حديثاً شديد الفجاجة أحياناً عن عادات يعلن أنّه لا يراها في ما يخصّه حسنة أو سيّئة. كان يفعل ذلك عن مكر كيما يُظهر سعة فكره إذ هو على يقين أن ممارساته تكاد لا تثير أيّ ارتياب في أذهان الخُلّص. كان يعتقد جازماً أن في الكون بضعة

أشخاص كانوا حسب تعبير أصبح فيما بعد مألوفاً عنده، «على بيّنة من أمرهم في ما يخصّه». ولكنّه كان يتصوّر أن أولئك الأشخاص لا يتجاوزون الثلاثة أو الأربعة وأن ليس واحد منهم على الشاطئ النورماندي. ومثل هذا الوهم يمكن أن يثير العجب من جانب شخص بمثل رهافته وبمثل تحسّبه. فقد كان يمنّي النفس حتّى بالنسبة إلى من يظنّهم على بعض اطّلاع بأن ذلك إنّما يحيط به الغموض، ويزعم أنّه، حسبما يقول لهم هذا الشيء أو ذاك، يضع هذا الشخص أو ذاك خارج نطاق افتراضات مُحَاوِر كان يتظاهر تأدّباً بتقبّل أقواله. كان يتصوّر، حتّى إن شكّ بما يمكن أن أعرفه أو أفترضه حوله، أن ذاك الرأي، الذي يظنّه أكثر قدماً في ما يخصّني ممّا هو في الواقع، كان عامّاً جدّاً، وأنّه يكفيه إنكار هذا التفصيل أو ذاك كيما يصدّقوه في حين أن معرفة الإجمال إن كانت على العكس تسبق دوماً معرفة التفاصيل فإنّها تسهّل إلى أبعد حدّ البحث عنها ولا تمكّن من يبغي كتم الأمور، بعدما قضت على إمكان التخفّي، من إخفائه ما يحلو له إخفاؤه. صحيح أن السيد «دو شارلوس» حينما كان يلجأ، إذ يدعوه واحد من الخُلّص أو واحد من أصدقاء الخلّص إلى حفل عشاء، إلى أكثر المداورات تعقيداً ليسوق ضمن أسماء الأشخاص العشرة الذين يذكرهم اسم «موريل» ما كان يرتاب أنّ مضيفيه كانوا يضعون محلّ الأسباب المختلفة على الدوام التي كان يقدّمها حول البهجة أو الارتياح اللذين يمكن أن يصادفهما في ذلك المساء إن هو دُعي معه، وفيما يتظاهرون بأنّهم يصدّقونه تماماً، سبباً وحيداً لا يتبدّل البتّة وهو يظنه مجهولاً لديهم، عنينا أنّه كان يحبّه. كذلك كانت السيدة «فيردوران» تبدو دوماً وكأنّها تقبل تماماً الأسباب التي نصفها فنيّ ونصفها إنسانيّ والتي يقدّمها السيد «دو شارلوس» عن الاهتمام الذي يوليه لـ«موريل»، فلا تنفكّ تشكر البارون بانفعال على الألطاف المؤثرة، كما تقول، التي يبديها لعازف الكمان. ولكن كم لعلّ السيد «دو شارلوس» كان دهش لو أنه سمع، ذات يوم تأخَّرَ فيه هو و«موريل» ولم يأتيا بطريق السكّة الحديديّة،

المعلّمة تقول: «لسنا ننتظر من بعد سوى هاتين الآنستين»! ولعلّ البارون كان ازداد ذهوله بمقدار ما كان يظهر في «لا راسبلبير» وهو يكاد لا يغادرها، مظهر كاهن كنيسة أو رئيس دير، وكان يقضي فيها أحياناً (عندما يتوافر لـ«موريل» إذن بثمان وأربعين ساعة) ليلتين متواليتين. كانت السيدة «فيردوران» تختار لهما حينذاك غرفتين متّصلتين وتقول كيما توفّر لهما الراحة النفسيّة: «وإن طاب لكما بعض العزف فلا تتردّدا في ذلك، فالجدران أشبه بجدران الحصون وليس أحد في الدور الذي أنتما فيه وزوجي ينام نوماً ثقيلاً». كان السيد «دو شارلوس» في تلك الأيّام يحلّ محلّ الأميرة في الذهاب لاصطحاب الجدد من المحطّة ويلقي العذر للسيدة «فيردوران» لأنّها لم تجئ بسبب وضع صحّي كان يُحسن وصفه إلى حدّ أن المدعوّين كانوا يدخلون بوجه يناسب الوضع ثمّ يطلقون صيحة استغراب إذ يجدون المعلّمة واقفة تفيض نشاطاً وبفستان يكشف نصف كتفيها.

ذلك أن السيد «دو شارلوس» أصبح مؤقتاً بالنسبة إلى السيدة «فيردوران» المخلص من بين المخلصين ونموذجاً آخر من الأميرة «شيرباتوف». كانت أقلّ ثقة بوضعه في المجتمع الراقي منها بوضع الأميرة إذ تتصوّر أنّه إن لم ترغب هذه الأخيرة إلّا بلقاء النواة الصغيرة فإنّما ازدراءً للآخرين وإيثاراً لها. ولمّا كانت هذه الحيلة هي بالضبط ما يميّز آل «فيردوران» الذين كانوا يحسبون كلّ من لا يستطيع مخالطتهم مبرِمين فليس يُصدَّق أن يكون وسع المعلّمة أن تظنّ للأميرة روحاً فولاذيّة تكره الأناقة. ولكنّها ظلّت تتشبّث برأيها وتوقن أنّه، في ما يخصّ السيدة الكبيرة أيضاً، إن لم تكن تخالط المبرِمين فإنما تفعل بصدق ومن جرّاء ميل إلى أمور الفكر. والمبرمون على أيّة حال كان يتناقص عددهم بالنسبة إلى آل «فيردوران». فإن الحياة في الحمّامات البحريّة كانت تُفقد التعريف النتائج المستقبليّة التي ربّما خشي المرء منها في باريس. وإن رجالاً لامعين جاؤوا إلى «بالبيك» بدون زوجاتهم، الأمر الذي كان يسهّل كلّ

شيء، كانوا يقومون في «لا راسبلير» بمحاولات تقرّب ومن مبرِمين ينقلبون ظرفاء. وكانت تلك حال الأمير «دو غيرمانت» الذي ما كان غياب الأميرة ليحمله على الذهاب «بصفة عازب» إلى منزل آل «فيردوران» لو لم يكن مغناطيس مناصرة «دريفوس» قوياً إلى حدّ أنّه جعله يصعد دفعة واحدة السفوح التي تقود إلى «لا راسبلير» في يوم كانت المعلّمة لسوء الحظ قد خرجت فيه. والسيدة «فيردوران» لم تكن على أيّ حال متيقّنة من أنّه ينتمي والسيد «دو شارلوس» إلى العالم نفسه. لقد سبق بالحقيقة أن قال البارون إن الدوق «دو غيرمانت» شقيقه، ولكن ربّما كانت تلك كذبة مغامر. لقد كانت المعلّمة تتردّد تقريباً في دعوته مع الأمير «دو غيرمانت» مهما يكن أبدى من أناقة ولطف وإخلاص لآل «فيردوران». واستشارت «سكي» و«بريشو»: «البارون والأمير «دو غيرمانت»، هل يستقيم الأمر بهما؟»

- «يا إلهي، أظنّني يا سيدتي أستطيع أن أقول بخصوص أحد الاثنين. . . »

- «أحد الاثنين، وما عسى أن يهمّني ذلك؟» «تقول السيدة «فيردوران» مغتاظة»، «أسألك إن كان الأمر يستقيم لكليهما»؟ - «آه! يا سيدتي، تلك أمور ما أصعب أن نعرفها». وما كانت السيدة «فيردوران» تُضمّن الأمر أيّ خبث؛ فقد كانت متيقّنة من أخلاق البارون، ولكنّها لم تكن حينما تتحدّث على نحو ما فعلت تفكّر فيها البتّة بل لمحض أن تعلم إن كان بالإمكان دعوة الأمير والسيد «دو شارلوس» سويّة وإن كان الأمر يستقيم بذلك. لم تكن تُضمّن أيّ مقصد سوء تلك العبارات الجاهزة التي تستخدمها والتي تحبّذها «الجماعات الصغيرة» الفنيّة. وكيما تُباهي بالسيد «دو غيرمانت» كانت تودّ اصطحابه بعد الظهر الذي يلي الغداء إلى حفل خيري سوف يمثّل فيه بحّارة من الساحل عمليّة إقلاع. ولمّا كان لا يتّسع لها الوقت للاهتمام بكلّ شيء فقد عهدت بمهامها إلى المخلص من بين المخلصين، إلى البارون. «تدرك أنت أنّه ينبغي أن لا يلبثوا جامدين

كالقوالب، يجب أن يروحوا ويجيئوا وأن تُشاهَد «القيامة القائمة»، ولست أدري ما اسم كلّ ذلك. لكنّك ربّما استطعت أنت الذي كثيراً ما يذهب إلى مرفأ «بالبيك الشاطئ» أن تدعو إلى القيام بتجربة دون أن تتعب نفسك. لا بدّ يا سيّد «دو شارلوس» أنّك خبير بالأمر أكثر منّي في قصّة تحريك بحّارة صغار. ولكنّنا في نهاية المطاف نبذل جهوداً كبيرة من أجل السيد «دو غيرمانت»، فربّما كان معتوهاً من نادي الخيول. آه! يا إلهي، إني أتناول بالسوء نادي الخيول ويبدو لي أنّي أتذكّر أنّك من أهله. هيه، أيّها البارون، أنت لا تجيبني، فهل أنت منهم؟ ألا تودّ الذهاب في رحلة معنا؟ هاك، هوذا كتاب وصلني، وأعتقد أنّه سيحظى باهتمامك. إنّه من أعمال «روجون» وعنوانه جميل: «**بين الرجال**».

كنت في ما يخصّني أزداد سعادة بأن يحلّ السيد «دو شارلوس» عدّة مرّات محلّ الأميرة «شيرباتوف»، بقدر ما كنت على أسوأ حال معها لسبب عديم الشأن وعميق في الآن نفسه. ففي يوم كنت فيه في القطار الصغير أغمر بصنوف اهتماماتي، كما كانت هي حالي دوماً، الأميرة «شيرباتوف»، شاهدتُ السيدة «دو فيلباريسيس» تستقلّه. لقد جاءت بالفعل لقضاء بضعة أسابيع لدى الأميرة «دو لوكسمبور»، ولكنّي لم أستجب يوماً، إذ كانت تقيّدني حاجتي اليوميّة لرؤية «ألبيرتين»، لدعوات المركيزة ومضيفتها الملكيّة المتكرّرة. وأنّبني ضميري إذ رأيت صديقة جدّتي وبداعي محض الواجب (ودون أن أفارق الأميرة «شيرباتوف») تحدّثت إليها فترة طويلة إلى حدّ ما. كنت أجهل تماماً على أيّة حال أنّ السيدة «دو فيلباريسيس» تعلم حقّ العلم من كانت جارتي ولكنّها لا تريد أن تعرفها. وفي المحطة التالية غادرت السيدة «دو فيلباريسيس» عربة القطار وبلغ بي أن لمت نفسي على أنّي لم أُعِنْها على النزول. ومضيت لأجلس من جديد إلى جانب الأميرة. ولكنّما خيّل إليّ أن تغييراً يحلّ تحت ناظريّ - وهو انقلاب غير نادر الحدوث لدى الأشخاص الذين تشكو أوضاعهم من قلّة المتانة والذين يخشون أن تكون سمعتَ من يتناولهم بسوء وأن يحتقرهم.

كادت السيدة «شيرباتوف»، وهي غارقة في «**مجلّة العالَمَيْن**»، لا تجيب إلّا من أطراف شفتيها عن أسئلتي، وقالت في نهاية المطاف إني أسبّب لها الصداع. ما كنت أفهم شيئاً في أمر جريمتي. وحينما ودّعت الأميرة لم تشرق الابتسامة المعتادة على وجهها وأقبلت تحيّة جافّة تخفض ذقنها وهي حتّى لم تمدّ إليّ يداً ولم تكلّمني مذ ذاك في يوم. لكنّها لا بدّ كلّمت أسرة «فيردوران» - بغية أن تقول ماذا، لست أدري - فإنّهم حالما كنت أسألهم إن يكن يحسن بي أن أجامل الأميرة «شيرباتوف» كانوا يسارعون جميعاً بصوت واحد: «لا، لا، لا، خصوصاً لا، فإنّها لا تحبّ الملاطفات!» ما كانوا يفعلون ذلك كيما يوقعوني في خلاف معها، ولكنّها أفلحت في حملهم على الاعتقاد بأنّها لا تهزّها صنوف المراعاة ولا تأخذ منها أباطيل هذه الدنيا. ينبغي أن تكون شاهدت السياسيّ الذي يعدّونه الأكثر تصلّباً والأكثر تشدّداً والأصعب اتّصالاً منذ أن جاء إلى السلطة، ينبغي أن تكون شاهدته في زمن زوال الحظوة يستجدي بوجل وبابتسامة عاشق مشرقة التحيّةَ المتعالية لصحفيّ عاديّ؛ لا بدّ أن تكون شاهدت ارتداد قامة «كوتار» (الذي كان مرضاه الجدد يعدّونه قضيباً من حديد)، وأن تعلم من أيّ صنوف حنق العاشقين وأي إخفاقات التحذلق تشكّل التعالي الظاهريّ ومناهضة التحذلق التي يقرّ بها الجميع للأميرة «شيرباتوف»، كي ندرك أن القاعدة في الإنسانية - القاعدة التي تحتمل استثناءات بالطبع - هي أنّ القساة ضعاف لم يرغب بهم أحد، وأن الأقوياء الذين قليلاً ما يهتمّون بأن يرغب بهم أحد أو لا يرغب يملكون وحدهم تلك الوداعة التي تحسبها العامّة ضعفاً.

يجدر بي على أيّة حال أن لا أحكم حكماً قاسياً على الأميرة «شيرباتوف»، فما أكثر حالتها! إن رجلاً مرموقاً كان إلى جانبي دلّني ذات يوم، إبّان دفن أحد آل «دو غيرمانت»، على رجل ممشوق القوام رزق محيّا جميلاً، وقال لي جاري: «إن هذا من بين آل «غيرمانت» جميعهم هو الأكثر إدهاشاً والأكثر غرابة. إنّه شقيق الدوق». فأجبته غير محاذر أنّه

يخطئ الظنّ وأن هذا السيد الذي لا تربطه بآل «غيرمانت» أيّة قرابة يدعى «فورنييه سارلوفيز». فأدار لي الرجل المرموق ظهره وما عاد مذ ذاك حيّاني.

ومرّ موسيقيّ كبير عضو في المجمع ومن أصحاب المقامات الرسميّة العالية، وكان يعرف «سكي»، مرّ بـ«أرامبوفيل» حيث كانت له ابنة أخ وجاء أحد أيّام أربعاء آل «فيردوران». وقد أبدى له السيد «دو شارلوس» لطفاً خاصّاً (بناء على طلب «موريل») وذلك على وجه الخصوص كي يمكّنه عضو المجمع لدى عودته إلى باريس من حضور مختلف الجلسات الخاصّة والحفلات التجريبيّة، إلخ. التي كان عازف الكمان يعزف فيها. ووعد عضو المجمع، وقد راقه الأمر وهو إلى ذلك رجل ظريف، وبرّ بوعده. وقد تأثّر البارون بالغ التأثّر بسائر صنوف الحفاوة التي أحاطه بها هذا الرجل (وهو على أيّ حال في ما يخصّه عاشق للنساء فحسب وعشقه لهن عظيم) وبكل التسهيلات التي وفّرها له للقاء «موريل» في الأماكن الرسمية التي لا يدخلها الغرباء عن الفنّ وبسائر الفرص المهيّأة من جانب الفنان الشهير للموسيقار الشاب كي يظهر ويعرّف بنفسه وذلك بتعيينه وتفضيله على سواه، بتساوي الموهبة، في حفلات موسيقيّة يُنْتَظر أن تكون لها أصداء واسعة. ولكن السيد «دو شارلوس» ما كان يرتاب أنّه يدين للأستاذ بامتنان يتعاظم بقدر ما لم يكن هذا الأخير، وهو مزدوج الفضل أو إن فضّلتَ مزدوج الجرم، يجهل شيئاً عن علاقات عازف الكمان والحامي الكريم له. وقد يسرّها، دونما تعاطف معها بالتأكيد إذ لا يستطيع أن يفهم حبّاً غير حبّ المرأة الذي كان الملهم لكلّ موسيقاه، بل بداعي اللامبالاة الأخلاقية والمجاملة وحبّ الخدمة المهنيّين واللطافة الاجتماعية والتحذلق. فأمّا عن الشكوك بطبيعة هذه العلاقات فقد كان لديه منها القليل القليل حتّى إنّه سأل «سكي» منذ أوّل عشاء له في «لا راسبليير»، سأله وهو يتحدّث عن السيد «دو شارلوس» و«موريل» كما لعلّه كان فعل عن رجل وعشيقته: «هل مضى زمن طويل على وجودهما معاً؟»

لكنّ صفة رجل المجتمع عنده كانت أقوى من أن يدع شيئاً من ذلك يظهر للمعنيّين، كما كان على استعداد، إن جرى بين رفاق «موريل» تداول بعض القيل والقال، أن يخدمه ويطمئن «موريل» وهو يقول بلهجة أبويّة: «يقولون ذلك عن كلّ الناس في يومنا»، فلم يكفّ عن غمر البارون بصنوف اللطف التي ألفاها هذا الأخير رائعة ولكنّما طبيعيّة إذ كان عاجزاً عن افتراض هذا القدر من الرذيلة هذا القدر من الفضيلة لدى الأستاذ الذائع الصيت. ذلك لأنّ الكلمات التي كانوا يقولونها في غياب السيّد «دو شارلوس» و«التقريبيّات» بحق «موريل» لم يكن أحد يملك ما يكفي من نذالة ليردّدها أمامه. ومع ذلك فإن هذا الوضع البسيط كافٍ ليُظهر أن هذا الشيء المذموم في العالم أجمع والذي لعلّه لا يجد مدافعاً عنه في أيّ مكان، عنينا «القيل والقال»، فإنّه حتّى هو، وسواء كنّا نحن موضوعه وأضحى بذلك مقيتاً بشكل خاص في نظرنا أو أطلعنا بشأن شخص ثالث على أمر كنّا نجهله إنّما يملك قيمته السيكولوجيّة. فهو يمنع الفكر من الإغفاء على الرؤية الزائفة التي يأخذها عمّا يظنّه الأشياء وليس سوى ظاهرها. فيقلب هذا الظاهر بمهارة فيلسوف مثاليّ ساحرة ويقدّم لنا بسرعة زاوية غير متوقّعة من قفا القماش. أفلعلّ السيد «دو شارلوس» كان استطاع أن يتخيّل هذه الكلمات تدلي بها قريبة رقيقة القلب: «كيف تريد «ميميه» أن يكون عاشقاً لي؟ أفغاب عنك إذاً أنني امرأة أنا!» ولكنّها تبدي مع ذلك تعلّقاً حقيقياً عميقاً بالسيد «دو شارلوس». فكيف نعجب إذاً، في ما يخصّ آل «فيردوران» الذين لم يكن له أيّ حق في الاعتماد على ودادهم وطيبتهم، أنْ كانت الأقوال التي يدلون بها بعيداً عنه (وما كانت أقوالاً فحسب كما سنرى) شديدة الاختلاف عمّا يتخيّلها، يعني مجرّد انعكاس لتلك التي كان يسمعها حينما يكون حاضراً؟ تلك فقط كانت تزيّن بنقوش المودّة المبنى الصغير المثالي الذي كان السيد «دو شارلوس» يقصده أحياناً ليحلم وحيداً حينما يُدخل خياله زمناً يسيراً في الفكرة التي يحملها آل «فيردوران» عنه. لقد كان الجوّ هناك محبّباً وديّاً إلى حدّ بعيد

والراحة تشدّ العزيمة إلى حدّ أنّ السيد «دو شارلوس» حينما كان يجيء قبل النوم ليروّح عنه هموماً حيناً ما كان يغادره البتّة دون أن تشرق على شفته ابتسامة. لكنّ هذا النوع من المباني مزدوج بالنسبة إلى كلّ منّا. فقبالة المبنى الذي نظنّه الوحيد هناك الآخر الذي لا تراه عيننا عادة، وهو الحقيقيّ الموازي للذي نعرفه ولكنّه شديد الاختلاف عنه وربّما أفزعتنا نقوشه التي لا نتعرّف فيها شيئاً ممّا كنّا ننتظره وكأنّما صُنعت من الرموز البشعة لعدائيّة لم نَرْتَب بها. فأي ذهول كان أصاب السيد «دو شارلوس» لو دخل أحد تلك المباني المعادية بفضل «قيل وقال» وكأنّما بوساطة واحد من سلالم الخدم خُطّت كتابات بذيئة على أبواب الشقق بيد مورّدين مستائين أو خدّام مفصولين! ولكنّا بمقدار ما حُرمنا من حسّ التوجّه الذي تتّصف به بعض الطيور فإنّا نفتقر إلى حسّ الرؤية كما نفتقر إلى حسّ المسافات فنتخيّل على قرب شديد منّا اهتمام أناس هم على العكس لا يفكّرون البتّة بنا فيما لا نرتاب بأننا في الوقت نفسه همّ غيرهم الوحيد. هكذا كان السيد «دو شارلوس» يعيش مخدوعاً كالسمكة التي تظنّ أن الماء الذي تسبح فيه يمتدّ خلف زجاج حوضها الذي يريها انعكاسه، فيما لا تبصر بالقرب منها في العتمة الجذلان الذي يراقب صنوف مرحها أو مربّي الأسماك الجبّار الذي سيخرجها دونما إشفاق، في اللحظة اللامتوقّعة المحتومة، واللحظة مؤجّلة الآن في ما يخصّ البارون (الذي سيكون مربّي الأسماك في باريس بالنسبة إليه هو السيدة «فيردوران»)، الوسط الذي كان يروقها العيش فيه ليلقي بها في آخر سواه. أضف أن الشعوب بما هي تجمّعات أفراد يمكن أن توفّر أمثلة أوسع، ولكنّها مماثلة في كلّ من أجزائها، عن ذلك العمى العميق العنيد المحيّر. ولئن تسبّب حتى الآن في أن يدلي السيد «دو شارلوس» ضمن العشيرة الصغيرة بأقوال تتّسم بمهارة لا جدوى منها أو بجرأة تثير ابتسامات في الخفاء فإنّه لم يجرّ بعد عليه ولن يكون له في «بالبيك» مغبّات خطيرة. فليس يحول قليل من الزلال والسكر ولا انتظام ضربات القلب دون استمرار الحياة طبيعيّة

بالنسبة إلى من لا يتنبّه حتى لذلك في حين يرى الطبيب وحده ما ينبئ فيه عن وقوع كوارث. أمّا الآن فإن ميل السيد «دو شارلوس» إلى «موريل» - أفلاطونيّاً كان أم لا - إنّما كان يجده جميلاً جدّاً ظنّاً منه أن الأمر سوف يجري سماعه ببراءة كليّة، ومتصرّفاً في ذلك تصرّف رجل مرهف الحس لا يخشى، وقد دعي للإدلاء بشهادته أمام المحكمة، الدخول في تفاصيل تبدو في ظاهرها في غير صالحه ولكنّها لهذا السبب نفسه تتّسم بطبيعيّة أكبر وبسوقيّة أقل من الاحتجاجات التقليديّة لمتّهم مسرحيّ. وكان يطيب للسيد «دو شارلوس» أن يتكلّم بالحريّة نفسها، وعلى الدوام بين «دونسيير الغربيّة» و«سان مارتان دو شين» - أو العكس في رحلة العودة - عن أناس لهم، فيما يبدو، عادات غريبة، وكان حتى يضيف قائلاً: «إني على كلّ حال أقول غريبة دون أن أدري سبب ذلك إذ ليس في الأمر ما كان غريباً إلى هذا الحدّ»، كي يبرهن لنفسه كم كان مرتاح النفس مع جمهوره. وكذلك كان بالفعل بشرط أن تكون مبادرة العمليات بيده، وأن يعلم أن جمهور المشاهدين أبكم باسم مغلوب على أمره من جرّاء سذاجته أو حسن تربيته.

عندما لم يكن السيد «دو شارلوس» يتكلّم عن إعجابه بجمال «موريل» كما لو لم تكن له صلة بميل يدعونه عيباً كان يبحث في ذلك العيب ولكن كما لو لم يكن العيب عيبه. وما كان يتردّد أحياناً في أن يسمّيه باسمه. ولمّا كنت أسأله، بعدما تأمّلت التجليد الفاخر لكتاب له لـ«بلزاك»، ما الذي يفضّله في «**الكوميديا الإنسانيّة**» أجابني وهو يوجّه فكره صوب فكرة ثابتة: «هذا بالكامل أو ذاك بالكامل، المنمنمات الصغيرة من مثل «**كاهن تور**» و«**المرأة المهجورة**»، أو الجداريات الكبيرة كسلسلة «**الأوهام الضائعة**». عجباً! ألا تعرف «**الأوهام الضائعة**»؟ إنّها لغاية في الجمال تلك اللحظة التي يسأل فيها «كارلوس هيرّيرا» عن اسم القصر الذي تمرّ عربته أمامه: إنّه «راستينياك» مسكن الشابّ الذي أحبّه فيما مضى. ويستغرق الكاهن حينذاك في حلم كان «سوان» يدعوه، وفي ذاك ظرف

كثير، «**كآبة أولمبيو**» اللواطة[١]. ثمّ موت «لوسيان»! لست أذكر أيّ رجل ذوّاقة حضره هذا الجواب، وكانوا يسألونه أيّة حادثة بعثت أعظم الأسى في حياته: «إنّه موت «لوسيان دو روبامبريه» في كتاب «**مباهج الغواني وشقاواتهن**». وقاطعه «بريشو» قائلاً: «أعرف أنّ «بلزاك» كثير الرواج في هذا العام كما هي حال التشاؤم في العام الماضي. ولكنّي أقرّ، حتى إن جازفت ببعض الأسى في نفوس تعاني من قلّة احترام «بلزاك»، دون أن أدّعي لنفسي، يا لعنة الله! دور دركيّ الآداب وأسطّر ضبوطاً لأخطاء قواعديّة، أقرّ إذاً بأن المرتجل الضخم الذي يبدو لي أنّك تبالغ كثيراً في تقييم صنوف هذيانه المروّعة قد بدا لي دوماً ناسخاً تنقصه الدقّة الكافية. لقد قرأت تلك «**الأوهام الضائعة**» التي تُحدّثنا عنها أيها البارون وأنا أسوم نفسي العذاب لبلوغ حرارة المتدرّبين وأقرّ بكلّ بساطة قلب أنّ هذه الروايات المسلسلة التي سُطّرت بلغة مفخّمة وبنوع من الإبهام مضاعف ومثّلت «سعادة استير» و«أين تقود دروب السوء» و«كم يكلّف الحبّ الشيوخ»[٢] قد وقعت دوماً منّي موقع أسرار «روكمبول»[٣] الذي رُقّي بفعل امتياز يصعب تفسيره إلى موقع الرائعة المشكوك فيه». - «تقول ذلك لأنّك غير عارف بالحياة»، يقول البارون وقد شعر بضيق مزدوج لأنه كان يحسّ أن «بريشو» لن يفهم لا أسبابه كفنّان ولا الأسباب الأخرى. فأجاب «بريشو» قائلاً: «أدرك تماماً أنّك تبغي أن تقول، كيما أتكلّم بطريقة الأستاذ «فرانسوا رابليه»، إنّني ألمعي لوذعي أصمعي. مع ذلك فإنّني

---

(١) Tristesse d'Olympio من أشهر قصائد الشاعر «فيكتور هوغو» في مجموعته «**الأضواء والظلال**»، وفيها يروي عن بدايات حبّه لمن ستصبح زوجته: «جولييت درويه».

(٢) هي العناوين الأول والثاني والثالث من كتاب «بلزاك»: «**مباهج الغواني وشقاواتهن**».

(٣) بطل ثلاثين رواية كتبها «بونسون دو تيّراي» في القرن التاسع عشر ويمثل المغامر الذي لا تصدّق مغامراته.

أحبّ بقدر ما يفعل الرفاق أن يخلّف الكتاب انطباعاً لديّ بالصدق ونبض الحياة، فلست من أولئك الدهاقين...». وقاطعه الدكتور «كوتار»، لا بلهجة المتشكّك بل بلهجة المتأكّد المتظرّف: «ساعة دفع الحساب». - «... الذين ينذرون النفس للآداب باتّباع نظام دير «لابيّيى أو بوا» وفي كنف السيّد الفيكونت «دو شاتوبريان»، كبير أساتذة التصنّع، وفق نظام الإنسانويين الصارم. إن السيد الفيكونت «دو شاتوبريان».. - «شاتوبريان مع البطاطا؟» يقول «كوتار» مقاطعاً. - «إنّه سيّد الجماعة»، يضيف «بريشو» قوله دون أن يلحظ مزاح الدكتور الذي أثارت مخاوفَه في المقابل جملةُ الجامعيّ فنظر إلى السيد «دو شارلوس» بادي القلق. لقد بدا أنّ «بريشو» أخلّ باللياقة في حقّ «كوتار» الذي رسم تلاعبه اللفظيّ ابتسامة دقيقة على شفتي الأميرة «شيرباتوف»، فقالت تلطّفاً وكي تُبدي أن «نكتة» الطبيب لم تمرّ بها مرور الكرام: «إن السخرية اللاذعة للارتيابيّ الكامل لا تفقِد البتّة مع الأستاذ حقوقَها». فأجاب الدكتور: «الرجل الحكيم ارتيابيّ حتماً. وما أدراني أنا؟ كان سقراط يقول: اعرف نفسك. ذلك صحيح تماماً، فالغلوّ في كلّ شيء نقيصة. ولكنّما أظلّ مذهولاً حين أفكّر بأنّ ذلك كان كافياً لدوام اسم سقراط إلى يومنا هذا. فما عسانا نجد في هذه الفلسفة؟ القليل القليل باختصار القول. وحينما نفكّر بأنّ «شاركو» وسواه قدّموا أعمالاً ألف مرّة أكثر روعة وتستند على الأقل إلى شيء ما، إلى إلغاء منعكس حدقة العين بوصفه متلازمة الشلل العام، وهم الآن منسيّون تقريباً! ومجمل القول أنّ سقراط ليس أمراً خارقاً. إنّهم أناس ما كان لديهم ما يفعلونه وكانوا يقضون النهار كلّه في التنزّه و«المشاحنة». ذلك كحال يسوع المسيح: أحبّوا بعضكم بعضاً، ذلك جميل أيضاً» ورجته السيدة «كوتار»: «يا صديقي..» - زوجتي تحتجّ بالطبع، إنهنّ عُصابيّات جميعهنّ». وقالت السيدة «كوتار» همساً: «ولكنّي لست عصابيّة يا دكتوري العزيز». - «كيف لا تكون عصابيّة؟ وحينما يكون ابنها مريضاً تنتابها أعراض أرق. على أني في النهاية أعترف بأن سقراط وما تبقّى أمر

ضروري من أجل ثقافة عالية وكي تمتلك مواهب في العرض. إني أستشهد دوماً بـ«اعرف نفسك» أمام طلّابي في الدرس الأول. وقد هنّأني على ذلك الأب «بوشار» بعدما أخذ علماً به». وأردف «بريشو» يقول: «لست من مناصري الشكل للشكل كما لعلّني لن أكنز في الشعر القافية الغنيّة جداً. ولكنّ «**الكوميديا الإنسانيّة**» - القليلة الإنسانية إلى حدّ بعيد - تتجاوز كثيراً كونها عكس تلك المؤلفات التي يتجاوز فيها الفنُّ المضمون كما يقول ذاك الكديش الطيّب المدعوّ «أوفيد»[١]. ومن المسموح به تفضيل درب في نصف المنحدر يقودك إلى مقرّ رعيّة «مودون»[٢] أو إلى صومعة «فيرنيه»[٣] على مسافة متساوية من «لافاليه أو لو»[٤]، حيث كان «رونيه» يفي على نحو رائع بواجبات حبريّة لا تعرف الغفران والمُسامحة، و«جاردي»[٥] حيث ما كان يكفّ «هونوريه دو بلزاك» الذي يلاحقه مبلّغو المحاكم عن خربشة الرسائل إلى البولونيّة، فعلَ رسول متحمّس للرطانات المبهمة». وأجاب السيد «دو شارلوس» ولا يزال شديد التشرّب بذوق «سوان» كي لا يغيظه «بريشو»: «إن «شاتوبريان» أوفر حيويّة ممّا تقول و«بلزاك» كاتب كبير مع ذلك، ثمّ إنّ «بلزاك» قد عرف حتى تلك الأهواء التي يجهلها الجميع أو هم لا ينظرون فيها إلّا للتنديد بها. هذا، وإنّ «**الأوهام الضائعة**» و«**سارازين**» و«**الفتاة ذات العينين الذهبيّتين**» و«**عشق في الصحراء**» وحتّى «**العشيقة الكاذبة**» المحيّرة بعض الشيء، إنّما تعزّز كلّها أقوالي. وحينما كنت أكلّم «سوان» عن هذا الجانب «الخارق الطبيعة» لدى «بلزاك» كان

---

(١) من كبار شعراء الرومان، اشتهر على وجه الخصوص بكتاب «**الامساخات**» (*Métamorphoses*).

(٢) Meudon: كان «رابليه» (من مشاهير كتّاب العصر الوسيط وكان راهباً) قد عيّن لخدمة هذه الرعيّة.

(٣) بيت ريفي سكنه «فولتير» (في القرن الثامن عشر) من ١٧٥٨ إلى ١٧٧٨.

(٤) بيت اشتراه «شاتوبريان» (واسمه «رونيه») عام ١٨١١ وسكن فيه عدّة سنوات.

(٥) المنزل الذي سكن فيه «بلزاك» من عام ١٨٣٧ وحتى ١٨٤٠، والبولونية المعنيّة لاحقاً هي السيدة «هانسكا» التي تزوّجها عام ١٨٥٠.

يقول لي: «إنّك من رأي «تين» (Taine). وأردف السيد «دو شارلوس» قائلاً: «ما كنت تشرّفت بمعرفة «تين» (يقول بهذه العادة المُغيظة في استخدام كلمة «السيّد» التي لا تُجدي نفعاً، عادة لدى عليّة القوم كما لو ظنّوا أنّهم بإطلاقهم صفة «السيّد» على كاتب كبير إنّما يولونه شرفاً وربّما يلزمون الناس حدودهم ويعلّمونهم تماماً أنّهم لا يعرفونه)، ما كنت أعرف السيّد «تين»، ولكنّما أحسبني نلت شرفاً عظيماً أنْ كنت من ذات رأيه». لقد كان السيد «دو شارلوس» على أيّة حال ذكياً جداً على الرغم من تلك العادات المجتمعيّة المضحكة. ومن المرجّح أنّه كان أحسّ، لو وفّر زواج قديم رباط قرابة بين أسرته وأسرة «بلزاك»، بارتياح (لا يقلّ على أيّة حال عن ارتياح «بلزاك») لعلّه ما كان ملك نفسه مع ذلك عن الاعتداد به وكأنّه علامة تنازل رائع من قبله.

كان يستقلّ القطار أحياناً في المحطّة التي تلي «سان مارتان دو شين» بعضُ الفتيان. وما كان السيد «دو شارلوس» يستطيع الحؤول دون النظر إليهم، ولمّا كان يختصر ويخفي الاهتمام الذي يصرفه إليهم فقد كان ذاك الاهتمام يبدو وكأنّه يخفي سرّاً أكثر خصوصيّة بعد من السرّ الحقيقي؛ لكأنّما كان يعرفهم ويتبدّى ذلك رغماً عنه بعدما سلّم بتضحيته قبل أن يستدير صوبنا كما يفعل أولئك الأطفال الذين مُنعوا في أعقاب اختصام بين الأهلين من تحيّة رفاقهم ولكنّهم لا يستطيعون حينما يلتقونهم الامتناع عن رفع رؤوسهم قبل أن يهووا من جديد تحت سوط مربّيهم.

لدى سماع الكلمة المأخوذة عن اليونانية[١] التي أتبع بها السيد «دو شارلوس» في حديثه عن «بلزاك»، التلميح إلى «**كآبة أولمبيو**» في «**مباهج الغواني وشقاواتهن**» نظر «سكي» و«بريشو» و«كوتار» بعضهم إلى بعض بابتسامة ربّما كانت أقلّ سخرية من اتّسامها بالرضى الذي قد يصيبه

(١) سبق أن ذكر «دو شارلوس» الكلمة في الحديث عن «كآبة أولمبيو لواطة الأولاد» والكلمة الفرنسية pédérastie مأخوذة عن اليونانية.

متعشّون أفلحوا في حمل «دريفوس» على التحدّث عن قضيّته، أو الإمبراطورة عن عهدها. كنّا ننوي دفعه قليلاً حول هذا الموضوع ولكنّها «دونسيير» وصلناها حيث كان «موريل» يلحق بنا. وكان السيد «دو شارلوس» يراقب حديثه بعناية في حضرته، وحينما أراد «سكي» أن يعيده إلى حبّ «كارلوس هيريرا» لـ«لوسيان دو روبنبريه» اتخذ البارون هيئة متكدّرة غامضة ثم قاسية انتقاميّة في آخر المطاف (إذ رأى أنّهم لا يُصغون إليه)، هيئة والد يسمع من يتفوّه ببذاءات في حضرة ابنته. ولمّا أبدى «سكي» شيئاً من العناد في موالاة حديثه قال السيد «دو شارلوس» وقد جحظت عيناه وتعالى صوته، قال بلهجة ذات دلالة وهو يدلّ على «ألبيرتين»، مع أنّها لا تستطيع أن تسمعنا وقد شغلها الحديث مع السيدة «كوتار» والأميرة «شيرباتوف»، وبنبرة مزدوجة المعنى لمن يبغي تلقين درس لجماعة سيئي التهذيب: «في اعتقادي أن الوقت ربّما حان للتحدّث عن أمور يمكن أن تثير اهتمام هذه الفتاة». لكنّي أدركت تمام الإدراك أن الفتاة في نظره لم تكن «ألبيرتين» بل «موريل». وقد أظهر فيما بعد على أيّة حال صحّة تفسيري بالعبارات التي استخدمها حين طلب أن لا يكون بينهم أحاديث من هذا القبيل أمام «موريل». وقال لي وهو يكلّمني عن عازف الكمان: «تعلم أنّه ليس البتّة ما قد تظنّ. إنّه صغير شريف جداً وقد لبث دوماً عاقلاً وجديّاً إلى أبعد حدّ». كنت تحسّ في هذه الكلمات أن السيّد «دو شارلوس» كان يعدّ الشذوذ الجنسي خطراً يتهدّد الشباب بقدر ما يفعل البغاء بالنسبة إلى النساء وأنّه إن كان يستخدم صفة الجديّة بالنسبة إلى «موريل» فإنّما بالمعنى الذي تتّخذه إن طُبّقت على عاملة صغيرة. حينذاك سألني «بريشو» بغية تغيير الحديث إن كنت أنوي المكوث بعد طويلاً في «أنكرفيل». وعبثاً سبق لي أن حملته عدّة مرّات على ملاحظة أنّي لم أكن أقطن «أنكرفيل» بل «بالبيك»، فقد كان يرتكب دوماً الخطأ نفسه إذ كان يطلق على هذا القسم من الشاطئ اسم «أنكرافيل» أو «بالبيك أنكرفيل». ثمّة على هذا النحو أناس يتكلّمون عن الأمور نفسها التي نتكلّم عنها

ويطلقون عليها اسماً مختلفاً بعض الشيء. كانت سيّدة من حيّ «سان جيرمان» تسألني دوماً حينما تبغي الكلام عن الدوقة «دو غيرمانت» إن كان مضى وقت طويل لم ألتق فيه «زينابيد» أو «أوريان زينابيد». وكنت لذلك لا أفهم لأول وهلة. والأرجح أن كان ثمّة زمن كانت قريبة للسيدة «دو غيرمانت» تدعى «أوريان» فدعيت هي، بغية تجنّب الخلط «أوريان زينابيد». وربّما كان ثمّة بادئ الأمر محطّة واحدة في «أنكرفيل» وكانوا يمضون من هناك إلى «بالبيك» بالعربة. وقالت «ألبيرتين» مستعجبة من لهجة والد الأسرة المهيبة التي انتحلها السيد «دو شارلوس» منذ قليل: «عمّ كنتم تتحدّثون؟» وسارع البارون يجيب: «عن «بلزاك»، وإنّك بالضبط ترتدين في هذا المساء أثواب الأميرة «دو كادينيان»، لا الأولى، أثواب العشاء، بل الثانية». كان مردّ هذه المصادفة أنّي كنت أستلهم لاختيار أثواب لـ«ألبيرتين» الذوق الذي كوّنته لذاتها بفضل «إيلستير» الذي كان يقدّر أعظم التقدير اعتدالاً ربّما أمكن أن ندعوه بريطانياً، لو لم ينضف إليه قدر أكبر من النعومة والطراوة الفرنسيّة. فقد كانت الفساتين التي يفضّلها تبسط في الأغلب للناظرين تآلفاً متّسقاً من الألوان الرماديّة شأن «ديان دو كادينيان». كاد لا يكون ثمّة غير السيد «دو شارلوس» ليعرف كيف يقدّر حقّ قدرها أثواب «ألبيرتين»، فقد كانت عيناه تكتشفان في الحال ما يؤسّس ندرتها وقيمتها؛ وما كان في يوم ليقول اسم قماش آخر وكان يتعرّف الصانع. على أنّه كان يفضّل - في ما يخصّ النساء - شيئاً من الألق واللون يجاوز قليلاً ما كان يقبل به «إيلستير». ولذلك فقد رمتني ذاك المساء بنظرة نصفها ابتسامة والنصف قلق وهي تحني أنفها الصغير، أنف الهرّة المورّد. وبالفعل كانت سترتها التي من صوف الشوفيوت الرماديّ توهم وهي تغطّي تنورتها التي من كريب الصين الرماديّ أن «ألبيرتين» كلّها باللون الرمادي. ولكنّها، إذ أشارت إليّ بأن أساعدها لأنّ أكمامها المنفّخة كانت بحاجة أن تُملَّس أو تُرفع كي ترتدي أو تخلع سترتها، خلعت تلك السترة، ولمّا كانت تلك الأكمام من قماش اسكتلندي ناعم

جدّاً ورديّ اللون وأزرق باهت وضارب إلى الخضرة ومتموّج الألوان فقد بدا كأنّما تشكّل قوس قزح في سماء رماديّة. وكانت تتساءل إن كان ذلك سيروق السيد «دو شارلوس»، فصاح هذا مفتوناً: «ذلكم شعاع وموشور ألوان. إني أقدّم كلّ تهانيّ». فأجابت «ألبيرتين» بلطف وهي تشير إليّ: «لكنّ الفضل يعود للسيّد وحده»، إذ كان يحلو لها أن تُبرز ما يأتيها عن يدي. وأردف السيد «دو شارلوس» يقول: «ليس من يخشى اللون سوى النساء اللائي لا يحسنّ اختيار ملابسهنّ. فيمكن أن تكون المراة متألّقة دون سوقيّة وناعمة دون تفه. وليس لديك على أيّة حال ذات أسباب السيدة «دو كادينيان» لابتغاء الظهور مظهر المتجرّدة عن الحياة، إذ تلك كانت الفكرة التي تريد أن تغرسها في صدر «آرتيز» بتلك الأثواب الرماديّة». أمّا «ألبيرتين» التي كانت تهتمّ بلغة الفساتين الصامتة تلك فقد سألت السيد «دو شارلوس» عن الأميرة «دو كادينيان» فقال البارون بلهجة حالمة: «آه! إنّها أقصوصة رائعة. وإني أعرف الحديقة الصغيرة التي تنزّهت فيها «ديان دو كادينيان» مع السيدة «ديسبار» فهي حديقة إحدى بنات عمومتي». وهمس «بريشو» في أذن «كوتار»: «إنّ مسائل حديقة ابنة عمّه مجتمعة، وكذلك سلسلة أنسابه، يمكن أن تكتسب ثمناً بالنسبة إلى هذا البارون الطيّب. ولكن ما فائدة ذلك بالنسبة إلينا نحن الذين لم يسعفهم الحظّ بالتنزّه فيها ولا نعرف تلك السيدة ولا نملك ألقاب نبلاء؟» فما كان «بريشو» يظنّ أنّه يمكن لامرئ الاهتمام بفستان وبحديقة اهتمامَه بعمل فنّي وأن السيد «دو شارلوس» كان يعود فيرى ممرّات السيدة «دو كادينيان» الصغيرة كما هي واردة لدى «بلزاك». وتابع البارون يقول: «ولكنّك تعرفها»، يقول لي وهو يتكلّم عن ابنة العم تلك ويوجّه الحديث إليّ بغية دغدغة عواطفي وكأنّما لمن كان منفيّاً داخل العشيرة الصغيرة. وإن لم يكن في نظر السيد «دو شارلوس» من عالمه فقد كان على الأقلّ يرتاد عالمه. «لا بدّ في جميع الأحوال أن تكون رأيتها في منزل السيدة «دو فيلباريسيس». وسأل «بريشو» بهيئة المفتون: «هي المركيزة «دو فيلباريسيس» التي تملك قصر «بوكرو»؟

فسأله السيد «دو شارلوس» بجفاء: «أجل، وتعرفها؟» فردّ «بريشو» قائلاً: «كلا، ولكنّ زميلنا «نوربوا» يقضي في كل عام قسماً من عطلته في «بوكرو»، وقد تسنّى لي أن أكتب إليه إلى هناك». وقلت لـ«موريل» ظنّاً منّي أنّي أثير اهتمامه إنّ السيد «دو نوربوا» كان صديق والدي. لكنّما لم تنبئ حركة في وجهه عن أنه سمع لشدّة ما يعدّ والديّ من أناس هيّنين ولا يقربون من بعيد جداً ما سبق أن كان شقيق جدّي الذي كان والده يعمل خادماً خاصاً عنده والذي خلّف لدى خدّامه ذكرى مبهورة إذ كان يحبّ بعكس باقي أسرته «أن يخلق المتاعب». «يبدو أن السيدة «دو فيلباريسيس» امرأة متفوّقة، ولكنّما لم يتسنّ لي في يوم أن أحكم على الأمر بنفسي ولا لزملائي على أيّ حال لأنّ «نوربوا» لم يقدّم أيّاً منّا للمركيزة، مع أنّه من جانب آخر يفيض تأدّباً ولطفاً في المجتمع. ولست أعلم أن استُقبل أحد من جانبها سوى صديقنا «تورو دانجان» الذي كانت تربطه بها علاقات عائلية قديمة، وكذلك «غاستون بواسيّيه» الذي رغبت في معرفته على إثر دراسة كانت تحوز اهتمامها على نحو خاص. فقد تناول عشاءه مرّة هناك وعاد وهو تحت تأثير السحر. وفوق ذلك لم تُدعَ السيّدة «بواسيّيه». وابتسم «موريل» تحناناً لدى سماع تلك الأسماء، وقال لي بهيئة يساوي الاهتمام فيها اللامبالاة التي أبداها حين سمع من يتحدّث عن المركيز «دو نوربوا» وعن والدي: «آه! تورو دانجان»! «تورو دانجان» كان يؤلّف زوج أصدقاء مع عمّك، وحينما كانت تريد سيدة مكاناً في الوسط بمناسبة استقبال في المجمع كان عمّك يقول: «سأكتب إلى «تورو دانجان»، وكان المكان طبعاً يُرسل في الحال، فأنت تدرك تماماً أن «تورو دانجان» ما كان ليجازف برفض أيّ أمر لعمّك الذي كان اقتصّ منه في أوّل فرصة تلوح. كذلك يبهجني أن أسمع اسم «بواسيّيه»، فإنّما كان شقيق جدّك يقوم هناك بالتوصية على مشترياته كافّة للسيدات في فترة رأس السنة. أعرف ذلك لأنّني أعرف الشخص الذي كان مكلّفاً بالمهمّة». وكان أكثر من عارف له، فقد كان والده. كان بعض من تلميحات «موريل» الرقيقة تلك إلى ذكرى

عمّي على علاقة بانتفاء نيّتنا أن نوالي البقاء في فندق آل «غيرمانت» حيث لم نجئ للسكنى إلّا بسبب جدّتي. وكان الحديث يجري أحياناً عن انتقال محتمل. ولا بدّ أن نعلم، بغية فهم النصائح التي كان «شارل موريل» يسديها لي بهذا الشأن، أن شقيق جدّي كان يسكن فيما مضى في البناء رقم ٤٠ مكرّر من شارع «مالزيرب». وقد نجم عن ذلك في الأسرة أنّهم كانوا يقولون، بما أنّنا كنّا نرتاد كثيراً منزل العم «أدولف» إلى اليوم المشؤوم الذي حملت فيه والديّ على الاختصام معه إذ رويت لهم عن السيّدة ذات الأثواب الورديّة، كانوا يقولون «إلى الرقم ٤٠ مكرّر» بدلاً من أن يقولوا «إلى منزل عمّك». وكانت بعض بنات عمومة أمّي يقلن لها أبسط ما يكون القول: «آه! لن يمكننا أن نستضيفكم يوم الأحد، فإنكم تتناولون عشاءكم في الرقم ٤٠ مكرّر». وإن ذهبت لزيارة قريبة لي كانوا يوصونني بالذهاب أولاً «إلى الرقم ٤٠ مكرّر» كي لا يتّفق أن يستاء عمّي من أن البداية لم تكن به. فقد كان مالكَ البيت وكان يبدي، والحقّ يقال، تشدّداً كبيراً في انتقاء مستأجريه الذين كانوا كلهم أصدقاء أو هم سيصبحون. وكان العقيد البارون «دو فاتري» يجيء كلّ يوم ليدخّن سيجاراً وإيّاه كي يحصل بيسر أكبر على بعض الإصلاحات. كانت بوّابة العربات مغلقة دوماً. وإن لمح عمّي قماشاً أو سجّادة على نافذة كان يتملّكه الغيظ ويأمر بنزعها بأسرع ممّا يفعل عناصر الشرطة في يومنا. ولكنّما لا يحول ذلك دون تأجير قسم من البيت فلا يستبقي له سوى دورين والإسطبلات. وكانوا على الرغم من ذلك، وإذ يعرفون كيف يسرّونه بامتداح جودة الصيانة في المنزل، يشيدون بوسائل الراحة في «الفندق الصغير» كما لو كان عمّي شاغله الوحيد وكان يدعهم يقولون دون أن يكذّبهم كما كان يجدر به أن يفعل. كان «الفندق الصغير» بالتأكيد مريحاً (إذ كان عمّي يُدخل إليه مخترعات العصر كافّة). ولكنّما لم يكن فيه شيء خارق. وحده عمّي كان، فيما يقول بتواضع زائف «كوخي الصغير القذر»، على يقين أو هو أدخل في روع خادمه الخاص وزوجته والحوذيّ والطاهية أن ليس في

باريس ما كان شبيهاً بالفندق الصغير من حيث وسائل الراحة والبذخ والترفيه. وكان «شارل موريل» قد نشأ على هذا الإيمان، ولبث عليه. ولذلك كان، حتى في الأيّام التي لا يبادلني فيها الحديث، إن كلّمت أحدهم في القطار عن احتمال انتقال من بيتنا، كان يبتسم لي في الحال ويقول وهو يغمز بعينه غمز من كان على اطّلاع: «آه! ما يلزمكم هو شيء من قبيل الرقم ٤٠ مكرّر! فهناك تجدون راحتكم التامّة! ويمكننا أن نقول إنّ عمّك كان خبيراً بهذا الشأن. وإنّي متأكّد تماماً أن ليس في باريس ما يساوي الرقم ٤٠ مكرّر».

لقد أحسست دائماً في الهيئة الكئيبة التي اتخذها السيد «دو شارلوس» في كلامه عن الأميرة «دو كادينيان» أن تلك الأقصوصة ما كانت تذكّره بمحض حديقة صغيرة لابنة عمّ لا تثير اهتمامه إلى حدّ ما. وشرد في تفكير عميق وصاح كأنّما يكلّم نفسه: «أسرار الأميرة «دو كادينيان»، يا لها رائعة! وكم هي عميقة ومؤلمة سمعة «ديان» السيّئة تلك التي تخشى أكثر ما تخشى أن يطّلع عليها الرجل الذي تحبّه! وأيّة حقيقة أزليّة وأكثر عموميّة ممّا يبدو عليه الأمر! وما أبعد ما يذهب إليه!» وقد تلفّظ السيد «دو شارلوس» بتلك الكلمات بكآبة كنت تحسّ مع ذلك أنّه لا يراها تخلو من الروعة. صحيح أن السيد «دو شارلوس» ما كان يعرف بالضبط إلى أيّ حدّ كانت أخلاقه معروفة أو غير معروفة فيرتعد منذ بعض الوقت من أن تتدخّل عائلة «موريل»، بعدما يكون هو قد عاد إلى باريس وشاهدوه وإيّاه، وتتعرّض سعادته للخطر. وما كان ذلك الاحتمال بدا له حتّى ذاك على الأرجح إلّا بمثابة أمر مزعج ومكدّر إلى حدّ بعيد. ولكنّ البارون كان فنّاناً عميق الفنّ. وإذ أصبح الآن منذ فترة يخلط ما بين وضعه والوضع الذي وصفه «بلزاك» فقد أخذ يحتمي نوعاً ما خلف الأقصوصة وكان يجد العزاء لسوء الطالع الذي يتهدّده ربّما، وما زال في جميع الأحوال يفزعه، في ما يجده داخل قلقه نفسه ممّا لعلّ «سوان» وكذلك «سان لو» كانا دعياه شيئاً «ذا طابع بلزاكيّ عميق». وقد سهّل من ذاك التماهي وأميرة «دو كادينيان»،

سهّله على السيد «دو شارلوس» النقل الذهنيّ الذي أخذ يصبح عاديّاً عنده والذي سبق أن قدّم عدّة أمثلة عنه. وكان كافياً من جانب آخر كما يطلق في الحال مجرّدُ استبدال المرأة، بما انها الشخص المحبوب، بفتى شاب، كلّ طائفة التعقيدات الاجتماعية التي تتنامى حول علاقة عاديّة، من حوله، حينما نُدخل لسبب أيّ سبب، وعلى نحو نهائيّ، تعديلاً على تقويم أو مواعيد عمل، وإن حدّدنا بداية السنة بعد بضعة أسابيع وجعلنا الساعة تدقّ منتصف الليل قبل ربع ساعة فكلّ ما ينجم عن قياس الزمن سيبقى واحداً بما أن الأيّام ستتألّف في جميع الأحوال من أربع وعشرين ساعة والشهور من ثلاثين يوماً. يمكن أن يكون كلّ شيء قد تغيّر دون أن يستجرّ ذلك أي اضطراب بما أن النِّسَب بين الأعداد ستبقى متماثلة دوماً. وهذا هو شأن الحيوات التي تتبنّى «توقيت أوروبا الوسطى» أو التقاويم الشرقية. بل يبدو أن الاعتزاز الذي يداخل المرء لدى إنفاقه على ممثّلة إنّما يلعب دوراً في هذه العلاقة. أجل لقد اطّلع السيد «دو شارلوس» حينما استعلم عمّا كانت عليه حال «موريل» على أنّه من منبت متواضع، ولكنّ الغانية التي نحبّها لا تفقد من مهابتها في نظرنا لأنّها ابنة أناس فقراء. وفي المقابل أجاب الموسيقيون المعروفون الذين أمر بالكتابة إليهم - دون أن يكون ذلك حتّى عن مصلحة شأن الأصدقاء الذين وصفوا «أوديت» وهم يعرّفون بها «سوان» بأنّها أكثر تصعّباً ومرغوبة أكثر ممّا كانت -، أجابوا البارون لمجرّد عادة لرجال بارزين يرفعون من قدر مبتدئ: «آه موهبة كبيرة ومكانة بارزة بما أنّه بالطبع حديث السنّ ومقدّر أعظم التقدير لدى الخبيرين بالأمور، مستقبل باهر.» ولعادة مستهجنة لدى الناس الذين يجهلون الشذوذ أخذوا في الحديث عن جمال الذكور: «ثمّ إنّه جميل حين تراه يعزف، وهو أفضل من أيّ آخر في المجموعة الموسيقيّة، وله شعر جميل ووقفات متميّزة، والرأس منه رائع ويبدو كأنّه عازف كمان في لوحة. لذلك كان السيد «دو شارلوس» يباهي، وقد اهتاج من جانب آخر من جرّاء أنّ «موريل» ما كان يدعه يجهل كم عرض كان يوجّه إليه،

باصطحابه في عودته وبأن يبني له عِليّة يعود إليها عدّة مرّات فقد كان يريده حرّاً باقي الوقت، الأمر الذي أصبح ضرورياً جرّاء عمله المستقبلي الذي كان السيد «دو شارلوس» يرغب في استمرار «موريل» فيه مهما اضطرّ أن يقدّم له من مال، إمّا بسبب هذه الفكرة ذات الطابع «الغيرمانتيّ» العميق القائلة بأنّه لا بدّ أن يفعل المرء شيئاً وأن لا قيمة له إلّا بعمله وأنّ طبقة النبلاء أو المال إن هما إلّا الصفر الذي يضاعف قيمة ما، وإمّا لأنّه خشي أن يصيب الملل عازف الكمان إذ هو عاطل عن العمل وإلى جانبه على الدوام. وما كان يريد أخيراً أن يحرم نفسه المتعة التي كان يصيبها إبّان بعض الحفلات الموسيقية الكبيرة، متعة أن يقول في نفسه: «إن الذي يهتفون له في هذه اللحظة سيكون عندي في هذه الليلة». إن القوم الأنيقين حينما يحبّون وبأيّة طريقة أحبّوا يفاخرون بما يمكن أن يدمّر المكاسب السابقة التي لعلّها كانت أرضت غرورهم.

وإذ أحسّ «موريل» أني أخلو من الخبث إزاءه وأني صادق التعلّق بالسيد «دو شارلوس» وأني على الصعيد الجسدي لا أبالي على الإطلاق بكليهما فقد خلص في النهاية إلى أن يبدي تجاهي مشاعر المودّة الحارّة نفسها التي تبديها غانية تعلم أنّك لا تشتهيها وأن عشيقها يرى فيك صديقاً صدوقاً لن يحاول جرّه إلى الاختصام معها. فلم يكن يكلّمني بالضبط كما كانت تفعل «راحيل» عشيقة «سان لو» فحسب، بل هو، حسبما كان السيد «دو شارلوس» يردّده لي، يقول له عنّي في غيابي الأمور نفسها التي كانت «راحيل» تقولها عنّي لـ«روبير»: وفي النهاية كان السيد «دو شارلوس» يقول لي: «إنّه يحبّك كثيراً» كما كان يقول «روبير»: «إنّها تحبّك كثيراً». وكان العمّ يطلب إليّ في الغالب المجيء لتناول العشاء معهم عن طريق «موريل»، كما كان ابن الأخ عن طريق عشيقته. ولم تكن تثور بينهما على أيّة حال نزاعات أقلّ ممّا كان بين «روبير» و«راحيل». أجل لم يكن السيد «دو شارلوس»، بعدما يذهب «شارلي» (موريل)، يتوقّف عن كيل المديح له مردّداً كم كان عازف الكمان كيّساً بحقّه. الأمر الذي كان يزهو به.

ولكنّما كان جليّاً مع ذلك أن «شارلي» كان يبدو في الغالب حانقاً حتى في حضرة الخُلّص جميهم، بدلاً من أن يبدو دائم السعادة والإذعان كما لعلّ البارون كان تمنّى. وقد بلغ به هذا الحنق فيما بعد، من جرّاء الضعف الذي كان يدفع السيد «دو شارلوس» إلى مغفرة مواقف «موريل» غير اللائقة، الحدّ الذي لا يحاول فيه عازف الكمان إخفاءه، أو كان حتّى يتكلّفه. لقد شاهدت السيد «دو شارلوس» في دخوله إلى عربة قطار كان «شارلي» فيها برفقة عسكريّين من أصدقائه، شاهدته تستقبله هزّات أكتاف الموسيقي ترافقها رفّات عين لرفاقه. أو هو يتظاهر بالنوم شأن من يرهقه وصوله ضجراً. أو يأخذ بالسعال فيضحك الآخرون ويتصنّعون بقصد الاستهزاء الكلام اللطيف المتكلّف الذي لرجال من طينة السيد «دو شارلوس»، وينتحون جانباً بـ«شارلي» الذي كان يعود في نهاية المطاف وكأنّما مرغماً بالقرب من السيد «دو شارلوس» الذي كانت تخترق فؤاده كلّ هذه السهام. وإنّه لما يفوق التصوّر أن يكون احتملها. وكانت أشكال العذاب المختلفة في كلّ مرّة تطرح على السيد «دو شارلوس» مجدّداً مشكلة السعادة وترغمه لا على طلب المزيد فحسب، بل على الرغبة في شيء آخر إذ إن التركيبة السابقة قد أفسدتها ذكرى رهيبة. ومع ذلك لا بدّ من الإقرار، ومهما كانت تلك الاختصامات فيما بعد شاقّة، بأن عبقرية رجل الشعب في فرنسا كانت ترسم لـ«موريل» وتُلبسه أشكالاً رائعة من البساطة والصراحة الظاهرة، بل من الاعتزاز الاستقلالي الذي يبدو كأنّما يوحي به التجرّد. وكان ذلك زائفاً، ولكن مكسب الموقف كان أكثر فأكثر إلى جانب «موريل» بقدر ما يبدو يسيراً، فيما يضطرّ من يحبّ أن يعيد الكرّة ويزايد على الدوام: يبدو يسيراً على العكس على من لا يحبّ أن يتّبع خطّاً مستقيماً صلباً ناعماً. وكان قائماً بفضل الامتياز العرقيّ في المحيّا المنفتح جداً لـ«موريل» هذا ذي الفؤاد المغلق بإحكام، ذاك المحيّا الذي يزدان بالحسن الهلّينستي الذي يزهر في كنائس شامبانيا. وعلى الرغم من أنفته المصطنعة كثيراً ما كان يشعر بالضيق عن العشيرة الصغيرة

إذ يبصر السيد «دو شارلوس» في حين لا يتوقّع ذلك، فتكسو الحمرة وجهه ويخفض عينيه فينتشي البارون فرحاً وهو يرى في ذلك رواية كاملة. كان ذلك مجرّد علامة حنق وخجل. والأوّل كان يجد تعبيره أحياناً، إذ مهما بدا مظهر «موريل» هادئاً بالعادة وشديد الاحتشام فيما كانت تمضي الأمور دونما فتور في الغالب. بل كانت تنطلق أحياناً من جانب «موريل» لدى كلمة يوجّهها إليه البارون، تنطلق بلهجة قاسية إجابة وقحة تصدم الجميع. وكان السيد «دو شارلوس» يطأطئ الرأس حزيناً ولا يجيب البتّة ولا يتوقّف مع ذلك عن كيل المديح لعازف الكمان بهذه القدرة التي يبديها الآباء المحبّون على الاعتقاد بأنْ لم يُلاحظ شيء من جفاء وقسوة أبنائهم. على أن السيد «دو شارلوس» لم يكن دوماً بمثل ذاك الخنوع ولكنّ مظاهر تمرّده ما كانت تبلغ بعامّة هدفها ولا سيما أنّه كان يأخذ في الحسبان، وقد عاش بصحبة علية القوم وفي احتساب ردّات الفعل التي يمكن أن يثيرها، السفالةَ الأصليّة، فإن لم يكن فعلى الأقلّ تلك المكتسبة بالتربية. ولكنّه كان يصادف ما كان لدى «موريل» بعض نزعة شعبية إلى لامبالاة مؤقتة. بيد أن السيد «دو شارلوس» ما كان يدرك لسوء حظّه أنّ كلّ شيء كان يتهاوى أمام المسائل التي للمعهد والسمعة الطيّبة في المعهد دخلٌ فيها (ولكن هذا الذي لا بدّ سيكون أكثر خطراً لم يكن مطروحاً الآن). من ذلك على سبيل المثال أن البورجوازيين يسهل عليهم تغيير اسمهم بداعي التباهي وكبار الموالي بداعي المصلحة. أمّا بالنسبة إلى عازف الكمان الشاب فقد كان اسم «موريل» على العكس يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجائزة الكمان الأولى التي نالها ويستحيل والحالة هذه تبديلها. وأمّا السيد «دو شارلوس» فلعلّه ودّ أن يستمدّ «موريل» كلّ شيء منه، حتى اسمه. وإذ تبيّن أن اسم «موريل» كان «شارل» الذي يشبه «شارلوس» وأن العقار الذي يلتقيان فيه يدعى «ليه شارم»، فقد عزم على إقناع «موريل» بأنّه يجدر بالعازف الماهر أن يتّخذ دون تردّد اسم «شارمل»، وهو تلميح من طرف خفيّ إلى مكان لقاءاتهما، فإن اسماً جميلاً يُمتّعك قوله إنّما

يؤلّف نصف الشهرة الفنيّة. وارتفع «موريل» بمنكبيه. وخطرت للسيد «دو شارلوس» بمثابة حجّة أخيرة الفكرة المشؤومة بأن يضيف بأنّه اتخذ خادماً خاصاً كان يدعى هكذا. ولم يُفد ذلك إلّا في إثارة حنق مجنون لدى الشاب. «لقد كان زمن فاخر فيه جدودي بلقب خادم الملك الخاص ورئيس ندل الملك». فأجاب «موريل» باعتزاز: «وكان زمن آخر أمر فيه أجدادي بقطع رأس أجدادك». ولعلّ السيد «دو شارلوس» كان دهش أيّما دهشة لو وسعه أن يفترض، وقد سلّم، إن لم يكن بـ«شارميل»، فباعتماد «موريل» وبإعطائه أحد ألقاب أسرة آل «غيرمانت» التي بحوزته إلّا أنّ الظروف كما سنرى لم تمكّنه من تقديمه لعازف الكمان، بأن هذا الأخير كان سيرفض وهو يفكّر بالسمعة الفنيّة الملازمة لاسم «موريل» وبالتعليقات التي ربّما أقدموا عليها «داخل الدرس». فلشدّ ما كان يضع شارع «بيرجير» فوق ضاحية «سان جيرمان»! ولم يَسَع السيد «دو شارلوس» في حينه إلّا الاكتفاء بأن يُصنع لـ«موريل» خواتم رمزيّة تحمل النقش القديم التالي: «PLUS ULTRA CARLO'S»[1]. صحيح أنّه كان ينبغي للسيد «دو شارلوس» في مواجهة خصم من نوعيّة لا يعرفها أن يغيّر من خطّته الآنيّة. ولكن من ذا يقوى على ذلك؟ فلئن كان يُعزى من جانب آخر بعض الرعونة للسيد «دو شارلوس» فلم يكن «موريل» ليخلو منها هو الآخر. ثمّ إن ما سوف يودي به لدى السيد «دو شارلوس»، مؤقتاً على الأقلّ (ولكن ذاك المؤقت انقلب نهائياً)، فأكثر كثيراً من الظرف نفسه الذي سبّب القطيعة، ومفاده أنّ ما به لم يكن قاصراً على الدناءة التي كانت تجعله ينبطح أمام القسوة ويردّ على النعومة بالوقاحة. فقد كان ثمّة، في موازاة تلك الدناءة الطبيعيّة، وهن عصبيّ يضاعفه سوء تربية يستفيق في كلّ ظرف كان فيه مذنباً أو أصبح ثقيلاً فتجعله، في الوقت الذي ربّما احتاج فيه إلى

---

(١) هو شعار «شارلماني» (ومعناه: شارل الكبير) باللاتينية ويعني: أبْعَدَ من ذلك يا شارل.

كامل لطفه وكلّ عذوبته وكامل مرحه لتهدئة البارون، متجهّماً شكساً يحاول مباشرة نقاشات يعلم أنّهم لا يوافقونه الرأي فيها فيؤيد وجهة نظره العدائيّة بحجج ضعيفة وعنف قاطع يزيد من ذاك الضعف نفسه. ذلك أنّه سرعان ما كان يعوزه البرهان فيستنبط مع ذلك براهين تنبسط فيها كامل مساحة جهله وغبائه، وكادا لا يظهران حينما كان لطيفاً ولا يبحث إلّا عن أن يروق الآخرين. فيما كنت على العكس لا تبصر غيرهما في نوبات تجهّم مزاجه حيث ينقلبان من أمرين غير مؤذيين إلى أمرين مقيتين. حينئذ كان السيد «دو شارلوس» يحسّ أنّه عيل صبره فكان لا يجعل أمله إلّا في غدٍ أفضل فيما كان «موريل»، وقد نسي أن البارون كان يوفّر له معيشة باذخة، يبتسم ابتسامة ساخرة متعالية في إشفاقها ويقول: «لم أقبل في يوم شيئاً من أحد، وهكذا ليس من شخص أدين له بقولة شكراً».

وعلى هذا كان السيد «دو شارلوس»، كما لو تعامل مع واحد من رجال المجتمع الراقي، يوالي ممارسة صنوف غضبه الحقيقي أو المصطنع، على أنّه أصبح لا جدوى منه. ولكنّه لم يكن دوماً كذلك. ففي يوم (يقع على أيّ حال بعد هذه الفترة الأولى) كان فيه البارون يعود برفقة «شارلي» ورفقتي من حفل غداء في منزل آل «فيردوران»، وفي اعتقاده أنّه سيمضي آخر العصر والسهرة بصحبة عازف الكمان في «دونسيير»، سبّب وداع هذا الأخير الذي أجاب حال خروجه من القطار: «لا، لديّ ما يشغلني»، سبّب للسيد «دو شارلوس» خيبة أمل شديدة إلى حدّ أني رأيت، على الرغم من محاولته مواجهة الشدائد برباطة جأش، دموعاً تذيب طلاء أهدابه فيما يقف ذاهلاً أمام القطار. وكان ذاك الألم شديداً إلى حدّ أني همست في أذن «ألبيرتين»، وكنّا ننوي هي وأنا أن ننهي نهارنا في «دونسيير»، أني أودّ أن لا ندع السيد «دو شارلوس» وحيداً، وكان يبدو لي مغتمّاً دون أن أدري السبب. وقبلت الصغيرة العزيزة طائعة. وسألت السيد «دو شارلوس» حينذاك إن لم يكن يودّ أن أرافقه بعض الوقت. وقبل بدوره ولكنّه رفض إزعاج ابنة عمّي لذاك السبب. ولقيت شيئاً من العذوبة (وللمرة

الأخيرة دون شكّ إذ كنت عازماً على قطع صلتي بها) في أن آمرها بلطف كما لو كانت زوجتي: «عودي من جانبك وسوف ألحق بك هذا المساء»، وفي سماعها تأذن لي، كما لعلّ زوجة كانت فعلت، بأن أفعل ما أبتغيه، وتقرّني على ذلك، وأن أضع نفسي بتصرّف السيد «دو شارلوس» الذي تحبّه إن كان بحاجة إليّ. ومضينا أنا والبارون، هو يمايل جسده السمين ويخفض عيني اليسوعيّ لديه[1]. وأنا أتبعه إلى مقهى جاؤونا فيه بشيء من الجعة. وأحسست بعيني السيد «دو شارلوس» عالقتين قلقاً بمشروع ما. وفجأة طلب ورقاً ومداداً وطفق يكتب بسرعة فريدة. وفيما كان يسوّد الورقة تلو الأخرى كان يتلألأ في عينيه حلم غاضب. وبعدما سطّر ثماني صفحات قال لي: «هل لي أن أسألك خدمة كبرى؟ اعذرني أنّي أغلق هذه الكلمة، ولكن لا بدّ من ذلك. تستقلّ عربة، بل سيارة إن استطعت لتمضي بسرعة أكبر. سوف تلقى بالتأكيد «موريل» وهو بعد في غرفته حيث مضى ليبدّل ثيابه. يا للصبيّ المسكين، أراد أن يظهر بمظهر المتباهي لحظة فراقنا، ولكن تأكّد أنّه أشدّ حزناً منّي. سوف تعطيه هذه الكلمة، فإن سألك أين رأيتني تقول له إنّك قد توقّفت في «دونسيير»، (وهي الحقيقة على أيّ حال) كي تلتقي «روبير» (وهو ما كان ربّما غير ذلك)، ولكنّك صادفتني مع رجل لا تعرفه وكنت أنا أبدو وقد تملّكني الغيظ وأنّه خيّل إليك أنّك تسمع اختلاساً كلمات تقول بإرسال شهود (فإنّي غداً في مبارزة). لا تقل له خصوصاً إنّي أطلبه ولا تحاول اصطحابه، ولكن إن أراد المجيء معك فلا تمنعه عن ذلك. هيّا يا بني، ذلك في صالحه، وتستطيع الحؤول دون مأساة كبيرة. في أثناء ذهابك سوف أكتب إلى شهودي. لقد منعتك من التنزّه برفقة ابنة عمّك، وأملي أنّها لم تحقد عليّ لذلك، بل أعتقد ذلك. فإنّها امرأة نبيلة وأعرف أنّها من اللواتي يعرفن

---

(١) اليسوعيون: جمعية دينية كاثوليكية أسسها «أغناطيوس دو لوايولا» في القرن السادس عشر واشتهروا باتجاه إلى الجدال المفرط ولا سيما على الصعيد الأخلاقي، ويطلق عليه بالفرنسية كلمة: Casuistique.

كيف لا يرفضن عظمة الظروف. ينبغي أن تشكرها عنّي وإنّي أدين لها شخصياً ويروقني أن يكون الأمر كذلك». وداخلني إشفاق عظيم على السيد «دو شارلوس»، فقد كان يبدو لي أنّ «شارلي» كان يستطيع الحؤول دون هذه المبارزة التي ربّما كان سببها، وكان يثير حنقي والحالة هذه أن يكون مضى بتلك اللامبالاة بدلاً من تقديم المعونة لمن يحميه. وتعاظمت ثورتي حينما تعرّفت، لدى وصولي إلى البيت الذي كان يقطنه «موريل»، صوت عازف الكمان الذي كان، للحاجة التي به لنشر المرح من حوله، يغنّي من أعماق فؤاده: «مساء السبت بعد العمل!»[1] ويا ليت السيد «دو شارلوس» المسكين كان سمعه، وهو الذي كان يودّ أن يُعتقد أو هو كان يعتقد أنّ «موريل» مجروح الفؤاد في هذا الوقت! وأخذ «شارلي» إذ شاهدني يرقص ابتهاجاً. «آه! يا شيخ، (أعذر لي أنّي أدعوك هكذا فإنّك تتّخذ عادات وسخة في هذه الحياة العسكريّة اللعينة) يا لحظّي أنّني ألتقيك! ليس لديّ ما أفعله في أمسيتي، فلنقضها سويّة رجوتك. نمكث هنا إن طاب لك، أو نمضي في قارب إن كنت تفضّل، أو نعزف الموسيقى، فليس عندي ما أفضّله». قلت له إنّي ملزم بتناول عشائي في «بالبيك»، وكان شديد الرغبة في أن أدعوه إليها ولكنّي ما كنت أودّ ذلك. «ولكن لِمَ جئت إن كنت مُعْجَلاً إلى هذا الحدّ؟» - «إني أحمل إليك كلمة من السيد «دو شارلوس»». وزال كلّ مرحه لدى سماع ذاك الاسم وتقبّض وجهه. «كيف ذلك! أفينبغي أن يأتي حتّى هنا لمطاردتي! فإنني عبد والحالة هذه! كن لطيفاً يا عزيزي، فلن أفتح الكتاب؛ قل له إنك لم تلقني». - «أليس من الأفضل أن تفتحه؟ فإني أتصوّر أنّ ثمّة أمراً خطيراً». - «لا، مئة مرّة، فلستَ تعرف الأكاذيب والحيل الجهنّميّة لدى هذا القرصان العتيق. إنّها خدعة كي أمضي للقائه. وبعد، فلن أذهب، وليدعني وشأني هذا المساء. وسألت «موريل»: «ولكن، أليس هناك

---

(١) أغنية شعبيّة مطلعها: «هيا يا حلوتي» وتعود إلى مطلع القرن العشرين.

مبارزة في الغد؟»، وكنت أظنّه كذلك على اطّلاع. فقال مذهولاً: «مبارزة؟ لست أعلم كلمة من ذلك. لست أبالي على أيّ حال، ويستطيع ذلك العجوز المقرف أن يذهب إلى الذبح إن طاب له ذلك. لكنّك والله تشغل بالي، وسوف ألقي نظرة على رسالته مع ذلك. وتقول له إنّك تركتها تحسّباً لكلّ طارئ إن أنا عدت». وفيما كان «موريل» يكلّمني كنت أتطلّع بدهشة عظيمة إلى الكتب الرائعة التي سبق أن أعطاه إيّاها السيّد «دو شارلوس» وكانت الغرفة تزدحم بها. ولمّا رفض عازف الكمان الكتب التي تحمل عبارة: «إنّي ملك يد البارون، إلخ.» والشعار يبدو له مُهيناً بما هو علامة امتلاك، فإن البارون، بتلك المهارة العاطفيّة التي تلذّ الحبّ غير الموفّق، كان قد نوّع فيها بأخرى جاءته من جدود له ولكنّما أوصى بها إلى عامل التجليد وفق ظروف صداقة كئيبة. فقد كانت أحياناً مختصرة واثقة كمثل: «Spes mea» (أملي) و«Expectata non eludet» (لن يخيّب الآمال)[١]، وأحياناً فقط مستسلمة، مثل «سأنتظر»؛ وبعضها غراميّة: «متعة السيّد نفسها»، أو هي تنصح بالعفّة كمثل الشعار المأخوذ عن آل «سيميان» والذي تنتثر فوقه الأبراج اللازورديّة وأزهار الزنبق، وقد حُرّف معناه «Sustentant lilia turres» (الأبراج تساند الزنابق)، وغيرها أخيراً يائس يضرب موعداً في السماء لمن أعرض عنه على الأرض: «Manet ultima coelo» (النهاية مُلْك السماء)[٢]. وإذ يجد السيد «دو شارلوس» العنقود الذي أخفق في الوصول إليه حصرماً كلّه ويتظاهر بأنّه لم يَسْعَ إلى ما لم يحصل عليه فقد كان يقول في أحدها: «Non mortale quod opto» (ليس طموحي إلى زوال)[٣]. ولكنّما لم يتّسع لي الوقت لأراها جميعاً.

ولئن بدا السيّد «دو شارلوس»، وهو يخطّ على الورق هذه الرسالة،

---

(١) الشعار الأوّل هو للملك «هنري الثالث» ونصّه الأصلي: «الله أملي». أمّا الثاني فلزوجة «هنري الرابع» الأولى واسمها «مرغريت دوفالوا».

(٢) شعار آخر للملك «هنري الثالث».

(٣) هو شعار «شارل دو لورين».

وكأنّما تحت سلطان شيطان الوحي الذي يجري به قلمه، فما إن فضّ «موريل» الخاتم «Atavis et armis» (بالجدود والسلاح)[1] الذي يعلوه فهد إلى جانب وردتين باللون الأحمر حتّى أخذ يقرأ بسرعة محمومة تساوي تلك التي أبداها السيد «دو شارلوس» وهو يكتب، وما كانت عيناه تجريان على تلك الصفحات التي سُوّدت بسرعة جهنّميّة بأقلّ ما كان يجري به قلم البارون. وصاح قائلاً: «آه! يا إلهي! ما كان ينقصنا غير ذلك! ولكن أين نجده؟ الله يعلم أين هو الآن». وألمحت إلى أنّنا إن حثثنا السير ربّما لقيناه لا يزال في مقهى أوصى فيه على جعة ليستعيد هدوءه. وقال لعاملة المنزل: «لست أعلم إن كنت سأعود»؛ وأضاف يقول بصوت خافت: «ذلك رهن بالمنحى الذي ستتخذه الأمور». وما هي إلّا دقائق حتّى وصلنا إلى المقهى. ولاحظت هيئة السيد «دو شارلوس» ساعة لمحني. وإذ أبصرني لا أعود وحيداً شعرت أن أنفاسه وأن الحياة رُدّت إليه. ولمّا لم يكن بحالة تمكّنه من الاستغناء عن «موريل»، فقد ابتدع أنّهم نقلوا إليه أن ضابطين من الكتيبة تناولاه بالسوء بشأن عازف الكمان وأنّه عازم أن يرسل إليهما شهوداً. ورأى «موريل» الفضيحة وحياته التي أضحت مستحيلة في الكتيبة فهُرع إليه. ولم يكن تماماً على خطأ في ما فعل. ذلك لأن السيد «دو شارلوس» كان قد كتب إلى صديقين (كان أحدهما «كوتار») ليسألهما أن يكونا شاهدين له وذلك ليجعل الكذبة أكثر قرباً إلى الحقيقة. ولو لم يجئ عازف الكمان فالأكيد أن السيد «دو شارلوس» كان، بالجنون الذي به، (وكيما يبدّل حزنه غيظاً)، أرسل بهما كيفما اتّفق إلى ضابط، أيّ ضابط، لعلّ منازلته كانت فرّجت عنه. وفي أثناء ذلك تذكّر السيد «دو شارلوس» أنّه من عِرق أكثر صفاء من آل البيت في فرنسا، فكان يقول في نفسه ما أحسنه أن يجزع كلّ هذا الجزع من أجل ابن رئيس خدم لعلّه ما كان تنازل أن يتردّد على سيّده. ولئن لم يعد

(١) شعار الكونت «دانجيفلييه» مدير أبنية «لويس السادس عشر».

يستمتع من جانب آخر بغير معاشرة حثالة الناس فإن العادة المتأصلة التي لديهم في عدم الإجابة عن رسالة وفي الإخلاف بموعد دون سابق إنذار ودون الاعتذار بعده كانت تعبث في نفسه، إذ الأمر في الغالب أمر غرام، الكثير من الانفعالات، وكانت تسبّب له فيما تبقّى من الوقت الكثير من الإزعاج والضيق والحنق حتّى ليبلغ به أن يتأسف أحياناً على كثرة الرسائل التي تُسطّر في أمر زهيد وعلى الدقّة المفرطة في مواعيد السفراء والأفراد الذين إن هم للأسف لا يثيرون اهتمامه كانوا يولونه على الرغم من كل شيء نوعاً من الراحة. وإذ كان السيد «دو شارلوس» قد ألف تصرّفات «موريل» ويعلم إلى أي حدّ لا سلطان له عليه وأنّه عاجز عن الانسلال داخل حياة كانت الصحبات السوقية، ولكنّما كرّستها العادة مع ذلك، تأخذ حيّزاً من المكان والزمان أكثر من أن يُحتَفَظ بساعة للسيد الكبير المُقصى المتكبّر المتوسّل عبثاً، فقد كان متيقّناً أن الموسيقيّ لن يعود وبه خشية أن يكون اختصم إلى الأبد معه لأنّه تجاوز الحدّ حتّى إنّه صادف عنتاً في كتم صوت صراخه حين رآه. ولكنّه حرص- وقد ألفى نفسه منتصراً على إملاء شروط السلام واستخلاص ما استطاع من المكاسب. فقال له: «ماذا جئت تفعل هنا؟» وأضاف قوله وهو ينظر إليّ: «وأنت؟ لقد أوصيتك على وجه الخصوص أن لا تعود به إليّ». - «لم يكن يريد العودة بي»، يقول «موريل» وهو ينقّل باتجاه السيد «دو شارلوس» بسذاجة دلاله، نظرات مصطلح حزنها متعبة في تقادمها وقد اتّخذ هيئة حكم دون شك أنها لا تقاوم، هيئة من يبغي عناق البارون وبه رغبة في البكاء، «فأنا من جاء على الرغم منه. ها أنا ذا آتي باسم صداقتنا لأتوسّل إليك جاثياً على ركبتيّ بأن لا تقدم على هذا الجنون». كان السيد «دو شارلوس» قد جُنّ فرحاً. لقد كانت ردّة الفعل شديدة على أعصابه ولكنّه ظلّ يسيطر عليها مع ذلك. وأجاب بجفاء: «كان يجدر بالصداقة التي تدّعيها بغير مناسبة أن تحملك على العكس على إقرار ما أفعل حينما لا أرى لزوماً عليّ التغاضي عن سفاهات أحد الحمقى. ولو شئت من جانب آخر أن أستجيب

لتوسّلات مودّة عرفتها أفضل إلهاماً فلن تتوافر لي القدرة على ذلك فإن رسائلي إلى شهودي أرسلت ولست أشك بقبولهم. لقد تصرّفت دوماً إزائي تصرّف الأبله الكامل وبدلاً من أن تفاخر، كما كان لك الحقّ أن تفعل، بالإيثار الذي أبديته لك، بدلاً من أن تُفهم حثالة مساعدي الضبّاط أو الخدّام الذين يضطرّك القانون العسكري إلى العيش بين صفوفهم أيّ باعث على الاعتزاز الذي لا يدانيه اعتزاز تؤلّفها بالنسبة إليك صداقة كما هي صداقتي، حاولت الاعتذار، بل حتّى أن تفاخر بغباء بأن لا تبدي لي ما يكفي من امتنان. أعلم أن لا ذنب لك في ذلك سوى أنّك أتحت لغيرة الآخرين مجال دفعك إلى ذلك»، يضيف قوله كي لا يبدي إلى أيّ حدّ أذلّته بعض المشاحنات. ولكن كيف تكون في مثل سنّك طفلاً إلى حدّ ما (وطفلاً سيّئ التهذيب إلى حدّ ما) كيف لا تكون حزرت في الحال أن اصطفائي لك وسائر المكاسب التي ستنجم عنه في ما يخصّك سوف تثير حسد الآخرين؟ وأن رفاقك جميعاً سيعملون على احتلال مكانك فيما يستثيرونك لتختصم معي؟ ولم أرَ من واجبي لفتك إلى الرسائل التي وردتني بهذا الشأن من كلّ الذين توليهم أكثر ثقتك. فإني أزدري على السواء محاولات التقرّب التي يقوم بها هؤلاء الخدّام وصنوف سخريتهم التي لا تُجدي فتيلاً. الشخص الوحيد الذي أعبأ به هو أنت لأني أحبّك حقّاً ولكنّ للوداد حدوداً وكان يجدر بك أن تتوقّع ذلك». ومهما أمكن أن تكون لفظة «خادم» قاسية على مسامع «موريل» الذي سبق لوالده أن كان خادماً، بل بالضبط لأنّه كان كذلك، فإن تفسير سائر الحوادث الاجتماعية المؤسفة «بالغيرة»، وهو تفسير ساذج وغير منطقي، ولكنّه لا يبلى ويصادف على الدوام لدى طبقة ما نجاحاً لا يخيب شأن الخدع القديمة لدى جمهور المسارح أو التهديد الناشئ عن خطر رجال الدين في المجالس، إنّما كان يلقى لديه إيماناً يساوي في قوّته إيمان «فرانسواز» أو خدم السيدة «دو غيرمانت»، وكانت في نظرهم السبب الوحيد لمصائب البشرية. ولم يشكّ في أن يكون رفاقه حاولوا أن يخطفوا منه مكانه فإذا به

أكثر تعاسة جرّاء هذه المبارزة المفجعة والوهمية على أيّ حال. وصاح «شارلي» قائلاً: «آه! يا لغمّي! فلن أبقى من بعده. ولكن ألا ينبغي أن يلتقياك قبل الذهاب للقاء ذلك الضابط؟ - «لست أدري، وفي اعتقادي أنْ بلى. لقد بعثت أقول لأحدهم إنّني سأمكث هنا هذا المساء وسوف أزوّده بتعليماتي». وسأله «موريل» بلهجة رقيقة قائلاً: «آمل أن أكون أقنعتك حتّى مجيئه. اسمح لي فقط أن أمكث بجانبك». كان ذلك جلّ ما يبتغي السيد «دو شارلوس»، ولكنّه لم يتراجع من أوّل مرّة. «لعلّك تغلط إن طبّقت هنا مقولة «من أحبّ كثيراً عاقب بصرامة»، فإنّك أنت من أحببتُ كثيراً ومرادي أن أعاقب حتّى بعد خصامنا أولئك الذين حاولوا محاولة جبانة أن يسيئوا إليك. ولم أجب حتّى الآن عن تلميحاتهم المتسائلة التي تجرؤ أن تستوضحني كيف يستطيع رجل مثلي أن يكون على صلة بـ«زبون» من طينتك نبت من لا شيء إلّا بشعار أبناء عمومتي من آل «لا روشفوكو»؛ «ذلك يروقني». بل أبرزت لك عدّة مرّات أن تلك المسرّة يمكن أن تصبح أعظم مسرّة لديّ دون أن ينتج عن ارتفاعك التحكّمي حطّ لمنزلتي». وصاح في نبرة استعلاء يقارب الجنون وهو يرفع ذراعيه: «Tantus ab uno splendor!» (كلّ هذه الروعة من واحد)[1]. فليس التنازل نزولاً»، يضيف قوله بهدوء أكبر في أعقاب هذا السيل العارم من الاعتزاز والفرح، «آمل على الأقلّ أن الدم الذي يجري في عروق خصمي، على الرغم من اختلاف المكانة، يمكن أن أريقه دونما خجل. وقد جمعت بهذا الصدد بعض المعلومات السريّة التي طمأنتني. ولعلّه يجدر بك، إن احتفظت لي بشيء من الجميل، أن تفخر على العكس لما ترى من أنّني أستعيد بسببك المزاج الحربيّ الذي لجدودي فأقول مثلهم إن حلّت النهاية المحتومة، الآن وقد أدركتُ أيّ شخص غريب الأطوار أنت: «الموت حياة لي». وكان السيد «دو شارلوس» يقول ذلك صادقاً لا بداعي

---

(١) شعار «لويز دو لورين» أرملة الملك هنري الثالث.

حبّه لـ«موريل» فحسب، بل لأنّ ميلاً للقتال يظنّ بسذاجة أنّه أخذه عن جدوده كان يوليه قدراً من الحبور لدى التفكير بالاقتتال إلى حدّ أنّ تلك المبارزة المدبّرة بادئ الأمر لمحض استقدام «موريل» ربّما أحسّ الآن بالأسف للتخلّي عنها. فلم يكن واجه أمراً في يوم دون أن يظنّ نفسه في الحال مقداماً ومماثلاً للقائد العام الشهير «دو غيرمانت»، في حين يبدو له الذهاب إلى ميدان المبارزة بالنسبة لآخر سواه عملاً في غاية التفاهة. وقال لنا بصدق وهو يرتّل كلّ لفظة: «في اعتقادي أنّها ستكون جميلة جدّاً. فما عسى أن تكون مشاهدة «ساره برنار» في مسرحيّة «**النسر الصغير**»؟ خ... و«مونيه سولي» في مسرحيّة «**أوديب**»؟ خ.. وهو على الأكثر يستمدّ بعض شحوب يتبدّل به وجهه حينما يجري الأمر في حلبات مدينة «نيم». ولكن ما عسى أن يكون ذلك مقابل هذا الشيء الخارق أن تشهد قتال واحد من نسل القائد العام بالذات؟» وشرع السيد «دو شارلوس» لدى ورود هذه الفكرة وحدها، شرع وهو لا يتمالك نفسه من الفرح يقوم بحركات دفاعيّة كانت تذكّر بـ«موليير»، ودفعتنا إلى أن نقرّب منّا محاذرين أكوابنا وأن نخشى من أوّل عناق للسيوف أن يجرح الخصمين والطبيب والشاهدين. وقال لي: «أيّ مشهد مغر لرسّام هو هذا! وأنت يا من يعرف السيد «إيلستير» يجدر بك أن تجيء به». فأجبت أنّه ليس على الساحل. فألمح السيد «دو شارلوس» إلى إمكان الإبراق له، وأضاف قوله في مواجهة سكوتي: «آه! أقول ذلك من أجله، فإنّه لمفيد دوماً بالنسبة لأستاذ - وإنّه لكذلك فيما أرى - أن يثبّت مثالاً على مثل هذا الانبعاث الإثني، وربّما لم يكن ثمّة واحد منه على مدى قرن».

ولئن كان السيد «دو شارلوس» يغتبط بفكرة نزال ظنّه بادئ الأمر مجرّد وهم، فقد كان «موريل» يفكّر بهلع بالأقاويل التي يمكن أن تُنقل من «موسيقى» الكتيبة، بسبب الضجّة التي ستثيرها تلك المبارزة، إلى معبد شارع «بيرجير». وإذ خيّل إليه أن «الصفّ» أصبح مطّلعاً على كلّ شيء فقد أضحى أكثر فأكثر إلحاحاً لدى السيد «دو شارلوس» الذي كان يوالي

التشوير بيديه إزاء فكرة النزال المُسْكرة. وتوسّل إلى البارون أن يأذن له بأن لا يفارقه إلى ما بعد الغد، وهو يوم المبارزة المفترض، كي يرقبه عن كثب ويحاول أن يسمعه صوت العقل. وقد قضى عرض رقيق إلى هذا الحدّ على آخر معاقل التردّد لدى السيد «دو شارلوس»، فقال إنّه سيحاول إيجاد مخرج وإنّه سوف يعمل على تأجيل القرار النهائي إلى ما بعد الغد. كان السيد «دو شارلوس» إذ لا يتدبّر الأمر دفعة واحدة، كان بإمكانه الاحتفاظ بـ«شارلي» يومين على الأقلّ والإفادة منهما كي يحصل منه على تعهّدات للمستقبل في مقابل تخلّيه عن المبارزة، هذا التمرين الذي يغتبط له، يقول، أشدّ الاغتباط ولن يمتنع عنه دونما أسف. وكان فيما يقول صادقاً فقد وجد على الدوام متعة في ارتياد حلبات المبارزة حينما يقتضي الأمر أن يقاتل بالسيف خصماً أو يبادله الرصاص. وأخيراً وصل «كوتار» وإن يكن تأخّر كثيراً، ذلك لأنّه كان شديد الغبطة بأن يكون شاهداً، ولكنّه كان بعدُ أكثر انفعالاً فاضطرّ أن يتوقّف في سائر المقاهي أو المزارع على الطريق يسأل أن يتكرّموا ويدلّوه على الرقم «١٠٠» أو «بيت الخلاء الصغير». وما إن وصل حتّى اصطحبه البارون إلى حجرة منفردة إذ كان يرى أقرب إلى النظام أن لا نحضر اللقاء أنا و«شارلي»، وكان يجيد في أن يجعل من غرفة عاديّة غرفة تُخصّص مؤقتاً لتكون قاعة عرض أو مداولات. وما إن أصبح وحده مع «كوتار» حتّى صرّح له أنّه يبدو على الأرجح أنّ الأقوال المردّدة لم يجر الكلام بها في الحقيقة وأن يتكرّم الدكتور ضمن هذه الظروف بإخطار الشاهد الثاني بأن الحادثة اعْتُبرت منتهية إن لم تطرأ تعقيدات. وإذ تباعد الخطر أصيب «كوتار» بخيبة أمل، بل خطر له حيناً أن يعبّر عن غضبه ولكنّه تذكّر أن أحد أساتذته الذي نجح أعظم نجاح في عصره على الصعيد الطبّي كتم غيظه وتحمّل مصيبته بعدما فشل في المرّة الأولى في المجمع بفارق صوتين فحسب ومضى فشدّ على يد غريمه المنتخب. ولذلك أعفى الدكتور نفسه من الإعراب عن حنق ما كان ليغيّر شيئاً من بعد، وأضاف بعدما همس، هو أشدّ الرجال خوفاً، بأنّ ثمّة أموراً لا يمكن أن ندعها تمرّ

مرور الكرام، أضاف أنّ الأمر هكذا أفضل وأن هذا الحلّ يُدخل السرور إلى قلبه. وبادر السيد «دو شارلوس»، رغبة منه في الإعراب عن امتنانه للدكتور، وبالطريقة نفسها التي لعلّ شقيقه الدوق كان رتّب بها ياقة معطف والدي ولفّت لها دوقة على وجه الخصوص خصر واحدة من العامّة، فقرّب كرسيّه بملاصقة كرسي الدكتور على الرغم من القرف الذي يوحي به هذا الأخير. وكيما يودّع الدكتور أخذ يده، ولم يفعل دون أيّة متعة ماديّة فحسب بل فيما يغالب نفوراً جسديّاً، فِعلَ واحد من آل «غيرمانت» لا فِعلَ شاذّ، وداعبها حيناً بلطف سيّد يدغدغ خطم جواده ويعطيه قطعة سكّر. ولكنّ «كوتار» الذي لم يكشف في يوم للبارون أنه حتّى سمع أقاويل سوء غامضة يجري تناقلها حول أخلاقه، ولم يكن في قرارة نفسه أقلّ احتساباً له على أنّه من صنف «الشاذين» (فقد كان حتى باستخدامه العاديّ للألفاظ في غير معانيها الصحيحة وبلهجة أكثر ما تكون جديّة يقول عن أحد خدم السيد «فيردوران» «أليس أنّه «عشيقة» البارون؟») وهم قوم كان قليل الخبرة بهم، تخيّل أن تلك المداعبة باليد كانت التمهيد المباشر لعملية اغتصاب أوقعه البارون في سبيل إتمامها، والمبارزة لم تكن سوى حجّة، في فخّ وساقه إلى هذه الرسالة المنفردة حيث سيؤخذ عنوة. وإذ لا يجرؤ على مغادرة كرسيّه حيث يسمّره الخوف، فقد كان ينقّل عينيه هلعاً وكأنّهما وقع بين يدي متوحّش لم يكن متيقّناً تماماً من أنّه لا يتغذّى بلحوم البشر. وأخيراً أفلت السيد «دو شارلوس» يده وقال وهو يودّ أن يكون لطيفاً حتى النهاية «سنتناول شيئاً معاً، كما يقولون، ما كان يدعى بالأمس «مازاغران» أو «غلوريا»[1]، وهما من الأشربة التي لا نجدها من بعد، بوصفها غرائب أثريّة، إلّا في مسرحيّات «لابيش» ومقاهي «دونسيير»، وربّما ناسب فنجان «غلوريا» المكان إلى حدّ ما، أليس كذلك؟ والظروف، فما قولك؟

(١) Mazagran وgloria: نوعان من مشروب القهوة يضاف إليه بعض «الروم»، والثاني محلّى بقليل من السكّر.

«فأجاب «كوتار»: «إنّي رئيس رابطة مناهضة الكحول، ويكفي أن يصادف مرور «طبيب» من الريف كي يقال إنّي «لا أعظ بالمثل الصالح. «Os homini sublime dedit coelumque tueri (وهب الإنسانَ وجهاً يتّجه به صوب السماء)، يضيف قوله مع أن الأمر لا صلة له البتّة وإنما لأن مخزون استشهاداته اللاتينية كان هيّناً إلى حدّ ما، ولكنّه كاف على أيّة حال كي يدهش تلاميذه. وارتفع السيد «دو شارلوس» بمنكبيه وعاد بـ«كوتار» إلينا بعدما طلب إليه سراً كان يهمّه بقدر يزيد منه أنّه كان لا بدّ، وسبب المبارزة التي أجهضت كان من نتاج الخيال البحت، من الحؤول دون بلوغه مسامع الضابط الذي اتّهم تعسّفاً. وفيما كنّا نشرب نحن الأربعة دخلت السيدة «كوتار» التي كانت تنتظر زوجها في الخارج أمام الباب وقد رآها السيد «دو شارلوس» بوضوح تام ولكنّه ما كان يهتمّ بلفت نظرها، وحيّت البارون الذي مدّ يده إليها وكأنّما لخادمة دون أن يتحرّك من كرسيّه فِعْلَ ملك يتقبّل آيات الاحترام في جزء، وفي آخر فِعلَ متحذلق لا يريد أن تجلس إلى طاولته امرأة هيّنة الأناقة، وفي جزء ثالث فِعلَ أنانيّ يصيبُ متعة في أن يكون وحيداً برفقة أصدقائه ولا يودّ أن يزعجه أحد. ولبثت السيدة «كوتار» والحالة هذه واقفة تتحدّث إلى السيد «دو شارلوس» وإلى زوجها. ولكن، ربّما لأن الأدب، أي ما يقع عليه أن تفعل، ليس امتيازاً قاصراً على آل «غيرمانت» ويمكن فجأة أن ينير ويوجّه العقول الأكثر تردّداً، أو لأنّ «كوتار» كثيراً ما كان يخدع زوجته فيحسّ بين الحين والحين حاجة، جرّاء نوع من الثأر لها، إلى حمايتها ممّن كان يقصّر معها، قطّب الدكتور فجأة حاجبيه، وهو ما لم يسبق أن رأيته يفعل في يوم، ودون أن يستشير السيد «دو شارلوس» قال بلهجة صاحب الأمر: «هيّا يا «ليونتين»، لا تلبثي هكذا واقفة، اجلسي». - «ولكن ألست أزعجكم؟» تقول السيدة «كوتار» بلهجة خجولة للسيد «دو شارلوس» الذي لم يحر جواباً وقد فاجأته لهجة الدكتور. وعاد «كوتار» يقول دون أن يوفّر له الوقت لذلك للمرّة الثانية: «لقد قلت لك أن تجلسي».

وتفرّقوا بعد حين وقال السيد «دو شارلوس» حينذاك لـ«موريل»: «استخلص من مجمل هذه القصة، وقد جاءت خاتمتها أفضل ممّا كنت تستحقّ، أنّك لا تحسن التصرّف وأني سأعيدك أنا في ختام خدمتك العسكرية إلى والدك كما فعل رئيس الملائكة «رفائيل» الذي أرسله الله إلى «طوبيا» الشاب». وطفق البارون يبتسم بمظهر من العظمة وفرح لم يبدُ أنّ «موريل» كان يشاطره إيّاه إذ لم تكن فكرة إعادته على هذا النحو لتروقه. ولم يعد السيد «دو شارلوس» يفكّر، وقد انتشى بتشبيه ذاته برئيس الملائكة و«موريل» بابن «طوبيّا»، بهدف جملته الرامية إلى استطلاع المكان ليعلم إن كان «موريل» سيقبل بالمجيء وإيّاه إلى باريس كما كان يبدي من رغبة. ولم يبصر البارون أو هو تظاهر بأنّه لا يبصر، وقد أسكره حبّه أو اعتزازه بنفسه، العبوس الذي ظهر على وجه عازف الكمان، فقد قال لي بعدما ترك هذا الأخير وحده في المقهى، قال بابتسامة مستكبرة: «هل لاحظت كيف كان يطير فرحاً حينما شبّهته بابن «طوبيّا». ذلك لأنّه أدرك فوراً، إذ هو شديد الذكاء، أنّ «الأب» الذي سوف يعيش إلى جانبه من الآن فصاعداً ليس أباه بالجسد، وهو لا بدّ خادم خاص قبيح بشاربين، بل أبوه بالروح، أي أنا. فأي فخار بالنسبة إليه، وكم كان يرفع الرأس باعتزاز! وأي فرح يحسّ به لإدراكه ذلك، وإني متيقّن من أنه سيقول كل يوم: «اللهم يا من جعلت من رئيس الملائكة «رفائيل» الطوباوي دليلاً لخادمك «طوبيّا» في رحلته الطويلة، هبنا نحن خدّامك أن يحامي عنّا ويزوّدنا بمعونته على الدوام». وأضاف البارون قوله وهو على قناعة تامّة أنّه سوف يجلس يوماً أمام عرش الله: «ولم تكن حتّى بي حاجة أن أقول له إني رسول السماء إليه، فقد أدرك الأمر من تلقاء ذاته وأرتج عليه من السعادة!» وصاح السيد «دو شارلوس» (وما كانت السعادة على العكس تفقده الكلام) وهو قليل الاهتمام ببعض المارّة الذين استداروا وفي ظنّهم أن الأمر أمر جنون، صاح وحده وبكلّ قوّته وهو يرفع يديه: «هلّلويا!»

ولم تضع هذه المصالحة حدّاً لهموم السيد «دو شارلوس» إلّا إلى حين. فكثيراً ما كان «موريل» يمضي في مناورات أبعد من أن يتيسّر للسيد «دو شارلوس» أن يلتقيه ويرسلني للتحدّث إليه، فكان يخطّ للبارون رسائل يائسة رقيقة يؤكّد له فيها أنّه ينبغي له أن يضع حدّاً لهذه الحياة لأنّه بحاجة من أجل أمر مروّع لخمسة وعشرين ألف فرنك. وما كان يقول أيّ شيء كان ذلك الأمر المروّع، ولو أنّه قال لكان دون شك ابتداعاً. ولعلّ السيد «دو شارلوس»، في ما يخصّ المال نفسه، لعلّه كان بعث به راضياً لو لم يحس أن ذلك يوفّر لـ«شارلي» وسيلة الاستغناء بغيره عنه وأن ينال حظوة لدى آخر غيره. ولذلك كان يرفض وكانت برقيّاته باللهجة الجافة القاطعة التي لصوته. وكان، حين هو أكيد من أثرها، يتمنّى أن يكون أبد الدهر على خلاف معه، فهو إذ يوقن أنّ ما سيجري هو العكس كان يتبيّن المضايقات التي ستنجم ثانية عن هذه العلاقة المحتومة. فإن لم يرد أيّ جواب من «موريل» عاد لا ينام ولم يظل له لحظة هدوء لضخامة عدد الأشياء التي نعيشها دون أن نعرفها والحقائق الباطنيّة العميقة التي تلبث خفيّة علينا. حينذاك كان يصوغ كلّ الافتراضات حول هذه الهفوة الفاحشة التي تجعل «موريل» بحاجة إلى خمسة وعشرين ألف فرنك فيوليها كلّ الأشكال ويربط بها بالتناوب الكثير من أسماء العلم. وأعتقد أن السيد «دو شارلوس» كان لا بدّ يتذكّر في تلك اللحظات (مع أن حذلقته في تلك الفترة، وهي في تراجع، لحق بها على الأقل إن لم يكن جاوزها فضول البارون المتعاظم إزاء الشعب) بشيء من الحنين الزوابع اللونيّة الرشيقة المتعددة التي تؤلفها اللقاءات الاجتماعية والتي ما كان أكثر النساء والرجال فتنة يسعون فيها إليه إلّا للمتعة المجرّدة التي كان يوليهم إيّاها والتي ما كان ليفكّر أحد بأن يخدعه ويبتدع «أمراً مروّعاً» يبدي جراءه استعداده لأن يقتل نفسه إن لم يرده في الحال خمسة وعشرون ألف فرنك. وأعتقد أنّه كان لا بدّ حينئذ، ربّما لأنه لبث مع ذلك من «كومبريه» أكثر منّي وطعّم الاعتزاز الاقطاعي بالاستكبار الألماني، أن يجد أن المرء لا يمكن

أن يكون عاشق خادم دونما عقاب، وأن الشعب ليس تماماً العالم الراقي وما كان يولي الشعب ثقته كما فعلت أنا على الدوام.

تذكّرني محطة القطار الصغير التالية، وأقصد «مينفيل»، تذكّرني بالضبط بحادث له علاقة بـ«موريل» والسيد «دو شارلوس». وقبلما أحكي عن ذلك لا بدّ لي أن أقول إنّ التوقّف في «مينفيل» (حين كانوا يصطحبون إلى «بالبيك» وافداً أنيقاً كان يفضّل، بغية أن لا يُزْعج، أن لا يقطن «لا راسبليير») كان مناسبة لمشاهد تشقّ عليك أقلّ من هذا الذي سأروي عنه بعد لحظة. كان الوافد، وهو يحمل أغراضه اليسيرة في القطار، يجد الفندق الكبير بعامّة على شيء من البعد، بيد أنّه، إذ لم يكن ثمّة قبل بلوغ «بالبيك» سوى شواطئ صغيرة بدارات غير مريحة، كان يسلّم طائعاً، من جرّاء ميل إلى البذخ والرفاهيّة، بالرحلة الطويلة حينما كان يبصر فجأة في فترة وقوف القطار في «مينفيل» فندق «البالاس» يشمخ أمامه وما كان يمكن أن يرتاب بأنّه بيت بغاء. فكان يقول حكماً للسيدة «كوتار»، وهي امرأة معروفة بتفكيرها العلميّ وحسن المشورة: «هيّا»، لا نذهبنّ أبعد من ذلك، فهذا كلّ ما ينبغي لي. فما فائدة المضيّ حتى «بالبيك» حيث لن تكون الأمور أفضل بالتأكيد؟ أنّي أحكم، لمجرّد المظهر، أنّي واجد كل الراحة ويمكنني تماماً استقدام السيدة «فيردوران» لأنني أنوي في مقابل مجاملاتها إقامة بعض اللقاءات الصغيرة على شرفها، ولن يقع عليها السير بقدر ما لو كنت أسكن في «بالبيك». يبدو لي أن ذلك يناسبها تماماً، ويناسب زوجتك يا أستاذي العزيز. لا بدّ أن ثمّة صالات نستقدم إليها هاتيك السيدات. لست أفهم، وأقولها فيما بيننا، لماذا لم تجئ السيدة «فيردوران» للسكنى هنا بدلاً من استئجار «لا راسبليير»؟ فالمكان صحيّ أكثر من بيوت قديمة على شاكلة «لا راسبليير» وهي حتماً رطبة دون أن تكون نظيفة على أيّة حال، ولا يتوافر فيها الماء الساخن فلا تستطيع الاغتسال كما تشاء. تبدو لي «مينفيل» أوفر متعة. وكانت السيدة «فيردوران» نهضت فيها بدور المعلّمة على أكمل وجه. لكلّ في جميع

الأحوال ذوقه، أمّا أنا فسأقيم هنا. ألا تريدين النزول وإيّاي يا سيدة «كوتار»؟ على أن نتوخّى السرعة فلن يلبث القطار أن ينطلق من جديد. وربّما أرشدتني في هذا المنزل الذي سيكون منزلك أيضاً ولا بدّ أنّك تردّدت عليه كثيراً. إنّه بالتمام الإطار الذي يناسبك». لقد صادفوا كلّ صنوف المشقّة لحمل الوافد المنكود الحظّ على السكوت، ولا سيّما لمنعه من النزول، وكان بالعناد الذي ينجم في الغالب عن كبير الهفوات يلحّ ويحمل حقائبه ويرفض سماع أيّ شيء إلى أن يكونوا أكّدوا له أنْ لن تجيء للقائه هنا لا السيدة «فيردوران» ولا السيدة «كوتار». سأحدّد هنا مكان إقامتي في جميع الأحوال، وما على السيدة «فيردوران» إلا أن تكتب لي الى هذا المكان».

أمّا الذكرى المتعلقة بـ«موريل» فتعود لحادثة من نمط أكثر خصوصية. لقد وقعت حوادث أخرى، ولكنّما أكتفي هنا، كلّما توقّف القطار الصغير وصاح المستخدم يقول «دونسيير»، «غراتفاست»، «مينفيل»، إلخ.، بتسجيل ما يذكّرني به الشاطئ الصغير أو الثكنة. لقد سبق أن تحدّثت عن «مينفيل» (Media Villa) (المدينة المتوسطة) وعن الأهمية التي كانت تكتسبها بسبب دار البغاء الفخمة التي بنيت فيها مؤخراً، ولم يتمّ ذلك دون إثارة احتجاجات لأمّهات الأسر لا طائل تحتها. ولكن لا بدّ لي، قبل أن أقول ما نوع الصلة في ذاكرتي بين «مينفيل» و«موريل» والسيد «دو شارلوس»، من ملاحظة التفاوت (الذي يقع عليّ التعمّق فيه فيما بعد) بين الأهمية التي يعلّقها «موريل» على الاحتفاظ ببعض الساعات خالية من أيّ ارتباط وتفاهة المشاغل التي يزعم أنّه يخصّصها لها، إذ نلقى هذا التفاوت نفسه داخل الإيضاحات التي من نوع آخر والتي كان يقدّمها للسيد «دو شارلوس». فهو الذي كان يمثّل دور المتجرّد مع البارون (ويمكنه أن يفعل دون مخاطر نظراً لكرم حاميه) حينما كان يرغب في قضاء الأمسية بمفرده ليعطي درساً، إلخ.، لم يكن يفوته أن يضيف إلى حجّته هذه الكلمات التي يقولها بابتسامة ملؤها الجشع: «ثمّ إن ذلك يمكن أن يكسبني أربعين

فرنكاً وليس ذلك بالقليل، فاسمح لي بالذهاب هناك فتلك مصلحتي كما ترى. وأنا بالطبع لا دخول لي مثلك، وعليّ أن أبني نفسي، وقد آن أن أكسب المال». ولم يكن «موريل» غير صادق تماماً في رغبته بإعطاء درسه. فأن لا يكون للمال لون غير صحيح من جهة، فإن طريقة جديدة في كسبه تولي القطع التي أفقدها الاستعمال لمعانها جدّة. فلو أنّه خرج حقيقة من أجل درس يعطيه فيمكن أن تكون ليرتان ذهبيّتان نقدتهما بداية إحدى التلميذات خلّفتا في نفسه أثراً مخالفاً لليرتين تأتيانه من يد السيد «دو شارلوس». ثمّ إن أغنى رجل ربّما قطع في سبيل ليرتين كيلومترات تصبح فراسخ إن كان ابن خادم خاص. على أن السيد «دو شارلوس» كان ينتابه في الغالب شكوك حول درس الكمان تتعاظم بقدر ما كان الموسيقيّ يتذرّع في الغالب بحجج من نوع آخر ومن طراز متجرّد تماماً على الصعيد المادي وهي مخالفة للمنطق على أيّ حال. من ذلك أنّ «موريل» ما كان يستطيع حجب النفس عن أن يقدّم صورة عن حياته ولكنّها عن قصد أو غير ما قصد أيضاً شديدة العتمة إلى حدّ أن بعض الأجزاء فقط كانت تتّضح معالمها. وقد وضع نفسه على مدى شهر بتصرّف السيد «دو شارلوس» بشرط أن يحتفظ بأمسياته حرّة لأنه كان يرغب في المثابرة على دروس الجبر. فأمّا المجيء للسؤال عن السيد «دو شارلوس»؟ آه ذلك مستحيل، فالدروس كانت تستمرّ أحياناً حتّى ساعة متأخرة. ويتساءل البارون قائلاً: «حتّى إلى ما بعد الثانية صباحاً؟» - «أحياناً» - «ولكنّ الجبر يمكن تعلّمه بالسهولة نفسها في كتاب». - «بل بسهولة أكبر لأنّي لا أفهم الكثير في الدروس» - إذاً؟ والجبر لا يمكن في جميع الأحوال أن يفيدك في شيء». - «هذا شيء أحبّه كثيراً، فإنّه يزيل وهن أعصابي». وكان السيد «دو شارلوس» يقول في نفسه: «لا يمكن أن يكون الجبر ما يدفعه إلى طلب مأذونيات ليليّة. أتراه ملحق بالشرطة؟» وفي جميع الأحوال، وأيّاً كان الاعتراض، فإن «موريل» كان يحتفظ ببعض الساعات المتأخرة، سواء أكان ذلك بسبب الجبر أو الكمان. وذات مرّة لم يكن السبب لا هذا ولا

ذاك، بل الأمير «دو غيرمانت» الذي جاء لقضاء بضعة أيّام على هذا الشاطئ لزيارة الدوقة «دو لوكسمبور» فالتقى الموسيقي دون أن يعرف من عساه كان ودون أن يكون معروفاً لديه علاوة على ذلك، وعرض عليه خمسين فرنكاً لقضاء الليلة بصحبته في دار النساء في «مينفيل»؛ والمتعة مزدوجة بالنسبة إلى «موريل»، متعة الكسب الذي جاءه من جانب السيد «دو غيرمانت» واللذّة لما تحيط به نساء نهودهن السمراء تبرز مكشوفة. لست أدري كيف بلغت السيد «دو شارلوس» فكرة ما جرى والمكان، ولكن من دون معرفة الغاوي. وجنّ من الغيرة وبادر بغية معرفته فأبرق لـ«جوبيان» الذي وصل بعد يومين، وعندما أعلن «موريل» في أول الأسبوع التالي أنه يزمع أيضاً أن يغيب سأل البارون «جوبيان» إن كان سيأخذ على نفسه شراء مديرة المؤسسة وأن يحصل منها على إخفائها هو و«جوبيان» لحضور المشهد. وأجاب «جوبيان» يقول للبارون: «مفهوم، سوف أهتم بالأمر يا صغيري العزيز». لا نستطيع أن نفهم إلى أيّ حدّ كان هذا القلق يهيّج عقل السيد «دو شارلوس» وبذلك أثراه مؤقّتاً. فالحبّ يسبّب هكذا اندفاعات جيولوجيّة حقيقية في الفكر. وفي فكر السيد «دو شارلوس»، الذي كان يشبه لأيّام خلت سهلاً متساوي الصفحة إلى حدّ أنه ما كان استطاع أن يبصر في المجال الأبعد فكرة على وجه الأرض، انتصبت فجأة كتل من الجبال قاسية كالحجر، ولكنّها جبال نُحتت كما لو أن مثّالاً نقش الرخام في مكانه بدلاً من أن يحمله معه فتتلوّى فيه بمجموعات عملاقة جبّارة الحنق والغيرة والفضول والحسد والحقد والألم والكبرياء والهلع والحبّ.

وفي هذه الأثناء حلّ المساء الذي ينبغي أن يتغيّب فيه «موريل». لقد نجحت مهمّة «جوبيان». كان على البارون وعليه المجيء في حوالي الحادية عشرة مساء وسوف يخبئونهما. كان السيد «دو شارلوس» يمشي على أطراف قدميه قبل ثلاثة شوارع من بلوغه بيت البغاء الرائع ذاك (الذي كانوا يفدون إليه من جميع الضواحي الأنيقة) ويكتم صوته ويتوسّل إلى

«جوبيان» أن يتكلّم بصوت أخفض مخافة أن يسمعهما «موريل» من الداخل. ولكن ما إن دخل السيد «دو شارلوس» يسترق الخطو إلى البهو، وقليلاً ما تعوّد هذا الصنف من الأماكن، حتّى ألفى نفسه، يلفّه الخوف والذهول، في مكان أكثر ضجيجاً من البورصة أو فندق المبيعات. فعبثاً كان يوصي خادمات حلوات تجمّعن من حوله بخفض أصواتهنّ. وكان يغطّي أصواتهنّ على أيّة حال ضجيج الدلالة والمناقصات الصادرة عن «نائبة رئيسة» عجوز ذات شعر مستعار فاحم السواد ووجه يتشقّق وقار الكاتب العدل أو الكاهن الإسباني فيه، وكانت تصرخ في كل دقيقة كهزيم الرعد إذ تأذن بالتناوب بفتح الأبواب وإعادة إغلاقها، مثلما يجري تنظيم سير العربات: «ضع السيد في الرقم ٢٨ في الغرفة الإسبانية». «لا دخول بعد الآن». «أعد فتح الباب، فهذان السيدان يطلبان الآنسة «نعومي»، وهي تنتظرهما في الصالة الفارسيّة. كان السيد «دو شارلوس» فزعاً مثل ريفيّ يقع عليه أن يجتاز الجادّات الكبرى. وكيما نأخذ تشبيهاً أقل انتهاكاً للقدسيّات بما لا يقاس من الموضوع المصوّر في تيجان بوابة الكنيسة القديمة في «كوليفيل»، كانت أصوات الخادمات الشابات تردّد بطبقة أخفض ودونما كلل أمر نائبة الرئيسة كتلك التعاليم الدينية التي نسمع التلاميذ يرتّلونها في جوّ كنيسة ريفيّة رخيم. والسيد «دو شارلوس» كان يرتعد في الشارع أن يسمعه أحدهم وهو موقن أن «موريل» كان يقف إلى النافذة، ربّما لم يَنْتَبْهُ، مهما أصابه من خوف، الفزع نفسه في زمجرة هذه السلالم الفسيحة التي يدرك فيها المرء أن ليس ما يمكن أن يُشَاهَد من الغرف. وأخيراً وجد في ختام محنته الآنسة «نعومي» التي كان ينبغي أن تخبّئه مع «جوبيان»، ولكنّها بدأت فحبسته في صالة فارسيّة فخمة جداً ما كان يبصر منها شيئاً. وقالت له إن «موريل» سبق أن طلب تناول عصير برتقال وإنّهم سيصطحبون المسافرين ما إن تُقدّم له، إلى صالة شفّافة. وبانتظار ذلك، ولمّا كانوا يرسلون في طلبها، وعدتهما، كما في الحكايات، أن ترسل لهما بغية تمضية الوقت «سيدة شابة ذكيّة» فنادوا

عليها. والسيدة الحلوة الصغيرة كانت ترتدي مئزراً فارسياً تهمّ أن تخلعه. فطلب إليها السيد «دو شارلوس» أن لا تفعل، فأوصت أن يأتوها بالشمبانيا إلى فوق وكانت تكلّف أربعين فرنكاً للزجاجة الواحدة. أمّا «موريل» فقد كان بالحقيقة في تلك الأثناء بصحبة الأمير «دو غيرمانت». وتظاهر شكلاً بأنّه ضلّ الطريق إلى غرفته ودخل إلى غرفة كان فيها امرأتان سارعتا إلى ترك السيدين وحدهما. كان السيد «دو شارلوس» يجهل كلّ ذلك، ولكنه يزبد غضباً ويريد فتح الأبواب، وأرسل ثانية في طلب «نعومي» التي لمّا تناهى إلى مسامعها أن السيدة الشابة الذكيّة تزوّد السيد «دو شارلوس» بتفاصيل حول «موريل» غير مطابقة لتلك التي أقدمت هي على تزويد «جوبيان» بها أمرت بطردها وأرسلت بعد قليل للحلول محل السيدة الشابة الذكية «سيدة شابة لطيفة» لم تُرهما أكثر من تلك، ولكنّها قالت لهما كم الدار جديّة، وطلبت شمبانيا بدورها. وطلب البارون وهو يرغي ويزبد عودة «نعومي» التي قالت لهما: «أجل، الأمر طويل بعض الشيء فهاتيك السيدات يتصنّعن الوقفات وليس يبدو أنّه راغب أن يفعل شيئاً.» وأخيراً، وإزاء وعود البارون وتهديداته مضت الآنسة «نعومي» ضيّقة النفس وهي تؤكّد لهما أنهما لن ينتظرا أكثر من خمس دقائق. والدقائق الخمس تلك دامت ساعة اصطحبت بعدها «نعومي» دونما ضجّة السيد «دو شارلوس» الذي كان يتميّز غيظاً و«جوبيان» الشديد الأسف باتجاه باب مشقوق وهي تقول: «سوف تبصران تماماً. وليست الأمور مثيرة على أيّ حال في هذه الفترة، فهو برفقة ثلاث سيدات ويحكي لهنّ عن الحياة في الكتيبة». وأخيراً استطاع البارون أن يشاهد من فتحة الباب وكذلك في المرايا، ولكنّما اضطرّه رعب قاتل أن يستند إلى الجدار. إنّه بالتمام «موريل» من يشاهده أمامه بيد أنّه كان بالأحرى، وكأنّما الأسرار الوثنيّة وصنوف السحر لا تزال موجودة، ظلّ «موريل»، «موريل» محنّطاً، لم يكن حتّى «موريل» الذي أقيم من بين الأموات كلعازر، بل تراءٍ لـ«موريل»، شبح لـ«موريل»، «موريل» عائداً أو مذكوراً في هذه الغرفة

(حيث الجدران والدواوين تردّد في كل مكان رموز السحر) وكان يقف جانبياً على أمتار منه. كان «موريل» قد فقد كلّ لون كما هي الحال بعد الموت، وظلّ ساكناً بين تلك النساء اللائي بدا وكأنّما كان انبغى أن يسرح ويمرح بينهنّ، مكفهرّ اللون في جمود مصطنع. وكيما يشرب كوب الشمبانيا الذي أمامه كانت ذراعه الواهنة تحاول أن تمتدّ ببطء وتعود فتهوي. كان يوافيك انطباع بهذا الالتباس الذي يفضي إلى أن يتكلّم دين ما عن الخلود، ولكنّه يعني به شيئاً لا يستبعد العدم. كانت النساء يضيّقن عليه بالأسئلة: «ترى، إنّهنّ يكلّمنه عن حياته في الكتيبة، تقول الآنسة «نعومي» للبارون بصوت خفيض، أليس أنّ هذا مسلّ؟ - وتضحك - هل أنت مسرور؟ إنّه هادئ، أفليس كذلك؟» تضيف قولها كما لعلّها قالت عن مشرف على الموت. كانت أسئلة النساء تلحّ على «موريل»، ولكنّه لا تتوافر له القوّة على الإجابة وهو لا حراك به. حتّى معجزة كلمة واحدة مهموسة لم تحدث. ولم يتردد السيد «دو شارلوس» سوى لحظة وأدرك الحقيقة وأنّهم، إمّا لقلّة براعة لدى «جوبيان» حينما مضى للاتفاق معهم، وإمّا لقوة الانتشار في ما يُستودع من أسرار والتي تفضي إلى أن لا تُحفظ في يوم، وإمّا لطبع في تلك النساء غير حافظ للسر، وإمّا للخوف من الشرطة، كانوا قد أخطروا «موريل» أن رجلين دفعا ثمناً كبيراً لرؤيته وأخرجوا الأمير «دو غيرمانت» بعدما انقلب ثلاث نساء ووضعوا «موريل المسكين» مرتجفاً تشلّه الدهشة بحيث إنّه، إن كان السيد «دو شارلوس» لا يراه بوضوح، فقد كان هو، وقد أخذ منه الهلع وانعقد لسانه وهو لا يجرؤ على الإمساك بكأسه مخافة أن يُسقطه أرضاً، يبصر البارون كليّاً.

ولم تكن الحكاية على كلّ حال أفضل خاتمة بالنسبة إلى الأمير «دو غيرمانت». فحينما أخرجوه كي لا يشاهده السيد «دو شارلوس» تملّكه الحنق لخيبة أمله دون أن يشتبه بمن كان صانعها فتوسّل إلى «موريل»، وهو على الدوام عازم أن لا يعرّفه من تراه كان، أن يضرب له موعداً في الليلة التالية في الدارة الصغيرة جداً التي سبق أن استأجرها والتي بادر،

على الرغم من الوقت اليسير الذي سيمضيه فيها وطبقاً للعادة المجنونة التي لاحظناها فيما مضى لدى السيدة «دو فيلباريسيس»، إلى تزيينها بطائفة من التذكارات الأسريّة كي يشعر شعوراً إضافياً بأنّه في بيته. وفي الغد إذن انتهى الأمر بـ«موريل»، وهو يدير الرأس في كلّ دقيقة ويرتجف أن يكون لحقه وترصّده السيد «دو شارلوس»، وإذ لم يلحظ أحداً من المارة يشتبه به، بالدخول إلى الدارة. وأدخله خادم إلى الصالة وهو يقول له إنّه سيبادر إلى إخطار السيد (فقد كان أوصاه مولاه أن لا يتلفّظ بلفظة أمير مخافة إثارة الشكوك). ولكن حينما بقي «موريل» بمفرده، وشاء أن يرى في المرآة أن كانت خصلة شعره لم تفقد ترتيبها، أصيب بما يشبه الهلوسة. فقد جمّدته بادئ الأمر هلعاً الصور الشمسيّة الكائنة فوق الموقد، وهي سهلة التعرّف لدى عازف الكمان إذ سبق أن رآها في منزل السيد «دو شارلوس» والعائدة إلى الأميرة «دو غيرمانت» والدوقة «دو لوكسمبور» والسيدة «دو فيلباريسيس». ولمح في الآن نفسه صورة السيد «دو شارلوس» التي كانت إلى الخلف قليلاً. وبدا البارون كأنّه يسمّر على «موريل» نظرة غريبة. فجنّ «موريل» من الرعب، وإذ أفاق من ذهوله الأول ولم يشكّ أن ذلك فخّ أوقعه فيه السيد «دو شارلوس» ليمتحنه في إخلاصه له كرّ بضع درجات الدارة أربعاً أربعاً وطفق يعدو وقد أطلق ساقيه للريح فوق الطريق، وحينما دخل الأمير «دو غيرمانت» إلى صالته (بعدما ظنّ أنّه أخضع أحد معارفه من عابري السبيل للتدريب المطلوب، ولم يفعل دون أن يكون تساءل إن كان ذلك من حسن التبصّر وإن لم يكن الشخص خطيراً) لم يلقَ فيها أحداً. وعبثاً استكشف وخادمه، وهو شاهر مسدّسه مخافة عملية سطو، كامل المنزل، ولم يكن كبيراً وخبايا الزوايا في الحديقة الصغيرة والقبو فقد اختفى الرفيق الذي ظنّ حضوره مؤكداً. وقد صادفه عدّة مرّات في بحر الأسبوع التالي، وفي كلّ مرّة كان «موريل» ذاك الشخص الخطير، هو الذي ينجو بنفسه وكأنما كان الأمير أشدّ خطراً منه. ولبث «موريل» متشبثاً بشكوكه فلم يبدّدها البتّة وكانت رؤية الأمير «دو

غيرمانت» حتّى في باريس كافية لحمله على الفرار، وذلك ما حمى السيد «دو شارلوس» من خيانة كانت تبعث اليأس في نفسه وثأر له دون أن يتخيّل ذاك في يوم ودون أن يتصوّر على وجه الخصوص كيفيّة ذلك.

ولكنما حلّ من ذاك محلّ الذكريات التي رُويت لي حول هذا الموضوع أخرى غيرها لأنّ «قطار جنوب النورماندي»، وقد عاود مسيرته المخلّعة، لا يزال يجلب أو يأخذ المسافرين إلى المحطّات التالية.

فقد كان السيد «بيير دو فيرجوس»، وهو الكونت «دو كريسي»، يستقلّه أحياناً في «غراتفاست» حيث تسكن شقيقته التي جاء يقضي العصر معها (وكانوا يدعونه الكونت «دو كريسي» فحسب)، وهو نبيل فقير ولكنّه ذو أناقة فائقة، وكنت عرفته عن طريق آل «كامبرمير»، ولم يكن على أي حال وثيق الصلة بهم. وإذ أوصلته الأيّام إلى حال من ضنك العيش، بل ما يقارب البؤس، فقد كنت أحسّ أن سيجاراً وأنّ «مشروباً» هما من الأشياء التي تبهجه كثيراً إلى حدّ أنّي تعوّدت دعوته إلى «بالبيك» في الأيّام التي لا يتسنّى لي فيها لقاء «ألبيرتين». كان مرهفاً جدّاً، طليق العبارة إلى أبعد حدّ، كلّه بياض إلى عينين زرقاوين ساحرتين وكان يتحدّث على وجه الخصوص، من أطراف شفتيه وبنعومة فائقة، عن صنوف رفاه حياة الأسياد التي سبق أن عرفها بالتأكيد وكذلك عن الأنساب. وإذ سألته عمّا كان منقوشاً على خاتمه قال لي بابتسامة متواضعة: «إنّه غصن لحصرمة الكرمة». وأضاف يقول بمتعة الذوّاقة: «شعارنا غصن لحصرمة الكرمة - شيء رمزي بما أنّني أدعى «فيرجوس»[1] - بسويقات وأوراق خضر». ولكنّي أظنّ أنّه كان خاب أمله خيبة شديدة لو لم أقدّم له في «بالبيك» سوى عصير الحصرم شراباً فقد كان يحبّ أكثر الخمور ثمناً من جرّاء الحرمان دونما شك، وعن معرفة عميقة لما كان محروماً منه، وعن ذوق، وربّما كذلك عن ميل مفرط. وكان لذلك، حينما أدعوه إلى الطعام

(١) فيرجوس تعني الحُصرم.

ويشرب على وجه الخصوص، إذ يأمر بتدفئة الخمور التي تتطلّب ذلك وتبريد تلك التي تقتضي أن تكون في الثلج. كما كان قبل العشاء وبعده يحدّد التاريخ أو الرقم الذي يريد بالنسبة إلى مشروب «البورتو» أو ماء الحياة الفاخر كما لعلّه كان فعل في ما يخصّ تشييد مقرّ إحدى المركيزيّات، وهو مجهول بعامّة ولكنّه كان يعرفه كذلك تمام المعرفة.

ولمّا كنت في نظر «إيميه» زبوناً مفضّلاً فقد كان يغبطه أن أقيم مثل هذه المآدب ويصيح بالنُّدُل: «بسرعة جهّزوا الطاولة ٢٥»؛ ولم يكن يقول «جهّزوا» بل «جهّزوا لي» كما لو كان ذلك من أجله. وإذ ليست لغة رؤساء الندل بالتمام لغة رؤساء الفئات ونوابهم والمستخدمين، إلخ.، فقد كان يقول حينما كنت أطلب الحساب، يقول للنادل الذي قام على خدمتنا بحركة مكرورة مُطَمْئنَة من قفا يده كما لو يودّ تهدئة حصان على وشك أن يجمح: «لا تبالغ (في المجموع)، على رسلك، وخفّف ما وسعك التخفيف». وإذ كان النادل يمضي وقد تزوّد بتلك المذكّرة وخشي «إيميه» أن لا تُتّبع تعليماته بالتمام فقد كان يستدعيه ثانية: «انتظر، سأقيّد بنفسي». ولمّا كنت أقول له أنْ ليس يهمّ ذلك: «إنّما المبدأ عندي، كما تقول العامّة، أن لا نضحك على ذقن الزبون». أمّا المدير فقد كان يكتفي، إذ يرى الأثواب البسيطة، وهي واحدة لا تتغيّر، الأثواب الرثّة إلى حدّ ما التي يرتديها مدعوّي (ولعلّه ما كان أحد أجاد مثله ممارسة فنّ اللباس على نحو باذخ، وكمثل متأنّق لدى «بلزاك»، لو توافرت له الوسائل)، كان يكتفى من أجلي أنا أن يتحرّى عن بعد إن كان كلّ شيء على ما يرام وله نظرة من يأمر بوضع دعمة تحت قائمة طاولة غير متوازنة. وليس يعني ذلك أنّه ما كان ليعلم كيف يباشر أموره بنفسه كغيره، على الرغم من إخفائه بداياته غطّاساً. كان لا بدّ مع ذلك من مناسبة استثنائية كي يقطّع ذات يوم بيده الأدياك الروميّة. وكنت قد خرجت ولكنّي علمت أنّه فعل ذلك بجلال كهنوتي يحيط به، على مسافة من خزانة المائدة يفرضها الاحترام، طوق من الندل يحاولون بذلك إبراز أنفسهم أكثر منهم أن يتعلموا ويظهرون

بمظهر المُعجب الراضي. أمّا أن يكون رآهم المدير (وهو يغوص بحركة بطيئة في أحشاء الضحايا ولا يحوّل عنها عينيه المتشبّعتين بوظيفته السامية أكثر ممّا لو انبغى له أن يقرأ فيها نبوّة ما) فلم يكن شيء من ذلك البتّة. ولم ينتبه مقدّم الذبائح حتّى لغيابي، وحين علم به اغتمّ لذلك. «عجباً، ألم ترني أقطّع بنفسي الفراخ الروميّة؟ فأجبته أنّي، إذ لم يتيسّر لي حتّى الآن زيارة «روما» والبندقيّة «وسيينّا» و«البرادو» ومتحف «دريسدن» وبلاد الهند و«ساره» في مسرحية «فيدر»، كنت على إلمام بالتسليم بالأمور وأني سأضيف إلى لائحتي تقطيعَه للأدياك الروميّة. وكانت المقارنة بالفنّ المسرحي («ساره» في مسرحية «فيدر») الأمر الوحيد الذي بدا أنّه يفهمه لأنه كان يعلم نقلاً عنّي أن «كوكلان» الابن الأكبر سبق أن قبل في أيّام العروض الكبرى أدوار مبتدئين، وحتّى دور شخصيته لا تنطق بغير كلمة واحدة بل لا تقول شيئاً. «سيّان عندي، وإني أشعر بالأسى في ما يخصّك. متى أقوم بعملية تقطيع جديدة؟ لا بدّ من حدث تاريخي، لا بدّ من حرب». (وانبغى لذلك بالفعل هدنة). ومنذ ذلك اليوم تغيّر التقويم وأخذوا يحسبون هكذا: «كان ذلك في غد اليوم الذي قطّعت فيه بنفسي الأدياك الروميّة». كان ذلك بالضبط بعد ثمانية أيّام أعقبت تقطيع المدير بنفسه للأدياك الروميّة». وهكذا كانت عملية التقطيع تلك، مثلها مثل مولد المسيح والهجرة، نقطة انطلاق لتقويم مختلف عن سواه ولكنّما لم يبلغ ما بلغا من اتّساع ولا ساواهما مدّة.

كان مردّ الكآبة التي تغمر حياة السيد «دو كريسي» أنْ لم يبقَ لديه جياد ومائدة شهيّة وأن لا يجاور في الآن نفسه سوى قوم يمكن أن يعتقدوا أن «كامبرمير» و«غيرمانت» إنّما هم شيء واحد. وحينما تبيّن له أني أعلم أن «لوغراندان» الذي كان يسمّي نفسه الآن «لوغران دو ميزيغليز» لم يكن له أيّ حق في ذلك أحسّ، وقد اهتاج من جانب آخر من الخمرة التي كان يشربها، بنوع من فورة الفرح. وكانت شقيقته تقول لي بهيئة المتخابث: «لا يَسعد شقيقي إلى هذا الحدّ في يوم إلا حينما يستطيع التحدّث إليك». فقد

أخذ يحسّ بالفعل أنّه موجود منذ اكتشف واحداً يعرف ضحالة آل «كامبرمير» وعظمة آل «غيرمانت»، واحداً يرى أنّ العالم الاجتماعي موجود. مثله مثل عالم في اللاتينيّة عجوز يعود، بعد حريق مكتبات الكرة الأرضيّة قاطبة وصعود عرق بشريّ جهله مطبق، فيضع قدماً في الحياة يقرنها بالثقة يوم يسمع من يستشهد أمامه ببيت من شعر «هوراسيوس». ولئن لم يكن يغادر العربة البتّة دون أن يقول لي: «إلى متى اجتماعنا المحبّب؟» فَلِنَهَم المتبحّر في العلم بقدر ما لجشع الطفيلي ولأنه كان يعدّ مآدب «بالبيك» فرصة للتحدّث في الوقت ذاته عن الموضوعات العزيزة على قلبه والتي لا يستطيع التكلّم فيها مع أحد، وهي تشبه في ذلك حفلات العشاء التي تجتمع فيها في أوقات محدّدة، إلى مائدة نادي الاتحاد الشهيّة، جمعيّة «هواة الكتب». ولمّا كان فائق التواضع في ما يتعلّق بأسرته ذاتها فإنّي لم أعلم من جانب السيد «دو كريسي» أنّها كانت كبيرة جداً وفرعاً حقيقياً بقي في فرنسا من أسرة إنكليزية تحمل لقب «دو كريسي». وحين علمت أنه «كريسي» أصيل رويت له أن ابنة أحد أشقّاء السيدة «دو غيرمانت» كانت تزوّجت أميركياً باسم «شارل كريسي»، وقلت له إني أظنّ أن لا صلة له البتّة به. فقال: «لا صلة البتّة، كما أنّه لا صلة لكثير من الأميركيين الذين يدعون «مونتغمري» أو «بيري» أو «شاندوس» أو «كابيل» بأُسر «بامبروك» أو «بكنغهام» أو «إيكس» أو بالدوق «دو بيرّي». وخطر لي عدّة مرّات أن أقول له على سبيل التسلية إنني كنت أعرف السيدة «سوان» التي كانت تُعرف كغانية فيما مضى باسم «أوديت دو كريسي». ولكنّما لم يخالجني شعور، مع أن دوق «دالنسون» ما كان ليتكدّر ممّن يحدّثه عن «اميليين دالنسون»[1]، بأني ارتبط بصداقة كافية بالسيد «دو كريسي» كي أبلغ بممازحته ذلك الحدّ. وقال لي السيد «دو مونسورفان» ذات يوم: «إنّه من أسرة كبيرة جداً، واسم عائلته «سيلور». وأضاف أن شعار الأسرة

(١) من غانيات باريس الشهيرات في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين.

القديم لا يزال ظاهراً للعيان على قصره القديم الكائن فوق «أنكرفيل» وقد أضحى على أيّ حال غير قابل للسكنى تقريباً وإنّ صاحبه، على الرغم من مولده الفائق الثراء، أكثر فقراً اليوم من أن يرمّمه. وألفيت الشعار جميلاً جداً سواء طبّقته على غليان جنس من الجوارح عشّش في ذاك الوكر الذي كان يقلع منه بالأمس، أو اليوم على تأمّل غروب الحياة وانتظار الموت القريب في هذه الخلوة المشرقة الموحشة. فبازدواجيّة المعنى هذه كان يتلاعب باسم «سيلور» ذاك الشعار القائل: «Ne scais l'heure»[1] (لا أعرف الساعة).

كان يستقلّ القطار في «هيرمونفيل» أحياناً السيد «دو شيفرنيي» الذي يعني اسمه كاسم السيد «دو كابريير»، يقول «بريشو»، «المكان الذي تجتمع فيه الماعز». وكان قريباً لآل «كامبرمير»، فكانوا لذاك السبب وبتقدير خاطئ للأناقة يدعونه في الغالب إلى «فيتيرن» ولكن حين لا يتيسّر لهم مدعوّون يبغون إبهارهم فحسب. ولمّا كان السيد «دو شيفرنيي» يمضي السنة بطولها في «بوسولوي» فقد ظلّ يطبعه الطابع الريفي أكثر منهم. ولم يكن لذلك، حين كان يمضي لقضاء بضعة أسابيع في باريس، يوم واحد ضائع بالنسبة إلى كلّ ما كان «ينبغي أن يراه»، إلى حدّ أنّه كان يتّفق له أحياناً، حينما يسألونه إن كان شاهد إحدى المسرحيات، أن لا يكون متأكداً تماماً وقد دوّخه قليلاً عدد العروض التي ازدردها بسرعة مفرطة. ولكنّ ذاك الغموض كان نادراً، فقد كان يعرف أشياء باريس بذلك التفصيل الذي يميّز الناس الذين قليلاً ما يأتون إليها. وكان ينصحني «بالجديد» الذي لا بدّ من مشاهدته («ذلك جدير بالمشاهدة»)، ولا ينظر إليه على أيّة حال إلّا من وجهة نظر الأمسية الطيبة التي يسمح بقضائها، وهو يجهل وجهة النظر الجماليّة حتّى لا يشكّ بأنّه يمكن أن يشكّل أحياناً

(١) يذكّر الشعار بمن يسهرون الليل والنهار لصون الديار، وبما جاء في الكتب المقدّسة حول الموت الذي لا يعرف أحد يومه ولا ساعته.

«جديداً» في تاريخ الفن. من ذلك أنّه كان يتحدّث عن كل شيء على المستوى نفسه فيقول لنا: «ذهبنا مرّة إلى «الأوبرا الهازلة» ولكنّ العرض ليس عظيماً. إنّه يدعى «**بيلياس وميليزاند**» وهو غير ذي بال. إن «بيرييه» يجيد دوماً في تمثيله ولكنّما الأفضل أن تشاهده في عرض آخر. وفي المقابل يجري في صالة الجمباز عرض «**صاحبة القصر**». لقد عدنا مرّتين لمشاهدته؛ لا يفوتنّك الذهاب إلى هناك فهو جدير بالمشاهدة، ثم إنّه مُثّل أروع تمثيل، فلديك «فريفال» و«ماري مانييه» و«بارون» الابن»؛ وكان حتّى يذكر لي أسماء ممثلين لم أسمع قطّ من ينطق اسمهم ودون أن يقرنهم بلقب سيد أو سيدة أو آنسة كما كان يفعل الدوق «دو غيرمانت»، وكان يتحدّث بذات اللهجة المتكلّفة التي يلوّنها الازدراء عن «أغنيات الآنسة «ايفيت غيلبير» و«تجارب السيد «شاركو». وما إن يسلك السيد «دو شيفرنيي» السلوك نفسه، فكان يقول «كورناليا» و«دوهيلّي» كما لعلّه قال «فولتير» و«مونتسكيو» ذلك لأن الرغبة لديه، إزاء الممثلين وكلّ ما كان باريسيّاً على حدّ سواء، في الظهور مظهر المزدري الذي يلازم الأرستقراطيّ، إنّما هزمتها الرغبة في الظهور مظهر الألوف الذي يلازم الريفي.

عقب العشاء الأول مباشرة والذي تناولته في «لا راسبليير» برفقة من كانا بعد يدعيان في «فيتيرن» بـ«الزوجين الشابين»، مع أن السيد والسيدة «كامبرمير» ليسا من بعد في أوّل الشباب، وما أبعد أن يكونا، سطّرت لي المركيزة العجوز واحدة من تلك الرسائل التي لعلّك كنت تعرّفت كتابتها بين ألف من أمثالها. قالت لي: «إئت بابنة عمّك الرائعة - الفاتنة - الممتعة، وسوف يكون ذلك فتنة ومتعة»، مفوّتة على الدوام على نحو لا يخيب بتاتاً التدرّج المنتظر من جانب ذاك الذي كان يتسلّم رسالتها إلى حدّ أنّي غيّرت في نهاية المطاف رأيي حول طبيعة تلك «المتناقصات» واعتقدتها مقصودة ووجدت فيها انحلال الذوق نفسه - منقولاً إلى المقام الدنيوي - الذي كان يدفع «سانت بوف» إلى تحطيم التآلفات الكلامية كافة

وتبديل أية عبارة مألوفة إلى حدّ. كان ثمّة طريقتان جاءتا دونما شك على يد أساتذة مختلفين تتناقضان في أسلوب الرسائل هذا، إذ تغتفر الثانية للسيدة «دو كامبرمير» تفاهة الصفات المتعدّدة في استخدامها في سلّم متنازل وفي تجنّب الوصول إلى التساوق التام. وكنت أميل في المقابل إلى أن أبصر في هذه التدرّجات المعكوسة لا الرفاهة، كما هو أمرها حين تؤلّفها المركيزة الوريثة، بل انعدام المهارة حين يستخدمها المركيز ابنها أو بنات عمّها. ذلك لأنّ قاعدة الصفات الثلاث في الأسرة قاطبة وحتّى درجة بعيدة بعض الشيء، كانت، جرّاء محاكاة قائمة على الإعجاب بالعمّة «زيليا»، كانت توضع في المقام الأول إلى جانب طريقة معيّنة حماسيّة في استعادة أنفاسه أثناء الحديث. والمحاكاة أصبحت في دمهم على أيّة حال. وحينما كانت بُنَيَّة منذ الطفولة تتوقّف في حديثها لتبلع ريقها كانوا يقولون: «إنّها تشبه العمّة «زيليا»، ويحسّون أن شفتيها سرعان ما ستتجهان إلى الاكتساء بشارب خفيف، ويعقدون النيّة على تنمية ما سيتوافر لها من استعدادات للموسيقى. وما لبثت علاقات عائلة «كامبرمير» أن أضحت أقلّ جودة مع السيدة «فيردوران» منها معي لأسباب مختلفة. فقد كانا يبغيان دعوتها، وتقول لي المركيزة «الشابّة» بلهجة مستكبرة: «لست أرى لماذا لا ندعوها، تلك المرأة، فإننا في الريف نلتقي أيّاً كان، ولا يفضي ذلك إلى نتيجة». ولكنّهما كانا لا يكفّان، وهما على شيء من الانفعال في الأساس، عن استشارتي حول الطريقة التي ينبغي بها تحقيق رغبتهما في لفتة المجاملة تلك. ولمّا كانا دعيانا إلى العشاء أنا و«ألبيرتين» برفقة أصدقاء لـ«سان لو»، وهم قوم أنيقون يملكون قصر «غورفيل» ويمثّلون أكثر قليلاً من الزبدة النورمانديّة، التي كانت السيدة «فيردوران» شغوفة بها دون أن تُبدي أنّها تمدّ إليها يداً، فقد أشرت على عائلة «كامبرمير» بدعوة «المعلّمة» إلى جانبهم. ولكن صاحبي قصر «فيتيرن» خوفاً منهما (لشدّة خجلهما) أن يُغضبا أصدقاءهما النبلاء، أو (لشدّة سذاجتهما) أن يتضجّر السيد والسيدة «فيردوران» بصحبة أناس لم يكونوا

مثقّفين، أو كذلك (بما أنّهما كانا تشرّبا روح الروتين الذي لم تخصبه التجربة) أن يخلطا بين الأنواع ويرتكبا خطأً فاحشاً، صرّحا أن لن يكون توافق بينهم ولن «تمشي» الأمور وأنّه يفضّل الاحتفاظ بالسيدة «فيردوران» (التي سيدعوانها وكامل مجموعتها الصغيرة) لعشاء آخر. أمّا بالنسبة إلى القادم - الأنيق، ويضمّ أصدقاء «سان لو» - فلم يدعُ إليه من النواة الصغيرة سوى «موريل» كي يطّلع السيد «دو شارلوس» على نحو غير مباشر بالناس المرموقين الذين يستقبلانهم، وكيما يكون الموسيقيّ إلى ذلك عنصر تسلية للمدعوّين إذ سوف يسألونه المجيء بكمانه. وضمّوا إليه «كوتار»، إذ صرّح السيد «دو كامبرمير» أنّه يمتاز بالحيويّة و«يَحْسُنُ» في حفل عشاء. ثمّ إنّه من المناسب أن تكون على علاقة طيّبة بطبيب إن اتّفق أن يكون أحدهم مريضاً. ولكنّه دُعي بمفرده «كي لا يباشروا شيئاً مع المرأة». وحنقت السيدة «فيردوران» أشدّ الحنق حينما علمت أن عضوين من المجموعة الصغيرة دُعيا من دونها إلى العشاء في «فيتيرن» «ضمن لجنة صغيرة». وأمْلتْ على الدكتور الذي جاءت حركته الأولى تحمل القبول جواباً ينضح اعتزازاً ويقول فيه: «إنّنا نتناول عشاءنا هذا المساء في منزل السيدة «فيردوران»»، وصيغة الجمع ينبغي أن تكون درساً لأسرة «كامبرمير» وتبرهن لهم أنه لا يمكن فصله عن السيدة «كوتار». أمّا بشأن «موريل»، فلم تكن السيدة «فيردوران» بحاجة لأن ترسم له سلوكاً غير مهذّب التزم به تلقائياً، وإليك السبب. فلئن كان يبدي إزاء السيد «دو شارلوس» وفي ما يخصّ متعه الخاصّة استقلاليّة تغمّ البارون، فقد رأينا أن تأثير هذا الأخير كان أكثر بروزاً في حقول أخرى وأنّه وسّع على سبيل المثال معلوماته الموسيقية وجعل أسلوب الموسيقار أكثر تألّقاً. ولكنّه لم يكن بعد، في هذه الفترة من قصّتنا على الأقل، سوى تأثير. وفي المقابل كان ثمّة حقل يصدّق وينفّذ «موريل» دونما تبصّرٍ لكلّ ما كان يقوله السيد «دو شارلوس» حوله وبجنون. ذلك لأنّ تعاليم السيد «دو شارلوس» لم تكن مغلوطة فحسب، بل هي تضحي، وإن كانت مقبولة بالنسبة إلى سيد كبير، مضحكة

إنْ طبّقتْ حرفياً من جانب «موريل». أمّا الحقل الذي كان «موريل» يضحي فيه ساذجاً ومطيعاً إلى هذا الحدّ لسيده فحقل المجتمع الراقي. كان عازف الكمان، الذي ما كان يملك قبل تعرّفه إلى السيد «دو شارلوس» أيّة فكرة عن دنيا المجتمع الراقي، قد أخذ حرفيّاً بالترسيمة المستكبرة المختصرة التي خطّها له البارون. كان السيد «دو شارلوس» قد قال له: «ثمّة عدد من الأسر المتقدّمة على سواها، وعلى رأسها آل «غيرمانت» الذين بلغوا أربع عشرة مصاهرة مع «بيت فرنسا»، والأمر موضع زهو لـ«بيت فرنسا» على وجه الخصوص لأن عرش فرنسا كان ينبغي أن يعود إلى «ألدونس دو غيرمانت» لا إلى «لويس السمين» شقيقه لأبيه ولكنّه الأصغر سنّاً. وفي عهد لويس الرابع عشر لبسنا السواد عند موت «السيّد»[1] بما أننا نملك ذات جدّة الملك. ويمكن أن نذكر، وإنّما على درجة أدنى كثيراً من آل «غيرمانت»، آل «لا تريمواي» المتحدّرين من ملوك نابولي وكونتات «بواتييه»، وآل «أوزيس» وهم قليلو العراقة على صعيد الأسرة ولكنهم أكثر أنداد فرنسا عراقة، وآل «لوين»، وهم حديثون جداً ولكنّما يزدهون بألق المصاهرات العظيمة، وآل «شوازول» وآل «هاركور» وآل «لاروشفوكو». أضف أيضاً آل «نواي» على الرغم من الكونت «دو تولوز»، وآل «مونتسكيو» وآل «كاستيلّان»، وهذا كلّ شيء إن لم يكن فاتني شيء. فأمّا سائر السادة الصغار الذين يدعون المركيز «دو كامبرمير» أو «دو فاتفيرفيش» فلا فارق البتّة بينهم وبين أصغر جنديّ في كتيبتك. وسيّان إن بادرت للتبوّل لدى الكونتيسة خ... أو التغوّط لدى البارونة ش... فسوف تكون لوّثت سمعتك واتخذت ممسحة تغوّط بمثابة ورق صحّي. وذلك شيء قذر». وقد تلقّى «موريل» درس التاريخ هذا، وربّما كان على شيء من الاقتضاب، بكل خشوع. وكان يحكم على الأشياء كما لو كان هو نفسه

(١) لقب لويس الرابع عشر المسنّ أعظم ملوك فرنسا في النصف الثاني من السابع عشر وبداية الثامن عشر.

واحداً من بني «غيرمانت»، ويتمنّى مناسبة يجتمع فيها بآل «لاتور دوفيرني» المزيّفين كي يُشعرهم بمصافحة ملؤها الازدراء أنّه لا يأخذهم على محمل الجدّ. أمّا بالنسبة إلى آل «كامبرمير»، فها إنّه يستطيع بالضبط أن يعرب لهم أنهم لا يساوون «أكثر من آخر جنديّ في كتيبته» فإنّه لم يستجب لدعوتهم واعتذر في مساء حفل العشاء ببرقيّة أرسلت في آخر ساعة، وهو جذلان كما لو تصرّف تصرّف أمير من الأسرة المالكة. وينبغي أن نضيف على أيّة حال أنّه لا يمكن أن نتصوّر كم كان السيد «دو شارلوس»، على الأعمّ، لا يُطاق، موسوساً بل غبيّاً، هو المرهف الحس إلى أبعد حدّ، في كلّ المناسبات التي تكون فيها عيوب طبعه طرفاً، إذ يمكن القول بالفعل إن هذه العيوب تشبه مرضاً متقطعاً ينتاب العقل. فمن ذا لم يلاحظ الأمر لدى نساء وحتى رجال أوتوا ذكاء لافتاً ولكنهم يعانون من حالة عصبيّة؟ فإنهم يوم يكونون سعداء هادئين راضين بمحيطهم يثيرون الإعجاب بمواهبهم الثمينة، وإنّما الحقيقة هي التي تنطق حرفيّاً بأفواههم. ويكفي صداع واستثارة يسيرة لكبريائهم لقلب كلّ شيء. فالعقل النيّر لا يعكس من بعد، وقد أضحى نزقاً متشنّجاً متضيّقاً، سوى أنا مُغضَبة متربّية مغناجة تفعل كلّ ما ينبغي فعله لتسوء في العين. وكان غضب آل «كامبرمير» عنيفاً. وجلبت حوادث أخرى في هذه الأثناء شيئاً من التوتّر في علاقاتهم بالعشيرة الصغيرة. وفيما كنّا نعود أنا وأسرة «كوتار» و«شارلوس»، و«بريشو» و«موريل» من عشاء في «لا راسبليير»، وكان الزوجان «كامبرمير» اللذان تناولا غداءهما لدى أصدقاء في «أرامبوفيل» قد قطعا في الذهاب قسماً من الطريق وإيّانا، قلت للسيد «دو شارلوس»: «أنت يا من يحب «بلزاك» أعظم الحب ويعلم كيف يتعرّفه في المجتمع المعاصر لا بدّ أن ترى أن عائلة «كامبرمير» هذه أفلتت من مجموعة «**مشاهد من حياة الريف**»[1]. لكنّ السيد «دو شارلوس» قاطعني فجأة تماماً كما لو كان صديقاً لها وكما

(١) مجموعة روائية لـ«بلزاك».

لو أغضبته ملاحظتي وقال لي بلهجة جافية: «تقول ذلك لأنّ المرأة تفوق زوجها». - «آه! ما كان بودّي أن أقول إنّها ربّة شعر المقاطعة[1] ولا سيدة «بارجتون»[2]، مع أنّ..» وقاطعني السيد «دو شارلوس» مرّة أخرى: «قل بالأحرى السيدة «دو مورسوف»[3]. وتوقّف القطار وغادره «بريشو». - «عبثاً كنّا نشير إليك بأيدينا، إنّك غريب». - «كيف ذلك؟» - «عجباً، أفلم تلاحظ أنّ «بريشو» عاشق حتّى الجنون للسيدة «دو كامبرمير»؟ وبدا لي من موقف الزوجين «كوتار» و«شارلي» أنْ لم يكن داخل النواة الصغيرة أيّ مجال للشكّ في الأمر، واعتقدت أن ثمّة سوء نيّة من جانبهم. وعاد السيد «دو شارلوس» يقول: «عجباً، أنت لم تلاحظ درجة اضطرابه حين تكلّمتَ عنها»، وكان يحلو له أن يبرز أنّه خبير بالنساء ويتحدث عن الشعور الذي يوحين به بصورة طبيعيّة وكما لو كان ذاك الشعور هو الذي يحسّه عادة. بيد أن بعضَ لهجة أبويّة مشبوهة مع الفتيان كافة - على الرغم من حبّه الحصريّ لـ«موريل» - كذّبت باللهجة آراء زير النساء التي كان يجهر بها، فقال بصوت حادّ متكلّف في لطفه موزون: «آه! هؤلاء الأطفال، لا بدّ أن تعلّمهم كلّ شيء، فإنّهم بريئون كالطفل الذي ولد توّاً ولا يستطيعون أن يعرفوا متى يكون الرجل عاشقاً لامرأة. لقد كنت في مثل سنّكم «مُنْفتحاً» أكثر مما تُبدون»، يضيف قوله لأنه كان يحبّ استخدام عبارات دنيا المتشرّدين، ربّما عن ميل، وربّما كي لا يبدو، وهو يتجنّبها، وكأنّه يقرّ بأنّه يخالط أولئك الذين تؤلّف لغتهم الدارجة. وقد اضطررت بعد بضعة أيام أن أقرّ بالواقع وأعترف أن «بريشو» كان مغرماً بالمركيزة. إلّا أنّه قبل لسوء الحظّ بعدّة حفلات غداء في منزلها. وحكمت السيدة «فيردوران» أن الوقت حان لوضع حدّ لذلك. فإنّها إلى جانب الفائدة التي نراها في التداخل لصالح سياسة النواة الصغيرة أخذت تصادف ميلاً متزايد الشدّة

---

(١) إشارة إلى رواية لـ«بلزاك» من مجموعة «**مشاهد من حياة الريف**» لـ«بلزاك».

(٢) واحدة من شخوص «**الأوهام الضائعة**» لـ«بلزاك».

(٣) بطلة رواية «**زنبقة الوادي**» من مجموعة «**مشاهد من حياة الريف**».

إلى هذا النوع من المشادّات والمآسي التي تنجم عنها، والميل تولّده البطالة في صفوف البورجوازيّة ودنيا الأرستقراطيين على حدّ سواء. وكان اليوم يوم اضطراب كبير في «لا راسبليير» حينما شاهدوا السيدة «فيردوران» تتوارى عن الأنظار على مدى ساعة مع «بريشو» الذي بلغهم أنّها قالت له إن السيدة «دو كامبرمير» كانت تسخر منه وأنّه أضحوكة منتداها وسوف يلطّخ شرف شيخوخته ويعرّض للخطر مكانته في التعليم. وبلغ بها أن تكلّمه بعبارات مؤثرة عن الغسّالة التي كان يعيش وإيّاها في باريس وعن ابنتهما الصغيرة. وكان أن فازت وكفّ «بريشو» عن الذهاب إلى «فيتيرن»، ولكنّ غمّه بلغ حدّاً ظنّوا معه على مدى يومين أنّه مقبل على ضياع بصره بالكامل، وقد قفز مرضه في جميع الأحوال قفزة إلى الأمام لبثت على حالها بيد أنّ آل «كامبرمير» الذين كان حنقهم على «موريل» عظيماً دعوا ذات مرّة عن قصد السيد «دو شارلوس»، ولكن بدونه. وإذ لم يصلهم جواب من البارون خافوا أن يكونوا ارتكبوا هفوة ورأوا أنّ الضغينة تسدي أسوأ النصح فقد كتبوا إلى «موريل» متأخرين قليلاً، وهي دناءة حملت الابتسامة إلى شفتي السيد «دو شارلوس» إذ كشفت له عن سلطانه. وقال البارون لـ«موريل»: «تجيب عن كلينا بأنّي قابل». وإذ حلّ يوم العشاء كانوا ينتظرون في صالة «فيتيرن» الكبيرة. كانت عائلة «دو كامبرمير» قد أقامت حفل العشاء في الواقع من أجل صفوة الأناقة التي يمثّلها السيد والسيدة «فيريه». لكنّهم كانوا يخشون من تكدير السيد «دو شارلوس» إلى حدّ أن السيدة «دو كامبرمير»، على الرغم من معرفتها عائلة «فيريه» عن طريق السيد «دو شيفرنيي»، أحسّت بالحمّى تغلي في عروقها حينما رأت هذا الأخير يوم العشاء يُقبل لزيارتهم في «فيتيرن». وابتُدعت كلّ الحجج لإعادته بأقصى سرعة إلى «بوسولوي»، والسرعة لم تكن مع ذلك كافية كي تحول دون التقائه عائلة «فيريه» في الباحة وقد صدمهما أن يبصراه مطروداً بقدر ما كان خجلاً بذلك. ولكن الزوجين «كامبرمير» كانا يريدان تجنيب السيد «دو شارلوس» رؤية السيد «دو شيفرنيي» أيّاً كان الثمن، إذ يريان

هذا الأخير ريفيّاً بسبب دقائق يهملها المرء داخل الأسرة ولكنّما لا تؤخذ في الحسبان إلّا تجاه الغرباء، وهم الوحيدون بالضبط الذين قد لا ينتبهون لها. ولكنّنا لا نحبّ أن نريهم الأقرباء الذين لبثوا ما سعينا نحن الى أن نكفّ عن كونه. أمّا بالنسبة إلى السيد والسيدة «فيريه» فقد كانا في أعلى مرتبة ممّن يدعونهم «أفضل الناس». وليس من شكّ أن آل «غيرمانت» وآل «روهان» وكثيرين غيرهم كانوا، في نظر من يصفونهم بذلك، من «أفضل الناس» ولكنّ اسمهم كان يُعفي عن قول ذلك. ولمّا لم يكن الكلّ يعلم كرم محتد والدة السيد «فيريه» ووالدة السيدة «فيريه» والمحيط المغلق إلى حدّ عجيب الذي كانا يرتادانه هي وزوجها فقد كانوا يضيفون على الدوام، بعدما يقدمون على ذكرهما، وذلك بقصد التوضيح، أنّهما «من أفضل الأفضلين». فهل كان يملي عليهما اسمهما المغمور نوعاً من التحفّظ المتعالي؟ ومهما يكن من أمر فإن آل «فيريه» ما كانوا يلتقون أناساً خالطهم آل «لاتريمواي». وكان لا بدّ من مركز ملكة شاطئ البحر الذي تحتلّه المركيزة العجوز «دو كامبرمير» في منطقة «المانش» كي يجيء آل «فيريه» إلى واحدة من عصريّاتهما في كلّ عام. وقد وُجهت إليهم الدعوة إلى حفل العشاء وكانوا يعتمدون كثيراً على الأثر الذي سيخلّفه السيد «دو شارلوس» في نفوسهم. وأعلن بصورة غير مفضوحة أنّه في عداد المدعوّين. وقد صادف أن السيدة «فيريه» ما كانت تعرفه. وأحسّت السيدة «دو كامبرمير» لذلك بسرور عظيم وهامت على وجهها ابتسامة الكيميائي الذي سيقيم الصلة للمرّة الأولى بين عنصرين لهما أهمية خاصّة. وانفتح الباب وأوشكت السيدة «دو كامبرمير» أن يغمى عليها وهي ترى «موريل» يدخل بمفرده. وكمثل كاتب الأوامر المكلّف بالاعتذار عن وزيره، وكزوجة في زواج غير متكافئ تعرب عن أسف الأمير لتوعّك صحّته (هكذا كانت تفعل السيدة «دو كلانشان» حيال الدوق «دومال»)، قال «موريل» باللهجة الأكثر خفّة وطيشاً: «لن يتمكن البارون من المجيء فهو منحرف الصحّة قليلاً، وهو اعتقادي على الأقل بأن ذاك هو السبب، فإني لم ألتق به هذا

الأسبوع» يضيف قوله وهو يخيّب حتّى بهذه الأقوال الأخيرة أمل السيدة «دو كامبرمير» التي سبق أن قالت للسيد والسيدة «فيريه» إن «موريل» يلتقي السيد «دو شارلوس» على مدى ساعات النهار. وتظاهر الزوجان «كامبرمير» بأن غياب البارون كان متعة تضاف إلى الاجتماع، وكانا يقولان لمدعوّيهما دون أن يدعا لـ«موريل» أن يسمعهما: «سوف نكون في غنى عنه، أليس كذلك؟ وسوف يزداد الأمر بالتأكيد متعة». ولكنّهما كانا ساخطين وشكّا بدسيسة حاكتها السيدة «فيردوران»، وحينما دعتهما هذه الأخيرة ثانية إلى «لا راسبلبير» لم يستطع السيد «دو كامبرمير»، فواحدة بواحدة، أن يقاوم متعة العودة لمشاهدة بيته والتقاء المجموعة الصغيرة مرّة أخرى، فجاء ولكن بمفرده قائلاً إن المركيزة مغتمّة لذلك غير ان طبيبها أمرها بملازمة غرفة نومها. وظنّ الزوجان «كامبرمير» أنّهما بنصف الحضور هذا إنّما يلقّنان السيد «دو شارلوس» درساً ويُظهران لآل «فيردوران» في الآن نفسه أنّهما ملتزمان تجاههما بمجاملة محدودة فحسب، كما كانت أميرات الأسرة المالكة يشيّعن الدوقات الزائرات فيما مضى ولكن حتّى منتصف الغرفة الثانية فحسب. وبعد بضعة أسابيع كانوا قد اختصموا تقريباً. وقد قدّم لي السيد «دو كامبرمير» هذه الإيضاحات بذلك الخصوص: «سأقول لك إن الأمر كان صعباً مع السيد «دو شارلوس». فإنّه من أشدّ أنصار «دريفوس»... - «لا، ويحك!» - «بلى...، وفي جميع الأحوال فإن ابن عمّه الأمير «دو غيرمانت» من هذا القبيل، وكثيراً ما يقرّعونهما على ذلك. إن لديّ أقرباء شديدي السهر على الأمر. لست أطيق مخالطة هؤلاء الناس فربّما اختلفتُ وأسرتي كلّها. وقالت السيدة «دو كامبرمير»: «بما أن الأمير «دو غيرمانت» من مناصري «دريفوس» فإن الأمر سيستقيم بمقدار ما يقال إن «سان لو» الذي سيتزوّج ابنة أخيه من المناصرين بدوره، بل ربّما كان ذلك سبب الزواج». فقال السيد «دو كامبرمير»: «هيا يا عزيزتي، لا تقولي إن «سان لو» الذي نحبّه كثيراً من أنصار «دريفوس». يجدر بنا أن لا ننشر هذه المزاعم بدون تروّ. فما أكثر ما ستَحْسن النظرة

إليه في الجيش». وقلت للسيد «دو كامبرمير»: «كان ذلك شأنه، ولكنّه لم يعد كذلك. أما بخصوص زواجه من الآنسة «دو غيرمانت» - براسّاك» فهل الأمر صحيح؟ - «لا يتحدّثون إلا عن ذلك، ولكنّك في موقع ممتاز لتكون على بيّنة منه». وقالت السيدة «دو كامبرمير»: «ولكني أكرّر أنه قال لي شخصياً إنّه من أنصار «دريفوس». وهو على أيّ حال معذور تماماً، فآل «غيرمانت» نصفهم من دم ألماني». وقال «كانكان»: بالنسبة إلى «غيرمانتيّي» شارع «فارين» بوسعك أن تقولي بالكامل. أمّا «سان لو» فأمر مختلف تماماً فعبثاً نرى له هذا الحجم الكبير من الأقرباء الألمان، لقد كان والده يطالب قبل أيّ شيء آخر بلقبه بوصفه من كبار الأسياد الفرنسيين، فقد عاد إلى الخدمة عام ١٨٧١ ولقي في أثناء الحرب أشرف ميتة. ومهما يكن التزامي المبادئ بهذا الشأن فينبغي أن لا نغلو في هذا الاتجاه أو ذاك. . In medio.... virtus..[١]. ليست تسعفني الذاكرة. ذلك شيء يقوله الدكتور «كوتار»، وهذا رجل حاضر الكلمة دوماً. يجدر بكم هنا اقتناء معجم «اللاروس الصغير». وارتدّت السيدة «دو كامبرمير»، بغية تجنّب البتّ بالقول اللاتيني وترك موضوع «سان لو» جانباً حيث بدا لزوجها أنّها تفتقر للباقة، ارتدّت إلى «المعلّمة» التي بدا أن اختصامها وإيّاهم أكثر حاجة بعد للتفسير. وقالت المركيزة: «لقد أجّرنا «لا راسبليير» بكامل الرضى للسيدة «فيردوران» ولكنما بدا أنّها تظنّ لها الحق، إلى جانب البيت وكلّ ما وجدت السبيل إلى ادّعائه لنفسها، كاستخدام المرج والسجف القديمة، وكلّها لا وجود لها في عقد الإيجار، في صداقتنا. وتلك أمور مختلفة تمام الاختلاف. ذنبنا أنّنا لم نُجرِ الأمور على يد مدير أو وكالة. لا أهميّة للأمر في «فيتيرن»، ولكنّي أرى من هنا استغراب عمّتي في «شنوفيل» لو رأت

(١) In medio stat virtus (الفضيلة في الوسط، أي بين الطرفين أو التطرّفين) وهو ما عبّر العرب عنه خير تعبير بقولهم: شرّ التناهي الشطط وخير الأمور الوسط. أمّا التذكير بمعجم «اللاروس» فلأن هذا المعجم دأب على تضمين صفحاته قسماً خاصاً بالأمثال والأقوال السائرة وكثير منها باللاتينية.

الخالة «فيردوران» تقبل في يوم استقبالي بشعرها المنفوش. أمّا في ما يخصّ السيد «دو شارلوس»، فهو يعرف بالطبع أناساً من أفضلهم، كما يعرف من «أسوأهم أيضاً». وسألت من يكون هؤلاء. وقالت السيدة «دو كامبرمير» في نهاية المطاف وقد ضيّقوا بالسؤال عليها: «يزعمون أنْ هو من كان يوفّر سبل العيش للسيد «مورو»، «موريي»، «موريه»، لم أعد أدري. ليس بالطبع من صلة البتّة بـ«موريل» عازف الكمان»، تضيف قولها وقد اكتسى وجهها حمرة. «وحينما أحسست أن السيدة «فيردوران» ستتخيّل من حقّها القيام بزيارتي في باريس لأنّها من مؤجّرينا في منطقة «المانش» أدركت أنّه لا بدّ من قطع دابر هذا الأمر».

لم يكن آل «كامبرمير» على الرغم من هذا الخلاف مع المعلّمة، على علاقة سيئة بالخُلّص وكان يسرّهم أن يصعدوا إلى عربتنا حينما يكونون على خطّ سيرنا. وكانت «ألبيرتين»، حين نوشك الوصول إلى «دوفيل»، تُخرج مرآتها للمرّة الأخيرة فترى من المفيد أحياناً أن تغيّر قفّازيها أو تنزع قبّعتها لحظة وبالمشط المصدّف الذي كنت أعطيتها إيّاه والذي تضعه في شعرها كانت تملّس دوائره وترفع المنفّخ منه وتعلّي عقصته إن اقتضى الأمر فوق التموّجات التي تهبط كالوديان المنتظمة حتّى قَذَالها. وما إن نجلس في العربات التي كانت بانتظارنا حتّى لا نعلم أين نحن من بعد، فالطرق لم تكن مضاءة؛ وكنّا نعرف من ضجيج العجلات المتعاظم أنّنا نجتاز إحدى القرى ونظنّ أننا وصلنا فنجد أنفسنا في قلب الحقول ونسمع أجراساً في البعيد وننسى أننا نرتدي «السموكن»، وكنّا أغفينا تقريباً حينما كانت الأضواء الساطعة، في آخر هذا الشريط الطويل من الظلمة التي بدا أنّها، من جرّاء المسافة المقطوعة والحوادث التي تتميّز بها أيّة رحلة في السكّة الحديديّة، حملتنا حتّى ساعة متقدّمة من الليل وإلى نصف الطريق تقريباً من رحلة العودة إلى باريس، كانت تلك الأضواء الساطعة، بعدما كشف لنا انزلاق العربة فوق رمال أكثر نعومة أنّنا دخلنا توّاً في الروضة، تتفجّر فجأة فتعيدنا إلى حياة المجتمعات، أضواء الصالة ثم قاعة الطعام

حيث كنّا نحسّ حركة تراجع قوية ونحن نسمع دقّات الثامنة التي كنّا نظنّها انقضت منذ زمن طويل فيما ستتوالى أطباق المآكل الكثيرة والخمور الفاخرة حول رجال باللباس الرسمي ونساء نصف كاشفات عن الصدور في عشاء يتلألأ ضياء مثل عشاء حقيقي في المدينة كان يحيط به فقط، فيبدّل بذلك طابعه، الوشاح المزدوج العاتم الفريد الذي نسجته الساعات الليليّة والريفيّة والبحريّة في الذهاب والإياب وقد حُوّلَت جرّاء هذا الاستعمال المجتمعيّ عن هيبتها الاحتفاليّة الأصليّة. والرجوع ذاك كان يضطرّنا فعلاً إلى هجر روعة الصالة المضيئة المشرقة، وسرعان ما تُنتسى، إلى العربات حيث كنت أتدبّر أمري لأكون برفقة «ألبيرتين» كي لا يمكن صديقتي أن تكون مع آخرين بدوني، وفي الغالب أيضاً لسبب آخر قوامه أننا كنا نستطيع كلانا أن نقوم بأشياء كثيرة في عربة مظلمة كانت رجّات الطريق النازلة تجد لنا العذر من جانب آخر، إمّا انسابت ومضة ضوء مفاجئة، لتشبّثنا الواحد بالآخر. وكان السيد «دو كامبرمير» يسألني حين لم يكن بعد على خلاف مع آل «فيردوران»: «ألا تظنّ أنك ستُصاب باختناقاتك مع هذا الضباب؟ لقد أصيبت شقيقتي باختناقات مروّعة هذا الصباح. آه! لقد أصبت ببعض منها بدورك، يقول بادي الرضى؛ سأنقل لها الأمر المساء. وأعلم أنّها سوف تستعلم لدى عودتها في الحال إن كان مضى زمن طويل لم تصب بها في أثنائه». وما كان على أيّ حال يحدّثني عن اختناقاتي إلّا ليصل إلى اختناقات شقيقته ولا يحملني على وصف خصائص الأولى إلّا ليشير بصورة أفضل إلى الفروق الكائنة بين الاثنين. ولكن على الرغم من هذه الفروق، ولمّا كان يبدو له أن اختناقات شقيقته لا بدّ أن تكون الحجّة، ما كان يستطيع الاعتقاد بأن ما «يصيب» في اختناقاتها ليس مناسباً في اختناقاتي وكان يغضبه أن لا أجرّبه، فإن ثمّة ما كان أصعب من التزام الحمية وهو ألا تفرضها على الآخرين. «وما عساي أقول على أيّ حال أنا الغريب عن الموضوع حينما أنت هنا أمام مجمع العلماء، أمام النبع. فماذا يرى الأستاذ «كوتار؟»

وعدت من ناحية أخرى فالتقيت زوجته مرّة ثانية لأنّها كانت قالت إن «لابنة عمّي» تصرّفاً غريباً وأردت أن أعلم ما الذي ترمي إليه من وراء ذلك. وأنكرت أن تكون قالت، ولكنّها أقرّت في النهاية أنّها تحدّثت عن امرأة اعتقدت أنّها التقتها مع ابنة عمّي. لم تكن تعرف اسمها وقالت في نهاية المطاف إنّها، إن لم تخطئ القول، زوجة رجل مصارف تدعى «لينا»، «لينيت»، «ليزيت»، ليا، أو ما كان من هذا القبيل. وفكّرت أن «زوجة رجل المصارف» لم تَرِد إلّا لتزيد من إبعاد الشبهة. وأردت سؤال «ألبيرتين» إن كان ذلك صحيحاً. ولكنّي كنت أفضّل الظهور بمظهر من يعلم أكثر منّي بمظهر من يسأل. ولكن «ألبيرتين» ما كانت في كلّ الأحوال أجابت بشيء، أو بـ«لا» تجيء «لامها» متردّدة و«ألفها» داوية. فما كانت «ألبيرتين» تروي في يوم عن أمور يمكن أن تسيء إليها، بل عن أخرى لا يمكن أن تُفَسَّر إلّا بالأولى، إذ الحقيقة بالأحرى تيّار ينطلق ممّا يُقال لنا ويُلْتَقَط مهما يكن خفيّاً، أكثر منه الشيء نفسه الذي قيل لنا، من ذلك أني حينما أكدت لها أن امرأة عَرَفْتَها في «فيشي» كانت ذات سلوك سيئ أقسمت لي أن تلك المرأة لم تكن مطلقاً ما كانت أظنّ ولم تحاول في يوم أن تسيء إليها. ولكن أضافت في يوم آخر كنت أتحدث فيه عن فضولي إزاء هذا النمط من النساء أن لسيّدة «فيشي» تلك صديقة من ذاك النوع ما كانت «ألبيرتين» تعرفها، ولكن السيدة «وعدتها أن تعرّفها بها». وكيما تكون وعدتها بذلك لا بدّ أن «ألبيرتين» كانت راغبة فيه أو أن السيدة عرفت، إذ وفّرت لها الأمر، أنّها تُدخل السرور إلى قلبها. لكنّي أوقفتها في الحال وما عرفت شيئاً من بعد وكففت عن بثّ الخوف من حولي. وكنّا على أيّة حال في «بالبيك» وسيّدة «فيشي» وصديقتها تقطنان «مانتون»، وسرعان ما قضى البعد واستحالة الخطر على شبهاتي.

حينما كان السيد «دو كامبرمير» ينادي عليّ من المحطة كثيراً ما كنت أوفدت توّاً و«ألبيرتين» من العتمة وبمشقّة تعاظمت بقدر ما تجلجلت هذه قليلاً في خوفها أن لا تكون كاملة الإظلام. «تعلم أنّي متيقّنة من أن

«كوتار» قد رآنا؛ وهو على أيّة حال سمع بالتأكيد صوتك المخنوق، حتى دون أن يبصر، وذلك بالضبط لحظة كنّا نتحدّث عن اختناقاتك التي هي من نوع آخر»، تقول «ألبيرتين» لدى وصولنا إلى محطّة «دوفيل» حيث كنّا نستقلّ ثانية القطار الصغير للعودة. ولئن كان ذلك الإياب، مثله مثل الذهاب يوقظ في صدري، إذ يوليني بعض إحساس بالشعر، الرغبة في القيام بأسفار وأن أعيش حياة جديدة، ويجعلني بذلك أتمنّى أن أدع جانباً أيّ مشروع زواج من «ألبيرتين»، بل أن أقطع علاقاتنا قطيعة نهائية، فقد كان كذلك، بسبب طبيعة تلك العلاقات المتناقضة، يجعل هذه القطيعة أكثر سهولة. ففي الإياب كما في الذهاب، كان يصعد في كلّ محطّة إلى جانبنا أو يسلّم علينا من الرصيف أناس من معارفنا. وعلى صفحة متع الخيال المختلسة كانت تطفو متع مستمرّة، متع حسن المخالطة وهي ما أكثر ما تهدّئ وتخدّر! فإن أسماء المحطّات (التي ما أكثر ما أيقظت في صدري من أحلام منذ اليوم الذي تردّدت في مسامعي في أول مساء سافرت فيه بصحبة جدّتي)، حتى قبل المحطّات نفسها، قد اتخذت سمة إنسانيّة وفقدت غرابتها منذ المساء الذي فسّر لنا «بريشو» فيه، نزولاً عند رغبة «ألبيرتين»، أصولها تفسيراً كاملاً وافياً. وكنت ألفيت سحراً في الزهرة (Fleur) التي تزيّن أواخر بعض الأسماء من مثل «فيكفلور» (Fiquefleur) و«هونفلور» و«فلير» و«بارفلور» و«هارفلور»، وفكاهة في الثور الذي يختم «بريكبوف» (Bricqueboeuf). ولكنّما اختفت الزهرة والثور اختفى حين أعلمنا «بريشو» (وكان قال لي ذلك أوّل يوم في القطار) أن «فلور» (fleur) إنما تعني «مرفأ» (كما هي «فيور» (Fiord) وأن ثور (Boeuf) وهي (budh) في النورمانديّة إنما تعني «كوخ». ولمّا كان يذكر عدّة أمثلة فإن ما سبق أن بدا لي خاصّاً أخذ يتّسم بالعموميّة: وراحت «بريكبوف» تنضمّ إلى «ايلبوف»، بل إنّي داخلني الأسى أن أعود فألقى في اسم هو لأوّل وهلة بمثل تفرّد المكان الذي يعنيه، كاسم «بيندوبي» (Pennedepie) حيث كانت تبدو لي أكثر الغرابات استحالة على الكشف

من جانب العقل وقد تجمّعت منذ زمن سحيق في لفظة قبيحة لذيذة تقسّت كبعض الجبن النورمانديّ، أن أعود فألقى لفظة «بين» (Pen) الغالية التي تعني «جبل» وهي حاضرة كذلك في «بينمارش» وجبال الـ«آبينّان» على حدّ سواء. وكنت أقول لـ«ألبيرتين» إذ أحسّ أن أيدي صديقة سوف يقع علينا أن نشدّ عليها في كلّ موقف، إن لم تكن زيارات تجيئنا فيه: «هيّا أسرعي في سؤال «بريشو» عن الأسماء التي تودّين معرفتها. فقد كلّمتني عن «ماركوفيل المستكبرة»». فقالت «ألبيرتين»: «أجل، أحبّ كثيراً هذا الاستكبار؛ إنّها قرية أبيّة». فردّ «بريشو» قائلاً: «ربّما وجدتها بعد أكثر إباءً لو أخذت، بديلاً لصيغتها الفرنسيّة أو حتى اللاتينيّة المتأخرة على نحو ما نجدها في سجلّ مطران «بايّو» الكنسيّ «ماركوفيلا سوبيربا» (Marcovilla superba)، الصيغة الأقدم والأقرب إلى النورمانديّة: «ماركولفي فيلا سوبيربا» - (Marculphivilla superba) أي قرية وأملاك ماركولف. يمكنك أن تبصر في كلّ هذه الأسماء تقريباً المنتهية بلفظة «فيل» طيف الغزاة النورمانديّين الأشدّاء منتصباً بعد على هذا الشاطئ. في «هيرمونفيل» لم يتّفق لكم سوى دكتورنا العظيم يقف على باب عربة القطار وليس فيه بالطبع ما يذكّر بقائد نروجي. ولكنّكم تستطيعون إما أغمضتم عيونكم أن تبصروا «هيريموند» الشهير (Herimundivilla) ومع أنّ الناس يمضون، ولا أدري لماذا، على هذه الطرقات الواقعة بين «لوانيي» و«بالبيك الشاطئ» أكثر منهم على تلك الرائعة التي تقودك من «لوانيي» إلى «بالبيك» القديمة، فإن السيدة «فيردوران» ربما ذهبت بكم في عربتها من هذا الجانب. وقد شاهدتم إذاً «أنكرفيل» أو قرية «ويسكار» هذه قبل أن تصلوا إلى منزل السيدة «فيردوران»، هي قرية «تورولد». ومن جانب آخر لم يكن ثمّة نورمانديّون فحسب، ويبدو أنّ الألمان وصلوا إلى هنا («أومنانكور» أي «Alemanicurtis»)؛ ولا نبوحنّ بذلك لهذا الضابط الشاب الذي ألمحه فقد لا يروقه الذهاب من بعد لدى أبناء عمومته. كان ثمّة ساكسونيّون أيضاً كما يدلّ على ذلك نبع «سيسّون» (وهو أحد أهداف

النزهة المفضّلة لدى السيدة «فيردوران» وبحقّ كان)، كما هو في إنكلترا أمر «ميدلسيكس» و«ويسّيكس». ويبدو، والأمر لا تفسير له، أن قوطيّين، أن متشرّدين كما كان يقال[١] جاؤوا حتى هنا، وحتّى المغاربة لأن «مورتانيي» مشتقّة من موريتانيا. وقد بقي أثر لهم في «غورفيل» (Gothorumvilla = أي قرية القوط). ولا يزال ثمّة أثر للاتينيّين أيضاً في «لاتيي» (Latiniacum = اللاتينيّة).» وقال السيد «دو شارلوس»: «إني أطلب أنا شرحاً لـ«توربيهوم»[٢]. إني أفهم «أوم»، يضيف قوله بينما يتبادل النحّات و«كوتار» نظرة تواطؤ؛ «أمّا «تورب»؟ وأجاب «بريشو» وهو ينظر نظرة ماكرة إلى «كوتار» والنحّات: كلمة «أوم (رجل) لا تعني مطلقاً ما تميل ميلاً طبيعياً إلى اعتقاده أيّها البارون. فـ«أوم» لا علاقة لها هنا بالجنس الذي لا أدين له بأمّي. «أوم» هي «هولم» (holm) وتعني جزيرة صغيرة، إلخ. أمّا «تورب» (Thorp) «أو قرية» فإننا نلقاها في مئة من الكلمات التي بعثتُ بها الملل في صدر صديقي الشاب. وهكذا ليس في «تورب أوم» اسم لقائد نورماندي بل كلمات من اللغة النورمانديّة. ترون إلى أيّ حدّ أضفي الطابع الألماني على هذه المنطقة». وقال السيد «دو شارلوس»: «في اعتقادي أنّه يبالغ. فقد ذهبت البارحة إلى «أورجفيل». - «هذه المرّة أردّ لك الرجل الذي سبق أن نزعته منك في «تورب أوم» أيّها البارون، إن أحد صكوك «روبير» الأول، وأقولها دون حذلقة، يعطينا في مقابل «أورجفيل» «أو تجيريفيلا» (Otgerivilla)، أي أملاك «أوتجير». إن هذه الأسماء جميعها لأسياد قدامى. فإن «أوكتفيل لافنيل» هي لـ«آفنيل». وآل «آفنيل» كانوا أسرة مشهورة في العصر الوسيط. و«بورغينول» التي أخذتنا السيدة «فيردوران» إليها في ذاك اليوم كانوا يكتبونها «بورغ دو مول» لأن هذه القرية كانت في القرن الحادي عشر ملكاً لـ«بودوان دو مول»،

(١) لأن لفظة قوطيّ (goth) قريبة من لفظة (gueux) التي تعني المتشرّد المتسوّل.

(٢) Thorpehomme

وكذلك «لاشيز بودوان». ولكن ها قد وصلنا إلى «دونسيير»، وقال السيد «دو شارلوس»: «يا إلهي! كم ملازم سيحاول الصعود! قال متظاهراً بالفزع، «إني أقول ذلك من أجلكم، فإنّي أنا لا يزعجني ذلك بما أني مغادر». وقال «بريشو»: «سمعت يا دكتور؟ يخشى البارون أن يمرّ ضبّاط على جسده. وهم مع ذلك يضطلعون بدورهم إذ يتجمّعون هنا لأن «دونسيير» هي بالضبط «سان سير»، «دومينوس سيرياكوس» (Dominus Cyriacus). هناك الكثير من أسماء المدن يحلّ فيها (Dominus) «سيّد» و(Domina) «سيدة» محل «Sanctus» «قدّيس» و«Sancta» «قدّيسة». وهذه المدينة الهادئة العسكريّة ترتدي أحياناً مظاهر كاذبة لـ«سان سير» و«فيرساي» وحتّى لـ«فونتينبلو».

وفي رحلات العودة تلك (كما في الذهاب) كنت أقول لـ«ألبيرتين» أن ترتدي ثيابها إذ أعلم تماماً أنّ زوّاراً سيفدون إلينا في «أمنانكور» و«دونسيير» و«ابيرفيل» و«سان فاست» في زيارات قصيرة. وما كانت بأيّة حال تزعجني، سواء في ذلك، في «هيرمونفيل» (قرية «هيريموند»)، زيارة السيد «دو شيفرني» الذي يستغلّ مجيئه لاصطحاب مدعوّين له كيما يسألني المجيء في الغد لتناول الغداء في «مونسورفان»، أو في «دونسيير» الدخول المفاجئ لأحد أصدقاء «سان لو» الظرفاء وقد أرسله، (إن كان لديه التزام) لينقل إليّ دعوة من النقيب «بورودينو»، من نادي الضبّاط إلى مطعم «الديك الجسور»، أو من نادي صف الضبّاط إلى مطعم «التدرج الذهبي». وكثيراً ما كان «سان لو» يجيء بنفسه، فكنت في كلّ الوقت الذي كان حاضراً فيه، ودون أن يتمكّنوا من ملاحظة ذلك، أحتفظ بـ«ألبيرتين» سجينة أرقبها بعين لا تجدي يقظتها بأيّة حال. وقد قطعت مع ذلك حراستي ذات مرّة. فإنّ «بلوك»، إذ كان ثمّة وقفة طويلة، انطلق في الحال، بعدما سلّم علينا، للحاق بوالده الذي ورث منذ فترة قصيرة عمّه وكان يرى، بعد أن استأجر قصراً يدعى «الآمريّة»، من قبيل تصرّف السيد الكبير أن لا يتنقّل إلا بعربة يقودها حوذيّون بلباس موحّد. ورجاني «بلوك» أن أرافقه حتى العربة.

«ولكن أسرع فإن ذوات الأربعة تلك نفد صبرها. تعال أيها الرجل العزيز على قلوب الآلهة فسوف تُسعد بذلك والدي». ولكنّي كنت أعاني بشكل مفرط من ترك «ألبيرتين» في القطار برفقة «سان لو» فربّما استطاعا التحادث فيما أدير ظهري، والذهاب إلى عربة أخرى والتلامس. ولمّا كانت عيني لاصقة بـ«ألبيرتين» فما كان بوسعها الانفصال عنها ما دام «سان لو» حاضراً على أنّي لاحظت تماماً أن «بلوك»، الذي سألني الذهاب لتحيّة والده بمثابة خدمة أؤديها له، وجد بادئ الأمر قلّة لطافة في امتناعي عنها حين لا شيء يحول دون ذلك إذ كان المستخدمون قد أعلمونا بأن القطار سوف يمكث في المحطة ربع ساعة على الأقل، وأنّ المسافرين جميعهم تقريباً كانوا قد غادروا القطار الذي لن يعاود سيره بدونهم؛ ثمّ إنّه لم يشكّ أن مردّ الأمر بالتأكيد أنّني كنت من أهل التحذلق - وكان تصرّفي بهذه المناسبة جواباً قاطعاً له-. ذلك لأنه ما كان يجهل اسم الأشخاص الذين كنت برفقتهم. فقد كان السيد «دو شارلوس» قال لي بعض الوقت قبل ذلك، ودون أن يتذكّر أو يهتم بأن ذلك ربّما تمّ فيما مضى، بغية التقرّب منه: «ولكن هيّا قدّمني إلى صديقك، فإن ما تفعله يعني قلّة احترام لي»، ثم تحدّث إلى «بلوك» الذي بدا أنّه يروقه إلى أبعد حدّ حتى إنّه أنعم عليه بعبارة «آمل لقاءك ثانية». وقال لي «بلوك»: «لا رجعة في الأمر إذن، ولا تريد أن تقطع هذه الأمتار المئة لتحيّي والدي الذي سيسرّه الأمر أيّما سرور». كنت تعيساً أن يبدو أني أقصّر في واجب الرفقة الطيّبة، وأكثر من ذلك للسبب الذي من أجله كان يظنّ «بلوك» أني مقصّر فيه وأن أحسّ أنه يتصوّر أني لم أكن الرجل نفسه مع أصدقائي البورجوازيين حين يكون ثمّة أناس «كريمو المحتد». منذ هذا اليوم كفّ عن الإعراب لي عن الصداقة نفسها ولم يعد يبدي إزاء طبعي التقدير نفسه، وهو ما شقّ عليّ أكثر. ولعلّه كان انبغى أن أقول له، كي أردّه عن ضلاله حول السبب الذي اضطرّني للمكوث في عربة القطار، أمراً - مؤدّاه أني كنت غيوراً على «ألبيرتين» - ربّما كان بعد أكثر إيلاماً من أن أدعه يعتقد أنني كنت بغباء إلى جانب المجتمع الراقي.

وهكذا نجد نظريّاً أنّه إنّما يجدر بنا على الدوام أن نتفاهم بصراحة ونتجنّب صنوف سوء التفاهم. ولكنّ الحياة كثيراً ما تُمَازج بينها إلى حدّ ينبغي معه، بغية تبديدها، في الظروف النادرة التي يبدو فيها ذلك ممكناً، أن نكشف إمّا عن أمر ربّما كان بعد أكثر تكديراً لصديقنا من الخطأ الوهميّ الذي يعزوه إلينا - وليس ذلك واقع الحال هنا -، أو سرّاً يبدو لنا الكشف عنه - وهو ما وقع لي منذ قليل - أسوأ بعد من سوء التفاهم. وحتّى لو لم أوضح لـ«بلوك» من جانب آخر، بما أنّني لا أستطيع ذلك، السبب الذي لم أرافقه من أجله، فلو أني رجوته أن لا يتكدّر لذلك لما كنت إلّا ضاعفت ذلك الاغتمام إذ أبدي أني كنت على بيّنة منه. ولم يبق ثمّة ما أفعله سوى أن أمتثل لهذا القدر الذي شاء أن يحول وجود «ألبيرتين» دون أن أصحبه مودّعاً، وأن يمكنه الاعتقاد على العكس بأن وجود قوم لامعين هو الذي فعل، وربّما ما كان لذاك الوجود من أثر، ولو كانوا مئة مرّة فوق ذلك، سوى أن يصرفني إلى الاهتمام حصراً بـ«بلوك» وأن أحتفظ له بكلّ ما أملك من أدب. وهكذا يكفي أن تتدخّل حادثة (هي هنا تقابل «ألبيرتين» و«سان لو») على نحو عارض وعبثيّ بين مصيرين كانت خطوطهما تتجه بعضها صوب بعض كيما ينحرف الواحد عن الآخر ويتباعدا أكثر فأكثر فلا يتقاربان في يوم. وهنالك صداقات أجمل من الصداقة التي كان يكنّها لي «بلوك» داهمها الخراب دون أن يكون المسبّب غير المتعمّد للخصام استطاع في يوم أن يوضح للمتخاصم معه ما لعلّه كان شفى دونما شكّ اعتزازه بنفسه وأعاد وداده الهارب.

وليس قولنا بصداقات أجمل من صداقة «بلوك» مغالاة في القول بأيّة حال. فقد كان يملك سائر العيوب التي كانت تسوؤني أكثر ما تسوء. وقد اتّفق عرضاً أن جعلتها رقّتي تجاه «ألبيرتين» لا تحتمل البتّة. من ذلك أنّ «بلوك» قال لي، في هذه اللحظة البسيطة التي كلّمته فيها وأنا أرقب «روبير» بالعين، إنّه قد تناول طعام الغداء في منزل السيدة «بونتان» وإن كل واحد منهم تكلّم عنّي بأعظم المديح حتّى «مغيب الشمس». وفكرت

قائلاً: «حسن، بما أن السيدة «بونتان» تظنّ «بلوك» عبقرياً فإن التأييد الحماسي الذي لا بدّ منحني إيّاه سوف يفعل أكثر من كلّ ما أمكن أن يقوله الآخرون، وسيعود ذلك إلى «ألبيرتين». ولن يفوتها بين يوم وآخر أن تعلم، ويدهشني أن لم تُعِد عمّتها بعد على مسامعها، أنني رجل «متفوّق». وأضاف «بلوك» قائلاً: «أجل، الكلّ أثنى عليك. وحدي أنا التزمت صمتاً في مثل عمقه لو أني ابتلعت بدلاً من الوجبة الهيّنة على كلّ حال التي كانت تُقدّم لنا نبات الخشخاش العزيز على قلب الشقيق المغبوط لـ«ثانتوس» (الموت) و«ليثيه» (النسيان)، «هيبنوس» الإلهي (النوم) الذي يلفّ بأربطة ناعمة الجسم واللسان. وليس يعني ذلك أنّي أقلّ إعجاباً بك من زمرة الكلاب النهمة التي دُعيتُ وإيّاها. ولكني أنا معجب بك لأنّي أفهمك، وهم معجبون دون أن يفهموك. وأني، لأُحْسِنَ القول، أكثر إعجاباً بك من أن أتحدّث هكذا عنك على الملأ، فلعلّ امتداحي جهاراً ما أحمل في أعمق أعماق فؤادي كان بدا لي من قبيل التدنيس. وعبثاً ساءلوني بشأنك فإن نوعاً من الخفر المقدّس ابن «كرونيون» (Kronion)[1] حبس الكلام في فمي». ولم تكن بي قلّة ذوق لأُبدي استياء، ولكنّ ذاك الخفر بدا لي يشبه - أكثر منه الـ«كرونيون» - الخفر الذي يمنع ناقداً معجباً بك أن يتحدّث عنك لأنّ المعبد الخفيّ الذي تتربّع فيه سوف تجتاحه لُمّة من القرّاء الجهّال والصحفيين؛ خفر رجل الدولة الذي لا يمنحك وساماً كي لا تختلط ضمن جماعة من الناس لا تساويك؛ خفر عضو المجتمع الذي لا يصوّت إلى جانبك كي يجنّبك الخجل من أن تكون زميل س الذي لا يتمتّع بأيّة موهبة؛ الخفر أخيراً الذي يكون أكثر مدعاة للاحترام وأكثر إجراماً مع ذلك، خفر الأبناء الذين يرجونك أن لا تكتب عن والدهم المتوفّى الذي كان كثير المزايا، وذلك لضمان الصمت والراحة والحؤول دون الحفاظ على حياة الميت المسكين وخلق هالة من المجد

(١) هي «إينوس» ابنة «جوبيتير» كبير آلهة الرومان بالأحرى.

حوله وهو الذي ربّما فضّل أن تتلفّظ باسمه أفواه رجال الأكاليل التي تُحمل بورع كبير على أيّ حال إلى قبره.

لئن كان «بلوك» فيما يبعث في نفسي الأسى إذ لا يستطيع أن يدرك السبب الذي يحول دون ذهابي لتحيّة والده، لئن كان أثار حنقي وهو يقرّ لي أنّه قلّل من اعتباري لدى السيدة «بونتان» (كنت أدرك الآن لماذا لم تلمّح «ألبيرتين» إلى ذاك الغداء في يوم وتظلّ ساكتة حينما أحدّثها عن المودّة التي يكنّها لي «بلوك»)، فقد خلّف اليهوديّ الشاب في نفس السيد «دو شارلوس» انطباعاً يختلف عن الضيق كلّ الاختلاف. أجل، كان «بلوك» يظنّ الآن أني لا أستطيع البقاء ثانية واحدة بعيداً عن الناس الأنيقين، وليس ذلك فحسب بل كنت أحاول، وقد تملّكتني الغيرة من محاولات التقرّب التي أمكن أن يُبدوها له (كالسيد «دو شارلوس» مثلاً)، أن أضع العصيّ في العجلات وأمنعه من مصادقتهم. ولكنّ البارون كان يأسف من جهته أنْ لم يلقَ رفيقي أكثر مما فعل. وحرص كعادته على أن لا يُبدي شيئاً من ذلك. وبدأ يطرح عليّ، دون أن يبدي أنّه يفعل، بعض الأسئلة حول «بلوك»، ولكنّما بلهجة متراخية واهتمام يبدو شديد التصنّع إلى حدّ لا تظنّ معه أنّه يسمع الأجوبة؛ وبمظهر من اللامبالاة ولحن رتيب كان يعرب عمّا كان أكثر من اللامبالاة والشرود وكأنّما لمحض الأدب يبديه لي: «يبدو ذكياً، وقال إنّه يكتب، فهل هو على موهبة؟» وقلت للسيد «دو شارلوس» إنّه كان غاية في اللطف بقوله إنّه يأمل لقاءه ثانية. ولم تكشف أيّة حركة لدى البارون أن يكون سمع جملتي ولمّا كرّرتها أربع مرّات دون أن يصلني جواب فقد بلغ بي في النهاية أن أرتاب بأن أكون وقعت ضحيّة سراب سمعيّ حينما ظننتني أسمع ما قاله السيد «دو شارلوس». «هل يقطن في «بالبيك»؟» يقول البارون مدندناً بلحن قليل المساءلة إلى حدّ أنّه من المغيظ ألا تتّسع اللغة الفرنسية لعلامة غير نقطة الاستفهام لختام هذه الجمل التي يقلّ طابع الاستفهام في ظاهرها إلى الحدّ. وصحيح أن هذه العلامة تكاد لا تخدم سوى السيد «دو شارلوس».

- «لا، فقد استأجروا الآمريّة على مقربة من هنا». وتظاهر السيد «دو شارلوس»، بعدما عرف ما كان يبتغي، باحتقار «بلوك»، وصاح وهو يردّ إلى صوته كامل زخمه ودويّه: «يا لها فظاعة! إن سائر الأماكن أو الممتلكات المدعوّة بـ«الآمريّة» قد بُنيت أو هي مملوكة من جانب فرسان جمعيّة مالطا (التي أنتمي إليها)، مثلما الأمكنة المسمّاة «المعبد» أو «الفرسان» من جانب الداويّة. إن أقطن أنا الآمريّة فليس ما كان طبيعياً أكثر. أمّا أن يفعل يهوديّ! وليس يدهشني ذلك على أيّة حال، ومردّ ذلك ميل غريب إلى تدنيس المقدّسات خاصّ بهذا الجنس. فما إن يجتمع ليهوديّ ما يكفي من المال لشراء قصر حتّى يختار دوماً قصراً يدعى «كنيسة الدير» أو «الدير» أو «الرهبانية» أو «بيت الله»، لقد كنت على صلة مع أحد اليهود، فاحزروا أين كان يقيم؟ في منطقة «جسر المطران»[1] ولمّا فقد الحظوة عمل على أن يرسلوه إلى «بريتانيا» إلى منطقة «جسر رئيس الكهنة». وحينما يمثّلون في أسبوع الآلام تلك المشاهد غير المحتشمة التي يدعونها «الآلام» فإن نصف القاعة يملؤه اليهود الذين يتهلّلون فرحاً لدى التفكير بأنّهم سيضعون المسيح مرّة ثانية على الصليب، بالصورة على الأقلّ. وفي حفلة «لامورو» الموسيقيّة كان أحد المصرفيين اليهود جاراً لي. وعزفوا «**طفولة المسيح**» لـ«بيرليوز» فأذهله الأمر وغمّه، ولكنّه عاد فلقي بعد قليل تعابير الغبطة المعتادة لديه حين سمع مقطوعة «**روعة الجمعة الحزينة**»[2]. إن صديقك يسكن في «الآمرية»، فيا له من شقيّ! وأيّة ساديّة تلك! ستدلّني على الطريق، يضيف قوله وقد استعاد هيئته اللامبالية، لأمضي ذات يوم وأرى كيف تطيق ممتلكاتنا القديمة مثل هذا الانتهاك. ذلك مؤسف، لأنّه مهذّب ويبدو رفيقاً. وقد لا ينقصه سوى أن يقطن في باريس، في شارع «المعبد»! كان السيّد فحسب يدعم به نظريّته.

---

(١) ترجمنا الاسم العلم لإبراز المقصد.

(٢) ذكرى صلب السيّد المسيح.

ولكنّه كان في الواقع يطرح عليّ سؤالاً لغايتين ترمي الرئيسيّة منهما إلى معرفة عنوان «بلوك». ولفت «بريشو» إلى الملاحظة التالية: «كان شارع «المعبد» بالفعل يدعى شارع «فرسان المعبد». وقال الجامعي: «وإذ نحن بهذا الصدد، هل تسمح لي بملاحظة أيها البارون؟» وقال السيد «دو شارلوس» بلهجة جافّة: «ماذا؟ هات ما وراءك»، لأن تلك الملاحظة كانت تحول دون حصوله على معلوماته. فأجاب «بريشو» متهيّباً: «لا، لا شيء. كان ذلك بشأن اشتقاق سبق أن طلب منّي لكلمة «بالبيك». فشارع «المعبد» كان يدعى فيما مضى شارع «مركز قضاء بيك»، لأن دير «بيك» في النورماندي كان يقيم هنا في باريس مركز قضائه». ولم يحر السيد «دو شارلوس» جواباً وتظاهر أنّه لم يسمع، وكان ذلك عنده أحد أشكال الوقاحة. «أين يسكن صديقك في باريس؟ وبما أن ثلاثة أرباع الشوارع تستمدّ اسمها من كنيسة أو دير فثمّة احتمال أن يستمرّ تدنيس المقدّسات. ولست تستطيع منع يهود من السكنى في شارع «المادلين»[١] أو حيّ «القديس هونوريه» أو ساحة «القديس أغسطينوس». وما داموا لا يبالغون في المكر باختيار مقرّ سكناهم في ساحة «نوتردام» أو ضفّة «المطرانيّة» أو شارع «رئيسة الدير» أو شارع «السلام عليك يا مريم» فلا بدّ أن نأخذ مصاعبهم في الحسبان». ولم نتمكّن من تزويد السيد «دو شارلوس» بالمعلومات إذ كان عنوان «بلوك» الحالي مجهولاً لدينا. ولكنّي كنت أعلم أن مكاتب والده تقع في شارع «المعاطف البيضاء». وصاح السيد «دو شارلوس» قائلاً: «آه! يا فساداً ما بعده فساد!» وهو يبدو كأنّما يجد في ذات صيحة ثورته الساخرة ارتياحاً عميقاً». وأضاف قوله وهو يشدّد على كل مقطع ويضحك شارع المعاطف البيضاء، يا له امتهان للقدسيّات! تصوّر أن هذه «المعاطف البيضاء» التي يلوّنها السيد «بلوك» كانت معاطف الإخوة الشحّاذين المدعوّين خدّام القدّيسة العذراء والذين أقامهم القدّيس

(١) كنيسة مشهورة في باريس.

لويس هناك. ولقد كان الشارع على الدوام لجمعيّات دينيّة. والتدنيس يزداد شيطانيّة بقدر ما يقوم ثمّة على خطوتين من شارع المعاطف البيضاء شارع يغيب عنّي اسمه وهو مخصّص بالكامل لليهود. ثمّة حروف عبرية فوق الدكاكين ومصانع للخبز الفطير وملاحم يهوديّة؛ إنّه بالتمام الـ *Judengasse* (جادّة اليهود) الباريسية. إن السيد «دو روشغود» يسمّي هذا الشارع «الغيتو الباريسي». وكان خليقاً بالسيد «بلوك» أن يسكن هنا. وعاد يقول «بالطبع»، بلهجة يلوّنها شيء من التفخيم والاعتزاز، وهو يولي وجهه المرتد إلى خلف في سبيل الإدلاء بأقوال جماليّة، وجرّاء جواب تُوجّهه إليه على الرغم منه خصائصُه الوراثيّة، هيئة فارس ملكيّ من عهد لويس الثالث عشر، «لست أهتمّ بكلّ ذلك إلّا من منطلق الفنّ. فالسياسة ليست من اختصاصي ولا يسعني أن أحكم دون تمييز، والأمر أمر «بلوك»، على أمّة تجد في عداد مشاهير أبنائها «سبينوزا». وإن إعجابي بـ«رامبرانت» أكبر من أن لا أعرف ما يمكن أن أستمدّه من جمال من التردّد على الكنيس[1]. ومهما يكن من أمر فإن «الغيتو» إنما يزداد جمالاً بقدر ما يزداد تجانساً وتكاملاً. وكُنْ في جميع الأحوال على يقين من أن قرب الشارع العبريّ الذي أكلّمك عنه والسهولة التي يوفّرها وجود الملاحم اليهوديّة في متناول اليد قد حكما اختيار صديقك لشارع المعاطف البيضاء لشدّة ما يختلط لدى هذا الشعب غريزة النفعيّة والجشع بالساديّة. ما أغرب ذلك! وفي هذه النواحي على أيّ حال كان يسكن يهوديّ عجيب قام بسلق القربان المقدّس وأعتقد أنه سُلق بدوره بعد ذلك، والأمر أعجب بعد إذ يبدو وكأنّه يعني أن جسد يهوديّ يمكن أن يساوي ما يساويه جسد الله سبحانه[2]. وربّما أمكننا أن ندبّر أمراً ما مع صديقك كي

---

(١) عاش «رامبرانت» الذي لم يكن يهودياً في الحيّ اليهودي في أمستردام (هولندا) وكثيراً ما اقتبس شخوصه من الوسط الذي عاش فيه إلى جانب الكنس التي رسمها.

(٢) إشارة إلى المعتقد المسيحيّ الذي يمثل فيه القربان المقدّس جسد المسيح.

يصحبنا لزيارة كنيسة المعاطف البيضاء. تصوّر أن جثمان «لويس آل أورليان» أودع هناك بعد مقتله على يد «جان سان بور» الذي لم ينقذنا لسوء الحظ من آل «أورليان». بيد أني من جانب آخر على علاقة ممتازة بابن عمّي الدوق «دو شارتر»، ولكنهم في النهاية من جنس مغتصبين عملوا على قتل «لويس السادس عشر» وتجريد «شارل العاشر» و«هنري الخامس». لديهم على أيّ حال من يشبهونهم إذ يعدّون بين أجدادهم «السيّد» الذي كان يدعى على هذا النحو لأنّه كان دونما شكّ أغرب السيدات المسنّات، والوصي على العرش والبقيّة الباقية. يا لها أسرة!» وقد قوطع هذا الخطاب المناهض لليهود أو المناصر لهم - حسبما نتمسّك بظاهر الجمل أو بالمقاصد التي تنطوي عليها -، قوطع بطريقة مضحكة في ما يخصّني جرّاء جملة همس لي بها «موريل»، ولعلّها كانت أدخلت اليأس إلى صدر السيد «دو شارلوس»، فقد كان «موريل» الذي لم تفته ملاحظة الانطباع الذي خلّفه «بلوك» يشكرني همساً لأني «صرفته» ويضيف بصفاقة: «كان بودّه أن يبقى، وكلّ ذلك من الغيرة، فإنّه يودّ أن يأخذ منّي مكاني. ذلك تماماً من صنيع اليهود!» وسألني السيد «دو شارلوس» وبه القلق الذي يولّده الشكّ، «كان يمكن الإفادة من هذا التوقّف الذي يتطاول لسؤال صديقك بعض الإيضاحات الشعائريّة. أفلست تستطيع اللحاق به؟»

- «لا، ذلك مستحيل، فقد مضى في عربة وهو غاضب منّي على أيّ حال». وهمس «موريل» في أذني قائلاً: «شكراً، شكراً». «السبب غير معقول، ويمكن دوماً اللحاق بعربة فليس ما يحول دون أن تستقلّ سيارة»، يجيب السيد «دو شارلوس» جواب رجل تعوّد أن ينحني كلّ شيء أمامه. ولكنّه لاحظ صمتي فقال لي بوقاحة وبلهجة الأمل الأخير: «وما عسى تكون هذه العربة الوهميّة إلى حدّ؟»

- «إنها عربة مكشوفة ولا بدّ أن تكون وصلت إلى الآمريّة». وسلّم السيد «دو شارلوس» على مضض في النفس بالمستحيل وتكلّف المزاح «أفهم أنّهم تراجعوا إزاء العربة غير الضرورية، إذ كان زاد ذلك في

اللاضروري» وأخيراً أنبئنا بأن القطار يزمع الرحيل ففارقنا «سان لو». ولكنّ ذاك اليوم كان الوحيد الذي عذّبني فيه على غير علم منه وهو يصعد إلى عربتنا جرّاء ما خطر لي لحظة واحدة بأن أدعه مع «ألبيرتين» بمرافقة «بلوك». ولم يعذبني وجوده في المرات الأُخرى، لأن «ألبيرتين» كانت، بغية تجنيبي أي قلق، تتخذ مكانها تلقائياً، لحجّة أيّة حجّة، على نحو لعلّها ما لامست به «روبير»، وإن غير قاصدة، وأبعد تقريباً من أن تمدّ حتى يدها إليه؛ وكانت تأخذ، ما أن يحضر، في الحديث بصورة معلنة وبما يقارب التصنّع مع أيّ من المسافرين الآخرين وهي تشيح بعينيها عنه وتوالي هذه اللعبة إلى أن يكون «سان لو» قد ارتحل. وهكذا لم تكن الزيارات التي يقوم بها لنا في «دونسيير» لم تكن إذ لا تسبب لي أي عذاب بل أي إزعاج، لتشكّل استثناء بين الأخريات التي كانت كلّها ممتعة إذ تحمل إليّ نوعاً ما إجلال هذه الأرض ودعوتها. وكنت منذ أواخر الصيف حين أبصر من البعيد أثناء رحلتنا من «بالبيك» إلى «دوفيل» محطّة «سان بيير ديزيف» حيث تتلألأ برهة في المساء رؤوس الجروف مورّدة كلّها مثلما ثلج الجبل في الشمس الغاربة، فإنّها ما كانت تذكّرني (لا أقول حتّى بالحزن الذي بعثه في نفسي أول مساء ارتفاعها الغريب المفاجئ فداخلتني رغبة عظيمة في العودة بالقطار إلى باريس بدلاً من متابعة الطريق إلى «بالبيك») بالمنظر الذي كنت تستطيع مشاهدته من هنا في الصباح، كما سبق أن قال لي «ايلستير»، في الساعة التي تسبق شروق الشمس حيث تتكسّر ألوان قوس قزح جميعها فوق الصخور والتي أيقظ فيها مرّات كثيرة الصبيّ الصغير الذي اتخذه ذات سنة بمثابة جليس ليرسمه عارياً فوق الرمال. كان اسم «سان بيير ديزيف» ينبئني فحسب بأنْ سوف يطلع عليّ خمسيني غريب فكّه متبرّج يمكنني التحدّث وإيّاه عن «شاتوبريان» و«بلزاك». أما ما كنت أراه الآن في ضباب المساء. خلف جرف «انكرفيل» هذا الذي ما أكثر ما أيقظ أحلامي فيما مضى، وكأنّما أصبحت أحجارها الرمليّة العتيقة شفافة، فالبيت الجميل الذي لأحد أعمام السيد «دو كامبرمير» والذي أعلم أنّهم

سيسعدون دوماً باستقبالي فيه إن لم أشأ تناول العشاء في «لا راسبليير» أو العودة إلى «بالبيك». وهكذا لم تكن أسماء نواحي هذه المنطقة هي التي فقدت وحدها سرّها الأوّلي، بل تلك النواحي نفسها. فالأسماء التي فُرِغَتْ إلى النصف من سرّها الذي أحلّ الاشتقاق المحاكمة العقليّة محلّه قد هبطت درجة إضافية، وكنّا نبصر، في أثناء رجعاتنا إلى «هيرمونفيل» و«سان فاست» و«أرامبوفيل» لحظة توقّف القطار، أشباحاً ما كنّا نتعرّفها في البداية وربّما أمكن أن يأخذها «بريشو» في الليل، وهو لا يبصر شيئاً البتّة، مأخذ أطياف «هيريموند» و«فيسكار» و«هيريمبالد». ولكنّها كانت تقترب من العربة، فإذا هي مجرّد السيد «دو كامبرمير» الذي كان على اختصام تام مع آل «فيردوران» وكان يصحب مدعوّين له، وجاء من جانب والدته وزوجته يسألني إن كنت لا أودّ أن «يختطفني» ليحتفظ بي بضعة أيام في «فيتيرن» حيث ستتعاقب موسيقيّة ممتازة قد تسمعني إنشاداً لكلّ «غلوك» ولاعب شطرنج مشهور أقوم معه بلعبات رائعة لن تضرّ بطلعات الصيد ورياضة اليخوت في الخليج، ولا حتّى بحفلات عشاء آل «فيردوران» التي كان المركيز يتعهّد مقسماً بشرفه أنّه «يعيرني» إليها ويأمر باصطحابي وإعادتي سعياً إلى مزيد من السهولة، والضمان أيضاً. «لكنما لا يسعني الاعتقاد أنّه من المفيد لك الذهاب إلى مكان بمثل هذا الارتفاع، فإني أعلم أن شقيقتي لا تقوى ربّما على تحمّله، وبأيّة حالة مزرية قد تعود! وهي ليست من جانب آخر على ما يرام في هذه الفترة.. لقد أصبتَ حقاً بنوبة قلبية إلى هذا الحدّ! ولن تقوى في الغد على الوقوف!» وكان يتلوّى ضحكاً، لا عن خبث بل للسبب نفسه الذي ما كان من اجله يستطيع رؤية أعرج يسقط في الشارع أرضاً دون أن يضحك، أو التحدّث إلى أصمّ. «وقبل ذلك؟ كيف، لم تصب بواحدة منذ خمسة عشر يوماً؟ تدري أن ذلك عظيم جداً! حقّاً يجدر بك أن تأتي للإقامة في «فيتيرن» فيمكن أن تحدّث شقيقتي عن اختناقاتك». أمّا في «أنكرفيل» فقد كان المركيز «دو مونييرو» هو الذي، إذ لم يستطع الذهاب إلى «فيتيرن» لغيابه بقصد الصيد، جاء إلى

القطار بجزمته وقبّعة تزيّنها ريشة تدرج لمصافحة أقرباء له ومصافحتي في الوقت نفسه وهو يعلن لي عن زيارة لابنه يقوم بها في يوم من الأسبوع لا يزعجني وأنّه يشكرني لاستقبالي له ويسعده أشدّ السعادة أن أحمله قليلاً على القراءة. أو هو السيد «دو كريسي» جاء، يقول، لإنجاز عمليّة هضمه، ويدخّن غليونه ويقبل سيجاراً أو حتى عدّة منها، وكان يقول لي: «ويحك! لست تقول لي عن يوم للقائنا المقبل على طريقة «لوكولّوس»؟ ليس عندنا ما نقوله؟ فاسمح لي أن أذكّرك بأنّنا خلّفنا على السكّة مسألة عائلتي «مونتغومري». ولا بدّ من إنهاء ذلك. اعتمد عليك». وآخرون جاءوا يبتاعون صحفهم فحسب. كذلك كان كثيرون يسترسلون في الحديث وإيّانا، من الذي شككت دوماً أنّه لا يتّفق أن تجدهم فوق الرصيف في أقرب محطّة إلى قصرهم الصغير إلّا لأنّه لم يكن لديهم ما يفعلونه سوى أن يلتقوا فترة من الزمن جماعة من معارفهم. وقصارى القول إنّ موقف القطار الصغير هذه إن هي إلا إطار لحياة مجتمعيّة كأيّ إطار آخر. وهو نفسه كان يبدو وكأنّه يعي ذاك الدور الذي أفرد له واكتسب شيئاً من لطف إنساني: فقد كان صبوراً ليّن العريكة ينتظر المتخلّفين ما شاؤوا له أن ينتظر، بل كان يتوقف بعدما انطلق ليلملم من يشوّرون له، فكانوا يجرون إذ ذاك على إثره يلهثون فيشبهونه في هذا ولكنّهم يختلفون عنه في أنّهم كانوا يلحقون به بأقصى السرعة فيما لا يلجأ هو إلّا إلى بطء متعقّل. وهكذا لم تعد «هيرمونفيل» و«أرامبوفيل» و«انكرفيل»، لم تعد حتّى تذكّرني بأمجاد الغزو النورماندي وقسوته، وهي غير قانعة بأن تكون نزعت عنها تماماً الحزن الذي لا تفسير له والذي رأيتها بالأمس غارقة فيه في برودة المساء. و«دونسيير»! كم بقي طويلاً في هذا الاسم، بالنسبة إليّ، حتى بعدما عرفته وأفقت من حلمي، كم بقي فيه شوارع ممتعة في برودتها وواجهات مضاءة وطيور لذيذة! «دونسيير» لم تعد الآن سوى المحطة التي يصعد فيها «موريل»؛ و«ايغلفيل» (Aquiaevilla) تلك التي كانت تنتظرنا فيها عموماً الأميرة «شيرباتوف»؛ و«مينفيل» المحطّة التي كانت تنزل فيها

«ألبيرتين» في عشيّات الصحو حينما تدفعها الرغبة، وليس بها فرط تعب، إلى أن تطيل فترة بعد رفقتنا إذ كاد لا يبقى، بفضل طريق مختصرة، مسيرة أطول تقطعها ممّا لو كانت نزلت في «بارفيل». وكنت لا أشعر من بعد بالخوف والقلق من العزلة اللذين اعترياني في المساء الأول، وليس ذلك فحسب بل ما عدت أخشى أن يستفيقا ولا أن أحسّ بالغربة أو أجد نفسي وحيداً على هذه الأرض التي لا تنتج أشجار الكستناء والطرفاء فحسب، بل صداقات تشكّل على طول المسيرة سلسلة طويلة متقطعة كسلسلة التلال الضاربة إلى الزرقة، تختفي أحياناً داخل تجاويف الصخر أو خلف زيزفون الشارع ولكنّها توفد في كلّ موقف أحد النبلاء اللطاف الذي كان يُقبل بمصافحة وديّة ليقطع طريقي ويحول دون إحساسي بطوله ويعرض عليّ متابعته وإيّاي إن دعت الحاجة. وسيكون آخر في المحطّة التالية إلى حدّ أن صافرة القطار الصغير ما كانت تدعونا لفراق صديق إلا لتفسح لنا في لقاء آخرين. فبين القصور الأقلّ قرباً والسكّة الحديديّة التي تسير بمحاذاتها بما يقارب خطو شخص يسير مسرعاً كانت المسافة قليلة إلى حدّ كنّا استطعنا معه تقريباً، لحظة كان أصحابها ينادون علينا من فوق الرصيف أمام غرفة الانتظار، أن نظنّ أنّهم يفعلون من عتبة بابهم ومن نافذة غرفة نومهم وكأنّما سكّة المحافظة لا تعدو كونها شارعاً في مقاطعة ريفيّة وقصر النبيل الريفي المنعزل سوى فندق في المدينة. حتى في المحطات القليلة التي ما كنت أسمع فيها تحيّة المساء من أحد كان للصمت اكتمال مغذّ ومهدّئ لأنني أعلم أنه يتشكّل من رقاد أصدقاء بكّروا في النوم في القصر الريفي القريب الذي لعلّ مجيئي كان صادف فيه ترحيباً وسروراً لو اضطررت أن أوقظهم لأسألهم بعض خدمات الضيافة. فعلاوة على أن العادة تملأ وقتنا إلى حدّ لا يبقى لنا معه في ختام بضعة شهور لحظة واحدة خالية من المشاغل في مدينة كان النهار يوفّر لنا لدى الوصول إليها جاهزيّة ساعاته الاثنتي عشرة، ما كان ليخطر لي من بعد، إن شغرت واحدة منها مصادفة، أن أستخدمها لزيارة كنيسة سبق أن جئت فيما مضى

من أجلها إلى «بالبيك»، ولا حتّى أن أقابل موقعاً رسمه «ايلستير» بالترسيمة التي شاهدتها له في منزله. بل للمبادرة إلى القيام بلعبة شطرنج إضافية في منزل السيد «فيريه». فقد كان للتأثير الهدّام، كما للسحر كذلك، الذي اكتسبته منطقة «بالبيك» أن تصبح في نظري منطقة معارف حقيقية، ولئن كان توزّعها الجغرافي وزراعتها التوسعيّة على طول الساحل زروعاً متنوّعة يكسبان الزيارات التي أقوم بها لهؤلاء الأصدقاء المختلفين شكل الرحلة المحتوم فقد كانا إلى ذلك يقصران الرحلة على أن لا تتضمّن سوى المتعة الاجتماعية التي يوليها تعاقب الزيارات. وإنّ أسماء الأماكن ذاتها، وهي فيما مضى مثيرة بالنسبة إليّ إلى حدّ أن مجرّد «دليل القصور»، إمّا قلّبت صفحاته في الباب المخصّص لمقاطعة المانش، كان يبعث في النفس مقدار ما يبعث دليل السكك الحديدية من انفعال أضحت مألوفة لديّ إلى حدّ أني كنت أستطعت أن أتصفّح ذاك الدليل نفسه في الصحيفة المخصصة لـ«بالبيك» - دوفيل» عن طريق «دونسيير» بذات السعادة المطمئنة التي أتصفّح بها قاموساً للعناوين. وفي هذا الوادي الذي يطفح حسّاً اجتماعيّاً والذي أحسّ أنّ تعلق في جنباته طائفة من أصدقاء كثر بارزة للعيان أو خفيّة لم تعد صرخة المساء الشعريّة هي صرخة البومة أو الضفدعة، بل «كيف حالك؟» يطلقها السيد «دو كريكتو» أو «خِيْرِيْهْ»(١) يقولها «بريشو». ولم يعد الجوّ فيه يوقظ صنوف القلق وكان، وقد حُمِّل انبعاثات بشريّة محضة، سهل المتنفّس مهدّئاً بما يجاوز الحد. والمكسب الذي جنيته منه أني ما عدت أرى الأشياء على الأقل إلّا من وجهة نظر عمليّة. وأخذ الزواج من «ألبيرتين» يبدو لي ضرباً من الجنون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) «السلام عليك» في اليونانيّة كما يتصنّعها الجامعي «بريشو».

الفصل الرابع

تحوّل مفاجئ باتّجاه «ألبيرتين» - أسى في الشروق - انطلاقي في الحال إلى باريس بصحبة «ألبيرتين»

كنت أنتظر محض مناسبة للقطيعة النهائيّة. وذات مساء، وإذ كانت والدتي تزمع الذهاب في الغد إلى «كومبريه» حيث تمضي إلى إحدى شقيقات أمّها تعضدها في مرضها الأخير وتتركني كيما أفيد، مثلما لعلّ جدّتي كانت تريد، من هواء البحر، أخبرتها أنّي صممت تصميماً لا رجعة فيه أن لا أتزوج «ألبيرتين» وسأكفّ قريباً عن زيارتها. وقد سرّني أن وسعني بتلك الكلمات إشاعة السرور في صدر والدتي عشيّة ذهابها. وهي لم تُخْفِني أن الأمر سرّها بالفعل سروراً بالغاً. كان لا بدّ لي أيضاً من الإفصاح عن ذلك لـ«ألبيرتين». وإذ كنت عائداً وإيّاها من قصر «لا راسبلبير» وبعدما نزل الخلّص، هؤلاء في «سان مارس لوفيتو»، وأولئك في «سان بيير ديزيف» وآخرون في «دونسيير»، وأحسستني سعيداً بصورة خاصّة ومتجرّداً عنها عقدت العزم، ولم يبق في عربة القطار الآن سوانا نحن الاثنين، على مباشرة هذا الحديث أخيراً فيما بيننا. والحقيقة على أيّة حال أن تلك التي كنت أحبّها من بين فتيات «بالبيك»، وإن تكن غائبة في هذه الفترة هي وصديقاتها، ولكنّها تزمع العودة (كنت آنس بجميعهنّ لأن كلّ واحدة منهنّ كانت تحمل بالنسبة إليّ، شأني في اليوم الأول، شيئاً من جوهر الأخريات وكانت كأنّما من جنس فريد من نوعه)، إنما كانت «أندريه»، وبما أنّها

تزمع المجيء ثانية إلى «بالبيك» بعد بضعة أيام فالأكيد أنّها ستأتي في الحال للقائي، وحينئذ بغية أن أظلّ حرّاً وأن لا أتزوجها إن كنت لا أبغي ذلك ليمكنني الذهاب إلى البندقية، ولاستبقائها لي كليّاً حتى ذاك، فإن الوسيلة التي سألجأ إليها هي ألا يبدو عليّ كثيراً أني آتي إليها، وسأقول لها فور وصولها حينما يجري بيننا الحديث: «من أسف ألا أكون التقيتك قبل هذا ببضعة أسابيع! فإني كنت أحببتك. أمّا الآن فقلبي مشغول. ولكن لا أهميّة للأمر، سوف نلتقي كثيراً، فإنّي حزين من جرّاء حُبّي الآخر وسوف تساعدينني على توفير العزاء لي». كنت أبتسم في نفسي وأنا أفكر بهذا الحديث، فربّما أوهمت «أندريه» بهذه الطريقة أنني لا أحبّها حقاً، وهكذا فإنّها لن تملّني وأفيد من حنانها بغبطة وهدوء. ولكن كلّ هذا ما كان يفضي في النهاية إلا إلى زيادة ضرورة التحدّث إلى «ألبيرتين» حديثاً جديّاً كي لا أتصرّف تصرّفاً غير لبق؛ وبما أنني كنت مصمماً على الانصراف إلى صديقتها فقد كان لا بدّ أن تعلم تمام العلم، هي «ألبيرتين» أنني لا أحبّها. وكان لا بدّ أن أقوله لها في الحال إذ يمكن أن تحضر «أندريه» بين يوم وآخر. ولكنّي شعرت، إذ كنّا نقترب من «بارفيل» أنه لن يتسع لنا الوقت في ذاك المساء وأنّ الأفضل أن نؤجل إلى الغد ما كان الآن مقرّراً تقريراً لا رجعة فيه. فاكتفيت والحالة هذه بالتحدّث إليها عن العشاء الذي تناولناه في منزل آل «فيردوران». وقالت في لحظة كانت تعود إلى ارتداء معطفها وقد غادر القطار «أنكرفيل» منذ قليل، وهي آخر محطة قبل «بارفيل»: «إذاً في الغد آل «فيردوران» مرّة أخرى، ولا يغب عنك أن من سيأتي لاصطحابي هو أنت». ولم أملك نفسي عن الإجابة ببعض الجفاء: «أجل، إلّا إذا «أخلفت»، فإنّي أخذت أجد هذه الحياة سخيفة حقاً. وفي كلّ الأحوال لا بدّ لي، إن ذهبنا إلى هناك، وبغية ألا يكون الوقت الذي أقضيه في «لا راسبلبير» وقتاً ضائعاً تماماً، من التفكير بسؤال السيدة «فيردوران» أمراً يمكن أن يثير اهتمامي إلى حدّ كبير ويكون موضع دراسة لي ويمتعني فقد اتفق لي بالحقيقة القليل جداً من المتعة في «بالبيك» هذا العام».

- «ليس ذلك بلطيف تجاهي، ولكنّي غير حاقدة عليك إذ أحسّك مضطرب الأعصاب. فما هي هذه المتعة؟»

- «أن تأمر السيدة «فيردوران» من يعزف لي أشياء لموسيقي تعرف مؤلفاته تمام المعرفة. وأنا أيضاً أعرف إحداها، ولكنما يبدو أن ثمّة غيرها وإني بحاجة أن أعلم إن كانت منشورة وإن كانت تختلف عن الأعمال الأولى».

- «أي موسيقي؟»

- «يا صغيرتي العزيزة، بعدما أكون قلت لك إنّه يدعى «فانتوي»، هل تكونين كسبت الكثير؟» يمكن أن نكون قلّبنا كلّ الأفكار الممكنة ولا تكون الحقيقة داخلتها في يوم، فإذا هي توجّه من الخارج لسعتها الشنيعة وتجرحنا إلى الأبد. وأجابتني «ألبيرتين» وهي تنهض واقفة لأن القطار يوشك أن يتوقّف: «لست تدري كم تضحكني، فليس يهمني ذلك أكثر مما تظن فحسب، بل يمكنني حتى بدون السيدة «فيردوران» أن أحصل لك على كلّ ما تشاء من معلومات. تذكر أني كلّمتك عن صديقة أكبر مني سنّا كانت لي أمّاً وأختاً وقد قضيت معها في «تريستي» أجمل سني حياتي وسوف ألتقيها على أيّة حال بعد بضعة أسابيع في «شيربور» ومنها نسافر سويّة (والأمر ينطوي على غرابة، ولكنك تعلم كم أحبّ البحر)، حسن، هذه الصديقة (آه! ليست على الإطلاق من صنف النساء الذي يمكن أن يخطر لك!)، فانظر كم الأمر غريب، هي بالضبط أفضل صديقة لابنة «فانتوي» هذا، وإني أعرف بالمقدار نفسه ابنة «فانتوي». وإنّي ما دعوتهما في يوم إلا شقيقتيّ الكبريين. ليس يسوءني أن أريك أنّ صغيرتك «ألبيرتين» يمكن أن تفيدك في أمور الموسيقى هذه التي تقول من جانب آخر، وبحق، إنّي لا أفقه فيها شيئاً. ولدى سماعي هذه الكلمات التي قيلت فيما كنّا ندخل محطة «بارفيل»، بعيداً جداً عن «كومبريه»، و«مونجوفان»، وبعد موت «فانتوي» بفترة طويلة، كان ثمّة صورة تضطرب في فؤادي، صورة ظلّت محفوظة لسنوات طويلة احتياطاً، لعلّني حتى لو أمكنني أن أحزر فيما كنت

اختزنها بالأمس أنّها تتمتّع بتأثير سيئ، ولعلّني ظننت أنّها فقدته كليّاً على مرّ الزمن؛ وهي ظلّت حيّة في أعماقي - على غرار «أوريست» الذي حالت الآلهة دون موته كيما يعود في اليوم المحدّد إلى بلده ليثأر لمقتل «أغاممنون» - في سبيل تعذيبي وعقابي ربّما (من ذا يدري؟) أن تركت جدّتي تموت؛ وطلعت فجأة من أعماق الليل، الذي بدا أنّها دُفنت فيه إلى الأبد، تضرب على غرار منتقم كي تدشّن لي حياة رهيبة مُسْتَحَقّة جديدة، وربّما كذلك كي تبرز في عينيّ النتائج المشؤومة التي تولّدها الأفعال السيئة إلى ما لا نهاية، لا بالنسبة لمن اقترفوها فحسب، بل لمن لم يفعلوا - أو ظنّوا أن لم يفعلوا - سوى متابعة مشهد غريب ومسلٍّ، كحالي أنا للأسف في ختام ذلك النهار البعيد في «مونجوفان»، وقد اختبأت خلف دغل حيث فسحت في المجال خطيراً لتتسع في داخلي الطريق المشؤومة المعدّة لصنوف العذاب، طريق «المعرفة» (مثلما سبق أن أصغيت مجاملاً إلى قصة غراميّات «سوان»). وفي هذا الوقت نفسه داخلني من أعظم ألم يصيبني شعور يكاد يكون مستكبراً، يكاد يكون متهللاً، شعور إنسان لعلّ الصدمة التي حلّت به دفعته دفعة بلغ بها جدّاً ما كان لأي جهد أن يرفعه إليه. فإنّما «ألبيرتين» في صداقتها للآنسة «فانتوي» ولصديقتها، «ألبيرتين» مُمارسة ممتهنة للسحاق، إنما كانت، إزاء ما سبق أن تصوّرت عبر أعظم شكوكي، ما كان يساوي المِسْماعُ الصغير في معرض عام ١٨٨٩، والذي كادوا لا يأملون منه أن يصل بين ركن بيت وبيت آخر في مواجهة الهاتف الذي يرفّ فوق الشوارع والمدن والحقول والبحار يصل بين البلدان. كانت أرضاً مجهولة ومخيفة تلك التي حططت فيها منذ قليل ومرحلة جديدة تنفتح أمامي لعذابات لا أتوقّعها. ولئن كان طوفان الواقع هذا الذي يغمرنا، لئن كان هائلاً في مقابل افتراضاتنا الخجولة الزهيدة فقد كان مستشعراً فيها. إنّه دون شك من قبيل ما اطّلعت عليه منذ قليل، كان من قبيل صداقة «ألبيرتين» والآنسة «فانتوي» وشيئاً ما كان وسع فكري أن يبتدعه ولكني كنت أوجس منه خيفة على نحو غامض حينما كنت أضطرب اضطراباً ما

أشدّه وأنا أرى «ألبيرتين» بالقرب من «أندريه». فكثيراً ما لا نذهب في العذاب مسافة كافية لقصور في فكرنا المبدع فحسب. وإن الواقع الأكثر رهبة إنّما يولينا إلى جانب العذاب بهجة اكتشاف هام لأنّه يقتصر على إعطاء شكل جديد واضح لما كنّا نجترّه منذ فترة طويلة دون أن نرتاب به. كان القطار قد توقّف في «بارفيل» ولمّا كنّا المسافرين الوحيدين فيه فقد صرخ العامل بصوت أوهاه شعوره بلا جدوى المهمّة وذاتُ العادة التي تدفعه مع ذلك إلى القيام بها وتوحي إليه بالدقّة والتراخي في آن معاً، بل وأكثر من ذلك رغبته في النوم، صرخ يقول: «بارفيل». وقامت «ألبيرتين»، وهي تجلس قبالتي وإذ رأت أنّها وصلت إلى مكان إقامتها، ببضع خطوات من ركن العربة التي كنّا فيها وفتحت الباب. لكنّ تلك الحركة التي كانت تنجزها على هذا النحو بغية النزول كانت تمزّق فؤادي على نحو لا يحتمل كما لو أنّه، خلافاً للموقع المستقل عن جسمي الذي كان يبدو أن جسم «ألبيرتين» يشغله على بعد خطوتين منه، كما لو لم يكن ذاك الفاصل المكاني الذي ربّما اضطرّ رسّام يبغي مطابقة الواقع أن يخطّه بيننا سوى مظهر ليس إلّا وكما لو انبغى لمن يشاء أن يعيد رسم الأشياء وفق الواقع الحقيقي أن يُقيم «ألبيرتين» الآن على مسافة منّي بل في داخلي. لقد بلغ من إيلامها لي في ابتعادها عنّي أن جذبتها من ذراعها إذ لحقتُ بها جذبة يائس. وسألتها قائلاً: «هل يستحيل ماديّاً أن تأتي هذا المساء للنوم في «بالبيك»؟

- «ماديّاً لا؛ ولكن النعاس يثقل عليّ».

- «ربّما أدّيت لي خدمة لا تقدّر بثمن».

- «وليكن إذاً، مع أنّي لا أفهم؛ لم لم تفصح عن ذلك من قبل؟ ولكنّي باقية». كانت أمي نائمة حينما عدت إلى غرفتي بعدما أوصيت أن تعطى «ألبيرتين» غرفة في دور آخر. وجلست قرب النافذة وأنا أغالب زفراتي كي لا تسمعني والدتي التي لا يفصلها عنّي سوى حاجز رقيق. لم يخطر لي حتى أن أغلق المصاريع، إذ رأيت في لحظة معيّنة وأنا أرفع

عيني، رأيت قبالتي في السماء ذات الضوء المبهم الزهيد الذي من حمرة خامدة والذي كنّا نشاهده في مطعم «ريفبيل» في دراسة كان «ايلستير» وضعها عن مغيب شمس. وتذكّرت الحماسة التي أولتني إيّاها تلك الصورة نفسها حينما رأيتها من القطار في أوّل يوم من وصولي إلى «بالبيك» صورة مساء ما كان يسبق الليل بل نهاراً جديداً. أمّا الآن فلن يكون أيّ نهار من بعد جديداً بالنسبة إليّ ولن يوقظ لديّ من بعد الرغبة في سعادة مجهولة وسيطيل فحسب صنوف عذابي إلى أن لا أقوى من بعد على احتمالها. إن حقيقة ما سبق أن قاله لي «كوتار» في كازينو «بارفيل» لم يعد موضع شك في نظري. وإن ما سبق أن خشيته وراودني منه شك غامض عن «ألبيرتين» منذ فترة طويلة وما كنت أستخلصه بالفطرة من كامل كيانها وما دفعتني محاكماتي العقليّة التي يوجهها شوقي شيئاً فشيئاً إلى إنكاره إنما كان حقيقياً! فما عدت أبصر خلف «ألبيرتين» جبال البحر الزرقاء، بل حجرة «مونجوفان» التي كانت ترتمي فيها بين ذراعي الآنسة «فانتوي» بتلك الضحكة التي تُسمعك فيها كأنّما النبرة المجهولة لاستمتاعها. إذ كيف كان للآنسة «فانتوي»، و«ألبيرتين» بمثل جمالها، أن لا تطلب إليها، وبها ما بها من ميول، إشباعها؟ والبرهان على أن «ألبيرتين» لم يصدمها الأمر ووافقت أنّهما لم تختصما وأن الألفة بينهما لم تن تتعاظم. وحركة «ألبيرتين» اللطيفة وهي تضع ذقنها على كتف «روزموند» وتنظر إليها مبتسمة وتطبع قبلة على عنقها، تلك الحركة التي ذكّرتني بالآنسة «فانتوي» والتي تردّدت مع ذلك في معرض تفسيرها في أن أسلّم بأن ذات الخطّ الذي ترسمه إشارة معيّنة ينجم حتماً عن الميل نفسه، من ذا يعلم إن لم تكن «ألبيرتين» تعلّمتها بكلّ بساطة من الآنسة «فانتوي»: وشيئاً فشيئاً أخذت السماء الخامدة تشتعل. وأنا الذي لم يستيقظ في يوم إلى الآن دون أن يبتسم لأكثر الأشياء اتّضاعاً، لكوب القهوة بالحليب وصوت المطر وهزيم الرياح، أحسست أن النهار الذي سيطلع في لحظات وجميع الأيّام التي ستعقبه لن تحمل إليّ من بعد أملاً بسعادة مجهولة بل تطاولاً لعذابي. كنت

لا أزال أتشبّث بالحياة، وأعلم أن ليس ما أنتظره منها سوى القسوة عليّ. وجريت إلى المصعد على الرغم من الساعة غير المناسبة لاستدعاء عامل المصعد الذي كان يقوم بوظيفة حارس ليلي وسألته الذهاب إلى غرفة «ألبيرتين» ليقول لها إن ثمّة أمراً هاماً أودّ نقله إليها وإن كان بوسعها استقبالي. وعاد يقول لي: «تُفضّل الآنسة المجيء بنفسها وستكون هنا بعد قليل». ودخلت «ألبيرتين» بالفعل بعد قليل ترتدي مبذلاً. فقلت لها بصوت خافت جداً وأنا أوصيها بأن تتحاشى رفع صوتها كي لا توقظ والدتي التي ما كان يفصلنا عنها سوى هذا القاطع الذي كانت رقته تشبه فيما مضى، حين كانت ترتسم فيها على أحسن وجه مقاصد جدّتي، نوعاً من الشفافية الموسيقية، وهي اليوم مزعجة وتضطرّنا للتهامس: «ألبيرتين» إني خجل لمضايقتي لك، هيّا، لا بدّ لي، بغية أن تفهمي، من أن أقول لك شيئاً لا تعرفينه. حينما جئت إلى هنا هجرت امرأة اضطررت أن أتزوّجها وكانت مستعدّة أن تتخلّى عن كل شيء من أجلي. كان مقرّراً أن تسافر في هذا الصباح، وإني منذ أسبوع أتساءل في كلّ يوم إن كانت ستتوافر لي الشجاعة بأن لا أبرق لها أنني عائد. وقد توافرت لي تلك الشجاعة، ولكنما رأيتني تعيساً حتى ظننت أني سأقتل نفسي. ولذلك سألتك مساء البارحة إن كان يمكن المجيء للنوم في «بالبيك». فإني وددت، لو انبغى أن أموت، أن أودّعك». وأطلقت العنان لدموعي التي جعلتها قصّتي الخيالية تبدو طبيعية. وصاحت «ألبيرتين» قائلة: «يا صغيري العزيز، لو أني علمت لكنت قضيت الليل إلى جانبك»، حتى دون أن يخطر ببالها أنني ربما تزوجت تلك المرأة وأن فرصتها في «زواج ثري» تتلاشى لشدّة وصدق تأثرها بغمّ أستطيع أن أخفي عنها سببه. لا حقيقته وقوّته. قالت لي: «لقد شعرت البارحة على أيّة حال شعوراً واضحاً على مدى الطريق من قصر «لا راسبليير» أنّك كنت ثائر الأعصاب حزيناً، وكنت أخشى أمراً ما». والحقيقة أنّ حزني لم يبدأ إلا في «بارفيل» وثورة الأعصاب المختلفة كلياً والتي كانت «ألبيرتين» لحسن الحظ تخلط بينه وبينها كانت ناجمة عن

الضيق الذي بي من العيش وإياها بضعة أيام بعد. وأضافت قولها: «لا أفارقك من بعد وسأمكث طوال الوقت هنا». كانت تقدّم لي - ووحدها تستطيع أن تفعل - الدواء الوحيد المضاد للسم الذي يحرقني، والمجانس له من جانب آخر، فهذا رفيق بي والآخر قاس علي، وكلاهما مُسْتَمدّ من أن «ألبيرتين»، وفي هذه اللحظة كانت «ألبيرتين» - الداء الذي بي -، وقد تراخت في التسبّب بعذابي، تدعني - هي «ألبيرتين» الدواء - رقيق الحاشية كما هو شأن الناقة. ولكنّي كنت أفكّر بأنّها تزمع الرحيل عما قليل من «بالبيك» إلى «شيربور» ومن هناك إلى «تريستي». وسوف تعود عاداتها بالأمس إلى الظهور. وما كنت أبغيه قبل كلّ شيء إنّما الحؤول دون أن تستقل «ألبيرتين» المركب ومحاولة اصطحابها إلى باريس. صحيح أنها ربما استطاعت أكبر مما تفعل من «بالبيك»، ولكنّنا قد ننظر في الأمر في باريس، فربما أمكنني أن أسأل السيدة «دو غيرمانت» التأثير بصورة غير مباشرة على صديقة الآنسة «فانتوي» كي لا تمكث في «تريستي» وكي تحملها على القبول بمركز في مكان آخر، ربما لدى الأمير «دو...» الذي كنت التقيته في منزل السيدة «دو فيلباريسيس» ولدى السيدة «دو غيرمانت» نفسها. وربّما استطاع هذا الأخير، حتى لو أرادت «ألبيرتين» الذهاب إلى منزله لالتقاء صديقتها، ربما استطاع، وقد أخطرته السيدة «دو غيرمانت»، أن يحول دون لقائهما. أجل، كان بوسعي أن أقول في نفسي إن «ألبيرتين» واجدة في باريس، إن كانت بها تلك الميول، أشخاصاً كثيرين تشبعها وإيّاهم. ولكن لكلّ بادرة غيرة خصوصيتها وهي تحمل سمة الشخص الذي أثارها - والشخص هذه المرة صديقة الآنسة «فانتوي» -. لقد كانت صديقة الآنسة «فانتوي» هي التي ظلّت شغلي الشاغل الأكبر. إن الهوى الغامض الذي سبق أن فكّرت عبره بالنمسا لأنها البلد الذي جاءت منه «ألبيرتين» (إذ سبق أن كان عمّها مستشاراً للسفارة فيها) ولأنّ تفرّدها الجغرافي والعرق الذي يسكنها وأوابدها ومناظرها كان بوسعي أن أتأمّلها، وكأنما في أطلس جغرافي كأنّما في مجموعة مناظر، في ابتسامة

«ألبيرتين» وسلوكها، هذا الهوى الغامض كنت أحسّ به أيضاً، ولكن عبر انقلاب في العلامات، في نطاق الفظاعة. أجل، من هنا جاءت «ألبيرتين». وهنا كانت على يقين من أنّها واحدة في كلّ بيت إمّا صديقة الآنسة «فانتوي» أو أخريات غيرها. وعادات الطفولة تزمع العودة من جديد، وسيجري الاجتماع بعد ثلاثة شهور بداعي الميلاد ثم رأس السنة، والتاريخان حزينان بحدّ ذاتهما في نظري جرّاء الذكرى اللاواعية للغمّ الذي بعثاه في نفسي حينما يفصلاني بالأمس عن «جيلبيرت» على مدى عطلة رأس السنة. فسوف يتّفق لـ«ألبيرتين» مع صديقاتها هناك، في أعقاب حفلات العشاء الطويلة ومآدب سهرات الميلاد حينما يكون الكلّ جذلانين يزخرون نشاطاً، تلك الوقفات نفسها التي رأيتها تتّخذها مع «أندريه»، في حين كان وداد «ألبيرتين» تجاهها بريئاً، بل،من ذا يدري؟ ربّما تلك التي قرّبت أمامي الآنسة «فانتوي» تلاحقها صديقتها في «مونجوفان». وكنت الآن أعطي الآنسة «فانتوي»، فيما تدغدغها صديقتها قبل أن تهوي عليها، وجه «ألبيرتين» الملتهب، «ألبيرتين» التي سمعتها تطلق في هروبها ثم استسلامها ضحكتها الغريبة العميقة. فما عساها كانت، إن قورنت بالعذاب الذي أكابده، الغيرة التي أمكن أن أحسّ بها يوم التقى «سان لو» «ألبيرتين» بصحبتي في «دونسيير» وقامت هي بمضايقات وجّهتها إليه؟ وتلك التي انتابتني إذ عدت أفكّر بالمدرّب الأول المجهول الذي أمكن أن أدين له بالقبلات الأولى التي منحتني إياها في باريس يوم كنت أنتظر رسالة الآنسة «دو ستيرماريا»؟ تلك الغيرة التي سببها «سان لو»، أو شاب آخر، أيّ شاب ما كانت شيئاً يذكر. فلعلّه كان أمكن أن أخشى في هذه الحالة خصماً كنت حاولت التغلّب عليه. ولكنّ الخصم هنا لم يكن شبيهاً بي، وكان سلاحه مختلفاً ولا أستطيع قتاله على ذات الأرض وإعطاء «ألبيرتين» اللذّات نفسها ولا حتّى تصوّرها تصوّراً دقيقاً. ولعلّنا في كثير من فترات حياتنا نبادل كامل المستقبل بسلطان عديم الشأن في حدّ ذاته. لقد كنت تخلّيت فيما مضى عن مكاسب الحياة جميعاً للتعرّف على السيدة

«بلاتان» لأنّها كانت من صديقات السيدة «سوان». وكنت اليوم تحمّلت كلّ صنوف العذاب في سبيل أن لا تذهب «ألبيرتين» إلى «تريستي»، وسأتحمّل، إن بدا ذلك غير كاف، أخرى غيرها، وسأعزلها وأسجنها وآخذ منها القليل مما تملك من مال كي يحول العوز مادياً دون إتمامها الرحلة. وإنّ ما كان كحالي بالأمس حين أبغي الذهاب إلى «بالبيك»، يدفعني إلى الرحيل إنما هي الرغبة في كنيسة فارسيّة وعاصفة في الفجر، كذلك ما كان يمزّق فؤادي وأنا أفكّر بأن «ألبيرتين» ربما ذهبت إلى «تريستي» فإنّها ربما قضت فيها ليلة الميلاد برفقة صديقة الآنسة «فانتوي»: ذلك أنّ الخيال حينما يبدّل طبيعته وينقلب حساسيّة لا يتوافر له من جرّاء ذلك عدد أكبر من الصور المتواقتة. فلو قيل لي إنها غير موجودة في هذه الفترة في «شيربور» أو «تريستي» وإنّها لن تتمكّن من لقاء «ألبيرتين»، كم كنت بكيت عذوبة وسروراً! وكم كانت حياتي ومستقبلها تبدّلا! مع أني كنت أعلم تمام العلم أن تحديد موضع غيرتي كان جزافيّاً وأن بإمكان «ألبيرتين» إن كانت بها تلك الميول أن تشبعها مع أخريات. ولعلّ هاتيك الفتيات على أيّ حال، لو استطعن لقاءها في مكان آخر، لعلهن ما عذّبن فؤادي إلى هذا الحد فإنه من «تريستي»، من هذا العالم المجهول الذي كنت أحسّ أنّ الحياة فيه تروق «ألبيرتين» وفيه ذكرياتها وصداقاتها وغراميات طفولتها، كان ينبعث ذاك الجوّ العدائيّ الغامض كالجو الذي كان يتصاعد حتى غرفتي في «كومبريه» من قاعة الطعام حيث أسمع أمي تتحدّث وتضحك مع الغرباء في ضجيج شوكات الطعام، أمّي التي لن تأتي لتتمنّى لي ليلة سعيدة؛ وكالجوّ الذي سبق أن ملأ في نظر «سوان» البيوت التي كانت تروح «أوديت» تبحث فيها ليلاً عن ملذّات يصعب تصوّرها. ولم أعد أفكّر الآن في «تريستي» وكأنّما التفكير ببلد رائع حيث الجنس البشري غارق في فكره وساعات الغروب مذهبة وأجراس الكنائس حزينة، بل كأنّما التفكير بمدينة ملعونة وددت لو أحرقها في الحال وأمحوها من عالم الواقع. كانت تلك المدينة مغروسة في قلبي كأسلة دائمة. لقد كان

يروّعني أن أدع «ألبيرتين» ترحل عمّا قليل إلى «شيربور» و«تريستي»، بل حتى أن تلبث في «بالبيك». فقد كان يبدو لي الآن وقد أولاني الكشف عن علاقة صديقتي الحميمة بالآنسة «فانتوي» ما يشبه اليقين أن «ألبيرتين» كانت في سائر الأوقات التي لا تكون فيها بصحبتي (وكان ثمّة أيام بطولها لا أستطيع فيها لقاءها بسبب عمّتها) واقعة بين يدي بنات عمّ «بلوك» وربّما غيرهنّ. كانت فكرة إمكان لقائها بنات عمّ «بلوك» في هذا المساء عينه تثير جنوني. لذلك أجبتها بعدما قالت لي إنّها لن تفارقني على مدى بضعة أيّام: «ولكنما وددت الذهاب إلى باريس. أفلا تذهبين معي؟ أفلست تودّين المجيء للسكنى قليلاً وإيّانا في باريس؟» كان لا بدّ أن أحول دون بقائها وحدها مهما كلّف الثمن، بضعة أيّام على الأقل، وأن أحتفظ بها بالقرب منّي لأتيقّن من أنها لن تستطيع لقاء صديقة الآنسة «فانتوي». وربّما عنى ذلك في الحقيقة سكناها بمفردها إلى جانبي لأن والدتي استغلّت جولة تفتيشية يعتزم والدي القيام بها فاختطّت لنفسها بمثابة واجب عليها أن تنصاع لمشيئة جدّتي التي كانت ترغب إليها أن تمضي عدّة أيام إلى «كومبريه» لقضائها بالقرب من إحدى شقيقاتها. وما كانت والدتي تحبّ خالتها لأنّها لم تكن بالنسبة إلى جدّتي، وما أرقّها تجاهها، الشقيقة التي كان ينبغي أن تكون. وهكذا يتذكّر الأولاد، وقد أصبحوا كباراً، يتذكرون بحقد من كانوا سيئين إزاءهم. لكنّ والتي إذ أصبحت مثل جدتي، هذه التي لا تقوى على الحقد، فإن حياة والدتها كانت بالنسبة إليها بمثابة طفولة طاهرة بريئة تمضي لتستقي منها تلك الذكريات التي كانت عذوبتها أو مرارتها تضبط أفعالها مع هؤلاء وأولئك. ولعلّ خالتي كانت تستطيع تزويد أمي ببعض تفاصيل لا تقدّر بثمن، ولكنها ربما حصلت عليها الآن بصعوبة إذ إن خالتها مرضت مرضاً شديداً (مرض السرطان يقولون)، وكانت تلوم نفسها أن لم تذهب قبل ذلك لتؤانس والدي في سفره ولا تجد في ذلك سوى حجّة إضافيّة لتفعل ما كانت فعلت والدتها؛ ولمّا كانت تذهب في ذكرى وفاة والد جدّتي، والذي كان والداً في غاية السوء،

تحمل إلى قبره أزهاراً تعوّدت جدتي أن تحملها إليه، هكذا كانت والدتي تودّ بالقرب من القبر الذي يوشك أن ينفتح أن تحمل المحادثات الرقيقة التي لم تبادر خالتي إلى تقديمها لجدّتي. وفي أثناء إقامتها في «كومبريه» سوف تهتم والدتي ببعض الأعمال التي رغبت جدّتي على الدوام فيها، ولكن إن نُفّذت بإشراف ابنتها فقط. لذلك لم تكن بعد قد بوشر بها إذ لا تودّ أمّي بمغادرتها باريس قبل والدي أن تُشعره أكثر من اللازم بعبء حداد كان يشارك فيه ولكنما لا يمكن ان يغمّه بقدر ما يغمّها. وأجابتني «ألبيرتين» قائلة: «آه! ذلك غير ممكن في هذا الوقت. وعلى أيّ حال ما حاجتك إلى العودة إلى باريس بهذه السرعة بما أن هذه السيدة قد رحلت؟»

– «لأنني سأكون أكثر هدوءاً في مكان عرفتها فيه منّي في «بالبيك» التي لم ترها في يوم والتي أخذت أمقتها». أترى «ألبيرتين» أدركت فيما بعد أن هذه المرأة الأخرى لم تكن موجودة وأني لو وددت حقاً أن أموت في تلك الليلة فلأنها كشفت لي على نحو طائش أنّها كانت على علاقة بصديقة الآنسة «فانتوي»؟ ذلك محتمل، وثمّة فترات يبدو لي الأمر فيها مرجّحاً. على أنّي في جميع الأحوال اعتقدت في ذلك الصباح بوجود تلك المرأة. فقالت لي: «ولكنما يجدر بك أن تتزوج هذه السيدة يا صغيري، فسوف تسعد بذلك، وهي بدورها ستسعد بالتأكيد». فأجبتها بأن فكرة إمكان إسعاد تلك المرأة أوشكت بالفعل أن تقنعني. وفي الفترة الأخيرة عندما ورثت ميراثاً كبيراً يسمح لي بتوفير الكثير من الترف والمتع لزوجتي أوشكت أن أقبل بالتضحية بمن كنت أحبّ. وقلت، وقد أسكرني الامتنان الذي يبعثه في نفسي لطف «ألبيرتين» على هذا القرب الشديد من الألم الفظيع الذي سبق أن كانت سبباً فيه، ومثلما ربّما وعدت تلقائياً نادل المقهى الذي يسكب لك كأساً سادسة من مشروب ماء الحياة بمال وفير قلت لها إن زوجتي سوف تحوز سيّارة ويختاً، وإنّه لمن المؤسف من وجهة النظر هذه، وبما أن «ألبيرتين» تحبّ إلى هذا الحدّ ركوب السيارات واليخوت، أن لا تكون هي من أحب، وإني ربّما كنت الزوج المثالي لها،

ولكن سوف نرى وربّما أمكن أن نلتقي لقاءات ممتعة. ولكني على الرغم من كلّ شيء، ومثلما يمسك المرء حتى حالة السكر عن أن يصيح بالمارّة مخافة الضربات أمسكت عمّا لعلّني كنت اقترفت من حماقة في زمن «جيلبيرت» بأن أقول لها إنّها هي، «ألبيرتين»، من أحبّ. «ترين، لقد أوشكت أن أتزوجها. ولكني مع ذلك لم تحالفني الجرأة في أن أفعل فما وددت أن أحمل امرأة على العيش إلى جانب شخص مريض إلى هذا الحد ومصدر إزعاج إلى هذا الحد».

- «ولكنك مجنون أنت، فالكلّ يودّ العيش بالقرب منك، وهيّا انظر كيف يسعى الجميع إليك. إنّهم لا يتحدّثون إلّا عنك في منزل السيدة «فيردوران» وفي أرفع طبقات المجتمع، ذلك ما نقلوه إليّ. فهي إذاً لم تكن لطيفة معك، تلك السيدة، كيما توليك هذا الانطباع بالتشكيك في نفسك؟ ها أنا أرى ما هي، إنّها شرّيرة، وإني أمقتها. آه! لو كنت مكانها. . . »

- «لا، لا، إنّها لطيفة جداً، بل أكثر من لطيفة، أمّا بخصوص آل «فيردوران» والبقيّة الباقية فلست أبالي بهم. وانّي باستثناء التي أحبّها، والتي تخلّيت عنها على أيّة حال، لا أحرص إلّا على صغيرتي «ألبيرتين»، وليس سواها، على أن تلتقيني كثيراً - على الأقل في الأيام الأولى»، أضفت قولي كي لا أخيفها ويمكنني أن أطالبها بالكثير في هذه الأيام، «يستطيع أن يوفّر لي شيئاً من العزاء». ولم أشر إلا إشارة غامضة إلى إمكان الزواج فيما أقول إن الأمر لا يمكن تحقيقه لأن طباعنا قد لا تتوافق. وعلى الرغم منّي كنت أميل بإفراط، وأنا تلاحقني دوماً في غيرتي ذكرى علاقات «سان لو» بـ«راحيل حينما الربّ» و«سوان» بـ«أوديت»، إلى الاعتقاد بأني لمّا كنت أحبّ فما كان يمكن أن أُحَبّ وأن المصلحة وحدها كان يمكن أن تشدّ امرأة إليّ. كان من الجنون دونما شك أن أحكم على «ألبيرتين» تأسيساً على «أوديت» و«راحيل» على أنها لم تكن هي، بل أنا، فإنّ ما كان يمكن أن أوحي به من عواطف هو ما كانت

غيرتي تحملني على التقليل من شأنه. ومن هذا الحكم المغلوط ربّما نجمت دون شك مصائب كثيرة سوف تنزل بنا. «إذاً ترفضين دعوتي إلى باريس؟»

- «قد لا تودّ عمتي أن أذهب في هذه الفترة. ومن جانب آخر حتى لو أمكنني فيما بعد، أفلن يبدو الأمر مستغرباً أن أحلّ هكذا في بيتكم؟ فسوف يعلمون تماماً في باريس أنّي لست ابنة عمّك».

- «حسن، نقول إنّنا مخطوبان بعض الشيء، فأيّ همّ لذلك ما دمت تعلمين أن الأمر غير صحيح؟» كان جيد «ألبيرتين» الخارج بأكمله من قميصها قويّاً مذهّباً واضح المسام. وقبّلتها قبلة بمثل طهارتها لو أنني قبّلت أمّي لأهدّئ من غمّ طفولي كنت أظنّ حينذاك أنني لن يسعني اقتلاعه من فؤادي في يوم. وتركتني «ألبيرتين» لترتدي ثيابها. وكان تفانيها على أيّ حال قد أخذ مع ذاك يضعف، فمنذ قليل قالت إنّها لن تفارقني مقدار ثانية. (وكنت أحسّ تماماً أنّ تصميمها لن يدوم بما أني كنت أخشى، إن نحن مكثنا في «بالبيك»، أن تلتقي في هذا المساء نفسه، بنات عمّ «بلوك» بدوني). ولكنّها الآن قالت لي منذ قليل إنّها تبغي أن تقصد «مينفيل» وإنّها ستعود للقائي في العصر. فإنّها لم تنثن عائدة مساء البارحة ويمكن أن تكون ثمّة رسائل لها؛ ثمّ إن عمّتها يمكن أن تقلق. وأجبت قائلاً: «إن لم يكن الأمر إلّا لذاك فيمكننا أن نرسل خادم المصعد ليقول لعمّتك إنّك هنا ويجيئك برسائلك». وإذ كانت راغبة في أن تبدو لطيفة. ومغيظة لإلزامها رغماً عنها، فقد تغضن جبينها ثم قالت في الحال بلطف شديد: «وليكن»، وأرسلت عامل المصعد. وما كانت «ألبيرتين» فارقتني إلّا لحظة حتى جاء عامل المصعد يقرع قرعاً خفيفاً. ولم أكن أتوقّع أن يكون اتّسع له الوقت، أثناء ما كنت أتحدّث و«ألبيرتين»، للذهاب إلى «مينفيل» والعودة منها. لقد جاء يقول لي إن «ألبيرتين» سطرت كلمة لعمتها وإنها تستطيع المجيء إلى باريس في اليوم نفسه إن أردت. وقد أخطأت على أيّة حال بتكليفه المهمة جهاراً إذ كان المدير من ذاك، على الرغم من الساعة المبكّرة، على بيّنة

من الأمر وأقبل يسألني مذعوراً إن كنت مستاء من أيّ شيء وإن كنت أرحل حقاً وإن لم يكن بوسعي الانتظار بضعة أيام على الأقل، فإن الريح «خوّافة» اليوم بعض الشيء (يقصد مخيفة). وما كان بودّي أن أوضح له أنّي أريد أيّاً كان الثمن أن لا تكون «ألبيرتين» بعدُ في «بالبيك» ساعة تقوم بنات عمومة «بلوك» بنزهتهنّ ولاسيما في غياب «أندريه» التي كانت وحدها استطاعت أن تحميها، وأن «بالبيك» كانت كتلك الأماكن التي يصمّم مريض لا يتنفّس من بعد فيها ألا يقضي الليلة التالية في ربوعها ولو تجرّع الموت على الطريق. وكان عليّ من ناحية أخرى أن أقاوم توسّلات من ذات القبيل في الفندق أوّلاً حيث أصبحت عينا «ماري جينيست» و«سيليست ألباريه» بلون الدم. (كانت ماري تسمعك الزفرة المعجلة التي للسيل، فيما توصيها «سيليست»، وهي أبطأ حركة، بالهدوء. ولكن بعدما همست «ماري» بالأبيات الوحيدة التي كانت تعرفها: «في هذه الحياة الدنيا كلّ أزهار الليلك تموت»[1] لم تستطع «سيليست» أن تملك نفسها فسفحت دموعاً سخيّة على وجهها الذي بلون الليلك. على أنّي أظنّ أنّهما نسيتاني فور حلول المساء نفسه). ثمّ إنّي في القطار الصغير المحلي، وعلى الرغم من كلّ ما اتخذت من احتياطات كي لا يروني، صادفت السيد «دو كامبرمير» الذي شحب لونه لدى رؤيته حقائبي إذ كان يعتمد عليّ لما بعد الغد. وأثار حنقي إذ أراد أن يقنعني بأن نوبات الاختناق التي تصيبني ناجمة عن تغيّر الطقس وأن تشرين الأول (أكتوبر) سوف يكون ممتازاً بالنسبة إليها، وسألني إن كنت لا أستطيع في جميع الأحوال تأجيل سفري ثمانية أيام، والعبارة ربّما لم يثر غباؤها حنقي إلّا لأن ما يقترحه عليّ كان يؤلمني. وفيما كان يكلّمني في عربة القطار، كنت أخشى في كلّ محطّة أن يبرز أمامي، أشدّ هولاً من «هيريمبالد» أو «غيسكار»، السيد «دو كريسي» وهو يتوسّل أن توجّه إليه الدعوة، أو السيدة «فيردوران»، وهي

---

(١) من قصيدة للشاعر «سولي برودوم» (Sully Prudhomme) من القرن التاسع عشر.

بعد أبعث للرعب، في حرصها على دعوتي. ولكن الأمر لن يحدث إلّا بعد بضع ساعات. ولم أكن بعد بلغت هذا الحدّ. كان عليّ أن أواجه فحسب شكاوى المدير اليائسة. وصرفته إذ كنت أخشى أن ينتهي به الأمر إلى إيقاظ أمي وإن كان يتكلّم همساً. وبقيت وحدي في الغرفة، هذه الغرفة ذاتها المفرطة في ارتفاع سقفها والتي سبق أن كنت شديد التعاسة فيها حينما وصلت أوّل مرّة، حيث فكرت بحنان شديد بالآنسة «دو ستيرماريا»، وترقّبت مرور «ألبيرتين» وصديقاتها وكأنما لطيور مهاجرة توقّفت على الشاطئ، حيث امتلكتها بذاك القدر من اللامبالاة حينما بعثت عامل المصعد ليجيئني بها، حيث عرفتُ طيبة جدّتي ثم علمت أنّها ماتت. وهذه المصاريع التي كان ضوء الصباح يتساقط على حضيضها قد فتحتها أوّل مرّة لأشاهد سفوح مرتفعات البحر الأولى (هذه المصاريع التي كانت «ألبيرتين» تدعوني إلى إغلاقها كي لا يبصرونا في عناق). لقد كنت أعي وعياً أفضل تحوّلاتي الذاتيّة وذلك بمواجهتها بتماثل الأشياء. على أنّنا نتعوّدها كما نتعوّد الأشخاص، وحينما نتذكّر فجأة الدلالة المختلفة التي كانت لها ثم، بعدما فقدت أيّة دلالة، الأحداث المختلفة تمام الاختلاف عن أحداث اليوم التي كانت إطاراً لها، وتنوّع الأفعال التي جرت تحت ذات السقف وما بين ذات المكتبات المزجّجة فإن التغيّر داخل القلب والحياة الذي يقتضيه ذلك التنوّع إنّما يبدو وكأنّه بعدُ يتزايد جرّاء استمرار الإطار الذي لا يتغير فيما تعزّزه وحدة المكان. وقد خطر لي مرّتين أو ثلاثاً على مدة لحظة أن العالم الذي كانت فيه تلك الغرفة وتلك المكتبات والذي كانت فيه «ألبيرتين» شيئاً زهيداً جداً ربّما كان عالماً فكرياً هو الواقع الوحيد، وأنّ غمّي شيء من قبيل الذي توليه قراءة رواية والذي يستطيع مجنون فقط أن يجعل منه غمّاً مستمراً دائماً يمدّ جذوراً له في حياته، وأنّه ربّما كفّت حركة بسيطة تقوم بها إرادتي لبلوغ هذا العالم الحقيقي والدخول إليه يتجاوز عذابي كدولاب ورق تثقبه والإقلاع عن الاهتمام بما سبق أن فعلته «ألبيرتين» أكثر مما نهتمّ بالأعمال التي قامت

بها البطلة الخياليّة لإحدى الروايات بعدما نكون أنهينا قراءتها. وإنّ العشيقات اللواتي أحببتهنّ أكثر ما أحببت لم يطابقن في يوم على أيّ حال حبّي لهن. وكان ذاك الحبّ حقيقياً بما أني كنت أُنيط كلّ شيء بلقائهنّ والاحتفاظ بهنّ لي وحدي، وبما أني كنت أجهش في البكاء إن كنت انتظرتهنّ ذات مساء. ولكنّهن كنّ يمتلكن خاصيّة إيقاظ ذاك الحب والمضي به إلى الذروة أكثر مما كنّ صوّرنه. فحينما كنت أبصرهن، حينما كنت أسمعهن لم أكن أجد فيهنّ شيئاً يشبه حبّي ويمكن أن يفسّره. ومع ذلك كانت مسرّتي الوحيدة في لقائهن وقلقي الوحيد في انتظارهن. لكأنّما أضافت الطبيعة إليهنّ ميزة ثانوية لا صلة لها بهنّ إطلاقاً وأن لهذه الميزة، لهذه القدرة شبه الكهربائية تأثيراً عليّ في إثارة حبّي، يعني في توجيه أعمالي جميعها وفي التسبب بآلامي كلها. ولكنّ جمال هاتيك النساء أو ذكائهن أو طيبتهن كانت كلّها مختلفة تمام الاختلاف عن ذلك. لقد هزّتني صنوف عشقي كأنّما جرّاء تيّار كهربائي يحركك، وقد عشتها وأحسست بها: ولم أستطع قطّ أن أفلح في رؤيتها أو تصوّرها في فكري. بل تراني أميل إلى الاعتقاد بأننا في صنوف العشق هذه، (وأدع جانباً اللذة الجسديّة التي ترافقها عادة من جانب آخر ولكنّها لا تكفي لتشكيلها)، إنّما نتّجه خلف مظهر المرأة إلى تلك القوى اللامرئية التي تنضاف إليها وترافقها وكأنما إلى آلهة خفيّة. فهي التي يبدو عطفها ضرورياً لنا، وإنّما نبحث عن الاتصال بها دون أن نجد فيها متعة إيجابيّة. فالمرأة إنّما تصلنا في أثناء الموعد المضروب بتلك الآلهات وتكاد لا تفعل أكثر من ذلك. لقد وعدنا، وكأنّما تلك تَقادِم، بمجوهرات ورحلات، وتلفّظنا بعبارات تعني أنّنا نعشق حتى العبادة، وبعبارات تناقضها وتعني أنّنا لا نبالي. لقد استخدمنا كامل سلطاننا للحصول على موعد جديد على أن يُمنح دونما ضيق. أفلعلنا نتحمّل هذا القدر من المشقّة من أجل المرأة ذاتها لو لم تكن مُسْتَكملة بتلك القوى الخفيّة، في حين لا يسعنا أن نقول بعدما تكون ذهبت أيّة ثياب كانت ترتدي ونتبيّن أننا لم ننظر حتى إليها؟

لكَم الرؤية حاسّة مضلّلة! فإن جسداً إنسانيّاً، وإن يكُ معشوقاً شأن جسد «ألبيرتين»، إنّما يبدو لنا، على بضعة أمتار، على بضعة سنتيمترات، بعيداً عنّا. وكذلك حال النفس التي له. ولكن إن يتّفق أن يغيّر أمر ما على نحو عنيف موقع هذه النفس بالنسبة إلينا ويبدي لنا أنّها تحبّ أشخاصاً آخرين غيرنا، فإننا نشعر آنذاك من خفقات فؤادنا المخلّع أن المخلوق الحبيب كان لا على بضع خطوات منّا بل في داخلنا. في داخلنا، في مناطق سطحيّة بعض الشيء. ولكنّ هذه الكلمات: «تلك الصديقة إنّما هي الآنسة «فانتوي» كانت عبارة «افتح يا سمسم» التي لعلّني كنت عاجزاً عن أن أجدها بنفسي والتي أدخلت «ألبيرتين» في أعماق فؤادي الممزّق. أمّا الباب الذي أغلق دونها فلعلني كنت بحثت مئة عام دون أن أعرف كيف يمكن فتحه.

وكنت كففت عن سماع تلك الكلمات حيناً في أثناء ما كانت «ألبيرتين» بالقرب منّي منذ قليل. كدت أعتقد، وأنا أقبّلها مثلما كنت أقبّل أمّي في «كومبريه» لتهدئة قلق نفسي، ببراءة «ألبيرتين» أو أني ما كنت أفكّر تفكيراً متصلاً بالاكتشاف الذي سبق أن قمت به لفجورها. أمّا الآن وقد أصبحت وحدي فقد كانت الكلمات تدوّي مجدّداً كمثل تلك الأصوات الداخليّة في الأذن التي تسمعها ما إن يكفّ أحدهم عن التحدّث إليك. ولم يكن فجورها الآن موضع شكّ بالنسبة إليّ. وجعلني نور الشمس الذي قارب أن يطلع، جعلني أعي مجدّداً، بتغيير الأشياء من حولي، وكأنّما يغيّر مقدار لحظة مكاني بالنسبة إليها، وعياً أكثر قسوة بعد لعذابي، ولم أكن رأيت في يوم بداية صباح بهذا الجمال ولا بهذا القدر من العذاب. ولم أستطع، وأنا أفكّر بسائر المناظر التي لا تثير الاهتمام والتي يوشك أن يغمرها الضياء، ولعلّها ما كانت ملأتني البارحة بعدُ إلّا رغبة في زيارتها، لم أستطع أن أحبس زفرة حينما أقبلت بيضة الشمس الذهبيّة، في حركة تقدمة أُنجزت آليّاً وبدت لي كأنّها ترمز إلى الذبيحة الدامية التي أزمع أن أضحّي فيها بكلّ مسرّة، وذلك كلّ صباح وحتى آخر أيّامي، في احتفال

متجدّد يقام في كلّ فجر لحزني اليومي وجرحي النازف، وكأنّما قذفها تحطّم التوازن الذي قد يسبّبه آن التخثر يبدّل في الكثافة، تحوطها أسلاك شائكة من اللهب على نحو ما في اللوحات، فشقّت بوثبة واحدة الستارة التي كنت تحسّها منذ حين خلفها راعشة متأهّبة لولوج المسرح والانطلاق، وطمست تحت أفياض من النور أرجوانها الغامض المتحجّر. وسمعتني أبكي. إلّا أن الباب انفتح في تلك اللحظة خلافاً لأيّ توقّع ويد لي، والقلب منّي خافق، أنّي أبصر جدّتي أمامي وكأنّما في واحد من تلك الظهورات التي سبق أن وقعت لي، إنّما في أثناء النوم فقط، أفما كان كلّ ذلك إذاً إلّا محض حلم؟ لكنّي، وأسفي، مستيقظ تماماً. وقالت أمّي – فإنّها كانت هي –: «ترى أنّي أشبه جدّتك المسكينة»، قالت بلهجة وادعة كما لو تهدّئ من روعي، وهي تقرّ بذاك الشبه على أيّة حال بابتسامة جميلة تنمّ عن اعتزاز متواضع لم يعرف الغنج طريقاً إليه البتة. وإن شعرها المشعّث الذي لم تُخفي فيه الخصل المتشيّبة تنساب حول عينيها القلقتين ووجنتيها الذاويتين، ومبذل جدّتي نفسه الذي كانت ترتديه، إنّ ذلك كلّه حال على مدى ثانية دون أن أتعرّفها وجعلني أحار إن كنت نائماً أو كانت جدتي قد بعثت حيّة. كانت والدتي منذ فترة طويلة أكثر شبهاً بجدتي منها بالأمر الفتيّة الضحوك التي آنست طفولتي. ولكني ما فكّرت من بعد بالأمر. وإنّها لحالنا حينما ظللنا نقرأ فترة طويلة وما تبينّا في سهونا أن الوقت يمضي، وفجأة نرى الشمس من حولنا، وهي مدفوعة حتماً إلى المرور بالأطوار نفسها، تذكّر، حتى ليختلط عليك الأمر، بالشمس التي كانت البارحة في الساعة نفسها وتوقظ من حولها التناغمات نفسها وذات التوافقات التي تُعِدّ للمغيب. وقد بيّنت لي والدتي توهّمي وهي تبتسم إذ كان يلذّ لها أن تكون على مثل هذا الشبه بأمّها. وقالت لي والدتي: «لقد جئت لأنّه خيّل لي في نومي أني أسمع أحدهم يبكي» وقد أيقظني ذلك. ولكن كيف يتّفق أنّك لم تنم؟ وعيناك تملؤهما الدموع، فما الخبر؟» وأخذت رأسها بين ذراعي: «دونك يا أمّي، أخشى أن تظنّي أني شديد

التقلّب. فإني بادئ الأمر لم يكن حديثي البارحة إليك عن «ألبيرتين» لطيفاً جداً، فما قلته لك كان ظالماً». وقالت لي أمي: «ولكن أيّة أهمية لذلك؟» وإذ رأت الشمس طالعة ابتسمت ابتسامة حزينة وهي تفكّر بأمّها، وكي لا تفوتني ثمرة مشهد كانت جدّتي تأسف أن لا أتأمّله قط دلتني على النافذة. ولكنّي كنت أبصر خلف شاطئ «بالبيك» والبحر طلوع الشمس التي تدلّني عليها أمّي، وبحركات يائسة ما كانت تفوتها، غرفة «مونجوفان» حيث اتخذت «ألبيرتين»، مورّدة متكوّرة كقطّة سمينة ثائرة الأنف، مكان صديقة الآنسة «فانتوي» وهي تقول بقهقهات ضحكتها الشهوانيّة: «ويحك! إن رأونا فسوف يطيب الأمر أكثر. لا تحالفني الجرأة، أنا! في ان أبصق على هذا القرد العجوز؟» ذلك هو المشهد الذي كنت أراه خلف ذاك الذي يمتدّ في النافذة وما كان سوى حجاب حزين فوق الآخر يعلوه كأنّما انعكاس له. فقد كان يبدو هو الآخر بالفعل غير حقيقي تقريباً وكأنّما منظر مرسوم. لقد كان الحرج الصغير قبالتنا في نتوء جرف «بارفيل» وكنّا لعبنا فيه لعبة «التمرير»[1]، كان يحني في خطّ مائل حتى البحر تحت بريق الماء الذي كلّه مُذهب بعد لوحة خضرة أغصانه كما في الساعة التي كثيراً ما نهضنا فيها في آخر النهار، بعدما أكون مضيت إلى هناك لقيلولة مع «ألبيرتين»، ونحن نشهد الشمس تميل على الأفق. وفي فوضى ضباب الليل الذي لا يزال يتسحب مزقاً ورديّة وزرقاء على المياه التي تزدحم فيها بقايا من الفجر اللؤلئي كانت تمرّ مراكب تبتسم للنور المائل الذي يُذْهب شراها وطرف الصاري الأمامي كحالها حينما تعود في المساء: والمشهد خياليّ راجف مقفر ومحض استذكار للغروب لا يرتكز، شأنه في المساء، على تعاقب ساعات النهار التي تعوّدت أن أراها تسبقه، وهو سائب مدسوس وأقلّ تماسكاً من صورة «مونجوفان» المريعة التي ما كان يقوى على إلغائها أو

(١) لعبة يجلس فيها اللاعبون في دائرة يمرّرون حاجة من يد إلى يد وعلى من يجلس في وسط الدائرة أن يحزر إلى من صارت.

تغطيتها أو إخفائها - والصورة الشاعرية العقيمة للذكرى والحلم. وقالت لي أمي: «ولكنك لم تتناولها، ويحك، بسوء، فقد قلت لي إنّها تبعث لديك بعض الضيق وإنّك مسرور لتخلّيك عن فكرة تزوّجها. وما ذلك سبب للبكاء على نحو ما تفعل. فكّر أن أمّك ذاهبة اليوم وسوف يغمّها أن تفارق «ذئبها» الكبير وحاله هذه، ولاسيّما أنّه لا يتّسع لي الوقت، يا صغيري المسكين، لأواسيك. صحيح أن حاجاتي جُهّزت كلّها لكنما لا يكثر عليك الوقت في يوم سفر». ليس الأمر هذا. حينئذ قلت لأمي، وأنا أفكّر مليّاً في المستقبل وأزن تماماً مُرامي، وأدرك أنّه ما كان لمثل وداد «ألبيرتين» هذا لصديقة الآنسة «فانتوي» وعلى مدى كلّ هذه الفترة أن يكون بريئاً وأن «ألبيرتين» سبق أن دُرّبت وأنّها بمقدار ما تكشف عنه حركاتها جميعاً قد ولدت وبها استعداد للشذوذ الذي ما أكثر ما استشعرته عبر صنوف قلقي، ولا بدّ أنّها لم تكفّ عن الانصراف إليه في يوم (بل ربّما كانت تنصرف إليه في هذا الوقت مستغلّة فترة قصيرة ما كنت معها في أثنائها)، قلت لها وأنا أعلم الغمّ الذي أخلّفه في نفسها والذي لم تكشف لي عنه ولكنما يفضحه لديها مظهر الاهتمام الجدّي الذي تبديه حينما تقارن خطورة أن تغمّني أو تلحق بي الأذى، ذاك المظهر الذي اتخذتْه أول مرّة في «كومبريه» حينما سلّمتْ بقضاء الليلة بالقرب منّي، المظهر الذي كان يشبه في هذه اللحظة إلى حدّ مذهل مظهر جدّتي إذ تسمح لي بتناول الكونياك، قلت لأمي: «أعلم ما سأسببه لك من غمّ. بادئ الأمر، وبدلاً من البقاء هنا كما كنت تبغين، سوف أرحل في ذات الوقت الذي ترحلين فيه. ولكن ليس في الأمر شيء بعد. ليست أحوالي على ما يرام هنا وأفضل العودة. ولكن هيّا أصغي إليّ ولا تغتمّي كثيراً. هاك: لقد خُدعت وخدعتُك البارحة عن حسن نيّة، لقد فكّرت طوال الليل. لا بدّ لي حتماً، ولنقرّر ذلك في الحال، لأنّني أتبيّن الأمر تماماً الآن ولأنّني لن أبدّل من بعد ولن أطيق العيش دون ذلك، لا بدّ لي حتماً في أن أتزوّج «ألبيرتين».

* * *

المحتويات

القسم الأول

أول ظهور للرجال - النساء. هم من نسل الذين وفّرتهم نار السماء من سكّان سادوم ٥

القسم الثاني

الفصل الأول: السيد «دو شارلوس» في المجتمع - طبيب - وجه السيدة «دو فوغوبير» المميز - السيدة «دارباجون»، نافورة «هوبير روبير» ومرح الذوق الأكبر «فلاديمير» - السيدة «دامونكور»، السيدة «دو سيتري»، السيدة «دو سانت أوفيرت»، إلخ. - محادثة غريبة بين «سوان» والأمير «دو غيرمانت» - «ألبيرتين» على الهاتف - زيارات بانتظار ثاني وآخر إقامة لي في «بالبيك» - الوصول إلى «بالبيك» - مشاعر الغيرة تجاه «ألبيرتين» - تقلّبات القلب ٤١

الفصل الثاني: خبايا «ألبيرتين» - الفتيات اللواتي تشاهدهنّ في المرآة - السيدة المجهولة - عامل المصعد - السيدة «دو كامبرمير» - متع السيّد «نسيم برنار» - ترسيمة أولى في طباع «موريل» الغريبة - السيد «دو شارلوس» على العشاء في منزل آل «فيردوران» ٢٠٨

الفصل الثالث: أحزان السيد «دو شارلوس». - مبارزته الوهميّة. - محطات «عابر الأطلسي». - مرادي، وقد سئمت «ألبيرتين»، أن أقطع علاقتي بها ٤٣٤

الفصل الرابع: تحوّل مفاجئ باتّجاه «ألبيرتين» - أسى في الشروق- انطلاقي في الحال إلى باريس بصحبة «ألبيرتين» ٥٨٦

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

رواية «بحثاً عن الزمن المفقود» يروي فيها الكاتب مارسيل بروست صراعه مع الزمن بأسلوب مرهف الحس، يجعلك تعيش الماضي كأنه واقع، ولم يعتمد بروست على الأسلوب المعروف في الروايات، بل صنع لنفسه أسلوباً خاصاً به يقوم على الجمل الطويلة التي تبدو معقدة، والتفاصيل المكثفة، واستطاع بالفعل أن يثبت أن البساطة لا تصنع الجمال وحدها، وإنما التعقيد أيضاً قد يصنع الجمال. في هذه الرواية ينتبه الكاتب إلى أن الزمن ينفلت من بين يديه، وبدلاً من أن يتتبع هذا الزمن ويحاول اللحاق به أراد أن ينقضّ على الزمن باستحضار ذكريات الماضي وإحيائها حتى تصير هي الواقع. . . استطاع بروست أن يستحضر الماضي حتى يعيشه القارئ ويشعر بكل تفاصيله، فلا يمكن لقارئ هذه الرواية أن يمرّ سريعاً على المقاطع دون أن يشعر بما فيها من أحاسيس ومشاعر كأنه هو بطل هذه الرواية. . .

الغلاف : سكينة صلوان

ISBN 978-9922605852
9 789922 605852